

المجالس القرآنية

في تدبر السور والآيات

د. عبد الله القاسم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المجالس القرآنية في تدبر السور والآيات

د. عبد الله بن القاسم

دار الفقه

الرياض ١١٤٤٢ هـ . ص ٦٣٧٣
ت / ٤٠٩٢٠٠٠ فاكس / ٤٠٣٣١٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

③ دار القاسم للنشر والتوزيع
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاسم، عبد الملك محمد
المجالس القرآنية في تدبر السور الآيات/ عبد الملك محمد القاسم -
الرياض، ١٤٢٥هـ
٨٦٠ ص: ٢٤ سم
ردمك: ٤ - ٢٢١ - ٥٣ - ٩٦٦٠ - ٩٧٨
١. القرآن - السور والآيات
أ. العنوان
٢٢١.٢١ ديوي ١٤٣٥/٤٥١٢

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٤٥١٢
ردمك: ٤ - ٢٢١ - ٥٣ - ٩٦٦٠ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى: ١٤٣٥هـ - ٢٠١٣م

الصف والمراجعة والإخراج بدار القاسم

دار القاسم للنشر والتوزيع
المكتب الرئيس: هاتف: ٤٠٩٢٠٠٠ - فاكس: ٤٠٣٣١٥٠
فروع دار القاسم للنشر
الرياض: هاتف: ٤٤٥٢٠٤٥ - فاكس: ٤٤٥٢٠٤٥
جدة: هاتف: ٦٠٢٠٠٠٠ - فاكس: ٦٣٣٣١٩١
الدمام: هاتف: ٨٤٣١٠٠٠ - فاكس: ٨٤١٣٠١١

www.dar-alqassem.com
sales@dar-alqassem.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المجالس القرآنية
في تدبر السور والآيات
د. عبد الله القاسم

صاحب القرآن

* في الحديث عند الإمام أحمد، أن النبي ﷺ قال :
«يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْق ورتِّل كما كنت تُرتِّل في
الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها» .

ولا يوصف القارئ بأنه صاحب للقرآن إلا إذا كان
إلفه، وملازماً له ملازمة الصاحب لصاحبه، وكان على
خُلُق هذا الصاحب وهو القرآن، فالمرء على دين خليله،
فإذا كان دَيْدَنُهُ وَخُلُقُهُ القرآن؛ فهو صاحب القرآن،
وإلا فليس بصاحبه، ولولا ذلك لقال ﷺ: يقال لقارئ
القرآن: اقرأ.. .

* قال ابن القيم - رحمه الله - : صاحب القرآن
هو العالم به، العامل بما فيه، وإن لم يحفظه عن ظهر
قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل به فليس من
أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم .

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل كتابه وبيّن أحكامه، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، وبعد:

فقد منّ الله وأخرجت كتاباً في تفسير القرآن العظيم أسميته «**عقد الجمان في تفسير القرآن**» وكنت حين جمعه وتأليفه أجد فرائد وفوائد ونكاتاً ولطائف، في كتب التفسير المختلفة فأفرح بها وأسرُّ بقراءتها.

ورغبت أن أتم ما بدأت، وأكمل ما كتبت؛ ليتهاي قلب القارئ لسماع القرآن، وتنشرح نفسه لبيان بعض الآيات. فكان هذا الكتاب الذي جمعت فيه أقوال العلماء ليكون مدخلاً ومعلماً لكل سورة؛ وليتأمل القارئ والسماع أغراض السور وسبب نزولها، ودررها ونفائسها، وبيان بعض أحكامها، فتتشوق نفسه لمعرفة أسرار هذا الكتاب العظيم وعجائبه ولطائفه.

وكان همي منصرفاً إلى أن يكون هذا الكتاب بيد إمام المسجد يقرأ فيه على المصلين في شهر رمضان قبل صلاتي التراويح والقيام، خاصة ما سوف يتلوه عليهم في الصلاة. وبيد معلم القرآن وقارئه، ورب الأسرة وأهله، وصاحب المجالس ورفقائه، ليكون مدخلاً لتفسير القرآن العظيم وتدبر معانيه.

قال ابن تيمية - رحمه الله -: فمن تدبر القرآن، وتدبر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن تبين له المراد، وعرف الهدى والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج.

وقال ابن القيم - رحمه الله -: لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير، فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص ٢٩].

قال بعض العلماء: اشتغلنا بالتفسير فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا تصديقاً لهذه الآية: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥]

أسأل الله الجواد الكريم أن ينزل علينا من بركة هذا الكتاب العظيم ونوره ومحبه. وأن يجعلنا من أهل القرآن وخاصته، وأن يجعل أعمالنا صواباً خالصة لوجهه الكريم. وأن يغفر لنا ولوالدينا، ولجميع المسلمين.

د. عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

وقفات عامة

* تشدد الآيات على أمر التوحيد وتكرره؛ لأنه الأساس والقاعدة العظيمة للأديان السماوية، وقد ذكر الله - عز وجل - جملة من الأنبياء مع جلاله قدرهم وعظم منزلتهم، ثم قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]. وقال في حق نبينا محمد ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

* تناولت السور المكية التوحيد وإفراد العبادة، وترك ما يعبد من دون الله بتوسع ومحاجة، وإيضاح ومجادلة، وركزت السور المدنية على الأحكام والعبادات والشرائع المنظمة لحياة الناس.

* يغلب مجيء اسم الجلالة (الله) في مقام الأحكام، ومقام الإجلال والمهابة. وقد ورد اسم الجلالة (الله) في كل آية من سورة المجادلة.

* هناك مناسبة بين ورود الحروف المقطعة في أوائل السور وبين الحديث بعدها عن القرآن. قال ابن كثير - رحمه الله -: كل سورة تبتدئ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب.

وقال الزمخشري: كل سورة، افتتحت بالحروف، فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وتبيان إعجازه وعظمته، وتبيان عزة أهله ومن تمسك به.

والآيات في ذلك كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ١ - ٢] وقوله تعالى: ﴿يَس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [يس: ١ - ٢]، وقوله تعالى: ﴿حَم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [الدخان: ١ - ٢]، وقوله: ﴿الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى

لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو
 أَنْتِقَامٍ ﴿١﴾ [آل عمران: ١ - ٤] وقوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿٢﴾ بَلِ
 الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٣﴾﴾ [ص: ١ - ٣].

- وتقع الحروف المقطعة في تسع وعشرين سورة من سور القرآن، كلها
 ذكر فيها القرآن وعزة أهله وأنه حق لا ريب فيه. باستثناء ثلاث سور،
 وهي: مريم، والعنكبوت، والروم.

* يأتي قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ في الدعوة عامة، في مثل قوله
 تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١].

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٨].

- ويأتي قوله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في الشرائع والأحكام، في

مثل قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾

[البقرة: ٢٧٨].

* إذا وردت التكاليف الشرعية في القرآن فإنها ترد بصيغة الغائب لما فيها

من المشقة والتعب، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، وقوله

تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾.

- وفي غيرها تأتي مباشرة، فالشر ليس إليه، قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٥].

وفي قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] لم يذكر اسم

الجلاله - جل وعلا -.

* بدأ القرآن بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ . لوجوب تقدم معرفة الله - تعالى - على معرفة أحكام التكاليف والاستعانة به .

* قال ابن القيم: الهمزة أول المخارج، واللام في الوسط، والميم آخر الحروف. وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف ﴿الْم﴾ فهي مشتملة على بدء الخلق، ونهايته، ووسطه.

* و﴿الْم﴾ افتتحت بها ثلاثون سورة في كتاب الله - عز وجل - .

* أكثر القرآن نزل نهاراً، أما ما نزل بالليل فهو الأقل، ومن ذلك أواخر سورة آل عمران.

* الكثرة ليست مقياساً، فقد وردت في القرآن في مقام الذم في آيات

كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

* تأتي الآيات القرآنية بلفظ ﴿الْإِنْسَنِ﴾ في مقام الذم في أكثر من ست

عشر موضعاً منها قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَنِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢].

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦].

﴿قَتَلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧] وغيرها من الآيات.

* تراوحت معجزات الأنبياء بحسب ما برز في بني جنسه من علوم وغيرها، وفي هذا دلالة المعجزة وأنها من الله - تعالى -، فقد بلغ قوم عيسى في الطب ذروته فجاء عيسى بأمر الله يبرئ المرضى ويحيي الموتى، وجاء موسى بما كان في قومه من علوم السحر، فكانت المعجزة تلقف ما صنعوا، والعرب كانوا أهل فصاحة وبلاغة، فجاء محمد ﷺ بالقرآن العظيم المعجز، الذي تحداهم الله - عز وجل - أن يأتوا بمثله أو سورة أو آية.

* ذكر الله - عز وجل - قصة يوسف - عليه السلام - مرة واحدة، وأفرد لها سورة كاملة، وهي سورة (يوسف)، بينما وردت قصة موسى - عليه السلام - مفرقة في أكثر من عشرين موضعاً.

* قال ابن القيم - رحمه الله -: فإن كتاب الله - عز وجل - هو كلامه العظيم، وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته؛ فتارة يتجلى في جلاباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتارة يتجلى بصفات الجلال والكمال فيستنفذ حبه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرفه من صفات جماله وكماله.

* يأتي في سياق الآيات ذكر الأنبياء أنهم بشر، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ويتزوجون ويرزقون ذرية، وذلك دفعاً لتوهم البعض أن لهم من خصائص الألوهية شيء.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

* ورد اسم موسى - عليه السلام - في القرآن مائة وواحد وثلاثون مرة، وفي السور المدنية تأتي قصة موسى مع بني إسرائيل لحاجة الأمة إلى أخذ العبرة، وفي السورة المكية تساق قصته مع فرعون لحاجة أهل مكة لذلك.

* في القرآن بضع وستون مثلاً، لم يقل عز وجل ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٢] إلا في مثل سورة الحج.

* قال ابن كثير - رحمه الله -: ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ، ومن جهة المعنى. قال تعالى: ﴿الرَّكِتُ أَبْهَمَ أَهْلُ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

* قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢].

قال السعدي: من فوائد التدبر لكتاب الله أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين.

* قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

قال ابن عاشور: ووصف القرآن بالمبارك يعم نواحي الخير كلها، لأن البركة زيادة الخير فالقرآن كله خير من جهة بلاغة ألفاظه وحسنها، وسرعة حفظه، وسهولة تلاوته، وهو أيضاً لما اشتمل عليه من أفنان الكلام، والحكمة، والشرعية، واللطائف البلاغية... وبذلك اهتمت به أمم كثيرة في جميع الأزمان، وانتفع به من آمنوا به، وفريق ممن حرموا الإيمان، فكان وصفه بأنه مبارك وافياً على وصف كتاب موسى - عليه السلام - بأنه فرقان وضياء.

* جاء مأثوراً عن الحسن البصري: أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب، جمع علمها في الأربعة، وجمع علم الأربعة في القرآن، وجمع علم القرآن في المفصل، وجمع علم المفصل في أم القرآن، وجمع علم أم القرآن في هاتين الكلمتين الجامعتين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

✽ القرآن نور، ولكن لا يشاهد ذلك إلا من جمع بين أمرين: التدبر والتذكر: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

وقد جعل - سبحانه - التذكر بعد التدبر، لأنه لا يمكن أن يتعظ الإنسان بالشيء إلا إذا عرف معناه.

سورة الفاتحة ١

سورة الفاتحة سورة مكية، عظيمة القدر، جليلة المعنى، سميت بذلك لأنه - تعالى - افتتح بها القرآن الكريم؛ قيل: إنها أول سورة نزلت كاملة.

تشتمل هذه السورة العظيمة على مُجمل معاني القرآن في التوحيد، والأحكام، والجزاء، وطرق بني آدم، وغير ذلك؛ ولذلك سميت: «أم القرآن»، وسميت «أم الكتاب»، و«السبع المثاني»، و«سورة الحمد»، و«سورة الصلاة»، و«الواقية».

وهذه السورة وضعت في أول السور لأنها تنزل منها منزل ديباجة الخطبة أو الكتاب، مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن، وذلك شأن الديباجة من براعة الاستهلال. يرددها المسلم سبعة عشر مرة في الصلوات المفروضة، ويردد أكثر من ذلك بل أضعافه في السنن الرواتب وصلاة القيام والنوافل، ومع ذلك لا يمل سماعها ولا يستثقل تأملها، فهي نور تفتتح به الصلوات، فتسري برحمة من الله في نفسه ووجدانه متدبرا عظيمة وجلال وبهاء رب يعبده، وإله يوحد، وكريم يرجو عطاءه ونواله وفضله.

ولهذه السورة مميزات تتميز بها عن غيرها؛ منها أنها ركن في الصلوات التي هي أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين: فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب؛ قال ﷺ: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**» [رواه البخاري ومسلم].

ومنها أنها رقية: إذا قرئ بها على المريض شفي بإذن الله؛ لأن النبي ﷺ قال للذي قرأ على اللديغ، فبرئ: «وما يدريك أنها رقية..» [رواه البخاري].

ومن فضائل سورة الفاتحة ما روي في الحديث الصحيح، أنه ﷺ قال: «**لم ينزل في التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور ولا القرآن مثلها، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**».

وقد ورد في فضلها ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال الله - عز وجل -: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدني ما سأل، فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٢﴾ قال الله: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿٣﴾ قال: مجدني عبدي - وقال مرة: فوض إليَّ عبدي -، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٤﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدني ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٦﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدني ما سأل».

* قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ليست البسملة آية في بداية جميع السور، بل هي آية فاصلة بين كل سورتين، يستحب قراءتها إلا في سورة التوبة فيكره.

وقد ورد في سورة الفاتحة اسم الله رب العالمين ﴿اللَّهُ﴾، الذي لا يسمى به غيره؛ ولا يوجد من تسمى به لا قديماً ولا حديثاً.

والله: هو المألوه المعبود، - الذي تفرع إليه الخلائق، ويلجؤون إليه في الحوائج - وهو أصل الأسماء؛ وأكبر أسمائه - سبحانه - وأجمعها ولهذا تأتي الأسماء تابعة له.

﴿الرَّحْمَنُ﴾.

اسم دال على أنه - تعالى - ذو الرحمة الواسعة الشاملة التي وسعت كل شيء، وعمت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم، وعمت المؤمن والكافر؛ ولهذا جاء على وزن «فَعْلَان» الذي يدل على السعة.

و﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

اسمان من أسماء الله يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وأنه - تعالى - ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل

حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فله نصيب منها.

والرحمة التي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دل عليها السمع، والعقل؛ أما السمع فهو ما جاء في الكتاب والسنة من إثبات الرحمة لله - وهو كثير جداً -، وأما العقل: فكل ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله.

والرحمن والرحيم: اسمان كل منهما دال على صفة حقيقة لله على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وهكذا يقال في جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة. والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى، وهي اسم: (الله) و(الرب) و(الرحمن).

فاسم (الله) متضمن لصفات الألوهية، واسم (الرب) متضمن لصفات الربوبية، واسم (الرحمن) متضمن لصفات الإحسان والجود والبر، ومعاني أسمائه تدور على هذا.

* وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ .

هو الثناء على الله بصفات الكمال، وهو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم؛ ولا بد من قيد، وهو المحبة والتعظيم؛ لأن مجرد وصفه بالكمال بدون محبة ولا تعظيم: لا يسمى حمداً؛ وإنما يسمى مدحاً. والحمد: هو الثناء باللسان، أما الشكر فيكون باللسان والقلب والأعضاء، ولا يكون الشكر إلا مقابل نعمة، أما الحمد فيكون لكمال المحمود ولو في غير مقابلة نعمة، والله - تعالى - له الحمد والشكر، فكل حامد شاكر وليس كل شاكر حامداً.

قال ابن جرير: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا عليه، فكأنه قال: قولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ .

والسورة تبدأ بالاعتراف، والاعتراف فيه معنى عظيم، لأنه إقرار من العبد بتقصيره وفقره وحاجته، واعتراف لله - عز وجل - بالكمال والفضل والإحسان، وهو من أعظم ألوان العبادة.

مبنى الفاتحة على العبودية، فإن العبودية إما محبة، أو رجاء، أو خوف، و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ...﴾ محبة.

و﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾... رجاء.

و﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾... خوف.

وهذه هي أصول العبادة فرحم الله عبداً استشعرها، وأثرت في قلبه وحياته.

قال القرطبي: وقد وصف الله - تعالى - نفسه بعد قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بأنه: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لأنه لما كان في اتصافه بـ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ترهيب، قرنه بـ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لما تضمنه من الترغيب؛ ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنع.

* قال تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الرب: اسم من أسماء الله - تعالى -، ولا يقال في غيره إلا مضافاً، كقول: هذا الرجل رب المنزل، فهو المستحق للحمد وحده، وهو - سبحانه - المنشئ للخلق، القائم بأمورهم المربي لجميع خلقه بنعمه.

والعالمون: جمع العالم، وهو كل موجود سوى الله - تعالى - وقيل: العالم عبارة عما يعقل، وهو أربعة أمم: الإنس والجن، والملائكة والشياطين، وتربيته لخلقهم نوعان: عامة وخاصة: فالعامة هي خلقه للمخلوقين ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم وأرزاقهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا. والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم لهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه،

وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر.

وفي قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ المالك صفة لفعله - جل جلاله -، ويوم الدين، هو يوم القيامة، وهو - سبحانه - مالك يوم الدين والدنيا، لكن ظهور ملكوته وملكه وسلطانه إنما يكون في ذلك اليوم حيث موقف الجزاء والحساب، وفي قراءة المسلم لهذه الآية في كل ركعة من صلواته تذكير له باليوم الآخر، وحث له على الاستعداد بالعمل الصالح، والكف عن المعاصي والسيئات.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

قال أهل العلم: هذان الاسمان يفتحان - لمن عقل - أوسع أبواب المحبة لله، والرجاء فيه، وتنويع الاسمين - مع أنَّ المصدر واحد وهو الرحمة - دليل سعتها، وفي الحديث القدسي: «أنا عند ظنِّ عبدي بي».

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

قال ابن القيم: تضمَّنت هذه الآية إثبات المعاد. ثم جزاء العباد بأعمالهم - حسننها وسيئها - . ثم تفرَّد الرب - تعالى - بالحكم إذ ذاك الخلائق. ثم كون حكمه - تعالى - بالعدل.

* ولما حمد - تعالى - نفسه بما هو أهله، وذكر ربوبيته لخلقه، ورحمته العامة للبر والفاجر في الدنيا، ورحمته الخاصة بالمؤمنين، وتفرده بالحكم في ذلك الموقف العظيم، ذكر بعد ذلك وجوب عبادته وطاعته والاستغاثة والاستعانة به، فقال تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

أي: نخصك وحدك بالعبادة والطاعة، وأنه لا يعبد إلا الله، وهو أصل توحيد الألوهية وما بعث به الرسل. والعبادة: الطاعة مع التذلل والخضوع، وسمي العبد عبداً لذلته وانقياده؛ والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

ونخصك أيضاً بالاستعانة؛ والاستعانة: هي الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك. والمعنى: لا نعبد غيرك ولا نستعينه.

قال ابن القيم: قدم العبادة على الاستعانة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن العبادة قسم الرب وحقه، والاستعانة مراد العبد، ومن الطبيعي أن يقدم العبد ما يستوجب رضا الرب ويستدعي إجابته قبل أن يطلب منه شيئاً، وهو هنا التذلل لله والخضوع بين يديه بالعبادة، فكان القيام بالعبادة مظنة استجابة طلب الاستعانة.

وذكر - سبحانه - الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله - تعالى - فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر واجتناب النواهي؛ لأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، فلا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله - عز وجل -، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول. وقدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية، واهتماماً بتقديم حقه - تعالى - على حق عبده، فالأول تبرؤاً من الشرك، والثاني تبرؤاً من الحول والقوة والتفويض إلى الله - عز وجل -.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيت في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وقال ابن القيم: كثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء.

* قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

أي: دلنا وأرشدنا ووفقنا للصراط المستقيم الذي لا إغوجاج فيه ولا انحراف وهو الإسلام، وثبتنا عليه حتى نلقاك، وهذا الدعاء من المؤمنين

مع كونهم على الهداية، بمعنى التثبيت وبمعنى طلب مزيد الهداية. والصراط المستقيم: هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، الموصل إلى جنته ورضوانه، وهو الإسلام، وسمي صراطاً مستقيماً لأنه طريق واسع سهل، يوصل إلى المقصود، وهذا مثل دين الإسلام في سائر الأديان، فإنه يوصل إلى الله، وإلى داره، وجواره، مع سهولته وسعته.

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: وأسباب الخروج عن الصراط المستقيم: إما الجهل أو العناد، والذين سبب خروجهم العناد هم المغضوب عليه - وعلى رأسهم اليهود -؛ والآخرين الذين سبب خروجهم الجهل كل من لا يعلم الحق - وعلى رأسهم النصارى -، أما بعد البعثة فقد علموا الحق وخالفوه؛ فصاروا هم واليهود سواء، كلهم مغضوب عليهم.

ومن أدب الدعاء أن يكون ذلك بعد الثناء، وفي قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٣) ثناء، وهذا مناسب أن يكون قبل الدعاء ﴿أَهْدِنَا﴾.

والهداية على نوعين:

الأولى: هداية توفيق؛ وهداية التوفيق خاصة بالله - تعالى -، ومنها

قوله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

[الفصل: ٥٦].

والهداية الثانية: هداية الطريق؛ وهي هداية دلالة وإرشاد، وهي للأنبياء

وأتباعهم من العلماء والدعاة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤) [الشورى: ٥٢].

قال الطحاوي: أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٥) فإنه إذا هداه الصراط أعانه على طاعته، وترك

معصيته، فلم يصبه شيء لا في الدنيا ولا في الآخرة.

✽ قال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ .

طريق من أكرمهم ووفقتهم، ومننت عليهم بالهداية والتوفيق والإيمان والاستقامة، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهؤلاء هم القدوة لنا في حياتنا، وأضاف - سبحانه - الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه.

- وفي الآية إشارة وبشارة للمهتدي أنه ليس وحده على هذا الطريق، وأنه وإن كان غريباً بين العابثين من البشر، فإن طريقه مليء بالصالحين الذين حازوا أعلى نعمة، فليأنس بذلك.

- وفي الآية توسل إلى الله بنعمه وإحسانه، إلى من أنعم عليه بالهداية؛ أي: قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيباً من هذه النعمة، واجعلني واحداً من هؤلاء المنعم عليهم، فهو توسل إلى الله بإحسانه.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه؛ بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر فإن الله يرزقه، فإذا انقطع رزقه مات، والموت لا بد منه، فإذا كان من أهل الهدى به كان سعيداً قبل الموت وبعده.

فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الغاية، و﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الوسيلة، فلن نستطيع أن نعبد الله إلا بالله، فالبداية من الله، والنهاية إلى الله، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

في لفظه: ﴿أَنْعَمْتَ﴾ فوائد: أن الصراط المستقيم نعمة من أعظم النعم. وأن الهداية لا يعمل العبد، بل نعمة من غيره أسديت إليه. وأن المنعم بالهداية هو الله وحده وإليه لا إلى غيره تنسب.

وفي إسناد ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إلى الله، والغضب لم يسم فاعله على وجه التأدب.

* ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

المغضوب عليهم هم اليهود، وهم الذين علموا الحق فتركوه، وحادوا عنه على علم؛ فاستحقوا غضب الله. والضالين هم النصارى، وهم الذين حادوا عن الحق جهلاً فكانوا على ضلال مبين.

قال ابن القيم: في بيان تقديم المغضوب عليهم (اليهود) قبل الضالين (النصارى) عدة أوجه:

أولاهها: أنهم متقدمون عليهم بالزمان.

وثانيها: أن اليهود جيران الرسول ﷺ في المدينة، والنصارى ديارهم نائية.

وثالثها: أن اليهود أغلظ كفراً من النصارى، وقيل: لأن أمرهم أخطر وذنبهم أكبر، فإن الإنسان إذا كان ضلاله بسبب الجهل فإنه يرتفع بالعلم، وأما إذا كان هذا الضلال بسبب الهوى فإنه لا يكاد ينزع عن ضلاله.

* وهذه السورة العظيمة على إيجازها احتوت على أنواع التوحيد الثلاثة:

توحيد الربوبية: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وتوحيد الإلهية، وهو إفراد الله بالعبادة وحده، من قوله: ﴿إِيَّاكَ

نَعْبُدُ﴾.

وتوحيد الأسماء والصفات، وقد دل عليه لفظ ﴿الْحَمْدُ﴾.

وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وإثبات الجزاء والبعث في قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

وتضمنت إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له في قوله: ﴿إِيَّاكَ

نَعْبُدُ﴾.

وأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظها منه على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته - سبحانه وتعالى - .

وفي السورة أدعية شاملة نافعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه ؛ دعاء الفاتحة .

وقد قدم - تعالى - الحمد والثناء على الدعاء، لأن تلك السنة في الدعاء، وشأن الطلب أن يأتي بعد المدح وذلك أقرب للإجابة .

قال ابن عاشور: ويؤخذ من سورة الفاتحة إيجاز المقدمة مع بلاغتها؛ لئلا تمل نفوس السامعين بطول انتظار المقصود، وهذا سنة للخطباء ألا يطيلوا المقدمة فينسبوا إلى العي، فإنه بمقدار ما تطال المقدمة يقصر الغرض، ومن هذا يظهر وجه وضعها قبل السور الطوال مع أنها سورة قصيرة .

وكان السلف - رحمهم الله - يتدبرون سورة الفاتحة وهم يقرأونها، وما فيها من التوحيد، وذل العبودية، ونعمة الله عليهم بالهداية إلى هذا الدين، وغير ذلك من التدبر والتأثر .

قال مزاحم بن زفر: صلى بنا سفيان الثوري المغرب فقرأ حتى بلغ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بكى حتى انقطعت قراءته، ثم عاد فقرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ .

وقال محمد بن عوف الحمصي: رأيت أحمد بن أبي الحواري قام يصلي العشاء، فاستفتح بـ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فطفت الحائط كله، ثم رجعت، فإذا هو لا يجاوزها ثم نمت، ومرت في السحر، وهو يقرأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فلم يزل يرددّها إلى الصبح .
هذه هي سورة الفاتحة: أولها تحميد، وأوسطها توحيد، وآخرها دعاء .

سورة البقرة ٢

سورة البقرة هي سنام القرآن، وأطول سورة على الإطلاق، وأكثر سورة أحكاماً، وأجمعها لقواعد الدين أصوله وفروعه، وهي من السور المدنية التي تعنى بجانب التشريع، شأنها كشأن سائر السور المدنية، التي تعالج القواعد التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية. وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على معظم الأحكام: في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، وفي أمور الزواج والطلاق، والعدة، وغيرها من الأحكام.

قيل في سورة البقرة: ألف أمر، وألف نهى، وفيها ألف خبر، وفيها خمسمائة حكم، وخمسة عشر مثلاً.

سميت السورة الكريمة «سورة البقرة» ويقال لها: «فسطاط القرآن» لعظمها وبهاؤها وما تضمنت من الأحكام والمواعظ، ولما في قصة البقرة التي ظهرت في زمن موسى الكليم من المعجزات والآيات الباهرات؛ حيث قتل شخص من بني إسرائيل ولم يعرفوا قاتله، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل، فأوحى الله - تعالى - إليه أن يأمرهم بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل، وتكون برهاناً على قدرة الله - جل وعلا - في إحياء الخلق بعد الموت.

وهذه السورة مترامية أطرافها، وأساليبيها ذات أفنان، قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقاً لتلقيها فسطاط القرآن؛ فلا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسبان.

وقد حيكت بنسج المناسبات، والاعتبارات البلاغية من لُحمة مُحْكَمَةٍ في نظم الكلام، وسُدَى متين من فصاحة الكلمات.

ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه، وعلو هديه، وأصول تطهير النفوس. وقسم يبين شرائع هذه الدين لأتباعه، وإصلاح مجتمعهم.

✽ سورة البقرة أول السور الطوال وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، والتوبة. لأنهم كانوا يعدون الأنفال وبراءة سورة واحدة.

✽ وقد ورد في فضل سورة البقرة أحاديث، منها ما رواه مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة». وقال ﷺ: «اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة» يعني السحرة.

في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لكل شيء سناماً وسنام القرآن سورة البقرة، وإن الشيطان إذا سمع سورة البقرة تقرأ، خرج من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة». [السلسلة الصحيحة].

وعن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران؛ فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما..» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم.. هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة..» [رواه مسلم].

وفي سورة البقرة آية الكرسي التي قال فيها النبي ﷺ: «من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت» [رواه النسائي].

وروي أن ابن عباس - رضي الله عنهما - أقام للناس في الحج في بعض السنين، فخطب بهم في عرفات خطبة، وفسر فيها سورة البقرة - وفي

رواية سورة النور - ، قال من سمعه : فسر ذلك تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا .

وقال أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن الرجل : إذا حفظ سورة البقرة ، كان سيداً عظيماً ، مقدماً إماماً .

وذكر أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عندما حفظ سورة البقرة نحر جزوراً فرحاً وحمداً لله على فضله .

✽ قال - تعالى - في أول السورة :

﴿ اَلَمْ نَكُنْ مِنْ قَبْلِكَ مَدِينًا ۚ ﴾ .

هذه الحروف وغيرها من الحروف المقطعة في أوائل السور ، الله أعلم بمراده منها ، وتصديرها بهذه الحروف الهجائية يجذب أنظار المعرضين عن هذا القرآن ، إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة ألفاظ غير مألوفة في تخاطبهم ، فينتبهوا إلى ما يلقي إليهم من آيات بينات .

وفي هذه الحروف وأمثالها تنبيه على إعجاز القرآن ، فإن هذا الكتاب منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ، ومركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها وهم أفصح الناس ؛ فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن ، وأنه من عند الله وليس من عند محمد

ﷺ .

✽ قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۖ ﴾ الَّذِينَ

يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۖ ﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۖ ﴾ [البقرة : ١ - ٤] .

قال القرطبي : الإيمان بالغيب : حظ القلب . وإقام الصلاة : حظ البدن .

ومما رزقناهم ينفقون ، حظ المال .

✽ قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۖ ﴾ .

ذكر ابن جزي في تفسيره، أنه - تعالى - قال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولم يقل: لا فيه ريب، كقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصفات: ٤٧] لأنه أراد نفي الريب عنه دون نفيه عن غيره، بخلاف: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ فإنه أراد نفي الغول عن خمر الآخرة مع الإشعار بوجوده في غيرها التي هي خمر الدنيا.

* وفي السورة بشارات للمؤمنين وإدنائهم، وفضح للمنافقين وهتك أستارهم، وزلزلة للكافرين وإبانة عن أحوالهم. وقد بدأ - تعالى - بأهل الإيمان، وصفات أهل التقوى والإحسان، فقال:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

النفقة تشمل النفقة من المال، والنفقة من العلم.

قال معاذ في العلم: تعلمه لمن لا يعلمه صدقة.

وقال أبو الدرداء: ما تصدق رجل بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها

جماعة، فيتفرقون وقد نفعهم الله بها.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾.

أي: يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها، وخشوعها وآدابها،

ولم يقل: يفعلون الصلاة أو يأتون بالصلاة؛ لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة.

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

واليقين أعلى درجات العلم، وهو الذي لا يمكن أن يدخله شك

بوجه.

* قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

قال السعدي - رحمه الله - : أتى بـ ﴿عَلَى﴾ في هذا الموضع، الدالة

على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ ﴿فِي﴾ كما في قوله: ﴿وَأَنَا أَوْ

إِيَّاكُمْ لَعَلِّي هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤] لأن صاحب الهدى

مستعل بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر.

* ثم ثنى بذكر حال الكفار، فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .

أي: إن الذين جحدوا ما أنزل إليك من ربك استكباراً وطغياناً، وصار الكفر وصفاً لهم لازماً، لا يردعهم عنه رادع. وقد ذكر العلماء أن الكفر على أربعة أنحاء: كفر الإنكار هو أن لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به وكفر به، وكفر الجحود هو أن يعرف الله بقلبه ولا يعترف بلسانه ككفر إبليس وكفر اليهود، وكفر العناد هو أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به ككفر أبي طالب، وأما كفر النفاق فهو أن يقرّ باللسان ولا يعتقد بالقلب.

* قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٦﴾﴾ .

أي: يتساوى عند هؤلاء الكفار، أَعَذَرْتَهُمْ - يا محمد - من عذاب الله وخوفتهم منه، أم لم تحذرهم لإصرارهم على باطلهم وتماديهم في ضلالهم.

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: والإنسان إذا كان لا يشعر بالخوف عند الموعظة، ولا بالإقبال على الله - تعالى - فإن فيه شبهاً من الكفار الذين لا يتعظون بالمواعظ، ولا يؤمنون عند الدعوة إلى الله.

* قال تعالى: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٧].

قال ابن عاشور: وفي تقديم السمع على البصر في موقعه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر، فإن التقديم مؤذن بأهمية المقدم، وذلك لأن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع.

* لما ذكر - تعالى - في أول السورة صفات المؤمنين الخُلص، وأعقبها بذكر صفات الكافرين الخُلص، ذكر هنا الصنف الثالث وهم - المنافقون - الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وأطنب بذكرهم في ثلاث عشرة آية لينبه إلى عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، ثم عقب ذلك بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان، وتوضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق، وما يؤول إليه حالهم من الهلاك والدمار.

وفي قوله - تعالى - عن المنافقين في أوائل البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] كرر حرف الجر (الباء) مع العطف، وهذا لا يكون إلا للتأكيد، وهذه الآية حكاية كلام المنافقين، وهم أكدوا كلامهم نفياً للريبة وإبعاداً للتهمة؛ فنفى الله الإيمان عنهم بأوكد الألفاظ، فقال: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

* ثم شرع - تعالى - في بيان قبائح المنافقين، وأحوالهم الشنيعة، وعدم استماعهم للدعوة والنصيحة، فقال:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

وإذا قال لهم بعض المؤمنين نصحاً وتنبيهاً لهم: لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن والكفر، والصد عن سبيل الله، وإفشاء أسرار المؤمنين، وموالات الكافرين؛ لأن من عصى الله فقد أفسد في الأرض. قالوا كذباً وجداً: ليس شأننا الإفساد أبداً، وإنما نحن أناس مصلحون، نسعى للخير والصالح فلا يصح مخاطبتنا بذلك، وفيه حصر للإصلاح في جانبهم، وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح، فقد صوروا الفساد بصورة الصلاح، لما في قلوبهم من المرض، قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية، فهذا أقرب للسلامة وأرجى لرجوعه، ولذلك رد الله عليهم أبلغ رد بتصدير الجملة بحرف التأكيد ﴿أَلَا﴾ المنبهة و﴿إِنَّهُمْ﴾ المقررة، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل، والاستدراك بعدم الشعور، فقال:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ١﴾
تُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا تُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٢﴾ .

* وقال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمُنْ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۖ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ٣﴾ .

الفرق بين قوله - تعالى - في الآية الثالثة عشر ﴿وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ٣﴾ وبين قوله - تعالى - في الآية الثانية عشر ﴿وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ٢﴾ .

أن الإفساد في الأرض أمر حسي يدركه الإنسان بإحساسه وشعوره، وأما السفه فأمر معنوي يدرك بآثاره، ولا يحس به نفسه .

* ثم ذكر الله حال المنافقين، ووصفهم وما هم فيه، فقال - تعالى - :
﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، المريض يجد طعم الطعام على خلاف ما هو عليه، فيرى الحامض حلواً، والحلو مرّاً، وكذلك هؤلاء المنافقون يرون الحق باطلاً، والباطل حقاً .

* بعد أن حضت الآيات في ابتدائها أهل الإيمان لأنهم الأكثر انتفاعاً بالقرآن وبهديه . ولما كان أشد الأصناف عناداً وحقداً، صنفاً من المشركين الصرحاء والمنافقين، لفَّ الفريقان لفّاً واحداً، فقورعوا بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة .

ثم خص - عز وجل - بالاطناب صنف أهل النفاق؛ تشويهاً لنفاقهم، وإعلاناً لدخائلهم، ورد مطاعنهم .

قال تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَّا يَبْصُرُونَ ٤﴾ .

قال : ﴿بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل : «بنارهم» ؛ لأن النار فيها الإحراق والإشراق، فذهب بما فيه الإضاءة والإشراق، وأبقى عليهم ما فيه الأذى والإحراق، وكذلك حال المنافقين! ذهب نور إيمانهم بالنفاق، وبقي في قلوبهم حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلي في قلوبهم .

ثم قال: ﴿بُنُورِهِمْ﴾ ولم يقل بضوئهم؛ لأنه لو قال ذلك لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء كان ذهابه ذهاباً بالشيء وزيادة. وتأمل كيف قال ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فوحد النور، ثم قال: ﴿وَتَرَكْنَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ فجمعها، فإن الحق واحد هو صراط الله المستقيم، الذي لا صراط يوصل سواه، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة ومتشعبة، ولهذا أفرد - سبحانه - الحق وجمع الباطل في آيات عديدة مثل قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١١] وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فجمع سبل الباطل، ووحد سبيل الحق.

﴿صُمٌّ﴾ أي عن سماع الخير.

﴿بُكْمٌ﴾ أي: عن النطق به.

﴿عُمَىٰ﴾ عن رؤية الحق.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه فلا يرجعون إليه. بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال فإنه لا يعقل وهو أقرب رجوعاً منهم.

هذا حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه فهو لا يرجع إليه، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

* وذكر الله - عز وجل - مثلين الأول، قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكْنَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧ - ١٨].

والمثل الثاني قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْٓ أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ تَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٩ - ٢٠].

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: الأمثال المضروبة في القرآن قسمان:

قسم يصرح فيه بتسميته مثلاً، كقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧].

وقسم لا يصرح فيه باسم المثل، كقوله تعالى: ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران: ١١]، في ثلاثة مواضع من القرآن، وكقوله يوسف: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَاءُ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٩].

قال الشنقيطي: في القرآن بضعة وأربعون مثلاً، والله - تعالى - بحكمته - يجعل ضرب المثل سبباً لهداية قوم فهموه، وسبباً لضلال لقوم لم يفهموا حكمته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].
* في قوله تعالى: ﴿ظُلُمَتْ وَّرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩].

جمع الظلمات، وأفرد الرعد؛ والبرق لأن المقتضى للرعد والبرق واحد، وهو: السحاب. والمقتضى للظلمة متعدد وهو: الليل والسحاب والمطر؛ فجمع لذلك.

* قال ابن القيم: ذكر - سبحانه - رسوله بالعبودية في أشرف مقاماته، فقال في التحدي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي مقام الإسرائاء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١].

وفي مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

فأشرف صفات العبد العبودية، وأحب أسمائه إلى الله اسم العبودية.

* قال تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ تَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

قال ابن جرير - رحمه الله - : إنما وصف الله نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وخطوته، وأخبرهم أنه بهم محيط وأنه على كل شيء قدير.

* ثم دعا - عز وجل - عباده إلى طاعته وتوحيده، فقال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ آعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

ليس في القرآن غيره: ليس لأن العبادة في الآية التوحيد، والتوحيد أول ما يلزم العبد من المعارف، فكان هذا أول خطاب خاطب الله به الناس في القرآن فخاطبهم بما لزمهم أولاً، ثم ذكر سائر المعارف وبنى عليها العبادات فيما بعدها من السور والآيات.

* بعد أن ذكر - تعالى - أدلة التوحيد وأنه لا إله إلا الله، ذكر الحجة على النبوة، وأقام البرهان على إعجاز القرآن، ورد على حجج المشركين بدليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ وصحة ما جاء به، قال تعالى:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٢) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٣) .

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ .

أي: فإن لم تقدرُوا على الإتيان بمثل سورة من سوره، وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقره والبلغاء.

﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ .

أي: ولن تقدرُوا في المستقبل لا محالة أيضاً على الإتيان بمثله، والجملة اعتراضية للإشارة إلى عجز البشر في الحاضر والمستقبل.

قال ابن كثير: تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم ومع هذا عجزوا، و﴿وَلَنْ﴾ لنفي التأييد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذاك أبداً، وهذه أيضاً معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً، غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يُعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الدهرين.

وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا، ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونا ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ ومن حيث المعنى، والقرآن جميعه فصيح في غاية نهايات الفصاحة والبيان عند من يعرف كلام العرب، ويفهم تصاريف الكلام. وفي القرآن أوجه كثيرة تثبت صدق النبي ﷺ لكن لم يقصد بها التحدي للعرب، وذلك مثل الإخبار بالأمور الغيبية وأوجه التشريع الحكيمة، ودلائل الأعجاز العلمي التي تثبت أن القرآن هو الحق.

* ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢).

[البقرة: ٢٢].

هذه الآية من المحكم الذي اتفقت عليه الشرائع، واجتمعت عليه الكتب، وهو عمود الخشوع، وعليه مدار الذل والخضوع.

* قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -: فيه استحباب بشارة المؤمنين وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها وثمراتها، فإنها بذلك تخف وتسهل، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان توفيقه للإيمان والعمل الصالح،

فذلك أول البشارة وأصلها، ومن بعدها البشرى عند الموت، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥].

أكمل محاسن الجنات جريان المياه في خلالها وذلك شيء اجتمع البشر كلهم على أنه من أنفس المناظر.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا﴾.

أي: بأن لهم في الآخرة حدائق وبساتين، ذات أشجار ومساكن تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنة من الماء واللبن، والعسل والخمر. وكلما أعطوا عطاء ورزقوا رزقاً من ثمار الجنة. قالوا: هذا مثل الطعام الذي قدم إلينا قبل هذا المرة.

قال المفسرون: إن أهل الجنة يرزقون من ثمارها، تأتيهم به الملائكة، فإذا قدم لهم مرة ثانية، قالوا: هذا الذي أتيتمونا به من قبل، فتقول الملائكة: كل يا عبد الله، فاللون واحد والطعم مختلف، قال تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا﴾.

أي: رزقاً متشابهاً في الشكل والمنظر والاسم، لا في الطعم والمخبر، وقيل يشبه بعضه بعضاً في الحسن واللذة والفكاهة. قال ابن عباس: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء.

* لما ذكر - تعالى - مسكنهم وأقواتهم من الطعام والشراب، وفواكههم، ذكر أزواجهم في الجنان، فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه وأوضحه. فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾.

أي: ولهم في الجنة زوجات من الحور العين، مطهرات من الأقدار

والأدناس الحسية كالبول والحيض ، والمعنوية كالكذب وسوء الخلق والفحش والحسد والغيرة ، ولم يخصص - سبحانه - نوع طهارة معين ، ليشمل جميع أنواع التطهير ، فهن مطهرات الأخلاق ، مطهرات الخلق ، مطهرات اللسان ، مطهرات الأبصار ، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكن يوم القيامة أجمل من الحور العين .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ ﴾ .
إشعار بأن العفة ثمنها عظيم ومآلها كبير .

* قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾

[البقرة : ٣٠] .

بقاء الأمة بلا إمام ذنب يأثمون به لكثرة المفاسد .

قال القرطبي : هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع ويطاع لتجتمع به الكلمة وتنفذ به أحكام الخليفة ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة .

* ثم ذكر - تعالى - قصة آدم في الجنة ، فقال :

﴿ وَقُلْنَا يَتَّعِدُمْ أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ۖ ﴾ .

أي : كلا من ثمار الجنة أكلاً رغداً واسعاً كثيراً ، وتمتعاً بذلك هنيئاً .
والرغد : العيش الهنيء الذي لا عناء فيه .

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ۖ ﴾ .

أي : لا تأكلا من هذه الشجرة حتى لا تقعا في المعصية ، وفي هذا اختبار من الله - تعالى - وامتحان لآدم - عليه السلام - ، قال ابن عباس : هي الكرمة .
والنهي عن القرب فيه سد للذريعة وقطع للوسيلة ، ولهذا نهى عنه عوضاً عن النهي عن الأكل .

والنهي عن القرب يرد في القرآن : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ ﴾ [الأنعام : ١٥١] ،

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾ [الإسراء : ٣٢] .

* أشار - سبحانه - إلى قصر وقت إقامة آدم في الجنة، فقال في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَتَّادِمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] وقال - تعالى - في سورة الأعراف: ﴿وَيَتَّادِمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩].

الحكمة في التعبير بلفظ ﴿أَسْكُنْ﴾ في الآيتين دون غيره من الألفاظ التي تؤدي نفس المعنى، إشارة إلى قصر وقت الإقامة في الجنة حينذاك؛ لأن الله - تعالى - إنما خلق آدم لخلافة الأرض.

* وبعد ما جرى لآدم ما جرى من أكل الشجرة وندمه وتوبته، ذكر - تعالى - ذلك بقوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

أي: إن الله كثير القبول للتوبة، يتوب على من تاب من عباده، واسع الرحمة للعباد، ومن رحمته بهم أن وفقهم للتوبة وعفا عنهم وصفح. وتوبته نوعان: توفيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً.

و ﴿التَّوَّابُ﴾.

صيغة مبالغة لأن هذه صفة لازمة لله - عز وجل -؛ فمن صفاته الكاملة التوبة، ولأن المذنبين الذين يتوبون إلى الله كثيرون.

وأما ﴿الرَّحِيمُ﴾ فهو ذو الرحمة الواصلة إلى من شاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].
* ثم قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قال السعدي - رحمه الله -: وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقوم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيه، فترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر.

* ثم بين - تعالى - طريق التغلب على الأهواء، والتخلص من حب الرياسة وسلطان المال، ونيل مطلوبهم فيما يؤملون من خيري الدنيا والآخرة، فقال تعالى:

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ .

الاستعانة بالصبر على أمور الدنيا والآخرة أمر ظاهر، وأما نتيجة الاستعانة بالصلاة فقد أشار لها - تعالى - في آيات من كتابه، فذكر أن من نتائج الاستعانة بها: النهي عما لا يليق ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وأنها تجلب الرزق، وذلك في قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَابُ لِلتَّقَوِّ﴾ [طه: ١٣٢].

قال ابن جرير: وإنما أخبر الله - جل ثناؤه - أن الصلاة كبيرة إلا على من هذه صفته؛ لأن من كان غير موقن بمعاد، ولا مصدق بمرجع ولا ثواب ولا عقاب، فالصلاة عنده عناء وضلال؛ لأنه لا يرجو بإقامتها إدراك نفع ولا دفع ضرر، وحق لمن كانت هذه الصفة صفته أن تكون الصلاة عليه كبيرة، وإقامتها عليه ثقيلة، وله فادحة.

والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته وسكونه لله - تعالى -، وانكساره بين يديه ذلاً وافتقاراً، وإيماناً به وبلقائه، ولهذا قال:

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ .

أي: يعتقدون اعتقاداً جازماً لا يخالجه شك، ويستيقنون أنهم سيلقون ربهم يوم البعث. وأنهم إليه راجعون يوم القيامة للحساب والجزاء، فهذا الذي خفف عليهم العبادات، وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونفس عنهم الكريات.

وفي تذكر لقاء الله - تعالى -، وعظيم ثوابه للمطيعين، من أعظم ما يخفف العبادات، ويصبر عن المعاصي، ويسلي عند المصائب، قال

- تعالى - بعد أن ذكر خفة الصلاة على الخاشعين - ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

* ثم بدأت الآيات في ذكر قصة موسى وفرعون، قال - تعالى - ممتناً على بني إسرائيل:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

قال ابن عثيمين - رحمه الله - : فالحاصل أن بني إسرائيل لا شك أفضل العالمين حينما كانوا عباد الله الصالحين، أما حين ضربت عليهم الذلة واللعة والصغار ليسوا أفضل العالمين، بل منهم القردة والخنازير، وهم أذل عباد الله. * ثم ذكر - تعالى - من نعمه على موسى وقومه:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

فإغراق العدو أو إهلاكه نعمة، وكونه ينظر إلى عدوه - ويغرق - نعمة أخرى لأن يشفي صدره؛ وعند عجز الناس لا يبقى إلا فعل الله - عز وجل -؛ ولهذا في غزوة الأحزاب نصرنا بالريح التي أرسلها الله - تعالى -.

قال الألوسي: لما كان الغرق من أعسر الموتات وأعظمها شدة، جعله الله - تعالى - نكالا لمن ادعى الربوبية، وعلى قدر الذنب يكون العقاب، ويناسب دعوى الربوبية والاعتلاء، انحطاط المدعي وتغييبه في قعر الماء.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

قال البقاعي في نظم الدرر: خص الليل بالذكر إشارة إلى أن ألد المناجاة فيه.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٥٢].

بيان حكمة الله في مناسبة العقوبة للذنب، لأن عقوبة هؤلاء المتحيلين أنهم مسخوا قردة خاسئين، والذنب الذي فعلوه أنهم فعلوا شيئاً صورته صورة المباح، ولكن حقيقته غير المباح، فصورة القرد شبيهة بالآدمي، ولكنه ليس بآدمي، وهذا لأن الجزء من جنس العمل، ويدل ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

* ثم ذكر - تعالى - قصة ذبح البقرة، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

بني إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب، ففتنوا بعبادة العجل، وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقر من أبلد الحيوان، حتى ليضرب به المثل.

قال الماوردي: وإنما أمروا - والله أعلم - بذبح البقرة دون غيرها، لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته.

وقال ابن القيم: ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي لا يصلح أن يكون إلهاً معبوداً من دون الله - تعالى -، إنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل.

﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾.

فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل استهزاءه بمن هو آدمي، وإن كان قد فضل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه، والرحمة لعباده.

قال القرطبي: وفي الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله وبالمسلمين ومن يجب تعظيمه، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحق الوعيد.

* قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

قال السعدي: فائدة تشبيه قسوة القلب بالحجارة مع أن في الموجودات ما هو أشد صلابة منها: هي أن الحديد والرصاص إذا أذيب ذاب، بخلاف الحجارة.

* قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

ذم - عز وجل - الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، وهو تناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه.

* قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

قال البغوي: هو اللين في القول، والمعاشرة بحسن الخلق. وقد جعل الإحسان لسائر الناس بالقول لأنه القدر الذي يمكن معاملة جميع الناس به، وذلك أن أصل القول أن يكون عن اعتقاد، فهم إذا قالوا للناس حسناً فقد اضمروا لهم خيراً.

* ثم قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٥].

﴿حَيَوةٍ﴾.

منكرة هنا، لبيان أنهم يتشبهون بأي حياة كانت، سواء محموددة أو مذمومة، حياة فقر أو حياة غنى، حياة عز أو حياة ذل، المهم أن يبقوا وليس هذا صنيع من يرجو شيئاً في الدار الآخرة. وهذا يدل على ضعف يقينهم بما يزعمون، وعلى بطلان برهانهم. والمرء كلما ابتعد عن التشبث بالحياة الدنيا بعد عن صفات اليهود.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

كذا أخبرنا ربنا عن أمانى بعض اليهود فما سر ذلك؟ لعل من أسرار ذلك ما نبّه عليه مجاهد بقوله: حَبِيت - بفتح الحاء - الخطيئة طول العمر.

* قال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

قال ابن عاشور: ولم يقل: (ما يود أهل الكتاب)، ففيه تنبيه إلى أنهم كفروا بكتبهم؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بها لصدقوا محمداً ﷺ الذي أمرتهم كتبهم بتصديقه واتباعه.

قال ابن القيم: إذا ذكر أهل الكتاب - في القرآن - بصيغة ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ١٢١] فهذا لا يذكر الله إلا في معرض المدح، وإذا ذكروا بصيغة: ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٢٣] فلا تكون إلا في معرض الذم، وإن قيل فيهم: (أوتوا الكتاب) فقد يتناول الفريقين، لكنه لا يفرد به الممدوحون فقط. وإذا جاءت (أهل الكتاب) عمت الفريقين كليهما.

* قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ تَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

قال السعدي - رحمه الله -: والله واسع الفضل والإحسان، وفيه إشعار بأن إيتاء النبوة من الفضل العظيم.

والفضل ابتداء إحسان بلا علة، والإنسان إذا طلب الفضل من أهله، وهو - عز وجل - أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، فإذا دعاه الإنسان وسأله من فضله بنية صالحة، وعزم صادق، وافتقار إلى الله - سبحانه وتعالى - سهل الله أمره، وآتاه من فضله.

* ثم أخبر - تعالى - عن دعوة الخليل إبراهيم - عليه السلام -، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾.

أي: قال إبراهيم داعياً لهذا البيت: أن يجعله الله بلداً آمناً، يكون أهله في أمن واستقرار.

﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

أي: وارزق يا رب المؤمنين من أهله وسكانه من أنواع الثمرات؛ لأنه لم يكن لهم ثمرة، وكانوا بوادي غير ذي زرع، ليقبلوا على طاعتك ويتفرغوا لعبادتك، وخص بدعوته المؤمنين تادباً مع الله، إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيداً بغير الظالم، فلما دعا لهم بالرزق وقيده بالمؤمن، وكان رزق الله شاملاً للمؤمن والكافر، والعاصي والطائع.

* في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

دليل على أن كل مدعي دعوى محتاج إلى تثبيتها، وإقامة البرهان عليها، وإذا كان المدعى عن شيء لله: لم يقبل ذلك البرهان إلا عن الله - تعالى -؛ لقوله في الآية التي قبل هذه: ﴿قُلْ أَخَذْتُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ [البقرة: ٨٠].

* قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

قال البغوي: وإنما يدخل الجنة من أسلم وجهه لله، أي: أخلص دينه لله. وقيل: أخلص عبادته لله.

وقيل: خضع وتواضع لله.

وأصل الإسلام: الاستسلام والخضوع وخص الوجه، لأنه إذا جاد بوجهه في السجود لم يبخل بسائر جوارحه.

* قال - تعالى - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ قال السعدي: فلما أخافوا عباد الله، أخافهم الله. إذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

قال ابن كثير: قلما تجبر متجبر في الأرض إلا أهانه الله قبل موته، فسخر به الصغير والكبير، وأضحى حديث مجالس.
وقال - رحمه الله -: لما استكبروا لقاهم الله المذلة في الدنيا قبل الآخرة.

* قال ابن كثير: لما قال الله - تعالى - لإبراهيم - عليه السلام -: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فأراد الخير لذريته، وهو قوله: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا صَنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فصلاح الولد صلاح للوالد، قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

* قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]
قال ابن عاشور: وإنما قال إبراهيم: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ ولم يقل: (وذريتي) لأنه يعلم أن حكمة الله لم تجر بأن يكون جميع نسل الإنسان ممن يصلحون لأن يُقتدى بهم، فلم يسأل ما هو مستحيل عادة؛ لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء.

قال القرطبي: واستدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوة على القيام بذلك..
فأما أهل الفسوق والجور والظلم، فليسوا له بأهل، لقوله تعالى ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

* وفي قوله تعالى: ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ...﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال القصاب: ذكر التطهير لا يدل على أن البيت نجس، بل المقصود تطهير التعبد لا إزالة النجاسة، كما أن الجنب يؤمر بالتطهر وليس بنجس بمجرد حدوث الجنابة.

* قال - تعالى - في سورة البقرة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] وقال في إبراهيم: ﴿هَذَا الْبَلَدُ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فجاءت آية (البقرة) بدون تعريف، وآية (إبراهيم) معرفة، والسفر في ذلك: أن آية (البقرة) دعا به الخليل - عليه السلام - قبل أن يكون بلداً، بل قاله عند ترك هاجر وإسماعيل به وهو واد، فدعا بأن يصير بلداً، أما آية (إبراهيم) فإنه دعا به بعد عودته، وسكنى جرهم به، وبعد أن صار بلداً، فدعا بأمنه.

* قال تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

قال السعدي: حفظ القرآن وفهمه والعمل به جاء في آية واحدة: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ولفظاً وحفظاً وتحفيظاً ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ ومعنى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بالتربية على الأعمال الصالحة، والتبرؤ من الأعمال الرديئة.

* قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

قال إبراهيم بن آزر: حضرت أحمد بن حنبل وسأله رجل عما جرى بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما -؟ فأعرض عنه، فقليل له: يا أبا عبد الله، هو رجل من بني هاشم فأقبل عليه، فقال: اقرأ: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

* قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

قال القرطبي: سُمي الدين صبغة استعارة ومجازاً، حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب.

* كما أنه مستقر في الأذهان أن الله يحق الربا: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦]، فهو كذلك يحق الكافرين: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ

الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ [آل عمران: ١٤١]، فكيف إذا اجتمع كفر وتعامل بالربا؟ لم يرد في القرآن كله لفظه: ﴿يَمَحَقَّ﴾ إلا في هذين الموضعين.

* قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَنَّهُمْ عَنِ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢].

قال السعدي: العاقل لا يبالى باعتراض السفیه، ولا يلقي له ذهنه، ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله؛ إلا سفيه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل فيتلقى أحكام ربه بالقبول، والانقياد والتسليم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الاحزاب: ٣٦]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

* في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

دليل على شرف هذه الأمة من وجوه:

منها: وصف الأمة بالعدل والخيرية.

ومنها: أن المزكي يجب أن يكون أفضل وأعدل من المزكي.

ومنها: أن المزكي لا يحتاج للتزكية.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهو العفو؛ مهما أسرف العبد على نفسه بالعصيان ثم تاب عفى عن ذنوبه، وهو الرؤوف بجميع خلقه، يغدق عليهم الأرزاق وإن عصوه رأفة منه بهم.

* قوله - تعالى - لنبيه ﷺ: ﴿فَلَنُؤَلِّينَاكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤] دون

قوله: تحبها أو تهواها، فيه دلالة على أن ميل الرسول إلى الكعبة ميل لقصد الخير لا لهوى النفس، وذلك أن الكعبة أجدر بيوت الله بأن يكون قبلة؛ فهو أول بيت وضع للناس بالتوحيد.

وفي استقبال بيت المقدس أولاً ثم التحول إلى الكعبة إشارة إلى استقلال هذا الدين عن دين أهل الكتاب .

* قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٥] .

إنما قال ﴿ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ بلفظ الجمع ؛ تنبيهاً على أن لكل واحد منهم هوى غير هوى الآخر ، ثم هوى كل واحد منهم لا ينتهي .

قال السعدي - رحمه الله - : إنما قال ﴿ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ولم يقل دينهم ، لأن ما هم عليه مجرد أهواء نفس ، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين ، ومن ترك الدين اتبع الهوى لا محاله ، قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ آتَاكَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ ﴾ [الجاثية: ٢٣] .

* قال تعالى : ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦] إنما قال : ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ .

ولم يقل : (أنفسهم) ؛ لأن الإنسان لا يعرف نفسه إلا بعد انقضاء برهة من دهره ، ويعرف ولده من حين وجوده ، ثم في ذكر الابن ما ليس في ذكر النفس ، فإن ابن الإنسان عصارة ذاته ونسخة صورته .

* قال تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨] .

الأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات ، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكمليلها ، وإيقاعها على أكمل الأحوال ، والمبادرة إليها ، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات ، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات .

* قال تعالى : ﴿ فَادْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ .

قال النووي - رحمه الله - : اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوهما . بل كل عامل لله بطاعة ، فهو ذاكر الله - تعالى - .

- ومن حفظ معاملته عن المخادعة في البيع ، وخلف الوعد ، فقد وفق لأمر عظيم ، وأفضل ما يستعين به من له عناية بدينه : القناعة ، وحسن

الظن بالله، والثقة بما ضمن له من الرزق، وخوف الحساب، ومراقبة الجليل، فإنه قال وقوله الحق: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

* قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله، لكفى بها فضلاً وشرفاً.

* قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥].

تنكير ﴿بِشَيْءٍ﴾ للتقليل، أي فهو شيء يسير؛ لأنه ابتلاء تمحيص، لا ابتلاء إهلاك.

* قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

جعل هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب وعصمة للممتحنين لما جمعت من المعاني المباركة، وذلك توحيد الله والإقرار له بالعبودية والبعث من القبور، واليقين بأن رجوع الأمر كله إليه كما هو له.

قال سعيد بن جبیر: لم يعط هذه الكلمات نبي قبل نبينا، ولو عرفها يعقوب لما قال يا أسفا على يوسف.

* قال تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

فربنا - تعالى - هو ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]؛ وسعت رحمته كل شيء، ورحمته أوسع صفاته: «خلق مائة رحمة، وأنزل منها إلى الأرض رحمة واحدة، بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»

[متفق عليه]، وما من أحد إلا وهو يتقلب في رحمة الله، وكل نعمة تراها هي من رحمته. ومن كان قريباً من الله كانت رحمة الله أولى به.

قال ابن القيم - رحمه الله -: وكان هذا الكتاب - أي إن رحمتي سبقت غضبي - كالعهد من الله - سبحانه - للخلق، ولولاه لكان للخلق شأن آخر.

✽ قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

قيل: تصريفها أنها تارة تكون عاصفاً، وتارة تكون حارة، وتارة تكون باردة.

قال ابن عباس: أعظم جنود الله الريح والماء.

✽ قال ابن تيمية: من جعل ما لم يأمر الله بمحبته محبوباً لله، فقد شرع ديناً لم يأذن الله به، وهو مبدأ الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

✽ في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ١٦٨].

إشارة إلى دور الشيطان في صرف الناس عن إطابة المطعم. مع الإشارة إلى أن إطابة المطعم سبب في إجابة الدعاء.

✽ قال - تعالى - في حق الكفار ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

فسلب العقل عن الكفار إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان، وسلب الرجوع عن المنافقين - لأنهم آمنوا ثم كفروا - فلم يرجعوا إلى الإيمان.

✽ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

قيل في سبب تقديم الغفور على الرحيم: أن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة.

✽ قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

قال ابن عاشور: إطلاق وصف الأخ على المماثل في الإسلام أصل جاء به القرآن؛ وجعل به التوافق في العقيدة كالتوافق في نسب الإخوة بل أشد حقاً، فإن التوافق في الدين رابطة نفسانية، والتوافق في النسب رابطة جسدية، والروح أشرف من الجسد.

✽ ثم ذكر - عز وجل - فائدة القصاص، فقال:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَنُؤُلِي الْآلَبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]

في القصاص حياة، والتنكير في ﴿حَيَوةٌ﴾ للتعظيم، وتلك الحياة العظيمة هي ما فيه من ارتداع الناس عن قتل النفوس؛ لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث: الموت، فلو علم القاتل أنه يسلم من الموت لأقدم على القتل مستخفاً بالعقوبات، ولو ترك الأمر للثأر كما في الجاهلية لأفرطوا في القتل وتسلسل الأمر، فكان في مشروعية القصاص حياة عظيمة من الجانبين.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

قال السيوطي: معناه كثير، ولفظه قليل؛ لأن معناه: أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل اقتصوا منه كان داعياً ألا يقدم على القتل، فارتفع كثير من قتل الناس بعضهم لبعض، وكان ارتفاع القتل حياة لهم.

✽ ثم قال - عز وجل - في أيام الصيام:

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

قال ابن عاشور: عبر بأيام - وهي جمع قلة -، ووصف - معدودات - وهي جمع قلة، تهويناً لأمره على المكلفين، لأن القليل يعد عدداً والكثير لا يعد.

❖ قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

من فضائل شهر الصيام أن الله - تعالى - مدحه من بين سائر الشهور، بأن اختاره لإنزال القرآن العظيم فيه، واختصه بذلك، ثم مدح هذا القرآن الذي أنزله الله.

فقال: ﴿هُدًى﴾ لقلوب من آمن به.

﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾ لمن تدبرها على صحة ما جاء به، ومفرقاً بين الحق والباطل والحلال والحرام.

❖ لما شرع الله الصوم بغير بدل - مع ما فيه من المشقة المعروفة - قال بعدها:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فاليسر هو ما جاء عن الله - تعالى -، ولا تجد أيسر من شريعة الله وأحكم.

قال ابن عباس: حق على المسلمين إذا نظروا إلى هلال شوال أن يكبروا الله حتى يفرغوا من عيدهم؛ لأن الله - تعالى - ذكره يقول: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥].

❖ توسطت آيات الدعاء بين آيات الصيام، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وإذا سألك - يا محمد - عبادي عني، فقل لهم: إني قريب منهم، أسمع دعاءهم، وأرى تضرعهم، وأعلم حالهم. روي أن جماعة من الأعراب سألو النبي ﷺ فقالوا: يا محمد أقریب ربنا فنناجیه أم بعید فننادیه؟ فأنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ الآية.

والقرب نوعان:

قرب بعلمه من كل خلقه.

وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق .
قال الحسن : مفتاح البحار السفن ، ومفتاح الأرض الطرق ، ومفتاح السماء الدعاء .

* ما ذكر الله أسئلة الصحابة للنبي ﷺ إلا أعقبها بـ (قل) تمهيداً للإجابة ، إلا قوله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي ... ﴾ فقد باشر الإجابة : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ١٨٦] لعظم أمر الدعاء .
﴿ أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ .

أجيب دعوة من دعاني إذا كان عن إيمان وخشوع قلب .
فإجابة الدعاء وعد صدق من الله لاخلف فيه ، غير أن إجابة الدعوة تخالف قضاء الحاجة ، فإجابة الدعوة أن يقول العبد يا رب ، فيقول الله لبيك عبدي ، وهذا أمر موعود موجود لكل مؤمن ، وقضاء الحاجة إعطاء المراد ، وقد يكون ناجزاً وقد يكون بعد مدة ، وقد يكون في الآخرة ، وقد تكون أخيرة له في غيره .

قال ابن تيمية : قيل في إجابة الدعاء : أنه تارة يكون لصحة الاعتقاد ، وهو مطابقة الخبر ، وتارة لكمال الطاعة وهو موافقة الأمر .

قال بعض السلف : متى أطلق الله لسانك بالدعاء والطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك ؛ وذلك لصدق الوعد بإجابة من دعاه ، ألم يقل الله تعالى : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

* قال تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ بَشَرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

جمع الله - عز وجل - في هذه الآية أصول المفطرات : الأكل والشرب والجماع .

* ثم ذكر - تعالى - من أحكام الاعتكاف ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

استدل العلماء بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ على أن الاعتكاف لا يصح إلا في المسجد، وقد حكى القرطبي وغيره الإجماع على ذلك.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

العلم الصحيح سبب للتقوى؛ لأنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا بان لهم الباطل اجتنبوه، ومن علم الحق فتركه، والباطل فاتبعه، كان أعظم لجرمه، وأشد لإثمه.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

قال الألوسي: والمراد من الأكل ما يعم الأخذ والاستيلاء. وعبر به لأنه أهم الحوائج، وبه يحصل إتلاف المال غالباً.

والمعنى: لا يأكل بعضكم مال بعض، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١].

* قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩].

قال قتادة: سألوا نبي الله ﷺ: لم جعلت هذه الأهلة؟ فأنزل الله فيها ما تسمعون، فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم، ولمناسكهم وحجهم، ولعدة نسائهم ومحل دينهم في أشياء، والله أعلم بما يصلح خلقه.

وفي قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ إشارة إلى كون الرؤية ميقاتاً للناس كلهم. فما كان رؤية في عهد النبوة فهو المعبر بعده.

* قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ تنصيب على أهمية الإخلاص في هاتين العبادتين.

* جاء لفظ القرآن في بيان الرخصة بالأسهل فالأسهل:

﴿فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِّيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

ولما أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بذلك أرشده إلى الأفضل فالأفضل، فقال: «انسك شاة، أو أطعم ستة مساكين، أو صم ثلاثة أيام» [متفق عليه]. فكل شيء حسن في مقامه.

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ ﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٦] .

ولم يقل : ولا تقصروا ، ففيه دلالة على أن الحلق أفضل ، وهو مقتضى دعاء الرسول ﷺ للمحلقين ثلاثاً ، وللمقصرين مرة .

﴿ قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عِثْمِينَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : مِنْ بَلَاغَةِ الْآيَاتِ فِي

قَوْلِهِ - تَعَالَى - عَنْ الْهَدْيِ :

﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۖ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ... ﴾ [البقرة: ١٩٦] .

أنه لم يحدد ما الذي لم يوجد؛ ليشمل من لم يجد الهدى ، ومن لم يجد ثمنه ، فاستفدنا زيادة المعنى ، مع اختصار اللفظ .

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا

فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۚ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ۚ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُوا نِأْوِلَى الْأَلْبَابِ ۚ ﴾ [البقرة: ١٩٧] .

فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين ، وفي الإكثار منه نفع وإعانة المسافرين ، وزيادة قربة لرب العالمين .

والزاد : هو الطعام الذي يقتات به الإنسان في سفره ، ونحن في الدنيا

مسافرون ، وزاد الآخرة هو التقوى .

﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٧] .

قال ابن كثير : نهى - عز وجل - عباده عن القبيح قولاً وفعلاً ، ثم حثهم

على فعل الجميل مع علمه به ﴿ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ﴾ .

﴿ سَمَى اللَّهُ الْمَالَ خَيْرًا .

﴿ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَلِلْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة: ٢١٥] .

﴿ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٩٧] .

تنبيهاً على معنى لطيف وهو ما كان مجموعاً من وجه محمود .

* قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال ابن القيم: أمر الحجاج بأن يتزودوا لسفرهم ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة وهو التقوى، فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله - تعالى - والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى، جمع بين الزادين، فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن.

* قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

لما نهى عن الجدال في الحج كان مظنة للنهي عن التجارة فيه أيضاً لكونها مفضية في الأغلب إلى النزاع في قلة القيمة وكثرتها، فعقب ذلك بذكر حكمها.

* قال - تعالى - بعد ذكر المناسك: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات. عن وهيب بن الورد أنه قرأ: ﴿وَإِذَا يَرَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧]، ثم بكى، وقال: يا خليل الرحمن! ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يُتقبل منك؟

* قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْكُمْ مَنْسَكُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

- أي: بعد التحلل من النسك - ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾.

قال عطاء: هو كقول الصبي: أبه، أمه، أي: فكما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه، فكذلك أنتم، فالهجو بذكر الله بعد قضاء النسك.

* قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ

حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

سأل قتادة أنساً: أي دعوة كان يدعو بها النبي ﷺ أكثر؟ قال: كان أكثر دعوة يدعو بها يقول: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب

النار . قال : وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها ، فإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه . [رواه مسلم] .

قال القاسم بن عبد الرحمن : من أعطي قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وجسداً صابراً ، فقد أوتي في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، ووقي من عذاب النار .

* قال تعالى : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ [البقرة: ٢٠٣] .

وفي هذا دليل على أن الأعمال المخير فيها إنما ينتفي الإثم عنها إذا فعلها الإنسان على سبيل التقوى لله - عز وجل - دون التهاون بأوامره ؛ لقوله تعالى : ﴿ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ وأما من فعلها على سبيل التهاون ، وعدم المبالاة فإن عليه الإثم بترك التقوى ، وتهاونه بأوامر الله .

* بعد أن أباح الله التعجل لمن اتقاه ، قال : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنْكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٠٣] .

فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى الله ؛ فلهذا حث - تعالى - على العلم بذلك .

* قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴾ [البقرة: ٢٠٦] .

فيه التحذير من رد الناصحين ، لأن الله جعل هذا من أوصاف هؤلاء المنافقين ، فمن رد أمراً بتقوى الله ففيه شبه من المنافقين ، والواجب على المرء إذا قيل له : ﴿ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ أن يقول : (سمعنا وأطعنا) تعظيماً لتقوى الله .

* حكى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ : ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ ﴾ **الْبَيِّنَاتُ** [البقرة: ٢٠٩] ، فاعلموا أن الله غفور رحيم ، ولم يكن الأعرابي من القراء ، فقال : إن كان هذا كلام الله ، فلا يقول كذا ، ومر بهما رجل ، فقال : كيف تقرأ هذه الآية ، فقال الرجل : ﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾

حَكِيمٌ ﴿٢١٤﴾ ، فقال : هكذا ينبغي ، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزل ؛ لأنه إغراء عليه .

* قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

وطريق الجنة إنما هو الصبر على البلاء .

والبأساء غالباً في المال ، والضراء في البدن .

* قال تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢١٤] الله - سبحانه وتعالى - إنما يفرج عن أنبيائه ، ومن معهم بعد انقطاع أسبابهم ممن سواه ؛ ليمتحن قلوبهم للتقوى ، فتتقدس سرائرهم من الركون لشيء من الخلق ، وتتعلق ضمائرهم بالله - تعالى - وحده .

* قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة : ٢١٥] .

قدم الوالدين والأقربين على المسكين وابن السبيل لحق الرحم ، وختم بالعلم لأجل دخول الخلل على النيات في الإنفاق لأنه من أشد شيء تتباهى به النفس ، فيكاد لا يسلم لها منه إلا ما لا تعلمه شماله .

* قال تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : ما يصيب الإنسان إن كان يسره : فهو نعمة بينة . وإن كان يسوءه : فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه ، ويثاب بالصبر عليه ، ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها .

* قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

قد تحب نفوسكم شيئاً لما فيه من الراحة أو اللذة العاجلة وفيه كل الخطر والضرر عليكم، فلعل لكم في القتال - وإن كرهتموه - خيراً؛ لأن فيه إما الظفر والغنيمة، أو الشهادة والأجر، ولعل لكم في تركه - وإن أحببتموه - شراً؛ لأن فيه الذل والفقر، وحرمان الأجر.

قال ابن القيم: في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه ولم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب فإن الله يعلم ما لا يعلمه العبد.

ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

والله أعلم بعواقب الأمور منكم، وأدرى بما فيه صلاحكم في دنياكم وآخرتكم، فبادروا إلى ما يأمركم به وإن شق عليكم.

والغالب على العبد المؤمن أنه إذا أحب أمراً من الأمور، فقيض الله له من الأسباب ما يصرفه عنه أنه خير له، فالأوفق له في ذلك أن يشكر الله، ويجعل الخير في الواقع، لأنه يعلم أن الله - تعالى - أرحم بالعبد من نفسه.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨].

قال الشوكاني: بعد أن وصف الله عباده بتلك الأوصاف العالية، قال: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ﴾ وإنما قال: ﴿يَرْجُونَ﴾ بعد تلك الأوصاف المادحة التي وصفهم بها؛ لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ.

* ثم ذكر - تعالى - من أحكام الطلاق، فقال:

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ

حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٣) [البقرة: ٢٣٠].

قال السعدي - رحمه الله - : وفي هذا دلالة على أن ينبغي للإنسان، إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور - خصوصاً الولايات الصغار، والكبار - نظر في نفسه، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك، ووثق بها أقدم، وإلا أحجم.

قال في آخر الآية: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٣).

قال القرطبي: لأن الجاهل إذا أكثر له أمره ونهيته فإنه لا يحفظه ولا يتعاهده. والعالم يحفظ ويتعاهد، فلهذا المعنى خاطب العلماء ولم يخاطب الجاهل.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٣٣) [البقرة: ٢٢٢].

آية تنضح بروعة الأسلوب وجمال المعنى من خلال جمعها للطهارتين الحسية والمعنوية.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وهو التواب؛ لا يرد تائباً، من جاء إليه في ليل أو نهار قبله؛ بل وأحبه.

* قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٧) [البقرة: ٢٣٧].

قال ابن عثيمين - رحمه الله - : فائدة: أن تعيين المهر إلى الزوج لا إلى الزوجة لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ﴾. ينبغي للإنسان ألا ينسى الفضل مع إخوانه، وقد جاء في الحديث: «رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى» [أخرجه البخاري].

* قال تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْحَسَنِينَ﴾ (٣٨).

أي: فإذا طلقتموهن فادفعوا لهن بشيء من متعة ينتفعن به جبراً لهن، وتطيباً لخاطرهن، وجبراً لوحشة الفراق والطلاق، وإزالة للأحقاد، على قدر حال الرجل في الغنى والفقر، الموسر بقدر يساره، والمعسر بقدر إعساره، تمتعاً بالمعروف حقاً ثابتاً على الذين يحسنون إلى المطلقات وإلى أنفسهم بطاعة الله.

وفي الآية ذكر المحسنين، وفي الآية الأخرى ذكر المتقين، قال تعالى:

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

* ثم قال - تعالى - في آيات الصلاة: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ

الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

توسطت آيات المحافظة على الصلاة خلال الآيات الكريمة المتعلقة بأحكام الأسرة وعلاقات الزوجين عند الطلاق أو الافتراق، وذلك لحكمة بليغة؛ وهي أن الله - تعالى - لما أمر بالعفو والتسامح وعدم نسيان الفضل بعد الطلاق، بين بعد ذلك أمر الصلاة؛ لأنها أعظم وسيلة إلى نسيان هموم الدنيا وأكدارها، ولهذا كان ﷺ إذا حزبه هم فزع إلى الصلاة، فالطلاق يولد الشحناء والبغضاء، والصلاة تدعو إلى الإحسان والتسامح، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وذلك أفضل طريق لتربية النفس.

ولأن الصلاة من أسباب التوفيق واستقرار الحياة الزوجية، فمن استقامت صلاته استقامت حياته ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقد توسط ذكر الصلاة؛ لأن فيه ربط لأداء حقوق الناس في المعاملات بحق الله، وكلها عبادات.

* قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ زُرُبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا

عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

قال السعدي: وفي هذا زيادة للتأكيد على المحافظة على وقتها، ولو مع الإخلال بكثير من الأركان والشروط، فصلاتها على تلك الصورة أحسن وأفضل بل أوجب من صلاتها مطمئنة خارج الوقت.

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

قال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: والكافرون هم الظالمون، ولم يقل الظالمون هم الكافرون.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾

[البقرة: ٢٤٧].

في تقديم البسطة في العلم على البسطة في الجسم، إيماء إلى الفضائل النفسانية أعلى وأشرف من الفضائل الجسمانية، بل يكاد لا يكون بينهما نسبة.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ .

آية الكرسي أعظم آية وتدبرها أولى ما يكون، وقد شرعت قراءتها في مواضع كثيرة، ويحق لمن قرأها متدبراً متفقهها، أن يمتلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون بذلك محفوظاً من شرور الشيطان.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فيها نفي وإثبات؛ نفي الألوهية وإثباتها لله وحده، وهذا من التخلية قبل التحلية، وقد فصل هذا أيضاً في الآية التي تليها ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهو - سبحانه - .

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ؛ قائم بأمر جميع الخلائق ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

هو أحد لم يزل وحده، ولم يكن معه غيره، وتوحد بجميع الكمالات لا يشاركه فيها مشارك.

- لما قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال بعدها: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ،

فبعد أن ذكر استحقاقه للعبودية، ذكر سبب ذلك وهو كماله في نفسه ولغيره، فلا تصلح العبادة إلا لمن هذه شأنه.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، من كان يعبد الله؛ فإن الله حي لا يموت. ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

السنة هي النعاس، وفي نفي النوم بعد نفي السنة: تدرج من نفي الأعلى بعد الأدنى، فكأنه قال: لا تأخذه سنة فكيف النوم؟ وهذا من بلاغة التأكيد.

- ولما ذكر الله لنفسه صفة الحياة: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ذكرها بعدها ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، وفيه معنى لطيف وهو أن النوم هو الموتة الصغرى، فنفي عن نفسه السنة والنوم بعد أن أثبت لنفسه كمال الحياة. * قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾.

لم يقل: يعلمه، فهم لا يحيطون بعلمه، ولا بشيء من علمه، بل هم إن علموه، فإنما يعلمونه من وجه دون وجه بغير إحاطة. - من مناسبة قوله تعالى: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بعد التوحيد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أن قوله: ﴿مَا﴾ عام، فكل ما في السموات والأرض لله، مملوك من ممالكه وعبد من عبيده، فكيف يعبد العبد عبداً ولا يعبد مالكة. ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله - تعالى -، بل هناك ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكل الأبصار، وتقلقل الجبال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فلهذا قال: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

مثل هذه الجملة التي طرفاها معرفتان تفيد الحصر، فهو وحده العلي؛ أي: ذو العلو المطلق، وهو الارتفاع فوق كل شيء.

وَالْعَظِيمُ ﴿٢٥٦﴾ أَيُّ ذُو الْعِظَمَةِ فِي ذَاتِهِ، وَسُلْطَانُهُ، وَصِفَاتُهُ.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه غامضة أثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين المبين القويم والصراط المستقيم فقد تبينت أعلامه للعقول وظهرت طرقه وتبين أمره وعرف الرشيد من الغي، فالموافق إذا نظر أدنى نظر إليه أثره واختاره، وأما من كان سيء القصد، فاسد الإرادة، خبيث النفس، يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس لله حاجة في إكراهه على الدين لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمكره ليس إيمانه صحيحاً.

* قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قال البغوي: سمي الكفر ظلمة لالتباس طريقه، وسمى الإسلام نوراً لوضوح طريقه.

* ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَيْهِ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قال سبحانه: ﴿الَّذِي كَفَرَ﴾ ولم يقل (الكافر) ليبين أن خذلانه في الإجابة كان بسبب كفره، ولو قال: (الكافر) يصبح مجرد نعت عام للرجل.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

أي: واذكر حين طلب إبراهيم من ربه أن يريه ببصره كيف يحيي الموتى، سأل الخليل عن الكيفية مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان، ولهذا خاطبه ربه بقوله:

﴿ قَالَ أُولَٰمَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّا يَطْمَئِنُّ قَلْبِي ۖ ﴾ .

قال إبراهيم - عليه السلام - : بلى آمنت ، ولكن أردت أن أزداد بصيرة وسكون قلب ، وزيادة يقين برؤية ذلك .

أراد أن يصير له علم اليقين عين اليقين ، لأن الخبر ليس كالمعاينة وبهذا يجتمع دليل العيان إلى دليل الإيمان ، ولم يكن إبراهيم - عليه السلام - شاكاً في إحياء الموتى قط ، وإنما طلب المعاينة لما جبلت عليه النفوس من حب الاطمئنان برؤية ما أخبرت عنه .

* قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ

سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

﴿ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ ﴾ .

قال ابن كثير : بحسب إخلاصه في عمله .

* قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا

أَنْفَقُوا مِّنَّا وَلَا أَدَّىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝ ﴾ [البقرة : ٢٦٢ - ٢٦٣] .

قال السعدي : وهذا الأمر بإيتاء ذي القربي وغيرهم مع القدرة ، فأما مع العدم أو تعذر النفقة الحاضرة ، فأمر - تعالى - أن يردوا رداً جميلاً ، فقال : ﴿ وَإِذَا تَعَرَّضْتُمْ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا ۖ ﴾ أي : تعرضن عن إعطائهم حاضراً ، ولكنك ترجو فيما بعد ذلك تيسير الأمر من الله .

﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝ ﴾ [الإسراء : ٢٨] .

أي : لطيفاً برفق ووعد بالجميل عند الوجود ، واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر ، لينقلبوا عنك مطمئنة قلوبهم ، عاذرين راجين ، كما قال

تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

قال السعدي - رحمه الله -: هذا من لطف الله بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه؛ لأن انتظار ذلك عبادة، وسبب لحصوله، فإن الله عند ظن عبده به، وكذلك وَعَدُهُمْ أن يعطوهم إذا وجدوا - عبادة حاضرة لمن وعدوا، لأن الهم بفعل الخير والحسنة خير، ولهذا ينبغي للعبد أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يقدر عليه إذا قدر، ليثاب على ذلك، ولعل الله ييسره له.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ ۖ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾

[البقرة: ٢٦٣].

أي: لا يعاجل من عصاه، بل يرزقه وينصره، وهو يعصيه ويكفره.
* قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۚ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].
والإظهار في مقام الإضمار لإظهار الاعتناء بشأنها.
وفي إيلاء هذه الآية لما قبلها إشعار بأن الذي لا يغتر بوعده الشيطان، ويوقن بوعده الله؛ هو من آتاه الله الحكمة.

* قال تعالى: ﴿إِن تَبَدُّوا لَاصَّدَقْتُمْ فَنِعِمَّا هِيَ ۚ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنْكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

في الآية على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة، من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحثية، قال رسول الله ﷺ: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن، كالمسر بالصدقة» [رواه أبو داود].

* قال الزجاج: لما ذكر الله في سورة البقرة أحكاماً كثيرة وقصصاً، ختمها بقوله: ﴿ءَا مَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

تعظيماً لنبيه ﷺ وأتباعه، وتأكيذاً لجميع ذلك المذكور من قبل، وأنهم آمنوا بأخباره وعملوا بأحكامه.

ثم قال: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ دل أن الإيمان الصحيح يقود إلى العمل، فهو ليس مجرد معرفة قلبية، وتصورات ذهنية.

* قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

قال السعدي: الجزء من جنس العمل، فكما تقلبت عقولهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ جازاهم الله من جنس أحوالهم، فصارت أحوالهم أحوال المجانين: ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾.

* قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

الجزء من جنس العمل: فإن المرابي قد ظلم الناس فجوزي بذهاب ماله، والمحسن إليهم ربه أكرم منه - سبحانه وتعالى -.

* قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

قال ابن تيمية: إنه جاء في الوعيد على الربا ما لم يأت على ذنب دون الشرك، ولهذا جاء في الحديث الذي طرقه متعددة: «إن الربا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها مثل أن يأتي الرجل أمه».

* قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

قال الحسن: في القرآن تسعين موضعاً أن الله ضمن الأرزاق لخلقه، وموضع واحد ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ فشككنا في قول الصادق في تسعين، وصدقنا قول الكاذب في واحد.

وأبواب الشيطان ومداخله على القلوب كثيرة، فحينما تهم بالصدقة، ثم تغل يدك خشية الفقر، فاعلم أن الشيطان قد أخذ حظه منك.

- قال بعض العلماء: أرجى آية في القرآن آية الدين، من قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُكُمْ بَدِينٌ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فقد أوضح الله فيها الطرق الكفيلة بصيانة الدين من الضياع، ولو كان الدين حقيراً، قالوا: وهذا من صيانة مال المسلم، وعدم ضياعه ولو قليلاً، يدل على العناية التامة بمصالح المسلم، وذلك يدل على أن اللطيف الخبير لا يضيعه يوم القيامة عند اشتداد الهول، وشدة حاجته إلى ربه.

* قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قال ابن تيمية: فإن النية يثاب عليها المؤمن بمجرد ما وتجرى مجرى العمل إذا لم يمنع من العمل بها إلا العجز ويمكنه ذلك في عامة أفعال الخير، وأما عمل البدن فهو مفيد بالقدرة وذلك لا يكون إلا قليلاً، ولهذا قال بعض السلف: قوة المؤمن في قلبه، وضعفه في بدنه، وقوة المنافق في بدنه وضعفه في قلبه.

* لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ اشتد ذلك على الصحابة، فقالوا: قد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا»، فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم، (فنسختها الله)، وأنزل الله في إثره: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. [رواه مسلم].

عن البراء بن سليم قال: سمعت نافعاً يقول: ما قرأ ابن عمر هاتين الآيتين قط من آخر سورة البقرة إلا بكى: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] ثم يقول: إن هذا لإحصاء شديد.

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]،

وتقديم السمع والطاعة على طلب الغفران لما إن تقدم الوسيلة على المستول أقرب إلى الإجابة والقبول.

✽ قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ .

قال ابن عثيمين: يستدل بها بعضهم على الترخص، مع أنها تدل على العزيمة أيضاً، فيقال: إن الله - تعالى - لم يكلف نفساً فوق وسعها، فمعناه: أن كل ما كان في وسعه، فهو داخل في التكليف.

✽ قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ .

قال السعدي: في الإتيان بـ (كسب) الخير: دال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه، بل بمجرد نية القلب، وأتى بـ (كسب) في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمله ويحصل في سعيه.

وجاءت العبارة بـ ﴿لَهَا﴾ في الحسنات، لأنها مما ينتفع العبد به، وجاءت بـ ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في السيئات؛ لأنها مما يضر العبد.

✽ قال تعالى: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ .

في الحديث القدسي: «أن الله - تعالى - قال: قد فعلت» .

وانظر إلى ترتيبها: فالعفو طلب إسقاط العقوبة، ثم تدرج منه إلى المغفرة، وهي طلب الستر (وقد تسقط العقوبة ولا يستر الذنب)، ثم تدرج منه إلى الرحمة، وهي كلمة جامعة لأنواع من الخير والإحسان، فالحمد لله الذي لا أعظم من رحمته.

قال الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله -:

العفو: عن التفريط في الطاعات.

الاستغفار: عن فعل المحرمات.

الرحمة: فيما يستقبله المرء من زمنه.

﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال السعدي: وقوله ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ أي: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا.

﴿وَأَعْفِرْ لَنَا﴾.

أي: فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة ﴿وَارْحَمْنَا﴾.

فيما يستقبل فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر.

ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده، فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره.

✽ من ارتباط أول سورة البقرة بآخرها، أن مدح الله - تعالى - في أولها المتقين الذي يؤمنون بالغيب، ثم فصل صفتهم في آخرها بأنهم الرسول ومن معه إذ آمنوا بالغيب من مثل أركان الإيمان، وسمعوا وأطاعوا، وذكر في أولها أنهم بالآخرة هم يوقنون، وفي آخرها قالوا: ﴿وَالْيَلِكُ الْمَصِيرُ﴾.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

جمع الله في هذه الآية بين ترك الأمر وارتكاب النهي؛ لأن المراد بالنسيان هنا: الترك، فالنسيان أن يترك الفعل لتأويل فاسد.

والمراد بالخطأ: أن يفعل لتأويل فاسد، فدعوا الله أن يعفو عنهم هذا وهذا.

قال شيخ الإسلام: وليس لأحد أن يتبع زلات العلماء كما ليس له أن يتكلم في أهل العلم والإيمان إلا بما هم له أهل؛ فإن الله - تعالى - عفا المؤمنين عما أخطئوا، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وأمرنا أن نتبع ما أنزل إلينا من ربنا ولا نتبع من دونه أولياء،

وأمرنا أن لا نطيع مخلوقاً في معصية الخالق، ونستغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، فنقول: ﴿رَبَّنَا آغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠].

وقال - رحمه الله - : ذكر الله في آخر البقرة أحكام الأموال وهي ثلاثة أصناف: عدل، وفضل، وظلم.

فالعدل: البيع.

والظلم: الربا.

والفضل: الصدقة.

فمدح المتصدقين وذكر ثوابهم، وذم المرايين وبين عقابهم، وأباح البيع والتداين إلى أجل مسمى.

سورة آل عمران ٣

سورة آل عمران من السور المدنية الطويلة، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين مهمين من أركان الدين:

الأول: ركن العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله - جل وعلا - .

والثاني: التشريع وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله.

أما الأول: فقد جاءت الآيات الكريمة لإثبات الوجدانية، والنبوة، وإثبات صدق القرآن، والرد على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول الإسلام والقرآن وأمر محمد - عليه الصلاة والسلام - .

وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم اليهود وأظهرت حقيقتهم، وكشفت عن نواياهم وخباياهم، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر، فإن سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب، وهم النصارى الذين جادلوا في شأن المسيح وزعموا ألوهيته، وكذبوا برسالة محمد وأنكروا القرآن، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من نصف السورة الكريمة، وفيها الرد على الشبهات التي أثاروها بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وبخاصة فيما يتعلق بشأن مريم وعيسى - عليهما السلام -، وجاء ضمن هذا الرد الحاسم بعض الإشارات والتقريرات لليهود، والتحذير للمسلمين من كيد ودسائس أهل الكتاب.

أما الركن الثاني: فقد تناولت الحديث عن بعض الأحكام الشرعية كفرضية الحج والجهاد وأمور الربا وحكم مانع الزكاة، وقد جاء الحديث بالإسهاب عن الغزوات كغزوة بدر، وغزوة أحد، والدروس التي تلقاها المؤمنون من تلك الغزوات، فقد انتصروا في بدر، وهزموا في أحد بسبب مخالفتهم لأمر الرسول ﷺ، وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيراً من

كلمات الشماتة والتخذيل، فأرشدتهم - تعالى - إلى الحكمة من ذلك الدرس، وهي أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة، ليميز بين الخبيث والطيب، كما تحدثت الآيات الكريمة بالتفصيل عن النفاق والمنافقين وموقفهم من تشييط همم المؤمنين.

ثم ختمت بالتفكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض وما فيهما من إتيان وإبداع، وعجائب وأسرار تدل على وجود الخالق الحكيم، وقد ختمت بذكر الجهاد والمجاهدين في تلك الوصية الفذة الجامعة، التي بها يتحقق الخير، ويعظم النصر، ويتم الفلاح والنجاح: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

سميت السورة بـ «آل عمران» لورود ذكر قصة تلك الأسرة الفاضلة «آل عمران» والد مريم أم عيسى، وما تجلّى فيها من مظاهر القدرة الإلهية بولادة مريم البتول وابنها عيسى - عليهما السلام -.

وسورة آل عمران هي السورة الوحيدة التي فيها قصة أم مريم، فقصتها ليست مذكورة حتى في سورة مريم - عليهم السلام -. يضاف إلى ذلك أن هذا الاسم (آل عمران) فيه إشارة عظيمة في الرد على النصارى الذين ألّهُو عيسى - عليه السلام -، فهو يشير إلى أصل عيسى - عليه السلام - البشري، فهو من (آل عمران).

وتشترك سورة البقرة وآل عمران في جملة من الخصائص والفضائل، فإنهما تأتيان يوم القيامة تقدمان القرآن وأهله، لما في صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان أن النبي ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدِمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ»، وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال - ما نسيتهن بعد -: «كأنهما غمامتان، أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما خرقان من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما».

وتسمى الزهراوتين كما في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران». وقالوا:

سميتا الزهراوين لنورهما وهدايتهما، وعظيم أجرهما.

نزلت الآيات من أول السورة إلى نيف وثمانية آية في وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكباً، فيهم أربعة عشر من أشرافهم، ثلاثة منهم أكابرهم: عبدالمسيح أميرهم، والأيهم مشيرهم، وأبو حارثة بن علقمة حبرهم، فقدموا على النبي ﷺ فتكلم منهم أولئك الثلاثة معه، فقالوا تارة عيسى هو الله لأنه كان يحيي الموتى، وتارة هو ابن الله إذ لم يكن له أب، وتارة إنه ثالث ثلاثة، لقوله تعالى: «فعلنا وقلنا» ولو كان واحداً لقال: «فعلت وقلت» فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يموت» قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه» قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا قائم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك؟» قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما علم؟» قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث وأن عيسى كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث» قالوا: بلى، فقال ﷺ: «فكيف يكون كما زعمتم؟»، فسكتوا وأبوا إلا الجحود؛ فأنزل الله: ﴿لَمْ يَلَهُ إِلَهٌ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ .

* قال تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

قال البغوي: وأما قال وأنزل التوراة والإنجيل، لأن التوراة والإنجيل انزلا جملة واحدة، وقال في القرآن ﴿نَزَلَ﴾ مفصلاً والتنزيل للتكثير.

* قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ .

من أسباب الثبات على الهدى والحق سؤال الله التثبيت، فإن الله هو الذي يثبتك ويهديك، والمسلم يدعوا ويلج على الله - تعالى - بالسؤال أن يربط على قلبه ويثبته على دينه، فالقلوب ضعيفة والشبهات خطافة،

والشيطان قاعد بالمرصاد، وللمسلم فيمن تقدم من المؤمنين أسوة حسنة فإن من دعائهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

وقد كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

وهو الوهاب؛ يعطي من أراد ما شاء، بيده خزائن السموات والأرض، وهب ذرية طيبة لأنبيا بعد بلوغهم عتياً من الكبر، وسأل سليمان - عليه السلام - ربه الوهاب ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فوهبه آيات وعبراً من العطاء، ريح وجن، وعين قطر مسخرات بأمره.

✽ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

قال ابن تيمية: فله رحمة قد عمت الخلق برهم وفاجرهم، سعيدهم وشقيهم، ثم له رحمة خص بها المؤمنين خاصة وهي رحمة الإيمان، ثم له رحمة خص بها المتقين، وهي رحمة الطاعة لله - تعالى -، ولله رحمة خص بها الأولياء نالوا بها الولاية، وله رحمة خص بها الأنبياء نالوا بها النبوة. وقال الراسخون في العلم ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾.

✽ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

استحضروا عند طلب الرحمة أحوج ما يكونون إليها، وهو يوم تكون الرحمة سبباً للفوز الأبدي، فأعقبوا بذكر هذا اليوم ودعائهم على سبيل الإيجاز، كأنهم قالوا: هب لنا من لدنك رحمة، وخاصة يوم تجمع الناس.

✽ قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتْنِعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

سميت الخيل خيلاً: لأن صاحبها غالباً يبتلى بالخيلاء؛ لأنها أفخر المراكب، أو لأنها تختال في مشيتها.

* قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

قال ابن عثيمين - رحمه الله -: الدنيا حياة بسيطة ليست بشيء، قال النبي ﷺ: «لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها». وموضع السوط حوالي متر، و«خير من الدنيا وما فيها».

الدنيا منذ خلقت إلى يوم القيامة بكل ما فيها من نعيم، وذلك لأن نعيم الدنيا في الحقيقة كأحلامنا، واعتبر الأمر بما مضى من عمرك.

* قال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»: أمر الله عباده أن يختموا الأعمال الصالحات بالاستغفار، فكان ﷺ إذا سلم من الصلاة يستغفر ثلاثاً، وقد قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] فأمرهم أن يقوموا بالليل ويستغفروا بالأسحار، وكذلك ختم سورة المزمل وهي سورة قيام الليل، بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

* قال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

تخصيص الأسحار بالاستغفار، لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة إذ العبادة حينئذ أشق، والنفس أصفى، والروح أجمع.

قال الطبري: هم الذين يسألون ستر فضيحتهم بالأسحار.

وأعظم أوقات الاستغفار في السحر، وأفضله في سجود صلاة الليل.

* قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه، وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين،

بمنزلة المشاهدة للمبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم.

ومن أعظم ما تنافس فيه الناس، وبلغوا فيه أعظم الغايات الوصول إلى أرفع الدرجات في العلم، لأن الله - جل وعلا - جعل العلماء شهوداً على أعظم مشهود.

*** قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].**

قال ابن رجب: هذه الآية من أظهر الأدلة على بيان منزلة العلماء الأمرين بالمعروف، حيث قرن الله قتلهم بقتل الأنبياء؛ لأن العلماء هم ورثة الأنبياء.

*** قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨].**

قال ابن عاشور: وانظر كيف عبر بصيغة النفي لا النهي، مبالغة في التقرير؛ لأن اتخاذهم أولياء - بعد أن سفه الآخرون دينهم، وسفها أعلامهم في إتباعه - يعد ضعفاً في الدين، وتصويباً للمعتدين.

*** قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١].**
عبر بلفظ الإتياع دلالة على التقرب؛ لأن من آثار المحبة تطلب القرب من المحبوب، وعلق محبة الله - تعالى - على لزوم اتباع الرسول، لأنه رسوله الداعي لما يحبه.

*** قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].**

نص - عز وجل - في الآية على الخير هنا دون الشر، وفي هذا تعليم الله - جل وعلا - لعباده كيف يرزقون الأدب في خطابهم مع ربهم - تبارك وتعالى -، ومعلوم أن الأدب مع الرب - تبارك وتعالى - هو الدين كله. والنبي ﷺ يقول: «والخير كله بيدك والشر ليس إليك».

ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الذين أوتوا نصيباً من الكتاب إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم يتولوا، يريدون أن تكون السيادة لهم، لا لغيرهم، فأمر الله نبيه أن يتהל إلى الله بهذا الدعاء المتضمن قدرة الله على نقل النبوة يتبعها الملك من بني إسرائيل إلى العرب.

* قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

فلما فاتها ما كانت عقدت النية عليه وهو أن يكون المولود ذكر وهو أمر ليس بيدها، لم يفتها أن تسمي المولودة باسم يغلب الظن أن فيه شيء من القربى إلى الله، ولهذا قالت ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ ومريم في لغتهم بمعنى (خادمة الرب).

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧]
هذا من فضائل مريم، ومن جملة ما يزيد فضلها؛ لأن المتربي يكتسب خلقه وصلاحه ممن يربيه.

* ولما رأى زكريا فضل الله طمع في فضله وخيره، قال تعالى: ﴿هَٰذَا لَكَ دُعَاؤُكَ زَكَرِيَّا رَبُّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقد نبهه إلى الدعاء مشاهدة خوارق العادة مع قول مريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

والحكمة ضالة المؤمن، وأهل النفوس الزكية يعتبرون بما يرون ويسمعون، فلذلك عمد إلى الدعاء بطلب الولد في غير إبانة، وقد كان في حسرة من

عدم الولد كما حكى الله عنه في سورة مريم.

- ولم يكتف زكريا - عليه السلام - بطلب الولد. بل قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقال: ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [١] ﴿[مريم: ٦].

والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة، وخرج من حدّ العداوة والفتنة، إلى حد المسرة والنعمة.

* قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾.

أي: فنادى جبريل زكريا وهو واقف بين يدي الله قائماً في الصلاة يدعوه، ويتضرع إليه، إن الله يخبرك بخبر يسرك، وهو أنك سترزق بغلام اسمه يحيى.

وسمي يحيى؛ لأن الله - تعالى - أحيا قلبه بالإيمان والطاعة.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [٢] ﴿يَمْرَيْمُ اقْنِطِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [٣] [آل عمران: ٤٢ - ٤٣].

فذكر الأعم، ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص، فذكر القنوت أولاً وهو الطاعة الدائمة، ثم السجود الذي يشرع وحده كسجود التلاوة وسجود الشكر ويشرع في الصلاة، ثم ذكر الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة.

قال ابن عثيمين - رحمه الله -: ففي أمر الملائكة لها بالقنوت والركوع والسجود، إشارة إلى أنه كلما منَّ الله - سبحانه وتعالى - على إنسان بشيء، وازدادت عليه النعم أن يزداد على ذلك شكر، بالقنوت لله والركوع والسجود وسائر العبادات.

* قال - تعالى - عن معجزات يحيى - عليه السلام -:

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٤] [آل عمران: ٤٦].

قد يبدو بادئ الرأي أنه يكلم الناس وهو كهل، فما السر في إيراد كلمة ﴿وَكَهْلًا﴾ بعد ذكر المهد، قال الله ذلك للصديقة مريم حتى لا يقع في نفسها أن قول الله - جل وعلا - لها بالبشارة ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ أن هذا الغلام سيكون معجزة لا يلبث أن يموت سريعاً، فطمأنها - عز وجل - .
* ومن حكمة الباري - تعالى - أن تدرج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى - عليه السلام - من أم بلا أب ليدل عباده أنه الفعال لما يريد، ثم أخبر - تعالى - عن منته العظيمة على عبده ورسوله عيسى - عليه السلام -، فقال:

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۚ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَأَنْتَبِهُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ٥٩﴾ .

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ﴾ [آل عمران: ٤٩] .

قال البغوي: وإنما خص هذين لأنهما داءان عياءان، وكان الغالب في زمن عيسى - عليه السلام - الطب، فأراهم المعجزة من جنس ذلك .
والأكمة: من ولد أعمى .

والأبرص: هو الداء المعروف؛ وهو بياض يعتري الجلد .

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] ،

قال القرطبي: أي بالحجة وإقامة البرهان، وقيل: بالعز والغلبة .

* قال تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥] .

فيها إشارة إلى نجاسة الكفار معنويًا، وأن من يعايشهم ويتبع أثرهم، ويتشبه بهم فسيعلق به أثر من نجاستهم .

* قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

قال السعدي: دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضاً موفراً، فيعطي كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه.

- ومن تدبر القرآن علم أن الصالحين لا يخافون من شيء أعظم من خوفهم من أمرين:

الأول: الخوف من أعمالهم الصالحة أن لا تقبل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

الثاني: الخوف من زيغ القلب بعد هدايته: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

* قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ذم الله في القرآن أربعة أنواع من الجدل:

الأول: الجدل بغير علم: ﴿هَتَانُكُم هُنَالَا خَتَجْتُم فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

الثاني: الجدل في الحق بعد ظهوره: ﴿تُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦].

الثالث: الجدل بالباطل: ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [عافر: ٥].

الرابع: الجدل في آياته: ﴿مَا تُجَادِلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤].

* وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣].

ونحوها من الآيات، تدل على أن من طلب الهدى والرشد من غير الكتاب والسنة ضل، لأن الهدى محصور في هدى الله الذي أرسل به رسوله ﷺ.

* قال تعالى: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِّى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

دلت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانيًا؛ فمن اشتغل بذلك لا لهذا المقصد ضاع سعيه، وخاب عمله.

* قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدَى اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦-٨٧].

الجزاء من جنس العمل، فإن هؤلاء لما ارتكبوا ثلاث جرائم أو ثلاثة أمور في كفرهم، كان عليهم: لعنة الله، والملائكة، والناس، ثلاث بثلاث.

* قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

مناسبة موقع هذه الآية تلو سابقتها: أن الآية السابقة لما بينت أن الذين كفروا لن يقبل من أحدهم أعظم ما ينفقه، بينت هذه الآية ما ينفع أهل الإيمان من بذل المال، وأنه يبلغ بصاحبه مرتبة البر، فبين الطرفين مراتب كثيرة قد علمها الفطناء من هذه المقابلة.

* قال ابن العربي - في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] - .

قال علماؤنا: هذا من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب؛ فإذا قال العربي: لفلان عليّ كذا، فقد وكده وأوجبه، وهكذا جاء في الحج؛ تأكيداً لحقه، وتعظيماً لحرمة، وتقوية لفرضه.

* قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

قال ابن عاشور: وفي الآية دلالة على عظم قدر الصحابة وأن لهم وازعين عن مواجهة الضلال: سماع القرآن، ومشاهدة أنوار الرسول - عليه السلام -، فإن وجوده عصمة من ضلالهم.

قال قتادة: أما الرسول فقد مضى إلى رحمة الله، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر.

* قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال الطبري: وأصل المعروف كل ما كان معروفاً فعله جميلاً، مستحسناً غير مستقبح في أهل الإيمان ولا يستنكرون فعله، وإنما سميت طاعة الله معروفاً لأنه مما يعرفه أهل الإيمان، ولا يستنكرون فعله، وأصل المنكر ما أنكره الله ورأوه قبيحاً فعله، ولذلك سميت معصية الله منكراً، لأن أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها، ويستعظمون ركونها.

* قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١١٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١١) [آل عمران: ١٠٤ - ١٠٥].

قال ابن عثيمين - رحمه الله -: النهي عن التفرق بعد ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدل على أن تركه هو سبب للتفرق، لا أنه هو سبب التفرق.

* قال - تعالى - عن اليهود:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢].

قال ابن تيمية: فاليهود لم يكونوا بمجردهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم، وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الإسلام، والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح - عليه السلام - فكذبوه.

* قال الإمام النووي: ينبغي لقارئ القرآن أن يعتني بقراءة الليل أكثر، قال تعالى: ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وإنما رجحت صلاة الليل وقراءته؛ لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشاغلات والملهيات، والتصرف في الحاجات، وأصون عن الرياء وغيره من المحبطات.

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

يستخفي المنافقون ببغضهم وكيدهم للمؤمنين، فتفضحهم عثرات ألسنتهم، وما ظهر من مكرهم، وليس كالتقوى والصبر دافعا لأذاهم: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

* ثم ذكر - عز وجل - أحداث غزوة أحد، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

اذكر - يا محمد - حين خرجت من بيتك إلى غزوة أحد لابسا عدة الحرب في أول النهار، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة. ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ﴾ تنزل المؤمنين وترتب أماكنهم وتنظم صفوفهم لقتال عدوهم، وتنزل كل واحد في منزله للقاء المشركين في غزوة أحد، وفيها أعظم مدح للنبي ﷺ حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، وشجاعته الكاملة - صلوات الله وسلامه عليه - حيث يباشر هذه الأمور بنفسه.

* قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

قال السعدي: وفي هذه الآية ما يدل على أن اختيار الله غالب على اختيار العباد، وإن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئا

وتكون الخيرة والمصلحة في غيره، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، فغيره من باب أولى، ففيها أعظم رد على من تعلق بالأنبياء، أو غيرهم من الصالحين وغيرهم، وأن هذا شرك في العبادة ونقص في العقل يتركون من الأمر كله له، ويدعون من لا يملك من الأمر مثقال ذرة.

* قال - تعالى - عن الفراق بين الزوجين: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

قال السعدي: يعني: إذا تعذر الاتفاق والالتئام فلا بأس بالفراق، فقال: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ أي: بفسخ أو طلاق أو خلع أو غير ذلك ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا﴾ من الزوجين ﴿مِنْ سَعَتِهِ﴾ أي: من فضله وإحسانه العام الشامل، فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله برزق من غير طريقه، فإنها وإن توهمت أنه إذا فارقها زوجها المنفق عليها القائم بمؤنتها ينقطع عنها الرزق، فسوف يغنيها الله من فضله، فإن رزقها ليس على الزوج ولا على غيره، بل على المتكفل القائم بأرزاق الخليقة كلها، وخصوصاً من تعلق قلبه به ورجاه رجاء قلبياً طامعاً في فضله كل وقت، فإن الله عند ظن عبده به، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً لها منه وأنفع.

﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ أي: واسع الرحمة كثير الإحسان.

﴿حَكِيمًا﴾ في وضعه الأمور مواضعها.

وقال - رحمه الله - : وفي الآية تنبيه على أنه ينبغي للعبد أن يعلق رجاءه بالله وحده، وأن الله إذا قدر له سبباً من أسباب الرزق والراحة أن يحمده على ذلك، ويسأله أن يبارك فيه له، فإن انقطع أو تعذر ذلك السبب فلا يتشوش قلبه، فإن هذا السبب؛ من جملة أسباب لا تحصى - لا يتوقف رزق العبد على ذلك السبب المعين، بل يفتح له سبباً غيره أحسن منه وأنفع، وربما فتح له عدة أسباب، فعليه في أحواله كلها أن يجعل فضل ربه، والطمع في بره نصب عينيه وقبلة قلبه، ويكثر من الدعاء المقرون بالرجاء؛ فإن الله يقول على لسان نبيه: «أنا عند ظن عبدي بي؛ فإن ظن بي

خيراً فله، وإن ظن بي شراً فله»، وقال: «إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي».

* قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

أمرهم - تعالى - بالمسارعة إلى مغفرته، وإدراك جنته التي عرضها السموات والأرض فكيف بطولها.

بكى أحد السلف حين قرأ هذه الآية، فقليل له: لقد أبكتك آية ما مثلها يُبكي، إنها جنة عريضة واسعة، فقال: يا ابن أخي؛ وما ينفعني عرضها إن لم يكن لي فيها موضع قدم.

* ثم ذكر - تعالى - صفات المتقين، فقال:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾.

الذين يبذلون أموالهم في اليسر والعسر، وفي الشدة والرخاء، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا شيئاً ولو قل، فأول ما ذكر من أخلاقهم الموجبة للجنة ذكر السخاوة.

والإنفاق ليس خاصاً على البعيد عنك، بل هو عام يشمل حتى الإنفاق على ابنك وبتك، وأمك وأبيك، وزوجتك، بل ونفسك، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - كلمة جامعة نافعة مانعة، قال: «واعلم أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعله في فم امرأتك».

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾.

أي: والذين يمسكون غيظهم بالصبر إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم وحنقهم مع قدرتهم على الانتقام.

والغيظ: توقد حرارة القلب من الغضب، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه، ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً» [رواه الطبراني].

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ .

أي: يعفون عمن أساء إليهم أو ظلمهم بالقول أو الفعل ، واستحق المؤاخذة، وذلك من أجل ضروب الخير .

والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء .

* ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال:

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

يحب المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة وغيرها، وهذا هو الإحسان الذي يحب الله أصحابه .

قال الثوري: الإحسان أن تحسن إلى المسيء، فإن الإحسان إلى المحسن تجارة .

* قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي سِرٍّ وَنَجْوَىٰ وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ

وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] .

ولما ذكر أشق ما يترك ويبذل وهو المال، اتبعه أشق ما يحبس، فقال:

﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ أي: الحابسين ﴿الْغَيْظَ﴾ عن أن ينفذوه بعد أن امتلؤوا

منه .

قال ابن تيمية: فالكاظم للغيب والعافي عن الناس قد أحسن إلى نفسه وإلى الناس، فإن ذلك عمل حسنة مع نفسه ومع الناس، ومن أحسن إلى الناس فإلى نفسه، كما يروى عن بعض السلف أنه قال: ما أحسنت إلى أحد، وما أسأت إلى أحد، وإنما أحسنت إلى نفسي، وأسأت إلى نفسي، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] .

— كان عند ميمون بن مهران ضيف، فاستعجل جاريته بالعشاء، فجاءت مسرعة ومعها إناء، فعثرت وأراقتة على رأس سيدها، فقال: يا جارية

أحرقتنني، قالت: يا معلم الخير أرجع إلي ما قال الله - تعالى - . قال: وما قال:؟ قالت: قال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، قال: كظمت غيظي، قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، قال: عفوت عنك. قالت: ﴿وَاللَّهُ نَجِيبُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، قال: اذهبي فأنت حرة.

* وبعد أن ذكر - تعالى - حال معاملتهم للخلق، وصف قيامهم بحق الحق واعتذارهم لربهم من جنایاتهم وذنوبهم، فقال:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

استفهام بمعنى النفي، أي: وهم موقنون أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، وهي جملة اعتراضية لتطيب نفوس العباد وتنشيطهم للتوبة، وليبين أن الذنوب - وإن جلت - فإن عفوه - تعالى - أجل ورحمته أوسع.

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

ولم يقيموا ولم يثبتوا على قبيح فعلهم، وهم عالمون بقبحه، بل يقلعون ويتوبون وهم يعلمون أنهم إن تابوا تاب الله عليهم، فوصفهم - تعالى - عند الذنوب بالاستغفار وعدم الإصرار وهو حقيقة التوبة النصوح، ولهذا ذكر جزاءهم، فقال:

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة، جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب. ولهم جنات برحمته تجري خلال أشجارها وقصورها المياه العذبة، ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً، ونعمت الجنة جزاء لمن أطاع الله، عملوا لله قليلاً فأجروا كثيراً.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

الأعلون فيما تدافعون عنه، فإنكم على الحق، وهم على الباطل.

الأعلون لمن تدافعون عنه، فقتالكم لله، وقتالهم للشيطان، الأعلون فيما لكم، فقتلاكم في الجنة، وقتلاهم في النار.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]،
﴿وَلَا تَهِنُوا﴾.

أي: في جهاد أعدائكم الذين هم أعداء الله، فالله معكم عليهم، وإن ظهروا يوم أحد نوع ظهور فسترون إلى من يؤول الأمر.

﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي على ما أصابكم منهم ولا على غيره مما عساه ينوبكم ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي في الدارين ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

قال ابن تيمية: المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب، قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: ١٥١].

والخالص من الشرك يحصل له الأمن: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال ابن القيم: للعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان.

* قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: الشكر له فائدتان عظيمتان، منها: الاعتراف بالله - تعالى - في حقه وفضله وإحسانه، ومنها أنه سبب لمزيد النعمة، كلما شكرت زادت نعمة الله.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ ^ط ^ح ^٢ ^٣ ^٤ ^٥ ^٦ ^٧ ^٨ ^٩ ^{١٠} ^{١١} ^{١٢} ^{١٣} ^{١٤} ^{١٥} ^{١٦} ^{١٧} ^{١٨} ^{١٩} ^{٢٠} ^{٢١} ^{٢٢} ^{٢٣} ^{٢٤} ^{٢٥} ^{٢٦} ^{٢٧} ^{٢٨} ^{٢٩} ^{٣٠} ^{٣١} ^{٣٢} ^{٣٣} ^{٣٤} ^{٣٥} ^{٣٦} ^{٣٧} ^{٣٨} ^{٣٩} ^{٤٠} ^{٤١} ^{٤٢} ^{٤٣} ^{٤٤} ^{٤٥} ^{٤٦} ^{٤٧} ^{٤٨} ^{٤٩} ^{٥٠} ^{٥١} ^{٥٢} ^{٥٣} ^{٥٤} ^{٥٥} ^{٥٦} ^{٥٧} ^{٥٨} ^{٥٩} ^{٦٠} ^{٦١} ^{٦٢} ^{٦٣} ^{٦٤} ^{٦٥} ^{٦٦} ^{٦٧} ^{٦٨} ^{٦٩} ^{٧٠} ^{٧١} ^{٧٢} ^{٧٣} ^{٧٤} ^{٧٥} ^{٧٦} ^{٧٧} ^{٧٨} ^{٧٩} ^{٨٠} ^{٨١} ^{٨٢} ^{٨٣} ^{٨٤} ^{٨٥} ^{٨٦} ^{٨٧} ^{٨٨} ^{٨٩} ^{٩٠} ^{٩١} ^{٩٢} ^{٩٣} ^{٩٤} ^{٩٥} ^{٩٦} ^{٩٧} ^{٩٨} ^{٩٩} ^{١٠٠} ^{١٠١} ^{١٠٢} ^{١٠٣} ^{١٠٤} ^{١٠٥} ^{١٠٦} ^{١٠٧} ^{١٠٨} ^{١٠٩} ^{١١٠} ^{١١١} ^{١١٢} ^{١١٣} ^{١١٤} ^{١١٥} ^{١١٦} ^{١١٧} ^{١١٨} ^{١١٩} ^{١٢٠} ^{١٢١} ^{١٢٢} ^{١٢٣} ^{١٢٤} ^{١٢٥} ^{١٢٦} ^{١٢٧} ^{١٢٨} ^{١٢٩} ^{١٣٠} ^{١٣١} ^{١٣٢} ^{١٣٣} ^{١٣٤} ^{١٣٥} ^{١٣٦} ^{١٣٧} ^{١٣٨} ^{١٣٩} ^{١٤٠} ^{١٤١} ^{١٤٢} ^{١٤٣} ^{١٤٤} ^{١٤٥} ^{١٤٦} ^{١٤٧} ^{١٤٨} ^{١٤٩} ^{١٥٠} ^{١٥١} ^{١٥٢} ^{١٥٣} ^{١٥٤} ^{١٥٥} ^{١٥٦} ^{١٥٧} ^{١٥٨} ^{١٥٩} ^{١٦٠} ^{١٦١} ^{١٦٢} ^{١٦٣} ^{١٦٤} ^{١٦٥} ^{١٦٦} ^{١٦٧} ^{١٦٨} ^{١٦٩} ^{١٧٠} ^{١٧١} ^{١٧٢} ^{١٧٣} ^{١٧٤} ^{١٧٥} ^{١٧٦} ^{١٧٧} ^{١٧٨} ^{١٧٩} ^{١٨٠} ^{١٨١} ^{١٨٢} ^{١٨٣} ^{١٨٤} ^{١٨٥} ^{١٨٦} ^{١٨٧} ^{١٨٨} ^{١٨٩} ^{١٩٠} ^{١٩١} ^{١٩٢} ^{١٩٣} ^{١٩٤} ^{١٩٥} ^{١٩٦} ^{١٩٧} ^{١٩٨} ^{١٩٩} ^{٢٠٠} ^{٢٠١} ^{٢٠٢} ^{٢٠٣} ^{٢٠٤} ^{٢٠٥} ^{٢٠٦} ^{٢٠٧} ^{٢٠٨} ^{٢٠٩} ^{٢١٠} ^{٢١١} ^{٢١٢} ^{٢١٣} ^{٢١٤} ^{٢١٥} ^{٢١٦} ^{٢١٧} ^{٢١٨} ^{٢١٩} ^{٢٢٠} ^{٢٢١} ^{٢٢٢} ^{٢٢٣} ^{٢٢٤} ^{٢٢٥} ^{٢٢٦} ^{٢٢٧} ^{٢٢٨} ^{٢٢٩} ^{٢٣٠} ^{٢٣١} ^{٢٣٢} ^{٢٣٣} ^{٢٣٤} ^{٢٣٥} ^{٢٣٦} ^{٢٣٧} ^{٢٣٨} ^{٢٣٩} ^{٢٤٠} ^{٢٤١} ^{٢٤٢} ^{٢٤٣} ^{٢٤٤} ^{٢٤٥} ^{٢٤٦} ^{٢٤٧} ^{٢٤٨} ^{٢٤٩} ^{٢٥٠} ^{٢٥١} ^{٢٥٢} ^{٢٥٣} ^{٢٥٤} ^{٢٥٥} ^{٢٥٦} ^{٢٥٧} ^{٢٥٨} ^{٢٥٩} ^{٢٦٠} ^{٢٦١} ^{٢٦٢} ^{٢٦٣} ^{٢٦٤} ^{٢٦٥} ^{٢٦٦} ^{٢٦٧} ^{٢٦٨} ^{٢٦٩} ^{٢٧٠} ^{٢٧١} ^{٢٧٢} ^{٢٧٣} ^{٢٧٤} ^{٢٧٥} ^{٢٧٦} ^{٢٧٧} ^{٢٧٨} ^{٢٧٩} ^{٢٨٠} ^{٢٨١} ^{٢٨٢} ^{٢٨٣} ^{٢٨٤} ^{٢٨٥} ^{٢٨٦} ^{٢٨٧} ^{٢٨٨} ^{٢٨٩} ^{٢٩٠} ^{٢٩١} ^{٢٩٢} ^{٢٩٣} ^{٢٩٤} ^{٢٩٥} ^{٢٩٦} ^{٢٩٧} ^{٢٩٨} ^{٢٩٩} ^{٣٠٠} ^{٣٠١} ^{٣٠٢} ^{٣٠٣} ^{٣٠٤} ^{٣٠٥} ^{٣٠٦} ^{٣٠٧} ^{٣٠٨} ^{٣٠٩} ^{٣١٠} ^{٣١١} ^{٣١٢} ^{٣١٣} ^{٣١٤} ^{٣١٥} ^{٣١٦} ^{٣١٧} ^{٣١٨} ^{٣١٩} ^{٣٢٠} ^{٣٢١} ^{٣٢٢} ^{٣٢٣} ^{٣٢٤} ^{٣٢٥} ^{٣٢٦} ^{٣٢٧} ^{٣٢٨} ^{٣٢٩} ^{٣٣٠} ^{٣٣١} ^{٣٣٢} ^{٣٣٣} ^{٣٣٤} ^{٣٣٥} ^{٣٣٦} ^{٣٣٧} ^{٣٣٨} ^{٣٣٩} ^{٣٤٠} ^{٣٤١} ^{٣٤٢} ^{٣٤٣} ^{٣٤٤} ^{٣٤٥} ^{٣٤٦} ^{٣٤٧} ^{٣٤٨} ^{٣٤٩} ^{٣٥٠} ^{٣٥١} ^{٣٥٢} ^{٣٥٣} ^{٣٥٤} ^{٣٥٥} ^{٣٥٦} ^{٣٥٧} ^{٣٥٨} ^{٣٥٩} ^{٣٦٠} ^{٣٦١} ^{٣٦٢} ^{٣٦٣} ^{٣٦٤} ^{٣٦٥} ^{٣٦٦} ^{٣٦٧} ^{٣٦٨} ^{٣٦٩} ^{٣٧٠} ^{٣٧١} ^{٣٧٢} ^{٣٧٣} ^{٣٧٤} ^{٣٧٥} ^{٣٧٦} ^{٣٧٧} ^{٣٧٨} ^{٣٧٩} ^{٣٨٠} ^{٣٨١} ^{٣٨٢} ^{٣٨٣} ^{٣٨٤} ^{٣٨٥} ^{٣٨٦} ^{٣٨٧} ^{٣٨٨} ^{٣٨٩} ^{٣٩٠} ^{٣٩١} ^{٣٩٢} ^{٣٩٣} ^{٣٩٤} ^{٣٩٥} ^{٣٩٦} ^{٣٩٧} ^{٣٩٨} ^{٣٩٩} ^{٤٠٠} ^{٤٠١} ^{٤٠٢} ^{٤٠٣} ^{٤٠٤} ^{٤٠٥} ^{٤٠٦} ^{٤٠٧} ^{٤٠٨} ^{٤٠٩} ^{٤١٠} ^{٤١١} ^{٤١٢} ^{٤١٣} ^{٤١٤} ^{٤١٥} ^{٤١٦} ^{٤١٧} ^{٤١٨} ^{٤١٩} ^{٤٢٠} ^{٤٢١} ^{٤٢٢} ^{٤٢٣} ^{٤٢٤} ^{٤٢٥} ^{٤٢٦} ^{٤٢٧} ^{٤٢٨} ^{٤٢٩} ^{٤٣٠} ^{٤٣١} ^{٤٣٢} ^{٤٣٣} ^{٤٣٤} ^{٤٣٥} ^{٤٣٦} ^{٤٣٧} ^{٤٣٨} ^{٤٣٩} ^{٤٤٠} ^{٤٤١} ^{٤٤٢} ^{٤٤٣} ^{٤٤٤} ^{٤٤٥} ^{٤٤٦} ^{٤٤٧} ^{٤٤٨} ^{٤٤٩} ^{٤٥٠} ^{٤٥١} ^{٤٥٢} ^{٤٥٣} ^{٤٥٤} ^{٤٥٥} ^{٤٥٦} ^{٤٥٧} ^{٤٥٨} ^{٤٥٩} ^{٤٦٠} ^{٤٦١} ^{٤٦٢} ^{٤٦٣} ^{٤٦٤} ^{٤٦٥} ^{٤٦٦} ^{٤٦٧} ^{٤٦٨} ^{٤٦٩} ^{٤٧٠} ^{٤٧١} ^{٤٧٢} ^{٤٧٣} ^{٤٧٤} ^{٤٧٥} ^{٤٧٦} ^{٤٧٧} ^{٤٧٨} ^{٤٧٩} ^{٤٨٠} ^{٤٨١} ^{٤٨٢} ^{٤٨٣} ^{٤٨٤} ^{٤٨٥} ^{٤٨٦} ^{٤٨٧} ^{٤٨٨} ^{٤٨٩} ^{٤٩٠} ^{٤٩١} ^{٤٩٢} ^{٤٩٣} ^{٤٩٤} ^{٤٩٥} ^{٤٩٦} ^{٤٩٧} ^{٤٩٨} ^{٤٩٩} ^{٥٠٠} ^{٥٠١} ^{٥٠٢} ^{٥٠٣} ^{٥٠٤} ^{٥٠٥} ^{٥٠٦} ^{٥٠٧} ^{٥٠٨} ^{٥٠٩} ^{٥١٠} ^{٥١١} ^{٥١٢} ^{٥١٣} ^{٥١٤} ^{٥١٥} ^{٥١٦} ^{٥١٧} ^{٥١٨} ^{٥١٩} ^{٥٢٠} ^{٥٢١} ^{٥٢٢} ^{٥٢٣} ^{٥٢٤} ^{٥٢٥} ^{٥٢٦} ^{٥٢٧} ^{٥٢٨} ^{٥٢٩} ^{٥٣٠} ^{٥٣١} ^{٥٣٢} ^{٥٣٣} ^{٥٣٤} ^{٥٣٥} ^{٥٣٦} ^{٥٣٧} ^{٥٣٨} ^{٥٣٩} ^{٥٤٠} ^{٥٤١} ^{٥٤٢} ^{٥٤٣} ^{٥٤٤} ^{٥٤٥} ^{٥٤٦} ^{٥٤٧} ^{٥٤٨} ^{٥٤٩} ^{٥٥٠} ^{٥٥١} ^{٥٥٢} ^{٥٥٣} ^{٥٥٤} ^{٥٥٥} ^{٥٥٦} ^{٥٥٧} ^{٥٥٨} ^{٥٥٩} ^{٥٦٠} ^{٥٦١} ^{٥٦٢} ^{٥٦٣} ^{٥٦٤} ^{٥٦٥} ^{٥٦٦} ^{٥٦٧} ^{٥٦٨} ^{٥٦٩} ^{٥٧٠} ^{٥٧١} ^{٥٧٢} ^{٥٧٣} ^{٥٧٤} ^{٥٧٥} ^{٥٧٦} ^{٥٧٧} ^{٥٧٨} ^{٥٧٩} ^{٥٨٠} ^{٥٨١} ^{٥٨٢} ^{٥٨٣} ^{٥٨٤} ^{٥٨٥} ^{٥٨٦} ^{٥٨٧} ^{٥٨٨} ^{٥٨٩} ^{٥٩٠} ^{٥٩١} ^{٥٩٢} ^{٥٩٣} ^{٥٩٤} ^{٥٩٥} ^{٥٩٦} ^{٥٩٧} ^{٥٩٨} ^{٥٩٩} ^{٦٠٠} ^{٦٠١} ^{٦٠٢} ^{٦٠٣} ^{٦٠٤} ^{٦٠٥} ^{٦٠٦} ^{٦٠٧} ^{٦٠٨} ^{٦٠٩} ^{٦١٠} ^{٦١١} ^{٦١٢} ^{٦١٣} ^{٦١٤} ^{٦١٥} ^{٦١٦} ^{٦١٧} ^{٦١٨} ^{٦١٩} ^{٦٢٠} ^{٦٢١} ^{٦٢٢} ^{٦٢٣} ^{٦٢٤} ^{٦٢٥} ^{٦٢٦} ^{٦٢٧} ^{٦٢٨} ^{٦٢٩} ^{٦٣٠} ^{٦٣١} ^{٦٣٢} ^{٦٣٣} ^{٦٣٤} ^{٦٣٥} ^{٦٣٦} ^{٦٣٧} ^{٦٣٨} ^{٦٣٩} ^{٦٤٠} ^{٦٤١} ^{٦٤٢} ^{٦٤٣} ^{٦٤٤} ^{٦٤٥} ^{٦٤٦} ^{٦٤٧} ^{٦٤٨} ^{٦٤٩} ^{٦٥٠} ^{٦٥١} ^{٦٥٢} ^{٦٥٣} ^{٦٥٤} ^{٦٥٥} ^{٦٥٦} ^{٦٥٧} ^{٦٥٨} ^{٦٥٩} ^{٦٦٠} ^{٦٦١} ^{٦٦٢} ^{٦٦٣} ^{٦٦٤} ^{٦٦٥} ^{٦٦٦} ^{٦٦٧} ^{٦٦٨} ^{٦٦٩} ^{٦٧٠} ^{٦٧١} ^{٦٧٢} ^{٦٧٣} ^{٦٧٤} ^{٦٧٥} ^{٦٧٦} ^{٦٧٧} ^{٦٧٨} ^{٦٧٩} ^{٦٨٠} ^{٦٨١} ^{٦٨٢} ^{٦٨٣} ^{٦٨٤} ^{٦٨٥} ^{٦٨٦} ^{٦٨٧} ^{٦٨٨} ^{٦٨٩} ^{٦٩٠} ^{٦٩١} ^{٦٩٢} ^{٦٩٣} ^{٦٩٤} ^{٦٩٥} ^{٦٩٦} ^{٦٩٧} ^{٦٩٨} ^{٦٩٩} ^{٧٠٠} ^{٧٠١} ^{٧٠٢} ^{٧٠٣} ^{٧٠٤} ^{٧٠٥} ^{٧٠٦} ^{٧٠٧} ^{٧٠٨} ^{٧٠٩} ^{٧١٠} ^{٧١١} ^{٧١٢} ^{٧١٣} ^{٧١٤} ^{٧١٥} ^{٧١٦} ^{٧١٧} ^{٧١٨} ^{٧١٩} ^{٧٢٠} ^{٧٢١} ^{٧٢٢} ^{٧٢٣} ^{٧٢٤} ^{٧٢٥} ^{٧٢٦} ^{٧٢٧} ^{٧٢٨} ^{٧٢٩} ^{٧٣٠} ^{٧٣١} ^{٧٣٢} ^{٧٣٣} ^{٧٣٤} ^{٧٣٥} ^{٧٣٦} ^{٧٣٧} ^{٧٣٨} ^{٧٣٩} ^{٧٤٠} ^{٧٤١} ^{٧٤٢} ^{٧٤٣} ^{٧٤٤} ^{٧٤٥} ^{٧٤٦} ^{٧٤٧} ^{٧٤٨} ^{٧٤٩} ^{٧٥٠} ^{٧٥١} ^{٧٥٢} ^{٧٥٣} ^{٧٥٤} ^{٧٥٥} ^{٧٥٦} ^{٧٥٧} ^{٧٥٨} ^{٧٥٩} ^{٧٦٠} ^{٧٦١} ^{٧٦٢} ^{٧٦٣} ^{٧٦٤} ^{٧٦٥} ^{٧٦٦} ^{٧٦٧} ^{٧٦٨} ^{٧٦٩} ^{٧٧٠} ^{٧٧١} ^{٧٧٢} ^{٧٧٣} ^{٧٧٤} ^{٧٧٥} ^{٧٧٦} ^{٧٧٧} ^{٧٧٨} ^{٧٧٩} ^{٧٨٠} ^{٧٨١} ^{٧٨٢} ^{٧٨٣} ^{٧٨٤} ^{٧٨٥} ^{٧٨٦} ^{٧٨٧} ^{٧٨٨} ^{٧٨٩} ^{٧٩٠} ^{٧٩١} ^{٧٩٢} ^{٧٩٣} ^{٧٩٤} ^{٧٩٥} ^{٧٩٦} ^{٧٩٧} ^{٧٩٨} ^{٧٩٩} ^{٨٠٠} ^{٨٠١} ^{٨٠٢} ^{٨٠٣} ^{٨٠٤} ^{٨٠٥} ^{٨٠٦} ^{٨٠٧} ^{٨٠٨} ^{٨٠٩} ^{٨١٠} ^{٨١١} ^{٨١٢} ^{٨١٣} ^{٨١٤} ^{٨١٥} ^{٨١٦} ^{٨١٧} ^{٨١٨} ^{٨١٩} ^{٨٢٠} ^{٨٢١} ^{٨٢٢} ^{٨٢٣} ^{٨٢٤} ^{٨٢٥} ^{٨٢٦} ^{٨٢٧} ^{٨٢٨} ^{٨٢٩} ^{٨٣٠} ^{٨٣١} ^{٨٣٢} ^{٨٣٣} ^{٨٣٤} ^{٨٣٥} ^{٨٣٦} ^{٨٣٧} ^{٨٣٨} ^{٨٣٩} ^{٨٤٠} ^{٨٤١} ^{٨٤٢} ^{٨٤٣} ^{٨٤٤} ^{٨٤٥} ^{٨٤٦} ^{٨٤٧} ^{٨٤٨} ^{٨٤٩} ^{٨٥٠} ^{٨٥١} ^{٨٥٢} ^{٨٥٣} ^{٨٥٤} ^{٨٥٥} ^{٨٥٦} ^{٨٥٧} ^{٨٥٨} ^{٨٥٩} ^{٨٦٠} ^{٨٦١} ^{٨٦٢} ^{٨٦٣} ^{٨٦٤} ^{٨٦٥} ^{٨٦٦} ^{٨٦٧} ^{٨٦٨} ^{٨٦٩} ^{٨٧٠} ^{٨٧١} ^{٨٧٢} ^{٨٧٣} ^{٨٧٤} ^{٨٧٥} ^{٨٧٦} ^{٨٧٧} ^{٨٧٨} ^{٨٧٩} ^{٨٨٠} ^{٨٨١} ^{٨٨٢} ^{٨٨٣} ^{٨٨٤} ^{٨٨٥} ^{٨٨٦} ^{٨٨٧} ^{٨٨٨} ^{٨٨٩} ^{٨٩٠} ^{٨٩١} ^{٨٩٢} ^{٨٩٣} ^{٨٩٤} ^{٨٩٥} ^{٨٩٦} ^{٨٩٧} ^{٨٩٨} ^{٨٩٩} ^{٩٠٠} ^{٩٠١} ^{٩٠٢} ^{٩٠٣} ^{٩٠٤} ^{٩٠٥} ^{٩٠٦} ^{٩٠٧} ^{٩٠٨} ^{٩٠٩} ^{٩١٠} ^{٩١١} ^{٩١٢} ^{٩١٣} ^{٩١٤} ^{٩١٥} ^{٩١٦} ^{٩١٧} ^{٩١٨} ^{٩١٩} ^{٩٢٠} ^{٩٢١} ^{٩٢٢} ^{٩٢٣} ^{٩٢٤} ^{٩٢٥} ^{٩٢٦} ^{٩٢٧} ^{٩٢٨} ^{٩٢٩} ^{٩٣٠} ^{٩٣١} ^{٩٣٢} ^{٩٣٣} ^{٩٣٤} ^{٩٣٥} ^{٩٣٦} ^{٩٣٧} ^{٩٣٨} ^{٩٣٩} ^{٩٤٠} ^{٩٤١} ^{٩٤٢} ^{٩٤٣} ^{٩٤٤} ^{٩٤٥} ^{٩٤٦} ^{٩٤٧} ^{٩٤٨} ^{٩٤٩} ^{٩٥٠} ^{٩٥١} ^{٩٥٢} ^{٩٥٣} ^{٩٥٤} ^{٩٥٥} ^{٩٥٦} ^{٩٥٧} ^{٩٥٨} ^{٩٥٩} ^{٩٦٠} ^{٩٦١} ^{٩٦٢} ^{٩٦٣} ^{٩٦٤} ^{٩٦٥} ^{٩٦٦} <

لما ذكر الفشل عطف عليه ما هو بسببه في الغالب وهو التنازع والمعصية.

* قال تعالى: ﴿وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أُرْنَكُم مَّا تَحِبُّونَ...﴾ [آل عمران: ١٥٢].
المعصية بعد النعمة أشد من المعصية قبل النعمة، لقوله: ﴿وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أُرْنَكُم مَّا تَحِبُّونَ﴾.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

قال ابن عثيمين: إثبات أن للشيطان تأثيراً على العبد حتى في عمله الصالح وحتى في الجهاد، لقوله: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾.

ولكن بماذا تحصل العصمة من هذا الشيطان؟ تحصل العصمة بما ذكره الله - عز وجل - في قوله: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الاعراف: ٢٠٠] كلما أحسست بشيء في داخلك ينهاك عن معروف ويأمرك بمنكر، فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قال العلماء: إن المعاصي سبب لخذلان الله للعبد أحوج ما يكون إليه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]. وقد عاقبهم الله ببعض ما كسبوا؛ فكيف لو عاقبهم به كله؟

* قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾.

فبسبب رحمة من الله وتوفيقه للرفق والتلطف بهم أودعها الله في قلبك - يا محمد - كنت هيناً لين الجانب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك.

وقد دلت الآية على أن لينه - عليه الصلاة والسلام - لمن خالفوا أمره، وتولوا عن موقع القتال؛ إنما كان برحمة من الله، فالله حقيق بحمد نبيه ﷺ إذ وفقه بفضيلة الرفق لأولئك المؤمنين، وحقيق بحمد أولئك المؤمنين،

إذا كان لين رسوله ﷺ إنما هو أثر من آثار رحمة الله .

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

ولو كنت جافي الطبع قاسي القلب، تعاملهم بالغلظة والجفاء، لتفرقوا عنك ونفروا منك .

قال السعدي : ولما كانت الفظاظ في الكلام نفى الجفاء عن لسانه والقسوة عن قلبه، فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص . فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والافتداء به أن يكون كلا على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول، فظيعة؟

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

ليعتبر بهذه الآية من يتولى أمراً يستدعي أن يكون بجانبه أصحاب يظاهرونه عليه، حتى يعلم يقينا أن قوة الذكاء وغزارة العلم، وسعة الحياة وعظم الثراء؛ لا تكسبه أنصار مخلصين، ولا تجمع عليه من فضلاء الناس من يثق بصحبته، إلا أن يكون صاحب خلق كريم، من اللين، والصفح والاحتمال .

* عن أبي الدرداء قال : ما من مؤمن إلا الموت خير له، وما من كافر إلا الموت خير له، فمن لم يصدقني؛ فإن الله يقول : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾

﴿ [آل عمران: ١٩٨] ويقول : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنََّّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٨] .

* قال تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ [آل عمران: ١٨٦] .

أخبرهم ليوطنوا أنفسهم على احتماله، ويستعدوا للقاءه ويقابلوه بحسن

الصبر والثبات، فإن هجوم البلاء مما يزيد في اللأواء، والاستعداد للكرب مما يهون الخطب.

*** قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾.**

أي: لا تظنن - يا محمد - الذين يفرحون بما أتوا من إخفاء أمرك عن الناس، ويحبون أن يحمدهم الناس ويشنوا عليهم بما لم يفعلوا، وهم المراءون المتكثرون بما لم يعطوا.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فلا تظننهم بمنجاة من عذاب الله في الدنيا. ولهم في الآخرة عذاب مؤلم.

قال ابن عباس: نزلت في أهل الكتاب؛ سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه.

وفي الآية وعيد شديد لكل آت لفعل سوء معجب به، ولكل مفتخر بما لم يعمل ليثني عليه الناس ويحمدوه، وطلب المدح من الخلق ومحبته والعقوبة على تركه، لا يصلح إلا لله وحده لا شريك له، ومن هنا كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أعمالهم وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له، فإن النعم كلها منه - جل وعلا -.

*** في الحديث أنه - عليه الصلاة والسلام - بكى حتى بلّ لحيته وبل الأرض؛ وقال: «لقد أنزلت عليّ الليلة آية، وبل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»** **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾** الآيات من آخر آل عمران. [رواه ابن حبان].

*** قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾** [آل عمران: ١٩١].

قال ابن القيم: فيه الذكر على كل حال، فيستفاد منه جواز قراءة

القرآن للحائض، وهو مذهب مالك، وقول لأحمد والشافعي، وكثير من المحققين، وأما حديث: «لا تقرأ الحائض والجنب شيئاً من القرآن»، فمعلوم باتفاق أهل الشأن، وفي منعها من القرآن وتدبره فوات خير كثير، خاصة وأن حيضتها ليست بيدها.

* ثم مدحهم - تعالى - بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وهذا دليل على أن التوسل بأفعال الله - تعالى - وربوبيته من أسباب إجابة الدعاء، فإنه قال بعد ذلك: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. - وقد جاء الثناء عليهم بصيغة الفعل المضارع ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ التي تدل على الاستمرار، فالتفكر ديدنهم، وليس أمراً عارضاً.

* قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. فيه تعليم العباد كيفية الدعاء وآدابه، وذلك أن من أراد الدعاء فليقدم الثناء، ثم يذكر بعده الدعاء، كهذه الآية. ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. قال القرطبي: جاءت هذه الآية بعد أن دعوا ربهم بخمس دعوات عظيمة.

قال الحسن: ما زالوا يقولون ربنا ربنا حتى استجاب لهم، فكم يخسر المقصرون في عبادة الدعاء، والمتعجلون في رؤية ثمرته؟! وكم يربح ويسعد من فتح له باب الدعاء، ومناجاة مولاه الذي يحب الملحين في الدعاء. ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

إضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلاً كثيراً.

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. **الصبر:** حال الصابر نفسه.

والمصابرة: مقاومة الخصم فهي مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين .
والمرابطة: الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة، وكما أن المrabطة لزوم الشجر الذي يخاف هجوم العدو، فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان .

وقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرباط، وقد يصبر ويصابر ويرباط من غير تعبد بالتقوى، ولهذا أمر به في هذا الموضع .

قال ابن عثيمين: إن كنت تريد الفلاح، فهذه أسبابه، وهذه طريقته ﴿ أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

سورة النساء ٤

سورة النساء إحدى السور المدنية الطويلة، وهي سورة مليئة بالأحكام الشرعية، التي تنظم الشؤون الداخلية والخارجية للمسلمين، وهي تُعنى بجانب التشريع كما هو الحال في السور المدنية، وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور هامة تتعلق بالمرأة، والبيت، والأسرة، والدولة، والمجتمع، وركزت على حقوق الضعفة كالأيتام والنساء والمستضعفين في الأرض، ولكن معظم الأحكام التي وردت فيها كانت تبحث حول موضوع النساء، ولهذا سميت «سورة النساء» لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن، بدرجة لم توجد في غيرها من السور، ولذلك أطلق عليها «سورة النساء الكبرى» في مقابلة «سورة النساء الصغرى» التي عرفت في القرآن بسورة الطلاق.

سورة النساء عامتها في حقوق الضعفاء: المرأة، واليتيم، واليتيمة، والسفيه، والوارث الضعيف، والذي يغلب في التجارة، والموالي (الخدم)، والمظلوم، والمريض، والمسافر، والخائف، والمستضعف في الأرض، والكلالة ونحوهم؛ لذا لم يأمر الله - عز وجل - بالقسط (العدل) في شيء من القرآن كما أمر به في سورتي النساء والمائدة، معاقدها تدور على القسط والعدل.

- ففي مطلعها قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا آلَيْتَمَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٢]، وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي آلَيْتَمَىٰ﴾ [النساء: ٣]، وقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ مَحَلَّةً﴾ [النساء: ٤]، وقوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: ٦].

الزيادة في كلمة ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ للزيادة في المعنى وقد خرجت بصيغة الأمر خشية امتناعه من الأكل ورغبة في إظهاره التعفف.

* وفي وسطها قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تَخْشَفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [النساء: ٤٣].

* وفي أواخرها: أن الجهاد فيها من أجل الضعفاء: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

ونقرأ فيها صلاة الخوف: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] الآيات.

* وتكرر الأمر فيها بالعدل مع الضعفاء، والتخويف باطلاع الله وكمال علمه بالخفايا، كما قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا هَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وختمت النساء بآية الكلالة: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] والكلالة: من لا ولد له ولا والد، وهذا نوع ضعف في ظاهر. وغيرهم كثير.

- ثم تأمل بعضاً من تهديد الله للباغين على حقوق الضعفاء: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦].

* وبعد آية المواريث وعد وتوعد سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣ - ١٤].

* وقال في المهر: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

* وقال في شأن الزوجة وظلمها: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

* وقال في الأموال وظلم الناس فيها: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ٣٥] وأخذهم الربوا وقد هُؤُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا [النساء: ٣٦].

* وقد ذكر - تعالى - في السورة أحوال اليهود لكثرتهم بالمدينة، وأحوال المنافقين وفضائحهم، وأحكام الجهاد لدفع شوكة المشركين، وأحكام معاملة المشركين، ومساوئهم، ووجوب هجرة المؤمنين من مكة، وإبطال مآثر الجاهلية.

* وجه مناسبة سورة النساء لآل عمران، أن سورة آل عمران حينما ختمت بالأمر بالتقوى، وافتتحت هذه السورة به.

* قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَتْقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ﴾

[النساء: ١]، جعل الله هذا المطلع مطلعاً لسورتين في القرآن، أحدهما هذه السورة - سورة آل عمران -، وهي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن، والثانية سورة الحج وهي أيضاً الخامسة من النصف الثاني من القرآن.

* قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

وفسرها الحديث الصحيح: «إن المرأة خلقت من ضلع»، وهو ضلع الصدر، وهذا ما فيه إشارة ظاهرة إلى طبيعة التكامل بين الرجل والمرأة، فالمرأة خلقت من الرجل ومن ضلعه تحديداً لا ليخفقها؛ بل ليعطف عليها بجناحه حباً وحماية لها كما يفعل بأضلاع صدره، وهي كذلك لتبقى في محلها، فإن نشوز عظم الصدر مؤلم، بل ترق وتلين له كما الضلع في رفته ولينه.

* قال تعالى: ﴿وَأَتُوا الَّتِي تَمَى أَمْوَالُهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

وهذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة، وهم اليتامى، والخطاب للأولياء والأوصياء، أي: أعطوا اليتامى الذين مات آباؤهم وهم دون البلوغ، وكنتم عليهم أوصياء أموالهم كاملة موفورة إذا بلغوا ورأيتم منهم قدرة على حفظ أموالهم.

* لما ذكر - سبحانه - حكم أموال اليتامى وصله بأحكام المواريث وكيفية قسمتها بين الورثة، وأفرد - سبحانه - ذكر النساء بعد ذكر الرجال، ولم يقل للرجال والنساء نصيب، للإيذان بأصالتهم، ودفع ما كان العرب في الجاهلية من جبروتهم وقسوتهم؛ حيث كانوا لا يورثون للضعفاء، كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء؛ لأنهم بزعمهم أهل الحرب والقتال، والسلب والنهب، فأراد الرب الرحيم الحكيم، أن يشرع لعباده

شرعاً، يستوي فيه رجالهم ونساؤهم، وأقوياءهم وضعفاؤهم، وقدم بين يدي ذلك أمر مجملًا، لتوطن على ذلك النفوس، فقال تعالى:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ .

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨] .

ويؤخذ من المعنى أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر .

وكان الصحابة - رضي الله عنهم - إذا بدأت باكورة أشجارهم - أتوا بها رسول الله ﷺ، فبرك عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده فأعطاه ذلك، علماً منه بشدة تشوفه لذلك .

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] .

وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر، نسأل الله العافية .

* قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾

[النساء: ١١] .

قال ابن كثير - رحمه الله - استنبط بعض الأذكياء من الآية: أنه - تعالى - أرحم بخلقه من الوالد بولده، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعلم أنه أرحم بهم منهم، كما جاء في الحديث الصحيح، فنسأل الله أن يشملنا بواسع رحمته .

* قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢] .

قال في جلاء الأفهام: تأمل تعليقه - سبحانه - التوارث بلفظ الزوجة دون المرأة، إيداناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث، وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين.

* لما بين - سبحانه وتعالى - حكم الرجال والنساء في باب النكاح والميراث، ووجوب الإحسان إلى النساء وإيصال صدقاتهن إليهن، وميراثهن مع الرجل، ذكر التخليط عليهن فيما يأتين به من الفاحشة لئلا يتوهمن أنه يسوغ لهن ترك التعفف، وبين حكم الحدود فيهن إذا ارتكبن الحرام، قال تعالى:

﴿وَالَّذِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيْنَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا فَأَبْرَأْنَا بَأْسَنا وَأَصْلَحْنَا فَأَعَرَضُوا عَنْهُمَا ۝ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝﴾ .

واشترط: الأربعة، والإيمان، والعدالة، والذكور، في الشهود تغليظاً وسترًا على العباد.

وفي التعبير عن الإقدام على الفواحش بقوله ﴿يَأْتِيَنَّ﴾ لطيفة، وهي أن المكلف كأنه ذهب إليها من عند نفسه واختارها بمجرد طبعه.

وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝﴾ .

غاية لانتهااء الحكم ينفي وجود النسخ، إنما هو إشعار بأن هذا الحكم سينسخه حكم آخر.

- قيل الحبس في البيت بالمرأة، وخص الإيذاء بالرجل؛ لأن المرأة إنما تقع في الزنى عند الخروج والبروز، فإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية، وأما الرجل فإنه لا يمكن حبسه في البيت؛ لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه واكتساب قوت عياله، فلا جرم جعلت عقوبتهما مختلفة.

* قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

فسوى بين الفسق والكفر، تنفيراً من الفسق لصعوبة النزع منه بعد موافقته.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾.

إنما التوبة التي كتب الله على نفسه قبولها هي توبة من فعل المعصية بجهل منه لعاقبتها، ثم ندم وأتاب؛ فكل عاص لله خاطئاً أو متعمداً فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالماً بالتحريم.

قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصي به الله فهو جهالة عمداً كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل.

* وتناولت السورة الكريمة نفي الظلم عن الزوجات، وفيها تنظيم العلاقات الزوجية، وبينت أنها ليست علاقة جسمية وإنما علاقة إنسانية، وأن المهر ليس أجراً ولا ثمناً، بل هو عطاء يوثق المحبة، ويديم العشرة، ويربط القلوب، وكانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاؤوا تزوجها أحدهم، وإن شاؤوا زوجها غيرهم، وإن شاؤوا منعوها الزواج، قال تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ^ط وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾.

أي: لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالميتات، ينتقل بالإرث من إنسان إلى آخر، وترثوهن بعد موت أزواجهن كرهاً عنهن. ولا يحل لكم أن تمنعهن من الزواج، أو تضيقوا عليهن لتذهبوا ببعض ما دفعتموهن لهن من الصداق ونحوه. لا يكون العضل إلا في حال إتيانهن بفاحشة الزنى، والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها.

قال ابن عباس: الفاحشة المبينة النشوز والعصيان؛ فلكم حيثنذ إمساكهن حتى تأخذوا ما أعطيتموهن.

﴿وَعَاثِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۚ﴾ أي: صاحبوهن بما أمركم الله به من طيب القول؛ والمعاملة بالإحسان والتكريم والمحبة، وأداء ما لهن من حقوق، وقيل هي: الإجمال في القول والمبيت والنفقة. فإن كرهتم صحبتهن لسبب من الأسباب الدنيوية بقبح أو سوء خلق، فاصبروا عليهن واستمروا في الإحسان إليهن، فإن في ذلك خيراً كثيراً، من ذلك امثال أمر الله، وقبول وصيته التي فيها سعادة الدارين، وربما أن يرزقكم الله منهن ولداً صالحاً تقر به أعينكم، أو يعطفه الله عليها، أو يناله الأجر العظيم على صبره، وعسى أن يكون في الشيء المكروه الخير الكثير، وفي الحديث: «لا يفرك - أي لا يبغض - مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر» [رواه مسلم].

* قال تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ٢٤].

قال السعدي: كل ما لم يذكر في هذه الآية فإنه حلال طيب، فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر؛ لطفاً من الله ورحمة وتيسيراً للعباد.

* قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِمْ نَصَفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

قال السعدي: وختم هذه الآية بهذين الإسمين الكريمين ﴿غَفُورٌ﴾، و﴿رَحِيمٌ﴾. لكون هذه الأحكام رحمة بالعباد وكرماً وإحساناً إليهم فلم يضيق عليهم بل وسع عليهم غاية السعة، ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات يغفر الله بها ذنوب عباده، كما ورد بذلك الحديث.

* قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

قليل أصل العنت انكسار العظم بعد الجبر، فاستعير لكل مشقة وضرر يعتري الإنسان بعد صلاح حاله، ولا ضرر أعظم من مواجهة المآثم بارتكاب أفحش القبائح.

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

واسع المغفرة، عظيم الرحمة إذ أذن لكم في نكاحهن عند العجز عن نكاح الحرائر.

والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه.

وأما الرحمة فهي صفة من صفات الله - عز وجل - تقتضي الإحسان إلى الخلق ودفع الضرر عنهم.

والغفور يستر المحذور، والرحيم يكشف المحذور.

* في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

بيان لضعف الإنسان الجبلي، وفيه إرشاد له ألا يغرر بنفسه فيلقي بها في مواطن الشهوات؛ ثقة بعلمه ودينه، فمن حام حول الحمى أوشك أن يرتع فيه.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرَّجَالِ نَاصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا...﴾ [النساء: ٣٢].

قال الشيخ بكر أبو زيد في كتابه حراسة الفضيلة: فإذا كان هذا النهي - بنص القرآن - عن مجرد التمني، فكيف بمن ينكر الفوارق الشرعية بين الرجل والمرأة، وينادي بإلغائها، ويطالب بالمساواة، ويدعو إليها باسم المساواة بين الرجل والمرأة.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢].

قال البغوي: فنهى الله - تعالى - عن التمني لما فيه من دواعي الحسد. والحسد أن يتمنى زوال النعم عن صاحبه، سواء تمنّاها لنفسه أم لا، وهو حرام. والغبطة أن يتمنى لنفسه مثل ما لصاحبه وهو جائز.

قال الكلبي: لا يتمنى الرجل مال أخيه ولا امرأته ولا خادمه، ولكن ليقبل اللهم ارزقني مثله.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

إذا منع الله عباده المؤمنين شيئاً تتعلق به إرادتهم، فتح لهم باباً أنفع لهم منه وأسهل وأولى، وهذا من لطفه.

* ثم تناولت الآيات حق الزوج على زوجته، عندما يبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين، وبينت معنى قوامة الرجل وأنها ليست قوامة استعباد وتسخير، وإنما هي قوامة نصح وتأديب كالتي تكون بين الراعي ورعيته، وأن الرجال يتولون أمر النساء في المسؤولية والتوجيه، فقال تعالى:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.

أي: الرجال قائمون عليهن بالأمر والنهي، والإنفاق والكسوة والمسكن والتوجيه والرعاية كما يقوم الولاة على الرعية، بسبب ما منحه الله من العقل والتدبير، وخصهم به من الكسب والإنفاق، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والإنفاق والتأديب.

قال المفسرون: والتفضيل للرجل لكمال العقل وحسن التدبير، ورزانة الرأي ومزيد القوة، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك. روي أن سعد بن الربيع - وكان نقيباً من نقباء الأنصار - نشرت عليه امرأته حبيبة بنت زيد فلطمها، فانطلق أبوها معها إلى رسول الله ﷺ فقال: أفرشته كريمتي فلطمها، فقال النبي ﷺ: «لَتَقْتَصَّ مِنْهُ» فنزلت: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ فقال ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير».

✽ قال السعدي - رحمه الله - عن النساء:

قسم هن أعلى طبقات النساء وخير ما حازه الرجال، وهن المذكورات في قوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] أي مطيعات لله ولأزواجهن، قد أدت الحقيقتين، وفازت بكفيلين من الثواب، حافظات أنفسهن من جميع الريب، وحافظات لأمانتهن ورعاية بيوتهن، وحافظات للعائلة بالتربية الحسنة، والأدب النافع في الدين والدنيا، وعليهن بذل الجهد والاستعانة بالله على ذلك؛ فلهذا قال: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أي: إذا وفقن لهذا الأمر الجليل فليحمدن الله على ذلك، ويعلمن أن هذا من حفظه وتوفيقه وتيسيره لها، فإن من وكل إلى نفسه فالنفس أمارة بالسوء. ومن شاهد منة الله، وتوكل على الله، وبذل مقدوره في الأعمال النافعة، كفاه الله ما أهمه، وأصلح له أموره، ويسر له الخير، وأجراه على عوائده الجميلة.

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾.

هذا تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل، وقد ذكر - تعالى - أنهن قسمان:

قسم صالحات مطيعات، وقسم عاصيات متمردات، فالنساء الصالحات مطيعات لله ولأزواجهن مستقيمات على شرعه، قائمات بما عليهن من حقوق، ويحفظن أنفسهن عن الفاحشة، وأموال أزواجهن عن التبذير،

كما أنهن حافظات لما يجري بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتبه ويحمله ستره.

﴿حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

قال السعدي: وذلك بحفظ الله لهن وتوفيقه لهن، لا من أنفسهن لأن النفس أمانة بالسوء، ولكن من توكل على الله كفاه ما أهمه من أمر دينه ودنياه.

﴿فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرِبُوهُنَّ﴾.

أي: فخوفوهن الله بطريق النصيح والإرشاد، وبالكلمة الطيبة، وبيان حكم الله في طاعة الزوج من الترهيب من معصيته. والوعظ: ما خُتم بترغيب وترهيب، فإن انتهت فذلك المطلوب، وإن لم ينجح الوعظ والتذكير؛ فاهجروهن في الفراش فلا تكلموهن ولا تقربوهن.

قال ابن عباس: الهجر ألا يجامعها وأن لا يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره، فإن لم يرتدعن فاضربوهن ضرباً غير مبرح لا ضرر فيه، وهو ضرب تأديب وإصلاح لا ضرب انتقام وتعسف. قال عطاء: ضرباً بالسواك.

وفي الآيات ذكر - عز وجل - الوعظ والهجر والضرب، والرابعة لم يذكرها - تعالى - لأنها مكروهة عنده وهي الطلاق.

﴿فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾.

فإن أطعن أمركم وتركن النشوز فاحذروا ظلمهن، ولا تلتمسوا طريقاً لإيذائهن ومعاقبتهن على الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها، ويحدث بسببه الشر.

- ولما ذكر الله قوامة الرجل على المرأة، وحق الزوج في تأديب امرأته الناشز، ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ أي: فإن الله -

تعالى - أعلى منكم وأكبر، وهو وليهن ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن .
 فذكر بعلوه وكبريائه - جل جلاله - ترهيباً للرجال ؛ لئلا يعتدوا على
 النساء، ويتعدوا حدود الله التي أمر بها . فإنهن وإن ضعفن عن دفع ظلمكم
 فالله - سبحانه - علي قاهر، قادر ينتقم ممن ظلمهن .

وفي هذا تأديب وتوجيه للمسلمين في كيفية تأديب نساءنا؛ وانظر إلى
 ترتيب العقوبات ودقتها حيث أمرنا بالوعظ، ثم بالهجران، ثم بالضرب
 ضرباً غير مبرح .

* لما ذكر - عز وجل - ثلاث مراحل في علاج الزوجة وإصلاح حالها،
 ذكر في الآيات اللاحقة بعث حكمين من أهل الزوج وأهل الزوجة، فقال
 تعالى :

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا
 إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ٥٢﴾ .

أي : وإن تفاقم الخلاف بين الزوجين، وخشيتن - يا أولياء الزوجين
 - مخالفة وعداوة بين الزوجين فأرسلوا حكماً عدلاً من أهل الزوج،
 وحكماً عدلاً من أهل الزوجة يجتمعان فينظران في أمرهما ويفعلان ما فيه
 المصلحة، وإنما كان بعث الحكمين من أهلتهما؛ لأن الأقارب أعرف ببواطن
 الأحوال، وأطلب للصالح واحفظ لأسرارهما الخاصة، ونفوس الزوجين
 أسكن إليهم، فيبرزان ما في ضمائرهما من الحب والبغض، وإرادة الصلحة
 والفرقة، ويفعلان ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق، وتشوق
 الشارع إلى التوفيق، ولهذا قال :

﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ٥٣﴾ .

إن قصد الحكمين إصلاح ذات البين وكانت نيتهم صحيحة، وقلوبهم
 ناصحة لوجه الله، بورك في وساطتهم، وأوقع الله بين الزوجين الوفاق
 والألفة، وألقى في نفوسهما المودة والرحمة .

ومن علامات التوفيق الإصلاح والسعي في ذلك . فإنه - سبحانه -
علماً بأحوال العباد لا يخفى عليه شيء من أمرهم ، حكماً في تشريعه
لهم ، خبير بما تنطوي عليه نفوسهم .

❖ وفي مطلع الآيات يأمر - تعالى - عباده بعبادته وحده لا شريك له ،
وهو الدخول تحت رق عبوديته ، والانقياد لأوامره ونواهيه ، محبة وذلاً
وإخلاصاً له ، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة .

ثم تنتقل الآيات من دائرة الأسرة إلى دائرة المجتمع فأمرت بالإحسان
في كل شيء ، وبينت أن أساس الإحسان التكافل والتراحم ، والتناصح
والتسامح ، والأمانة والعدل ، حتى يكون المجتمع راسخ البنيان قوي
الأركان ، قال تعالى :

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ .

واعبدوا الله وانقادوا له وحده ، وعظموه ولا تشركوا به شيئاً من الأشياء
لا صنماً ، ولا نبياً ، ولا ولياً ، ولا غيرهم من المخلوقين الذين لا يملكون
لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ، ولا موتاً ، ولا حياة ولا نشوراً ، واستوصوا
بالوالدين برّاً وإنعاماً ، وإحساناً وإكراماً . وللإحسان ضدان : الإساءة ،
وعدم الإحسان ، وكلاهما منهي عنه .

﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
بِالْجُنُبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ .

أي : متكبراً في نفسه يأنف عن أقاربه وجيرانه ، فخوراً على الناس
مترفعاً عليهم يرى أنه خير منهم ، والاختيال يكون بالفعل والهيئة ، والفخر
يكون باللسان ، وهذا آية جامعة جاءت حثاً على الإحسان واستطراداً لمكارم
الأخلاق .

ومن تدبرها حق التدبر أغنته عن كثير من مواعظ البلغاء، ونصائح الحكماء. وقد ختم - تعالى - هذه الآية بهذه الجملة؛ لأن الغالب أن من يستكبر عن عبادة الله، وعن هذه الوصايا النافعة، فالغالب عليه أن فيه اختيالا، وفيه فخراً واستنكافاً واستكباراً.

قال بعض السلف: لا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختلاً فخوراً، وتلا ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ الآية. ولا عاقاً إلا وجدته جباراً شقيماً، وتلا ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (مريم: ٣٢).

* قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧].

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: قد تأولت في البخل بالمال والمنع، والبخل بالعلم ونحوه، وهي تعم البخل بكل ما ينفع في الدين والدنيا من علم ومال وغير ذلك، كما تأولوا قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣]، النفقة من المال والنفقة من العلم. والنفقة من العلم هي صدقة الأنبياء وورثتهم من العلماء.

* ثم يخبر - تعالى - عن كمال عدله وفضله، وتنزهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَعِفْهَا﴾.

إن الله - تعالى - لا يبخس ولا ينقص أحداً من عمله شيئاً ولو كان وزن ذرة وهي الهباءة، ذلك على سبيل التمثيل تنبيهاً بالقليل على الكثير. وإن كانت تلك الذرة حسنة ينميها ويكثرها لصاحبها، ويجعلها أضعافاً كثيرة بحسب حالها ونفعها، وحال صاحبها، إخلاصاً ومحبة وكمالاً.

﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠].

قال السعدي: إلى عشرة أمثالها إلى أكثر من ذلك بحسب حالها ونفعها وحال صاحبها، إخلاصاً ومحبة وكمالاً.

﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ويعط من عنده تفضلاً وزيادة على ثواب العمل أجراً عظيماً وهو الجنة، وكذلك التوفيق لأعمال آخر، وإعطاء البر الكثير والخير الغزير، وما وصفه الله بالعظيم فمن يعرف مقداره، مع أنه سمي متاع الدنيا قليلاً. قال أبو هريرة - رضي الله عنه - : إذا قال الله تعالى : ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فمن يقدر قدره .

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه قال : قال لي النبي ﷺ «اقرأ عليّ» قلت : يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال : «نعم، إني أحب أن أسمع من غيري»، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤] ، قال : «حسبك الآن» ؛ فإذا عيناه تذرفان [رواه البخاري].

* قال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء: ٤٧] .

كان أبو مسلم الجليل معلم كعب ، وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله ﷺ قال : فبعثه إليه ينظر أهو هو؟ قال كعب : فركبت حتى أتيت المدينة ، فإذا تال يقرأ القرآن ، يقول : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا ﴾ فبادرت الماء فاغتسلت وإني لأمسح وجهي مخافة أن أطمس ، ثم أسلمت .

* قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨] .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨] ، نعمة عظيمة من وجهين :

أحدهما : أنه يقتضي أن كل ميت على ذنب دون الشرك لا تقطع له بالعذاب وإن كان مصراً .

والثانية: أن تعليقه بالمشيئة فيه نفع للمسلمين، وهو أن يكونوا على خوف وطمع.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

ومن أشرك بالله فقد اختلق ذنباً عظيماً، وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله؛ لأن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه باب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولذا حتم على المشرك بالخلود في العذاب المهيئ؛ فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية. والمصائب المكفرة في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعة الشافعين، ومن فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

✽ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

ولما كانت النار على ما نعهده مفسية ماحقة، استأنف قوله رداً لذلك ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ أي: صارت بحرماً إلى حالة اللحم النضيج الذي أدرك أن يوكل.

فصارت كاللحم الميت الذي يكون في الجرح فلا يحس بالألم. ﴿بَدَّلْنَاهُمْ﴾ أي: جعلنا لهم.

﴿جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أي غير النضيجة بدلاً منها بأن أعدناها إلى ما كانت عليه كما كانوا يجدون التكذيب بذلك كل وقت ليكون الجزاء من جنس العمل.

قال الأعمش عن ابن عمر: إذا أحرقت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها بيضاء أمثال القراطيس.

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ الآية، قال تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة.

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].
في قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

أعاد الفعل وهو طاعة الرسول ليدل أنه يطاع استقلالاً، وإن أمر بما ليس في القرآن الأمر به، ونهى عما ليس في القرآن النهي عنه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه، ولم يعد الفعل في طاعة أولي الأمر؛ بل جعلها ضمناً وتبعاً لطاعة الرسول إذا أمروا بما أمر به، ونهوا عما نهى عنه، ولا تجب طاعتهم في كل ما يأمر به وينهون عنه.

* قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا

[النساء: ٦٣].

قال السعدي: وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي - وإن أعرض عنه، فإنه ينصح سراً ويبالغ في وعظه بما يظن حصول المقصود به.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

قال السعدي: وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته لأن السياق يدل على ذلك، لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء بل ذلك شرك.

* قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

ذكر الولدان - في الآية - تكميلاً للاستعطاف، وتنبيهاً على تناهي ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم للصبيان، وفيه دلالة على إجابة دعائهم،

واقتراب الخلاص؛ لما فيه من التضرع لله .

قال ابن الجوزي في بستان الواعظين ورياض السامعين: سمي الله الإنسان ضعيفاً، وقال عن كيد الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] والضعيفان إذا اقتتلا ولم يكن لواحد منهما معين لم يظفر بصاحبه؛ فأمر الله الإنسان الضعيف أن يستعين بالرب اللطيف من كيد الشيطان الضعيف؛ ليعصمه منه ويعينه عليه .

* قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] .

قال ابن تيمية: من الفوائد: أن العبد لا يطمئن إلى نفسه؛ فإن الشر لا يجيء إلا منها؛ ولا يشتغل بلام الناس وذمهم، ولكن يرجع إلى الذنوب فيتوب منها، ويستعين بالله من شر نفسه وسيئات عمله، ويسأل الله أن يعينه على طاعته؛ فبذلك يحصل له الخير ويدفع عنه الشر .

* قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٧٠] .

قال البغوي: وفيه بيان لهم لم ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم، وإنما نالوها بفضل الله - عز وجل - .

* قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَتَعَمَّ اللَّهُ عَلَىٰ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٢] وَلَيْنَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٣ - ٧٢] .

قال ابن تيمية: فهؤلاء المبطئون لم يحبوا لإخوانهم المؤمنين ما يحبون لأنفسهم، بل إن أصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم، وإن أصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها، فهم لا يفرحون إلا بدنيا تحصل لهم، أو شر دنيوي ينصرف عنهم، ومن لم يسره ما يسر المؤمنين، ويسوءه ما يسوء المؤمنين؛ فليس منهم .

* قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ .

الخطاب لكل سامع، أي: ما أصابك - أيها الإنسان - من نعمة وإحسان في الدين والدنيا، فمن الله تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً وامتحاناً، وما أصابك من بلية ومصيبة فمن عندك وبسبب عملك السيء، وما اقترفته يداك من الخطايا والسيئات، وما يعفو الله عنه أكثر، فالله - تعالى - قد فتح لعباده أبواب إحسانه، وأمرهم بالدخول لبره وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلوم من إلا نفسه فإنه المانع لنفسه، عن وصول فضل الله وبره.

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ فالأول فضله، والثاني عدله، والعبد يتقلب بين فضله وعدله.

* قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ [النساء: ٧٨].

قال ابن تيمية: هكذا قال المنافقون عن الرسول ﷺ، وهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول وفعل ما بعث به مسبباً لشر أصابه، إما من السماء وإما من آدمي، وهؤلاء كثيرون.

* قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣].

في هذه الآية تأديب لكل من يحدث بكل ما يسمع. وقد روى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما يسمع».

* قال تعالى: ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾ [النساء: ٨٥].

قال البغوي: الشفاعة الحسنة هي الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة هي المشي بالنميمة بين الناس.

وقيل: هي الشفاعة في مسلم لتفرج عن كربة أو تدفع مظلمة، أو يجلب إليه خيراً، و ﴿شَفَعَةً سَيِّئَةً﴾ بخلاف ذلك.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

نكتة نظمها مع آيات الجهاد هو التمهيد لمنع المؤمنين من قتل من ألقى إليهم السلام في الحرب الآتي قريباً.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

ما أحسن جعلها تالية لآية الجهاد إشارة إلى أن من بدل السلام وجب الكف عنه ولو كان في الحرب، وأن من مقتضيات هاتين الآيتين أن مبنى هذه السورة على الندب إلى الإحسان والتعاطف والتواصل، ومن أعظمه القول اللين؛ لأنه ترجمان القلب الذي به العطف، ومن أعظم ذلك الشفاعة والتحية.

وفي الآية تعليم النوع من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال فالمعنى إذا مَنَّ الله - تعالى - عليكم بعطيه فابذلوا الأحسن من عطاياه أو تصدقوا بما أعطاكم، وردوه إلى الله - تعالى - على يد المستحقين، والله - تعالى - خير الموفقين.

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

أبلغ مما لو قيل: لا أحد أصدق من الله حديثاً: لأن الاستفهام يعني التحدي.

* قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤].

فيه تربية عظيمة، وهي أن يستشعر الإنسان - عند مؤاخذته غيره - أحوالاً كان هو عليها تساوي أحوال من يؤاخذه، كمؤاخذه المعلم التلميذ بسوء إذا قصر في أعمال جهده، وكذلك هي عظة لمن يمتحنون طلبة العلم،

فيعتادون التشديد عليهم، وتطلب عثراتهم.
 * قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.

لا يتساوى من قعد عن الجهاد من المؤمنين مع من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله - غير أهل الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض - .
 قال ابن عباس: هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها .
 ولما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم، فقال يا رسول الله: هل لي من رخصة فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان أعمى - فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء: ٩٥].

قال السعدي: إذا فضل الله - تعالى - شيئاً على شيء وكل منهما له فضل، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه، كما قال هنا: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء: ٩٥ - ٩٦].

قال السعدي: تأمل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرج، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات.

* قال تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾.

وفي هذا بيان لما بين الفريقين من التفاضل، أي: فضل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعذار درجة لاستوائهم في النية، كما قال ﷺ: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه»، قالوا:

وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: «نعم حبسهم العذر» [رواه البخاري].
وقيل أن معنى درجة: علواً؛ أي: أعلى ذكرهم ورفعهم بالثناء والمدح.

﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾.

أي: وقد وعد الله كلاً من المجاهدين والقاعدين بأموالهم وأنفسهم، والقاعدين من أهل الأعذار الجزاء الحسن في الآخرة.

﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وفضل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالثواب الوافر العظيم، وتأمل حسن هذا الانتقال، من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات، فالأول في ﴿دَرَجَتٍ﴾ وهنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فالأول في المنزلة، والثاني في حجم الأجر والثواب.

﴿دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾.

أي: هذا الثواب الجزيل منازل عالية في الجنات بعضها أعلى من بعض، وقيل الدرجات هي: الإسلام والجهاد والهجرة والشهادة، فاز بها المجاهدون، وفي الحديث: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» [أخرجه النسائي].

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرين عن اسميه الكريمين «الغفور الرحيم» ختم هذه الآية بهما.

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً

وَمَنْ تَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

كل من نوى خيراً ولم يدركه فهو موفيه إياه توفيه: ما يلتزمه الكريم، وفي الآية دلالة على كرم الله ورحمته.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٠١].

وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، حتى سأل عنه النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! مالنا نقصر الصلاة وقد آمنّا؟ والله يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» [رواه أبو داود].

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٢]. في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ مما يدل على أن الإمام ينبغي أن يعتني بصلاته أكثر، ويعتني بحال المأمومين؛ لأنه لا يصلي لنفسه، بل يصلي لمن خلفه من المأمومين أيضاً.

* قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]. قال السعدي: هذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين:

أحدهما: أن الله - تعالى - أمر بها في هذه الحالة الشديدة وقت اشتداد الخوف من الأعداء، وحذر مهاجمتهم، فاذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والثاني: أن المصلين يتركون فيها كثيراً من الشروط واللوازم ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطلّة في غيرها، وما ذلك إلا لتأكد وجوب الجماعة، لأنه لا يتعارض بين واجب ومستحب فلولاً الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها.

* قال تعالى: ﴿وَلَتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

قال السعدي: وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء لا يخل به لو صلوا بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم وعدم تفرق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هيبة في قلوب أعدائهم.

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وسمي ظلم النفس (ظلمًا) لأن نفس العبد ليست ملكاً له، يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله - تعالى -، قد جعلها أمانة عند العبد.

قال ابن الجوزي: ربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله فظن أن لا عقوبة، وغفلته عما عوقب به عقوبة، وربما كان العقاب العاجل معنوياً، كما روي أن بعض أحبار بني إسرائيل قال: يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني؟ ف قيل له: كم أعاقبك وأنت لا تدري؟! أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟

* قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

قال الأوزاعي: ما خطوة أحب إلى الله - عز وجل - من خطوة إصلاح ذات البين، ومن أصلح بين اثنتين كتب الله له براءة من النار.

﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

قال السعدي: النزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره، فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان.

وفي الحديث عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة؟**» قالوا: بلى قال: «**إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة**» [رواه الترمذي].

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

الآية الأولى: في شأن أهل الكتاب وهم عندهم علم بصحة نبوته ومع ذلك فقد كابروا وافتروا على الله - تعالى - .

والآية الثانية: في شأن قوم مشركين ليس لهم كتاب ولا عندهم علم، فناسب وصفهم بالضلال.

* ثم ذكر الله - عز وجل - حال الشيطان وأعوانه:

﴿وَلَا ضَلٰئَتُهُمْ وَلَا مَنِيْنُهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ ؕ اِذَا نَبَا اَلْاَنْعَمِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللّٰهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطٰنَ وَلِيًّا مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرٰنًا مُّبِيْنًا﴾ [النساء: ١١٩].

وهذا يشعر بأنه لا حيلة له في الإضلال أقوى من إلقاء الأمان في قلوب الخلق، وطلب ما يورث شيئين: الحرص والأمل، قال ﷺ: «**يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان: الحرص والأمل**» [رواه مسلم].

* قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا تُجْزَ بِهِ ۖ وَلَا تَجِدْ لَهُ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيْرًا﴾ [النساء: ١٢٣ - ١٢٤].

﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا تُجْزَ بِهِ ۖ﴾ وعيد حتم في الكفار، ومقيد بمشيئة الله في المسلمين ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحٰتِ﴾ دخلت (من) للتبويض رفقا بالعباد لأن الصالحات على الكمال لا يطيقها البشر.

وقيل: وكل ظالم معاقب في العاجل على ظلمه قبل الآجل، وكذلك كل مذنب ذنباً، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا تُجْزَ بِهِ ۖ﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾

[النساء: ١٢٥].

﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لما عبر - تعالى - عن كمال الاعتقاد بالماضي شرط فيه الدوام والأعمال الظاهرة، بقوله ﴿وَهُوَ﴾ أي والحال أنه ﴿مُحْسِنٌ﴾ أي: مؤمن مراقب لا غفلة عنده أصلاً، بل الإحسان صفة له راسخة لأنه يعبد الله كأنه يراه.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

قال ابن كثير وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما أي: يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون متابعاً للشرعية فيصبح ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد. فمتى فقد الإخلاص كان منافقاً وهم الذين يراءون الناس، ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً.

* قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

أي: صفياً اصطفاه لمحبه وخلته، قال ابن كثير: فإنه انتهى إلى درجة الخلّة التي هي أرفع مقامات المحبة وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه. وفي هذه الآية إثبات صفة الخلّة لله - تعالى - وهي أعلى مقامات المحبة والاصطفاء، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام -، وأما المحبة من الله، فهي لعموم المؤمنين.

* قال تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩].

في هذه الآية إشارة إلى المبادرة في الحسم وإصلاح الشأن: إما بالوفاق أو الفراق، بعد أن تتخذ الوسائل المشروعة، لعل ذلك لا يقف عند مسألة الزوجية، بل يتعداه إلى أمور كثيرة من شأنها أن تعقد المشكلات، أو تنشئها إن لم تكن موجودة، فاللائق - في الأحوال التي لا يسوغ فيها التروي - أن

تحسم الأمور ولا تظل معلقة، ليعرف كل طرف ماله وما عليه؛ ولئلا يبقى في النفوس أثر يزداد مع الأيام سوءاً.

رفع لعمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر فأمر بجلدهم فقبل له: إن فيهم صائماً، فقال: ابدءوا به! أما سمعتم الله يقول: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠] فبين - رحمه الله - أن الله جعل حاضر المنكر كفاعله.

وفي الآية البعد عن مواطن الباطل وأنها من أسباب العصمة، والآية في المعاصي العلمية، وفي قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥] في المعاصي العملية.

* قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

جعل الأمر بالتقوى وصية؛ لأن الوصية فيه أمر بشيء نافع جامع لخير كثير، والتقوى تجمع الخيرات؛ لأنها امثال الأوامر واجتناب النواهي.

* قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء: ١٤٠].

لما كانت آية الأنعام مكية اقتصر فيها على مجرد الإعراض وقطع المجالسة، لعدم التمكن من الإنكار بغير القلب، وأما هذه الآية فمدنية، فالتغيير عند إنزالها باللسان واليد ممكن لكل مسلم فالمجالس من غير نكير راض.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان، ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة، شديد

الفرح، فإنه يناجي الله، وإن الله تجاهه، يغفر له ويجيب إذا دعاه، ثم يتلو هذه الآية: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً﴾.

* قال تعالى: ﴿لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨ - ١٤٩].

موقع هذه الآية عقب الآية التي قبلها: أن الله لما شوه حال المنافقين، وشهر بفضائحهم تشهيراً طويلاً، فحذر الله المسلمين من أن يغيظهم ذلك على من يتوسمون فيه النفاق، فيجاهروهم بقول السوء، ورخص لمن ظلم من المسلمين أن يجهر لظالمه بالسوء، لأن ذلك دفاع عن نفسه.

قال الرازي: اعلم أن معاهد الخير على كثرتها محصورة في أمرين: صدق مع الحق، وخلق مع الخلق، والذي يتعلق مع الخلق محصور في قسمين: إيصال نفع إليهم، ودفع ضرر عنهم.

فقوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفَوْهُ﴾ إشارة إلى إيصال النفع إليهم، وقوله: ﴿أَوْ تَعَفَّوْا﴾ إشارة إلى دفع الضرر عنهم. فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر.

* قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفَوْهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

أي: كان مبالغاً في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذه، فيسدل عليهم ستره ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

قال الحسن: يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله - تعالى - حيث حث - تعالى - على العفو، وأشار إلى أنه عفو مع قدرته، فكيف لا تعفون مع ضعفكم وعجزكم؟!

قال السعدي: ﴿أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ﴾ أي عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم فتسمحوا عنه، فإنجزاء من جنس العمل، فمن عفا لله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه، وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له،

ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية.

* قال شيخ الإسلام: والله - سبحانه - جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع، كقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

* لما حكى - تعالى - جرائم اليهود التي من ضمنها كفرهم بعيسى ومحمد وزعمهم أنهم صلبوا المسيح، ذكر - تعالى - أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام -، قال تعالى:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى ۚ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ﴾.

أي: نحن أوحينا إليك - يا محمد - كما أوحينا إلى نوح والأنبياء من بعده، وإنما قدم النبي محمد ﷺ في الذكر وإن تأخرت نبوته لتقدمه في الفضل.

وأوحينا إلى سائر النبيين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط - وهم الأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل - وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، خص - تعالى - محمداً بالذكر تشريفاً وتعظيماً لهم، وبدأ بعد محمد ﷺ بنوح لأنه شيخ الأنبياء وأبو البشر الثاني، ثم ذكر إبراهيم؛ لأنه الأب الثالث ومنه تفرعت شجرة النبوة، وقدم عيسى على أنبياء كانوا قبله لشدة العناية بأمره لغلو اليهود في الطعن فيه، والنصارى في تقديسه، وفي ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم من التنويه بهم، والثناء الصادق عليهم وشرح أحوالهم، مما يزداد به المؤمن إيماناً بهم، ومحبة لهم، واقتداء بهديهم واستناناً بسنتهم، ومعرفة بحقوقهم.

﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ۖ﴾ .

وخصصنا داود بالزبور وهو كتاب وصحف مكتوبة .

قال القرطبي : كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من الأحكام وإنما هي حكم ومواعظ .

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۖ﴾ .

وأرسلنا رسلاً منهم من ذكرنا أخبارهم لك - يا محمد - في غير هذه السورة، ورسلاً آخرين لم نخبرك عن أحوالهم لحكمة أردناها، وخص الله موسى بأن كلمه بلا واسطة تشريفاً له بهذه الصفة ولهذا سمي الكليم، وإنما أكد ﴿تَكْلِيمًا﴾ رفعا لاحتمال المجاز .

وفي الآية إثبات صفة الكلام لله - تعالى - ، كما يليق بجلاله، وأنه - سبحانه - كلم نبيه موسى - عليه السلام - حقيقة بلا واسطة .

سورة المائدة ٥

سورة المائدة من السور المدنية الطويلة، وهي أجمع سورة في القرآن لفروع الشريعة من التحليل والتحريم. وقد تناولت كسائر السور المدنية موضوع العقيدة وقصص أهل الكتاب، وجانب التشريع بإسهاب، وجماعها يتناول الأحكام الشرعية؛ لأن الدولة الإسلامية كانت في بداية تكوينها وهي بحاجة إلى المنهج الرباني الذي يعصمها من الزلل، ويرسم لها طريق البناء والاستقرار، وسورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن ليس فيها منسوخ، وفيها ثمان عشرة فريضة.

سميت سورة المائدة لورود ذكر المائدة فيها؛ حيث طلب الحواريون من عيسى - عليه السلام - آية تدل على صدق نبوته وتكون لهم عيداً، وقصتها أعجب ما ذكر فيها، لاشتمالها على آيات كثيرة، ولطف عظيم من الله العلي الكبير.

قال ابن تيمية: سورة المائدة أجمع سورة في القرآن لفروع الشرائع، من التحليل والتحريم، والأمر والنهي.

وقد نزلت هذه السورة منصرف رسول الله ﷺ من الحديبية.

وسبب نزولها: أن المشركين كانوا يحجون البيت ويهدون الهدايا ويعظمون الشعائر وينحرون، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾.

وقد ورد في فضلها: ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال: «نزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها» [رواه أحمد].

وقد ختمت السورة الكريمة بالتذكير بيوم القيامة، وشهادة الرسل على أممهم، وشهادة عيسى على النصارى وتمجيد الله - تعالى -.

* قال - تعالى - في مطلع السورة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةٌ الْأَنْعَمِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

قال السعدي - رحمه الله - : وهذا شامل للعقود التي بين العبد وربّه ، والتي بينه وبين الرسول بطاعته ، والتي بينه وبين الوالدين ، والأقارب ، والتي بينه وبين أصحابه ، والتي بينه وبين الخلق ، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

* قال تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ١].
﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ .

وصية عامة ، والفرق بين البر والتقوى ؛ أن البر عام في فعل الواجبات والمندوبات ، وترك المحرمات ، وفي كل ما يقرب إلى الله . والتقوى في الواجبات ، وترك المحرمات دون فعل المندوبات ؛ فالبر أعم من التقوى .

* قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ١].
وردت ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في القرآن العظيم ما يقارب من ثلاثين مرة .
قد جاءت في سياقات متنوعة : ثمان مرات في البقرة ، وتسع مرات في المائدة .

* من مظاهر الإعجاز البلاغي في القرآن إثارة لفظ بدل آخر ، ففي قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] .

يظهر حسن اقتران التمام بالنعمة ، وحسن اقتران الكمال بالدين ، وإضافة الدين إليهم إذ هم القائمون به المقيمون له ، وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها ، والمنعم بها عليهم فهي نعمته حقاً وهم قابلوها . والسر في التعبير عن الدين بالكمال ، وعن النعمة بالتمام ؟ أن الكمال لا زيادة عليه ،

ومن هنا يعلم أنه لا زيادة في الدين؛ لأنه اكتمل، أما النعمة فعبر عنها بالتمام؛ لأن التمام يقبل الزيادة ليصل إلى الكمال، ودليل ذلك أن النعم تختلف من زمن إلى آخر، فما يتنعم به بعض الفقراء اليوم لم يجده ملوك الأمم السابقة في زمانهم.

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة: ٦].

في الآية من البلاغة والبيان سبعة أزواج من المسائل:

الأول: طهارتان: الوضوء، والغسل.

ومطهران: الماء، والتراب.

وحكمان: المسح، والغسل.

وموجبان: الحدث، والجنابة.

ومبيحان: المرض، والسفر.

وكنيتان: الغائط، والملازمة.

وكرامتان: تطهير الذنوب، وإتمام النعمة.

* عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: إن المرء قد ينسى بعض العلم بالمعصية، وتلا قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

* قال البقاعي: من الأساليب البلاغية (الكنائية) وهي إرادة وصف أمر بما لم يعرف به، أو ذكر اللازم وإرادة الملزوم، كقوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٦].

فكنى عن الجماع في الآية بالملامسة، وفي غيرها كنى بالمباشرة، والإفضاء، والرفث، والدخول، والسر، كما في قوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥].

* قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

فكل من لم يقم بما أمر الله به، وأخذ به عليه الالتزام، كان له نصيب من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب، ونسيان حظ مما ذكر به. وأنه لا بد أن يتلى بالخيانة.

ذكر ابن كثير أن بعض الشيوخ قال لصاحبه: أين تجد في القرآن أن الحبيب يعذب حبيبه؟ فلم يجب؛ فتلا الشيخ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨].

قال ابن كثير: وهذا الذي قاله حسن.

قال أبو الوفاء بن عقيل: يا من يجد في قلبه قسوة احذر أن تكون نقضت مع الله عهداً، فإن الله يقول: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

* قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

قال السعدي: وهذه عقوبة دنيوية لعل الله - تعالى - كفر بها عنهم، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها. وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو دفع نعمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر.

قال الحاكم: دل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ على أن من لحقه عذاب الله لا يجوز أن يحزن عليه لأن ذلك حكمه، بل يحمد الله إذا أهلك عدواً من أعدائه.

* قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

ذكر عن عامر بن عبد الله العنبري، أنه حين حضرته الوفاة بكى، فقبل له: ما يبكيك؟ فقد كنت وكنت! فقال: يبكيني أني أسمع الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [٢٧].

* لما قتل قابيل هابيل احتار في أمر أخيه، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يَوَيْلَتَى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

انظر كيف أهان الله قابيل، لم يبعث الله أياً من الدواب غير الغراب ليري قابيل كيف يصنع بجثة أخيه، والغراب أحد الفواسق المنبوذة في الأمم كلها.

* بعد أن ذكر الله - عز وجل - عقوبة الحرابة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٣٣] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٣٤]. [المائدة: ٣٣ - ٣٤].

ذكر بعدها حد السرقة بقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٣٨] فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٣٩] أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٤٠]. [المائدة: ٣٨ - ٤٠].

- قد لا تختتم الآية الكريمة بأسماء الله صراحة، ولكن قد تذكر فيها أحكام تلك الأسماء، كقوله - تعالى - لما ذكر عقوبة السرقة، فإنه قال في

آخرها - : ﴿ نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨] .

أي: عز وحكم فقطع يد السارق، وعز وحكم فعاقب المعتدين شرعاً، وقدراً، وجزاءً.

قال بعض العلماء: إن الاستزادة من الحرام يتسبب عنها نقص من الحلال.

* قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المائدة: ٣٣] .

قال القرطبي: يحاربون أولياء الله فعبر بنفسه العزيزة عن أوليائه إكباراً لأذيتهم، كما عبر بنفسه عن الفقراء الضعفاء في قوله: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة: ٢٤٥] حثاً على الاستعفاف عليهم.

* قال تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا

مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨] .

والحكمة في قطع اليد في السرقة أن ذلك حفظ للأموال واحتياط لها، وليقطع العضو الذي صدرت منه الجناية.

قال القرطبي: وبدأ الله بالسارق في هذه الآية قبل السارقة. وفي الزنى بالزانية قبل الزاني ما الحكمة في ذلك؟ فالجواب أن يقال لما كان حب المال على الرجال أغلب، وشهوة الاستمتاع على النساء أغلب، بدأ بهما في الموضعين.

* قال ابن تيمية - رحمه الله - : القلب لا يدخله حقائق الإيمان إذا

كان فيه ما ينجسه من الكبر والحسد، قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤١] ، وقال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ

يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الاعراف: ١٤٦] وأمثال ذلك.

* قال تعالى: ﴿ سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ تُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة: ٤١].

مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله، أكسبه ذلك تحريفاً للحق عن مواضعه فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه إن قدر على ذلك وإلا حرفه.

* عن أبي المثاب القاضي قال: كنت عند القاضي إسماعيل يوماً؛ فسئل: لم جاز التبديل على أهل التوراة، ولم يجوز على أهل القرآن؟ فقال: قال الله - تعالى - في أهل التوراة: ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٤]، فوكل الحفظ إليهم، وقال في القرآن: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] فلم يجوز التبديل عليهم.

* قال تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]، قال الألوسي: ولعل وصفهم بالأوصاف الثلاث باعتبارات مختلفة فلا إنكارهم ذلك وصفوا بالكافرين، ولوضعهم الحكم في غير موضعه وصفوا بالظالمين، ولخروجهم عن الحق وصفوا بالفاسقين.

* قال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

عن محمد بن سيرين: قال عبد الله بن عتبة: ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً، وهو لا يشعر. قال: فظنناه يريد هذه الآية.

* قال تعالى: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدِيمِينَ ﴾ [المائدة: ٥٢].

إن الله - تعالى - قد أتى في الآية التي بين أيدينا: ﴿بِالْفَتْحِ﴾ معرفاً، وبـ ﴿أَمْرٍ﴾ منكر، وقدم الفتح على ذلك الأمر، وهذا الأسلوب الرائع سبب - والله أعلم - أن أول ما يتبادر إلى أذهان المؤمنين من كسر لشوكة أعدائهم يكون بالفتح المعهود لديهم، فبدأ به، ثم ثنى بقوله: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ وكلمة ﴿أَمْرٍ﴾ عامة تشمل كل ما يخطر على البال، وما لا يخطر فيه.

ثم إن الله - تعالى - وصف كلمة: ﴿أَمْرٍ﴾ بقوله: ﴿مِّنْ عِنْدِهِ﴾، فالفتح يكون من الله - تعالى - لكنه بأيدي المؤمنين، أما الآخر فمن عند الله وحده خالصاً، كإرسال الريح على الكفار، والخسف بهم، وإهلاكهم بالطوفان والزلازل والأمراض وغيرها.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

قال في محاسن التأويل: إنما أفرد (الولي) ولم يجمع مع أنه متعدد للإيدان بأن الولاية لله أصل، ولغيره تبع لولايته - عز وجل -، فالتقدير: وكذلك رسوله والذين آمنوا.

* قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

يخبر - تعالى - عن مقالة اليهود الشنيعة، أي: قال اليهود إن الله بخيل يقتل الرزق على العباد.

قال ابن عباس: مغلولة أي بخيلة أمسك ما عنده بخلاً، ليس يعنون أن يد الله موثقة ولكنهم يقولون إنه بخيل.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾.

لأنهم هم البخلاء وليس على وجه الأرض يهودي إلا وهو أبخل الناس، وهذا دعاء عليهم بالبخل المذموم والفقر والنكد، أي: بجنس مقاتلهم، وهكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ .

أي: ليس الأمر كما يفترونه على ربهم، بل هو جواد كريم، سابغ الإنعام، يرزق ويعطي كما يشاء على مقتضى الحكمة وما فيه مصلحة العباد.

وفي الآية إثبات لصفة اليدين لله - سبحانه وتعالى - كما يليق به من غير تشبيه ولا تكييف، وذكر اليدين مع كونهم لم يذكروا إلا اليد الواحدة مبالغة في الرد عليهم بإثبات ما يدل على غاية السخاء، فإن نسبة الجود إلى اليدين أبلغ من نسبته إلى اليد الواحدة.

* قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ .

وليزيدنهم هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد كفراً فوق كفرهم، وطغياناً فوق طغيانهم، إذ كلما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم، كما أن الطعام للأصحاء يزيد المرضى مرضاً.

قال الطبري: أعلم - تعالى - نبيه أنهم أهل عتو وتمرد على ربهم وأنهم لا يدعون لحق وإن علموا صحته ولكنهم يعاندونه، يسلي بذلك نبيه ﷺ في ذهابهم عن الله وتكذيبهم إياه.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ .

وألقينا بين اليهود العدواة والبغضاء يعادي بعضهم بعضاً، وينفر بعضهم من بعض، فكلمتهم مختلفة وقلوبهم شتى، لا يزالون متباغضين متعادين فلا يتآلفون ولا يتناصرون إلى قيام الساعة.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

كلما تأمروا على المسلمين وأرادوا إشعال حرب ليكيدوا بها الإسلام وأهله رد الله كيدهم، وفرق شملهم، وهم يجتهدون في الكيد للإسلام

وأهله ويسعون لإثارة الفتن بين المسلمين، ومن سجيّتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من كانت هذه صفته بل يبغضهم أشد البغض وسيجازيهم على ذلك.

قال قتادة: لا تلقى يهودياً في بلد إلا وقد وجدته من أذل الناس.

* قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ

وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].

قال ابن حزم: ولو لم ينه عن الشر - إلا من ليس فيه شيء منه، ولا أمر بالمعروف إلا من استوعبه؛ لما نهى أحد عن شر، ولا أمر بخير بعد النبي ﷺ.

* قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ

أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ

بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

قال ابن كثير: وما ذلك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرافة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾

[الحديد: ٢٧].

* قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا

تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

كأنه لما تضمن ما سلف مدح النصارى على الترهّب، والحث على كسر النفس، ورفض الشهوات، عقبه النهي عن الإفراط في ذلك بتحريم اللذائذ من المباحات الشرعية.

* قال تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِء

مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٨].

قال الرازي: لم يقل - تعالى - كلوا ما رزقكم، ولكن قال: ﴿مِمَّا

رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ وكلمة (من) للتبويض، فكأنه قال: اقتصروا في الأكل على

البعض ، واصرفوا البقية إلى الصدقات والخيرات .

* قال تعالى : ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨] .

قال ابن تيمية : فجعل الرحمة صفة له مذكورة في أسمائه الحسنی ، وأما العذاب والعقاب جعلهما من مفعولاته غير مذكورين في أسمائه .

* قال تعالى : ﴿ أَجَلٌ لَّكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ ﴾ [المائدة: ٩٦] ،

قال ابن عباس : صيده : ما أخذ حياً ، وطعامه : ما أخذ ميتاً .

* قال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ

حِينَ الْوَصِيَّةِ ﴾ [المائدة: ١٠٦] .

هذه الآية والآيتان اللاتي بعدها من أصعب الآيات إشكالاً .

قال الشوكاني : قال مكي : هذه الآيات الثلاث عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن أعراباً ومعنى وحكماً .

* قال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ

وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبَدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ١٠١] .

[المائدة: ١٠١] .

قال الإمام ابن القيم : وكذلك لا ينبغي للعبد أن يسأل ربه أن يبدي له من أحواله وعاقبته ما طواه عنه وستره ، فلعله يسوءه إن أبدي له بالسؤال عن جميع ذلك تعرض لما يكرهه الله ، فإنه - سبحانه - يكره إبداءها ولذلك سكت عنها .

* قال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا

أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيَنْبِتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٥] .

قد يتوهم الجاهل من ظاهر هذه الآية الكريمة عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكن نفس الآية فيها الإشارة إلى أن ذلك فيما إذا بلغ جهده فلم يقبل منه المأمور ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ ﴾ لأن من ترك الأمر بالمعروف لم يهتد .

سورة الأنعام ٦

سورة الأنعام إحدى السور المكية الطويلة التي يدور محورها حول العقيدة وأصول الإيمان، والألوهية والوحي، والرسالة والبعث والجزاء. والحديث في هذه السورة مستفيض يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية للدعوة الإسلامية، ونجد سلاحها في ذلك الحجة الدامغة، والدلائل الباهرة، والبرهان القاطع في طريق الإلزام والإقناع لأن السورة نزلت في مكة على قوم مشركين.

وهي أجمع سور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية. قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور.

وقيل: في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد. وسورة الأنعام أجمع سور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية، وأشدها مقارعة جدال لهم، واحتجاج على سفاهة أحوالهم. وكان نزولها في مرحلة الجهر بالدعوة التي واجهها أساطين الكفر وصناديد الشرك بالصدود والإعراض، والتكذيب والاستهزاء.

وقد نزلت السورة جملة واحدة على غير المعهود في السور الطوال لتكون دفعة واحدة بجميعها الساطعة وبراهينها القاطعة، وآياتها المتتابعة، التي ترهف الآذان، وتخاطب الوجدان وتحاور العقول، وتصل إلى القلوب.

سميت بـ «سورة الأنعام» لورود ذكر الأنعام فيها: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا...﴾ ولأن أكثر أحكامها الموضحة لجهالات المشركين تقريباً بها إلى أصنامهم مذكورة فيها.

ومن خصائصها ما روي عن ابن عباس أنه قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح.

* بدأ - تعالى - هذه السورة بالحمد لنفسه والثناء عليه بصفات الكمال ونعوت العظمة والجلال، تعليماً لعباده أن يحمده بهذه الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال، وإعلاماً بأنه المستحق لجميع المحامد، فلا ند له ولا شريك، ولا نظير ولا مثيل، والفرق بين الحمد والشكر أن الشكر لا يكون إلا في مقابل نعمة، أما الحمد فإنه على النعمة وعلى ذات المنعم.

* قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ .

أي: احمدا الله ربكم المتفضل عليكم بصنوف الإنعام والإكرام، الذي أوجد وأنشأ وابتدع، خلق السموات والأرض بما فيهما من أنواع البدائع وأصناف الروائع، وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة، وبما يدهش العقول والأفكار تبصرة وذكرى لأولي الأبصار، فإن من اخترع ذلك وأوجده، هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد، وخص خلق السموات والأرض بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد، وفيهما العبر والمنافع للعباد.

﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ .

وأنشأ الظلمات والأنوار، وخلق الليل والنهار يتعاقبان في الوجود لفائدة العوالم بما لا يدخل تحت حصر أو فكر.

قال الواقدي: كل ما في القرآن من الظلمات والنور فهو الكفر والإيمان إلا في هذه الآية، فإنه يريد بها الليل والنهار.

وجمع الظلمات لأن شعب الضلال متعددة ومسالكه متنوعة، وأفرد النور لأن مصدره واحد هو الرحمن منور الأكوان.

وفي الآية رد على المجوس في عبادتهم للنار وغيرها من الأنوار، وقولهم إن الخير من النور والشر من الظلمة، فإن المخلوق لا يكون إلهاً ولا فاعلاً لشيء من الحوادث، ومع هذا الدليل ووضوح البرهان ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١١].

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴾

[الأنعام: ١٣].

﴿سَكَنَ﴾ من السكون مقابل الحركة، أي: ما سكن فيهما وما تحرك، فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر، كما في قوله: ﴿سَرَبِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، لأن ذلك يعرف بالقرينة.

واكتفى بالسكون عن ضده دون العكس: لأن السكون أكثر وجوداً، والنعمة فيه أكثر.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴾

[الأنعام: ١٣].

ختم الله - تعالى - سبع آيات لما تكلم عن الليل، ذلك أن السمع في الليل أقوى منه في النهار.

قال الأصفهاني: ذكر - تعالى - في الآية الأولى السماوات والأرض، إذ لا مكان سواهما.

وفي هذه الآية ذكر الليل والنهار، إذ لازمان سواهما.

﴿ قَالَ عامر بن عبد قيس: آيات في كتاب الله إذا ذكرت، لا أبالي على ما أصبحت أو أمسيت: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢].

الآيات تسوق الحجج والبراهين وتفنند شبه المعارضين عن الهدى إلا أنها تتوسطها كلمة ﴿الرَّحْمَةُ﴾ فقد ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾. فقدم

- تعالى - رحمته على إعلامه عباده بهذا اللقاء الموعد وذلك اليوم المشهود .
ومن رحمته - تعالى - أن أمهل العصاة والمسرفين لعلهم يرجعون .
قال رسول الله ﷺ : «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش
إن رحمتي غلبت غضبي» [رواه البخاري] .

* قال تعالى : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾
[الأنعام : ١٧] .

قال ابن القيم : وأعظم الضر حجاب القلب عن الرب .
* قال تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾
[الأنعام : ١٨] .

قال الطبري : إنما قال ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ لأنه وصف نفسه بقهره إياهم ،
وصفة كل قاهر أن يكون مستعلياً عليه .

وفي قوله تعالى : ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكْمُ وَرِدْشًا﴾
[الأنعام : ٢٦] قدم - جل وعلا - الستر على الزينة لأنها الأصل .

* في القرآن آية فيها التهديد المفزع والوعد المطمع : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ
عِبَادِهِ﴾ [الأنعام : ١٨] فتجد في كلمتي (قاهر) و ﴿فَوْقَ﴾ ما يخلع القلب ،
ثم تجد وراء كلمة ﴿عِبَادِهِ﴾ فيضاً من الرحمة والحب والأمان .

* قال تعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ
مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

لما عجب منهم في قولهم الذي يقتضي أنهم لم يروا آية قط : ﴿وَقَالُوا
لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ...﴾ [الأنعام : ٣٧] ذكرهم بآية غير آية القرآن تشتمل
على عدة آيات مستكثرة كافية لصلاحهم .

* قال تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾
[الأنعام : ٤٦] .

ذكر - عز وجل - هذه الأعضاء الثلاثة، لأنها أشرف أعضاء الإنسان فإذا تعطلت هذه الأعضاء، اختل نظام الإنسان وفسد أمره وبطلت مصالحه في الدين والدنيا.

* قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتٍ أَلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

قال الخازن: قدم ذكر البر والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز، وفي الجبال وكثرة ما فيها من المعادن والخيرات، وأصناف المخلوقات مما يعجز الوصف عن إدراكها.

ثم ذكر بعد ذلك ما هو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد لأن الورقة الساقطة والثابتة يراها كل أحد، لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها إلا الله - تعالى -.

ثم ذكر بعد ذلك ما هو أصغر من الورقة وهي الحبة، ثم ذكر بعد ذلك مثلاً يجمع الكل وهو الرطب واليابس، فذكر هذه الأشياء وأنه لا يخرج شيء منها عن علمه - سبحانه وتعالى - فصارت هذه الأمثال منبهة على حكمة عظيمة وقدرة عالية وعلم واسع، فسبحانه العليم الخبير.

* قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [٥٣] وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٣ - ٥٤].

لما نهى الله رسوله عن طرد المؤمنين القانتين أمر بمقابلتهم بالإكرام والإعظام والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

* قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾.

أسلوب حصر، فمن أساليب الحصر في اللغة تقديم ما حقه التأخير، وأصلها (مفاتيح الغيب عنده) فقدم - سبحانه وتعالى - الخبر على المبتدأ فأصبح المعنى أن مفاتيح الغيب ليست عنده أحد غيره، لكن لو قال: (ومفاتيح الغيب عنده) يحتمل المعنى أنها عنده وعند غيره.

ومفاتيح الغيب أمر لا يعلمه إلا الله، لا يُعطى لأحد، أما الغيب الباقي فيمكن أن يطلع عليه - جل وعلا - بعض عباده على بعض.

﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ .

النفي مع الاستثناء أيضاً من أساليب الحصر.

* قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

وليس المقصود هنا عين الظلمة، وإنما المقصود ما في البر والبحر من مشاق ومن مفاوز، فإذا أصابهم الأمر وتيقنوا الهلاك وعظم عليهم الأمر واشتد عليهم الكرب علموا أن لا ملجأ من الله إلا إليه فلجأوا إليه مخلصين فإذا نجاهم نسوا والعياذ بالله كل هذا.

* قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ [المائدة: ٦٥].

استئناف ابتدائي عقب به ذكر النعمة التي في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ﴾ بذكر القدرة على الانتقام.

* قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدْلٍ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠].

قال الشوكاني: أمره الله - سبحانه - بالإعراض عن أهل المجالس التي يستهان فيها بآيات الله إلى غاية هي الخوض في غير ذلك، وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسم بمجالسة المبتدعة، الذين يحرفون كلام الله، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله، ويردون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هو فيه فأقل الأحوال أن يترك مجالستهم، وذلك يسير عليه غير عسير. وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر.

ثم قال - رحمه الله -: ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها، عَلمَ أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرمات، ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسنة، فإنه ربما ينفق عليه من كذباتهم وهذياناتهم ما هو من البطلان بأوضح مكان، فيقْدَح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفه، فيعمل بذلك مدة عمره ويلقي الله به معتقداً أنه من الحق، وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر.

وقال صاحب المنار: وقد حذر السلف الصالح من مجالسة أهل الأهواء، أشد مما حذروا من مجالسة الكفار، إذا لا يخشى على المؤمن من فتنة الكافر ما يخشى عليه من فتنة المبتدع لأنه يحذر من الأول على ضعف شبهته ما لا يحذر من الثاني وهو يجيئه من مأمنه، ولا يعقل أن يقعد المؤمن باختياره مع الكفار في حال استهزائهم بآيات الله وتكذيبهم بها وطعنهم فيها كما يقعد مختاراً مع المجادلين فيها المتأولين لها، وإنما يتصور قعود المؤمن مع الكافر المستهزئ في حال الإكراه وما يقرب منه، كشدة الضعف ولا سيما إذا كان في دار الحرب ولم تكن مكة دار إسلام عن نزول هذه الآيات، ويدخل في أهل الأهواء المقلدون الجامدون الذين يحاولون تطبيق آيات الله وسنن رسوله على آراء مقلديهم بالتكلف، أو يردونها ويحرمون العمل بها

بدعوى احتمال النسخ أو وجود معارض آخر.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أُصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

لما كانت السورة تتكلم عن عقيدة التوحيد التي بعث الله الرسل، ومن أجلها أنزل الكتب، ذكر الله - جل وعلا - في هذه السورة إمام الموحدين خليل الله إبراهيم - عليه السلام -، فهو أبو الأنبياء وشيخ الحنفاء، ونسب الله - جل وعلا - الملة إليه في كتابه ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]. وذلك لمكانة إبراهيم عند مشركي العرب فهم يدعون متابعته وهم راغبون عن ملته لأربعة أمور: جعل ماله للضيفان، وجعل بدنه للنيران، وجعل ولده للقربان، وجعل قلبه للرحمن.

* الأمن والطمأنينة مع زوال سبب الخوف، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والأمنة: الطمأنينة مع وجود سبب الخوف، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسُ أَمْنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ [الأنفال: ١١].

* ولعظم أمر الشرك وخطورته، فقد ذكر الله - عز وجل - ثمانية عشر نبياً في سورة الأنعام، ثم قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقال في حق نبينا محمد ﷺ: ﴿لَٰئِن أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

ثم قال - عز وجل - في نهاية المحاوره ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۖ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

قال ابن عاشور: وقدم ﴿حَكِيمٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾ لأن هذا التفضيل تظهر للحكمة، ثم عقب بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ ليشير إلى أن ذلك الإحكام جار على وفق العلم.

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنُهُمْ أَقْتَدِهٖ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

يوجب الاقتداء بأهل الخير ممن يحيط العلم أنهم مقيمون على الحق ولا يكون ذلك إلا للأنبياء، فأما من دونهم وإن كانوا لا يعرفون من الحق ولا يظن بهم سواه، فالإقتداء بهم غير واجب.

قال: ﴿ فَبِهِدْنُهُمْ ﴾ ولم يقل (فبهم) فيه إشارة إلى أن الاقتداء يكون بالمنهج والطريق لا بالأشخاص.

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٢].

هذا الكتاب المبارك لا ييسر الله للعمل به إلا الناس الطيبين المباركين، فهو كثير البركات والخيرات؛ لأنه كلام رب العالمين، من قرأه وتدبر معانيه، عرف منه العقائد الحقة، وأصول الحلال والحرام، ومكارم الأخلاق وأسباب النعيم الأبدي، والعذاب الأبدي، ومن عمل به غمرت الخيرات والبركات في الدنيا والآخرة، وأصلح الله له الدارين.

وكان بعض علماء التفسير يقول: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا تصديقاً لهذه الآية.

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

هو اللطيف؛ يلطف بعباده، يسوق الرزق إليهم وهم لا يشعرون. وهو الخبير بأمور العباد لا يخفى عليه شيء، مطلع على حقيقة كل أمر.

﴿ لما ذكر - تعالى - أمر التوحيد وأردفه بتقرير أمر النبوة، شرع في تعداد عجائب صنعه - تعالى -، وذكر الأدلة الدالة على وجود الخالق، وكمال علمه وقدرته وحكمته، وبالعجائب الصنع ولطائف التدبير تنبيهاً على أن المقصود الأصلي إنما هو معرفة الله بذاته وصفاته وأفعاله، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ .

إن الله - تعالى - يشق الحب تحت الأرض لخروج النبات منها، ويشق النوى لخروج الشجر منها، وقيل: يشق النواة الميتة فيخرج منها ورقاً أخضر وكذلك الحبة .

قال الرازي: واعلم أنه إذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة ثم مر بها قدر من المدة أظهر الله في أعلاها شقاً ومن أسفلها شقاً، أما من أعلاها فتخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء، وأما من أسفلها: فتخرج من الشجرة الهابطة في الأرض وهي المسماة بعروق الشجرة . وهاهنا عجائب . . منها: أن باطن الأرض جرم كثيف صلب لا تنفذ المسلة القوية فيه ولا يغوص السكين الحاد القوي فيه، ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقة وللطافة بحيث لو دلکها الإنسان بأصبعه بأدنى قوة لصارت كالماء، ثم إنها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ في تلك الأرض الصلبة والغوص في بواطن تلك الأجرام الكثيفة، فحصول هذه القوى الشديدة لهذه الأجرام الضعيفة التي هي في غاية اللطافة لا بد وأن يكون بتقدير العزيز العليم .

* قال تعالى: ﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ .

يخرج - سبحانه - النبات الغض الطري الحي؛ من الحب اليابس الذي هو كالجماد الميت، ويخرج الحب اليابس من النبات الحي النامي .
وعن ابن عباس: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وعلى هذا فالحي والميت استعارة عن المؤمن والكافر .

* قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] .

ونقلب أفئدتهم وأبصارهم، فنحول بينها وبين الانتفاع بآيات الله، فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بآيات القرآن عند نزولها أول مرة، ونتركهم في تمردهم على الحق وإعراضهم عنه حيارى تائهين، لا يهتدون سبيلاً .

قال الشوكاني: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في الدنيا، أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية، كما حلنا بينهم وبين ما دعوتهم إليه أول مرة عند ظهور المعجزة.

وقال الماوردي: وهذا من الله عقوبة لهم، وفيها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنها عقوبة من الله في الآخرة يقلبها في النار.

والثاني: في الدنيا بالخير حتى يزعج النفس ويغمها.

والثالث: معناه أننا نحيط بذات الصدور وخائنة الأعين منهم.

* قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر، فإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيته قد كسوها من العبارات وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة.

* قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يتضمن أموراً:

أحدها: أنه يمشي به في الناس بالنور وهم في الظلمة.

وثانيها: أنه يمشي فيهم بنوره فهم يقتبسون منه حاجتهم إلى النور.

وثالثها: أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك

والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم.

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ تَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

سأل عمر أعرابياً: ما الحرجة؟ قال: الحرجة فينا الشجرة تكون بين

الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء! فقال عمر:

كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير .

* قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨] .

أي : فالجن نالت التعظيم منهم فعبدت ، والإنس بوسوستهم تمتعوا بإيثار الشهوات الحاضرة على اللذات الغائبة .
قال الحسن : ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت ، وعملت الإنس .

* قال تعالى : ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ﴾ [الأنعام: ١٤١] ، أما في الآية [٩٩] ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ﴾ .
فما سر ذلك ؟

سياق الآية الأولى : في بيان قدرة الله وآياته الباهرة في خلقه .
وأما سياق الآية الأخرى : ففي بيان الأطمعة وما يحلله ويحرمه أهل الكفرة افتراء على الله وبيان عقائدهم الباطلة .
و(اشتبه) أكثر ما يفيد الالتباس والإشكال كقولهم : اشتبهت عليه القبله .

و(تشابه) أكثر ما يفيد المشاركة في معنى من المعاني سواء أدى الالتباس أم لم يؤد .

ومعلوم أن الذي يستطيع أن يشبه الأمور حتى تلتبس على الناظر أو المتأمل فلا يميز بينها أقدر من الذي يقدر على أن يجعل تشابه بين شيئين ، فوضع (مشتبه) في السياق الدال على قدرته وآياته .

* سئل ابن سمعون عن قوله تعالى : ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ﴾ .

فقال: مشتببه الأوراق، مختلف المذاق، هذا جلاء للظلام وهذا شفاء للسقام.

* قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].
وصف - تعالى - المشركين بأوصاف سبعة هي: الخسران، والسفاهة، وعدم العلم، وتحريم ما رزقهم الله، والافتراء على الله، والضلال، وعدم الاهتداء، فهذه أمور سبعة وكل واحد منها سبب تام في حصول الذم.

* قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

إذا أمر الله بالبر تأتي كلمة الوالدين وليس الأبوين، لأن الوالد من الولادة، والأم هي التي تلد، وهنا إشارة إلى أنها أولى بالبر والصحة، وقد وردت كذلك في سورة البقرة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ [٨٣].
وفي سورة النساء ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [٣٦].

وفي سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [١٥١].

وفي سورة الإسراء ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ .

* قال - تعالى - في سورة الأنعام:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ١٥١﴾ [الأنعام: ١٥١]
أي: لا تقتلوه من فقركم الحاصل، ولهذا قال بعدها: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فذكر الرزق لهم، بينما قال في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]، أي: خشية حصول فقر في المستقبل؛ ولذا قال بعدها: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسببهم، فرزقهم على الله.

* قال تعالى: ﴿كِتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ

٢٩﴾ [ص: ٢٩].

قال الرازي: فإن من لم يتدبر ولم يتأمل ولم يساعده التوفيق الإلهي، لم يقف على الأسرار العجيبة المذكورة في هذا القرآن العظيم.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ١٦٥﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ومن لطائف القرآن الاقتصار في وصف: ﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ على مؤكد واحد، وتعزيز وصف: ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بمؤكدات ثلاثة وهي: إن، ولام الابتداء، والتوكيد اللفظي؛ لأن (الرحيم) يؤكد معنى (الغفور) ليطمئن أهل العمل الصالح إلى مغفرة الله ورحمته، وليستدعي أهل الإعراض والصدوف إلى الإقلاع عما هم فيه.

* قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ١٦٤﴾ [الأنعام: ١٦٤].

❖ افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].
وقال في خاتمة السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

فناسب بين البدء والختام، فقد ذكر أن الذين كفروا بربهم يعدلون، أما هو فلا يعدل بربه شيئاً، فانظر هذه المناسبة والملاءمة في التعبير حتى كأن التعبيرين في البدء والختام آية واحدة.

سورة الأعراف ٧

سورة الأعراف من أطول السور المكية، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء، وفي ثناياها تقرير أصول العقيدة من توحيد الله - جل وعلا -، وتقرير البعث والجزاء، وتقرير الوحي والرسالة.

وتعرضت السورة الكريمة في بدء آياتها للقرآن العظيم معجزة محمد ﷺ الخالدة، وقررت أن هذا القرآن نعمة من الرحمن على الإنسانية جمعاء، فعليهم أن يستمسكوا بتوجيهاته وإرشاداته ليفوزوا بسعادة الدارين.

ولفتت الآيات الكريمة الأنظار إلى نعمة خلقهم من أب واحد، وإلى تكريم الله لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أب البشر آدم - عليه السلام - الذي أمر الله الملائكة بالسجود له، ثم حذرت من كيد الشيطان ذلك العدو المتربص الذي قعد على طريق الناس ليصدهم عن الهدى ويبيدهم عن خالقهم.

سميت هذه السورة بسورة الأعراف لورود ذكر اسم الأعراف فيها، وهو سور مضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلها. روى ابن جرير عن حذيفة أنه سُئل عن أصحاب الأعراف، فقال: «هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة، وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم».

✽ وقد ذكر - تعالى - في ثنايا آياتها الجزاء على الأعمال يوم العرض والحساب، فقال:

﴿وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٢﴾﴾

قيل: والذي يوضع في الميزان يوم القيامة الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله - تعالى - يقلبها يوم القيامة أجساماً.

وقيل: يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة.

وقيل: يوزن صاحب العمل كما في الحديث: «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة» والكل صحيح، فتارة توزن الأعمال، وتارة محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

✽ قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].
﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

تعليل علل به إبليس امتناعه من السجود، وهو يقتضي الاعتراض على الله - تعالى - في أمره بسجود الفاضل للمفضول على زعمه وبهذا الاعتراض كفر إبليس، إذ ليس كفره جحود.

✽ قال تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].
﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من السماء.

قال: فيما أغويتني الفاء للتعليل، وهي تتعلق بفعل قسم محذوف تقديره، أقسم بالله - بسبب إغوائك لي - لأغوين بني آدم.
قال الشنقيطي - رحمه الله -: إن الله - تعالى - عامل إبليس اللعين بنقيض قصده حيث كان قصده التعاضم والتكبر فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلاً متصفاً بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة، وذلك في قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ والصغار أشد الذل والهوان.

وقوله: ﴿قَالَ آخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨]، ونحو ذلك من الآيات، ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال من العظمة والرفعة، وإنما يحصل له نقيض ذلك، وصرح - تعالى - بهذا المعنى في قولهم: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ﴾

* وقد ذكر - عز وجل - في السورة مكر الشيطان ومكائده وسعيه لإغواء بني آدم. فقال تعالى:

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ فِيهِمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

قال قتادة: أذاك الشيطان ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله. وقال النسفي: لم يقل من فوقهم ومن تحتهم؛ لمكان الرحمة والسجدة.

* قال - تعالى - عن آدم وحواء: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا مَخَصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأنعام: ٢٢].

ظهور السوءات وبدو العورات إنما هو عقوبة من عقوبات الذنوب والمعاصي، وليس علامة على المدنية والتحضر، وإنما هو ارتكاس وبعد عن الفطرة، وقد تمنن الله - عز وجل - على بني آدم باللباس الذي يوارى السوءات والرياش التي يتجمل بها، ولذلك كان من أعظم طرق الشيطان في إغواء بني آدم: كشف العورات، كما قال تعالى: ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧]، وهو بداية النهاية في انحلال الأخلاق وفساد الأمم والشعوب.

* قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

قال ابن تيمية: فالمغفرة إزالة السيئات، والرحمة إنزال الخيرات.

* قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

قال مالك بن دينار: إن عدواً يراك ولا تراه لشديد الخصومة والمؤنة إلا من عصم الله.

* قال تعالى: ﴿يَبْنِيْٓ اٰدَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ يا بني آدم كونوا عند أداء الصلاة على حالة من الزينة المشروعة من ثياب ساترة لعوراتكم ونظافة وطهارة ونحو ذلك، فيستحب لها التزين والتعطر كما يجب التستر والتطهر.

قال أهل التفسير: كان بنو عامر يطوفون بالبيت عراة، فنزلت هذه الآية: ﴿يَبْنِيْٓ اٰدَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وأذن مؤذن رسول الله ﷺ: «ألا يطوف بالبيت عريان» [رواه مسلم].

قال ابن القيم: الأدب هو الدين كله، ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو: أخذ الزينة، فقال تعالى: ﴿يَبْنِيْٓ اٰدَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] فعلق الأمر بأخذ الزينة لا بستر العورة، إيذاناً بأن العبد ينبغي له أن يلبس أزين ثيابه وأجملها في الصلاة.

- وفي قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْٓ اٰدَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ . قال بعض العلماء: جمع في الآية أصول الكلام: النداء، والعموم، والخصوص، والأمر، والإباحة، والنهي، والخير.

* قال تعالى: ﴿وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا﴾ . أي: ولا تسرفوا في الزينة والأكل والشرب بما يضر بالنفس والمال، ولا تتجاوزوا حدود الاعتدال في ذلك.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: كل ما شئت، واشرب ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة.

* قال عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: سمعت عبد الله حنظلة يوماً وهو على فراشه، وعُدَّتُهُ من علته، فتلا رجل عنده هذه الآية: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِّنْ فَوْقَهُمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]؛ فبكى حتى ظننت أن

نفسه ستخرج، وقال: صاروا بين أطباق النار، ثم قام على رجله، فقال قائل: يا أبا عبد الرحمن! اقعد، قال: منعني القعود ذكر جهنم؛ ولعلي أحدهم.

وذكر أن عبد الله بن عمر شرب ماءً مُبَرَّدًا فبكى فاشتد بكاءه، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت آية في كتاب الله عز وجل: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبا: ٥٤]؛ فعرفت أن أهل النار لا يشتهون شيئاً شهوتهم الماء، وقد قال الله عز وجل: ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

قال بعض العلماء: أنهار الجنة في غير أخدود، إن المؤمن في غرفته العالية قد يشير إلى النهر تحته فيصعد إليه حتى يقضي منه حاجته كما في تفسير قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦]. ولا غرابة في ارتفاع الماء إلى ولي الله في غرفته من الأرض لأنه يشاهد في الدنيا ما هو أعظم من هذا وأغرب.

* قال - تعالى - في شأن أصحاب الأعراف: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ تَلَقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٧].

وفي التعبير بـ ﴿صُرِفَتْ﴾ إشارة إلى أنهم أجبروا على أن ينظروا إلى أهل النار؛ لأن الهول شديد، ومنظر النار فظيع جداً، لا ينظر إليه أحد باختياره، بينما قال في حالهم مع أهل الجنة: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾.

* قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

قال القرطبي: في هذه الآية دليل على أن سقي الماء من أفضل الأعمال.

وقد سئل ابن عباس: أي الصدقة أفضل؟ فقال: الماء ألم تروا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ .

وقد قال بعض التابعين من كثرت ذنوبه، فعليه بسقي الماء، وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب، فكيف بمن سقى رجلاً مؤمناً موحداً، وأحياه؟
 * قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم من صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله - تعالى - يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ، وأن الله ذكر عبداً صالحاً ورضي بفعله، وقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَآءَ خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].
 قال ابن القيم: وفي الآية دليل على أن من لم يدعه تضرعاً وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم.

قال الحسن: لقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض عمل يقدر على أن يكون سرّاً فيكون جهراً أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء فلا يسمع لهم صوت إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله - تعالى - يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].
 قال الشيخ ابن عثيمين: تضرعاً في القلوب، وخفية في اللسان بدون صوت مزعج.

﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

ومن العدوان: أن يدعوه دعاء غير متضرع بل دعاء مُدِلٍّ كالمستغني بما عنده من المدد على ربه به، وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة في مجموع حالاته، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد.

- وفي إخفاء الدعاء فوائد، منها:

أولاً: أنه أعظم إيماناً؛ لأن صاحبه يعلم أن الله - تعالى - يسمع دعاءه الخفي.

ثانياً: أنه أعظم في الأدب، ولهذا لا تُسأل الملوك برفع الأصوات، ومن فعل ذلك مقتوه - والله المثل الأعلى -.

ثالثاً: أنه أبلغ في التضرع والخشوع، فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق.

رابعاً: أنه أبلغ في الإخلاص، وفي جمع القلب على الله، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته.

خامساً: أنه دال على قرب صاحبه من الله، يسأله مسألة مناجاة للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد؛ ولهذا أثنى - سبحانه - على عبده زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، فلما استحضر قرب ربه، وأنه أقرب إليه من كل قريب، أخفى دعاءه ما أمكنه.

وقواعد الدعاء والذكر أجمعت في موطنين من سورة الأعراف، فآيتا الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] والآية بعدها.

وآية الذكر: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

* وبعد أن ذكر - تعالى - قصة نوح مع قومه، ذكر هنا قصة هود مع قومه، قال تعالى:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۖ قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۚ﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ

﴿١٥٩﴾ **مَنْ كَذَبَ بَيِّنَاتٍ** قَالَ يَنْتَوِمُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٠﴾ **أُبَايِعُكُمْ** رَسَلْتُ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٦١﴾ .

أجابهم بحلم وسعة صدر مع علمه بأن خصومه أضل الناس وأسفهم .

قال الزمخشري : وفي إجابة الأنبياء - عليه السلام - ممن نسبهم إلى السفاهة والضلالة - بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم وترك المقابلة - أدب حسن وخلق عظيم ، وتعليم للعباد كيف يخاطبون السفهاء ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم .

﴿١٦٢﴾ **قَالَ تَعَالَى : ﴿فَاذْكُرُوا، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [الأعراف: ٦٩] قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة : فذكر آلائه - تبارك وتعالى - ونعمه على عبده ، سبب الفلاح والسعادة ؛ لأن ذلك لا يزيده إلا محبة لله ، وحمداً وشكراً وطاعة ، وشهود تقصيره ، بل تفريطه في القليل مما يوجب الله عليه .

﴿١٦٣﴾ **ذَكَرَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - نَبِيَّهُ صَالِحاً وَآيَتَهُ وَهِيَ النَّاقَةُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿قَدْ جَاءَ تَكْمِلَةُ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾** .

هذا بيان للمعجزة ، أي : هذه الناقة معجزتي إليكم ، وإضافتها إلى الله للتشريف والتعظيم ؛ لأنها خلقت بغير واسطة ، حيث أخرج لهم الناقة حين سألوه من حجر صلد .

﴿١٦٤﴾ **ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى - عَمَّا نَالَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ بَعْدَ أَنْ كَذَبُوا :**

﴿١٦٥﴾ **﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾** [الأعراف: ٩١] .

وقال في سورة هود : ﴿١٦٦﴾ **﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ**

جِثْمِينَ﴾ [هود: ٦٧] .

فحين ذكر الرجفة - وهي الزلزلة الشديدة - ذكر الدار مفردة (في دارهم) ولما ذكر الصيحة جمع الدار ﴿١٦٧﴾ **﴿فِي دِيَرِهِمْ﴾** ؛ وذلك لأن الصيحة يبلغ صوتها

مساحة أكبر مما تبلغ الرجفة التي تختص بجزء من الأرض ؛ فلذلك أفردوا مع الرجفة ، وجمعها مع الصيحة .

قال ابن كثير : أخبر - تعالى - هنا أنهم أخذتهم الرجفة حين أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجللاء ، وأخبر عنهم في سورة هود فقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ [هود: ٩٤] والمناسبة هناك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا به في قولهم : ﴿ أَصْلَوْتُمْ تَأْمُرُك... ﴾ [هود: ٨٧] ، فجاءت الصيحة فأسكتهم ، وقال - تعالى - في الشعراء : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ... ﴾ [الشعراء: ١٨٩] وما ذاك إلا لأنهم قالوا في سياق القصة : ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ... ﴾ [الشعراء: ١٨٧] وقد اجتمع عليهم ذلك كله .

* قال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [٨٣]

[الأعراف: ٨٣] .

قال ابن تيمية : من رضي عمل قوم حشر معهم ، كما حشرت امرأة لوط معهم .

* قال - عز وجل - عن قوم لوط وما أنزل عليهم من العذاب :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [٤١]

أي : وأرسل الله عذاباً على الكفار من قوم لوط بأن أنزل عليهم مطراً من حجارة من سجيل ، وشبه العذاب بالمطر المdrار لكثرة حيث المطر أرسل إرسالاً .

* قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤] .

وقال - تعالى - في سورة الأنعام : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣] .

فقال في آية الأنعام : ﴿ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ وقال في الأعراف : ﴿ يَضَّرَّعُونَ ﴾ وذلك أنه قال في آية الأنعام : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن

قَبْلِكَ ﴿ وَقَالَ فِي الْأَعْرَافِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ والأمم أكثر من القرية، وهذا يعني تطاول الإرسال على مدار التاريخ.

فلما طال الحدث واستمر جاء بما هو أطول بناءً، فقال: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ ﴿١٦١﴾ ولما كان الإرسال في الأعراف إلى قرية، قال: ﴿يَضَرَّعُونَ﴾ ﴿١٦٢﴾ فجاء بما هو أقصر في البناء.

ومن ناحية أخرى استعمل في آية الأنعام: ﴿أَرْسَلْنَا إِلَى﴾ وفي الأعراف: ﴿أَرْسَلْنَا فِي﴾ والإرسال إلى شخص يقتضي التبليغ ولا يقتضي المكث، فإنك قد ترسل إلى شخص رسالة فيبلغها ويعود، وأما الإرسال في القرية فإنه يقتضي التبليغ والمكث، ولا شك أن هذا يدعوهم إلى زيادة التضرع والمبالغة فيه.

* قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿١٦٣﴾.

أي: أفأمن أهل القرى المكذبة مكر الله وإمهاله لهم واستدراجه بالنعمة حتى يهلكوا في غفلتهم؟ فإنه لا يأمن ذلك إلا القوم الهالكون.

قال الحسن: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق خائف وجل، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو مطمئن آمن.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره: في هذه الآية تخويف بليغ، فإن العبد لا ينبغي أن يكون آمناً على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفاً أن يتلى ببليّة تسلب إيمانه، ولا يزال داعياً بالثبات، وأن يسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقع الفتنة؛ فإن العبد - ولو بلغت به الحال ما بلغت - فليس على يقين من السلامة.

وقال الزمخشري: فعلى العاقل أن يكون في خوف من مكر الله، كالمحارب الذي يخاف من عدوه الكمين والبيات والغيلة.

وكان هرم بن حيان يخرج في بعض الليالي وينادي بأعلى صوته: عجبت من الجنة كيف نام طالباها؟ وعجبت من النار كيف نام هارباها؟ ثم يقول: ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧].

وعن الربيع بن خثيم أن ابنته قالت: مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام؟ فقال: يا بنتاه! إن أباك يخاف البيات. أراد قوله: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا﴾ [الأعراف: ٩٧].

* قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

قال ابن الجوزي: أعظم المعاقبة أن لا يحس المعاقب بالعقوبة، وأشد من ذلك أن يقع في السرور بما هو عقوبة؛ كالفرح بالمال الحرام، والتمكن من الذنوب، ومن هذه حالة لا يفوز بطاعة. وتأمل ذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

* قال - تعالى - عن حال السحرة بعد أن آمنوا:

﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠].

ولم يقل سجدوا، كأن شيئاً اضطهرهم إلى السجود، كأنهم سجدوا بغير اختيار؛ لقوة ما رأوا من الآية العظيمة.

* ثم تأتي النهاية ويزف النصر، ويمكن - جل وعلا - لعباده المؤمنين:

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

قال الزمخشري: وهذا آخر ما اقتص الله من نبا فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعاصيهم، ثم أتبعه اقتصاص نبا بني إسرائيل وما

أحدثوه بعد إنفاذهم من ملكه فرعون واستعباده ومعاينتهم الآيات العظام ومجاوزتهم البحر، من عبادة البقر وطلب رؤية الله جهرة، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، ليعلم حال الإنسان وأنه كما وصفه: ﴿لَظُلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، جهول كنود إلا من عصمه الله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبا: ١٣]، وليسلي رسول الله ﷺ مما أري من بني إسرائيل بالمدينة.

ولم يذكر - عز وجل - الشمال والجنوب في القرآن لقلة الخير وفقر الأرض.

* سأل موسى - عليه السلام - أجل الأشياء، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وسأل أقل الأشياء فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

والمسلم يسأل الله أجل الأشياء وهي خيرات الآخرة، وأقلها وهي خيرات الدنيا، فيقول: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

* لما رجع موسى - عليه السلام - ووجد قومه قد عبدوا العجل، غضب وأخذ برأس أخيه هارون ولحيته، وعاتبه عتاباً، ولطف به في القول بالمناداة ﴿يَبْنَؤُمْ﴾ تودداً وترحماً ناداه بالأُم، وإلا فهو شقيقه لأُم وأب.

ثم قال هارون لموسى: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وهو درس عظيم لأتباع الأنبياء في علاج مشاكلهم مهما كانت كبيرة، بعيدة عن أي أسلوب يجلب شماته الأعداء والحاسدين.

* قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

قال كعب: رب قائم مشكور له، ورب نائم مغفور له، وذلك أن الرجلين يتحابان في الله فقام أحدهما يصلي فرد الله صلاته، ودعاه فلم يرد عليه من دعائه شيئاً، فذكر أخاه في دعائه من الليل، فقال: يا رب أخي فلان اغفر له، فغفر له وهو نائم.

* قال - تعالى - بعد أن ذكر جملة من قبائح اليهود -:

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣].

فإنه - سبحانه - عظم خبائثهم أولاً، ثم أردفها بعظم رحمته ليعلم أن الذنوب وإن حلت فالرحمة أعظم.

عن عكرمة قال: جئت ابن عباس يوماً وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره فأعظمت أن أدنو منه، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست، فقلت: ما يبكيك يا ابن عباس جعلني الله فداك؟ فقال: هؤلاء الورقات، قال: وإذا هو في سورة الأعراف، وذكر أصحاب السبت، ثم قرأ ابن عباس ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْبَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها. قال: قلت: جعلني الله فداك؛ ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوه وقالوا: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٤] قال: فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين.

* قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاخَ وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

في هذا النظم الكريم، يعني قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى﴾ من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب، الحامل له على ما صدر عنه من الفعل والقول منزلة الأمر بذلك، المغري عليه، بالتحكم والتشديد،

والتعبير عن سكوته بالسكوت ما لا يخفى .

* قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

قال ابن تيمية: فإن أميته لم تكن من جهة فقد العلم والقراءة عن ظهر قلب فإنه إمام الأئمة في هذا، وإنما كان من جهة أنه لا يكتب ولا يقرأ مكتوباً .

* قال تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] .

قال القرطبي: فدلّت الآية لمن تدبرها على ألا يغتر بعمله ولا بعلمه، إذا لا يدري بما يختم له .

* ضرب الله مثلين منفريين، فقال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْجِمَارِ تَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] .

فالمثل الأول ضربه للعالم الضال المنسلخ عن العلم النافع، دائم اللهاث وراء شهوته .

وأما المثل الثاني فضربه الله للذين يحملون التوراة في عقولهم، لكنهم لم يستفيدوا منها ولم ينتفعوا بها في حياتهم، فماذا يفرقون عن الحمار حامل الأسفار؟

قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له إنما فؤاده ينقطع .

قال القتيبي: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة، وحال المرض وحال الصحة، وحال الري وحال العطش، فضربه الله مثلاً عن من كذب بآياته فقال: إن وعظته ضل، وإن تركته ضل، فهو كالكلب؛ إن تركته لهث، وإن طردته لهث .

واللهث تنفس بسرعة، وتحرك أعضاء الفم معه، وامتداد اللسان، وخلقه الكلب أنه ليلهث على كل حال.

❖ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦].

أخبر - سبحانه - أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو موضوع، لا يرفع أحد به رأساً، فإن الرب الخافض الرافع - سبحانه - فإن شاء خفضه ولم يرفعه.

❖ قال تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧٧].

حيث شبهوا بالكلاب إما في استواء الحالتين في النقصان (استواء إيتاء الآيات والتكليف بها وعدم ذلك) وأنهم ضالون وعظوا أم لم يوعظوا، وإما في الخسة فإن الكلاب لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة.

❖ قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

أي: واذكر - يا محمد - حين أعلم ربك ليسلطن على اليهود إلى قيام الساعة من يذيقهم أسوأ العذاب بسبب عصيانهم ومخالفتهم أمر الله واحتيالهم على المحارم، وقد سلط الله عليهم على مر الأزمنة من يسومهم سوء العذاب، وقد فعل الله بهم ما أوعدهم به، فلا يزالون في ذل وإهانة تحت حكم غيرهم، ولا تقوم لهم راية ولا ينصر لهم علم.

❖ كثيراً ما ينفي الله الشيء لانتفاء فائدته وثمرته، وإن كانت صورته موجودة، ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فلما لم ينتفعوا بقلوبهم بفقه معاني كلام الله، وأعينهم بتأمل ملكوت الله، لم تتحقق الثمرة منها.

* قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال القرطبي: سَمِيَ اللهُ - سبحانه - أسماءه بالحسنى لأنها حسنة في الأسماع والقلوب، فإنها تدل على توحيده، وكرمه، وجوده، ورحمته، وإفضاله.

وهو - سبحانه - يحب موجب أسمائه وصفاته، فهو عليم يحب كل عليم، جواد يحب كل جواد، وتر يحب الوتر، جميل يحب الجمال، عفو يحب العفو وأهله، حيي يحب الحياء وأهله، بر يحب الأبرار، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، حلیم يحب أهل الحلم، فلمحبته - سبحانه - للتوبة والمغفرة والعفو والصفح؛ خلق من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه.

* قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].
قال سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعم، ونمنعهم الشكر.

قيل لعمر بن عبد العزيز وهو على فراش الموت: هؤلاء بنوك - وكانوا اثني عشر - ألا توصي لهم بشيء فإنهم فقراء؟!!

فقال: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، والله لا أعطيهم حق أحد، وهم بين رجلين: إما صالح؛ فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح؛ فما كنت لأعينه على فسقه، ولا أبالي في أي وادٍ هلك، ولا أدع له ما يستعين به على معصية الله فأكون شريكه فيما يعمل بعد الموت، ثم استدعى أولاده فودعهم وعزاهم، وأوصاهم بهذا الكلام ثم قال: انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم.

قالوا: فلقد رأينا بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرساً في سبيل الله، وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك مع كثرة ما ترك لهم من الأموال؛ يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز، لأن عمر وكل

ولده إلى الله عز وجل ، وسليمان وغيره إنما يكلون أولادهم إلى ما يدعون لهم من الإرث؛ فيضيعون وتذهب أموالهم في شهوات أولادهم!

*** قال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾**

﴿ ١٦٨ ﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ ١٦٩ ﴾

[الأعراف: ١٩٩ - ٢٠٠].

في هذه الآية والآيتان الأخريان بيان ما يتلقى الإنسان به العدو من جنسه والعدو من الشياطين، ليكتفي شرهما ويكسر أصل هذه العداوة المضرة الشنيعة التي لا يسلم منها أحد، وذلك أن عدوك من بني جنسك أنك تقابل إساءته بالإحسان، ومنكره بالمعروف، وإساءته بالحلم والصفح، فإن ذلك الإحسان وذلك الحلم والصفح يقضي على إساءته ويذهبها حتى يضطر إلى أن يصير في آخر الأمر من أصدق الأصدقاء، وأما إذا كان العدو من الشياطين فإن الملاينة لا تفيد فيه، وأنت لا تراه ولا لك فيه حيلة إلا الاستغاثة بخالق السماوات والأرض والاستعاذة به منه.

*** قال تعالى: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾**

الأمر بالمعروف لن يعدم من يكابر على الحق ويجادله، فليعرض عنه، مر سالم بن عبد الله بن عمر - وهو من كبار الفقهاء - على قافلة فيها جرس، فقال: إن هذا يُنهي عنه، فقالوا: نحن أعلم منك، إنما يكره الجلجل الكبير، وأما هذا فلا بأس به، فبكى سالم، وقال: **﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾** [الأعراف: ١٩٩].

وحين قدم عيينة بن حصن على عمر فقال: إنك لا تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر غضباً حتى كاد أن يهجم به، ولكن ابن أخي عيينة قال: يا أمير المؤمنين، إن الله - تعالى - قال لنبيه: **﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾** [الأعراف: ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين، فوقف عندها عمر ولم يتجاوزها؛ لأنه كان وقافاً عند كتاب الله.

❖ قال الليث: يقال: ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن؛
 لقول الله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾
 [الأعراف: ٢٠٤]، ولعل من الله - سبحانه وتعالى - واجبة.

سورة الأنفال ٨

سورة الأنفال إحدى السور المدنية التي عنيت بجانب التشريع ، وبخاصة فيما يتعلق بالغزوات والجهاد في سبيل الله ، فقد عالجت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات ، وتضمنت كثيراً من أحكام الجهاد ، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم لأعداء الله ، وتناولت جانب السلم والحرب ، وأحكام الأسر والغنائم .

نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب غزوة بدر التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد ، وبداية النصر لجند الرحمن حتى سماها بعض الصحابة سورة بدر ؛ لأنها تناولت أحداث هذه الموقعة بإسهاب ، ورسمت خطة القتال ، وبينت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من البطولة والشهامة ، والوقوف في وجه الباطل بكل شجاعة وجرأة وحزم وصمود .

وكانت وقعة غزوة بدر الكبرى هي الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل ، ورد البغي والطغيان ، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين قعد بهم الضعف في مكة ، وأخذوا في الضراعة إلى الله أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها ، وقد استجاب الله ضراعتهم فهبأ لهم ظروف تلك الغزوة ، التي تم فيها النصر للمؤمنين على قلة في عددهم ، وضعف في عددهم ، وعلى عدم تهيئهم للقتال ، وبها عرف أنصار الباطل أنه مهما طال أمده ، وقويت شوكته ، وامتد سلطانه ، فلا بد له من يوم يخز فيه صريعاً أمام جلال الحق وقوة الإيمان ، وهكذا كانت غزوة بدر؛ نصر للمؤمنين ، وهزيمة للمشركين .

وفي ثانيا سرد أحداث بدر ، جاءت النداءات الإلهية للمؤمنين ست مرات بوصف الإيمان : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [الأنفال: ١٥] كحافز لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله ، وكتذكير لهم بأن هذه التكاليف

التي أمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به، وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب الإيمان لا بكثرة السلاح والرجال.

أما النداء الأول: فقد جاء فيه التحذير من الفرار من المعركة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ ۖ ٱلْأَدْبَارَ ۚ﴾ [الأنفال: ١٥] وقد توعدت الآيات المنهزمين أمام الأعداء بأشد العذاب.

أما النداء الثاني: فقد جاء فيه الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ۚ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وأما النداء الثالث: فقد بين فيه - جل وعلا - أن ما يدعوهم إليه الرسول فيه حياتهم وعزتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَسْتَحْيُونَ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ [الأنفال: ٢٤].

وأما النداء الرابع: فقد جاء بالتحذير من إفشاء سر الأمة للأعداء خيانة لله ولرسوله، وللمسلمين: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وأما النداء الخامس: فقد لفت نظرهم فيه إلى ثمرة التقوى، وذكرهم بأنها أساس الخير كله، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني، الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، وبه يفرق بين الرشd والغى، والهدى والضلال، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ تَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۚ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وأما النداء السادس: وهو النداء الأخير فقد وضح لهم فيه طريق العزة، وأسس النصر، وذلك بالثبات أمام الأعداء، والصبر عند اللقاء، واستحضار عظمة الله التي لا تحد، وقوته التي لا تقهر، والاكثار من ذكر الله كثيراً: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۚ﴾ [الأنفال: ٤٥].

* في مطلع السورة تحدثت الآيات عن الأنفال وهي الغنائم التي ينفلها الله لهذه الأمة من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصة بدر أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ عنها، فأنزل الله هذه الآيات.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١].
في هذه الآيات صرف الله - عز وجل - إجابتهم عن ما يريدونه إلى ما يحتاجونه.

فالأصل فيكم يا أهل الإسلام أن تكونوا متآلفي القلوب، فليس الآن وقت إجابة عن هذه الغنائم، وإنما الشأن كل الشأن أن تتآلف قلوبكم وأن تجتمع كلمتكم وأن تتقوا الله ربكم، ثم بعد أربعين آية جاء قول الله - جل وعلا - يجيب عن هذا السؤال ويبين الحكم في ذلك.

* قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

يريد في الحكم في الغنائم.

قال عبادة بن الصامت: نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا وجعلها لرسول الله ﷺ قسمها على السواء.

* لما حضر الإمام نافعاً المدني - وهو أحد القراء السبعة - الوفاة قال له أبناؤه أوصنا! قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١].

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].
قدم - تعالى - أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه: بفهم القرآن، ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن، حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ، ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرغبة من الشر ما لم يكن.

وقد أخبر عنهم باسم الموصول بثلاثة مقامات عظيمة وهي: مقام الخوف، ومقام الزيادة في الإيمان، ومقام التوكل على الرحمن.

قال سعيد بن جبیر: التوكل على الله جماع الإيمان.

وقال ابن رجب في لطائف المعارف: إذا ذاق العبد حلاوة الإيمان ووجد طعمه وحلاوته ظهر ثمر ذلك على لسانه وجوارحه، فاستحلى اللسان ذكر الله وما والاه، وأسرعت الجوارح طاعة لله، ويشهد لذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

- وهذا شأن أهل الإيمان مع القرآن كما قال تعالى:

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢].

لأنهم يلقون السمع، ويحضرون قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب؛ ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلون، أو يتذكرون ما كانوا نسوه أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، أو وجلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي.

❖ قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٩].

الدعاء الصادق من قلب مخبت سلاح نافذ بإذن الله، قال ابن تيمية - رحمه الله -: القلوب الصادقة والأدعية الصالحة هي العسكر الذي لا يُغلب.

❖ قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ [الأنفال: ١٢].

قال في فتح الباري: سئل السبكي عن الحكمة في قتال الملائكة في بدر، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه؟ فقال: وقع ذلك

لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش، رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها الله - تعالى - في عباده.

❖ قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

ودلت الآية على أنه ليس لكل من سمع وفقه يكون فيه خير؛ بل قد يفقه ولا يعمل بعلمه، فلا ينتفع به فلا يكون فيه خيراً، ودلت أيضاً على أن إسماع التفهيم إنما يطلب لمن السؤال هل كل من سمع يكون خيراً؟

❖ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

كما أن الإنسان لا حياة حتى ينفخ فيه الملك الذي هو رسول الله من روحه، فيصير حياً بذلك النفخ، وكان قبل ذلك من جملة الأموات، فكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول ﷺ من الروح الذي ألقى إليه.

❖ قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: أي هذه الفتنة لا تصيب الظالم فقط؛ بل تصيب الظالم والساكت عن نهيه عن الظلم.

❖ قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.

واعلموا أنه - تعالى - المتصرف في جميع الأشياء، يصرف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخ عزائمه، ويغير مقاصده، ويلهمه رشده، أو يزيغ قلبه عن الصراط السوي، وفي الحديث: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» [رواه الترمذي].

قال ابن عباس: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان.

وفي ذلك حض على المراقبة، والخوف من الله - تعالى -، والمبادرة إلى الاستجابة له - جل وعلا -.

* ثم يقول - تعالى - ممتناً على عبادته في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة، فضلاً منه وإحساناً.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَفَاوَنُكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٢٨﴾ .
أي: لتشكروا الله على هذه النعم الجليلة، والغرض التذكير بالنعمة.

فإنهم كانوا قبل ظهور الرسول ﷺ في غاية القلة والذلة، وبعد ظهوره صاروا في غاية العزة والرفعة، فعليهم أن يطيعوا الله ويشكروه على هذه النعمة، قال قتادة بن دعامة السدوسي - رحمه الله - : كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً، وأبينه ضللاً، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم مُنعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله.

* قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ٢٩﴾ [الأنفال: ٢٨].

فتقديم الأموال لأنها مظنة الحمل على الخيانة في هذا المقام.

* قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٠﴾ [الأنفال: ٣٣].

أشارت هذه الآية إلى أن محبة الرسول وحقيقة ما جاء به إذا كان في القلب؛ فإن الله لا يعذبه لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قال ابن تيمية: من سره أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله، وبالاستغفار يغفر له ويدفع عنه عذابه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

* ثم دعا - تعالى - المشركين إلى التوبة والإنابة، وحذرهم من الإصرار على الكفر والضلال، قال سبحانه:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين من قومك، إن ينتهوا عن الكفر ويؤمنوا بالله ويتركوا قتالك وقتال المؤمنين، يغفر لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام، فالإسلام يجب ما قبله. وذلك من رحمة الله وعفوه، وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم والمآثم، فلو كان يوجب مؤاخذتهم لما استدرکوا أبداً توبة، ولا نالتهم مغفرة؛ فيسر الله عليهم قبول التوبة عند الإنابة، وبذل المغفرة بالإسلام، وهدم جميع ما تقدم، ليكون ذلك أقرب إلى دخولهم في الدين، وأدعى إلى قبولهم كلمة الإسلام.

﴿وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾.

أي: وإن عادوا إلى قتالك وتكذيبك ومكرهم وعنادهم، ويستمروا على ما هم فيه فقد مضت سنة الله في تدمير وإهلاك المكذبين لأنبيائه، فكذلك نفعل بهم، وهذا وعيد شديد لهم بالدمار إن لم يقلعوا عن المكابرة والعناد.

﴿وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.

أي: قاتلوا يا معشر المؤمنين أعداءكم المشركين حتى لا يكون شرك ولا يُعبد إلا الله وحده، وحتى لا يفتن مؤمن عن دينه.

قال ابن عباس: الفتنة: الشرك، أي حتى لا يبقى مشرك على وجه الأرض.

﴿وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِذَا انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: تضحل الأديان الباطلة، وحتى يكون الدين والطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره. واضمحلالها إما بهلاك أهلها جميعاً، أو برجوعهم عنها خشية القتل، لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» [رواه البخاري].

✽ قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ٥٤﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ٥٥﴾.

أي: ذلك العذاب الذي أصابكم أيها المشركين في بدر فبسبب ما كسبتم من الكفر والآثام، وأنه - تعالى - عادل ليس بذي ظلم لأحد من العباد حتى يعذبه بغير ذنب، فقد أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأوضح لهم السبيل، وهداهم النجدين.

وصيغة ﴿بِظَلَمٍ﴾ ليست للمبالغة، وإنما هي للنسب، أي: ليس منسوباً إلى الظلم، فقد انتفى أصل الظلم عنه - تعالى - لكمال عدله.

✽ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٥٦﴾ [الأنفال: ٥٦].

قال ابن تيمية: وإشارتها أنه إذا عاقب قوماً وابتلاهم لم يغير ما بهم من العقوبة والبلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم من المعصية إلى الطاعة، كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة» ومنه قول النبي ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة» فإذا منع الكلب والصورة دخول الملك إلى البيت، فكيف تدخل معرفة الرب ومحبته في قلب ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها.

✽ قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ٥٧﴾ [الأنفال: ٦٠].

أمر - سبحانه وتعالى - بإعداد القوة للأعداء، فإن الله - تعالى - لو شاء لهزمهم بالكلام وبحفنة من تراب كما فعل ﷺ، ولكنه أراد أن يبلي بعض الناس ببعض، فأمر بإعداد القوى والآلة في فنون الحرب التي تكون لنا عدة، وعليهم قوة، ووعد على الصبر والتقوى بإمداد الملائكة العليا.

* قال تعالى: ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

روى الحاكم أن ابن عباس كان يقول: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم يقرأ: ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

سورة التوبة ٩

سورة التوبة من السور المدنية التي تعنى بجانب التشريع، وهي كالمتمة لسورة الأنفال في معظم ما في أصول الدين وفروعه وأحكام القتال والاستعداد له وأسباب النصر فيه، وأحكام المعاهدات والمواثيق وغيرها. وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ. فقد روى البخاري عن البراء ابن عازب أن آخر سورة نزلت سورة براءة.

وروى ابن كثير: أن أول هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ عند مرجعه من غزوة تبوك، فقد بعث أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - أميراً على الحج تلك السنة، ليقم للناس مناسكهم، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - مبلغاً عن رسول الله ﷺ ما فيها من الأحكام، وذلك في السنة التاسعة من الهجرة، وهي السنة التي خرج فيها رسول الله ﷺ لغزو الروم، واشتهرت بين الغزوات النبوية بـ «غزوة تبوك» وكانت في حرّ شديد، وسفر بعيد، حين طابت الثمار، وأخلد الناس إلى نعيم الحياة، فكانت ابتلاءً لإيمان المؤمنين، وامتحاناً لصدقهم وإخلاصهم لدين الله، وتمييزاً بينهم وبين المنافقين، وقد استغرق الحديث عنهم معظم السورة، بدءاً من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنِيتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٢ - ١١٠] ولهذا سماها بعض الصحابة الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم.

قال سفيان بن عيينة: هذه السورة نزلت في المنافقين.

وقال سعيد بن جبیر: سألت ابن عباس عن سورة براءة، فقال: تلك

الفاضحة، ما زال ينزل: ومنهم ومنهم، حتى خفنا ألا تدع منهم أحد.

وروي عن حذيفة بن اليمان أنه قال: إنكم تسمونها سورة التوبة، وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحداً من المنافقين إلا نالت منه، وهذا هو السر في عدم وجود البسملة فيها.

قال ابن عباس: سألت علي بن أبي طالب لم لم يكتب في براءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال: لأن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أمان، وبراءة نزلت بالسيف، ليس فيها أمان.

وقال سفيان بن عيينة: إنما لم تكتب في صدر هذه السورة البسملة؛ لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت بالمنافقين وبالسيف، ولا أمان للمنافقين.

وتسمى هذه السورة بأسماء عديدة أوصلها بعض المفسرين إلى أربعة عشر اسماً، منها: براءة، والتوبة، والمقشقة، والمبعثرة، والمشردة، والمخزية، والفاضحة، والمثيرة، والحافرة، والمنكلة، والمدممة، وسورة العذاب.

قيل: لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقر من النفاق، أي تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين، وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها، وتفضحهم، وتنكل بهم، وتشردهم، وتخزيهم، وتدمدم عليهم.

وسورة التوبة اسم على مسمى، فالله - عز وجل - يحب التوابين، ويفرح بها ويدعوا عباده لذلك، وآياتها مليئة بنداءات التوبة لتغرس ذلك في حس المسلم ووجدانه، حتى تلازمه ولا تفارقه: ﴿فَإِنْ تُبْتَغُوا﴾

[التوبة: ٣]، ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ [التوبة: ٥]، ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: ١٥]،

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]، ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ [التوبة: ١٠٤]،

﴿وَأَمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦]، ﴿التَّائِبُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، ﴿لَقَدْ تَابَ

اللَّهُ﴾ [التوبة: ١١٧]، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨].

* قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

قال ابن تيمية: فعلق الأخوة في الدين على التوبة من الشرك وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة والمعلق بالشرط ينعدم عند عدمه، فمن ثم يفعل ذلك فليس بأخ في الدين.

* قال تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٥].

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٧].

في الأولى ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، والثانية: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ووجه ذلك - والله أعلم - أن الآية الأولى، أعقب بها ما تقدمها متصلاً بها من الآي في كفار مكة وفعلهم مع رسول الله ﷺ في التضييق والإخراج، فأمر - تعالى - بقتالهم ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من أسلم منهم بعد ما صدر من اجتهاده في الأذية والصد عن سبيل الله، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي بما في القتال.

وأما الثانية؛ فسببه - والله أعلم - ما جرى يوم حنين من تولي الناس مدبرين حين ابتلوا بإعجابهم بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً، فختمت هذه الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تأنيساً لمن فر من المسلمين في ذلك اليوم، وبشارة لهم بتوبة الله عليهم.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: ثوابهم عند الله عظيم، تعجز العقول عن وصفه، جزاء ما قدموه في الطاعات والعمل الصالح في حياتهم الدنيا.

ولما وصف المؤمنين بثلاث صفات: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالنفس والمال، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة: الرحمة، والرضوان، والجنان. فبدأ بالرحمة؛ لأنها أعم النعم في مقابلة الإيمان، وثنى بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان في مقابلة الجهاد، وثالث بالجنان في مقابلة الهجرة وترك الأوطان، ولا يخفى أن وصف الجنان بأن لهم فيها نعيماً مقيماً جاء في غاية اللطافة؛ لأن الهجرة فيها السفر، الذي هو قطعة من العذاب.

* قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة: ٢٨].

قوله: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهذا علقه الله بالمشيئة، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب.

* قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [الصف: ٨] الآية الأولى في المحارب للإسلام علانية. والثانية: في المحارب للإسلام خفية.

- وإضافة النور إلى اسم الجلالة إشارة إلى أن محاولة إطفائه عبث، وأن أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مرادهم.

* قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْمِي عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكَوِّسُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥].

قال السعدي: ولم يقل: تحمي في نار جهنم؛ ليدل ذلك على أنها مع حرارة نار جهنم تستعمل لها الآلات المحمية، فيضاعف حرها ويشدد عذابها.

والكي في الوجه أشهر وأشنع، وفي الظهر والجنب ألم وأوجع. فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء.

* قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

فمن أصح الإشارات إشارة هذه الآية، هي أن من صحب الرسول ﷺ وما جاء به بقلبه وعمله وإن لم يصحبه ببدنه فإن الله معه .
قال السعدي: وفيها أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة .

✽ قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠] .

قال الشعبي: عاتب الله - عز وجل - أهل الأرض جميعاً - في هذه الآية - إلا أبا بكر الصديق .

- فقلوه - تعالى - في القرآن: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ لا يختص بمصاحبه في الغار، بل هو صاحبه المطلق الذي كمل في الصحبة كمالاً لم يشركه فيه غيره، فصار مختصاً بالأكملية من الصحبة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: كل من وافق الرسول ﷺ في أمر خالف فيه غيره فهو من الذين اتبعوه في ذلك؛ وله نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فإن المعية الإلهية المتضمنة للنصر هي لما جاء به إلى يوم القيامة، وهذا قد دل عليه القرآن، وقد رأينا من ذلك وجربنا ما يطول وصفه .

✽ قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣] .

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] .

افتتاح العتاب بالإعلام بالعفو إكرام عظيم ولطافة شريفة؛ فأخبره بالعفو قبل مباشرة العتاب كناية عن خفة موجهه .

قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف: بدأ بالعفو قبل ذكر المعفو .

وقال مورك العجلي: هل سمعتم بمعاتبه أحسن من هذه؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبه.

وقدم العفو على العتاب إكراماً للنبي ﷺ، ووقره ورفع محله بافتتاح الكلام بالدعاء له.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

الإعداد للعمل علامة التوفيق وأمارة الصدق في القصد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾.

والطاعة لا بد أن يُمهَّد لها بوظائف شرعية كثيرة حتى تؤتي أكلها وتجتني جناها.

﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].
كره الله خروجهم لنفاقهم وعدم حرصهم على الجهاد.

* قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضْعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ هُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

أي: قابلون مستجبيون، فإذا كان جيل القرآن كان بينهم منافقون، وفيهم سماعون لهم، فما الظن بمن بعدهم، فلا يزال المنافقون في الأرض، ولا يزال في المؤمنين سماعون لهم، لجهلهم بحقيقة أمرهم وعدم معرفتهم بغور كلامهم.

﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونُ هُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

قال ابن تيمية: فأخبر أن في المؤمنين من يستجيب للمنافقين ويقبل منهم، فإذا كان هذا في عهد النبي ﷺ كان استجابة بعض المؤمنين لبعض المنافقين فما بعده أولى.

* قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

قال الوزير ابن هبيرة: إنما لم يقل: ما كتب علينا، لأنه أمر يتعلق بالمؤمن، ولا يصيب المؤمن شيء إلا وهو له، إن كان خيراً فهو له في العاجل، وإن كان شراً فهو ثواب له في الآجل.

* ثم مضت سورة التوبة المعروفة بسورة العذاب والفاضحة، والمخزية، والكاشفة، تفضح المنافقين وتهتك استارهم. قال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

قال السعدي: ففي هذه غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا ينفق إلا وهو منشرح الصدر، ثابت القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبهه بالمنافقين.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾.

أي: إنا إلى طاعة الله وإفضاله وإحسانه لراغبون، فيغنيانا عن الصدقة وعن صدقات الناس.

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله، وهو قوله ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده، في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامثال أوامره، وترك زواجه، وتصديق أخباره، والاقتضاء بآثاره، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره لكان خيراً لهم، وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

في سورة الأنفال تولى الله - سبحانه - قسمة الغنائم، وجعل خمسها خمسة أخماس، وفي براءة تولى قسمة الصدقات، وجعلها لثمانية أصناف، وهذا من التناسب بين السورتين.

* قال تعالى: ﴿تَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَخِرُوا إِنْ أَلَّاهُ مَخْرَجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].
فما زال الله يقول: ومنهم ومنهم، ويذكر أوصافهم، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفئتين:

إحداهما: أن الله ستير، يحسب السر على عباده.

والثانية: أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين، الذين توجه إليهم الخطاب، وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب حتى خافوا غاية الخوف.

* لما ذكر - تعالى - المنافقين وهتك استارهم، ذكر المؤمنين وحالهم ومآلهم، فقال:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

بدأ في هذه الآية بذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل الصلاة والزكاة، وما ذلك إلا لعظم شأنه، وعموم نفعه، وتأثيره في المجتمع.
قال الشيخ ابن باز - رحمه الله -: وتدل الآية أيضاً على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخص أخلاق المؤمنين والمؤمنات وصفاتهم الواجبة التي لا يجوز لهم التخلي عنها والتساهل بها.

وفي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾.

قال ابن تيمية: إن الله يجعل للمؤمنين من الرحمة بما يجدونه من حلاوة الإيمان وانسراح الصدر بما لا يمكن وصفه.

* ثم ذكر - تعالى - جزاءهم ، فقال :

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

جاء بالرضوان مبتدأ منكرأ مخبراً بأنه أكبر من كل ما وعدوا به ، فأيسر - شيء من رضوانه أكبر من الجنات ، وما فيها من المساكن الطيبة وما حوته ، ولهذا لما يتجلى لأوليائه في جنات عدن ويمنيهم أي شيء يريدون؟ فيقولون: ربنا أي شيء نريد أفضل مما أعطيتنا؟ فيقول - تبارك وتعالى : «إن لكم عندي أفضل من ذلك، أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» .

* قال تعالى : ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

قال السعدي : إذا أحسن العبد فيما يقدر عليه ، سقط عنه ما لا يقدر عليه .

* قال تعالى : ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾

[التوبة: ٩٢].

في الآية ذكر الحزن على فوات الطاعة .

قال العز بن عبد السلام : الحزن على فوات الطاعة من ثمرة حبها ، والاهتمام بها ؛ لأن المرء لا يحزن إلا على ما عز عليه . فكيف لو وقعت منهم هنة أو جرت منهم هفوة !

* قال تعالى : ﴿تَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا

يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

ولم يقل : (فإن الله لا يرضى عنهم) ، ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح ، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم ، فإن الله يتوب عليهم ويرضى عنهم . وأما ما داموا فاسقين ، فإن الله لا يرضى عنهم ، لوجود المانع من رضاه .

* وفي آيات تالية؛ أثنى الله - عز وجل - على المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان، فقال:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال ابن تيمية: فرضي عن السابقين من غير اشتراط إحسان، ولم يرض عن التابعين إلا أن يتبعوهم بإحسان -، والرضى من الله صفة قديمة، فلا يرضى إلا عن عبد علم أنه يوافقه على موجبات الرضى، ومن رضى الله عنه لم يسخط عليه أبدا.

وهذه الآية تفتح لكل مسلم باب الترغيب في العمل الصالح لأن الله - جل وعلا - ذكر فيها ثلاث أصناف: المهاجرين، والأنصار، والذي اتبعوهم بإحسان وهذا يدخل فيه كل مؤمن إلى يوم القيامة.

* قال تعالى: ﴿وَأَخْرُونا أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَأَخْرَسَيْنَا عَصَى اللَّهِ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٤].

هذه الآية دلت على أن المخلط المعترف النادم، الذي لم يتب توبة نصوحاً، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب.

وأما المخلط الذي لم يعترف ويندم على ما مضى منه، بل لا يزال مصراً على الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف.

قال السعدي - رحمه الله -: إن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنوب، ولا يحرص إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

* قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

يؤخذ من المعنى، أن ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه. وأنه ينبغي

تنشيط من أنفق نفقة، وعمل عملاً صالحاً بالدعاء والثناء ونحو ذلك.
 * قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

في الآية النهي عن كل عمل يراد به تفريق المؤمنين ولو كان في مسجد، فلا يوجد مصلحة في الدين أعظم من اجتماع كلمة الناس.
 * قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

الأعمال والدرجات بنیان، وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقاً حمل البنيان واعتلى عليه، وإذا تهدم شيئاً من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان، أو كاد.

* لما ذكر - تعالى - أحوال المنافقين، المتخلفين عن الجهاد، المشبطين عنه، وفرّع على كل قسم منها ما هو لائق به، عاد على بيان فضيلة الجهاد، والترغيب فيه، وذكر صفات المؤمنين المجاهدين، الذين باعوا أنفسهم لله، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثٍ لَهُمْ الْجَنَّةُ﴾
 أي: إن الله - جل وعلا - اشترى بنفسه الكريمة؛ أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة، وهو تمثيل في ذروة البلاغة والبيان لأجر المجاهدين.
 وقد مثّل - تعالى - جزاءهم بالجنة على بذلهم الأموال والأنفس في سبيله بصورة عقد فيه بيع وشراء.

قال الحسن: بايعهم فأغلى لهم الثمن، وانظروا إلى كرم الله، أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها، ثم وهبها لهم، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي فإنها لصفقة رابحة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه.

وقال بعضهم: ناهيك عن بيع؛ البائع فيه المؤمن، والمشتري فيه رب العزة، والثمن فيه الجنة، والصك فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد - عليه الصلاة والسلام -.

- لما بايع الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة - وكانوا سبعين رجلاً - قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: «اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك، فما لنا؟ قال: «الجنة»، قالوا: ربح البيع لا نكيل، ولا نستقيل، فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ...﴾ الآية.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد: وتقديم الأموال على النفس في الجهاد وقع في جميع القرآن الكريم إلا في موضع واحد، وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي الْثَّوَرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] لأنها هي المشتراة في الحقيقة، وهي مورد العقد، وهي السلعة التي استلمها ربها وطلب شراءها لنفسه، وجعل ثمن هذا العقد رضاه وجنته، فكانت هي المقصود بعقد الشراء والأموال تبع لها، فإذا ملكها مشتريها ملك ما لها، فإن العبد وما يملكه لسيده ليس فيه شيء، فالمالك الحق إذا ملك النفس ملك أموالها ومتعلقاتها، فحسن تقديم النفس على المال في هذه الآية حسناً لا مزيد عليه.

* قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١].

وسماها ساعة؛ تهوينا لأوقات الكروب وتشجيعاً على مواجهة المكاره، فإن أمدّها يسير وأجرها عظيم.

قال القرطبي: اجتمع عليهم عشرة الظهر، وعشرة الزاد، وعشرة الماء.
 * قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

قال البغوي: فإن قيل: كيف أعاد ذكر التوبة، وقد قال في أول الآية: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قيل: ذكر التوبة في أول الآية، قيل: ذكر الذنب وهو محض الفضل من الله - عز وجل - فلما ذكر الذنب أعاد ذكر التوبة، والمراد منه قبولها.

* ثم ذكر - تعالى - قصة الثلاثة الذين خلفوا، فقال: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

قال كعب بن مالك - رضي الله عنه -: وليس الذي ذكر مما خلفنا تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه.

وعلق ابن القيم فقال: فسرهما كعب بالصواب، فليس ذلك تخلفهم عن الغزو؛ لأن الله لو أراد ذلك لقال: وعلى الثلاثة الذين تخلفوا.

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

قال ابن القيم: كل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب، والله - تعالى - يعاقب الكذاب بأن يقعده ويشبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دينه وآخرته، فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق، ولا مفاسدهما ولا مضارهما بمثل الكذب، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٩٠].

قال ابن مسعود عند قوله تعالى: ﴿... وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: الكذب لا يصلح في جد ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم أخاه ثم لا ينجزه.

* قال تعالى: ﴿وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢].

قال السعدي: في هذه الآية إرشاد لطيف لفائدة مهمة، وهي أنه ينبغي للمسلمين أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، ولتكون وجهة جميعهم ونهاية ما يقصدون قصداً واحداً، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور، فإن التخصص مدعاة لإجادة العمل واكتساب الخبرة والنفع العام.

* قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وهذه الآية تفيد التنويه بهذه الكلمة المباركة؛ لأنه أمر بأن يقول هذه الكلمة بعينها، ولم يؤمر بمجرد التوكل.

سورة يونس ١٠

سورة يونس من السور المكية، التي تعنى بأصول العقيدة الإسلامية من الإيمان بالله - تعالى -، والإيمان بالكتب، والرسول، والبعث والجزاء، وهي تتميز بطابع التوجيه إلى الإيمان بالرسالات السماوية، وبوجه أخص إلى القرآن العظيم خاتمة الكتب المنزلة، والمعجزة الخالدة على مدى العصور والدهور.

وقد تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الرسالة والرسول، وبينت أن هذه سنة الله في الأولين والآخرين، فما من أمة إلا بعث فيها رسولا، فلا داعي للمشركين للعجب من بعثة خاتم المرسلين.

وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين من الرسالة والقرآن، وذكرت أن هذا القرآن هو المعجزة الدالة على صدق النبي الأمي، وأنه يحمل برهانه في تفرد المعجز، حيث تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع أنهم أساطين الفصاحة، وأمراء البيان: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

- سميت السورة «سورة يونس» لذكر قصته - عليه السلام - فيها، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا بعد أن كاد يحل بهم البلاء والعذاب، وهذا من الخصائص التي خصَّ الله بها قوم يونس لصدق توبتهم وإيمانهم. وقد انفردت هذه السورة بتفصيل حادث الطوفان وغيضه.

- وفي القرآن ست سور سميت بأسماء الأنبياء، وهي: (محمد) و(نوح) و(إبراهيم) و(هود) و(يوسف) و(يونس).

* قال - تعالى - عن حال الكفار: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

وخص الشراب من الحميم من بين أنواع العذاب الأليم؛ لأنه أكره أنواع العذاب في مألوف النفس.

* ثم قال - تعالى - عن أهل الجنة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ٩].

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ٩].

قال السعدي: أضافها الله إلى النعيم؛ لاشتغالها على النعيم التام؛ نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والخبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه والاعتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم وسماع الأصوات المطربات، والنعمات المشجيات والمناظر المفرحات، ونعيم البدن بأنواع المأكول والمشارب والمناكح ونحو ذلك مما لا تعلمه النفوس ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

* قال تعالى: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠].

قال الطبري: إذا مر بهم طير فيشتهونه، قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، وذلك دعواهم، فيأتيهم الملك بما اشتهوا، فيسلم عليهم، فيردون عليهم، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ ﴿١٣﴾﴾ [يونس: ١٣].

قال الألوسي: وفي الآية ذم لمن يترك الدعاء في الرخاء ويهرع إليه في الشدة، واللائق بحال الكامل؛ التضرع إلى مولاه في السراء والضراء، فإن ذلك أرجى للإجابة، ففي الحديث: «تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

* قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرْنَ بِيَمٍ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢].

قال في بدائع الفوائد: ذكر ريح الرحمة الطيبة بلفظ الإفراد، لأن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد سيرها، فإذا اختلفت عليها الرياح وتصادمت وتقابلت فهو سبب الهلاك، فالمطلوب هنا هو ريح واحدة لا رياح، وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب دفعا لتوهم أن تكون ريحا عاصفة.

* قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَجْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيَّاتُ النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: ٢٣].

أعجل الناس عقوبة الباغي الظالم، فليسرعة العقوبة بالباغي على بغيه، فكأنما بغي على نفسه.

* قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤].

مناسبتها لما قبلها: لما دعا إلى دار السلام كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

* قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: وإن يصيبك الله بضر وشدة فلا دافع له إلا هو وحده، فإنه - تعالى - هو الضار النافع، المعطي المانع وهذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة.

﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ﴾ .

وإن يردك بنعمة أو رخاء فلا يمنعك منك مانع ، وعبر بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى أنه يتفضل على عباده بما لا يستحقونه بأعمالهم . يصيب بهذا الفضل والإحسان من شاء من العباد ، وقطع بهذه الآية على عباده طريق الرغبة والرغبة إلا إليه ، والاعتماد إلا عليه .

* قال تعالى : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس : ٤٧] .

قال ابن كثير : أول من يقضى له يوم القيامة أمة محمد - عليه الصلاة والسلام - ، ونالت ذلك لشرف رسولها - عليه الصلاة والسلام - ، بالرغم من أنها آخر الأمم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

* استعمل لفظ «الأمة» في القرآن أربع استعمالات :

الأول : الجماعة من الناس ، وهو الاستعمال الغالب ، كقوله : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ [يونس : ٤٧] .

الثاني : في البرهة من الزمن : ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف : ٤٥] .

الثالث : في الرجل المقتدى به ، كقوله : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل : ١٢٠] .

الرابع : في الشريعة والطريقة ، كقوله : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف : ٢٢] .

* قال تعالى : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس : ٤٩] .

قدم في سورة يونس الضر على النفع ، وعكس ذلك في سورة الأعراف : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

والسر في ذلك - والله أعلم - أن ما في سورة الأعراف من تقديم النفع على الضر جاء في سياق الكلام عن قيام الساعة ، وهذا الموقف يرجو فيه

كل إنسان النفع، ويخشى الضر، ويتمنى فيه تعجيل الثواب والسلامة من العقاب، لذلك قدم النفع.

أما في سورة يونس فإنه جاء في سياق الرد على استعجال الكفار عذاب الله - تعالى - وما يتوعدهم به الرسول ﷺ من الضر، فتقديم الضر على النفع لأنه هو المطلوب لمجازاة الكفار، وهو ما يحقق رغبتهم المبنية على الاستهزاء والسخرية.

﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ .

أي: من الشك والنفاق، والخلاف، والشقاق.

﴿وَهُدًى﴾ أي: ورشداً لمن اتبعه.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: نعمة.

﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خصهم لأنهم المنتفعون بالإيمان.

قال ابن عاشور: وقد عبر عنه بأربع صفات هي: أصول كماله وخصائصه، وهي: أنه موعظة، وأنه شفاء لما في الصدور، وأنه هدى، وأنه رحمة للمؤمنين.

قال الحسن: من لم يردعه القرآن والموت ثم تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع.

* قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلِيفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا

تَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قال ابن عباس: فضل الله: الإسلام. ورحمته: القرآن.

فالفرح بالله ورسوله، وبالإيمان والسنة، وبالعلم والقرآن من أعلى المقامات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ

هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]

وقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمه عند صاحبه ومحبته له،

وإثاره على غيره، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله على قدر محبته له ورغبته فيه، فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله، ولا يحزنه فواته، فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

✽ قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

مناسبتها لما قبلها: بين - تعالى - أن من فضله على الناس تبين الحرام من الحلال على السنة الرسل، لئلا يفترون عليه الكذب بتحريم ما أحل أو عكسه، كما فعل المشركون.

✽ قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣].

قال ابن تيمية: وإذا كان أولياء الله هم المؤمنون المتقون، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله - تعالى -، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى، كان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون في ولاية الله - عز وجل - بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله، بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

أي: لهؤلاء الأولياء ما يسرهم في الدارين.

أما البشارة في الدنيا، فهي الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عنه مساوئ الإخلاق، وحيث تبشرهم الملائكة عند الاحتضار برضوان الله ورحمته.

وفي القبر ما يبشر به من رضا الله - تعالى - والنعيم المقيم.

وفي الآخرة تمام البشريات بجنات النعيم والفوز العظيم، والنجاة من العذاب الأليم.

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ ﴾ ﴾ [يونس: ٦٩].

لفظ ﴿ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ ﴾ وردت في القرآن مرتين، في هذه السورة وفي سورة النحل، وكلا الموضعين في الذين يفترون على الله الكذب.

﴿ لما ذكر - تعالى - الدلائل على وحدانيته، ودفع الشبه، وذكر ما جرى بين رسول ﷺ وكفار مكة، ذكر هنا بعض قصص الأنبياء، تسلياً للرسول ﷺ ليتأسى بهم، فيهنون عليه ما يلقاه من الشدائد والمكاره.

وقد ذكر - تعالى - هنا ثلاث قصص: قصة نوح - عليه السلام - مع قومه، وقصة موسى وهارون - عليهما السلام - مع الطاغية فرعون، وقصة يونس - عليه السلام - مع قومه، وفي كل قصة عبرة لمن اعتبر، وذكرى لمن تدبر.

قال - تعالى - عن موسى - عليه السلام -:

﴿ فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ﴾ [يونس: ٨٣].

والحكمة - والله أعلم - يكون ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، أن الذرية والشباب أقبل للحق، وأسرع له انقياداً، بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممن تربى على الكفر فإنهم - بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة - أبعد من الحق من غيرهم.

وفي قوله: ﴿ فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ ﴾.

أي: متبعاً لموسى بسبب ما فعل، ليعلم أن الآيات ليست سبباً للهداية إلا لمن أراد ذلك منه.

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴾ ﴾ [يونس: ١٠٥].

إقامة الوجه للدين كناية عن توجيهه بالكلية إلى عبادته - تعالى - ،
والإعراض عما سواه ، فإن من أراد أن ينظر إلى شيءٍ نظر استقصاء ، يقيم
وجهه في مقابلته ، بحيث لا يلتفت يمينا ولا شمالا ، إذ لو التفت بطلت
المقابلة ، فلذا كنى به عن صرف العمل بالكلية إلى الدين ، فالمراد بالوجه
الذات ، أي : اصرف ذاتك وكليتك للدين ، فاللام للصلة .

سورة هود ١١

سورة هود سورة مكية تقرر قواعد وأصول التوحيد، والرسالة، والبعث والجزاء، وقد عرضت لقصص الأنبياء بالتفصيل تسلياً للنبي - عليه الصلاة والسلام - على ما يلقاه من أذى المشركين لاسيما بعد تلك الفترة العصيبة التي مرت عليه بعد وفاة عمه أبي طالب، وزوجه خديجة - رضي الله عنها -، فكانت الآيات تنزل عليه وهي تقص عليه ما حدث لإخوانه الرسل من أنواع الابتلاء، ليتأسى بهم في الصبر والثبات.

في الحديث أن أبا بكر - رضي الله عنه - قال: يا رسول الله قد شبت، قال: «شيبني هود، وأخواتها» [رواه الطبراني].

وعن ابن عباس قال: قال أبو بكر - رضي الله عنه -: يا رسول الله قد شبت! قال ﷺ: «شيبني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتسائلون، وإذا الشمس كورت» [رواه الترمذي].

والجامع بين هذه السورة والحديث: هو كونها تتحدث عن اليوم الآخر وأهواله، والله - عز وجل - ذكر ذلك صراحة في كتابه العظيم: ﴿يَوْمًا تَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [الزمل: ١٧] ولا يعني هذا أن النبي ﷺ كان كثير الشيب، وإنما مرد ذلك إلى العرف، فقد مات ولا يحصى من الشيب فيه أكثر من عشرين شعرة.

✽ ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد القرآن العظيم، الذي أحكمت آياته، فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض؛ لأنه تنزيل الحكيم العليم، الذي لا تخفى عليه خافية من مصالح العباد.

قال تعالى: ﴿الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(١)
 أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ^(٢) .

قال ابن كثير: ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونا ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ، ومن جهة المعنى.

قال تعالى: ﴿الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾

[هود: ١].

فأحكمت ألفاظه، وفصلت معانيه، أو بالعكس - على الخلاف -، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضيه كانت ووقعت طبق ما أخبر، سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر.

* ذكر ابن القيم - رحمه الله - أربع آيات، ذكر الله - تعالى - فيها أنه يجزي المحسن بإحسانه جزاءين: جزاء في الدنيا، وجزاء في الآخرة. وهي:

الأولى: في سورة هود: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۚ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٢٠﴾.

والثانية: في سورة النحل: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبَوِّنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٢١﴾.

والثالثة: في سورة النحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثْنَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٢﴾.

والرابعة: في سورة الزمر: ﴿قُلْ يٰٓعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۚ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾.

* قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١٠١﴾ [هود: ٦].

أي: ما من شيء يدب على وجه الأرض من إنسان أو حيوان إلا تكفل الله برزقه وقوته تفضلاً منه - تعالى - وكرماً، فكما كان هو الخالق كان هو الرازق حتى إن ما يتناوله العبد من الحرام؛ هو داخل في هذا الرزق!

فالكفار قد يرزقون بأسباب محرمة ويرزقون رزقاً حسناً، وأهل التقوى يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون، ولا يكون رزقهم بأسباب محرمة ولا يكون خبيثاً، والتقي لا يُحرم ما يحتاج إليه من الرزق، وإنما يُحمى من فضول الدنيا رحمة به؛ فإن توسيع الرزق قد يكون مضرّة على صاحبه، وتقديره يكون رحمة لصاحبه.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ .

فضلاً لا وجوباً، قيل لأبي أسيد: من أين تأكل؟ فقال: سبحانه الله والله أكبر! إن الله يرزق الكلب أفلاً يرزق أبا أسيد؟
- قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: لا بد لكل مخلوق من الرزق.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ .

أي: يعلم مستقر هذه الدواب، وهو: المكان الذي تقيم فيه وتستقر فيه، وتأوي إليه.

ومستودعها: المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها، وعوارض أحوالها.

قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : المستقر أرحام الأمهات، والمستودع المكان الذي تموت فيه.

﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ .

أي: كل من الأرزاق، والأقدار، والأعمار، مسطر في اللوح المحفوظ، المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السموات والأرض، الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه ونفذت فيها مشيئته ووسعها رزقه، فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علماً بذواتها وصفاتها.

* قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ .

أي: خلقهن لحكمة بالغة، ليختبركم فيظهر المحسن من المسيء، ويجازيكم حسب أعمالكم.

قال الفضيل بن عياض - رحمه الله - في قوله: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه، قيل يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً.

والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعاً فيه الشرع والسنة. * ثم يخبر - تعالى - عن طبيعة الإنسان، وهو خالقه، وعالم بأحواله وطرائقه، قال تعالى:

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ۝١٠﴾.

أي: إذا أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من الصحة والأمن، والرزق والأولاد، وغيرها من النعم. ثم سلبنا تلك النعم منه فإنه يستسلم لليأس، وينقاد للقنوط من رحمة الله، عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله نساءً له؛ شديد الكفر به، فلا يرجو ثواب الله ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها، أو خيراً منها عليه.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعَمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ ۝١١﴾.

ولئن منحنا الإنسان نعمة من بعد مانزل به من الضر، وما أصابه من البلاء والفقر والمرض والشدة، وفي التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه، لأن الإذاقة والذوق: أقل ما يوجد به الطعم.

﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٢﴾.

أي: انقطع الفقر والضيق والمصائب وزالت الشدائد عني، ولن تصيبني بعد اليوم. وبطر بالنعمة وفرح بها واغتر بها، فمتعاضم على الناس بما أوتي متناول عليهم بما أعطي.

والفرح : لذة في القلب بنيل المشتهى .

والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب ، وذلك منهى عنه .
- والآية ذم لمن يقنط عند الشدائد ، ويبطر عند النعم ، وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو ، إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده ، وهم الذين استثناهم الله بقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .

* قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ١٣ ١٤ فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ١٥ ١٦ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ ١٧ ١٨ [هود : ١٣ - ١٥] .

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى : ولما كان الذي يمنع الإنسان من اتباع الرسول ﷺ شيئان : إما الجهل ، وإما فساد القصد ، ذكر ما يزيل الجهل وهو الآيات الدالة على صدقه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ ، ثم ذكر أهل فساد القصد بقوله : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ .

* ذكر المفسرون في قوله تعالى : ﴿ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ [هود : ١٢] .

أنه جاء اسم الفاعل ضائق دون ضيق ، لأن ضيق صدر الرسول - عليه الصلاة والسلام - عارض غير ثابت .

* قال تعالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَلَكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَأَيْنَا بُادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ ٢٧ ٢٨ [هود : ٢٧] .
﴿ أَرَادِلُنَا ﴾ .

جمع أرذل ، وهم سفلة الناس وإنما وصفوهم بذلك لفقرهم جهلاً ، منهم واعتقاداً أن الشرف هو بالمال والجاه ، وليس الأمر كما اعتقدوا ، بل المؤمنون كانوا أشرف منهم على حال فقرهم وخمولهم في الدنيا .

﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي: أول الرأي من غير نظر، ولا تدبير. والمعنى: اتبعك الأراذل من غير نظر ولا تثبت.

* قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَى مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

قال البغوي: جعل قومه يمدحون به وهو في عمله، ويسخرون منه، ويقولون: يا نوح، لقد صرت نجاراً بعد النبوة؟

* قال - تعالى - عن نوح - عليه السلام - وهو ينادي ابنه: ﴿يَبْنِي أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ [هود: ٤٢ - ٤٣].

إن سلوك طريق المؤمنين، ومجالستهم، والانحياز إليهم هو سبيل النجاة الحقة؛ لأنهم في كنف الله وعنايته، حتى وإن تقاذفتهم الفتن، وكانت أسبابهم يسيرة، كسفينة من خشب في أمواج كالجبال، كما أن سلوك طريق الكافرين والمنافقين والانحياز إليهم هو سبيل الهلاك، حتى وإن توفرت لهم الأسباب المادية المنيعة كالجبال في علوها وصلابتها.

* قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَنْأَرْضْ أَتَلْعَى مَاءً كَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعَى وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

قال مجاهد ﴿الْجُودِي﴾ جبل بالجزيرة تشامت الجبال يوم الغرق، وتواضع هو لله فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح.

وعلق القرطبي على خاتمة قصة نوح مع قومه - بقوله سبحانه: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

فقال - رحمه الله - : لما تواضع الجودي وخضع عز، ولما ارتفع غيره واستعلى ذل، وهذا سنة الله في خلقه؛ يرفع من تخشع، ويضع من ترفع. قال القاضي عياض: حكى أن ابن المقفع أراد أن يعارض القرآن! فحاول ذلك وطلبه، وبدأ فيه؛ فمر بصبي يقرأ: ﴿وَقِيلَ يَنْأَرْضْ أَتَلْعَى

﴿مَاءَكِ﴾ اهود: ١٤٤ الآية، فرجع فمحا ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يعارض، وما هو من كلام البشر، وكان من أفصح أهل وقته.

﴿قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾﴾ اهود: ١٤٥.

إعلام بأن نوحاً حملته شفقة الأبوة على طلب نجاته، وقد راعى مع ذلك أدب الحضرة، وحسن السؤال فقال: ﴿وإنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ ولم يقل: لا تخلف وعذك بإنجاء أهلي، وإنما قال ذلك لفهمه من الأهل ذوي القرابة الصورية - الرحم والنسبية - وغفل لفرط التأسف على ابنه عن استثنائه - تعالى - بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ اهود: ١٤٠.

﴿قال تعالى: ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾﴾ اهود: ٤٧.

طلب المغفرة ابتداء، ثم أعقبها بطلب الرحمة؛ لأنه إذا كان بمحل الرضى من الله؛ كان أهلاً للرحمة.

فبالمغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين.

﴿قال تعالى: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا جُرْمِي﴾﴾ اهود: ٥٢.

وقال - تعالى - في آية الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

ففي آية الأنفال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ بحذف إحدى التاءين، وقال في آية هود: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ من دون حذف، ذلك أن آية الأنفال خطاب للمؤمنين، وأن آية هود خطاب للكافرين، وهم قوم هود، ومن المعلوم أن تولي المؤمنين أقل من تولي الكافرين، فلما كان تولي المؤمنين أقل حذف من الحدث للدلالة على قلة توليهم، بخلاف تولي الكافرين، فإنه عام شامل، فزاد في الفعل للدلالة على زيادة توليهم، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى: فإنه نهى المؤمنين عن التولي مهما كان قليلاً.

* قال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦].

تخصيص الناصية بالأخذ دون سائر الجسد في قول هود لقومه . قال ابن جرير في ذلك: لأن العرب كانت تستعمل ذلك فيمن وصفته بالذلة والخضوع؛ فتقول: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، أي: هو له مطيع يصرفه كيف شاء، وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمن عليه، جزوا ناصيته؛ ليعتدوا بذلك عليه فخراً عند المفاخرة.

* وحينما أمر صالح - عليه السلام - قومه بعبادة الله - تعالى - وحده لا شريك له، فكان الجواب منهم: ﴿قَالُوا يَنْصَلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

قال السعدي - رحمه الله - : هذا الجواب شهادة من ثمود لنبيهم صالح وأنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه . ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر، الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك قد كنت كاملاً، والآن أخلفت الظن فيك، وصرت في حاله لا يرجى منك خير.

* قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحُونَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمٍ ذِئْبٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].
ومن أسماء الله الحسنى التي وردت في سورة هود: القوي، وقد ورد في القرآن تسع مرات، جاء في أكثرها مقروناً بالعزيز، وورد مرتين مقترناً بشديد العقاب.

* قال تعالى: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

قال في أضواء البيان: ذكر - تعالى - في هذه الآية الكريمة أمر نبيه لوطاً أن يسري بأهله بقطع من الليل، ولم يبين هنا هل هو من آخر الليل، أو وسطه، أو أوله، ولكن بين في (القمر) أن ذلك من آخر الليل وقت السحر، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]، ولم يبين هنا أنه أمر أن يكون من ورائهم وهم أمامه، ولكن بين ذلك في (الحجر) بقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥].

* قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ﴾ [هود: ٨١].

قال الألوسي: والحكمة من نهيمهم عن الالتفات ليجدوا في السير، فإن الملتفت للوراء لا يخلو من أدنى وقفة، أو لأجل أن لا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فترق قلوبهم لهم.

* قال تعالى: ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

أي: ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم، وتستقيم منافعكم، وليس لي من المقاصد الخاصة لي وحدي شيء بحسب استطاعتي، ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس، دفع هذا بقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

* قال شعيب لقومه: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

فلهذه الأجوبة الثلاثة - على هذا النسق - شأن: وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتيه ويذره، أحد حقوق ثلاثة: أهمها وأعلاها حق الله - تعالى -، وثانيها: حق النفس، وثالثها: حق الناس.

* قال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾

﴿٩٠﴾ [هود: ٩٠].

التائب من الذنب كما يُسمح له عن ذنبه، ويعفى عنه، فإن الله - تعالى - يحبه ويوده، ولا عبرة بقول من يقول: إن التائب إذا تاب فحسبه أن يغفر له ويعود عليه العفو، وأما عود الود والحب فإنه لا يعود. فإن الله - تعالى - قال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ﴿٩٠﴾.

* قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبَاءٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثَمِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ [هود: ٩٤].

قال ابن كثير: ذكر ههنا أنه أتهم صيحة، وفي الأعراف: رجفة، وفي الشعراء: عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم - يوم عذابهم - هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ ﴿١٠٣﴾ [هود: ١٠٣].

قال ابن القيم: أخبر الله - تعالى - أن عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة، وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه، فإنه إذا سمع ذلك قال: لم يزل في الدهر الخير والشر، والنعيم والبؤس، والسعادة والشقاوة، وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ

دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ﴿١١٣﴾ [هود: ١١٣].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ولا تميلوا.

والركون هو المحبة، والميل بالقلب.

وقال أبو عالية: لا ترضوا بأعمالهم.

وقال السدي: لا تداهنوا الظلمة.

وإذا كان الوعيد في الركون إلى الظلمة فكيف حال الظلمة بأنفسهم؟
نسأل الله العافية من الظلم.

﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

قال القرطبي: دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية، إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة.

* ثم ذكر - تعالى - جزاء الأشقياء في الآخرة، فقال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

أي: فأما الأشقياء الذين سبقت بهم الشقاوة فإنهم مستقرون في نار جهنم، لهم من شدة كربهم.

﴿زَفِيرٌ﴾ وهو إخراج النفس بشدة.

﴿وَشَهِيقٌ﴾ وهو رد النفس بشدة.

وقد شبه صراخهم في جهنم بأصوات الحمير.

قال قتادة: صوت الكافر في النار صوت الحمار، أوله زفير وآخره شهيق.

قال ابن عاشور: وخص بالذكر من أحوالهم في جهنم الزفير والشهيق تنفيراً من أسباب المصير إلى النار؛ لما في ذكر هاتين الحالتين من التنويه بهم، وذلك أخوف لهم من الألم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

أي: لابتين ماكنين في جهنم أبداً دائم دوام السموات والأرض.
والمعنى: خالدين فيها أبداً.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾.

الاستثناء في أهل التوحيد؛ لأن لفظه ﴿شَقُّوا﴾ تعم الكفار والمذنبين، فاستثنى الله من خلود أهل الشقاوة العصاة من المؤمنين، فإنهم يطهرون في نار جهنم ثم يخرجون منها بشفاعه سيد المرسلين ﷺ ويدخلهم الله الجنة،

ويقال لهم: ﴿طَبَّتُمْ فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَاعِلٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

أي: يفعل ما يريد، يرحم ويعذب كما يشاء ويختار، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

* قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ

وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٨].

لم يرد لفظ السعادة في القرآن إلا في هذه الآية، فإن السعادة الأبدية في جنات النعيم.

* قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ

﴾ [هود: ١١٧].

ولم يقل: صالحون؛ لأن الصلاح الشخصي المنزوي بعيداً لا يأسى لضعف الإيمان، ولا يبالي بهزيمة الخير، والأصل أن يكون صالحاً مصلحاً وراشداً مرشداً.

* قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ

وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

والسورة بدأت بالدعوة إلى التوحيد ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ٢].

وانتهت به ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

سورة يوسف ١٢

سورة يوسف إحدى السور المكية التي تناولت قصص الأنبياء، وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله يوسف بن يعقوب - عليهما السلام - وما لاقاه من أنواع البلاء، ومن ضروب المحن والشدائد، من إخوته ومن الآخرين، في بيت عزيز مصر، وفي السجن، وفي تآمر النسوة، حتى نجاه الله من ذلك الضيق.

والمقصود بها تسلية النبي ﷺ بما مر عليه من الكرب والشدة، وما لاقاه من أذى القريب والبعيد. وفيها آيات وعبر متنوعة لكل من يسأل ويريد الهدى والرشاد، لما فيها من التنقلات من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن منة إلى منة، ومن ذلة ورق إلى عز ومُلك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وإدراك غايات، ومن حزن وترح إلى سرور وفرح، ومن رخاء إلى جذب، ومن جذب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه هذه القصة العظيمة فتبارك من قصها ووضحها وبينها.

قصة يوسف: قصة عجيبة جرت فيها أحداث طوال وأمور ذات بال، وقعت لنبي ابن نبي، ابن نبي ابن نبي، سلالة أنبياء.

قصة تبدأ مع طفولته وتنتهي بنهاية أجله، فقد عاش معاناة الطفولة بفقد الأبوين، وفراق الأهل والأصحاب وتبعتها مرحلة الحياة المرفهة في القصر، ثم دخول السجن سنين عدداً، ثم أخرجه الله ليتبوأ مكان الوزارة، وتمت له النعمة برؤية أبويه بعد طول فراق. وقد ذكر الله - عز وجل - اسم يوسف - عليه السلام - في القرآن ستاً وعشرين مرة، منها أربعاً وعشرين في سورة يوسف.

منها ما ذكره الله - عز وجل - في سورة غافر أن يوسف - عليه السلام - نبي مرسل قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ

فَمَا زِلْتُمْ فِي شَلَالٍ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ
رَسُولًا ﴿١٣٤﴾ [غافر: ١٣٤].

والسورة الكريمة أسلوب فذ فريد، في ألفاظها، وتعبيرها، وأدائها، وفي قصصها الممتع اللطيف، تسري مع النفس سريان الدم في العروق، وتجري - برقتها وسلاستها - في القلب جريان الروح في الجسد، فهي وإن كانت من السور المكينة، التي تحمل - في الغالب - طابع الإنذار والتهديد، إلا أنه اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طرية ندية، وفي أسلوب ممتع لطيف، سلس رقيق، يحمل جو الأُنس والرحمة، والرأفة والحنان، ولهذا قال خالد بن معدان: سورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة، وقال عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها.

قال ابن الجوزي: لما سجن في واسط مكثت سنة اختتم في كل يوم ختمة، ما قرأت فيها سورة يوسف حزناً على ولدي يوسف.

وفي السورة تجلت مراتب الصبر التي نالها يوسف - عليه السلام -.

فصبر الصبر الاضطراري: وهو صبره على أذية إخوته، وما ترتب عليها من بعده عن أبويه، وصبره في السجن بضع سنين.

ومن الصبر الاختياري: صبره عن مراودته امرأة العزيز مع وجود الدواعي القوية من جمالها، وعلو منصبها، وكونها هي التي راودته عن نفسه، وغلقت الأبواب، وهو في ريعان الشباب، وهو في بلد غريب لا يُعرف فيها.

وكما أنه - عليه السلام - كمل مراتب الصبر، فقد كمل مراتب العدل والإحسان للرعية حين تولى خزائن البلاد المصرية، وكمل مراتب العفو والكرم حين عفى عن إخوته.

نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد سورة هود، في تلك المدة الحرجة العصيبة من حياة الرسول الأعظم ﷺ، حيث توالى الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين، وبالأخص بعد أن فقد - عليه الصلاة

والسلام - نصيرته : زوجه الحنون العاقلة الراشدة أم المؤمنين خديجة ، وعمه أبا طالب الذي كان له خير نصير ، وخير معين ، وبوفاتهما اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين ، حتى عرف ذلك العام ب عام الحزن .

في تلك الحقبة العصيبة من حياة الرسول الكريم ، وفي ذلك الوقت الذي كان يعاني فيه الرسول والمؤمنون الوحشة والغربة ، كان - سبحانه - ينزل على نبيه الكريم هذه السورة تسلية له ، وتخفيفاً لآلامه ، بذكر قصص المرسلين ، وكأن الله - تعالى - يقول لنبيه ﷺ : لا تحزن يا محمد ولا تتفجع لتكذيب قومك ، وإيذائهم لك ، فإن بعد الشدة فرجاً ، وإن بعد الضيق مخرجاً ، انظر إلى أخيك يوسف وتمعن ما حدث له من صنوف البلايا والمحن ، وألوان الشدائد والنكبات ، وما ناله من ضروب المحن : محنة حسد إخوته وكيدهم له ، ومحنة رميه في الحب ، ومحنة تعلق امرأة العزيز به وعشقها له ، ثم مراودته عن نفسه بشتى طرق الفتنة والإغراء ، ثم محنة السجن بعد ذلك العز ورغد العيش ؛ انظر إليه كيف أنه لما صبر على الأذى في سبيل العقيدة ، وصبر على الضر والبلاء ، نقله الله من السجن إلى القصر ، وجعله عزيزاً في أرض مصر ، وملكه الله خزائنها ، فكان السيد المطاع ، والعزيز المكرم ؛ وهكذا أفعل بأوليائي ، ومن صبر على بلائي ، فلا بد أن توطد النفس على تحمل البلاء ، اقتداءً بمن سبقك من المرسلين .

هكذا جاءت قصة يوسف الصديق تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه ، وجاءت تحمل البشر والأنس ، والراحة والطمأنينة لمن سار على درب الأنبياء ، فلا بد من الفرج بعد الضيق ، ومن اليسر بعد العسر ، وفي السورة دروس وعبر ، وعظات بالغات ، حافلات بروائع الأخبار العجيبة ، والأنباء الغريبة .

هذا هو جو السورة، وهذه إحياءاتها ورموزها؛ تبشر بقرب النصر، لمن تمسك بالصبر، وسار على طريق الأنبياء والمرسلين، والدعاة المخلصين، فهي سلوى للقلب، وبلسم للجروح، وقد جرت عادة القرآن الكريم بتكرير القصة في مواطن عديدة، بقصد العظة والاعتبار ولكن بإيجاز دون توسع، لاستكمال جميع حلقات القصة، وللتشويق إلى سماع الأخبار دون سآمة أو ملل، وأما سورة يوسف فقد ذكرت حلقاتها هنا متتابعة بإسهاب وإطناب، ولم تكرر في مكان آخر كسائر قصص الرسل، لتشير إلى إعجاز القرآن في المجلد والمفصل، وفي حالتي الإيجاز والإطناب، فسبحان الملك العلي الوهاب.

قال القرطبي: ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكررها بمعنى واحد، في وجوه مختلفة، وبألفاظ متباينة، على درجات البلاغة والبيان، وذكر قصة يوسف - عليه السلام - ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر، ولا على معارضة غير المكرر، والإعجاز واضح لمن تأمل، وصدق الله ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. وسورة يوسف كاملة ليس فيها ذكر الجنة ولا النار. * قال تعالى: ﴿الرَّءِ﴾.

إشارة إلى الإعجاز، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب المعجز.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك - يا محمد - هي آيات الكتاب المعجز في بيانه، الساطع في حججه وبراهينه، الواضح في معانيه، الذي لا تشبهه حقائقه، ولا تلتبس دقائقه، مبين والله بركته وهده ورشده.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: أنزلناه بلغة العرب كتاباً عربياً مؤلفاً من هذه الحروف العربية؛ لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها، وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي

تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل الله أشرف الكتب بأشرف اللغات ، وعلى أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وابتداء إنزاله في أشرف شهور السنة ، وهو رمضان فكمل من كل الوجوه .

✽ قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾ .

أي : نحن نحدثك يا محمد ونروي لك أخبار الأمم السابقة ، بأصدق كلام ، وأحسن بيان ، وأجمل عبارة .

وقيل المراد منه قصة يوسف - عليه السلام - خاصة ، سمّاها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا ، من سير الملوك والمماليك ، والعلماء ومكر النساء ، والصبر على أذى الأعداء ، وحسن التجاوز عنهم بعد الالتقاء ، وغير ذلك من الفوائد .
وقيل : لأنه ليس في القرآن قصة تتضمن من العبر والحكم والنكت ما تتضمن هذه القصة .

وقيل : لامتداد الأوقات بين مبتدأها ومنتهاها .

وقيل : لحسن محاورة يوسف وإخوته ، وصبره على أذاهم ، وإغضائه عن ذكر ما تعاطوه عند اللقاء ، وكرمه في العفو .

وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين ، والملائكة والسياطين ، والإنس والجن ، والأنعام والطيور ، وسير الملوك والمماليك ، والتجار والعلماء والجهال ، والرجال والنساء ومكرهن وحيلهن ، وفيها أيضاً ذكر التوحيد والفقه والسير ، وتعبير الرؤيا والسياسة ، والمعاشرة وتدبير المعاش .

وفيها من أصول تعبیر الرؤى ومقاصدها كما في رؤيا يوسف ، ورؤيا أصحاب السجن ، ورؤيا الملك وأنها تقع من المؤمن والكافر .

وقيل : فيها ذكر الحبيب والمحبوب .

وقيل : ﴿ أَحْسَنَ ﴾ بمعنى أعجب .

وقيل سورة يوسف أحسن القصص لاشتمالها على حاسد ومحسود، وعاشق ومعشوق، ومالك ومملوك، وشاهد ومشهود، وحابس ومحبوس، وخصب وجذب، وحزن وفرح، وغنى وفقر، ومنام ويقظة.

قال ابن تيمية: في قصة يوسف أنواع من العبرة للمظلوم، والمحسود والمبتلى بدواعي الفواحش والذنوب.

* قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ١٤].

في هذه الآيات أسلوب رائع من أساليب التعامل بين الأب وابنه، فيعقوب - عليه السلام - يربي أبنائه على الرجوع إليه كلما حدث لهم ما يثير انتباههم، حتى يوجههم التوجيه المناسب، فيوسف - عليه السلام - يرى الرؤيا فيبادر بقصها على أبيه ولا يتردد، وهذا يشير إلى طبيعة العلاقة الحميمة بينهما.

* فكان جواب والده نصيحة وتوجيه، عن خبرة ودراية، ومحبة وشفقة:

﴿قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ١٥].

لما قص عليه ابنه الصغير رؤياه، أولاها الأب النبي - وحسبك بالنبوة شغلاً - ما تستحقه من الاهتمام، فلا هو أهملها كما يفعل الكثيرون، ولا هو بالغ في الاهتمام بها والتحذير من عواقبها، وكثير من الناس يظن أن رؤيا الأطفال لا أهمية لها ولا يُعَبَّأُ بها، والواقع أنها قد تكون أصدق من رؤى الكبار، لأنهم ما زالوا على الفطرة ولم يتعودوا الكذب، وفي الحديث الصحيح: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً».

وهنا نلاحظ أمرين: أن النهي جاء معللاً وأن التعليل تعليل حكيم، مع أنه يخاطب غلاماً صغيراً، وهذا من حسن تربية يعقوب - عليه السلام -.

وفيما بعد علم يعقوب - عليه السلام - من هذه الرؤيا أن يوسف لن يموت مبكراً، وسوف يكبر ويبلغ مبلغاً عظيماً.
- وفي قوله: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥].

يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره.

* قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْتَبِيكَ رُتْكَ وَنُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رُتْكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].

إن نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْتَبِيكَ رُتْكَ وَنُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ ولما تمت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

* ثم من هنا تبدأ قصة يوسف مع أخوته، وهي بداية رحلة طويلة شاقة، من المعاناة والابتلاء، قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧].

آيات لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال؛ فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا بالقصص والبيانات.

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غَضَبُهُ﴾ [يوسف: ٨] من فوائد هذه القصة أنه يتعين على الإنسان أن يعدل بين أولاده. فإن ذلك أقرب إلى صلاح الأبناء واجتماعهم، واتفاقهم فيما بينهم، وبرهم بأبيهم، وقد كان السلف يسوون بين أبناءهم حتى في القبلة.

وفي الحديث أنه كان مع رسول الله ﷺ رجل، فجاء ابن له فقبله وأجلسه على فخذه، ثم جاءت بنت له فأجلسها إلى جنبه، قال ﷺ: «فهلا عدلت بينهما» [السلسلة الصحيحة].

✽ قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَخَشِئْتُ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (يوسف: ١١٣).

إن الإنسان إذا ظن سوءاً بإنسان، فلا يصلح أن يلقنه حجة لأنه يستخدمها عليه، ولذلك يعقوب لما قال: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ هو لقن أبناءه حجة استعمالوها بعد ذلك.

✽ وعندما رضي الأب بعد إلحاح بخروج يوسف وقبل بذلك، وحرّصهم عليه.. انطلق الصبي معهم، فحانت الفرصة وتشاوروا في أمره والقضاء عليه، فمنهم من قال نقتله، ومن هم من أخذته الرأفة، فقال نلقيه في الجب يلتقطه من عبر على الطريق.. ثم كان منهم ما كان وغُيِّب الغلام في ظلمات الجب..

وهو في تلك المصيبة العظيمة، والوحشة.. يوحى الله - عز وجل - إلى وليه ليسري عنه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف: ١١٥) وهذا من لطف اللطيف بأوليائه وأحبابه.

ثم لما جرى منهم ما جرى ليوسف وإلقاءه في الجب كان من إخوته:

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (يوسف: ١١٦).

هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنعاً؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر. ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

أي: جاؤوا على ثوب يوسف بدم كاذب، زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب «كاذب».

وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه.

قال ابن عباس: ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص، فلما جاؤوا يعقوب قال: كذبتُم لو أكله الذئب لخرق القميص. وروي أنه قال: ما أحلم هذا الذئب أكل ابني ولم يشق قميصه. وذلك أنهم لطخوا القميص بالدم ولم

يشقوه فلم يصدّقهم أبوهם بذلك .

- قيل : كان في قميص يوسف ثلاث آيات : حيث بدأ حزن يعقوب مع قميص الكذب : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف : ١٨] .

وانتهى حزنه بقميص الشفاء : ﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي فَأْت بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٩٣] .

وبينهما قميص البراءة : ﴿ إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ... ﴾ [يوسف : ٢٦] .
 * قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مِرَّةَ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

ولا يزال لطف الله بعبده ، فبعد أن حجب الشيطان في قلوب إخوته معاني الأخوة ، قذف الله في قلب عزيز مصر معاني الأبوة .

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

والله غالب على أمره حيث أراد يعقوب أن لا يكيده إخوته فكادوا .
 ثم أراد إخوة يوسف قتله ، فلم يقدر لهم .

ثم أرادوا أن يلتقطه بعض السيارة ، فيندرس أمره ، فعلا أمره .

ثم باعوه ليكون مملوكاً فغلب أمره حتى ملك ، وأرادوا أن يعطفوا أباهم فأباهم .

ثم أرادوا أن يغروا يعقوب بالبكاء والدم الذي ألقوه على القميص فلم يخف عليه .

ثم أرادوا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين ، فنسوا ذنبهم إلى أن أقروا به بعد سنين فقالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : ٢٧] .

ثم أرادوا أن يمحووا محبته من قلب أبيه ، فازدادت .

ثم أرادت امرأة العزيز أن تلقي عليه التهمة بقوله: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ [يوسف: ٢٥]، فغلب أمره، حتى شهد شاهد من أهلها. وأراد يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقى، فنسي الساقى حتى لبث في السجن بضع سنين.

* قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

في الآية تنبيه على أنه كان محسنًا في عمله متقيًا في عفوان أمره. ودل هذا على أن يوسف وفى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس والعلم الكثير والنبوة.

ويرد كثيراً في سورة يوسف صفه الإحسان، فكان يوسف - عليه السلام - محسنًا، مع ربه، ومع والديه، ومع إخوته، ومع الناس. ومن أحسن إلى الناس بأعماله أحسن الله إليه برحمته.

* لما ذكر - تعالى - ما أكرم به يوسف من الإقامة في القصر مع عزيز مصر، ذكر هنا ما تعرض له - عليه السلام - من أنواع الفتنة والإغراء من زوجة العزيز، وثباته أمام تلك الفتنة العارمة، وما ظهر منه من العفة والنزاهة حتى أثر دخول السجن على عمل الفاحشة، وكفى بذلك برهاناً على عفته وطهارته. قال تعالى:

﴿وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۖ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [٢٢].
﴿وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾.

هذه هي المحنة الثالثة، بعد محنة الجب والاسترقاق وهي أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً، لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة.

والمرادة: الطلب برفق ولين، كما يفعل المخادع بكلامه المعسول.

والمعنى: طلبت امرأة العزيز التي كان في بيتها منه أن يواقعها، ودعته برفق ولين إلى فعل الفاحشة، وتوسلت إليه بكل وسيلة فهو غلامها وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشئ.

ولم يقل في الآية: امرأة العزيز، أو زليخا؛ بل قال ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ قصداً إلى زيادة التقرير، مع استهجان التصريح باسم المرأة والمحافظة على الستر عليها.

* قال تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنِ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

مع أن هذه الآيات تتعلق بقصة حب أعمى وشهوة جامحة إلا أنك تجد العفة أثناء التصوير الدقيق، والأسلوب البديع لم يحترق بتأجيج النزوات وإثارة الشهوات من أجل الحبكة والإثارة الأدبية. بل تبرز معاني العفة وإظهارها. وبيان معانيها.

وفي آيات القرآن الكثير من الكلمات التي تؤدي المعنى، ولا تفضي إلى ما يجرح الشعور ويبرز الفعل بصورة أو بأخرى، ومن ذلك:

﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١].

﴿أَوْ لِمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣].

﴿فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

* قال - تعالى - عن يوسف وامرأة العزيز لما جرى بينهما من الحديث:

﴿وَأَسْتَبْقَا الْبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥]. فيه مشروعية الفرار من الفتن مهما بلغ الإنسان من العلم والدين والعقل. كلاهما يجري، أحدهما يفر من المعصية، والآخر يلاحقها، الفعل واحد ويتفاوت الجزاء بالنية.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَا بُرْهَنَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّؤْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].
والهم بالشيء أشد من الإرادة له.

قال الرازي: وعند هذا نقول: هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف - عليه السلام - هذه الفضيحة، إن كانوا من أتباع دين الله - تعالى - فليقبلوا شهادة الله - تعالى - على طهارته، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته - يعني قوله - تعالى - على لسان إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٥] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٦﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣].

وقال ابن تيمية: يوسف - عليه الصلاة والسلام - لم يذكر الله - تعالى - عنه في القرآن أنه فعل مع المرأة ما يتوب منه، أو يستغفر منه أصلاً. وقد اتفق الناس على أنه لم تقع منه الفاحشة، ولكن بعض الناس يذكر أنه وقع منه بعض مقدماتها.

ثم قال - رحمه الله -: وما ينقلونه في ذلك ليس هو عن النبي ﷺ، ولا مستند لهم فيه إلا النقل عن بعض أهل الكتاب، وقد عرف كلام اليهود في الأنبياء وغضبهم منهم، كما قالوا في سليمان ما قالوا، وفي داود ما قالوا. فلو لم يكن معنا ما يرد نقلهم لم نصدقهم فيما لم نعلم صدقهم فيه، فكيف نصدقهم فيما قد دل القرآن على خلافه.

والقرآن قد أخبر عن يوسف من الاستعصام والتقوى والصبر في هذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيره، فلو كان يوسف قد أذنب لكان إما مصرّاً وإما تائباً. والإصرار ممتنع، فتعين أن يكون تائباً. والله لم يذكر عنه

توبة في هذا ولا استغفاراً كما ذكر عن غيره من الأنبياء؛ فدل ذلك على أن ما فعله يوسف كان من الحسنات المبرورة، والمساعي المشكورة، كما أخبر الله عنه بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

و«المقصود» أن يوسف لم يفعل ذنباً ذكره الله عنه، وهو - سبحانه - لا يذكر عن أحد من الأنبياء ذنباً إلا ذكر استغفاره منه، ولم يذكر عن يوسف استغفاراً من هذه الكلمة، كما لم يذكر عنه استغفاراً من مقدمات الفاحشة؛ فعلم أنه لم يفعل ذنباً في هذا ولا هذا؛ بل هم هما تركه لله؛ فأثيب عليه حسنة في موضعه.

ومن الأدلة على عدم وقوع الهم منه، قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وقولها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ [يوسف: ٢٥].

* قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤].

الله - تعالى - يعين أوليائه في اللحظات العصبية بأمور تثبتهم، فهو كاد، لكن برهان من الله أراه إياه جعله ينصرف، ومهما كان المراد بهذا البرهان، فالإنسان لولا معونة الله وتوفيق الله وتسديده لا يثبت على الحق.

* قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيْ سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥].

ولم يقل: سيدهما لوجهين:

الأول: أن يوسف - عليه السلام - لم يدخل في رق قط، وإنما اشترى ظلماً.

الثاني: لأن المسلم لا يملك وهو السيد، ولا تكون السيادة للكافر على المسلم.

ومن أسباب عدم ذكر (زوجها) بدل (سيدها): أنها بفعلها لا تستحق وصف الزوجية.

* ولما شاع الخير وانتشر في أرجاء البلد ذكر الله - عز وجل - ما كان، فقال تعالى:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠].

والتظاهر بالنصح واستنكار المنكر من أجل إظهار الفضل على الآخرين، أو الشماتة بهم، أو التنقص لهم ونشر أخبارهم، أمر شائع في زماننا هذا بين الرجل والنساء على حد سواء، وهو من الغيبة المحرمة التي تدل على ضعف التقوى، وقد سماه الله - تعالى - في هذه الآيات مكر.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ المرأة تمكر بالمرأة.

وتكيد بالرجل: ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾.

* المرأة تمكر بالمرأة ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾، وتكيد بالرجل ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾.

والمكر هو: الاحتيال والخديعة.

قال السيوطي: هو إيصال المكروه إلى الإنسان حين لا يشعر.

والكيد هو: إرادة مضرة الغير خفية. وهو: الخبث والمكر والاحتيال والاجتهاد.

والكيد: قد يكون في الخير أو في الشر.

ففي الخير: قول إبراهيم - عليه السلام - كما ذكر تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ

لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وفي الشر: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠].

قال السعدي: الحذر من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى

منها ماجرى بسبب توحيدها بيوسف، وحبها الشديد له؛ الذي ما تركها حتى

راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه: فسجن بسببها مدة طويلة.

قال ابن تيمية: وفي قول يوسف: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ١٢٣]، عبرتان: أحدهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه، ويصرفه إلى طاعته. وإلا فإذا لم يثبت القلب والا صبا إلى الأمرين بالذنوب، وصار من الجاهلين.

ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة، وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل، إذا ثبت على الإيمان والطاعة.

﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ١٢٣].

من احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله - كما فعل يوسف - عليه السلام - وغيره من الأنبياء والصالحين - كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيماً وسروراً، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزناً وثبوراً.

وبعد أن دعا يوسف - عليه السلام - ربه أن يصرف كيدهن عنه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ [يوسف: ١٢٤] حين دعاه. ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾.

فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل حتى آيسها، وصرف الله عنه كيدها ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

* ويوسف - عليه السلام - صبر في الحب والسجن صبر اضطرار، وصبر على موافقة امرأة العزيز والخوف من مقارفة الفاحشة صبر اختيار. فصبر الاضطرار لا يد له فيه، وصبر الاختيار هو ما رفعه وعظم منزلته عند الله - عز وجل -.

قال ابن تيمية: فيوسف عليه السلام خاف الله من الذنوب، ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذ أطاع الله، بل أثر الحبس والأذى مع الطاعة، على الكرامة والعز وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية، فإنه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة، وأكرمه المرأة بالمال والرياسة، وزوجها في طاعتها، فاختار يوسف الذل والحبس، وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة، مع الطاعة على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية.

قد قدم الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق، وإن أذاه بالحبس والكذب، فإنها كذبت عليه؛ فزعمت أنه راودها ثم حبسته بعد ذلك.

* ثم إن امرأة العزيز بلغها حديث النساء عنها فدعتهن، وقالت أخرج عليهن ليرين جماله فيعذرنها، قال تعالى:

﴿قَالَتْ فذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامَرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٢٣].

بالغت امرأة العزيز في التوكيد عندما هددته بالسجن؛ لأنها تملك أن تسجنه، فأكدت السجن بالنون الثقيلة: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ قيل: وذلك لتحقيقه، وما بعده بالنون الخفيفة: ﴿وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ لأنه غير متحقق. والمتصفح لسير العظماء على مر الزمان يلحظ بوضوح أن السجن لم يزد هم إلا رفعة، فالذلة والصغار، إنما تلحق من تلطخت سيرتهم بالمعاصي والظلم ولو لم يلحقهم العقاب لأن مجرد انقيادهم للشيطان غاية في الذل والصغار، ولهذا قال الحسن البصري: إنهم وإن هملجت بهم البراذين، وطققت بهم البغال، ووطئت أعقابهم الرجال، فإن ذل المعصية لا يفارق رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

* قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لَيُسْجَنَنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

[يوسف: ٣٥].

ولبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه؛ ليتم بذلك صبره وتقواه؛ فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال؛ ولهذا قال: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾

قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ نَاثِرُهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢٩﴾ [يوسف: ٩٠].

ولو لم يصبر ويتق بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعاً من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى، وفاته الأفضل باتفاق الناس.

قال شيخ الإسلام: فإن الزنا بامرأة الغير فيه حقان مانعان، كل منهما مستقل بالتحريم. فالفاحشة حرام لحق الله ولو رضي الزوج، وظلم الزوج في امرأته حرام لحقه، بحيث لو سقط حق الله بالتوبة منه فحق هذا في امرأته لا يسقط، كما لو ظلمه وأخذ ماله وتاب من حق الله لم يسقط حق المظلوم بذلك، ولهذا جاز للرجل إذا زنت امرأته أن يقذفها ويلاعنها، ويسعى في عقوبتها بالرجم، بخلاف الأجنبي فإنه لا يجوز له قذفها ولا يلاعن، بل يحد إذا لم يأت بأربعة شهداء، فإفساد المرأة على زوجها من أعظم الظلم لزوجها، وهو عنده أعظم من أخذ ماله.

❖ ولما دخل يوسف السجن، أحسن إلى من فيه بالدعوة إلى التوحيد والإحسان، فدعا ذلك الإحسان والفضل إلى أن يسأله عن تعبير رؤيا وقعت لاثنتين منهما. قال تعالى:

﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أخبرنا بتفسير ما رأينا وما يؤول إليه أمرهما، إنا نراك من الذين يحسنون تفسير الرؤيا، فأحسن إلينا كما أحسنت إلى غيرنا، وأخبراه عن رؤياهما لما علما أنه يجيد تفسير الرؤيا، وكان يوسف - عليه السلام - قد اشتهر في السجن بالجلود والأمانة، وصدق الحديث، وحسن السميت، وكثرة العبادة، والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم، والقيام بحقوقهم.

﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٦].

لجأ أهل السجن إلى يوسف لتعبير رؤياهم، وهم لا يعرفون أنه من أهل العلم، ولا يعلمون أنه معبر للرؤى من قبل، فهم من الكفار والملوك كافر والبلدة كافرة؛ لأن أهل الصلاح يظهر صلاحهم على وجوههم، والناس

يحبونهم وينجذبون إليهم، فإن أهل السجن قالوا بعده.

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

حالتك وسيرتك وهيئتك وأفعالك تدل على أنك من المحسنين والصالحين.

قال في فتح المجيد: لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه، وعبادة الصنم، وتأمل قول الله - تعالى - عن نبيه يوسف بن يعقوب حيث قال: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨].

فقوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ نكرة في سياق النفي تعم كل شرك.

* فأجابهما يوسف - عليه السلام - إلى طلبهما:

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾.

أي: لا يأتیکما شيء من الطعام، إلا أخبرتكما ببيان حقيقته وماهيته وكيفيته قبل أن يصل إليكما، أخبرهما بمعجزاته ومنها معرفة المغيبات توطئة لدعائهما إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه، ليكون أنجع لدعوته، وأقبل لهما. أراد أن يدعوهم إلى التوحيد ويرشدهما إلى الدين القويم قبل أن يسعفهما إلى ما سألاه عنه، كما هي طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد، فقدم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلها على صدقه في الدعوة والتعبير.

ثم دعاهما إلى التوحيد وعبادة الله وحده بقوله: ﴿يَصْصَحِي السَّجْنَ

ءَ أَرْبَابٍ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

* ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ [يوسف: ٣٧].

قال النسفي: المراد به ترك الابتداء، لا أنه كان فيها ثم تركها.

* ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ

ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ١٢].

أي: قال يوسف للذي اعتقد نجاته وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً.
اذكرني عند سيدك وأخبره عن أمري وشأني، لعله يخرجني مما أنا فيه.
أنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله - تعالى -، وذكر ما يقرب إليه، ومن
جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف، الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان،
وذلك ليتم الله أمره وقضائه.

قوله: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ [يوسف: ٤١].

قال ابن كثير: ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك، لهذا أبهمه.

﴿قَلْبٌ فِي السَّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ﴾.

أي: مكث يوسف في السجن سبع سنين. قال المفسرون: وإنما لبث في
السجن بضع سنين، لأنه اعتمد ووثق بالمخلوق، وغفل أن يرفع حاجته إلى
الخالق - جل وعلا -.

قال وهب ابن منبه: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في
السجن سبع سنين.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ﴾.

أي: ولما رجع الساقى إلى الملك وعرض عليه ما عبَّر به يوسف رؤياه
واستحسن ذلك. قال لمن عنده: احضروه لي لأسمع منه تفسيرها بنفسه
ولأبصره، فقد رغب في رؤيته ومعرفة حاله بعد أن علم من فضله وعلمه
من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾.

أي: فلما جاء رسول الملك وأخبر يوسف بالأمر واستدعاه إلى حضرة
الملك، وأمره بالخروج من السجن. امتنع يوسف عن المبادرة إلى الخروج
من السجن، حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام،
وقال يوسف للرسول: ارجع إلى سيدك الملك.

﴿فَسَلَّهَ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

أي: سله عن قصة وشأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن هل يعلم أمرهن؟ وهل يدري لماذا حبست ودخلت السجن؟ وأني ظلمت بسببهن؟ أبنى - عليه السلام - أن يخرج من السجن حتى لا ينظر إليه الملك بعين التهمة والخيانة، ويصير إليه بعد زوال الشك عن أمره، وأن يعلم الناس جميعاً أنه حبس بلا جرم.

وقوله ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ حيث سكت عن امرأة العزيز رعاية لذمام الملك العزيز، أو خوفاً من كيدها وعظيم شرها، وذكر السؤال عن تقطيع الأيدي، ولم يذكر مراودتهن له تنزهاً منه عن نسبة ذلك إليهن، ولذلك لم ينسب المراودة إلى امرأة العزيز إلا بعد أن رمته بدائها وانسلت. واكتفى هنا بالإشارة بقوله: ﴿فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠].

* قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعٍ سُتُوبَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَىٰ يَاسِبَتٍ لِّعَلَىٰ أَرْجَعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦].

قال السعدي - رحمه الله -: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه، وأن لا يجعل تعليمه لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف - عليه السلام - قد قال، ووصى أحد الفتیین أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف، ولا وبخه لتركه ذكره، بل أجابة عن سؤاله جواباً تاماً من كل وجه.

* ولما علم يوسف من نفسه الأمانة والقوة:

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

لا يلزم أن يكون كل من ذكر حقاً عن نفسه، وإن كان فيه مدح لها - مزكياً لها - فقد يذكر هذا الحق عن النفس لمصلحة الآخرين فيكون من

جملة قول الحق السائغ وإن انطوى على تزكية غير مرادة، فهنا توصل بها إلى إحقاق حق مطلوب، وهذا كثير في السنة، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» أراد بذلك الخير الحاضر على الثبات.

* في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

قال القصاب: عدة فوائد، منها: إطلاق الكل وإرادة البعض، فيوسف لم يمكن له في جميع الأرض، بل مكن له في أرض مصر ونواحيها. ومنها: أن الطاعة تثمر الرزق في الدنيا، ويعطى المؤمن الأجر عليها، ولا ينقص ذلك من ثوابه في الآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦].

فبعد سجنه الضيق، عوضه الله بالأرض الوسيعة ملكاً وحاكماً يتصرف في خزائنها.

* ثم بدأ - عز وجل - بذكر قصة يعقوب وأبنائه لما أتوا إلى يوسف وهو على خزائن مصر، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ ۖ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [٢٢] قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٢٣].

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ .

أي: فلما عادوا إلى أبيهم، قالوا له - قبل أن يفتحوا متاعهم - يا أبانا لقد أُنذرنا بمنع الكيل في المستقبل إن لم نأت بأخينا بنيامين، فإن ملك مصر ظن أننا جواسيس، وأخبرناه بقصتنا فطلب أخانا ليتحقق صدقنا.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ﴾ .

أي: أرسِل معنا أخانا بنيامين لنأخذ ما نستحقه من الحبوب التي تكال لنا. ثم التزموا له بحفظه، فقالوا:

﴿وَأَنَا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ .

أي: نحفظه من أن يناله مكروه، أو أن يعرض له ما يكره.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ .

أي: قال لهم يعقوب: كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم بعد أن ضمتكم لي حفظه، ثم ختم العهد، فأخاف أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أثق بحفظ الله.

﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ .

أي: حفظ الله خير من حفظكم فهو يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده عليّ، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

أي: هو أرحم من والديه وإخوته، فأرجو أن يُمنَّ عليّ بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين.

قال كعب: لما قال يعقوب فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، قال الله - تعالى - وعزتي وجلالي لأردن عليك كليهما.

* ولكثرة أبناء يعقوب وحسنهم وجمالهم، قال لهم - عليه السلام -:

﴿وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ .

أي: وقال لهم يعقوب لما أرادوا الخروج من عنده: لا تدخلوا مصر من باب واحد.

قال المفسرون: خاف عليهم من العين إن دخلوا مجتمعين لكونهم أبناء رجل واحد، إذ كانوا أهل جمال وهيبة، وفي الحديث «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْخُلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ، وَالْجَمَلُ الْقَدْرُ» [رواه مالك في الموطأ] فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم.

﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مَوْلَىٰ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ .

أي: وهذا سبب؛ ولا أدفع عنكم بتدبيري شيئاً مما قضاه الله عليكم، فإن الحذر لا يدفع القدر، والمقدر لا بد أن يكون.

* ثم ذكر - تعالى - ما جرى عندما أتى أخوة يوسف إليه ومعهم
أخوهم بنيامين، فقال:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا
لْيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٧٦].

فكاد الله له أحسن كيد، وألطفه وأعدله، بأن جمع بينه وبين أخيه،
وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه
بغير اختياره.

وكاد له عوض كيد المرأة بأن أخرجه من ضيق السجن إلى فضاء الملك،
ومكنه في الأرض يتبوا منها حيث شاء.
وكاد له في تصديق النسوة اللاتي كذبنه وراودته حتى شهدن ببراءته
وعفته.

وكاد له تكذيب امرأة العزيز لنفسها واعترافها بأنها هي التي راودته وأنه
من الصادقين، فهذه عاقبة من صبر على كيد الكائد بغيا وعدوانا.
- قال ابن تيمية عن نبينا محمد ﷺ: واختيار النبي ﷺ له ولأهله
الاحتباس في شعب بني هاشم بضع سنين، لا يبايعون ولا يشارون؛
وصبيانهم يتضاغون من الجوع، قد هجرهم وقلاهم قومهم، وغير قومهم.
هذا أكمل من حال يوسف - عليه السلام -.

فإن هؤلاء كانوا يدعون الرسول إلى الشرك، وأن يقول على
الله غير الحق، يقول: ما أرسلني ولا نهى عن الشرك. وقد قال
تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ
وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾
إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

وكان كذب هؤلاء على النبي ﷺ أعظم من الكذب على يوسف؛ فإنهم قالوا: أنه ساحر، وأنه كاهن، وأنه مجنون، وأنه مفتر. وكل واحدة من هؤلاء أعظم من الزنا والقذف؛ لا سيما الزنا المستور الذي لا يدري به أحد. فإن يوسف كذب عليه في أنه زنى، وأنه قذفها وأشاع عنها الفاحشة؛ فكان الكذب على النبي ﷺ أعظم من الكذب على يوسف.

وكذلك الكذب على أولى العزم، مثل نوح وموسى، حيث يقال عن الواحد منهم: أنه مجنون، وأنه كذاب، يكذب على الله، وما لقي النبي ﷺ وأصحابه من أذى المشركين أعظم من مجرد الحبس، فإن يوسف حبس وسكت عنه. والنبي ﷺ وأصحابه كانوا يؤذون بالأقوال والأفعال مع منعهم من تصرفاتهم المعتادة. وهذا معنى الحبس، فإنه ليس المقصود بالحبس سكناه في السجن بل المراد منعه من التصرف المعتاد.

* قال أخوه يوسف في طلب ذهاب يوسف معهم: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا

أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٤].

ثم لما تغيرت الحاجة وزال التلطف: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ

قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧].

* قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ۖ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾

[يوسف: ٧٦].

في هذه الآية بيان فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبیر الرؤيا، وعلم التدبير والتربية، وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف - بسبب جماله - حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

* ثم ما كان من أمر يعقوب - عليه السلام - إلا أن:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.

أي: زينت وسهلت لكم أنفسكم أمراً ومكيدة فنفذتموها، اتهمهم بالتآمر على بنيامين لما سبق منهم في أمر يوسف.

﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ﴾.

أي: لا أجد سوى الصبر الجميل، الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع، ولا شكوى للخلق، محتسباً أجري عند الله.

ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد، والكربة انتهت، فقال:

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

عسى أن يجمع الله شملهم بهم، ويقر عيني برؤيتهم جميعاً يوسف وبنيامين، وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: العالم بحالي واحتياجي إلى تفريجه ومنتته، واضطراري إلى إحسانه، الحكيم في تدبيره وتصريفه الذي جعل لكل شيء قدراً، ولكل أمر منتهى، بحسب ما اقتضته حكمته.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

وتولى يعقوب - عليه السلام - وأعرض عن أولاده كراهة لما سمع منهم وبما أخبروه، واشتد به الأسف والأسى.

وقال يا لهفي ويا حسرتي وحزني على يوسف، أضاف الأسف وهو أشد الحزن، والحسرة إلى نفسه. وإنما تأسف دون أخيه وكبيرهم لتمادي أسفه على يوسف دون الآخرين، وفيه دليل على أن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً عنده طرياً.

﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾.

أي: فقد بصره وعشي من شدة البكاء على ولديه من شدة الحزن الذي في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، إذ أكثر الاستعبار ومحقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر.

قيل: ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب.

قال القرطبي: واستمر حزن يعقوب على ابنه يوسف حتى سقط حاجباه على عينيه كما جاء عن بعض السلف. فكان يرفعهما بخرقة فقيل له: ما هذا؟ فقال: طول الزمن وكثرة الأحزان.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٨١).

أي: مملوء القلب كمدًا وغيظًا ولكنه يكتم ذلك في نفسه، وهو مغموم ومكروب لتلك الداهية الدهياء، فقد ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخوية؛ لأن ذكر يوسف كان آخذًا بمجامع قلبه لا ينساه، ولأنه كان واثقًا بحياتهما طامعًا في إياهما، وأما يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله وفضله، والحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن في النفس، والأسى يبعث الأسى ويشير الأحزان.

قال ابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿يَتَأَسَّى عَلَى يَوْسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] هذا لفظ الشكوى، فأين الصبر الذي مدح به يعقوب؟ أحدهما: أنه شكا إلى الله لا منه.

والثاني: أنه أراد به الدعاء، فالمعنى يا رب ارحم أسفي على يوسف. قال ابن الأنباري: الحزن ونفور النفوس من المكروه والبلاء لا عيب فيه، ولا مآثم إذا لم ينطق اللسان بكلام مؤثم، ولم يشتك من ربه، فلما كان قوله: ﴿يَتَأَسَّى﴾ شكوى إلى ربه، كان غير ملوم.

ثم قال له أولاده متعجبين من حاله. ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (٨٥).

أي: قال أولاد يعقوب، ولا تزال تذكر يوسف وتتفجع عليه في جميع أحوالك.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾.

أي: قال لهم يعقوب: لست أشكو غمي وحزني إليكم. وإنما أشكو ذلك إلى الله فهو الذي تنفع الشكوى إليه فقولوا ما شئتم، فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين.

- قيل: البث أشد الحزن، سمي بذلك؛ لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يبيته ويظهره.

- قال ابن الجوزي: فليجعل العاقل شغله خدمة ربه، فما له على الحقيقة غيره، وليكن أنيسه وموضع شكواه: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] فلا تلتفت أيها المؤمن إلا إليه، ولا تعول إلا عليه، وإياك أن تعقد خنصرك إلا على الذي نظمها.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦).

أي: أعلم من رحمة وإحسانه ما لا تعلمون أنتم، فأرجو أن يرحمني ويلطف بي، ويأتيني بالفرج من حيث لا أحسب، ويردهم عليّ، ويقر عيني بالاجتماع بهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُّزْجَنَةٍ﴾

﴿فَأَوْفٍ لَّنَا الْكَفِيلُ إِنَّ اللَّهَ يُجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (٨٨).

أي: يثيب المحسنين أحسن الجزاء. وتأمل في شؤون المعصية التي فعلوها بأخيهم. فأصبحوا يمدون أيديهم إليه ليتصدق عليهم.

* ثم قال أخوه يوسف: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾

﴿[يوسف: ٨٨].﴾

وقعوا في الذنب حتى آل بهم الأمر إلى طلب الصدقة، وفي الحديث: «إن العبد يحرم الرزق بالذنب يصيبه».

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٢٨)

[يوسف: ٨٩].

قيل: من تطفه بهم قوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٢٨) كالاعتذار عنهم، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه، أسهل من فعله على علم، وهم ولو ضربوا في طرق الاعتذار لم يلقوا عذراً كهذا.

* ولما بلغ بهم الأمر إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار أدركت يوسف - عليه السلام - الرأفة والرقّة ففاض دمه، ولم يتمالك أن باح لهم بما كان يكتمه من أمره:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

أي: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه. أما يوسف فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه، فلعله والله أعلم قولهم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ والغرض تعظيم الواقعة كأنه يقول: ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه. وإنما قاله نصحاً لهم، وتحريضاً على التوبة، وشفقة عليهم لا تشفياً واستعلاءً.

﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٢٨).

حال شبابكم وطيشكم؟ وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم أو توبيخ لهم، إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم، فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف.

وهنا قاعدة قرآنية محكمة، وشواهدا لا تحصى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ

فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٨) [يوسف: ٩٠] لكن تنبه لشرطيها الكبيرين التقوى والصبر.

* ثم قال لهم يوسف:

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١١)

أي: قال لهم يوسف كرماً وجوداً: لا عتب عليكم اليوم ولا عقوبة، بل أصفح وأعفو. ثم دعا لهم بالمغفرة، وهذا زيادة تكريم منه لما فرط منهم. وهو - جل وعلا - المتفضل على التائب بالمغفرة والرحمة، أرحم بعباده من كل أحد، فسمح لهم يوسف سماحاً تاماً، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، لأنه يجرحهم ويحزنهم. ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.

قال ابن جزري: أسقط حق نفسه بقوله: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾، ثم دعا الله أن يغفر لهم حقه.

* ذُكِرَ أن يوسف لما عرف نفسه وإخوته سألهم عن أبيهم، فقالوا: ذهب بصره من الحزن فعند ذلك أعطاهم قميصه، وأراد يوسف تبشير أبيه بحياته، وإدخال السرور عليه بذلك لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص لما كان فيه أثر ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم، أراد أن يشمه فترجع إليه روحه، وتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، والله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ (١٢)

أي: خرجت من عريش مصر إلى الشام.

قال يعقوب لمن حضر من قرابته، إني لأشم رائحة يوسف. لولا أن تسفهوني وتنسبونني إلى الخرف، وهو ذهاب العقل وجواب ﴿ لَوْلَا ﴾ محذوف تقديره لأخبرتكم أنه حي.

قيل: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف، وبينهما مسيرة ثمان ليال.

﴿ قَالُوا تَأَلَّهَ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ۝٢٤١ ﴾ .

أي: فوق ما ظنه بهم، فقال حفدته ومن عنده: والله إنك لفي خطأ وذهاب عن طريق الصواب، قديماً في إفراط محبتك ليوسف.
قال المفسرون: وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات.

﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۝٢٤٢ ﴾ .

أي: فلما جاء المبشر بالخبر السار، وطرح البشير القميص على وجه يعقوب، فعاد على حاله الأولى بصيراً، وعادت إليه قوته بعد الضعف لما حدث له من السرور والانتعاش.

قال مجاهد: كان البشير أخاه يهوذا الذي حمل قميص الدم، فقال: أفرحه كما أحزنه.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٤٣ ﴾ .

قال يعقوب - عليه السلام - لأبنائه: ألم أخبركم بأني أعلم ما لا تعلمونه من حياة يوسف، وأن الله سيرده عليّ لتحقيق الرؤيا.

قال المفسرون: ذكرهم بقوله: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٤٤ ﴾ [يوسف: ٨٦] روي أنه سأل البشير كيف يوسف؟

فقال: هو ملك مصر، قال: ما أصنع بالملك! على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة، فأقروا بذنوبهم ونجوا بذلك.

﴿ قَالُوا يَتَابْنَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ۝٢٤٥ ﴾ .

طلب أبناءه أن يستغفر لهم لما فرط منهم ثم اعترفوا بخطئهم بقولهم: أنا مخطئين فيما ارتكبنا مع يوسف حيث فعلنا ما فعلنا.

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۝٢٤٦ ﴾ .

قال يعقوب - عليه السلام -، مجيباً لطلبهم، ومسرعاً لإجابتهم، ووعدهم بالاستغفار.

قال المفسرون: أخر الاستغفار إلى السحر الفاضل ليكون أقرب إلى الإجابة، وقيل: أخره إلى يوم الجمعة ليتحرى ساعة الإجابة.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

قدم الشاء على ربه، ومعنى الغفور: الساتر للذنوب الرحيم بالعباد، ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته.

* ثم تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكنائها، وفي تلك السنوات الماضية دليل على ابتلاء الله - عز وجل - لأنبيائه وأصفياه بالشدة والرخاء، والسرور والحزن، واليسر والعسر، ليستخرج منهم عبوديته في الحالين، بالشكر عند الرخاء، والصبر عند الشدة والبلاء، فتتم عليهم بذلك النعماء.

والآيات تتحدث عن مجيء أسرة يعقوب بأسرهم إلى مصر، ودخولهم على يوسف وهو في عز السلطان وعظمة الملك، وتحقيق الرؤيا بسجود إخوته الأحد عشر له مع أبيه وأمه، واجتماع الشمل بعد الفرقة، وحلول الأُنس بعد الكدر.

* قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ

إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

أي: فلما دخل يعقوب وأبناؤه وأهلهم على يوسف ضم إليه أبويه واعتنقهما واختصها بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام شيئاً عظيماً.

وقال لجميع أهله، مُرحباً: ادخلوا بلدة مصر آمنين من كل مكروه، وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر ولا يدخلونها إلا بجواز منهم، وإنما

قال: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تبركاً وتيمناً، فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة.

﴿وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾.

أي: أجلسهما على سرير الملك ومجلس العزيز بجانبه. وسجد له أبوه وأمه وإخوته حين دخولهم عليه، وكان السجود عندهم تحية وكرامة لا عبادة. ومن الإحسان إلى الوالدين وأكرامهما أنه عندما تصيب خيراً ابداً بوالديك، فهم أحق الناس برد الجميل مثلما فعل يوسف - عليه السلام -:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٨ - ٩٧].

قال المهامي: صرحوا بالذنوب دون الله، لزيد اهتمامهم بها، وكأنهم غلب عليهم النظر إلى قهره، وصرح يعقوب بذكر الرب دون الذنوب، إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التي ربي بها الكل، وهذا من دقائق لطائف التنزيل ومحاسنها فيه.

﴿وَقَالَ يَنْبَأْتُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ .

أي: قال يوسف: لما رأى هذه الحال ورأى سجودهم له: هذا تفسير الرؤيا التي رأيته في منامي وذلك حين رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر لي ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت. قيل بين رؤيا يوسف وتحققها أربعين سنة.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ .

أي: أنعم عليّ بإخراجي من السجن، وهذا من لطفه وحسن خطابه فلم يذكر قصة الحب مع كونه أشد بلاء من السجن، تكرمًا منه لئلا يخجل إخوته ويذكرهم صنيعهم لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، ولأن نعمة الله عليه في إخراجه من السجن أعظم، لأنه بعد الخروج من الحب صار إلى العبودية والرق، وبعد الخروج من السجن صار إلى الملك.

﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ .

أي: جاء بكم من البادية لأنهم كانوا أهل إبل وغنم ببادية فلسطين، ذكرهم بنعمة الله على آل يعقوب حيث نقلهم من البادية إلى الحضر واجتمع شمل الأسرة بمصر، وذكر إتيانهم في البادية من إحسان الله إليه، فلم يقل: جاء بكم الجوع والنصب، ولا قال «أحسن بكم» بل قال: ﴿أَحْسَنَ بِي﴾ جعل الإحسان عائداً إليه، وقد ذكر أن يعقوب دخل مصر هو ومن معه من أولاده وأهاليهم وأبنائهم وهم أقل من مائة، وخرجوا منها يوم خرجوا وهم زيادة على ستمائة ألف.

﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴿﴾ .

أي: أفسد ما بيني وبين إخوتي بالإغواء، وذكر هذا القدر من أمر إخوته؛ لأن النعمة إذا جاءت إثر بلاء وشدة كانت أحسن موقعاً، ومن تمام أدبه لم يقل: «نزع الشيطان إخوتي» بل كأن الذنب والجهل صدر من الطرفين. إن ربي لطيف التدبير، يحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها، وقد يوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها. وحقيقة اللطيف الذي يوصل الإحسان إلى غيره بالرفق.

ولما تقلبت الأحوال بيوسف - عليه الصلاة والسلام - وتطورت به الأطوار، عرف أن هذه الأشياء وغيرها لطف من لطف الله له، فاعترف بهذه النعمة، فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وهذا من أعظم نعم الله على العبد، أن يعرض أحواله التي تمر به على معاني أسماء الله الحسنى، وصفاته العلى؛ فإن هذا له فائدتان: الأولى: زيادة الإيمان.

الثانية: سهولة تلقي المصائب المؤلمة، وهذا يزداد حين يبلغ العبد منزلة الرضا عن الله، بحيث يوقن أن اختيار الله خير من اختياره لنفسه.

وإن من أسماء الله الحسنى التي تكرر ذكرها في كتاب الله - تعالى -، ولها أثرها البالغ في حياة العبد - لمن فقه معناها وعمل بمقتضاها - : اسم الله (اللطيف) الذي تمدح - سبحانه - به في مواضع من كتاب الله، منها: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

يقول ابن الجوزي في صيد الخاطر: قرأت سورة يوسف - عليه السلام -، فتعجبت من مدحه على صبره وشرح قصته للناس ورفع قدره، فتأملت خبيثة الأمر فإذا هي مخالفته للهوى المكروه، فقلت: واعجباً لو وافق هواه من كان يكون؟ ولما خالفه لقد صار أمراً عظيماً تضرب الأمثال بصبره، ويفتخر على الخلق باجتهاده، وكل ذلك قد كان بصبر ساعة فيا له عزاً وفخراً، أن تملك نفسك ساعة الصبر عن المحبوب وهو قريب.

* ولما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين في الأرض والملك، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، وجمع شمله وأقر عينه بأبويه وإخوته، وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إياه، قال مقراً بنعمة الله، شاكراً لها، داعياً بالثبات على الإسلام.

ولما تم أمره على أن نعيم الدنيا لا يدوم، تآقت نفسه إلى الملك الدائم الخالد، واشتاق إلى لقاء الله وإلى آبائه الصالحين إبراهيم وإسحاق، وسأل الله - تعالى - حسن العاقبة:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: أعطيتني العز والجاه والسلطان، وذلك من نعمة الدنيا حيث إنه كان على خزائن الأرض وتديرها، ووزيراً كبيراً للملك. علمتني من تأويل أحاديث الكتب المنزلة، وتأويل الرؤيا، وغير ذلك من نعمة العلم.

﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ .

أي: أنت يا رب متولي أموري وشؤوني في الدارين، اقبضني إليك مسلماً وثبتني عليه حتى تتوفاني عليه، واجعل لحاقي بالصالحين.
ابتهل إلى ربه أن يحفظ عليه إسلامه حتى يموت عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت.

* وإلى هنا تنتهي قصة يوسف الصديق، ثم يأتي التعقيب بعد ذلك بإقامة البرهان على صحة نبوة محمد ﷺ، قال تعالى:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ۚ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۚ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۚ﴾ .

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ .

ذلك النبأ الذي أخبرناك عنه - يا محمد - من أمر يوسف وقصته، من الأخبار الغيبية التي لم تكن تعلمها قبل الوحي، وإنما نعلمك نحن بها عن طريق الوحي، على أبلغ وجه وأدق تصوير، ليظهر صدقك في دعوى الرسالة.

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ۚ﴾ .

أي: وما كنت حاضراً مع إخوة يوسف حين تأمروا على أخيهم وأجمعوا أمرهم على إلقاءه في الجب، وهم يحتالون ويمكرون به وبأبيه ليرسله معهم، وهم في حالة لا يطلع عليها إلا الله - تعالى -، فإنك - يا محمد - لم تشاهدكم حتى تقف على حقيقة القصة وإنما جاءتك بوحي من العليم الخبير.

* ثم يخبر - تعالى - عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض، قال تعالى:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٥ - ١٠٦].

تحذير من الشرك الخفي الذي يدب إلى قلب الإنسان أخفى من ديب النمل، إن الآية تتحدث عن المؤمنين، لكنها لا تبرئهم من قوع الشرك منهم. فالتوحيد أعظم ما يحمله المرء في قلبه، إذا به دخول الجنة برحمة الله.

* قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَكُ وَلَكِنَّ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

والعبرة من الاعتبار، والاتعاظ والتذكر، وإذا تأملت الآية السابعة ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلْسَائِلِينَ ﴿٧﴾﴾ [يوسف: ٧] والآية الأخيرة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وما بينهما وما قبلهما من آيات وجدت بعضها يصدق بعضها، ووجدت في ما بينهما الأكبر الذي يمكن أن يكون له عظيم الأثر في حياة الأمة إذا أخذت به كما أخذ به محمد ﷺ، وإذا تأثرت به كما تأثر السلف.

ونختم بكلام لشيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: وفي قصص هذه الأمور عبرة للمؤمنين بهم، فإنهم لا بد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك، ولا يأسوا إذا ابتلوا بذلك، ويعلمون أنه قد ابتلى به من هو خير منهم، وكانت العاقبة إلى خير، فليتيقن المرتاب، ويتوب المذنب، ويقوى إيمان المؤمن فيها، يصح الاتساء بالأنبياء كما في قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

* ثم ختمت السورة الكريمة بخاتمة سعيدة بعدما جرى ليوسف - عليه السلام -، وفيها تصبير لرسول الله ﷺ على أذى قريش، كأنه يقول: إن إخوة يوسف مع موافقتهم إياه في الدين ومع الأخوة؛ عملوا بيوسف

ما عملوا من الكيد والمكر وصبر على ذلك ، فأنت مع مخالفة قومك إياك في الدين أخرى أن تصبر على أذاهم ، قال تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ .

أي : لقد كان في قصة يوسف وإخوته عظة وتذكرة لأولي العقول النيرة يعتبرون بها ، حيث نقل من غاية الحب إلى غيابة الحب ، ومن الحصر إلى السرير ، فصارت عاقبة الصبر سلامة وكرامة ، ونهاية المكر وخامة وندامة .

سورة الرعد ١٣

سورة الرعد من السورة المدنية، موضوعها التوحيد، ومسرح آياتها السموات والأرض، وما فيها من بدائع الخلق ودلائل القدرة. وقد ابتدأت السورة الكريمة بالقضية الكبرى، قضية الإيمان بوجود الله ووحدانيته، فمع سطوع الحق ووضوحه، كذب المشركون بالقرآن، وجحدوا وحدانية الرحمن، فجاءت الآيات تقرر كمال قدرته - تعالى -، وعجيب خلقه في السموات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والزرور والثمار، وسائر ما خلق الله في هذا الكون الفسيح البديع.

وسميت سورة الرعد لتلك الظاهرة الكونية العجيبة، التي تتجلى فيها قدرة الله وسلطانه، فالماء جعله الله سبباً للحياة، وأنزله بقدرته من السحاب. والسحاب جمع الله فيه بين الرحمة والعذاب، فهو يحمل المطر ويحمل الصواعق، وفي الماء الإحياء، وفي الصواعق الإفناء، وجمع النقيضين من العجائب.

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

من دلائل قدرة الله في الأرض أنه مدها ليستقر عليها البشر، وجعل لها جبلاً وأنهاراً.

والفرق بين الجبال والأنهار في حفظ توازن الأرض: أن الجبال توازنها وهي ثابتة، والأنهار تحدث توازنها وهي جارية، وكل ذلك يحتاج إلى تفكير عميق لإدراك عظيم القدرة، والوصول من أثنائها إلى الوحدانية.

* قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وقد أكد - جل وعلا - مقطع المغفرة بثلاث مؤكدات وهي: إن، واللام، وإطناب المبالغة - ﴿عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ - إذا هو إطناب اعتراضى أفاد الإمعان في المغفرة رغم الظلم. وأكد مقطع العقوبة بمؤكدين هما: إن، واللام، ليدل على أنه إلى المغفرة أقرب، خصوصاً وقد قدم المغفرة على العقوبة، فهو - جل جلاله - أهل التقوى وأهل المغفرة.

* قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

يعقب بعضهم بعضاً، كلما ذهب بدل جاء آخر يثبتونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه، ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه، ويقولون: إنما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد.

* قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

ومن حكمة السجود عند قراءتها أن يضع نفسه في عداد ما يسجد لله طوعاً بإيقاعه السجود، وهذا اعتراف فعلي بالعبودية لله - تعالى -.

* قال جعفر بن محمد: صلاة الرحم تهون على المرء الحساب يوم القيامة، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

* قال تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

ثم زاد في الترغيب بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن الإكثار من ترداد رسل الملك أعظم في الفخر، وأكثر في السرور والعز.

قال أبو السعود: وفي التقييد بالصالح قطع للأطماع الفارغة، لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب.

* قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

قال الألوسي: سعة رزقهم ليس تكريماً لهم، كما أن تضيق رزق بعض المؤمنين ليس لإهانة لهم، وإنما كل من الأمرين صادر منه - تعالى - لحكم إلهية يعلمها - سبحانه - وربما وسع على الكافر إملاء واستدراجاً له، وضيق على المؤمن زيادة لأجره.

* قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].
﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

قال ابن تيمية: فتقديم المفعول يدل على أنها لا تطمئن إلا بذكره. وقال ابن القيم: هذا لا يتأتى بشيء سوى الله - تعالى - وذكره البتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه غرور والثقة به عجز، قضى الله - سبحانه - وتعالى - قضاء لا مرد له أن من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائناً من كان، ليعلم عباده وأوليائه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع.

* قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧].

قال ابن كثير: وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة الحمديدية، على من جاء بها - أفضل الصلاة والسلام -.

* قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ [الرعد: ٣٦].

ومن بلاغة الجدل القرآني أنه لم يأت بذلك من أول الكلام؛ بل أتى به متدرجاً فيه، فقال: ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ لأنه لا يَنَازَع في ذلك أحد من أهل الكتاب، ولا المشركين، ثم جاء بعده ﴿وَلَا أُشْرِكْ بِهِ﴾ لإبطال إشراك المشركين، وللتعريض بإبطال إلهية عيسى - عليه السلام - .

سورة إبراهيم ١٤

سميت السورة الكريمة «سورة إبراهيم» تخليداً لماثر أب الأنبياء، وإمام الحنفاء إبراهيم - عليه السلام -، الذي حطم الأصنام، وحمل راية التوحيد، وجاء بالحنيفية السمحة ودين الإسلام الذي بعث به خاتم المرسلين، وقد ذكرت الآيات دعواته المباركات بعد انتهائه من بناء البيت العتيق، وكلها دعوات إلى الإيمان والتوحيد.

وتناولت السورة الكريمة موضوع العقيدة في أصولها الكبيرة: الإيمان بالله، الإيمان بالرسالة، الإيمان بالبعث والجزاء. وقد تناولت دعوة الرسل الكرام بشيء من التفصيل، وبينت وظيفة الرسول، ووضحت معنى وحدة الرسالات السماوية، فالأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين -، جاؤوا لتشيد صرح الإيمان، وتعريف الناس بالإله الحق الذي تعنوا له الوجوه، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، فدعوتهم واحدة، وهدفهم واحد، وإن كان بينهم اختلاف في الفروع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: قصة إبراهيم في علم الأقوال النافعة عند الحاجة إليها، وقصة يوسف في علم الأفعال النافعة عند الحاجة إليها.

* قال - تعالى - في مطلع السورة: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -: في ذكر ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بعد ذكر الصراط الموصل إليه، إشارة إلى أن من سلكه فهو عزيز بعز الله، قوي ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة.

❖ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

نزول القرآن بلسان عربي إيذان بأن الله - جل جلاله - سيحرس اللغة العربية ويحفظها إلى يوم القيامة، ويرد عن حماها كيد كل متآمر حقود على القرآن والإسلام، وهذا ما أثبتته الأحداث عبر القرون المتابعة، فقد انقرضت لغات رغم حرص أهلها عليها، وبقيت اللغة العربية رغم تفريط أهلها.

❖ قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَإِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَإِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

قال البقاعي: ﴿لَإِنْ شَكَرْتُمْ﴾ وأكدته لما للأنفس من التكذيب بمثل ذلك..
﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ من نعمي، فإن الشكر قيد الموجود، وصيد المفقود.
قال العلماء: من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقلها.

❖ قال - تعالى - واصفاً حال الكفار:

﴿مَنْ وَرَايَهُ جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٦ - ١٧].

يتغصصه ويتكرهه، أي يشربه قهراً وقسراً لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَقْعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحج: ٢١].

❖ قال - تعالى - في وصف أعمال الكفار:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَ لُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨].

في تشبيهها بالرماد سر بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم، وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير

الله، وعلى غير مراده طعمة للنار، وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ الله - سبحانه - لهم من أعمالهم الباطنة ناراً وعذاباً. فهُمْ وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار.

* وينتقل السياق إلى مشاهد القيامة وما فيها من الأهوال حين تتزلزل القلوب والأقدام، وفيه تسلية للمظلوم، وتهديد ووعيد شديد للظالم.
قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم ٢١].

من اللطائف البلاغية في الآيات: تنوع الأساليب فيها على حسب أصحابها، فالضعفاء في أسلوبهم إنكسار كما كان حالهم من المذلة في الدنيا، والجملة التي يقولونها تعكس ذلك الانكسار: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أما الذين استكبروا ففي أسلوبهم ضيق وسامة كما كان فيهم أيام الحياة ضيق وسامة، واستمع إلى الجملة التي يقولونها طافحة بذلك الضيق: ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما -، أن النبي ﷺ تلا قول الله - عز وجل - في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنِّنَّ أَضَلَّلَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآية، وقوله في عيسى - عليه السلام -: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي! وبكى، فقال الله - عز وجل -: يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل - عليه السلام - فسأله، فأخبر رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك».

* قال تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلاَءَ﴾ [إبراهيم: ٣١].

قال قتادة: فلينظر رجل من يخال؟ وعلام يصاحب؟ فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فليعلم أن كل خلة ستصير على أهلها عداوة يوم القيامة إلا خلة المتقين: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

* قال تعالى: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْآمَثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

قال البغوي: والحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة: هي أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق القلب، وقول اللسان، وعمل بالأبدان.

* قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].
في الآية دلالة على أن الطاعة سبب لتثبيت الله لعبده في الدنيا والآخرة.

* قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

كان الحسن يردد هذه في ليلة فليل له في ذلك؟! فقال: إن فيها لمعتراً، ما نرفع طرفاً ولا نرده إلا وقع على نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر.

* ذكر - تعالى - في السورة قصة إبراهيم - عليه السلام -، لما أتى بهاجر أم إسماعيل وبابنها إسماعيل - عليه الصلاة والسلام -، وهو في الرضاع من الشام، حتى وضعهما في مكة، وهي - إذ ذاك - ليس فيها سكن، ولا داع ولا مجيب، فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء، فقال متضرعاً متوكلاً على ربه:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ .

أي: يا ربنا إني أسكنت من أهلي وبعض أولادي - ولدي إسماعيل وزوجي هاجر -؛ لأن إسحاق في الشام، وباقي بنيك كذلك، وإنما أسكن في

مكة إسماعيل وذريته، بوادٍ ليس فيه زرع، وهو وادي مكة شرفها الله - تعالى -؛ لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة، في جوار بيتك المحرم.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ .

لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية، فمن أقامها كان مقيماً لدينه، وهكذا رحل إبراهيم بأهله من الماء الوفير والزرع والثمار في الشام إلى وادٍ غير ذي زرع للعبادة وطاعة الرحمن . وكرر النداء رغبة في الإجابة وإظهار للتذلل والالتجاء إلى الله - تعالى - .

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ .

أي: يا ربنا لكي يعبدوك ويسيئوا الصلاة أسكتهم بهذا الوادي . فاجعل قلوب الناس تحن وتسرع إليهم .

قال ابن عباس: لو قال: «أفئدة الناس» لآذحت عليه فارس والروم والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ فهم المسلمون؛ فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيل محمداً ﷺ، حتى دعا ذريته إلى الإسلام، وإلى ملة أبيهم إبراهيم، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة، وافترض الله حج هذا البيت الذي أسكن به ذرية إبراهيم، وجعل فيه سرّاً عجيباً جاذباً للقلوب، فهي تحججه، ولا تقضي منه وطراً على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه، وعظم ولعه وتوقه، وهذا سر إضافته - تعالى - إلى نفسه المقدسة .

قال تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] .

قال السدي: خذ بقلوب الناس إليهم، فإنه حيث يهوي القلب يذهب الجسد، فلذلك ليس من مؤمن إلا وقلبه معلق بحب الكعبة .

﴿وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٣٨) .

وارزقهم في ذلك الوادي القفر من أنواع الثمار ليذكروك على جزيل نعمك، وقد استجاب الله دعاءه فجعل مكة حرماً آمناً يجبي إليها ثمرات

كل شيء رزقاً من عند الله، فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت، والثمار فيها متوافرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب على مر الأزمنة والعصور.

✽ قال - تعالى - على لسان إبراهيم - عليه السلام - : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ .

أي: الحمد لله الذي رزقني على كبر سني وشيخوختي إسماعيل وإسحاق.

قال ابن عباس: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة؛ فهبتهم من أكبر النعم، وكونهم على الكبر في حال الإياس من الأولاد، نعمة أخرى، وكونهم أنبياء وصالحين، أجل وأفضل.

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ .

أي: مجيب لدعاء من دعاه، وقد دعوته، فلم يخيب رجائي.

قال ابن تيمية: وأما قول إبراهيم - عليه السلام - ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ فالمراد بالسمع - ها هنا - السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول، لا السمع العام؛ لأنه سميع لكل مسموع.

ثم دعا إبراهيم - عليه السلام - لنفسه وذريته:

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ .

هذه هي الدعوة السادسة من دعوات الخليل - عليه السلام -، أي: يا رب اجعلني ممن حافظ على الصلاة، واجعل من ذريتي من يقيمها أيضاً، وهذه خير دعوة يدعوها المؤمن لأولاده، فلا أحب له من أن يكون مقيماً للصلاة هو وذريته لأنها عماد الدين.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ .

أي: تقبل واستجب دعائي فيما دعوتك به.

﴿رَبَّنَا آغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ .

هذه هي الدعوة السابعة، وبها ختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بالاستغفار له ولوالديه ولجميع المؤمنين، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

قال المفسرون: استغفر لوالديه قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله، ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة؛ لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه.

* ثم تأت الآيات تصف مشهد القيامة الم هول والموقف العظيم حيث تبدي حال الكفار في أسوأ حال، وأشد نكال، قال تعالى:

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٥١﴾ .

وفي ذلك اليوم الرهيب تبصر المجرمين الذين وصفهم الإجماع وكثرة الذنوب مشدودين مع شياطينهم بالقيود والأغلال، مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد وهي الأغلال والسلاسل.

﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطَرَانٍ ٥٢﴾ .

أي: ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهي مادة يسرع فيها اشتعال النار، تصلى بها الإبل الجرب، فيحرق الجرب بحره جلده. - وله أربع خصائص: حار على الجلد، وسريع الاشتعال في النار، ومنتن الريح، وأسود اللون، تطلّى به أجسامهم حتى تكون كالسرايل! ثم تذكر - أبارك الله من عذابه - أن التفاوت بين قطران الدنيا وقطران الآخرة، كالتفاوت بين نار الدنيا ونار الآخرة!

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ٥٣﴾ .

أي: تملوها وتحيط بها النار، جزاء المكر والاستكبار. والوجوه هي أشرف ما في أبدانهم، وفيها الحواس المدركة، وإنما هذا عدل من الله - عز وجل - جزاء ما قدموا وكسبوا، ولهذا قال:

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ٥٤ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٥٥﴾ .

أي: برزوا يوم القيامة لأحكام الحاكمين ليجازيهم الله على أعمالهم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، عدل لا جور فيه بوجه من الوجوه. لا يشغله شأن عن شأن، يحاسب جميع الخلق في أعجل ما يكون من الزمان، في مقدار نصف نهار من أيام الدنيا كما ورد به الأثر، يحاسب الخلق في

ساعة واحدة، كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة.

* ثم قال - تعالى - عن حال الأرض وما يجري في ذلك اليوم العظيم:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

قالت عائشة - رضي الله عنها - لرسول الله ﷺ فأين يكون الناس

يومئذ؟ فقال: «على الصراط» [رواه مسلم].

* ثم تنتقل الآيات إلى ذكر قصة موسى وما جرى له مع سحرة

فرعون: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ خَنُ الْمُلُكِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥ - ١١٦].

قال ابن كثير: الحكمة في طلب موسى أن يبدأ السحرة بسحرهم؛ لأن

موسى أراد أن تكون البداءة منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق

بعده فيدمغ باطلهم.

سورة الحجر ١٥

سورة الحجر من السور المكية، التي تدعوا إلى التوحيد والعقيدة، والنبوة، والبعث والجزاء، ومحور السورة يدور حول مصارع الطغاة والمكذبين لرسل الله في شتى الأزمان والعصور، ولهذا ابتدأت السورة بالإنذار، والتهديد، ملفعاً بظل من التهويل والوعيد.

عرضت السورة لدعوة الأنبياء، وبينت موقف أهل الشقاوة والضلالة من الرسل الكرام، فما من نبي إلا سخر منه قومه الضالون، من لدن بعثة شيخ الأنبياء نوح - عليه السلام - إلى بعثة خاتم المرسلين، وقد بينت السورة أن هذه سنة المكذبين، في كل زمان وحين.

سميت السورة الكريمة «سورة الحجر» لأن الله - تعالى - ذكر ما حدث لقوم صالح، وهم قبيلة ثمود - وديارهم في الحجر بين المدينة والشام - فقد كانوا أشداء ينحتون الجبال ليسكنوها، وكأنهم مخلدون في هذه الحياة، لا يعترهم موت ولا فناء، فبينما هم آمنون مطمئنون جاءتهم صيحة العذاب في وقت الصباح: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [٨٣] ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٨٤] [الحجر: ٨٣ - ٨٤].

وهناك في القرآن خمس سور بدأت بـ ﴿الرَّ﴾ وهي: يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر.

* قال تعالى في أول السورة: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [١].

* ثم قال - تعالى - عن الكفار:

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

قال بعض أهل العلم ﴿ذَرَهُمْ﴾ تهديد، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديد آخر، فمتى يهنا العيش بين تهديدين؟
 * ثم قال - تعالى - عن القرآن العظيم:
 ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

يستعمل الحق - جل جلاله - أساليب المتلاحقة، فهنا كلمات فيها خمسة أساليب من أساليب التوكيد: ف ﴿إِنَّا﴾ تفيد التوكيد، و ﴿نَحْنُ﴾ يعرب توكيداً لفظياً، و ﴿نَزَّلْنَا﴾ أسلوب توكيد، وكلمة ﴿إِنَّا﴾ الثانية توكيد، لأن وزن فعل يفيد التوكيد، وفي تقديم كلمة ﴿لَهُ﴾ توكيد، واللام في ﴿لَحَافِظُونَ﴾ مؤكدة.

والمعنى: ونحن الحافظون لهذا القرآن، في حال إنزاله من استراق كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله واستودعه فيه، ثم في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل.

ومن حفظه، أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط عليهم عدواً يجتاحهم.

قال المفسرون: تكفل الله بحفظ هذا القرآن، فلم يقدر أحد على الزيادة فيها ولا النقصان، ولا على التبديل والتغيير كما جرى في غيره من الكتب فإن حفظها موكول إلى أهلها، لقوله تعالى: ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] وانظر الفرق بين هذه الآية ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ حيث ضمن حفظه وبين الآية السابقة حيث وكل حفظه إلى الربانيين والأخبار فبدلوا وغيروا.

وقد صدق الله - جل جلاله - وعده بحفظ القرآن رغم كيد الإعداء في كل زمان ومكان عبر عصور التاريخ المختلفة.

* قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١].

قال ابن القيم: تدبر قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ فهو متضمن لكثرة الكنوز، وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيده، وإن طلب من غيره طلب ممن ليس عنده، ولا يقدر عليه.

* ولما ذكر - تعالى - حال الأشقياء من أهل الجحيم وما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال والعذاب الشديد، أعقبهم بذكر حال السعداء من أهل النعيم، وما أعد لأوليائه من الفضل العظيم، والنعيم المقيم، فقال:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ آدَخُلُوهَا بِسَلَامٍ ؕ آمِنِينَ ۝١١﴾.

إن الذين اتقوا طاعة الشيطان، وما يدعوهم إليه من الفواحش والشرك، لهم في الآخرة البساتين الناضرة، والعيون المتفجرة بالماء والسلسبيل والخمر والعسل، ويقال لهم حال دخولها: ادخلوا الجنة سالمين من كل الآفات، آمين من الموت، ومن زوال هذا النعيم الذي هم فيه، أو نقصانه، ومن المرض والحزن، والهم وسائر المكدرات.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ أي: أزلنا ما في قلوب أهل الجنة من الحقد والعداوة، والبغضاء والشحناء، فتبقي قلوبهم سالمة من كل غل وحسد، متصافية متحابية.

﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۝١٢﴾.

أي: حال كونهم إخوة متحابين لا يكدر صفوهم شيء، على سرر متقابلين وجهاً لوجه، دل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن أدبهم فيما بينهم، في كون كل منهم مقابلاً للآخر لا مستدبراً له؛ تواصلًا وتحابياً، زيادة في الأُنس والإكرام؛ متكئين على تلك السرر المزينة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر.

قال ابن عباس: على سرر من ذهب مكللة بالدر والياقوت والزبرجد.
والآية أخبرت عن تلاقي قلوبهم وتلاقي وجوههم، وفي الصحيحين:
«أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم - عليه السلام -، ستون ذراعاً
في السماء» [رواه البخاري].

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (١١).

أي: لا يصيبهم في الجنة إعياء وتعب، ولا مشقة وأذى، لا ظاهراً ولا
باطناً؛ وذلك لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة، لا تقبل شيئاً من الآفات،
ولا يخرجون منها ولا يردون، نعيمهم خالد، وبقاؤهم دائم، لأنها دار
الصفوة والسرور.

وفي هذا الخلود الدائم، وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم.
- ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرغبة من مفعولات الله من الجنة والنار،
ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه - تعالى -، فقال:

﴿بَنَىٰ عِبَادِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ
الْأَلِيمُ (١٣).

أي: أخبر - يا محمد - عبادي المؤمنين خبراً جازماً مؤيداً بالأدلة،
بأنني واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب، فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته
ومغفرته سعوا في الأسباب الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب
وتابوا منها، لينالوا مغفرته، ومع هذا فلا ينبغي أن يتمادي بهم الرجاء
إلى حال الأمن والإدلال، فنبئهم بما يتضمن التخويف والتحذير حتى
يجتمع الرجاء والخوف. وأخبرهم أن عذابي شديد لمن أصر على المعاصي
والذنوب.

قال أبو حيان: وجاء قوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ في غاية اللطف إذ لم يقل على
وجه المقابلة (وإني المعذب المؤلم) وكل ذلك ترجيح لجهة العفو والرحمة،
وفي هذا تحذير وإبعاد عن كل سبب يوجب لهم العقاب، فالعبد ينبغي

أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء، والرغبة والرغبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرغبة والإقلاع عنها، روي أن النبي ﷺ خرج على الصحابة وهم يضحكون، فقال: «أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنار؟ فشق ذلك عليهم فنزلت: ﴿نَبِيَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١١) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (١٢)».

وقال في سورة المائدة: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٨) [المائدة: ٩٨].

قال الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله -: فلما أمر أن ينبيء بدأ بالمغفرة، ولما أخبر عن نفسه بدأ بالعقوبة، لأن المقام مقام سلطان وعلو. * قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٢) [الحجر: ٧٢].

أكثر المفسرين أن هذا قسم من الله بحياة رسوله ﷺ، وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب - عز وجل - بحياته، وهذه مزية لا تعرف لغيره. * قال - تعالى - عن قوم لوط: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن سِجَالٍ﴾ (٧٤) [الحجر: ٧٤].

هذا من المناسبة بوضوح، فإنهم لما انقلبوا عن الحقيقة والفطرة، ونزلوا إلى أسفل الأخلاق جعل الله أعالي قريتهم سافلها.

* قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَفْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلِّقُ الْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) [الحجر: ٨٥ - ٨٧].

قال الرازي: إنه - تعالى - لما صبره أذى قومه وأمره بأن يصفح الصفح الجميل، أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التي خصه بها، لأن الإنسان إذا تذكر نعم الله عليه، سهل عليه الصفح والتجاوز.

* قال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

قال القرطبي: ألن جانبك لمن آمن بك، وتواضع لهم، وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه: بسط جناحه، ثم قبضه على الفرخ، فجعل ذلك وصفاً لتقريب الإنسان أتباعه.

* قال تعالى: ﴿فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

قال السعدي: دون الصّفح الذي ليس بجميل، وهو الصّفح في غير محله، فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة، كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة.

* قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ

عَلَيْهِمْ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾.

أي: لا تنظر إلى ما متعناهم به في الدنيا، كأنه يقول: قد آتيناك السبع المثاني، والقرآن العظيم، فلا تنظر إلى الدنيا فإن الذي أعطيناك أعظم منها.

قال بعض العلماء: من أعطاه الله - جل وعلا - فهم القرآن، ثم ظن مع ذلك أن أحداً من أهل الدنيا أعطي أكثر مما أعطي فقد عظم صغيراً وصغر عظيمًا، لأن الله قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]. ثم قال: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾.

* قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٨].

قال السعدي - رحمه الله -: وفعل - تعالى -، فإنه ماتظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به، إلا أهلكه الله، وقتله شر قتلة.

* قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

كان عمر بن عبد العزيز يقول: ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت، ثم لا يستعدون له، يعني كأنهم فيه شاكون.

سورة النحل ١٦

سورة النحل من السور المكية، سميت هذه السورة الكريمة «سورة النحل» لاشتغالها على تلك العبرة البليغة التي تشير إلى عجب صنع الخالق، وتدل على الألوهية بهذا الصنع العجيب. وتسمى سورة النعم، فقد ذكر الله في هذه السورة إنعامه على عباده، فإن الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : فذكر في أولها أصول النعم التي لا بد منها ولا تقوم الحياة إلا بها، وذكر في أثنائها تمام النعم. فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق، ليستدل بها العباد على عظمة خالقهما، وما له من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما مسكناً لعباده الذين يعبدونه، فقد خلق في ذلك العالم الفسيح السموات والأرض، والبحار والجبال، والسهول والوديان، والماء الهاطل، والنبات النامي، والفلك التي تجري في البحر، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل، إلى آخر تلك المشاهد التي يراها الإنسان في حياته، ويدركها بسمعه وبصره، وهي صور حية مشاهدة، دالة على وحدانية الله - جل وعلا -، وناطقة بآثار قدرته التي أبدع بها الكائنات.

وقد افتتحت سورة النحل بالنهي عن الاستعجال واختتمت بالأمر بالصبر. وافتتحت سورة الإسراء بالتسبيح واختتمت بالتحميد.

* قال تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

* قال - تعالى - في تعداد بعض النعم: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْتَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٥ - ٧].

قيل قدم الإراحة - وهو وقت ردها من المراعي بالعشي - على التسريح - وهو وقت مسيرها إلى مرعاها بالغداة، لأن الجمال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وخص هذين الوقتين لأنهما وقت نظر الناظرين إليها.

❖ قال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨].

قال السعدي: أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل؛ لأن البغال والحمر محرم أكلها، والخيول لا تستعمل في الغالب للأكل.

❖ لما ذكر - عز وجل - النعم. قال:

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

[النحل: ٩].

قال ابن كثير - رحمه الله -: لما ذكر - تعالى - من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية. كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

❖ ثم عدد - سبحانه - نعم البحر التي خلقها لعباده وأوجدها، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

❖ [النحل: ١٤ - ١٨٨].

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ﴾.

وترى السفن العظيمة والمراكب تشق عباب البحر جارية فيه، وهي تحمل الأمتعة والأقوات من قطر إلى قطر.

قال قتادة: مقبلة ومدبرة وهو أنك ترى سفيتين إحداهما تقبل، والأخرى تدبر، تجريان بريح واحدة.

* قال - تعالى - في سورة النحل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

وقال - تعالى - في سورة إبراهيم: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

في سورة إبراهيم جاءت الآية في سياق وعيد وتهديد، عقب قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله.

وأما آية النحل: جاء خطاباً للفريقين، كما كانت النعم المعدودة عليهم منتفعا بها كلاهما.

ثم كان من اللطائف أن قبل الوصفان اللذان في آية سورة إبراهيم ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ بوصفين هنا ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إشارة إلى أن تلك النعم سبب لظلم الإنسان وكفره، وهي سبب لغفران الله ورحمته، والأمر في ذلك منوط بعمل الإنسان.

فنعمة الهداية أعظم وأجل، ونعمة الإعانة والتوفيق لأداء العبادات من فضله وجوده، ونعمة الأمن والذرية وسعة الصدر وانشراحه من نعمه المتتالية. وإن نظرت يمناً أو يسرة لوجدت نعماً: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

* ولما استدل - سبحانه - على وجوده وكمال قدرته وبديع صنعته بعجائب أحوال الحيوانات، أراد أن يذكر الاستدلال على المطلوب بإنزال المطر وبغرائب أحوال النبات، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۚ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

أي: إن في إنزال الماء، وإخراج الثمار لدلالة واضحة على قدرة الله ووحدانيته وكمال قدرته، لقوم يتدبرون في صنعه ويستدلون بها عليه فيؤمنون .

وقد: ختم الآية بقوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

لأن النظر في ذلك يحتاج إلى فضل تأمل واستعمال فكره، ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وضعت في الأرض ومر عليها زمن معين لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به فيشق أعلاها فتصعد منه شجرة إلى الهواء، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرة أخرى وهي العروق، ثم ينمو الأعلى ويقوى وتخرج الأوراق والأزهار، والأكمام والثمار، المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والألوان والأشكال والمنافع، وذلك بتقدير قادر مختار، وهو الله - تعالى - .

* ثم بدأ يعدد نعماً أخرى أنعم بها على عباده لمنافعهم وأنواع مصالحهم، بحيث لا يستغنون عنها أبداً، فقال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۚ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ . وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ .

جمع - سبحانه - لعباده في هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية والسموية والبحرية، فأرشدهم إلى النظر والاستدلال بالآيات المتنوعة المختلفة الأمكنة إتماماً للحجة، وتكميلاً للإنذار، وتوضيحاً لمنازع الاستدلال ومناطات البرهان .

ولما ذكر - تعالى - ما خلقه من المخلوقات العظيمة، وما أنعم به من النعم العظيمة، ذكر أنه لا يشبهه أحد، ولا كفاء له، ولا ند له . فقال:

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۚ أَفَلَا تَذْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٧] .

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ .

إن تحاولوا حصر نعم الله عليكم عدداً مجرداً عن الشكر لا تضبطوا عددها، لكثرتها وتنوعها، فضلاً عن أن تطبقوا شكرها، فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات، من جميع أصناف النعم، مما يعرف العباد ومما لا يعرفون، وما يدفع عنهم من النقم فأكثر من أن تحصى، فالعباد عاجزون عن عد نعم الله - عز وجل - فضلاً عن القيام بواجب شكرها، وكان الحسن البصري - رحمه الله - يقول: من لم ير لله عليه نعمة في غير مطعم أو مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه.

وكان - رحمه الله - يردد في ليلة قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم ٣٤، النحل: ١٨]، فقيل له في ذلك، فقال: إن فيها لمعتراً، مانرفع طرفاً ولا نرده إلا وقع على نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر.

وما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذي لا يلتبس على إنسان مشيراً إلى عظيم غفرانه، وسعة رحمته، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

أي: غفور لما صدر منكم من تقصير في أداء شكر النعمة، رحيم بالعباد حيث ينعم عليهم ولا يقطعها عنهم مع تقصيرهم وعصيانهم، ولهذا فهو - سبحانه - يرضى من عباده اليسير من الشكر، مع إنعامه الكثير.

* قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧].

وفي هذه فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه.

* قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٢٣٠].

تكرر هذا المعنى في هذه السورة دون غيرها في أربعة مواضع لسر بديع، فإنها سورة النعم التي عدد الله - سبحانه - فيها أصول النعم وفروعها، فعرف عباده أن لهم عنده في الآخرة من النعم أضعاف هذه بما لا يدرك تفاوته، وإن هذه من بعض نعمه العاجلة عليهم، وأنهم إن أطاعوه زادهم إلى هذه النعم نعماً أخرى، ثم في الآخرة يوفيهم أجور أعمالهم تمام التوفية.

* قال تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ نَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١].

وذكر بعضهم أن تقديم ﴿فِيهَا﴾ للحصر و﴿مَا﴾ للعموم بقرينة المقام فيفيد أن الإنسان لا يجد جميع ما يريده إلا في الجنة فتأمله.

* قال تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - : الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحداً شيء من الخير إلا لعدم صبره، وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.

* قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ

تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢].

له - جل وعلا - الطاعة والذل والخضوع دائماً؛ لأنه لا يضعف سلطانه، ولا يعزل عن سلطانه، ولا يموت، ولا يغلب، ولا يتغير له حال بخلاف ملوك الدنيا، فإن الواحد منهم يكون مطاعاً، ثم بعد برهة من الزمن يعزل أو يموت.

* قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّىِّ ۚ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

العزیز: في ملكه الذي قهر جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها.

الحكيم: في تدبيره الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يأمر ولا يفعل إلا ما يحمد عليه، ويثنى على كماله فيه.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لو عاجل الخلق بالعقوبة لأهلك جميع من في الأرض. ولكنه حلیم لا يعجل بالعقوبة، لأن العجلة من شأن من يخاف فوات الفرصة، ورب السماوات والأرض لا يفوته شيء أراد.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: ٦٥].

أي: سماع تدبر وإنصاف ونظر؛ لأن سماع القلوب هو النافع، لا سماع الأذان، فمن سمع آيات القرآن بقلبه، وتدبرها وتفكر فيها؛ انتفع ومن لم يسمع بقلبه كأنه أصم لم يسمع؛ فلن ينتفع بالآيات.

* قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ .

أي: ألهم ربك - يا محمد - النحل إلى مصالحها وأرشدتها إلى بناء بيوتها المسدسة العجيبة، تأوي إليه في ثلاثة أمكنة: الجبال، والشجر، وفيما يبني الناس من البيوت والسقف.

قال ابن القيم: تأمل كما طاعة النحل لربها، فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة البتة، فالإنسان أولى بالطاعة لربه.

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ .

أي: ابني البيوت، ثم كلي من كل الأزهار والثمار التي تشتهينها من الحلو والمر، والحامض، فإن الله بقدرته يحيلها إلى عسل.

﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا﴾ .

أي: ادخلي الطرق في طلب الرزق حال كونها مسخرة لك في الجبال وخلال الشجر، لا تضلين في الذهاب أو الإياب، حيث يسر الله لها المراعي وإن بعدت.

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ .

أي: كل هذه الأشربة يتجلى فيها إعجاز الصنعة، لأنها تخرج من أماكن لا يتصور خروجها منها كتزول الماء من السماء بعد برق شديد الحرارة، وخروج اللبن عذبا سائغا من بين فرث ودم، وخروج العصير حلوا من تراب الأرض، وخروج العسل شافيا شهدا من حشرة، مع أن معظم الحشرات ضارة.

وفي الآية ذكر - تعالى - أنه يخرج من بطون النحل عسلا لذيذا مختلف الألوان، منه أحمر، وأبيض، وأصفر، بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من الأمراض، فهذا دليل على كمال عناية الله - تعالى -، وتما لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يعبد غيره ويدعى سواه.

قال بعض المفسرين: فإن قالوا كيف يكون شفاء للناس وهو يضر بالصفراء؟ فالجواب: أنه - تعالى - لم يقل: إنه شفاء لكل الناس، ولكل داء، وفي كل حال، بل لما كان شفاء للبعض ومن بعض الأدوية صلح بأن يوصف بأن فيه شفاء.

وفي الآية تعديدا للنعم، وتعجيبا لكل سامع، وتنبها على الغير، وإرشادا إلى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الشبيه بالذباب.

روي أن عوف بن مالك الأشجعي مرض فقيل له : ألا نعالجك ؟ فقال :
 ائتوني بالماء ، فإن الله - تعالى - يقول : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا ﴾
 [ق: ٩] ثم قال : ائتوني بعسل ، فإن الله - تعالى - يقول : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾
 وائتوني بزيت ، فإن الله - تعالى - يقول : ﴿ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ ﴾ [النور: ٣٥]
 فجاءوه بذلك كله فخلطه جميعاً ثم شربه فبرئ .

* قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي آلَاءِنَا لَعِبْرَةً نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ
 وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٩] .

قال ابن كثير : لا يغص به أحد فسبحان الخالق العظيم .
 وجزم القرطبي - رحمه الله - أنه لم يشرق أحد باللبن رغم إمكان الشرق
 بالماء : لأن الله - تعالى - وهو أصدق القائلين يقول : ﴿ سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ .

* قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا
 حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ٦٧] .
 قال ابن عباس في قوله : ﴿ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ قال : السكر : ما حرم
 من ثمرتيهما ، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما .
 ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

ناسب ذكر العقل هاهنا ، فإنه أشرف ما في الإنسان ؛ ولهذا حرم الله
 على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها .

* قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ
 لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النحل: ٧٠] .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : من قرأ القرآن لم يرد إلى
 أَرْدَلِ الْعُمُرِ ، وذلك قوله : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 [التين: ٥ - ٦] ، قال : إلا الذين قرأوا القرآن [رواه الحاكم] .

* ومن النعم التي امتن الله - عز وجل - بها على عباده الأزواج والذرية، فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾

[النحل: ٧٢].

قال الشنقيطي في أضواء البيان: ومعلوم أن أولاد الرجل، وأولاد أولاده من خدمه المسرعين في خدمته عادة.

* قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ

لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

أي: خلق لكم الحواس التي بها تسمعون وتبصرون وتعقلون لتشكروه على نعمه وتحمدوه على آلائه، وتفردونه - عز وجل - بالعبادة، وخص هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها وفضلها، ولأنها مفتاح كل علم، فلا وصل للبعد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة، وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاكم إياها لأجل أن تشكروه باستعمالها في طاعته، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه، وقابل النعمة بأقبح المقابلة.

وقدم السمع على البصر؛ لأن أكثر ما ينسب الناس أقولهم إلى السمع، ولأن إدراك السمع أعظم وأشمل من إدراك البصر، وذلك أن البصر إنما يدرك به ما كان في مواجهته خاصة، أما السمع فيدرك به جميع المسموعات التي تطرقه من جميع الجهات، وأيضاً فإن البصر - لا يدرك به إلا الأجسام والأجرام، بخلاف السمع، فإن العبد يدرك به الأمور الحاضرة والغائبة مما أخبر عنه.

* ثم يذكر - تعالى - لعباده بعض نعمه وآلائه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها، فقال:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠].

وقال في الآية بعدها: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : جمع الله في آيات النحل بين المساكن والملابس؛ لأن المساكن من جنس الملابس، كلاهما جعل في الأصل للوقاية ودفع الضرر، كما جعل الأكل والشرب لجلب المنفعة، فاللباس يتقي الإنسان به الحر والبرد، ويتقي به سلاح العدو، وكذلك المساكن يتقي بها الحر والبرد ويتقي بها العدو.

* ولما ذكر - سبحانه - بيوت المدن، وهي التي للإقامة الطويلة، عقبها بذكر بيوت البادية والرحلة، فقال:

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾. أي: وجعل لكم بيوتاً أخرى في سفركم، وهي الخيام والقباب المتخذة من الشعر والصوف والوبر. يخف عليكم حملها ونقلها في أسفاركم، وهي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر.

﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ﴾.

أي: وجعل لكم من صوف الغنم، ووبر الإبل، وشعر المعز، ما تلبسون وتفرشون به بيوتكم، وهذا شامل لكل ما يتخذ منها، من الأنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة وغير ذلك. تنتفعون وتمتعون بها في الدنيا إلى حين الموت.

ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيام، أو أبنية يستظل بها لفقر، أو لعارض آخر فيحتاج إلى غيرها، نبه - سبحانه - على ذلك، فقال:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾.

أي: جعل لكم من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها من الشجر والجبال والأبنية وغيرها ظلالاً تتقون بها حرَّ الشمس، وجعل لكم في الجبال

مواضع تسكنون فيها كالكهوف والمغارات والحصون، تقيكم البرد والحر والأمطار والأعداء، ولما كانت بلاد العرب شديدة الحر، وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة، فلهذا ذكر - تعالى - هذه المعاني في معرض النعمة العظيمة.

﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾.

أي: جعل لكم الثياب من القطن والصوف والكتان لتحفظكم من الحر، ولم يذكر الله البرد؛ لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم، وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم، فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله ﴿وَسَرَائِلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ﴾.

وقيل خص الحر ولم يذكر البرد اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر؛ لأن ما وقى من الحر وقى من البرد. فكل منهما وقاية من الأذى الذي يكون سموماً مؤذياً كالحر والشمس والبرد، وما يكون من بني آدم من النظر بالعين واليد وغير ذلك.

وجعل لكم من الحديد دروعاً تشبه الثياب، تتقون بها شر وأذى أعدائكم في الحرب.

﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: مثل ما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر؛ فإنه يتم نعمة الدنيا والدين عليكم ببيان الصراط المستقيم.

وقد ذكر - تعالى - في أول السورة أصول النعم، وذكر هنا ما يدفع البرد فإنه من المهلكات، وذكر في أثنائها تمام النعمة، وما يدفع الحر فإنه من المؤذيات.

* قال - تعالى - في الآية الأخرى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ

قال مسروق - رحمه الله - : ما نسأل أصحاب محمد عن شيء إلا علمه في القرآن، إلا أن علمنا يقصر عنه.

* قال تعالى: ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

كثير من الناس لا ينصرف ذهنه عند قراءة هذه الآية إلا للمال أو الطعام ونحوه، والحق أنها تشمل السمع والبصر ومسائر ما عند العباد من أمور حسية ومعنوية.

* قال - تعالى - موصياً عباده:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

قال الفيروز أبادي: الإحسان فوق العدل، وذلك أن العدل هو أن يعطي ما عليه ويأخذ ما له، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد عليه، فتحري العدل واجب، وتحري الإحسان ندب وتطوع، ولذلك عظم الله ثواب أهل الإحسان.

قال القرطبي: إنما خص ذا القربى لأن حقوقهم أوكد، وصلتهم أوجب. لتأكد حق الرحم التي اشتق الله اسمها من اسمه وجعل صلتها من صلته.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

وقرأ الحسن هذه الآية ثم قال: إن الله - عز وجل - جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلا جمعه.

وقال ابن مسعود - رضي الله عنه - : إن أجمع آية في القرآن لخير أو

لشر، آية في سورة النحل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ ﴾ .

قال ابن عاشور: وخص الله بالذكر من جنس أنواع العدل والإحسان نوعاً مهماً يكثر أن يغفل الناس عنه، ويتهاونوا بحقه، أو بفضله، وهو أيتاء ذي القربى فقد تقرر في نفوس الناس الاعتناء باجتلاب الأبعد، واتقاء شره، كما تقرر في نفوسهم الغفلة عن القريب والاطمئنان من جانبه وتعود التساهل في حقوقه.

✽ قال تعالى: ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ۖ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٦].

روي أن لحفصة بنت سيرين ابن عظيم البر بها، فمات، فقالت حفصة: لقد رزق الله عليه من الصبر ما شاء أن يرزق، غير أنني كنت أجد غصة لا تذهب، قالت: فيينا أنا ذات ليلة أقرأ سورة النحل، إذ أتيت على هذه الآية: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٩٥] مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: ٩٥ - ٩٦] قالت: فأعدتها، فأذهب الله ما كنت أجد.

✽ قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

قال ابن تيمية: ربط السعادة مع إصلاح العمل.

✽ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠].

قال ابن تيمية: يدخل في معناها كل من فتنه الشيطان عن دينه، أو أوقعه في معصيته، ثم هجر السيئات وجاهد نفسه وغيرها من العدو، وجاهد المنافقين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك وصبر على ما أصابه من قول أو فعل.

* لما ذكر - تعالى - حال من كفر بلسانه، وحال من كفر بلسانه وجنانه، ذكر هنا الجزاء العادل الذي يلقاه الجاحدون، وما أعدّه من العقاب العاجل في الدنيا لبعض المكذبين، قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٣].

أي: سلبهم الله نعمة الأمن والاطمئنان، وأذاقهم آلام الخوف والجوع والحرمان، بسبب كفرهم ومعاصيهم وعدم شكرهم، وهذا مثل أهل مكة؛ لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخصب، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد ﷺ فكفروا به، وبالغوا في إيذائه، فعذبهم الله بالقحط والجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام. وفي إضافة اللباس إلى الجوع والخوف سر لطيف، تشعر وكأن ذلك ملازم للإنسان ملازمة اللباس للباسه.

قال القرطبي: سمي الجوع والخوف لباساً لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس. وقد تقدم الأمن في الآية على الطمأنينة، فالطمأنينة لا تحصل بدون الأمن، كما أن الخوف يسبب القلق.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

التجرؤ على الفتوى تجرؤ على الله - عز وجل -، والتورع عن الفتوى بغير علم دليل على التقوى والورع، وقد كان السلف يكرهون التجرؤ على الفتيا والحرص عليها.

عن البراء قال: أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله يسأل أحدهم المسألة ما منهم من رجل إلا ود أن أخاه قد كفاه. وفي رواية: فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا حتى يرجع إلى الأول.

وقال عمر بن عبد العزيز: أعلم الناس بالفتاوى أسكنهم، وأجهلهم بها أنطقهم.

قال أبي نضرة: قرأت هذه الآية فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا. * قال - تعالى - مثنياً على إبراهيم - عليه السلام -:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ...﴾ [النحل: ١٢٠].

ومع أنه - عليه السلام - رجل واحد إلا أنه على الحق وعلى طريق مستقيم، فسماه الله أمة لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين.

* قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ

الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

قال الزمخشري: في ﴿ثُمَّ﴾ هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ، وإجلال محله والإيدان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم - عليه السلام - من الكرامة، وأجل ما أولي من النعمة، اتباع رسول الله ﷺ ملته.

قيل: إنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة، من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليها بها.

* قال - تعالى - لنينا محمد ﷺ مسلماً ومواسياً:

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ

﴾ [النحل: ١٢٧].

خص النبي ﷺ بقوله ﴿وَأَصْبِرْ﴾ أي: لا تعاقب انتقاماً ولو بالمثلية ولكن اصبر، وقد كان منه ﷺ مصداق ذلك في رجوعه من ثقيف حيث آذوه

وجاءه جبريل - عليه السلام - ومعه ملك الجبال يأتمر بأمره إلى أن قال:
 «لا، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون...» وهذا أقصى درجات الصبر والصفح
 وأعظم درجات الخلق الكريم.

* قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى﴾ [الليل: ٥] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ
 الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

قال ابن تيمية - رحمه الله - : هذا الأصلان هما جماع الدين
 العام كما يقال، التعظيم لأمر الله، والرحمة لعباد الله، فالتعظيم لأمر
 الله يكون بالخشوع والتواضع وذلك أصل التقوى، والرحمة لعباد الله
 بالإحسان إليهم.

سورة الإسراء ١٧

سورة الإسراء من السور المكية التي تهتم بشؤون العقيدة، شأنها كشأن سائر السور المكية من العناية بأصول الدين: من الوحدانية، والرسالة، والبعث، ولكن العنصر البارز في هذه السورة الكريمة هو شخصية الرسول ﷺ، وما أيده الله به من المعجزات الباهرة، والحجج القاطعة، الدالة على صدقه - عليه الصلاة والسلام - . وقد افتتحت السورة بالتسبيح وختمت بالتحميد.

سميت السورة الكريمة سورة الإسراء، إشارة لتلك المعجزة الباهرة معجزة الإسراء، التي خص الله - تعالى - بها نبيه ﷺ، فقد تعرضت السورة الكريمة لمعجزة الإسراء، التي كانت مظهراً للتكريم الإلهي لخاتم الأنبياء والمرسلين، وآية باهرة تدل على قدرة الله - جل وعلا - في صنع العجائب والغرائب. وإن كانت سورة النحل هي سورة النعم الكثيرة فإنها فصلت في سورة الإسراء أنواع النعم الخاصة والعامة.

* قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

بدأ الله - تعالى - هذه السورة بالتسبيح، لأن هناك إشعار أن الحديث بعدها سيكون عن أمر عظيم لا يقدر عليه إلا الله، والعلماء يعدون التسبيح لله أحد طريقتين أثنى الله - تعالى - بهما على نفسه: إما التسبيح أو الحمد.

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾.

قال ابن عاشور: وجه الاقتصار عن وصف المسجد الأقصى في هذه الآية بذكر بركته، وعدم ذكرها في حق المسجد الحرام: أن شهرة المسجد

الحرام بالبركة وبكونه مقام إبراهيم معلومة للعرب، وأما المسجد الأقصى فقد تناسى الناس ذلك كله، فالعرب لا علم لهم به، والنصارى عفوا أثره من كراهيتهم لليهود، واليهود قد ابتعدوا عنه وأيسوا من عوده إليهم، فاحتيج إلى الإعلام ببركته.

* قيل سر قوله: ﴿لَيْلًا﴾ إفادة تقليل الوقت الذي كان الإسراء والرجوع فيه. أي أنه كان في بعض الليل أخذاً من تنكيره.

وفي تخصيص الليل إعلام بفضلته لأن وقت السر والنجوى والتجلي الأسمى، ولذلك كان أكثر عبادته ﷺ بالليل.

والإسراء: هو إذهاب الله بنبيه محمداً ﷺ، من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بمدينة القدس، في جزء من الليل ثم رجوعه من ليلته.

والمعراج: هو إصعاده ﷺ من بيت المقدس إلى السموات السبع، وما دون السبع، حيث فرضت الصلوات الخمس ثم رجوعه إلى بيت المقدس في جزء من الليل.

وقد ذكر الله - عز وجل - الإسراء في سورة الإسراء، وذكر المعراج في سورة النجم.

* ثم ذكر - تعالى - حال بني إسرائيل، فقال:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤].
أما أولاهما: فبمخالفة التوراة وقتل الأنبياء.

والثانية: بقتل زكريا - عليه السلام - وقيل بقتل يحيى، والعزم على قتل عيسى ابن مريم.

* قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَخُجِّرْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

إنما خص العنق؛ لأن عمله لا يخلو إما أن يكون خيراً أو شراً، وذلك مما يزين أو يشين كالحلي والغل، فأضيف إلى الأعناق.

* قال تعالى: ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ ﴾ [الإسراء: ١٤].

قال بعض السلف: والله لقد أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك.

* ثم ذكر - جل وعلا - في الآيات حال المترفين وقد ذمهم في آيات كثيرة، فقال:

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا ۝١٦ ﴾

تَدْمِيرًا ۝١٦ [الإسراء: ١٦].

في إيثار (القرية) على أهلها زيادة تهويل وتفظيع، إشارة إلى التنكيل بهم بهدم صروحهم ودورهم، وطمس أثرهم، وهو أوجع للقلب وأنكى للعدو. ولذلك أتى إثره بالمصدر المؤكد، فقال: ﴿ تَدْمِيرًا ۝١٦ ﴾ أي: كلياً بحيث لم يبق لهم زرع أو ضرع.

* قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ

سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ۝١٩ ﴾ [الإسراء: ١٩].

وحقيقة السعي: المشي دون العدو، فسعي الآخرة هو الأعمال الصالحة لأنها سبب الحصول على نعيم الآخرة، فالعامل للصالحات كأنه يسير سيراً سريعاً إلى الآخرة ليصل إلى مرغوبه منها.

* ثم ذكر - تعالى - عطائه وفضله على العالمين، فقال:

﴿ كَلَّا نُمَدِّدُ هُوْلَاءِ ۖ وَهَتُوْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ ﴾

[الإسراء: ٢٠].

تنبيه على أن الله - تعالى - لم يترك خلقه من أثر رحمته، حتى الكفرة منهم الذين لا يؤمنون ببلقائه فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدر لهم، وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة.

وذلك مصداق قوله: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله

فيما رواه عنه نبيه ﷺ: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي».

* لما نهى - تعالى - عن الشرك به وحذر منه، أمر بالتوحيد، وإفراد العبادة له وحده دونما سواه، ثم وصى بالبر بالوالدين، فقال:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ (٢١) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۖ (٢٢)﴾ .
﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ .

أي: حكم - تعالى - أيها الإنسان - وأمر وألزم بأن لا تعبدوا أحداً من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات .
﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ .

لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد .

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال:
﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ .

أي: وأمر ووصى بأن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً وعطافاً بالغاً، بجميع وجوه الإحسان القولي والفعلي، لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه والقرب ما يقتضي تأكيد الحق ووجوب البر .
قال المفسرون: قرن - تعالى - بعبادته بر الوالدين لبيان حقهما العظيم على الولد؛ لأنهما السبب الظاهر لوجوده وعيشه، ولما كان إحسانهما إلى الولد قد بلغ الغاية العظيمة . وجب أن يكون إحسان الولد إليهما كذلك، وقد جعل - سبحانه - في آية أخرى شكرهما مقترناً بشكره، فقال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] .

والإحسان: هو البر والإكرام .

قال ابن عباس: لا تنفض ثوبك أمامهما فيصيبهما الغبار .

* ثم خص - سبحانه - حالة الكبر بالذكر، فقال:

﴿إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ .

أي: قد أوصينا بهما وبخاصة إذا كبرا، أو كبر أحدهما، وإنما خص بحالة الكبر؛ لأنهما حينئذ أحوج إلى البر والقيام بحقوقهما لضعفهما، فهما يحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف.

ومعنى ﴿عِنْدَكَ﴾ أي في كنفك وكفالتك.

﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ﴾.

أي: لا تسمعهما قولاً سيئاً، ولا أقل كلمة تظهر الضجر، كلمة أف، ولا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولو بكلمة التأفف وهو أدنى مراتب القول السيء، ولا تؤذهما أدنى أذية.

قال ابن عقيل: من حسن ظني بربي، أن لطفه بلغ أن وصى بي ولدي إذا كبرت.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

ولا تزجرهما، وتتكلم لهما كلاماً خشناً، وقل لهما بدل التأفف والنهر قولاً حسناً، ليناً طيباً، بأدب ووقار وتعظيم وحياء، تطمئن له قلوبهما، وتنشرح به صدورهما.

﴿وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

وكن لأبيك وأمك ذليلاً متواضعاً وألن جانبك، وتواضع لهما بتذل وخضوع من فرط رحمتك وعطفك عليهما، واحتساباً للأجر والمثوبة. وخفض الجناح دلالة على القرب والدنو وترك الارتفاع.

❖ ومن البر والإحسان أن تدعو الله - عز وجل - لهما:

﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

أي: واتبع القيام بحقوقهما الدعاء، فادع لهما بالرحمة أحياناً وأمواتاً، وقل في دعائك: يا رب ارحم والديَّ برحمتك الواسعة كما أحسن إليَّ في تربيتهما في حال الصغر وأنا طفل ضعيف الحول والقوة.

وفهم من هذا أنه كلما اردادت التربية ارداد الحق ، وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه ، تربية صالحة غير الأبوين ، فإن له على من رباه حق التربية ، ولقد بالغ - سبحانه - في التوصية بهما حيث افترضها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده ، ثم ضيق الأمر حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من التضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد يصبر الإنسان معها ، ولقد بالغ - سبحانه - في التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقوق وتقف عندها شعورهم .

قال الشيخ السعدي : والأمر بالإحسان إلى الوالدين وإطلاقه يدخل فيه كل ما عده الناس إحساناً ، وذلك يختلف باختلاف الأوقات والأحوال والأشخاص .

وفيه النهي عن ضد الإحسان إليهما وهو أمران :

الإساءة والعقوق الذي هو إيصال الأذى القولي والفعلي إليهما ، وترك القيام ببعض حقوقهما الواجبة .

والأمر الثاني : ترك الإحسان وترك الإساءة ، فإن ذلك داخل في العقوق ، فلا يسع الولد أن يقول : إذا قمت بواجب والدتي وتركت معصيتها فقد قمت بحقوقهما ، فيقال : بل عليك أن تبذل لهما من الإحسان الذي تقدر عليه ما يجعلك في مرتبة الأبرار البارين بوالديهم .

ثم ارتقى في الوصاية بالوالدين إلى أمر الولد بالتواضع لهم تواضعاً حد الذل لهما لإزالة وحشة نفوسهما إن صاراً في حاجة إلى معونة الولد ، لأن الأبوين يبغيان أن يكونا هما النافعين لوالدهما .

والقصد من ذلك التخلق بشكره على إنعامهما السابقة عليه .

وصيغ التعبير عن التواضع بتصويره على هيئة تذلل الطائر عندما يعتريه خوف من طائر أشد منه إذ يخفض جناحه متذللاً .

عن هشام بن عروة عن أبيه في قوله تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ قال : لا تمتنع من شيء أحباه .

وقال عبد الله بن عون: النظر إلى الوالدين عبادة.

❖ قال تعالى: ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ

تَبَذِيرًا ۝﴾ [الإسراء: ٢٦].

قال الشوكاني: وقدم الإحسان إلى القرابة؛ لأن خير الصدقة ما كان على قريب، فهو صدقة مضاعفة، وصلة رحم مرغب فيها، وأكد على ذلك في أكثر من سورة، فقال - تعالى - في سورة الروم ﴿فَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [الروم: ٣٨] وقال في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ۝﴾ [البقرة: ٢١٥].

جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبَذِيرًا ۝﴾ [الإسراء: ٢٦] بعد الأمر بإعطاء ذوي القربى والمساكين حقوقهم، ليعلم أن هذا العطاء هو العطاء الموافق لحقوقهم، والنهي عن التبذير في غير ما شرع الله.

- وفي قوله تعالى: ﴿أَبْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ۝﴾ [الإسراء: ٢٨].

فيه الحث على تعليق القلب والرجاء والطمع بالله، وصرف التعلق بالمخلوقين، فالموفق في حال الوجود، والغنى قلبه متعلق بحمد الله وشكره والثناء عليه، لا ينسى ولا يبتر النعمة، وفي حال الفقر والفقر صابر راض راج من الله فضله وخيره ورحمته، وهذا من أجل عبادات القلوب المقربة إلى علام الغيوب.

❖ قال تعالى: ﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ

قَوْلًا مِّسُورًا ۝﴾ [الإسراء: ٢٨].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -: وهذا من لطف الله - تعالى - بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه؛ لأن انتظار ذلك

عبادة، وكذلك وَعَدُّهُمْ بالصدقة والمعروف عند التيسير - عبادة حاضرة، لأن الهم بفعل الحسنة حسنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يقدر عليه ليثاب على ذلك، ولعل الله ييسر له بسبب رجائه.

✽ ولما نهى - سبحانه - عن قتل الأولاد المستدعي لإفناء النسل، ذكر النهي عن الزنا المفضي إلى ذلك، لما فيه من اختلاط الأنساب، فقال:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۝٣٦﴾ .

أي: لا تدنوا من الزنى وهو أبلغ من «لا تزنوا»؛ لأنه يفيد النهي عن مقدمات الزنى، ودواعيه كاللمس، والقبلة، والنظر، والغمز، وغير ذلك مما يجر إلى الزنى، فالنهي عن القرب أبلغ من النهي عن مجرد فعله، ثم وصف - تعالى - الزنى وقبحه:

﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۝٣٦﴾ .

أي: إن الزنى كان فعلة قبيحة متناهية في القبح يستفحش في الشرع والعقل والفطر، لتضمنه التجرد على الحرمة في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب، وغير ذلك من المفساد. وبئس الطريق طريق من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ۝٣٧﴾ [الإسراء: ٣٣].

وقع التحذير من الزنا بين نهين عن القتل، لأن الزنا غالباً يجر إلى القتل، إما إجهاضاً أو بعد ذلك.

قال الإمام أحمد: لا أعلم بعد قتل النفس ذنباً أعظم من الزنا.

✽ قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا

لما كانت هذه الأعضاء هي أشرف الأعضاء وملوكها، والمتصرفة فيها والحاكمة عليها، خصها - سبحانه وتعالى - بالذكر في السؤال عنها، فعادة الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة وشقاوته بفسادها.

* قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولعل إيثار فعل ﴿لَا تَفْقَهُونَ﴾ دون أن يقول: لا تعلمون، للإشارة إلى أن المنفي علم دقيق.

* قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ۝﴾ [الإسراء: ٥٣].

قال السعدي - رحمه الله -: والقول الحسن داع لكل خلق جميل، وعمل صالح، فإن من ملك لسانه، ملك جميع أمره.

* ثم رد - عز وجل - على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنها صور الملائكة، وعلى طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلهية عيسى ومريم، وعزير، قال تعالى:

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝﴾.

وهذه الأمور الثلاثة، الخوف، والرجاء، والمحبة، التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده، وهي الأصل والمادة في كل خير، فمن تمت، له تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات، وأطاحت به الشرور. وعلامة المحبة ما ذكره الله، أن يجتهد العبد في كل ما يقربه إلى الله وينافس في قربه، بإخلاص الأعمال كلها لله والنصح فيها، وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك فهو كاذب.

* قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْتَنِكَ بِذُرِّيَّتِهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

الاحتناك هو: وضع الراكب اللجام في حنك الفرس ليركبه ويسيره، فهو هنا تمثيل لجلب ذرية آدم إلى مراده من الإفساد والإغواء بتسيير الفرس على حسب ما يريد راكمه.

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [٦٢].

لم يذكر - جل وعلا - الدنيا ولم يسمها في الآية صراحة استهانة بها وتحقيراً لشأنها.

قال الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم - رحمه الله -: من كان مستوحشاً مع الله بمعصيته إياه في هذه الحياة، فوحشته معه في البرزخ ويوم المعاد أعظم وأشد: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

* قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

في الآية دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه، وأنه ينبغي له أن لا يزال متملقاً لربه أن يثبته على الإيمان، ساعياً في كل سبب موصل إلى ذلك، لأن النبي ﷺ وهو أكمل الخلق، قال الله له: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [٧٤]. فكيف بغيره؟ وجاء في الحديث عن النبي ﷺ: «ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

* لما ذكر - تعالى - الإلهيات والمعاد والجزاء، أردفها بذكر ما يعين على الصبر، وتحمل المشاق، وهي أشرف الطاعات، فقال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾.

أي: حافظ - يا محمد - على الصلاة في أوقاتها، من وقت زوال الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل، فيدخل في ذلك صلاة الظهر، وصلاة العصر، وصلاة المغرب والعشاء.

قال المفسرون: في الآية الكريمة إشارة إلى الصلوات المفروضة، فدلوك الشمس زوالها، وهو إشارة إلى الظهر والعصر، وغسق الليل ظلمته وهو إشارة إلى المغرب والعشاء، وقرآن الفجر صلاة الفجر، فالآية رمز إلى الصلوات الخمس.

﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨).

أي: وأقم صلاة الفجر، وإنما عبر عنها بقرآن الفجر لمشروعية إطالة القراءة فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة حيث يشهدها الله - عز وجل -، وملائكة الليل، وملائكة النهار. كما في الحديث: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر، وصلاة الفجر...» الحديث.

- وقد ذكر الله في كتابه أوقات الصلوات، تارة ثلاثة كما في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) [الإسراء: ٧٨].

وأما الخمس فقد ذكرها أربعة: في قوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ [الروم: ١٧ - ١٨]، وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ (١٣٠) [طه: ١٣٠]، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ (١٣٠) وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿١٣١﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠] والسنة فسرت ذلك وبينته وأحكمته.

* قال تعالى: ﴿وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا

مَحْمُودًا﴾ (٧٦).

أي: وقم - يا محمد - من نومك بعض الليل، فاقرأ القرآن في صلاة الليل. لعل ربك - يا محمد - يقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً، يحمذك فيه الأولون والآخرون، وهو مقام الشفاعة العظمى.

قال المفسرون: ﴿عَسَى﴾ في كلام الله للتحقيق؛ لأنه وعد كريم وهو لا يتخلف.

قال ابن عباس: عسى من الله واجبة تفيد القطع.

وفي معنى النظم الكريم: كما انبعث من النوم الذي هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة فيبعثك ربك من بعد الموت الأكبر مقاماً محموداً عندك وعند جميع الناس، وفيه تهوين لمشقة قيام الليل.

* قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾

[الإسراء: ٨٠].

قال ابن القيم: هذه الدعوة من أنفع الدعاء.

* قال تعالى: ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

و﴿مِنْ﴾ هنا لبيان الجنس لا للتبويض فإن القرآن كله شفاء، ولم يقل: وننزل من القرآن ما هو دواء، فإن الدواء قد يصيب المحل وقد يتخلف أثره، لفقد شرط أو وجود مانع، أما القرآن: فهو شفاء.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

وهي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وانفلاق البحر، والسنين، كل واحدة منها تكفي لمن قصده اتباع الحق.

* في مسند الدارمي أبي محمد عن التيمي قال: من أوتي من العلم ما لا يبكيه فقد أوتي من العلم ما لا ينفعه؛ لأن الله نعت أهل العلم فقال:

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۖ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۖ وَيَخِرُّونَ

لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

سورة الكهف ١٨

سورة الكهف من السور المكية، وهي إحدى سور خمس بدئت بـ «الحمد لله» وهذه السور هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، وكلها تبتدئ بتمجيد الله - جل وعلا - وتقديسه، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء، والجلال والكمال.

بدأ المولى السورة بالحمد ولم يبدأها بالشكر؛ لأن الحمد يعم ما إذا وصل ذلك الإنعام إليك أو إلى غيرك، أما الشكر فيخص ما وصل إليك فقط. وسورة الكهف مفتوحة بالحمد حتى يكون افتتاح النصف الثاني من القرآن كما كان افتتاح النصف الأول «الحمد لله»، وكذلك الربع الرابع في سورة (فاطر).

وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة منها: قول النبي ﷺ: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين» [رواه النسائي]. ومنها قوله ﷺ: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال»، وفي رواية «من آخر سورة الكهف» [رواه مسلم].

وسميت «سورة الكهف» لما فيها من المعجزة الربانية في تلك القصة العجيبة الغريبة، قصة أصحاب الكهف.

بدأت سورة الكهف بذكر القرآن وانتهت أيضاً به، وفي هذا إشارة واضحة أن من أهم عوامل الوقاية من الفتن هو التمسك بالقرآن.

ولاحظ بعض العلماء أن أفعال الحركة والسعي في السورة كثيرة، وتستفاد من: ﴿فَانْطَلَقَا﴾، ﴿فَأَمْرًا﴾، ﴿قَامُوا﴾، ﴿فَقَالُوا﴾، ﴿فَابْتَغُوا﴾، ﴿أَبْنُوا﴾، ﴿بَلَاغًا﴾، ﴿جَاوَزَا﴾، ﴿فَوَجَدَا﴾، ﴿ءَاتَيْنَا﴾ وكأن المعنى؛ أن المطلوب من الناس السعي في الأرض؛ لأنها تعصم من الفتن، ولهذا قال ذو القرنين: ﴿فَاعِيْنُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: دعاهم إلى الحركة والمساعدة.

وفي السورة ثلاثة أمثلة واقعية، لبيان أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان، وإنما هو مرتبط بالعقيدة:

المثل الأول: للغني المزهو بماله، والفقير المعتز بعقيدته وإيمانه في قصة أصحاب الجنتين.

والثاني: للحياة وما يلحقها من فناء وزوال.

والثالث: مثل التكبر والغرور مصوراً في حادثة امتناع إبليس عن السجود لآدم، وما ناله من الطرد والحرمان، وكل هذه القصص والأمثال بقصد العظة والاعتبار.

قال ابن تيمية: قصة ذي القرنين أحسن قصص الملوك، وقصة أهل الكهف أحسن قصص أولياء الله الذين كانوا في زمن الفترة.

وتحوي السورة إحياءات ظاهرة في الإرشاد إلى كيفية النجاة والعصمة من الفتن بأنواعها، فإن في السورة أربعة أمثلة للفتن؛ تعتبر من أعظم الفتن التي يتلى بها المرء.

الأولى: فتنة الدين في قصة أصحاب الكهف، وكيف اعتصم الفتية وفروا من كفر قومهم، فعصمهم الله ونجاهم.

والثانية: فتنة المال في قصة صاحب الجنتين، وكيف كفر الرجل هذه النعمة فمحق الله ماله.

والثالثة: فتنة العلم في قصة الخضر مع موسى - عليه السلام -، وشكر الخضر هذه النعمة.

والرابعة: فتنة الملك في قصة ذي القرنين، وكيف نجح ذو القرنين من الابتلاء بشكر هذه النعمة العظيمة، واستعملها في طاعة الله.

وفيها بيان أن التمسك بالكتاب الذي أنزل يعصم من كل تلك الفتن.

* قال - تعالى - في أول السورة:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ﴾ [الكهف: ١]

قال البغوي: وخص رسوله ﷺ بالذكر؛ لأن إنزال القرآن عليه كان نعمة

عليه على الخصوص ، وعلى سائر الناس على العموم .
 * لما بدأت السورة بحمد الله مع إنزال القرآن العظيم . وخطت الآيات طريق النجاة من الفتن ، وذكرت قصة فتية آمنوا بربهم ، وقرروا الفرار من قومهم عصمة لدينهم فأووا إلى الكهف .

* قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ .

هذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي ، أي : لا تظنن - يا محمد - أن قصة أهل الكهف - على غرابتها - هي أعجب آيات الله ، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف ، فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على وحدانية الله - عز وجل - ، وعلى قدرته - تعالى - ، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء .

قال مجاهد : أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا ؟ قد كان في آياتنا ما هو أعجب منهم .

* ثم يذكر - عز وجل - قصة أصحاب الكهف .

والكهف هو المتسع في الجبل .

والرقيم : هو اللوح الذي كتب فيه أسماء أصحاب الكهف .

وبدأت الآيات في ذكر سياق القصة ، فقال تعالى :

﴿ إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ .

أي : اذكر حين التجأ الشباب إلى الغار ، وجعلوه مأواهم ليختفوا عن قومهم ، يريدون التحصن من فتنة قومهم لهم وإرغامهم على عبادة الأصنام . فقالوا حين دخلوا سائلين الله رحمته ولطفه : أعطنا من خزائن رحمتك الخاصة مغفرة ، ورزقاً ، وتثبيتاً ، وتوفيقاً للخير وحفظاً من الشر ، والأمن من الأعداء .

﴿وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

طلب فتية أهل الكهف من الله أن يجعل لهم من ذلك العمل رشداً، مع كونه عملاً صالحاً، فما أكثر ما يقصر الإنسان فيه، أو يرجع على عقبيه، أو يورثه العجب والكبر.

والمراد: أصلح لنا أمرنا كله ويسره لنا، واجعلنا من الراشدين المهتدين، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم وقبض لهم ما لم يكن في حسابهم، فقال:

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾.

أي: ألقينا عليهم النوم في الغار حين دخوله، فناموا سنين كثيرة وهي ثلاث مئة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم، وليكون آية بينة.

وقد ذكر - تعالى - الجارحة التي هي الآذان - التي منها يكون السمع - لأنه لا يستحكم نوم إلا مع تعطل السمع، وفي الحديث: «ذلك رجل بال الشيطان في أذنه» أي: استثقل نومه جداً حتى لا يقوم بالليل.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾.

ثم أيقظناهم من بعد نومهم الطويل، لنرى أي الفريقين من أصحاب الكهف، أدق إحصاءً للمدة التي ناموها في الكهف؟

قال بعضهم: يوماً أو بعض يوم، وقال آخرون: ربكم أعلم بما لبثتم.

* قال تعالى: ﴿فَأَوْدَأَ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ

أَمْرِكُمْ مَرَفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

من ثمرة الإيمان أن أصبح الكهف الضيق الذي لا يعد لسكنى: منشوراً بالرحمة والتهيئة والارتقاء، فاعلم أن الأمر كله لله، وأن الأمور بحقائقها،

لا بما يراه أهل الدنيا منها . وقولهم هذا دليل على اعتمادهم وتوكلهم على الله - عز وجل - .

* وكان من حفظهم وصيانتهم ما قصه الله - عز وجل - عن المحل الذي ناموا فيه ، فقال :

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَوُّرٌ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ .

أي : ترى أيها المخاطب الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم جهة اليمين ولا يقع شعاعها ، وهذا فيه دليل على أن باب الكهف كان من نحو الشمال .

وفيهما أن الله - عز وجل - يسخر المخلوقات لعباده الصالحين .

﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ .

وإذا غربت تقطعهم وتعزل عنهم جهة الشمال ، والغرض أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ولا عند غروبها ، كرامة لهم من الله لئلا تؤذيهم بحرها فتفسد أبدانهم بها .

﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ .

أي : في متسع من الكهف وفي وسطه ، بحيث لا تصيبهم الشمس لا في ابتداء النهار ، ولا في آخره ، وليطرقهم الهواء والنسيم ، فلا تؤذيهم حرارة الشمس ، ولا ينقطع عنهم الهواء .

وذلك الصنيع الذي فعلناه بهؤلاء الفتية وأرشدناهم إليه ، من دلائل قدرة الله الباهرة التي يُعتبر بها ، فلو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم ، ولو أنهم لا يتقلبون لأكلت الأرض أجسامهم .

* ثم ذكر الله حالهم وهم في الكهف نائمين ، فقال تعالى :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ .

أي : لو رأيتهم أيها الناظر لظننتهم أيقاظاً لفتح عيونهم وتقلبهم ، والحال أنهم نيام . ومن عنايتنا بهم ، نقبلهم من جانب إلى جانب .

قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين، ولو لم يقلبوا لأكلت الأرض أجسامهم.

ذكر بعض العلماء أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم، لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة كان أبقي لها.

قال الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله -: تأمل قوله: ﴿وَنُقَلِّبُھُمْ﴾ ففيه دليل على أن فعل النائم لا ينسب إليه، فلو طلق، أو قال: في ذمتي لفلان كذا، لم يثبت؛ لأنه لا قصد له. وفي تقلبيهم، وعدم استقرارهم على جنب واحد فائدة بدنية، وهي توازن الدم في الجسد.

﴿وَكَلْبُھُمْ بَنَسْطُ ذِرَاعِيْھِ بِالْوَصِيدِ﴾ .

وكلبهم الذي صاحبهم، مادّ يديه بفناء الكهف كأنه يحرسهم، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته. والوصيد: فناء الكهف، وقيل: عتبه أو بابه.

قال القرطبي: إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء، حتى أخبر الله - تعالى - بذلك في كتابه - جل وعلا -، فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين. بل في هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي ﷺ وآله خير آل.

❖ ولما ذكر - تعالى - حفظهم في الأرض، ذكر حفظهم من الآدميين، فأخبر أنه حماهم بالرعب الذي نشره عليهم، قال تعالى:

﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ .

أي: لو شاهدتهم - يا محمد - وهم على تلك الحالة، لفررت منهم هارباً رعباً منهم، وذلك لما ألقى الله عليهم الهيبة، فرؤيتهم تثير الرعب حتى لا يصل إليهم أحد ولا تمسهم يد لامس، إذ يراهم الناظر نياماً كالأيقظ، يتقلبون ولا يستيقظون، وكل هذه الأسباب مجتمعة جعلها الله سبباً، فلم

يعثر عليهم أحد، مع قريهم من المدينة، والدليل أنهم لما استيقظوا أرسلوا أحدهم يشتري لهم طعاماً من المدينة، وبقوا في انتظاره. والحكمة من تقديم الفرار على الرعب أنه: قد يعترض الإنسان ما يخيفه فيفر منه وينتهي الأمر، وقد يفر مما يرهبه ويبقى الرعب ساكناً في قلبه؛ لذا أتبع التولي فراراً بالامتلاء رعباً.

* قال تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].
الاحتراز عن الأمور الضارة، وكتمان السر الذي تضر إذاعته ضرراً عاماً أو خاصاً، كل ذلك من كمال العقل.

* ثم بعد ذلك ذكرت الآيات نهاية قصتهم وأنهم عثر عليهم: ﴿فَقَالُوا أَبْنُؤُا عَلَيْهِمُ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمُ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢٠].

أي: قال الذين لهم الأمر: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمُ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢٠]. نعبد الله فيه ونتذكر أحوالهم وما جرى لهم، وهذا لا يجوز في شريعتنا وذنم النبي ﷺ فاعله، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم.

* قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢].
﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

الواو حالية عاطفة تفيد التوكيد والتحقيق، لأن الواو تأتي عند تباعد معنى الصفات للدلالة على التحقيق والاهتمام.

قال ابن عثيمين - رحمه الله -: ولم يقل: رجماً بالغيب، بل سكت، فهذا يدل على أن عددهم سبعة وثمانهم كلبهم؛ لأن الله عندما أبطل القولين الأولين، وسكت عن الثالث، صار الثالث صواباً

* قال القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾

﴿الكهف: ٢٢﴾ .

روي أنه - عليه الصلاة والسلام - سأل نصارى نجران عنهم فنهى عن السؤال، وفي هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم.

* قال تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: ٢٦] .

قدم البصر على السمع هنا لأن الحديث عن أصحاب الكهف الذين فروا من قومهم لظلمة الكهف لئلا يراهم أحد لكن الله يراهم.

* بعد أن ذكر - عز وجل - قصة أصحاب الكهف وكيف اجتمعوا على طاعة الله، وتعانقت قلوبهم وتآلفت أرواحهم على الحب في الله، واجتمعت كلمتهم على نصر دين الله . دعا - عز وجل - نبيه إلى أن يصبر نفسه مع أولياء الله المريدين لوجهه والمبتغين لفضله، فقال تعالى:

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨] .

في هذه الآية إشارة إلى أهمية حضور القلب عند ذكر الله، وأن الإنسان الذي يذكر الله بلسانه لا بقلبه تنزع البركة من أعماله وأوقاته حتى يكون أمره فرطاً عليه .

وجاءت الآية بصيغة الجمع ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ شخص واحد كفيلاً بأن يخرجك من الجماعة الصالحة، وأهل الخير جماعة مترابطة عكس أهل الأهواء .

قال الشيخ ابن عثيمين: لم يقل لا تطع من أسكتنا لسانه، بل قال: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ وما أكثر ذكرنا باللسان مع غفلة الجنان .

* ذكر الله - عز وجل - في سورة الكهف أربع فتن: الفتنة في الدين (أهل الكهف)، وفتنة المال (صاحب الجنة)، وفتنة العلم (موسى والخضر)، وفتنة السلطان (ذو القرنين).

وهنا الفتنة الثانية في قوله تعالى:

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أُعْتَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢].

قال ابن كثير: جاءت أن هذه القصة بعد أمر الله - تعالى - لنبه أن يصير نفسه مع ضعفاء المؤمنين، خلافاً لكبراء قريش، الذين تكبروا عن الجلوس معهم، فكان عاقبتهم الخسار كما كان عاقبة صاحب الجنتين.

* ثم ذكر - عز وجل - مثلاً محسوساً ملموساً لحال الدنيا ونهايتها، فقال تعالى:

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرِنًا أَقْلًا مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٦].

قال ابن عثيمين - رحمه الله - في الحديث: «ما أنعم الله - عز وجل - على عبد نعمة في أهل ومال وولد، فيقول: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، فيرى فيها آفة دون الموت، وقرأ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾»

[أخرجه أبو يعلى والبيهقي والطبراني وغيرهم].

* ثم ذكر مثلاً لهذه الدنيا الفانية، فقال تعالى:

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

شبه الله - سبحانه وتعالى - الدنيا بالماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل؛ كذلك الدنيا لا يسلم

أحد دخلها من فتنها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعاً منبتاً، وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر.

✽ قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

قال القرطبي - رحمه الله -: إنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا؛ لأن في المال جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوة ودفعاً، فصارا زينة الحياة الدنيا لكن مع قرينة الصفة للمال والبنين، لأن المعنى: المال والبنون زينة هذه الحياة المحتقر فلا تتبعوها نفوسكم.

قيل: تقديم المال على البنين في الذكر؛ لأنه أسبق لأذهان الناس، ولأنه يرغب فيه الصغير والكبير.

✽ بعد التذكير بحقيقة الدنيا وزوالها، انتقلت المشاهد إلى ذكر القيامة وأهوالها، فقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

إنما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ ماضياً بعد ﴿نُسِيرُ﴾، ﴿وَتَرَى﴾ وهما مستقبلان، للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الأهوال كأنه قال: وحشرناهم قبل ذلك.

✽ قال تعالى: ﴿مَالٍ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

أي: ما شأن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ضبطها وأحاط بها؟ وقد اشتكوا من العدل لا من الظلم.

قال قتادة: اشتكى القوم كما تسمعون الإحصاء، ولم يشتك أحد ظلماً، فإياكم والمحقرات من الذنوب، فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه. وقال عون بن عبد الله: ضج - والله - القوم من الصغار قبل الكبار.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠].

قال ابن القيم - رحمه الله -: أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو؟ ويشبهه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب. وهو أني عادت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعادة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة؟

* قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَجُندِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

قال السعدي - رحمه الله -: ومن حكمة الله ورحمته: أن تقيضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهد وأدلته، وتبين الباطل وفساده، فبضدها تتبين الأشياء.

* وتنتقل الآيات إلى زمن موسى - عليه السلام - بعد أن مكن الله له في الأرض ونجاه من فرعون وجنوده جرت له قصة عجيبة مع الخضر، أبان فيها - عز وجل - أن العلم كله بيده ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

قال الخطيب البغدادي: إن فيما عاناه موسى من الدأب والسفر والصبر على العلم، مع محل موسى من الله وموضعه من كرامته وشرف نبوته: دلالة على ارتفاع قدر العلم، وعلو منزلة أهله، وحسن التواضع لمن يلتمس منه.

* قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢].

فإنه سفر إلى مخلوق، ولما واعده ربه بثلاثين ليلة وأتمها بعشر، فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب فإنه سفر إلى ربه - تعالى -، وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين.

* في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢].

قال القرطبي: دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدر في الرضا، ولا في التسليم للقضاء، لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط.

وردت ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ [الكهف: ٦٥] بالقرآن للمؤمنين خاصة.

يقول نوح: ﴿وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِي﴾ [هود: ٢٨] بينما ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨] تستعمل مع الكافر والمسلم.

وفي تقديم الرحمة على العلم: ما يدل على أهميتها للعالم والمتعلم؛ فإن صفة الرحمة صفة ملازمة للمعلم والمربي.

والعلم نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده. وعلم لدني، يهبه الله لمن يمين عليه من عباده، لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

قال قتادة: لو كان أحد يكتفي من العلم بشيء لاكتفى موسى - عليه السلام -، ولكنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

* عندما أمر الله رسوله - في سورة الكهف - أن لا يقول لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا بعد أن يقول: إن شاء الله، بين له القدوة في فعل أخيه موسى حين قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

* قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧٨].

فيه دلالة على أن قلوب المؤمنين مجبولة على إنكار المنكر، وغير مالكة للصبر على احتماله؛ لأن موسى - عليه السلام - وعد الخضر أن يصبر على ما يراه منه، فلما رأى ما رأى أنكره عليه. وهذا الإنكار من موسى على الخضر هو دأب الأنبياء في إنكار المنكر وعدم السكوت عليه.

* قال تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١].

أي: لم يصبر موسى - عليه السلام - لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة وسبب لغرق أهلها.

قال موسى - عليه السلام - حين خرق السفينة: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ ولم يقل (لتغرقنا) فنسي نفسه واشتغل بغيره في الحالة التي كل أحد فيها يقول: (نفسي نفسي) لا يلوي على مال ولا ولد وتلك حالة الغرق، فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرافة بهم.

* قال موسى للخضر لما خرق السفينة: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١] وقال له لما قتل الغلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا﴾ [الكهف: ٧٤] فما الفرق بينهما؟ (الإمر) أهون من (النكر) وقد لا يكون منكراً كالنكر، وإنما يتعجب منه ومن الغرض منه. والنكر هنا أشد؛ لأنه فعل منكر قد وقع وهو قتل الغلام، بخلاف خرق السفينة فإنها لم تغرق بذلك.

* حين أنكر موسى على الخضر خرق السفينة، قال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢].

وحين عاد موسى إلى الاعتراض على الخضر، وأنكر قتله للغلام - بعد أن أكد للخضر أنه لن يعود للاعتراض عليه - قال له الخضر: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥] فزاد لفظه ﴿لَكَ﴾؛ ليفيد

التأكيد في بيان عدم صبر موسى على علمه ، وهكذا عادة العرب : تزيد في التأكيد كلما زاد الإنكار .

﴿ قَالَ أَقْتَلْتَنَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٤] .

استدل بهذه الآية طائفة من العلماء على أن الغلام كان بالغاً ، واستدل آخرون بنفس الآية على أنه لم يكن بالغاً . فالذين قالوا : إنه لم يبلغ ، فاستدلوا بوصف النفس بأنها : ﴿ زَكِيَّةٌ ﴾ ؛ أي : لم تذنّب ، واحتج من قال : إنه بالغ ، بقوله : ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ ؛ فهذا يقتضي أنه لو كان عن قتل نفس لم يكن به بأس ، وهذا يدل على أنه بالغ ، وإلا فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفسه ، ولا بغير نفس .

* قال تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٥] .

قال الخضر لموسى معاتباً مذكراً : ألم أقُلْ لك أنت على التعيين والتحديد لن تستطيع الصبر على ما ترى من أفعالي مما لم تحط به علماً ؟ قال المفسرون : وقره في الأول فلم يواجهه بكاف الخطب ، فلما خالف في الثاني واجهه بقوله : ﴿ لَّكَ ﴾ لعدم العذر هنا ، ويعود موسى لنفسه ويوجد أن خالف وعده مرتين ، فبادر - عليه السلام - بالاعتذار .

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾

[الكهف: ٧٦] .

وهنا لم يعتذر موسى بالنسيان : إما لأنه لم يكن نسي ، ولكنه رجح تغيير المنكر العظيم - وهو قتل النفس بدون موجب - على واجب الوفاء بالالتزام ، وإما لأنه نسي وأعرض عن الاعتذار بالنسيان لسماجة تكرار الاعتذار به .

* من أدب الخضر مع الله - عز وجل - القيام بحقه وحسن الأدب في

الالفاظ ؛ فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف: ٧٩] ، وأما الخير فأضافه إلى الله بقوله : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ

يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴿٨٢﴾ [الكهف: ٨٢]، وقال إبراهيم عليه السلام - : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ﴿٨٠﴾ [الشعراء: ٨٠] فنسب المرض إليه والشفاء إلى الله، وقالت الجن: ﴿لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمَّرَ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ﴿١٠﴾ [الجن: ١٠]، مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

* ثم ذكر له سبب قتله للغلام، فقال:

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾.

أي: وأما الغلام الذي قتلته فكان كافراً فاجراً، وكان أبوه وأمه مؤمنين، وفي الحديث: «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً، ولو عاش لأرهمق أبويه طغيانا وكفراً» [رواه مسلم].

﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ﴿٨٠﴾.

أي: فخشفنا لو بقي الغلام حيّاً، أن يحملهما حبه على اتباعه في الكفر والضلال، إما لأجل محبتهم إياه، أو للحاجة إليه، أو يجبرهما على ذلك، فقتله؛ لأن الله - تعالى - أعلمه بحاله وأطلععه على سر أمره، سلامة لدين أبويه المؤمنين.

قال مطرف بن عبد الله في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ﴿٨٠﴾ [الكهف: ٨٠] إنا لنعلم أنهما قد فرحا به يوم ولد، وحزنا عليه يوم قتل، ولو عاش لكان فيه هلاكهما، فليرض رجل بما قسم الله له، فإن قضاء الله للمؤمن خير من قضائه لنفسه، وقضاء الله لك فيما تكره خير من قضائه لك فيما تحب.

قال القرطبي - رحمه الله - : يستفاد من قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ﴿٨٠﴾ [الكهف: ٨٠].

تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قطعاً من الأكباد، ومن سلم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء.

* قال تعالى: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾^(١) فأردنا بقتله أن يرزقهما الله ولداً صالحاً خيراً من ذلك الكافر، وأقرب برّاً ورحمة بوالديه، فإن الغلام الذي قتل لو بلغ لعقهما أشد العقوق بحملها على الكفر والطغيان.

وقيل: أقرب رحماً: أي ابنة بشفقتها وحنوها.

* ثم ذكر ما الذي دفعه إلى بناء الجدار وإقامته، فقال:

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾.

أي: وأما الحائط الذي بنيته وأقمته دون أجر، والذي كان يوشك أن يسقط، فقد خبئ تحته كنز من ذهب وفضة لغلامين يتيمين في القرية التي فيها الحائط، حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما، لكونهما صغيرين عدما أباهما.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾.

أي: وكان والدهما صالحاً تقيّاً، فحفظ الله لهما الكنز لصالح الوالد، وفيه دليل على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم.

قال القرطبي: ففيها ما يدل على أن الله - تعالى - يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده، وإن بعدو عنه، وقد روي أن الله - تعالى - يحفظ الصالح في سبعة من ذريته.

قال ابن كثير: فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم.

قال المفسرون: إن صلاح الآباء ينفع الأبناء، وتقوى الأصول تنفع الفروع.

قيل: كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء.

وقال محمد بن المنكدر: إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده، وولد ولده، وعترته وعشيرته وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم. قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

فيه فوائد منها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وذريته وما يتعلق به، ومنها أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرهما، لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، بأن أباهما صالح.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾.

فأراد الله بهذا الصنيع، أن يكبرا ويشتد عودهما، ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار لئلا يضيع ويفقد.

وفي قوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾.

أسند الإرادة هنا إلى الله، لأنها في أمر مغيب مستأنف لا يعلم ما يكون منه إلا الله، وأسند الخضر إلى نفسه في قوله ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] لأنها لفظة عيب.

فتأدب بأن لا يسندها إلى الله، وذلك كقول إبراهيم - عليه السلام -:

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

أي: هذا فعلته رحمة من الله بهما لصلاح أبيهما. ما فعلت يا موسى ما رأيت من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، عن رأيي واجتهادي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه، وإنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح.

﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

أي: ذلك تفسير الأمور التي لم تستطع الصبر عليها، وعارضت فيها، قبل أن أخبرك عنها.

قال السعدي - رحمه الله - : من فوائد قصة موسى مع الخضر : أن من ليس له صبر على صحبة العالم والعلم ، فإنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم ، ومن استعمل الصبر ولازمه ، أدرك به كل أمر سعى فيه .

* في سورة الكهف قال الخضر في خرق السفينة : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [٧٥] ، وفي قتل الغلام : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا ﴾ [٨١] ، وفي بناء الجدار : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا ﴾ [٨٢] . فلماذا غير في نسبة الأفعال في كل واحدة؟ لما كان المقصود عيب السفينة قال : ﴿ فَأَرَدْتُ ﴾ ، فأضاف إرادة العيب لنفسه لا إلى الله تأدياً معه ، ولأن نفس العيب مفسدة .

ولما قتل الغلام قال : ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ بلفظ الجمع ، تنبيها على أن القتل كان منه بأمر الله ، وله حكمة مستقبلية ، ولأنه مصلحة مشوبة بمفسدة .
ولما ذكر السعي في مصلحة اليتيمين قال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ ، فنسب النعمة لله لأنها منه ، ولأنها مصلحة خالصة .

- وفي قصة موسى - عليه السلام - مع الخضر قاعدة عظيمة في الرضا والاستسلام للقضاء والقدر فإن الإنسان لا يعلم ما وراء الحجب وما في غيب الله ، وأمر المؤمن كله له خير .

* تأمل في قول ذي القرنين : ﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا ﴾ [٨٧] وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [٨٨] . [الكهف : ٨٧ - ٨٨] .

قال الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - : إذ لما ذكر الشرك بدأ بتعذيبه ثم ثني بتعذيب الله ، ولما ذكر المؤمن بدأ بثواب الله أولاً ، ثم بمعاملته باليسر ثانياً ؛ لأن مقصود المؤمن الوصول إلى الجنة ، بخلاف الكافر فعذاب الدنيا سابق على عذاب الآخرة .

ومن فوائد الآية أن من قدر على إعدائه وتمكن منهم، فلا ينبغي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال، بل يعامل المحسن بإحسانه، والمسيء بقدر إساءته.

* قال القرطبي: في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾

[الكهف: ٩٤].

دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرف لما يريدونه، ولا يتركون على ما هم عليه، بل يحبسون حتى يعلم انكفاف شرهم، ثم يطلقون كما فعل عمر - رضي الله عنه -.

* قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطِيعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطِيعُوا لَهُ نَقْبًا﴾

[الكهف: ٩٧].

لما كان صعود السد يتطلب زمناً أقصر من إحداث النقب فيه جاء الفعل قصيراً ليجانس النطق الزمن.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ

ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠٠﴾ [الكهف: ١٠٠ - ١٠١].

قال ابن القيم: وهذا يتضمن معنيين:

أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله، وأدلة توحيده، وعجائب قدرته.

والثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره، والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب أولاً، ثم يسري منه إلى العين.

* قال تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: ١٠٠].

قال الشيخ ابن عثيمين: وجاء كلمة ﴿وَعَرَضْنَا﴾ نكرة، والمعنى: عرضاً عظيماً تتساقط منه القلوب.

ومن الحكم في ذكر ذلك: أن يصلح الإنسان ما بينه وبين الله، وأن يخاف من ذلك اليوم، ويستعد له، وأن يصور نفسه وكأنه تحت قدميه.

* وبعد الحديث في السورة عن أحوال المفتونين بالهوى، الغارقين في الضلالة، كان مسك ختام السورة بشارة لأهل الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۖ﴾ (١٠٨)

الإنسان ملول بطبعه، قد يمل الدار الأنيقة ويحب أن ينتقل من دار إلى دار أخرى، والجنة على خلاف ذلك ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ (١٠٨).

* قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۖ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ۖ﴾ (١٠٩)

[الكهف: ١٠٧ - ١١٠].

العمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة، وكان من دعاء عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - : «اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً» [اخرجه الإمام أحمد].

* وختمت السورة بإعلان التوحيد: ﴿إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۖ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ۖ﴾ (١٠٩).

سورة مريم ١٩

سورة مريم سورة مكية، ومضمونها تحقيق عبادة الله وحده، وتنزيه الله - جل وعلا - عما لا يليق به، وتثبيت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء، والإيمان بوجود الله ووحدانيته، وبيان منهج المهتدين، ومنهج الضالين، وأن خواص الخلق هم عباده.

وهذه السورة «سورة المواهب» وهي ما وهبه الله لأتبيائه من الذرية الطيبة، والعمل الصالح، والعلم النافع.

سميت «سورة مريم» تخليداً لتلك المعجزة الباهرة والآية العظيمة، في خلق إنسان بلا أب، ثم إنطاق الله للوليد وهو طفل في المهد، وما جرى من أحداث غريبة رافقت ميلاد عيسى - عليه السلام -.

وكما أن سورة الكهف حوت قصصاً عجيبة كذلك جاءت سورة مريم فقد عرضت السورة الكريمة لقصص بعض الأنبياء مبتدئةً بقصة نبي الله زكريا وولده يحيى، الذي وهبه على الكبر من امرأة عاقر لا تلد، ولكن الله قادر على كل شيء، يسمع دعاء المكروب، ويستجيب لنداء الملهوف، ولذلك استجاب الله دعاءه، ورزقه الغلام النبيه.

وقد تكرر في هذه السورة صفة الرحمن ست عشرة مرة، وذكر اسم الرحمة أربع مرات، فأنبأ بأن من مقاصدها تحقيق وصف الله - تعالى - بصفة الرحمن، والرد على المشركين الذين انكروا هذا الوصف، وهذا ليمتلئ قلب المؤمن ويفيض بالرحمات، ويعظم رجاءه ويستبشر فؤاده برحمة الله، فيزداد من الله - تعالى - حباً وقرباً ورجاءً.

* قال تعالى :

﴿ كَهَيْعَتِكَ ﴾ .

حروف مقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن.

﴿ ذِكْرٌ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝١ ﴾ .

أي: هذا ذكر رحمة ربك لعبده زكريا، نقصه عليك - يا محمد - ونفصله تفصيلاً فإن في ذلك عبرة للمعتبرين .
وإضافة رحمة الرب - جل وعلا - إلى النبي ﷺ إضافة تشريف وتكريم، والآية تذكير للنبي ﷺ برحمة الله - عز وجل - بعبد ونبه زكريا - عليه السلام - .

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٢ ﴾ .

أي: حين ناجى ربه ودعاه سراً، بصوت خفي لا يكاد يسمع . وذلك أنه رأى من نفسه الضعف وخاف أن يموت، ولم يكن أحد ينوب منابه في دعوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم .
قال المفسرون: لأن الإخفاء في الدعاء أحب إلى الله، وأرجى للإجابة، وأدخل في الإخلاص وأكمل، وأبعد من الرياء، فإن الله يعلم القلب التقي، ويسمع الصوت الخفي .
وإخفاء الدعاء والإسرار بالمسألة: مناجاة للرب، وإيمان بأن الله سميع، وذل واستكانة، وسنة من سنن المرسلين . يقول قتادة: إن الله يعلم القلب التقي، ويسمع الصوت الخفي .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ۝٣ ﴾ .

أي: دعا في ضراعة، فقال يا رب: لقد كبرت، وضعف عظمي ورق، وذهبت قوتي من الكبر، وإذا ضعف العظم الذي هو عماد البدن وقوامه، ضعف غيره .

﴿ وَأَشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ۝٤ ﴾ .

أي: انتشر الشيب في رأسي انتشار النار في الهشيم، والشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت ورائده ونذيره . وهنا لا تقف كلمة اشتغل عند معنى انتشر فحسب ولكنها تحمل معنى دبب الشيب في الرأس في

بطء وثبات، كما النار في الفحم مبطئة ولكن في دأب واستمرار، والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة؛ وفيه التوسل إلى الله - تعالى - بضعفه وعجزه وشيئته، وهذا من أحب الوسائل إلى الله؛ لأنه يدل على التبرّي من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ .

أي: لم تخيب دعائي في وقت من الأوقات ولم تحرمني من الإجابة قبل اليوم، بل عودتني الإحسان والجميل، ولم تزل أطفك تتوالى عليّ وإحسانك واصلًا إليّ، وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه وإحسانه إليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقًا، وعوده بالإجابة وأطمعه فيها، أن يتمم إحسانه لاحقًا.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ﴾ .

أي: خفت من يتولى على بني إسرائيل بعد موتي، من بني العم والعشيرة أن يضيعوا الدين ولا يقوموا به، ولا يحسنوا وراثته العلم والنبوة، وظاهر هذا أنه لم ير فيهم أحداً فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا - عليه السلام - ونصحه، وأن طلبه للولد، ليس كطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، وفطنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولداً، يقوم بالدين من بعده، واشتكى من حال امرأته، فقال:

﴿وَكَاثِبَ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ .

أي: عقيماً لا تلد، لكبر سنّها أو لم تلد قط، ذكر الأسباب المانعة التي لا تستعصي على الله - عز وجل -، ثم طلبه ودعاه.

﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ ﴾ .

أي: فارزقني من محض فضلك ولداً صالحاً يتولاني؛ لأن امرأتي لا تصلح للولادة، وهذه الولاية؛ ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل، ولهذا قال:

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ ﴾ .

أي: ولداً يرثني ويرث أجداده آل يعقوب في العلم والنبوة، والمعنى: أنه يصلح لأن يوحى إليه، فإن الأنبياء لا يورثون المال.

﴿ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۖ ﴾ .

أي: اجعله يا رب مرضياً منك ومن عبادك، برّاً تقيّاً.
- وقد قدم زكريا - عليه السلام - على طلب الولد أمور ثلاثة:
أحدها: كونه ضعيفاً.

والثاني: أن الله ما رد دعاءه البتة.

والثالث: كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين.

ثم صرح بسؤال الولد وذلك مما يزيد الدعاء توكيداً لما فيه من الاعتماد على حول الله وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة.

* وبعد هذه الدعوات المخلصة رحم الله عبده زكريا واستجاب دعاءه، وبشره بغلام، قال تعالى:

﴿ يٰٓزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ۖ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۖ ﴾ .

نبشرك بواسطة الملائكة بإجابة دعائك، وقد وهبنا لك غلاماً، وسماه الله يحيى تشريفاً له، وكان اسماً موافقاً لسماءه، يحيا حياة حسية، فتتم به المنة، ويحيا حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح بالوحي والعلم والدين.

﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۖ ﴾ .

أي: لم يسم أحد قبله يحيى، فهو اسم غير مسبوق، سماه - تعالى - به، ولم يترك تسميته لوالديه.

قال مجاهد: ليس له شبيه في الفضل والكمال، وهذا دليل على أن الاسم الغريب جدير بالآثرة.

❖ وبعد أن ساق الله البشارة بهذا المولود الذي طلبه، فرح فرحاً شديداً واستغرب وتعجب زكريا من حاله وكبر سنه، وعدم تيسر الأمور الطبيعية للإنجاب.

﴿ قَالَ رَبِّ اُنِّىْ يَكُوْنُ لِىْ غُلَمٌ وَكَانَتْ اَمْرًاى عَاقِرًا ۝ ﴾ .

أي: كيف يكون لي غلام؟ وهو استفهام تعجب وسرور بالأمر العجيب، واستكشاف أنه بأي طريق يكون؟ والوجه الذي يأتيه منه الولد. والحال أن امرأتي كبيرة السن لم تلد في شبابها، فكيف وهي الآن عجوز.

﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ ﴾ أي: بلغت في الكبر والشيخوخة نهاية العمر، والمعنى: اليأس والجساوة في المفاصل العظام.

قال المفسرون: كان قد بلغ مائة وعشرين سنة، وامراته ثمان وتسعين سنة، فأراد أن يطمئن ويعرف الوسيلة التي يرزقه بها هذا الغلام، وكأنه - عليه السلام - لم يستحضر هذا المانع لقوة الوارد في قلبه، وشدة الحرص العظيم على الولد، وفي هذه الحال حين قبلت دعوته، تعجب من ذلك، فإجابه الله بقوله:

﴿ قَالَ كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلٰى هٰٓئِنَ ۝ ﴾ .

أي: قال الله لزكريا: هكذا الأمر أخلقه من شيخين كبيرين، وخلقه وإيجاده سهل يسير عليّ، وإن كان الأمر مستغرب في العادة وفي سنة الله في الخليقة، لكن الأمر سهل وهين على الخالق - جل وعلا -، وفي التعبير بوصف الربوبية دلالة بالغة، فالرب هو الخالق المدبر المصرف لشؤون خلقه.

- ثم ذكر - تعالى - لزكريا ما هو أعجب مما سأل عنه، فقال:

﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝ ﴾ .

أي: وقد خلقتك أنت من قبل يحيى ولم تك شيئاً مذكوراً، فأنا قادر على خلق يحيى منكما.

قال المفسرون: ليس في الخلق هين وصعب على الله، فوسيلة الخلق للصغير والكبير، والجليل والحقير واحد ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وإنما هو أهون في اعتبار الناس، فإن القادر على الخلق من العدم قادر على الخلق من شيخين هرمين.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

قال القرطبي: قوله - تعالى - ذكره: وكان برّاً بوالديه مسارعاً في طاعتهما ومحبتهما غير عاق بهما.

﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ يقول - جل ثناؤه - ولم يكن مستكبراً عن طاعة ربه وطاعة والديه، ولكنه كان لله ولوالديه متواضعاً، متذللاً، يأتمر لما أمر به، وينتهي عما نهى عنه، لا يعصي ربه ولا والديه.

﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

أي: أمان من الله له، من حين مولده إلى حين مبعثه، في يوم ولادته، وفي يوم موته، ويوم يبعث من قبره حياً، وذلك يقتضي سلامته من الشيطان، والشر، والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينهما، وأنه سالم من النار والأهوال.

وحياة في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف، والحاجة، والافتقار إلى الله.

قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الإنسان في هذه الأحوال، يوم يولد فيخرج مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث حياً فيرى نفسه في محشر لم ير مثله، فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلامة في هذه المواطن التي هي مظان العطب ومواطن الوحشة.

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۚ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾ ۚ

[مريم: ١٢].

قال عبد الله بن المبارك قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقنا! فلهذا أنزل الله: ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾ .

﴿ قَالَ - تَعَالَى - عَنْ يَحْيَى : ﴿ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ ۝١٥﴾ [مريم: ١٥].

وقال - تَعَالَى - عَنْ عِيسَى : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ ۝٣٣﴾ [مريم: ٣٣].

جاء السلام مُنْكَرًا مع يحيى؛ لأنه دعاء من الله فيشمل كل أنواع السلامة. أما عيسى - عليه السلام - فالسلام منه على نفسه، وهو بشر له حدود معينة فلا بد أن يكون سلاماً مقصوراً ومحدوداً وهذا ما يقوم به التعريف.

﴿ ولما ذكر - عز وجل - قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة، انتقل منها إلى ما هو أعجب منها، تدرجاً من الأدنى إلى الأعلى، وهذه هي القصة الثانية في هذه السورة وهي أعجب من قصة ميلاد يحيى؛ لأنها ولادة عذراء من غير بعل، وهي أغرب من ولادة عاقر من بعلها الكبير في السن. فعرضت السورة لقصة مريم العذراء وإنجابها لطفل من غير أب، وقد شاء الله - عز وجل -، أن يظهر تلك المعجزة الخارقة بميلاد عيسى من أم بلا أب، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلة أمام الأبصار، بعظمه الواحد القهار، قال تعالى:

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ۝١٠﴾ .

أي: اذكر - يا محمد - في القرآن قصة مريم العجيبة الغريبة الدالة على كمال قدرة الله، وفيه الثناء على مريم، في حالها الحسنة، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل؛ فهذا من أعظم فضائلها أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل وسعيها الكامل.

﴿إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ۝﴾ .

أي: حين تنحت واعتزلت أهلها وقومها، في مكان شرقي بيت المقدس لتتفرغ لعبادة الله، وتقنت له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله - تعالى - . وجعلت بينها وبين قومها ستراً وحاجزاً يسترها عنهم وعن الناس . فأرسلنا إليها جبريل - عليه السلام - ، والإضافة للتشريف، وإنما سمي روحاً؛ لأن الدين يحيا به وبوحيه .

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝﴾ .

أي: تصور لها في صورة إنسان تام الخلق، قال ابن عباس: جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعد الشعر مستوي الخلقة . قال المفسرون: إنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على السماع لكلامه، ودل على عفافها وورعها أنها تعودت بالله من تلك الصورة الجميلة الفاتكة في الحسن، ونادته من بعيد .

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝﴾ .

أي: فلما رآته مريم فزعت وخشيت أن يكون إنما أرادها بسوء، وهي في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجاب، فقالت له: إني احتمي وألتجئ إلى الله منك، وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كنت تقياً، تخاف الله فاتركني ولا تؤذني، فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى .

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝﴾ .

أي: أمنها جبريل مما خافت، وقال لها مزيلاً لما حصل عندها من الخوف: لست مما تظنين، ما أنا إلا ملك مرسل من عند الله إليك . لأهب لك بإذن الله - تعالى - أو لأكون سبباً في هبة الغلام بالنفخ في الدرع،

ليهب لك غلاماً طاهراً من الذنوب، وهذه بشارة بالولد وزكائه.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [٢١].

أي: قالت مريم: كيف يكون لي ابن؟ وعلى أي صفة يوجد هذا مني؟ ولست بذات زوج حتى يأتيني ولد، ولست بزانية، ولا يكون الولد عادة إلا من أحد هاذين.

قالت مريم ابنة عمران: ﴿يَلَيَّتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم: ٢٣] ولم تعلم أن في بطنها (نبي) سيكون من أولي العزم من الرسل، فكم من الكربات قد تحمل في طيها كرامات.

* ثم قال - تعالى - لمريم، وهي في حالة الضعف والوهن:

﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجُذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

أمر الله مريم - المرأة الضعيفة النفساء - بهز جذع النخلة التي تثقل الرجال، والله قادر أن يكرمها برزق - كما في سورة آل عمران -، ليعلم الناس أهمية بذل السبب مع التوكل على الله - عز وجل -.

﴿تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

الرطب الجنى الغض قريب التناول.

قال غير واحد من السلف: ما من شيء خير للنفساء من الرطب، ولو كان لأطعمه الله مريم وقت نفاسها بعيسى.

- جاء لفظ الصيام على الإمساك عن جميع المفطرات الحسية والمعنوية، وجاء لفظ الصوم على الإمساك عن الكلام فحسب. وقد وردت مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦] أما الصيام فوردت مرات

* فلما ولدته وأمرت أن لا تكلم الناس، وأنها ستكفي أمرها، ويُقام بحجتها، أخذت وليدها وأتت به إلى قومها تحمله، قال تعالى:

﴿فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [٢٧].

أي: أتت مريم قومها من ذلك المكان البعيد، بعد أن طهرت من النفاس، تحمل ولدها عيسى على يديها، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأنت غير مبالية ولا مكترثة. فلما رأوها وابنها أعظموا أمرها واستنكروه، وقالوا لها: لقد جئت شيئاً عظيماً منكراً، وأرادوا بذلك البغاء، حاشاها من ذلك.

﴿يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا﴾ .

أي: يا شبيهة هارون - وهو أخ لها - في الصلاح والعبادة، ما كان أبوك عمران رجلاً فاجراً يأتي الفواحش (وهارون ليس هو هارون بن عمران أخا موسى؛ لأن بينهما قروناً كثيرة).

﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ .

أي: وما كانت أمك زانية، فكيف صدر هذا منك، وأنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة؟ وهكذا البيوت الصالحة يستهجن ويستغرب من أهلها طريقاً غير طريق الصلاح والفلاح.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ .

أي: إنهم لما استرابوا في أمرها، واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامته، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا منكبين عليها: كيف نكلم طفلاً رضيعاً لا يزال في السرير يغتذي بلبن أمه؟ ولم تجر به عادة ولا حصل من أحد في ذلك السن.

روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلمهم، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ .

قال عيسى وهو في مهده يرضع: أنا عبد الله خلقتني بقدرته من دون أب، قدم ذكر العبودية، ليبطل قول من ادعى فيه الربوبية، فإن أول شيء

تكلم به أن نزه جناب ربه - تعالى -، وبرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه.

﴿أَتَنبِيَّ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ﴾ .

أي: قضى ربي أن يؤتيني الكتاب، وهو: الإنجيل، ويجعلني نبياً، وإنما جاء بلفظ الماضي؛ لإفادة تحققه، فإن ما حكم به الله أزلاً لا بد إلا أن يقع، وفي هذه تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة، فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه. ونبوته دليل على براءة أمه، لأن الأنبياء هم أطهر الناس نسباً. ثم ذكر تكميله لغيره، فقال:

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ۖ﴾ .

أي: جعل في البركة والخير والنفع العظيم للعباد حيثما كنت وأينما حللت، فالبركة جعلها الله في من تعلم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالسه، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعد به مُصاحبه.

قال سفيان بن عيينة: جعلني مباركاً أينما كنت، قال: معلماً للخير. وهذا يدل على تعليم الرجل هو البركة التي جعلها الله فيه، فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه، وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه، ولهذا سمي - سبحانه - كتابه مباركاً، ووصف رسوله بأنه مبارك.

﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ﴾ .

أي: وأمرني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده، التي أجلها الزكاة ما بقيت حياً. وفي ذلك إشارة إلى أن التكاليف الشرعية لا تسقط عن العبد ما دام حياً عاقلاً.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ﴾ [مريم: ٣٢].

أي: وأمرني أيضاً، أن أبر بوالدتي.

قال ابن عاشور: فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها، لشرفها وفضلها، ولكونها والدتها لها حق الولادة وتوابعها. ذكر بره بوالدته بعد طاعة الله - عز وجل -؛ لأنه - سبحانه - كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين.

وقد خصه الله - تعالى - بذلك بين قومه؛ لأن بر الوالدين كان ضعيفاً في بني إسرائيل يومئذ وبخاصة الوالدة لأنها تستضعف، ولأن فرط حنانها ومشقتها قد يجرئان الولد على التساهل في البر بها.

- تقدم الشريعة حق الأم على حق الأب، وترد الآيات بالوالدة والأم.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: ٣٢] و﴿وَالْوَالِدَتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤].

ولم تأت مفردة ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: ٣٢] بل يجمع بينهما في التربية عند الصغر ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] وكذلك ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨]، وقوله ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

ويأت الأب كما في قول إسماعيل: ﴿يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢] وقول إبراهيم ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤].

والفرق بين الوالدة والأم: أن الوالدة هي التي تلد ﴿وَالْوَالِدَتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣] والوالدة لا ترضع حتى تلد، أما الأم فهي التي تلد وتربي ولا يشترط أن تكون هي التي ترضع، ولهذا كل والدته هي أم وليس كل أم والده. فقد تكون الأم مربية أو مرضعة، ولهذا لا يقال للأم المرضعة والده بل أم.

وقد أطلق الله - تعالى - (أم) على الأصل الطيب والنماء والزكاء والمقدس لكل شيء عظيم، مثل ﴿أُمُّ الْقُرَى﴾ [الأنعام: ٩٢]، و﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧] فكلمة ﴿أُمُّ﴾ هي الأشمل.

وتطلق الأم كذلك على المرضعة ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]
وقد وردت لفظ الأم في القرآن وهو الأكثر ثمان وعشرين مرة، ولم ترد
بلفظ (الوالدة) إلا خمس مرات.

- وقد ذكر الله - عز وجل - عن عيسى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: ٣٢]
لإثبات النسب وفي قوله: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] ليثبت زكائها.
وقال - تعالى - عن أمهات المؤمنين ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] ولم
يقل والداتهم؛ لأنهن لم يلدن المسلمين ولكنهم أصل لكل مسلم.
أما (الأب) فيطلق على الأب من الصلب ومن الرضاع؛ لأنه ينفق
وزوجته ترضع، أما لفظ (الوالد) الذي خرج من صلبه حتى لو لم ينفق
عليه ويثبت لك نسباً.

- إذا أمر - عز وجل - بالبر والدعاء، يستعمل الوالدين وليس الأبوين
مثل: ﴿بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨]
لأن الوالد من الولادة، والتي تلد هي الأم، وهذا فيه إشارة إلى إنها أولى
بالبر والصحبة.

﴿وَلَمْ تَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

ولم يجعلني متعظماً متكبراً على أحد، شقيّاً عاقاً في حياتي، بل جعلني
مطيعاً له، خاضعاً خاشعاً متذلاً، متواضعاً لعباد الله.

عن بعض أهل العلم: لا تجد عاقاً إلا وجدته جباراً شقيّاً. ثم قرأ:

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ تَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

قال: ولا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختلاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿وَمَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

* وهكذا يعلن عيسى عبوديته لله، فليس هو إلهاً، ولا ابن إله، ولا
ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى، إنما عبد ورسول، يحيا ويموت كسائر
البشر، خلقه الله من أم دون أب، ليكون آية على قدرة الله الباهرة.

ثم أكد - عز وجل - بأن عيسى الموصوف بتلك الصفات هو قول الحق الذي لا شك فيه ولا مرية. ثم قال - تعالى - مخوفاً ومحذراً:

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٣٩﴾

[مريم: ٣٩].

قال الطبري: يوم حسرتهم وندمهم على ما فرطوا في جنب الله، وحسرتهم يوم أورثت مساكنهم من الجنة أهل الإيمان بالله والطاعة له، وحسرتهم يوم أدخلوا النار، وأيقن الفريقان بالخلود الدائم، والحياة التي لا موت بعدها، فيا لها من حسرة وندامة.

* لما ذكر - تعالى - قصة مريم واختلاف النصارى في شأن عيسى حتى عبده من دون الله، أعقبها بذكر قصة إبراهيم وتخطيمه الأصنام لتذكير الناس بما كان عليه خليل الرحمن من توحيد الرب الديان، وسواء في الضلال من عبد بشراً أو عبد حجراً، فالنصارى عبدوا المسيح، ومشركو العرب عبدوا الأوثان، قال تعالى:

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ٤٢﴾ [مريم: ٤٢].

في وصف إبراهيم - عليه السلام - بالصدقية قبل وصفه بالنبوة إشارة إلى أن الصدق سجية فيه، وأنه كسائر الأنبياء - عليهم السلام - عرفوا بين الناس بالصدق قبل بعثتهم.

قال البغوي: والصديق: الكثير الصدق القائم عليه.

وقيل: ومن صدق الله في وحدانيته، وصدق أنبياءه ورسله، وصدق بالبعث وقام بالأوامر فعمل بها فهو الصديق.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِ بِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ

شَيْئًا ٤٣﴾.

أي: ناداه متلطفاً بخطابه، مستميلاً له نحو الهداية والإيمان، ذاكراً أبوته الدالة على توقيره، ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج

السؤال، يا أبت لم تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر، ولا يجلب لك نفعاً، أو يدفع عنك ضرراً؟

﴿يَتَأْتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۝﴾
 كرر النصيح باللطف، ولم يصف أباه بالجهل الشنيع في عبادته للأصنام، وإنما ترفق وتلطف في كلامه، وعدل إلى اللطف عبارة تدل على هذا المعنى، أي: جاءني من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسية ما لا تعلمه أنت. فاقبل نصيحتي، وأطعني أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك، وهو دين الله الذي لا عوج فيه، وهو عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿يَتَأْتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۝﴾
 أي: لا تطع أمر الشيطان في ما يزين لك من الكفر وعبادة الأوثان، فإن من عبد غير الله فقد عبد الشيطان، ثم حذره من الشيطان فقال: إن الشيطان عاص للرحمن، مستكبر على عبادة ربه، فمن أطاعه أغواه.
 قال القرطبي: وإنما عبر بالعبادة عن الطاعة؛ لأن من أطاع شيئاً في معصية الله فقد عبده، وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن، إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتغلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته، ولهذا قال:

﴿يَتَأْتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۝﴾
 تحذير من سوء العاقبة، والمعنى: أخاف أن تموت على كفرك فيحل بك عذاب الله الأليم، وتكون قريناً للشيطان بالخلود في النيران، ومن تلطفه في الدعوة نسب الخوف إلى نفسه دون أبيه، كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه، وإيراد الكلام بلفظ ﴿يَتَأْتِ﴾ في كل خطاب دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب، وإرشاده إلى الصواب.
 قال العلماء: وقد ابتدأ إبراهيم الخليل خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره، ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال، ولم يقل:

لا تعبد، ثم قال: ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ .
ولم يقل: أنت جاهل، ونسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل
الشفيق الخائف على من يشفق عليه، وقال: ﴿يَمَسُّكَ﴾ فذكر لفظ المس
الذي هو أطف من غيره، ثم نكر العذاب، ثم ذكر الرحمن، ولم يقل:
الجبار ولا القهار، فأى خطاب أطف وألين من هذا؟

* قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آعَزَهِمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

وحين اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم للأوثان، وهجر الأهل
والأوطان، لم يتركه الله وحيداً بل وهب له ذرية وعوضه خيراً.
فوهب له إسحاق ويعقوب أولاداً أنبياء، فأنس الله بهما وحشته عن
فراق قومه بأولئك الأولاد الأطهار. ويعقوب ابن إسحاق وهما شجرتا
الأنبياء فقد جاء من نسلهما أنبياء بني إسرائيل.
وقد دل على أن اعتزال الكفار والأوثان والبراءة منهم من فوائده: تفضل
الله - تعالى - بالذرية الطيبة الصالحة على فاعله.

* لما ذكر - تعالى - إبراهيم الخليل - عليه السلام - وأثنى عليه،
عطف بذكر الكليم موسى بن عمران - عليه السلام - على وجه التبجيل
والتعظيم، والتعريف؛ بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة، وجاء ذكر موسى
متناسباً مع السياق لأنه من ذرية يعقوب - عليه السلام - وهو من أكثر
الأنبياء ذكراً في القرآن. قال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥١﴾ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ
الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ .

أي: وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه؛ ووهبنا له من نعمتنا عليه وترؤفنا
عليه، أخاه هارون فجعلناه نبياً إجابة لدعائه يؤيده ويؤازره، وهذا من أكبر
فضائل موسى وإحسانه، ونصحه لأخيه هارون، أنه سأل ربه أن يشركه في

أمره وأن يجعله رسولاً مثله، فاستجاب الله له ذلك .

قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣] وفي قوله تعالى:

﴿ مِنْ رَحْمَتِنَا ﴾ بيان: أن الأخوة رحمة من رحمت الله، ومن رحمة الله قول النبي ﷺ: «وددت لو أني رأيت إخواني» .

* ثم ذكر - عز وجل - في القرآن الكريم، إسماعيل - عليه السلام -، هذا النبي العظيم، الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذي منهم سيد ولد آدم محمد ﷺ، قال تعالى:

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ .

فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فأكمل نفسه، وكمل غيره، وخصوصاً أخص الناس عنده، وهم أهله، لأنهم أحق بدعوته من غيرهم .

﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ [مريم: ٥٤] .

قال مجاهد: لم يعد شيئاً إلا وفي به، وقال مقاتل: وعد رجلاً أن يقيم مكانه حتى يرجع إليه الرجل، فأقام إسماعيل مكانه ثلاثة أيام للميعاد؛ حتى يرجع إليه الرجل .

قال السعدي: فأكمل نفسه وكمل غيره وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله؛ لأنهم أحق بدعوته من غيرهم .

﴿ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ .

أي: قائماً لله بطاعته، فنال رضاه وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، وهذا نهاية المدح؛ لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعته بأعلى الدرجات .

* ثم ذكر - عز وجل - إدريس - عليه السلام -، على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال، فقال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ٥٦ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾

[مريم: ٥٦ - ٥٧].

أي: اذكر - يا محمد - في الكتاب الجليل خبر - إدريس - إنه كان ملازماً للصدق في جميع أحواله، موحى إليه من الله.

قال المفسرون: إدريس هو جد نوح، وأول مرسل بعد آدم، وأول من خط بالقلم ولبس المخيط، وكانوا من قبل يلبسون الجلود، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة.

* لما ذكر - تعالى - الأنبياء في الآيات السابقة، وذكر فضائلهم ومناقبهم، ومراتبهم، قال:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾.

أي: هؤلاء الذين قصصنا عليك خبرهم - يا محمد - هم أنبياء الله ورسله الكرام، الذين أنعم الله عليهم بشرف النبوة وهم عشرة، أولهم زكريا، وآخرهم إدريس. و﴿مِنْ﴾ للبيان؛ لأن جميع الأنبياء منعم عليهم.

﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾.

أي: من نسل آدم كإدريس ونوح.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة، كإبراهيم، فإنه من ذرية سام بن نوح.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾.

كإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

﴿وَإِسْرَءِيلَ﴾ ومن ذرية إسرائيل وهو يعقوب، كموسى وهارون، وزكريا ويحيى، وعيسى، فهذه خير بيوت العالم.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا
وَبُكْيًا﴾ [مريم: ٥٨].

أي: أخبر الله أن الأنبياء إذا سمعوا كلام الله سجدوا، وبكوا من خشية الله، خضوعاً واستكانة وحمداً وشكراً، على ما هم فيه من النعم العظيمة، مع ما لهم من علو الرتبة، وسمو النفس، والزلفى من الله - تعالى -، وذلك لما في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة.

قال القرطبي: وفي الآية دلالة على أن آيات الرحمن تأثيراً في القلوب، وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ دلالة على أن آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم حيث هداهم إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة، وهنا أجمع العلماء على شرعية السجود وهنا اقتداء بهم واتباعاً لمنوالهم.

قرأ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سورة مريم، فسجد، وقال: هذا السجود فأين البكي؟ يريد البكاء.

* ثم ذكر - تعالى - بعض ذكر الأنبياء والصالحين قوم آخرون، فقال: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ
غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

قال العلماء: إضاعتها تتناول تركها، وترك وقتها، وترك واجباتها وأركانها، وأيضاً فإن مؤخرها عن وقتها عمداً متعد لحدود الله، كمقدمها عن وقتها.

سئل ابن مسعود عن إضاعتها فقال: هو تأخيرها حتى يخرج وقتها، فقالوا: ما كنا نرى ذلك إلا تركها، فقال: لو تركوها لكانوا كفاراً.

* ثم ذكر - تعالى - ثواب عباده، فقال:

﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [٦١] لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا [٦٢] تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦١ - ٦٣].

قال المفسرون: ليس في الجنة بكرة ولا عشية، ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء والعشاء.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

ومن مظاهر تفرده - تعالى - أنك لا تجد على وجه الأرض ومر الزمان من تسمى باسم (الله) أو (الرحمن) سواه - تعالى - .
ذكر ابن تيمية - رحمه الله - في مجموع الفتاوى أن هذه الآية: جمعت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

* لما ذكر - تعالى - طائفة من قصص الأنبياء للعة والاعتبار، وذكر أصحاب الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، ذكر إثبات قدرته - تعالى - على الإحياء بعد الفناء، وإثبات يوم المعاد، وذكر هنا بعض شبهات المكذبين للبعث والنشور، المستبعدين لوقوعه، ورد عليها بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، فقال تعالى:

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ أَإِذَا مَاتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾.

أي: يقول الكافر الذي لا يصدق بالبعث بعد الموت على وجه الإنكار والاستبعاد: أئذا مت وأصبحت تراباً ورفاتاً فسوف أخرج من القبر حياً؟ هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا بحسب عقله الفاسد ومقصده السيء.

قال ابن كثير: يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، واللام «لسوف» للمبالغة في الإنكار، وهو إنكار منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى، أي كان؟ وكيف كان؟ ولو تذكر لعلم أن الأمر أيسر مما يتصور.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾.

أي: أولا يلفت نظره، ويتذكر هذا المكذب الجاحد أول خلقه فيستدل بالبداة على الإعادة؟ ولم يك شيئاً، ويعلم أن الله الذي خلقه من العدم قادر على أن يعده بعد الفناء وتشتت الأجزاء؟

قال بعض العلماء: لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها، إذ لا شك أن الإعادة ثانياً أهون من الإيجاد أولاً.

وفي قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ دعوة للنظر، بالدليل العقلي، باللفظ خطاب، وأن إنكار من أنكر ذلك، مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه، لم ينكر ذلك.

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة، وعن أهوال ذلك اليوم الرهيب، حيث يجثو فيه الكفرة المجرمون حول جهنم ليقذفوا فيها، ويكونوا وقوداً لها.

ثم أتت الآيات في سياق عام لسائر الخلائق برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فقال تعالى:

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾.

أي: وما منكم أحد من بر أو فاجر إلا وسيرد على النار بالمرور على الصراط المنصوب على متن جهنم، المؤمن للعبور، والكافر للقرار. كان ذلك الورود قضاء لازماً لا يمكن خلفه.

روي الإمام أحمد: عن قيس بن حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكى فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك؟ فقالت: رأيت تبكي فبكيت، قال: إني ذكرت قول الله ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فلا أدري أنجو منها أم لا؟

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

أي: ننجي من جهنم بعد مرور الجميع عليها الذين اتقوا ربهم بطاعته، والبعد عن معصيته. ونترك الظالمين لأنفسهم بالكفر بالله في جهنم قعوداً على الركب، والآية دليل على أن المراد بالورود، الجثو حوالها، وأن المؤمنين يفارقون الفجرة إلى الجنة بعد نجاتهم، ويبقى الفجرة فيها على هيئاتهم.

* قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئًّا ۖ﴾

[مريم: ٧٤].

قال ابن تيمية: الأثاث: المال واللباس ونحوه، والرئي المنظر، فأخبر أن الذين أهلكهم قبلهم كانوا أحسن صوراً، وأحسن أثناً وأموالاً، ليبين أن ذلك لا ينفع عنده، ولا يعبأ به.

* ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ

وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدًّا ﴿٨٢﴾ [مريم: ٨٢ - ٨٢].

قال ابن تيمية: ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل.

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ۖ﴾

[مريم: ٨٣].

فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وغمّة، وخاطر الحق يكون بروح وسكينة.

* قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۖ﴾ [مريم: ٨٥].

يحشر المتقون بهذه الهيئة إلى الجنة كما تفد الملوك على الملوك تبجيلاً لهم، وتقدم لهم الهدايا والجوائز.

* قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۖ﴾ [مريم: ٩٢].

نفى - سبحانه - عن نفسه الولد في التعبير باسم الله (الرحمن) في هذا المقام: إشارة إلى صبره - تعالى - على أذاهم وإمهاله لهم لعلهم يرجعون ويتوبون.

﴿إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۖ﴾ [مريم: ٩٣].

قال النسفي: وفي اختصاص الرحمن وتكريره مرات بيان أنه الرحمن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره، لأن أصول النعم وفروعها منه، فلينكشف عن بصرك غطاؤه، فأنت وجميع ما عندك عطاؤه، فمن أضاف إليه ولداً

فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن .
 * ثم قال - تعالى - مبشراً :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝١١ ﴾ .

أي : إن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، سيحدث لهم في قلوب عباده الصالحين في السماء والأرض محبة ومودة ، يحبهم الله ويحبهم إلى الناس ، وإذا كان لهم في القلوب وُدٌّ ، تيسر لهم كثير من أمورهم ، وحصل لهم من الخيرات والدعوات ، والإرشاد والقبول والإنابة ما حصل ، وبكل حال ، فطلبُ شرف الآخرة يحصل معه شرف الدنيا ، وإن لم يرده صاحبه ولم يطلبه ، وطلب شرف الدنيا لا يجمع شرف الآخرة ولا يجتمع معه ، والسعيد من أثر الباقي على الفاني .

سورة طه ٢٠

سورة طه سورة مكية، تركز على جانب العقيدة ونبد الشرك وإخلاص العبادة لله - عز وجل -، واتباع رسوله ﷺ، والإيمان به، والإيمان بالبعث والنشور.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: سورة طه مضمونها تخفيف أمر القرآن، وما أنزل الله - تعالى - من كتبه فهي سورة كتبه؛ كما أن مريم سوره عباده ورسله.

في هذه السورة الكريمة تظهر شخصية الرسول ﷺ، في شد أزره، وتقوية روحه، حتى لا يتأثر بما يلقي إليه من الكيد والعناد، والاستهزاء والتكذيب، ولإرشاده إلى وظيفته الأساسية، وهي التبليغ والتذكير، والإنذار والتبشير، وليس عليه أن يجبر الناس على الإيمان. وقد نزلت هذه السورة والمسلمون في عناء شديد من أذى الكفار، خاصة بعد إعلانهم الدعوة إلى الله والصدع بها، وقد كانت قراءة أول هذه السورة سبباً لإسلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

✽ قال تعالى في أول السورة:

﴿طه ١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝

الحروف المقطعة للتنبية إلى أعجاز القرآن، وليس اسماً للنبي ﷺ. وقال ابن عباس: معناها يا رجل. ونزلت الآيات في «سورة طه» تطيباً لقلبه ﷺ، وتسلية لفؤاده عما يلقاه من صدود وعناد، ومعنى الآية: ليس المقصود بالوحي وإنزال القرآن عليك - يا محمد - لتشقى بما لا طاقة لك به من العمل، إنما أنزلناه رحمة وسعادة، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة الأبدان.

روي أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه القرآن صلى هو وأصحابه فأطال القيام، فقالت قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فنزلت هذه الآية.

قال قتادة في قوله تعالى ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ لا، والله ما جعله الله شقياً، ولكن جعله الله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة.

* قال تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه: ٥].

قال ابن القيم: العرش أوسع المخلوقات، والرحمة أوسع الصفات، فتعالى من استوى علي أوسع المخلوقات بأوسع الصفات.

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾.

أي: ربكم هو الله المتفرد بالوحدانية، لا معبود بحق سواه، ذو الأسماء الحسنة التي هي في غاية الحسن، ومن حسناتها: أنها كلها أسماء دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسناتها أنها ليست أعلاماً محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، ومن حسناتها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها، ومن حسناتها أنه أمر العباد أن يدعوه بها؛ لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من حفظها، ويحب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها، وفي الحديث: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» [رواه الترمذي].

قال السعدي - رحمه الله -: إن معرفة أسماء الله وصفاته على الوجه الذي أخبر به - عز وجل - ورسوله ﷺ توجب على العبد القيام بعبوديته - سبحانه - على الوجه الأكمل، فكلما كان الإيمان بها أكمل، كان الحب والإخلاص والتعبد أقوى، وأكملهم عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر، فالإيمان بما تقتضيه الأسماء والصفات يوجد استقامة كاملة في العبد، وإن النفوس قد تهفو إلى مقارنة الفواحش والذنوب، فتذكر أن الله يراها ويصرها، وتذكر وقوفها بين يدي الله - عز وجل - فترعوي وتتجنب المعصية، وقد يقع الإنسان في الذنب

والمعصية ثم يذكر سعة رحمه الله، فلا يتمادى في الخطيئة، ولا يوغل في طريق الهاوية، بل يعود إلى التواب الرحيم، قارعا بابه فيجده توابا رحيمًا ودودًا.

*** قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ**

﴿١٦﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٥ - ١٦].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -: وهذا تنبيه وإشارة إلى التحذير من كل داع إلى باطل يصد عن الإيمان الواجب، أو عن كماله، أو يوقع الشبهة في القلب، وعن النظر في الكتب المشتملة على ذلك.

*** موسى - عليه السلام -** أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن لشبه حال قومه بكفار قريش، بل له الفضل الذي بوأه الله إياه. ولما بين - تعالى - لموسى أصل الإيمان، أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه، وتقربه عينه، ويقوى إيمانه بتأييد الله له على عدوه، فقال تعالى:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [١٧].

أي: وما هذه التي بيمينك يا موسى؟ أليست عصا؟ والغرض من الاستفهام التقرير والإيقاظ، والتنبيه إلى ما سيجد من عجائب صنع الله في الخشبة اليابسة بانقلابها إلى حية، لتظهر لموسى القدرة الباهرة، والمعجزة القاهرة. قال ابن كثير: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها؟ فسترى ما نصنع بها الآن؟

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهْشُوا عَلَيَّ غَنَمِي﴾ [١٨].

قال موسى: هي عصاي أعتمد عليها في حال المشي، وإذا عييت فيحصل فيها معونة. وأهز بها الشجرة، وأضرب بها على الأغصان ليتساقط ورقها فترعاه غنمي، فذكر هاتين المنفعتين، الأولى منفعة لجنس الآدمي، والثانية منفعة للبهائم، وهذا الخلق الحسن من موسى - عليه السلام -، الذي من آثاره، حسن رعاية الحيوان البهيم، والإحسان إليه دل على عناية من الله

له، واصطفاء، وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته .
وفي قوله ﴿وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ نسبها لنفسه فعل الأجير الأمين فإن الغنم لوالد زوجته شعيب .

﴿وَلِي فِيهَا مَقَارِبُ أُخْرَى﴾ .

أي: ولي فيها مصالح ومنافع وحاجات آخر غير هذين الأمرين، مما يستعمل فيه العصا في السفر، فكان يحمل بها الزاد، ويشد بها الحبل فيستقي الماء من البئر، ويقتل بها الحيات وغير ذلك من المنافع .
قال المفسرون: كان يكفي أن يقول هي عصاي ولكنه زاد في الجواب؛ لأن المقام مقام مباسطة، وقد كان ربه يكلمه بلا واسطة، فأراد أن يزيد في الجواب ليزداد تلذاذاً بالخطاب، وكلام الحبيب مريح للنفس ومذهب للعناء، ومن أدب موسى - عليه السلام -، أن الله لما سأله عما في يده، ولما كان السؤال محتملاً عن السؤال عن عينها، أو منفعتها، أجابه بعينها، ومنفعتها .

* قال - تعالى - عن العصا: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٣٠] .
كانت نباتاً، ثم استحالت جماداً، ثم انقلبت حيواناً فتعالى من يصرف الأمور .

* ثم أمر - عز وجل - وأوحى إليه، أن يتوجه إلى فرعون رأس الكفر والطغيان .

﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ .

أي: اذهب بما معك من الآيات إلى فرعون، إنه تكبر وتجبّر وجاوز الحد في الطغيان حتى ادعى الألوهية، فامتثل موسى أمر ربه، وتلقاه بالانشرح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب؛ لأنه عرف أنه كلف أمراً عظيماً يحتاج إلى صدر فسيح، ودعا ربه .

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ .

قال موسى: رب وسع صدري ليتحمل المشاق وردىء الأخلاق من فرعوون وجنده، ونوره بالإيمان والنبوة. وسهل عليّ القيام بما أمرتني به، من تبليغ الرسالة إلى فرعون.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۖ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (٢٨).

أي: حل وأزل هذه الكنة الحاصلة في لساني حتى يفهموا كلامي.

قال المفسرون: عاش موسى في بيت فرعون فوضعه فرعون مرة في حجره وهو صغير، فجر لحية فرعون بيده، فهم بقتله، فقالت له زوجته آسية: إنه لا يعقل وسأريك بيان ذلك؛ قدم إليه جمرتين ولؤلؤتين، فإن أخذ اللؤلؤة عرفت أنه يعقل، وإن أخذ الجمرة عرفت أنه طفل لا يعقل، فقدم إليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه فكان في لسانه حبسة.

﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۚ هَٰرُونَ أَخِي ۖ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَىٰ ۚ وَأَشْرِكُهُ

فِي أَمْرِي﴾ (٢٩).

أي: اجعل لي معيناً وظهيراً يساعطني ويكون من أهلي، لتقوي به يا رب ظهري، ويكون عوناً لي. واجعله شريكاً لي في النبوة، وتبليغ الرسالة كما جعلتني، وهو أخي هارون لأنه من باب البر، وأحق ببر الإنسان قرابته. وهذا أصل في استصحاب معاون على الأمر والنهي. ثم ذكر الفائدة في ذلك، فقال:

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۚ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٠).

أي: كي نتعاون على تنزيهك عما لا يليق بك، ونذكرك بالدعاء والثناء عليك، ونتعاون على البر والتقوى.

- وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٣١) إلى قوله: ﴿كَيْ

نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٢) [طه: ٢٥ - ٢٣]. أدب من آداب الدعاء، وهو نبل الغاية، وشرف المقصد.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ۝﴾ .

أي: عالماً بأحوالنا وضعفنا، وعجزنا، وافتقارنا إليك في كل الأمور، لا يخفى عليك شيء من أعمالنا. طلب موسى من ربه أن يعينه بأخيه يشد به أزره، لما يعلم منه من فصاحة اللسان، وثبات الجنان، وأن يشركه معه في المهمة لما يعلم من طغيان فرعون وتكبره وجبروته.

* بعد أن أطال موسى سؤاله وبسط حاجته، وكشف عن ضعفه، وطلب العون والتيسير من ربه، وهو العارف به، وبجوده وكماله وإحسانه، سئل سؤال فقير محتاج، ضعيف يطلب العون، فما كان من الجواد الكريم، إلا أن استجاب دعاء موسى، وأتم له مراده، قال تعالى:

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيَ سُؤْلُكَ يَمُوسَى ۝ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ۝﴾ .

أي: قال الله: أعطيت يا موسى جميع ما سألت، وما طلبت. ثم ذكره - تعالى - بالنعم العظام عليه ليزيده اطمئناناً وأنساً بموصول رحمته وقديم رعايته. فإنه - عز وجل - لما ذكر منته على عبده ورسوله، موسى ابن عمران، في الدين والوحي، والرسالة وإجابة سؤاله، ذكر نعمته عليه، وقت التربية، والتنقلات في أطواره، فقال تعالى:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا يُوْحَىٰ ۝﴾ .

أي: ألهمناها ما يلهم، مما كان سبباً في نجاتك، ثم فسر ذلك الإلهام وعدد نعمه عليه، فقال:

﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ ۝﴾ .

أي: ألهمناها أن اجعلي هذا الطفل في الصندوق، ثم اطحيه في نهر النيل.

﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ۝﴾ .

﴿فَلْيُلْقِهِ ۝﴾ أمر معناه الخبر جاء بصيغة الأمر مبالغة إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها، فاتخذت أم موسى تابوتا ووضعت فيه موسى ثم ألقتة في النيل،

وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون، فأمر الله اليم أن يلقيه النهر على شاطئه.

وفي فعل أم موسى مقتضى التسليم للأمر الشرعي، القته دون أن تسأل عن الحكمة مع شدة غرابة الأمر وخطورته.

وقيض الله أن يأخذه فرعون عدوي وعدوه، فبينما فرعون جالس على رأس البركة مع امرأته آسية، إذ تابوت يجيء به الماء، فأمر الغلمان والجواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوا رأسه، فإذا صبي من أصبح الناس وجهاً، فلما رآه فرعون أحبه بحيث لم يتمالك، فذلك قوله تعالى:

﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.

أي: زرعت في القلوب محبتك بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك، حتى أحبك عدوك فرعون.

قال ابن عباس: أحبه الله وحببه إلى خلقه. ولعل إلقاء المحبة عليه أن أعجبت بنت شعيب بقوته وأمانته، فأومات إلى رغبتها فيه، فأواه شعيب وزوجه إحدى ابنتيه.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾.

ولتربي بعين الله، بحفظه ورعايته.

* ثم ذكر - تعالى - ما جرى من أخت موسى - عليه السلام -، حيث

أنه لما استقر عند آل فرعون، وعرضوا عليه المراضع فأباها. فقال:

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾.

أي: حين تمشي أختك وتتبع أثرك، فتقول لآل فرعون حين طلبوا لك

المراضع: هل أدلكم على من يضمن لكم حضانته ورضاعته؟

قال المفسرون: لما التقطه آل فرعون جعل لا يقبل ثدي امرأة؛ لأن الله

حرم عليه المراضع وبقيت أمه بعد قذفه في اليم مغمومة، فأمرت أخته أن

تتبع خبره، فلما وصلت إلى بيت فرعون ورأته، قالت: هل أدلكم على

امرأة أمينة فاضلة تتعهد لكم رضاع هذا الطفل؟ فطلبوا منها إحضارها، فأنت بأم موسى فلما أخرجت ثديها التقمه، ففرحت زوجة فرعون فرحاً شديداً، وقالت لها: كوني معي في القصر، فقالت: لا أستطيع أن أترك بيتي وأولادي ولكن آخذه معي وآتي لك به كل حين، فقالت: نعم، وأحسنتم إليها غاية الإحسان، فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أغنى وأجزل، فذلك قوله تعالى:

﴿فَرَجَعْنَكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ﴾ .

أي: رددناك إلى أمك بعدما صرت في أيدي فرعون لكي تسر بلقائك، وتطمئن بسلامتك ونجاتك، ولكيلا تحزن على فقدك وفراقك.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ﴾ .

هذه منة أخرى على موسى، أي: قتلت القبطي خطأ حين أصبحت شاباً، فنجيناك من غم القتل، وصرفنا عنك شر فرعون وزبانيته، وابتليناك ابتلاءً عظيماً بأنواع من المحن، فوجدناك مستقيماً في أحوالك.

قال ابن عباس: إن الفتون وقوعه في محنة بعد محنة خلصه الله منها، أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم إلقاءه في البحر في التابوت، ثم منعه الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم أخذه باللحية فرعون حتى هم بقتله، ثم تناوله الجمرة بدل الدرّة، ثم قتله القبطي، وخروجه إلى مدين خائفاً.

* ولما ذكر - تعالى - نعمته على موسى باستجابة دعائه وإعطائه سؤله، ذكر هنا ما خصه به وأنعم عليه من الاصطفاء والاجتباء، وأمره بالذهاب إلى فرعون مع أخيه هارون لتبليغه دعوة الله، ثم ذكر ما دار من الحوار بين موسى وفرعون وما كان من أمر السحرة، وسجودهم لله رب العالمين.

قال تعالى: ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۚ﴾ ﴿١١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِعَايَتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي

﴿١٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿١٤﴾ .

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿١٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ .

أي: تجبر وتكبر، وبلغ النهاية في العتو والطغيان، والكفر، والعدوان. فقولا لفرعون قولاً لطيفاً رقيقاً، دون فحش ولا غلظة في المقال، أو فظاظة في الأفعال، وهذا اللين في الأسلوب والطريقة، ولم يكن في المضمون والعقيدة.

وفي هذه الآية عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين.

فسبحانه ما أعظمه وأحلمه، يتحجب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه.

﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ تَخْشَىٰ﴾ ﴿١٤﴾ .

أي: لعله يتذكر عظمة الله، أو يخاف عقابه فيرتدع عن طغيانه، ويعرف ما يضره فيتركه، فإن القول اللين داع لذلك، والقول الغليظ منفر عن صاحبه. قرأ رجل عند يحيى بن معاذ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ فبكى يحيى، وقال له: إلهي هذا رفقك بمن يقول أنا الإله، هذا رفقك بمن قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿٢٤﴾ [النازعات: ٢٤] فكيف بمن قال: سبحان ربي الأعلى.

* ثم قال - تعالى - إخباراً عن موسى وهارون - عليهما السلام -، أنهما قالوا مستجيرين بالله - تعالى -، شاكين إليه:

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ ﴿١٥﴾ .

أي: قال موسى وهارون: يا ربنا إننا نخاف إن دعوانه إلى الإيمان أن يعجل علينا العقوبة بالقتل، أو يجاوز الحد في الإساءة إلينا قبل أن نبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة.

وفي هذا دلالة على أن الخوف من شر البشر لا يضير الإيمان، وليس دليلاً على نقصه، لأن هذا الخوف يتبعه الاستعداد للأمر والحذر والحيلة.

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (١١).

أي: لا تخافا من سطوته وجبروت، إنني معكما بالنصرة والعون والحفظ والتأييد، أسمع جوابه لكما، وأرى ما يفعل بكما، أنتما بحفظي ورعايتي، فزال الخوف عنهما واطمأنت قلوبهما بوعد ربهما.

ومع الطمأنينة والهداية إلى صورة الدعوة وطريق الجدل.

﴿ فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾.

أي: فأتيا فرعون بهذين الأمرين لدعوته، وقولا: إنا رسولان من عند ربك، أرسلنا إليك، وتخصيص الذكر بلفظ ﴿ رَبِّكَ ﴾ علامة أنه مربوب وعبد مملوك لله إذ كان يدعي الربوبية، وفي ضمن الكلام: إنا لم نأتك لننازعك ملكك، ولا نشركك فيه.

﴿ فَأَرْسَلْنَا مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ

مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَى ﴾ (١٢).

أي: أطلق سراح بني إسرائيل وخل عنهم، ولا تعذبهم بتكليفهم بالأعمال الشاقة. قد جئناك بمعجزة وحجة تدل على صدق ما ادعيناها. والسلامة من عذاب الله لمن اهتدى وآمن بالله.

قال المفسرون: لم يقصد به التحية لأنه ليس بابتداء الخطاب، وإنما قصد به السلام من عذاب الله وسخطه، أو هو خبر محض، فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون من خالفه. فجمعت الآية طلب الإنصاف، وإقامة الحجة، وبيان ما يستحقه السامع المطيع، وما يستحقه المكذب المتولي، باللفظ خطاب، وألين قول، وأبلغ ترغيب وترهيب.

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ (١٣).

أي: وقد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا، أن العذاب الأليم على من كذب أنبياء الله وأعرض عن الإيمان، وتولى عن الانقياد لهم واتباعهم، وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما، والترهيب من ضد ذلك.

وفي الآية تدرج عجيب، ففي البدء إيضاح قاعدة رسالتهم ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ليقر منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلهاً هو ربه، ثم إيضاح لموضوع رسالتهم ﴿فَأَرْسَلْنَا مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا نُعَذِّبُهُمْ﴾، ثم استشهاد على صدقهما في الرسالة ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِغَايَةِ مِّنْ رَبِّكَ﴾ ثم ترغيب واستمالة. ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ أَهْدَىٰ﴾ ثم تهديد وتحذير غير مباشرين كي لا يشيرا بكبرياءه وطغيانه ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾. وفي هذا بيان شاف لأصول الدعوة وأساليبها.

✽ قال تعالى: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ﴾ [طه: ٥٢].

وهو الحفيظ: يحفظ أعمال العباد ويحصى أقوالهم، ويحفظ عباده من المهالك والمعاطب، حفظ يونس - عليه السلام - وهو في بطن الحوت في لجج البحار، وحفظ موسى - عليه السلام - وهو رضيع في اليم، فتوكل على الله في حفظ نفسك وأولادك، فلا تعاويز شركية ولا تائم ولا سحرة ولا كهان، وهو القوي؛ لا يعجزه شيء، قوي في بطشة.

قال ابن جرير - رحمه الله -: إذا بطش بشيء أهلكه، أمر جبريل - عليه السلام - بقلب قرية عاتية بالفواحش قوم لوط فعلا بها بطرف جناحه لهم قلبها بمن فيها وجعلها آية للاعتبار عبر القرون ﴿وَأَنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ﴾ وبالبَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨]، ومن تأمل قوة من عصى ترك ما عصى.

✽ ثم قال - عز وجل -:

﴿مِّنْهَا خَلَقْنَاهُ وَفِيهَا نُعِيدُهُكُمْ﴾ [طه: ٥٥].

دليل على أن دفن الأموات في الأرض هو الطريقة الشرعية لمواراة الموتى. خلاف ما يفعله بعض الأمم المنحرفة عن الطريق الشرعي بالإحراق أو الإغراق.

* ثم لما تكبر فرعون وعصى ، وجمع كيده وسحرته ضرب بينهم :

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ تُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه: ٦٤] .

قال موسى : موعدنا للاجتماع يوم العيد - يوم من أيام أعيادهم - وأن يجتمع رؤوس الأشهاد، وقت الضحى لتكون أبعد عن الريبة، وأبين، ولتحصل رؤية الأشياء على حقائقها ويشيع ذلك في الأقطار بظهور معجزة للناس .

﴿ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا ﴾ [طه: ٦٤] .

لأن ذلك أهيب لهم وأوقع في قلب العدو .

* قال تعالى - في قصة موسى مع السحرة : ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ

أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ [طه: ٦٥] .

قال ابن كثير : والحكمة في هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه ، فإذا فرغوا من بهرجهم ، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له ، وانتظار منهم لمجيئه ، فيكون أوقع في النفوس ، وكذا كان .

* ولما ألقى موسى عصاه ، خر السحرة سجدا :

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَمِينِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ

قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [طه: ٧٢] .

فيها أن السجود من أعظم ما ينال العبد عظيم اليقين ، فألقى في قلوب السحرة الإيمان واليقين ووجدوا حلاوته ، رغم أنهم ليس لهم أيام ولا شهور ولا أعوام في الطاعة والإيمان والعمل الصالح ، لكن تلك الخطوة الإلهية نالوها ببركة سجودهم ، حتى يعلم أثر العمل الصالح على قلب العبد .

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه: ٧٩] .

ولم يقل : (وما هداهم) وذلك أنه أخرج الفعل مخرج العموم ، أي إن فرعون لم يتصف بصفة الهداية البتة . ولو قال : (وما هداهم) لكان عدم الهداية مقيدا بقومه إذ يحتمل أنه هدى غيرهم ، لكنه قال : ﴿ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٠] أي : ما هدى أحدا .

﴿ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ ٨٢﴾ .

وهو الغفور، يمحو ذنوب من أناب إليه من عباده، وإن تناهت خطاياهم، غفر لسحرة فرعون كفرهم وسحرهم ومبارزتهم لنبيهم، بسجدة واحدة لله مقرونة بتوبة.

من أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف، قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: ٨٢). فإنه علق المغفرة على أربعة شروط، يصعب تصحيحها. وقد جمعت هذه الآية الأسباب التي تدرك بها مغفرة الله. ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (طه: ٨٤).

قال ابن القيم: وظاهر الآية أن الحامل لموسى على العجلة هو طلب رضى ربه، وأن رضاه في المبادرة إلى أوامره والعجلة إليها، ولهذا احتج السلف بهذه الآية على أن الصلاة في أول الوقت أفضل، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر ذلك، قال: إن رضى الرب في العجلة إلى أوامره.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقُومِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ (طه: ٩٠).

اعلم أن هارون - عليه السلام -، سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه، لأنه زجرهم عن الباطل أولاً، بقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾، ثم دعاهم لمعرفة الله - تعالى - ثانياً، بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾، ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة، بقوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾.

﴿ قَالَ الشَّنْقِيطِيُّ: إِذَا ضَمَمْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ (طه: ٩٤) إِلَى قَوْلِهِ سَبَّحَانَهُ - لَمَّا ذَكَرَ جُمْلَةً مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَمِنْهُمْ

هارون - : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنُهُمْ أَقْتَدِهٖ﴾ [الأنعام: ٩٠] تبين لزوم إعفاء اللحية وعدم حلقها؛ لأن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا ﷺ بالاعتداء بهم، وأمره ﷺ بذلك أمر لنا.

* قال تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: ٩٤].
قال ابن كثير: ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف.
وقال الشنقيطي: وإنما قال هارون لأخيه: قال: يا ابن أم؛ لأن قرابة الأم أشد عطفاً وحناناً من قرابة الأب.

* وفي ثانيا السورة الكريمة تبرز بعض مشاهد القيامة، في عبارات يرتجف لها الكون، وتهتز لها القلوب هلعاً وجزعاً، ويعتري الناس الدهول والسكون، فقد ذكر - تعالى - أهوال يوم القيامة، وما فيها من الزلازل والقلاقل، فقال:

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾﴾.

أي: فيدع أماكن الجبال من الأرض أرضاً ملساء مستوية، لا نبات فيها ولا بناء. لا يرى الناظر إليها من استوائها ميلاً وانخفاضاً ولا ارتفاعاً، فتبرز الأرض، وتتسع للخلائق، ويمدها الله من الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعون الداعي، وينفذهم البصر، ولهذا قال:

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٨﴾﴾.

أي: ذلت وسكتت أصوات الخلائق هيبة من الرحمن - جل وعلا -، وإجلالاً له. ووصف الأصوات بالخشوع والمراد أهلها، فلا تسمع إلا وطمء الأقدام، أو لا تسمع إلا صوتاً خفياً لا يكاد يسمع.
عن ابن عباس: هو همس الأقدام في مشيها إلى المحشر.

* وعرضت السورة ليوم الحشر الأكبر، حيث يتم الحساب العادل، ويعود الطائعون إلى الجنة، ويذهب العصاة إلى النار، تصديقاً لوعد الله الذي لا يتخلف، بإثابة المؤمنين وعقاب المجرمين. يذكر الله - عز وجل - في ذلك الموقف موقع الشفاعة وأثرها، وأنها لا تنفع إلا بشروطها، قال تعالى:

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [١١٢].

أي: ذلت وخضعت وجوه الخلائق للواحد القهار، جبار السموات والأرض الذي لا يموت، القائم على تدبر شؤون خلقه. وقيل: المراد بالوجوه وجوه العصاة وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة والشقوة وسوء الحساب، صار وجوههم عانية، أي: ذليلة خاضعة، مثل وجوه العناة وهم الأسارى. قال القرطبي: وكنى عن الناس بالوجوه، لأن آثار الذل إنما تبين في الوجه.

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [١١٢ طه].

لأن العمل لا يقبل من غير إيمان.

* قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۚ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [١١٤ طه]. وفي وصفه بالحق إيماء إلى أن ملك غيره من المتسمين بالملوك لا يخلو من نقص.

وفيه تلميح مع النبي ﷺ، إذ أتبع نهيه عن التعجل الذي يرغبه بالإذن له بسؤال الزيادة من العلم، فإن ذلك مجمع كل زيادة سواء كانت بإنزال القرآن أم بغيره من الوحي والإلهام إلى الاجتهاد تشريعاً وفهماً، إيماء إلى أن رغبته في التعجل رغبة صالحة.

ويؤخذ منها الأدب في تلقي العلم، وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأني ويصبر، حتى يفرغ المملي والمعلم من كلامه، المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال، وقطع كلام ملقي العلم، فإنه سبب للحرمان.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقوله عز وجل: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ واضح الدلالة في فضل العلم، لأن الله - تعالى - لم يأمر نبيه بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم.

* ثم عرضت السورة لقصة آدم، ورعاية الله له وعنايته به أن حذره من عدوه إبليس عقب نشوزه وعصيانه، ثم برزت رحمة الله لآدم بعد الخطيئة، وهدايته لذريته بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، ثم ترك الخيار لهم لاختيار طريق الخير أو الشر، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

أي: نسي أمرنا ولم نجد له حزمًا وصبرًا عما نهيناه عنه، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعته، نسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ فخطئوا، وتأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم. ثم يذكر - تعالى - تشریف آدم وتكريمه وما فضله به على كثير من الخلق:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾.

أي: واذكر - يا محمد - حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم، فامثلوا الأمر وأطاعوا إلا إبليس، فإنه أبى السجود وعصى أمر ربه. وقد كررت هذه القصة في سبع سور من القرآن تعليمًا للعباد امتثال الأوامر، واجتناب النواهي وتذكيرًا لهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم.

* ﴿فَقُلْنَا يَتَّعَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ

فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧].

أي: ونبهنا آدم فقلنا له إن إبليس شديد العداوة لك ولحواء حيث لم يسجد لك ولم ير فضلك، فاحذرا منه، ولا تطيعاه بمعصيتي. فيكون سبباً لإخراجكما من الجنة ففتعبان وتنصبان، وإنما اقتصر على شقائه مراعاة للفواصل، ولاستلزام شقائه لشقائها.

قال ابن كثير: المعنى إياك أن يسعى في إخراجك من الجنة فتتعب وتشقى في طلب رزقك، فإنك ههنا في عيش رغيد، بلا كلفة ولا مشقة، وتأمل كيف شرك بينهما في الخروج من الجنة، وخص الذكر بالشقاء؛ لأن الأصل أن الذكر هو الذي يشتغل بالكسب والمعاش، وأما المرأة فهي في خدرها. ولا شك أن هذا من التكريم لها وصيانتها، ومراعاة ملكات وقدرات كل من الجنين وما خلق له من أعمال الدنيا.

قيل: أسند الشقاء إلى آدم دون حواء؛ لوجهين. أن في ضمن شقاء الرجل شقاء أهله، كما أن في سعادتهم سعادته؛ لأنه القيم عليهم. والثاني: من الشقاء التعب في طلب القوت، وذلك على الرجل دون المرأة؛ لأن الرجل هو الساعي على زوجته.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾.

أي: إن لك يا آدم، ألا ينالك في الجنة الجوع، ولا العري عن الملابس؛ لأنها معدة أبداً فيها، وقرن بين الجوع والعري؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾.

أي: ولك أيضاً ألا يصيبك العطش فيها ولا حر الشمس، إذ ليس فيها شمس فأهلها في ظل ممدود؛ ولأن الجنة دار السرور والحبور، لا تعب فيها ولا نصب، ولا حر ولا ظمأ، بخلاف دار الدنيا، فضمن له استمرار الطعام والشراب، والكسوة والماء، وعدم التعب والنصب، وقرن به الظمأ والضحى فالظمأ حر الباطن وهو العطش، والضحى حر الظاهر.

من عجائب هاتين الآيتين - رغم قصرهما - : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ [١١٨ - ١١٩] .
 أنهما جمعتا أساسيات الحياة، وهما أكثر ما يشد الإنسان إلى الحياة
 الهنية: الطعام، واللباس، والشراب، والسكن.
 وفيها أن الحشمة والستر من نعيم الجنة الذي تتلذ به النفوس العفيفة في
 دنياها.

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ [١٢٠] فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لُهُمَا سَوْءُ تَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ .

أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها، فظهرت لهما عوراتهما
 وكانت مستورة عن أعينهما.

قال ابن عباس: عريا عن النور الذي كان الله - تعالى - قد ألبسهما
 إياه حتى بدت فروجهما. وشرعا يأخذان من أوراق الجنة، وهو ورق التين
 ويغطيان بها عوراتهما ليستترا بها.

* قال تعالى: ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [١٢٣] .

قال ابن الجوزي: فوجدته على الحقيقة أن كل من اتبع القرآن والسنة
 وعمل بما فيهما، فقد سلم من الضلال بلا شك، وارتفع في حقه شقاء
 الآخرة بلا شك إذا مات على ذلك، وكذلك شقاء الدنيا فلا يشقى أصلاً،
 ويبين هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢] .

قال ابن عباس: من قرأ القرآن واتبع ما فيه، هداه الله من الضلالة،
 ووقاه سوء الحساب، ولقد ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا
 ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية.

وقال ابن تيمية: من اتبع هداه المنزل فإنه لا يضل كما ضل الضالون، ولا يشقى كما شقى المغضوب عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

قال ابن كثير: أي ضنكاً في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح ل صدره، بل صدره ضيق حرج لضلالة، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة. وقد ذكر المعيشة الضنك، في مقابلة التوسيع على النفس والبدن بالشهوات واللذات والراحة، فإن النفس كلما وسعت عليها ضيقت على القلب حتى تصير معيشة ضنكاً، وكلما ضيقت عليها وسعت على القلب حتى ينشرح وينفسح.

* قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠].

أي: اصبر على ما تقوله قريش كما صبر موسى من قبل على إيذاء قومه، وفي الآية: أمران كريمان: أمر بالصبر، وأمر بعبادة الله وطاعته، وهذان الأمران هما أعظم علاج لمشكلات الحياة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

* وختمت السورة ببعض التوجيهات الربانية للرسول ﷺ في الصبر، وتحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله. قال تعالى:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٦].

فإضافة ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ﴾ إضافة تشريف، وإلا فالرزق كله من الله، ولكن رزق الكافرين لما خالطه وحف به حال أصحابه من غضب الله عليهم، ولما فيه من التبعة على أصحابه في الدنيا والآخرة لكفرانهم النعمة، جعل كالمنكور انتسابه إلى الله، وجعل رزق الله هو السالم من ملابسة الكفران ومن تبعات ذلك.

قال ابن تيمية: ومن نظر إلى الخيل والبهائم والأشجار على وجه استحسان الدنيا والرئاسة والمال فهو مذموم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]، وأما إن كان على وجه لا ينقص الدين، وإنما فيه راحة النفس فقط، كالنظر إلى الأزهار، فهذا من الباطل الذي قد يستعان به على الحق.

* قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَابُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٣].

أي: لا نكلفك رزقا لنفسك ولا خلقنا، إنما نأمرك بالعبادة ورزقك علينا. وكان بكر بن عبد الله المزني إذا أصاب أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا، ثم يقول: بهذا أمر الله - تعالى - ورسوله، ويتلو هذه الآية. وفي قوله: ﴿وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أمر زائد على الصبر، والآباء والأمهات يعلمون ذلك الجهد والتعب لحث أبناءهم على الصلاة والمحافظة عليها.

سورة الأنبياء ٢١

سورة الأنبياء من السور المكية، وهي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية في ميادينها الكبيرة من الرسالة، والوحدانية، والبعث والجزاء، وتتحدث عن الساعة وشدائدها، والقيامة وأهوالها، وسورة الأنبياء سورة الذكر، وسورة الأنبياء الذين عليهم نزل الذكر، وفيها قصص الأنبياء والمرسلين. سميت «سورة الأنبياء»؛ لأن الله - تعالى - ذكر فيها جملة من الأنبياء الكرام في استعراض سريع، يطول أحياناً ويقصر أحياناً، وذكر جهادهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله، وتفانيهم في تبليغ الدعوة، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن غفلة الناس عن الآخرة، وعن الحساب والجزاء، بينما القيامة تلوح لهم، وهم في غفلة عن ذلك اليوم الرهيب، وقد شغلتهم مغريات الحياة عن الحساب المرقوب. ومطلع السورة مؤثر حقاً في النفوس المؤمنة، ومما يزيد تأثيراً أن نصفها إنذار للناس، والنصف الثاني توبيخ لهم على غفلاتهم.

قال ابن تيمية: وسورة الأنبياء سورة الذكر، وسورة الأنبياء الذين عليهم نزل الذكر، افتتحها بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]، وقوله: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعَىٰ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وقوله: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

✽ قال - تعالى - في مطلع السورة:

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ هذا تعجب من حالة الناس، وغفلتهم، وتنبيه من الله - عز وجل - على اقتراب الساعة ودنوها، وأنه قد قرب ودنا وقت محاسبة الله للناس على أعمالهم يوم القيامة.

جاء في ترجمة الأمدي لعامر بن ربيعة أنه كان قد نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه، وقد أصاب أرضاً، فقال له: إني استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً في العرب، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

✽ قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

لم يقل: (يسبحون في الليل) لأن تسبيحهم مستمر في كل آن ولحظة! قال ابن بطال: من كان كثير الذنوب، وأراد أن يحطها الله عنه بغير تعب! فليغتنم ملازمة مكان مصلاه بعد الصلاة؛ ليستكثر من دعاء الملائكة واستغفارهم له، فهو مرجو إجابتهم، لقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

✽ قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي

يَذْكُرُ الْهَيْكَلُ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

قال السعدي: وفي ذكر اسمه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ هنا، بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن - مسدي النعم كلها ودافع النقم، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو - بالكفر والشرك.

✽ قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾

[الأنبياء: ٣٢].

مناسبة موقع الجملتين: أن ذكر استهزاء المشركين بالنبي ﷺ يهيج حق المسلمين عليهم، فيودوا أن ينزل بالمكذبين الوعيد عاجلاً فخطبوا بالتريث

وأن لا يستعجلوا ربهم لأنه أعلم بمقتضى الحكمة في توقيت حلول الوعيد، وما في تأخير نزوله من المصالح للدين . وأهمها مصلحة إمهال القوم حتى يدخل منهم كثير في الإسلام .

* قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩] .

وذكر (الوجوه) خاصة لشرفها من الإنسان وأنها موضع حواسه، وهو أحرص على الدفاع عنه، ثم ذكر (الظهور) ليبين عموم النار لجميع أبدانهم .

* قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢] .

وقدم الليل؛ لأنه زمن المخاوف لأن الظلام يعين أسباب الضرر على الوصول إلى مبتغاها من إنسان وحيوان، وعلل الأجسام .

* قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ مَسْتَهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَتَوَلَّيْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦] .

تأمل هذا التهديد والوعيد بأسلوب بديع: (المس) هو الإصابة الحقيقية، و﴿مِّنَ﴾ القليل من الشيء، و﴿نَفْحَةٌ﴾ دالة على التبويض، و(العذاب) أخف من النكال، و﴿رَبِّكَ﴾ هذا يدل على الشفقة .

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ [الأنبياء: ٥١] وفي ضد ذلك من يرغب في ذلك ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] .

* قال - تعالى - عن إبراهيم وهو يدعو:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ هَاهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] .

قال العلماء: وليس العكوف على التماثيل على الصور الممثلة فقط، بل تعلق القلب بغير الله وانشغاله به والركون إليه، عكوف منه على التماثيل

التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا سماه النبي ﷺ عبداً لها، ودعا عليه بالتعس والنكس، فقال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش».

* ثم وصف - تعالى - ماذا صنع إبراهيم - عليه السلام - بالأصنام:

﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل ممقوت عند الله لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين، يقول: «إلى عظيم الفرس»، «إلى عظيم الروم»، ونحو ذلك، ولم يقل: «إلى العظيم». ولعل هذا من إنزال الناس منازلهم رغبة في دعوتهم وهدايتهم، وأسرع نفاذاً لقبول الحق والدخول في الإسلام.

* فضل الله واسع وعطاءه عظيم يعطي بدون سؤال، ويعطي من سئل ويفيض بالجود.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ

﴾ [الأنبياء: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

﴾ [٢١] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ

عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ

الْوَارِثِينَ﴾ [٢١] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ زَوْجَةً إِنَّهُمْ كَانُوا

يُسرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [٢١]

[الأنبياء: ٨٩ - ٩٠].

* قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ

وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عِبِيدِينَ﴾ [٢١] وَلَوْ طَآءَ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا

وَنَجِّنَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٣﴾
وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٤﴾ [الأنبياء: ٧٣ - ٧٥].

قال ابن تيمية: بالصبر تترك الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات.
* قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وهذه الآية أصل في اختلاف الاجتهاد، وفي العمل بالراجح، وفي مراتب الترجيح، وفي عذر المجتهد إذا أخطأ الاجتهاد، أو لم يهتد إلى المعارض، لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت القضاة هلكوا، ولكنه - تعالى - أثنى على سليمان بصوابه، وعذر داود باجتهاده.

* لما ذكر - تعالى - جملة من الأنبياء: إبراهيم، ونوح، ولوط، وداود، وسليمان، وما نال كثيراً منهم من الابتلاء، ذكر هنا قصة أيوب وابتلاء الله له بأنواع المحن، في ماله وولده وجسده، ثم أعقبها بذكر محنة يونس وزكريا وعيسى، وكل ذلك بقصد التسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم، قال تعالى:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾.

أي: واذكر - يا محمد - قصة نبي الله أيوب مثنياً، معظماً له، رافعاً لقدره، حين ابتلاه ببلاء شديد، فوجده صابراً، راضياً عنه، ومكث في مرضه مدة طويلة، واشتد به البلاء، ومات أهله وذهب ماله، فصبر واحتسب، ودعا ربه بتضرع وخشوع.

﴿أَنِّي مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾.

قيل: ليس شكاية وإنما هو دعاء، حيث توسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه، أي: نالني البلاء والكرب والشدة.

قال المفسرون: كان أيوب نبياً من الروم، وكان له أولاد ومال كثير، فأذهب الله ماله فصبر، ثم أهلك الأولاد فصبر، ثم سلط البلاء والمرض على جسمه فصبر، فمر عليه ملاً من قومه، فقالوا: ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم، فعند ذلك تضرع إلى الله فكشف عنه ضره.

﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

أي: أكثرهم رحمة فارحمني، ولم يصرح بالدعاء ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه، فكان فيه من حسن التلطف، ما ليس في التصريح بالطلب.

وقد جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة، ووجود طعم المحبة في المتملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه - سبحانه - وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلي هذا كشف عنه بلواه.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾.

أي: أجبنا دعاءه وتضرعه. وأزلنا ما أصابه من ضر وبلاء، وضعف وسقم، إنعاماً عليه. وفي الآية من كمال التوحيد: التنزيه للرب - تعالى -، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله - سبحانه - في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كمال الله، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله وإقاله عثرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربه. فهاهنا أربعة أمور: قد وقع التوسل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف.

﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾.

أي: ورددنا عليه ما فقد من أهل وولد ومال مضاعفاً، وهذا من فضل الله وجوده، يعطي السائل فوق ما سئل. والمعنى: أعطيناه أهله في الدنيا،

ورزقناه من زوجته مثل ما كان له من الأولاد والأتباع .
قال ابن مسعود: مات أولاده وهم سبعة من الذكور، وسبعة من الإناث،
فلما عوفي أحيوا له، وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات .

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ .

أي: من أجل رحمتنا إياه، حيث صبر ورضي، فأثابه الله ثواباً عاجلاً قبل
ثواب الآخرة. وجعلناه تذكرة وعبرة لغيره من العابدين، ليصبروا كما
صبر، فيجعلوه أسوة وقدوة، عندما يصيبهم الضر، فالعابدون معرضون
للابتلاء والبلاء، وفي هذا تذكير للعباد؛ لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب
ومحنته وصبره؛ وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا، مثل ما فعل
أيوب، وهو أفضل أهل زمانه. يروى أن أيوب مكث في البلاء ثمان عشرة
سنة، فقالت له امرأته يوماً: لو دعوت الله - عز وجل - فقال لها: كم لبثنا
في الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة، فقال: إني أستحيي من الله أن أدعوه وما
مكثت في بلائي المدة التي مكثتها في رخائي .

* ثم قال - عز وجل - ذاكراً عباده المصطفين، وأنبياءه المرسلين،
بأحسن الذكر، وأجمل الثناء، قال تعالى:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ .

أي: واذكر لقومك قصة إسماعيل ابن إبراهيم، وإدريس بن شيث،
وذا الكفل، وهما نبيان من أنبياء بني إسرائيل. كل من هؤلاء الأنبياء
المذكورين، من أهل الإحسان والصبر، جاهدوا في الله وصبروا على ما
نالهم من الأذى، فاستحقوا الذكر بالثناء الجميل .

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

أي: أدخلنا بصبرهم وصلاتهم الجنة، دار الرحمة والنعيم؛ لأنهم
من أهل الفضل والصلاح، ويشمل صلاح القلوب، بمعرفة الله ومحبته،
والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان، بأن يكون رطباً من ذكر الله،

وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله، وكفها عن المعاصي، فبصبرهم وصلاحهم أدخلهم الله برحمته.

* ثم ذكر - عز وجل - عبده ونبيه ذا النون، أي: صاحب الحوت وهو يونس بن متى - عليه السلام -، ذكره بالذكر الجميل، والثناء الحسن، فقال تعالى:

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّضُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨].

قال رسول الله ﷺ: «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له» [رواه الترمذي].

﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّضُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - : وهذا وعدٌ وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم، أن الله - تعالى - سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف لإيمانه، كما فعل بـ (يونس) - عليه السلام -.

وقد ذكر - عز وجل - سبب الإنجاء للأنبياء المؤمنين، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقال - تعالى - في سورة الأنعام: ﴿وَنُوحِيْ وَيَسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلُّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: ٨٥].

قال القصاب: فالتهليل والتسبيح يجليان الغموم، وينجيان من الكرب والمصائب، فحقيق على من آمن بكتاب الله أن يجعلها ملجأ في شدائده، ومطية في رخائه، ثقة بما وعد الله المؤمنين من إلحاقهم بذي النون في ذلك،

حيث يقول: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَجْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّمُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وكرم الرب يتجاوز طمع الأنبياء فيه - مع عظيم علمهم به - فهذا زكريا لهج بالدعاء ونادى ربه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ فاستجيب له وجاءته البشري فلم يملك أن قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠] فله فما أعظم إحسان ربنا! وما أوسع كرمه! فاللهم بلغنا - برحمتك - فوق ما نرجو فيك ونؤمل. وكثير ما ردد من حرم الذرية ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ فكانت الذرية عقباً عقب عقب.

* ثم ذكر - عز وجل - عبده ورسوله زكريا، منوهاً بذكره، ناشراً مناقبه وفضائله، التي من جملتها هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحه للخلق، قال تعالى:

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾.

أي: واذكر - يا محمد - خبر رسولنا زكريا، حين دعا ربه دعاء مخلص منيماً لما كبرت سنه، قائلاً: رب لا تتركني وحيداً بلا ولد ولا وارث، وذلك لما تقارب أجله خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله.

قال ابن عباس: كان سنة مائة، وسن زوجته تسعاً وتسعين.

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾.

أي: وأنت يا رب خير من يبقى بعد كل من يموت، وخير من يخلفني بخير، وفيه مدح له - تعالى - بالبقاء، وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء، واستمطار لسحاب لطفه - عز وجل - فهو دعاء وثناء مناسب للمسألة.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾.

أي: أجبنا دعاءه، ورزقناه ولداً اسمه يحيى على شيخوخته، وهو النبي الكريم الذي لم يجعل الله له سمياً.

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ .

أي: جعلناها ولوداً بعد أن كانت عاقراً.

قال ابن عباس: كانت سيئة الخلق طويلة اللسان، فأصلحها الله - تعالى - فجعلها حسنة الخلق.

قال بعض العلماء: ينبغي للرجل أن يجتهد إلى الله في إصلاح زوجته، وكان من دعاء الأنبياء: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

* قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُحْيِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

تدل الآية على أنه ما من مؤمن يصيبه الكرب والغم فيتهل إلى الله داعياً بإخلاص، إلا نجاه الله، ولا سيما إذا دعا بدعاء يونس - عليه السلام - .

* ثم لما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين، كلاً على انفراده، أثنى عليهم عموماً، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: إنما استجبنا دعاء من ذكر من الأنبياء؛ لأنهم كانوا صالحين يجدون في طاعة الله، ويتسابقون في فعل الخيرات، ويبادرون لعمل الصالحات. ولم يقل: يسارعون إلى الخيرات، لأنهم الآن منهمكون في أعمال خيره، فهمهم المسارعة فيها، والازدياد منها، بخلاف من يسارع إلى شيء، فكأنه لم يكن فيه أصلاً، فهو يسرع إليه ليكون فيه، وهذا للاقتداء والاتساء بهم واتخاذهم قدوات.

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ .

أي: طعماً ورجاء في رحمتنا، وخوفاً وفزعاً من عذابنا، لا غافلون، ولا لاهون، ولا مدلون. وكانوا متواضعين متذللين، خاضعين لله، يخافونه في السر والعلن، وهذا لكمال معرفتهم بربهم.

قال الحسن: دام خوفهم من ربهم فلم يفارق خوفه قلوبهم، إن نزلت بهم رغبة خافوا أن يكون ذلك استدراجاً من الله لهم، وإن نزلت بهم رهبة خافوا أن يكون الله - عز وجل - قد أمر بأخذهم لبعض ما سلف منهم. قال أبو بكر الصديق: هذا كتاب الله، لا تفنى عجائبه، ولا يطفأ نوره، واستضيئوا منه اليوم ليوم الظلمة، واستنصحووا كتابه وتبيانها، فإن الله قد أثنى على قوم فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

* ثم بعد هؤلاء الأنبياء، ذكر مريم - عليها السلام -، مثنياً عليها، مبيناً لقدرها، شامراً لشرفها، منوها بعفتها وحصانتها فقال تعالى:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

أي: واذكر مريم البتول التي أعفت نفسها عن الفاحشة وعن الحرام بل ومن الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، ولا يذكر هنا اسم مريم؛ لأن المقصود في سلسلة الأنبياء هو ابنها - عليه السلام - وقد جاءت هي تبعاً له في السياق.

قال ابن كثير: ذكر - تعالى - قصة مريم وابنها عيسى مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى؛ لأن تلك مربوطة بهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، وامرأة عجوز لم تكن تلد في حال شبابها، وهذه أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر، ولذلك ذكر قصة مريم بعدها.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾.

أي: أمرنا جبريل فنفخ في جيب - قميصها - فدخلت النفخة إلى رحمها، فخلق الله بذلك النفخ عيسى - عليه السلام -، فحملت به من غير زوج، وأضاف الروح إليه تشريفاً لعيسى - عليه السلام -.

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

حيث حملت به دون زوج، ووضعت دون مسيس أحد. أي: وجعلنا

مريم مع ولدها عيسى، علامة وأعجوبة للخلق، تدل على قدرتنا الباهرة حيث خلق وولد من غير أب، ليعتبر بها الناس، ويتحدثون بها جيلاً بعد جيل.

قال ابن حزم في المحلى: إذا تأملت قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وأضفت له قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠] تبين لك أن الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعاً؛ لأن وعد أهل الحسنى بالإبعاد عن النار، وأخبر أن الصحابة سواء من أسلم قبل الفتح أو بعده موعود بالحسنى.

* قال تعالى: ﴿لَا تَخْزِيهِمُ النَّارُ الْكُبْرَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

والنزع الأكبر: أهوال يوم القيامة، والبعث، وقال الحسن: هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار.

وقال ابن جريج وسعيد بن جبير والضحاك: هو إذا أطبقت النار على أهلها وذبح الموت بين الجنة والنار.

* قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠].

اختص الله - تعالى - بعلم الجهر من القول من جهة أنه إذا اشتدت الأصوات وتداخلت فإنها حالة لا يسمع فيها الإنسان، ولا يميز الكلام، أما الله - عز وجل - فإنه يسمع كلام كل شخص بعينه، ولا يشغله سمع كلام عن سمع آخر.

* قال ابن هبيرة: في قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَحْكَمْ بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

المراد منه: كن أنت - أيها القائل - على الحق؛ ليتمكنك أن تقول: احكم بالحق، لأن المبطل لا يمكنه أن يقول: احكم بالحق!

سورة الحج ٢٢

سورة الحج سورة مدنية، فيها من التوحيد والحكم والمواعظ على اختصارها ما هو بين لمن تدبره، ومنها ذكر الواجبات والمستحبات كلها توحيداً وصلاة وزكاة وصياماً. ومع أن السورة مدنية إلا أنه يغلب عليها طابع السور المكية، فموضوع الإيمان، والتوحيد، حاضر فيها، حتى ليكاد يخيل للقارئ أنها من السور المكية، هذا إلى جانب الموضوعات التشريعية من الإذن بالقتال، وأحكام الحج والهدي، والأمر بالجهاد في سبيل الله، وغير ذلك من المواضيع التي هي من خصائص السورة المدنية، حتى لقد عدها بعض العلماء من السور المشتركة بين المدني والمكي.

سميت «سورة الحج» تخليداً لدعوة الخليل إبراهيم - عليه السلام -، حين انتهى من بناء البيت العتيق، ونادى الناس لحج بيت الله الحرام فتواضعت الجبال حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع نداؤه من في الأضلاب والأرحام وأجابوا النداء «لييك اللهم لييك».

ولم تسم سورة باسم ركن من أركان الإسلام إلا (الحج) ولا يعرف لها غير هذا الاسم، ولم تجتمع سجدتان في سورة إلا فيها.

قال شيخ الإسلام: سورة الحج تضمنت منازل السير إلى الله بحيث لا يكون منزلة ولا قاطع يقطع عنها.

قيل: وهذا ظاهر من اسمها، فالحج لغة: هو القصد إلى معظم، ومن أعظم من الله؟!!

ذكر القرطبي عن الغزنوي: أنه قال: سورة الحج من أعاجيب السور نزلت ليلاً ونهاراً، وسفراً وحضراً، مكياً ومدنيّاً، سلمياً وحربيّاً، ناسخاً ومنسوخاً، محكماً ومتشابهاً.

قال ابن تيمية: سورة الحج فيها من التوحيد والحكم والمواعظ على اختصارها ما هو بين لمن تدبره.

ابتدأت السورة الكريمة بمطلع مهيب مخيف، ترتجف له القلوب، وتطيش لهوله العقول، ذلك هو الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة، ويزيد في الهول على خيال الإنسان؛ لأنه لا يدرك الدور والقصور فحسب، بل يصل هوله إلى المرضعات الذاهلات عن أطفالهن، والحوامل المسقطات حملهن، والناس الذين يترنحون كأنهم سكارى من الخمر، وما بهم شيء من السكر والشراب، ولكنه الموقف المرهوب، الذي تنزل له القلوب وتنفطر من هوله الأفئدة، قال تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

تعليل للأمر بالتقوى، أي: إن الزلزال الذي يكون بين يدي الساعة أمر عظيم وخطب جسيم لا يكاد يتصور لهوله، ولا يقدر قدره، والزلزلة شدة التحريك والإزعاج، ولهذا قال:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾.

أي: تغفل وتذهل - مع الدهشة وشدة الفزع - كل أنثى مرضعة عن رضيعها، إذ تنزع ثديها من فم طفلها وتنشغل - لهول ما ترى - عن أحب الناس إليها ومن جبلت على شدة محبتها له، خصوصاً في هذه الحال التي لا يعيش إلا بها، وهو طفلها الرضيع.

والمرضع من لها ولد ترضعه، والمرضعة من ألقمت الثدي للرضيع، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أبلغ في هذا المقام، فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة؛ فإذا التقم الثدي برضاعة لم تذهل عنه إلا لأمر هو أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع.

قال الزمخشري -: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي. والمرضع: التي شأنها أن ترضع، وإن لم تباشر الإرضاع في حال

وصفها به، فقيل: مرضعة، ليدل على أن ذلك الهول، إذا فوجئت به هذه، وقد ألقمت الرضيع ثديها: نزعتة عن فيه لما يلحقها من الدهشة.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾ .

وتضع كل حبلى من شدة الفزع والهول ولدها قبل تمامه. تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها بغير تمام.

﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾ .

أي: تحسبهم - أيها الرائي لهم - سكارى، يترنحون ترنح السكران من هول ما يدركهم من الخوف والفزع. وما هم على الحقيقة بسكارى من الخمر.

﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ .

استدراك لما دهاهم، أي: ليسوا بسكارى ولكن أهوال الساعة وشدائدها أطارت عقولهم وسلبت أفكارهم، فهم من خوف عذاب الله مشفقون.

* ذكر الله - عز وجل أطوار ومراحل حياة الإنسان، فقال تعالى:

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبِتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ .

[الحج: ٥].

* ولما ذكر - تعالى - ما أعد للكفار من العذاب والدمار، ذكر ما أعده

للمؤمنين من الثواب والنعيم، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ .

أي: يدخل المؤمنون الصالحين في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار العظيمة المتنوعة.

﴿تُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (١١).

أي: تلبسهم الملائكة في الجنة الأساور الذهبية رجالهم ونساءهم كحلية وزينة، يتزينون بها. ويحلون باللؤلؤ كذلك إكراماً من الله لهم، ولباسهم في الجنة الحرير، ولكنه أعلى وأرفع مما في الدنيا، فتم نعيمهم بذكر أنواع المأكولات، وذكر الأنهار السارحات، وأنواع اللباس، والحلي الفاخر، وذلك بسبب أنهم:

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ (١٢).

أي: أرشدوا في الدنيا إلى الكلام الطيب، والقول النافع، الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله، أو إحسان إلى عباد الله. وهدوا إلى صراط الله، وهو الجنة دار المتقين. والحمد، هو الله المحمود في أفعاله. وذكر الحميد هنا، ليبين أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم، ومنتته عليهم.

* وصف الله المسجد الحرام بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعِكِفُ

فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥].

للإيماء إلى علة مؤاخذه المشركين بصددهم عنه؛ لأجل أنهم خالفوا ما أراد الله منه، فإنه جعله للناس كلهم يستوي في أحقية التعبد به العاكف فيه، أي: المستقر في المسجد، والبادي - أي البعيد عنه إذا دخله.

* ثم يذكر - تعالى - عظمة البيت الحرام، وجلالته، وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمن، وفيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، فقال:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ

وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (١٣).

* ثم قال تعالى :

﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ .

أي : طهر بيتي من الشرك والمعاصي والأوثان والأقذار لمن يعبد الله فيه بالطواف والصلاة، وإضافه الرحمن إلى نفسه لشرفه وفضله، ولتعظم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأفئدة من كل جانب.

وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة؛ لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف، لاختصاصه بجنس المساجد. والقائمون هم المصلون، وذكر - تعالى - من أركان الصلاة أعظمها وهو القيام والركوع والسجود.

* قال تعالى : ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ .

أي : أعلم وناد في الناس داعياً لهم لحج بيت الله العتيق الذي أمرناك ببنائه .

قال ابن عباس : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قيل له : أذن في الناس بالحج، قال يا رب : وما يبلغ صوتي؟ قال : أذن وعليّ الإبلان، فصعد إبراهيم على جبل أبي قبيس وصاح : يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليشيكنكم به الجنة، ويجيركم من عذاب النار فحجوا، فأجابه من كان في أصلاب الرجال، وأرحام النساء : لبيك اللهم لبيك .

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ .

أي : فإنك إذا دعوتهم أتوك مشاة على أقدامهم، أو ركبانا على كل جمل خفيف اللحم، قد أتعبه وأنهكه بعد المسافة .

﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ .

أي : تأتي الإبل الضامرة من كل طريق بعيد .

قال القرطبي : ورد الضمير إلى الإبل ﴿يَأْتِينَ﴾ تكريماً لها لقصدتها الحج مع أربابها، كما قال : ﴿وَالْعَدِيدَاتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات : ١] في خيل الجهاد تكريماً لها حين سعت في سبيل الله .

قال ابن القيم: وفي تقديم ذكر الرجال على الركبان فائدة جليلة؛ وهي أن الله - تعالى - شرط في الحج الاستطاعة، ولا بد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، فقدم الرجال اهتماماً بهذا المعنى وتأكيده.

ومن الناس من يقول قدمهم جبراً لهم؛ لأن نفوس الركبان تزدرهم وتوبخهم فبدأ بهم جبراً لهم ورحمة.

✽ بعد أن ذكر - عز وجل - المناسك - في سورة الحج - قال: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠] ففيه إشارة إلى أن الحج ليس أقوالاً وأعمالاً جوفاء، وأن الخير الكثير إنما هو لمن تنسك؛ معظماً لحرمات الله، متقياً معصيته، ولعل في افتتاح السورة بالأمر بالتقوى، واختتامها بالجهاد في الله حق المجاهدة تأكيداً على ذلك.

✽ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

قال القرطبي: أضاف التقوى إلى القلوب؛ لأن حقيقة التقوى في القلب؛ ولهذا قال - عليه الصلاة والسلام - كما في الصحيح: «التقوى ها هنا» ثلاثاً، وأشار إلى صدره.

✽ قال - تعالى - في سياق آيات الحج: ﴿وَدَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الن] الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ [الن] [الحج: ٣٤ - ٣٥].

قال ابن القيم: ذكر للمخبتين أربع علامات: وجل قلوبهم عند ذكره - والوجل خوف مقرون بهيبة ومحبة -، وصبرهم على أقداره، وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهراً وباطناً، وإحسانهم إلى عباده بالإنفاق مما آتاهم.

قال ابن تيمية - رحمه الله - : ذكر الله - عز وجل - في سورة الحج القلوب الأربعة : الأعمى ، والمريض ، والقاسي ، والمخبت الحي المطمئن إلى الله .

* ورد في آيات الحج من العناية بأمر القلوب ما لم يرد في أي ركن من أركان الإسلام ؛ لما في أعمال الحج من مظاهر قد تصرف عن مقاصده العظيمة إلى ضدها ، خاصة مع اجتماع الناس في صعيد واحد على هيئة واحدة ، مع اختلاف خلفائهم وحالاتهم ومراكبهم وغير ذلك . قال تعالى : ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج : ٣٧] .

قال السعدي : فالعبادات إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوى الله ، كانت كالقشور الذي لا لب فيه ، والجسد الذي لا روح فيه .

* قال تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج : ٣٦] .

عن ابن عباس قال : لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ليهلكن ، فنزلت ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ﴾ الآية . قال ابن عباس : فهي أول آية نزلت في القتال .

* قال تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوْمِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج : ٤٠] .

ومعاني هذه الأسماء هي في الأمم التي لها كتاب على قديم الدهر ، ولم يذكر في هذه المجوس ، ولا أهل الإشراك ؛ لأن هؤلاء ليس لهم ما تجب حمايته ، ولا يوجد ذكر الله إلا عند أهل الشرائع .

قال السعدي : ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة ، بعبادة الله ، وعمرت مساجدها وأقيمت فيها شعائر الدين كلها من فضائل المجاهدين ، وبركتهم دفع الله عنها الكافرين .

* قال تعالى: ﴿لِيَدْخُلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَانِهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ خَلِيمٌ﴾

[الحج: ٥٩].

وهو الحليم لا يعجل العقوبة على عباده بذنوبهم، ولا يحبس إنعامه بخطيئاتهم، يعصونه ويرزقهم، يذنبون ويمهلهم، يجاهرون ويستر عليهم، فلا تغتر بحلم الله وكرمه عليك، فقد يبعثك العذاب ﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانَ مَا عَرَّفَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

* قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

تعريض بالحث على العفو والمغفرة. فإنه - تعالى - مع كمال قدرته، لما كان يعفو ويغفر، فغيره أولى بذلك، وتنبيه على قدرته على النصر، إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده. فظهر سر مطابقة (العفو الغفور) لهذا الموضع.

* قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَأنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦٠ - ٦١].

والجمع بين ذكر إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، للإيماء إلى القلب أحوال الزمان، فقد يصير المغلوب غالباً، ويصير ذلك الغالب مغلوباً. مع ما فيه من التنبيه على تمام القدرة بحيث تتعلق بالأفعال المتضادة، وفيه إدماج التنبيه بأن العذاب الذي استبطأه المشركون منوط بحلول أجله. وما الأجل إلا إيلاج ليل في نهار، ونهار في ليل.

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ

مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾

أي: لطيف بأرزاق العباد واصل فضله إلى كل شيء، يدرك بواطن الأشياء، وخفياتها، وسرائرها، الذي يسوق إلى عبده الخير، ويدفع عنه الشر، خبير بسرائر الأمور، وخفايا الصدور والأمور، خبير بما في قلوبهم من القنوط.

ومن لطفه أنه يعلم مواقع القطر من الأرض، وبذور الأرض في باطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر الذي خفي على الخلائق فينبت منه أنواع النبات.

والغرض من الآية: إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشور، فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت.

❖ وفي ختام السورة ضرب مثلاً لعبادة المشركين للأصنام، وبقبح عبادة الأوثان وحقارتها، وبيان نقص عقول وسخافة من عبدها، وبينت أن هذه المعبودات أعجز وأحقّر من أن تخلق ذبابة، فضلاً عن أن تخلق إنساناً سميعاً بصيراً، قال تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ ۖ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ﴾

أي: يا معشر المشركين: بين الله مثلاً لما يعبد من دون الله من الأوثان والأصنام فألقوا إليه أسماعكم، وتدبروه حق التدبر، واعقلوا ما يقال لكم؛ فإنه يقطع مواد الشرك من القلب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ﴾

أي: جميع ما تعبدون من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها وحقارتها، وإن اجتمعت على ذلك فكيف بخلق ما هو أكبر، فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة وعبادتها من دون الله.

قال القرطبي: وخص الذباب لأربعة أمور: لمهانتها، وضعفه، ولاستقراره، وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقّره لا يقدر من عبودهم من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأرباباً مطاعين؟ وهذا من أقوى الحجّة وأوضح البرهان، بل وذكر أعظم من ذلك فقال:

﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ۚ﴾

أي: لو اختطف هذا الخلق الأقل الأذل - الذباب - وسلب شيئاً من الطيب الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه

منه رغم ضعفه وحقارته، وهذه غاية ما يصير من العجز.

﴿ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ [٢٢].

ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم، والمطلوب الذي هو الذباب، فكل منهما حقير ضعيف.

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [٢٣].

أي: ما عظموه حق تعظيمه وما عرفوه حق معرفته، حيث جعلوا الأصنام - على حقارتها - شركاء للقوي العزيز، ولهذا قال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [٢٤].

أي: هو - تعالى - قادر لا يعجزه شيء، غالب لا يُغلب، فكيف يسوون بين القوي العزيز، والعاجز الحقير؟!

* ثم قال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آزْكَعُوا وَآسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ

وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٢٥] [الحج: ٧٧].

قال ابن تيمية عن سورة الحج: فيها ذكر الواجبات والمستحبات كلها توحيداً وصلاة، وزكاة وحجاً وصياماً، قد تضمن ذلك كله قوله تعالى:

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آزْكَعُوا وَآسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٢٥] فيدخل في قوله: ﴿ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ كل واجب

ومستحب.

* ثم ختم - تعالى - السورة بقوله:

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ

حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ

شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا

بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [٢٦] [الحج: ٧٨].

قال الحسن: إن الرجل ليجاهد في الله حق جهاده وما ضَرَبَ بسيف.
وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -: ليعلم أن جميع
ما قصه الله علينا من سيرة إبراهيم الخليل عليه السلام فإننا مأمورون به أمر خاصاً
قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: الزموها ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

سورة المؤمنون ٢٣

سورة المؤمنون من السورة المكية التي تؤصل وتؤكد على توحيد الله - عز وجل - وإفراده بالعبادة، وتذكر بالرسالة وتجلي البعث والجزاء والحساب، وسميت بهذا الاسم الجليل «المؤمنون»؛ تخليداً لهم وإشادة بآثرهم وفضائلهم الكريمة التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في جنات النعيم.

وقد جاء في الحديث، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، قال: «كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي سمع عند وجهه دويّ كدويّ النحل، وأنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة فسري عنه، فاستقبل القبلة فرفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا» ثم قال: «أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة» ثم قرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ حتى ختم عشر آيات» [رواه الترمذي].

* قال - تعالى - في أول السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١

[المؤمنون: ١].

افتتاح بديع لأنه من جوامع الكلم، فإن الفلاح غاية كل ساع إلى عمله، فالإخبار بفلاح المؤمنين دون ذكر متعلق بفعل الفلاح يقتضي في المقام الخطابي تعميم ما به الفلاح المطلوب، فكأنه قيل: قد أفلح المؤمنون في كل ما رغبوا فيه.

وفي الحديث: «خلق الله - تبارك وتعالى - الجنة لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك، فقال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١» فقالت الملائكة: طوبى لك، منزل الملوك» [السلسلة الصحيحة].

وفي الآيات أهم صفات المفلحون، وهو إتقان العمل ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، والمداومة عليه ﴿عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩] وهما سر النجاح، وأساس الفلاح في كل الأمور.

ولأن من أعظم موانع الخشوع: كثرة اللغو، والحديث الذي لا منفعة فيه؛ ذكر - عز وجل - من صفات المؤمنين إعراضهم عن اللغو، بعدها ذكر خشوعهم، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ] ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٣].

* ثم ذكر - تعالى - الأدلة والبراهين على قدرته ووحدانيته، فذكر - تعالى - في الآيات اللاحقة، أطوار الآدمي وتنقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه، فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ .

اللام جواب قسم، أي: والله لقد خلقنا جنس الإنسان من صفوة استلت من الطين وخلاصته، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبيث، وبين ذلك.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ .

أي: ثم جعلنا ذرية آدم وبنيه منياً ينطف من أصلاب الرجال، في مستقر متمكن هو الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك.

قال السعدي - رحمه الله - : سلت، وأخذت من جميع الأرض ولذلك جاء بنو آدم على قدر الأرض: منهم الطيب والخبيث وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ .

ثم صيرنا هذه النطفة - ، وهي الماء الدافق - دماً جامداً يشبه العلقه بعد أربعين يوماً من النطفة.

ثم بعد أربعين يوماً، جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة، أي: قطعة لحم لا شكل فيها ولا تخطيط.

جاءت كلمة ﴿خَلَقْنَا﴾ نكرة لتدل على أن لكل إنسان في هذه الدنيا خلقاً خاصاً فما من إنسان في الدنيا يشبه إنساناً آخر شبهاً تاماً في شكل أذنيه أو عينيه أو بشرته، أو غرائزه أو أفكاره أو انفعالاته، لأن لكل إنسان خلقاً آخر، ولأن بين كل إنسان وإنسان فروقاً خلقية وخلقية لا يمكن أن تتوحد توحداً تاماً بين أي إنسانين بالدنيا.

﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْماً فَكَسَوْنَا الْعِظَمَ لَحْمًا﴾.

أي: صيرنا قطعة اللحم عظماً صلبة لتكون عموداً للبدن. أي: سترنا تلك العظام باللحم، وجعلناه كالكسوة لها وذلك في الأربعين الثالثة.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾.

ثم بعد تلك الأطوار نفخنا فيه الروح، فصيرناه خلقاً آخر في أحسن تقويم، ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب. قيل: جعلناه خلقاً مبايناً للخلق الأول حيث صار إنساناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبصيراً وكان أكمه، وأودع كل عضو من أعضائه عجائب فطرته، وغرائب حكمته لا يحيط بها وصف الواصفين.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

فتعالى وتعاظم الله في قدرته وحكمته، أحسن الصانعين صنعاً.

* ولما ذكر - تعالى - الأطوار في خلق الإنسان وبدايته ونهايته، ذكر دلائل الإيمان في الآفاق في خلق السموات والأرض، وكلها أدلة ساطعة على وجود الله، وكثيراً ما يذكر - تعالى - خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾.

أي: أنزلنا من السحاب القطر والمطر بحسب الحاجة، وبقدر ما يكفيهم للمعيشة، لا كثيراً فيفسد الأرض، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار،

ولا في غير أوانه فيذهب ببدأ بلا فائدة، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماءً كثيراً لزرعها ولا تحمل دمتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى كما في أرض مصر، ويقال لها: الأرض الجزر، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر فيسقي أرض مصر ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه؛ لأن أرضهم سبخة يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير، الرحيم الغفور.

* ثم ذكر - عز وجل - من النعم التي امتن بها على عباده:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢١) وَعَلَى الْفَلَكِ تَحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ [المؤمنون: ٢١ - ٢٢].

وعطف ﴿وَعَلَى الْفَلَكِ﴾ إدماج وتهيئة للتخلص إلى قصة نوح.

* قال تعالى: ﴿يَأْتِيَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥١].

أمر الرسل بالأكل من الطيبات فيه ردٌّ على الغلاة الذين يمتنعون منها، وفيه ردٌّ على الجفافة الذين لا يقتصرون عليها.

وقد قرّن الله بين أكل الطيبات وعمل الصالحات في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] فأكل الحلال الطيب مما يعين العبد على فعل الصالحات، كما أن أكل الحرام أو الوقوع في المشتبهات مما يثقل العبد عن فعل الصالحات.

* وردت كلمة: (أمة) في مواضع، لها أربع إطلاقات في القرآن:

الأول: تأتي بمعنى الملة: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢].

الثاني: تأتي بمعنى المدة: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾

[يوسف: ٤٥].

الثالث: وتأتي بمعنى الجماعة: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ

النَّاسِ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [القصص: ٢٣].

الرابع: وتأتي بمعنى الإمام والقدوة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

* ولما ذم - تعالى - المشركين وتوعدهم. وذكر الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف، وعقب ذلك بمدح المؤمنين وذكرهم بأبلغ صفاتهم، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾.

أي: هم من جلال الله وعظمته خائفون، ومن خوف عذابه حذرون، وخوفهم نابع أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله - تعالى -، وخوفاً على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم بربهم، وما يستحق من الإجلال والإكرام، وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب، والتقصير في الواجبات.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٤) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٥).

أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويخلصون العمل لوجهه. قال بعض المفسرين: وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله فإن ذلك داخل في الآية السابقة، بل المراد منه نفي الشرك الخفي وذلك بأن يخلص في العبادة لوجه الله وطلباً لرضوانه.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.

هذه هي الصفة الرابعة من أوصاف المؤمنين، أي: يعطون العطاء من زكاة وصدقة، ويتقربون بأنواع القربات من أفعال الخير والبر، وهم يخافون أن لا تقبل منهم أعمالهم.

قال الحسن: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً، وقد كان السلف الصالح يجتهدون في إتمام العمل وإكماله وإتقانه، ثم يهتمون بعد ذلك بقبوله، ويخافون من رده.

قال سهل بن عبد الله: إنما خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة، وعند كل حركة. وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي: خائفة.

يقول الحسن: يعملون ما يعملون من أعمال البر، وهم يخافون ألا ينجيهم ذلك من عذاب ربهم، إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً.

يقول ابن رجب في لطائف المعارف: وإنما أمر بسؤال العفو في ليلة القدر: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني» بعد الاجتهاد في الأعمال فيها وفي ليالي العشر؛ لأن العارفين يجتهدون في الأعمال، ثم لا يرون لأنفسهم عملاً صالحاً ولا حالاً ولا مقالاً، فيرجعون إلى سؤال العفو كحال المذنب المقصر، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

والله - سبحانه - وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن. ومن تأمل أحوال الصحابة - رضي الله عنهم - وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن.

﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

وذلك لخوفهم أن يكونوا قد قصرُوا في القيام بشروط الطاعات والأعمال الصالحة، ولا اعتقادهم وعملهم ويقينهم أنهم سيرجعون إلى ربهم للحساب. روي أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عن الآية الكريمة فقالت: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.

أهو الذي يزني، ويسرق، ويشرب الخمر وهو يخاف الله - عز وجل -؟ فقال لها: «لا يا بنت الصديق! ولكنه الذي يصلي، ويصوم، ويتصدق، ومع ذلك يخاف الله - عز وجل -» [رواه ابن ماجه].

﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ .

أي: أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة، هم الذين يسابقون في الطاعات والأعمال الصالحات لنيل أعلى الدرجات، دأبهم المسارعة إلى كل عمل صالح.

﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ .

أي: هم الجديرون بالخيرات، والسابقون إليها، قد بلغوا ذروتها. وترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن. فالصفة الأولى: دلت على حصول الخوف الشديد، الموجب للاحتراز عما لا ينبغي.

والثانية: دلت على التصديق بوحدانية الله.

والثالثة: دلت على ترك الرياء في الطاعات.

والرابعة: دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف والتقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين، رزقنا الله الوصول إليها.

﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

قال ابن العربي: هذا دليل على أن المبادرة إلى الأعمال الصالحة؛ من صلاة في أول الوقت - وغير ذلك من العبادات - هو الأفضل، ومدح الباري أدل دليل على صفة الفضل في الممدوح على غيره.

* قال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا

يَصِفُونَ ﴿[المؤمنون: ٩٦].

أي: اسلك مسلك الكرام، ولا تلحظ جانب المكافأة، ادفع بغير عوض، ولا تسلك مسلك المبايعه، ويدخل فيه: سلم على من لم يسلم عليك، والأمثلة تكثر.

قال ابن عاشور: والتخلق بهذه الآية هو أن المؤمن الكامل ينبغي له أن يفوض أمر المعتدين عليه إلى الله، فهو يتولى الانتصار لمن توكل عليه، وأنه إن قابل السيئة بالحسنة كان انتصار الله أشفى ل صدره وأرسخ في نصره، وماذا تبلغ قدرة المخلوق تجاه قدرة الخالق؟ وهو الذي هزم الأحزاب بلا جيوش ولا فيالق.

* قال تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿١٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المؤمنون: ٩٣ - ٩٥].

وفي قصة إلياس إنباء بأن الرسول عليه أداء الرسالة ولا يلزم من ذلك أن يشاهد عقاب المكذبين ولا هلاكهم، وذلك في الرد على المشركين الذين قالوا: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ٤٨].

* قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧]. وما دام الشيطان هو الذي يهمز الإنسان كما يهمز الراكب الدابة لتسرع، فليحذر المسلم من الأمور التي يرى نفسه مندفعاً إليها بقوة شديدة خشية أن تكون من همز الشيطان.

* قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ أَلْنَارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١]. الكالِح: هو الذي تقلصت شفتاه حتى بدت أسنانه. والنار والعياذ بالله تحرق شفاههم حتى تتقلص عن أسنانهم، كما يشاهد مثله في رأس الشاة المشوي في نار شديدة الحر.

* قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون: ١١٠].

قال السعدي: وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر: اشتغالهم بالاستهزاء بالمؤمنين، كما أن نسيانهم للذكر، يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجراءة جراءة.

عن يونس البلخي قال: كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم والمراكب والجنائب والبزاة، فبينا إبراهيم في الصيد على فرسه يركضه إذا هو بصوت من فوقه: يا إبراهيم ما هذا العبث؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] اتق الله، عليك بالزاد ليوم الفاقة، فنزل عن دابته وأخذ في عمل الآخرة.

* قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨]. هذه الآية فيها حذف لكي تفيد العموم، فقد حذف المفعول له لكلمة: ﴿اغْفِرْ﴾ والمفعول به لكلمة ﴿وَارْحَمْ﴾ فلم يقل: رب اغفر الذنوب للعباد، وارحم الناس، بل أطلقها إطلاقاً ليكون طلب المغفرة عاماً لجميع الذنوب، وليكون الدعاء عاماً لجميع الخلائق.

وفيه دليل على أن ذلك الفريق الذي كانوا يقولون: ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين، موفقون في دعائهم ذلك، ولذلك أثنى عليهم به، وأمر به نبيه ﷺ لتقتدي به أمته في ذلك.

أوصى سفيان الثوري رجلاً فقال: إياك أن تزد بحلمه عنك جرأة على المعصية، فإن الله لم يرض لأنبياؤه المعصية والحرام والظلم، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

ثم قال للمؤمنين: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

ثم أجملها فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

* بدأت سورة المؤمنون بـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] وانتهت بـ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وبين الآيات يتمعن القارئ

في صفات المؤمنين، ويسارع ويجتهد ليكن منهم. ويحذر الكافرين ويتولى عنهم.

فستان ما بين الفاتحة والخاتمة.

فتأمل - عبد الله - في الصفات التي جعلت أولئك المؤمنين يفحلون، وتأمل أواخر هذه السورة لتدرك لم لا يفلح الكافرون؟!!

سورة النور ٢٤

سورة النور من السور المدنية . وسميت «سورة النور» بهذا الاسم لما فيها من إشعاعات النور الرباني ، بتشريع الأحكام والآداب ، والأخلاق الفاضلة والآداب الاجتماعية ، ففي أولها أحكام الزنى والقذف والزجر عن ذلك ، ثم آداب الاستئذان على البيوت وعلى النبي ﷺ وعلى أهل البيت ، التي هي قبس من نور الله على عباده ، وفيض من فيوضات رحمته وجوده .

هذه السورة الكريمة فيض رباني يلامس أخلاق الأمة وفضائلها ويحذر من سفاسف الأمور ورذائلها ، فقد عاجلت جانباً من أهم الجوانب الاجتماعية هي «مسألة الأسرة» وما يحفنها من أخطار ، وما يعترض طريقها من عقبات ومشكلات ، تؤدي بها إلى الانهيار ثم الدمار ، هذا عدا عما فيها من آداب سامية ، وحكم عالية ، وتوجيهات رشيدة ، إلى أسس الحياة الفاضلة الكريمة ، ولهذا كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى أهل الكوفة يقول لهم : علموا نساءكم سورة النور .

قال القرطبي : مقصود السورة ذكر أحكام العفاف والستر .

* قال - تعالى - في أول السورة : ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا

آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [النور : ١] .

قال ابن العربي : فهذه السورة فيها حجج التوحيد ، ودلائل الأحكام ، والكل آيات بينات ، فحجج العقول ترشد إلى مسائل التوحيد ، ودلائل الأحكام ترشد إلى وجه الحق ، وترفع غمة الجهل ، وهذا هو شرف السورة ، فيكون شرفاً للنبي في الولاية ، شرفاً لنا في الهداية .

* قال تعالى : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا

تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور : ٢] .

قال ابن تيمية: نهى عن التهاون في إقامة العقوبات عموماً، والفواحش خصوصاً؛ لأن مبنائها على المحبة والشهوة، فيزين الشيطان انعطاف القلوب على أهلها، حتى يدخل كثير من الناس في الديانة وقلة الغيرة، وربما ظن أن هذا رحمة ولين جانب بهم ومكارم أخلاق، وإنما ذلك مهانة وضعف إيمان، وإعانة على الإثم والعدوان، وترك للتناهي عن الفحشاء والمنكر؛ وتدخل النفس به في الديانة، كما دخلت عجوز السوء مع قومها في استحسان ما كانوا يتعاطونه من إتيان الذكران والمعاونة لهم على ذلك. وفي قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ [النور: ٣] قدم ذكر الزانية على الزاني لأن المرأة هي الباعث على زنى الرجل، ولو منعت المرأة نفسها ما وجد الرجل إلى الزنى تمكيناً.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢].

قال ابن كثير: وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز ذلك.

* قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

قال ابن تيمية: من المعلوم أن ألم العلاج النافع، أيسر وأخف من ألم المرض الباقي.

* قوله - تعالى - بعد ذكره أحكام القذف: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠].

في الآية دليل لما مر من الأحكام العظيمة المشتملة على التفصيل والرحمة منه، والمؤذنة بأنه تواب على من تاب من عباده، والمنبئة بكمال حكمته - تعالى - إذ وضع الشدة موضعها والرفق موضعها، وكف بعض الناس عن بعض.

قال السيوطي: قد يقال: إن المتوقع أن يقال: ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾؛ لأن الرحمة مناسبة للتوبة لكن ختمت باسم الله ﴿حَكِيمٌ﴾ إشارة إلى فائدة مشروعية اللعان وحكمته، وهي الستر عن هذه الفاحشة العظيمة.

* قال تعالى: ﴿ذَٰ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

فيه تشبيه الألسن في رواية الخبر بالأيدي في تناول الشيء. وإنما جعلت الألسن آلة للتلقى مع أن تلقي الأخبار بالأسماع، لأنه لما كان هذا التلقي غايته التحدث بالخبر جعلت الألسن مكان الأسماع. وفيه تعريض بحرصهم على تلقي هذا الخبر، فهم حين يتلقونه يبادرون بالأخبار به بلا ترو ولا تريث.

قيل: وإن كان التلقي بالأذان لكن الله ذكر التلقي بالألسن بمعنى أنها لا تمر على الأذن وتسمع وتعي بل تأتي مباشرة من لسان المتحدث وتنقل من لسان المستمع.

* قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

أي: هلا ظنوا الخير، ولم يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيها النزاهة والطهارة؟ فإن مقتضى الإيمان ألا يصدق مؤمن على أخيه قوله عائب ولا طاعن.

قال ابن كثير: هذا تأديب من الله - تعالى - للمؤمنين في قصة عائشة حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء، وهلا قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم، فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى. روي أن امرأة أبي أيوب قالت له: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: نعم وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة والله خير منك.

* قال تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ .

أي: تقولون ما ليس له حقيقة في الواقع، وإنما هو محض كذب وبهتان والأمران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم؛ إنما قيد بالأفواه مع أن القول لا يكون إلا بالفم؛ لأن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب ثم يترجم عنه اللسان، وهذا الإفك ليس إلا قولاً يدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب.

قال ابن عاشور: وفي هذا من الأدب: أن المرء لا يقول بلسانه إلا ما يعلمه ويتحققه وإلا فهو أحد رجلين: ناقص الرأي، يقول الشيء قبل التبين، فيوشك أن يكذب، أو رجل مموه مرء يقول ما يعتقد خلافه.

﴿وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ .

وتظنونه ذنباً صغيراً لا يلحقكم فيه إثم فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك. والحال أنه عند الله من أعظم الموبقات والجرائم؛ لأنه وقوع في أعراض المسلمين، وفيه الزجر البليغ عن التهاون في إشاعة الباطل، أو إتيان بعض الذنوب على وجه التهاون بها. وقد عاتبهم - تعالى - على ثلاثة أشياء:

الأول: تلقيه بالألسنة؛ أي السؤال عنه.

والثاني: التكلم به.

والثالث: استصغاره حيث حسبوه هيناً وهو عند الله عظيم.

وفائدة قوله بالسنتكم وبأفواهكم الإشارة إلى أن ذلك الحديث كان باللسان دون القلب؛ لأنهم لم يعلموا حقيقته بقلوبهم.

* ثم قال - سبحانه - في تأديب آخر بعد الأول، الأمر بظن الخير:

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ .

عتاب لجميع المؤمنين، أي: وهلا إذا سمعتم - أيها المؤمنون - كلام أهل الإفك كان ينبغي عليكم أن تنكروه أول سماعكم له، وتقولوا: لا

ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد.

﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ .

أي: سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسول الله الطاهرة البريئة فإن هذا الافتراء كذب واضح، أعظم الجرم. وهو بمعنى التعجب من عظيم الأمر والاستبعاد له، والأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجائب. * ثم ذكر - عز وجل - تأديباً ثالثاً لمن سمع شيئاً من الكلام السيء، فقام بذهنه شيء منه وتكلم به، فلا يكسر منه ولا يشيعه، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

قال الشيخ بكر أبو زيد - رحمه الله -: ومحنة إشاعة الفاحشة تنتظم جميع الوسائل القبيحة إلى هذه الفاحشة، سواء كانت بالقول، أم بالفعل، أم بالإقرار، أو ترويح أسبابها، وهكذا. وهذا الوعيد الشديد ينطبق على دعاة تحرير المرأة في بلاد الإسلام من الحجاب والتخلص من الأوامر الشرعية الضابطة لها في عفتها وحشمتها وحياتها.

وفي هذا وعيد لمجد محبة أن تشيع الفاحشة فكيف بإظهاره ونقله.

والعقل هو الذي يتحسس معايب نفسه، وينظر معايب نفسه ليصلحها، لا أن ينظر معايب الغير ليشيعها - والعياذ بالله -، ولهذا قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

* سورة النور هي سورة الأسرة، تحدثت عن الزكاء والتزكية، تربية وتعليماً وحكماً، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور: ٢٧ - ٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠].

* قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾.

قال السعدي: وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقاً؛ لأنه لا يباح في حالة من الأحوال، وأما البصر فقال: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾ أتى بأداة ﴿مِنْ﴾ الدالة على التبعية؛ فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال الحاجة، كنظر الشاهد والخطاب، ونحو ذلك.

* اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

فلا ينبغي للمؤمن أن يترك التوبة في كل حال، فإنه لا يخلو من سهو أو تقصير في حقوق الله - تعالى -.

وحد التوبة: الندم، وهي في عرف الشرع: الرجوع من شر إلى خير، وشرطها: الإقلاع عن المعصية، والعزم على أن لا يعود إليها، أي عدم الإصرار على المعصية. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وينبغي أن يكون الندم على تفريطه في حق الله - عز وجل - وإقدامه على المعصية، وإن كان الندم من حيث أضر ذلك الفعل في بدن أو ملك فليس بتوبة.

وتصح التوبة وإن نقضها التائب في ثاني حال بمعاودة الذنب؛ فإن التوبة الأولى طاعة قد انقضت وصحت بشروطها، وهو محتاج بعد معاودة الذنب إلى توبة أخرى مستأنفة.

والتوبة لا يجب قبولها على الله عقلاً، لكن جاء إخباره - تعالى - عن أشياء أوجبها على نفسه، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]. وظاهر هذه النصوص قبول توبة التائب، وهي إنما تعطي غلبة ظن، لا قطعاً على الله بقبول التوبة.

وقد ورد النص هنا: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٧] بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾، ففيه حذف مضاف تقديره: إنما التوبة على فضل الله ورحمته لعباده. وهذا نحو قول النبي ﷺ لمعاذ: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، ثم سكت قليلاً ثم قال: «يا معاذ، أتدري ما حق العباد على الله؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أن لا يعذبهم» [البخاري ومسلم].

فهذا كله اتم معناه: ما حقهم على فضل الله - تعالى - ورحمته، والعقيدة أنه لا يجب على الله - تعالى - شيء عقلاً؛ ولأن من شرط الواجب أن يكون أعلى رتبة من الموجب عليه، والحق - سبحانه - خالق الخلق ومالكهم والمكلف لهم، فلا يصلح أن يوصف بوجوب شيء عليه - سبحانه -.

وقد ذكرت الآية هنا لقبول قيين: ﴿بِجَهْلَةٍ﴾، و﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾. والجهالة تطلق على سوء المعاملة، وعلى الإقدام على العمل دون روية، وهي مقابل الحلم؛ ولذلك تطلق الجهالة على الظلم. وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ أي من زمان قريب، وهو ما قبل حضور الموت.

* وقال الله - تعالى - حكاية عن يوسف: ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٢٣].

والمراد هنا ظلم النفس، وعلى هذا فالجهالة: سفاهة وقلة تحصيل، أدى إلى المعصية وارتكاب ما لا يليق بالعاقل، لا عدم العلم.

وقد روي عن الصحابة والتابعين أخبار كثيرة يقوي بعضها بهذا المعنى؛ روي عن قتادة قال: اجتمع أصحاب محمد ﷺ فرأوا أن كل شيء عصي به فهو جهالة.

وروي عن مجاهد قال: كل من عصي ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصية.

* قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

عطف على جملة ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾ [النور: ٢١] عطف خاص على عام للاهتمام به؛ لأنه قد يخفى أنه من خطوات الشيطان، فإن من كيد الشيطان أن يأتي بوسوسة في صورة خواطر الخير إذا علم أن الموسوس إليه من الذين يتوخون البر والطاعة، وأنه ممن يتعذر عليه ترويج وسوسته إذا كانت مكشوفة.

لا تكن سبباً في منع أرزاق الناس، إذا أردت أن تؤدب أحداً أدبه بأي طريقة مشروعة إلا أن تمنعه رزقه، لأنه لو كان منع الرزق سائغاً لساغ في حق مسطح، لكن الله - جل وعلا - عاتب الصديق - رضي الله عنه - فيه.

* ثم تواعد - عز وجل - فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾.

أي: يقذفون بالزنى العفيفات، السليمات الصدور، النقيات القلوب عن كل سوء وفاحشة، ولم يخطر ذلك بقلوبهن.

وذكرهن بالغافلات وصف لطيف محمود يجسد المجتمع البريء، والبيت الطاهر الذي تشب فتياته على الفضيلة والستر والحشمة، لا يعرفن الأثم،
أنهن غافلات عن ملوث الطباع السافلة، والأخلاق المستنكرة.

﴿الْمُؤْمِنَتِ﴾ .

أي: المتصفات بالإيمان، مع طهارة القلب.

﴿لَعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ .

أي: طردوا وأبعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة. واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير، وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين.
وقيل: نزلت في مشركي مكة، كانت المرأة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها وقالوا خرجت لتفجر.

قال ابن عباس: هذا اللعن فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذ ليس له توبة، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة.

﴿وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

ولهم مع اللعنة، عذاب هائل، ولا يكاد يوصف بسبب ما ارتكبوا من إثم وجريمة.

* ثم ذكر - تعالى - بالدليل القاطع، والبرهان الساطع براءة عائشة ونزاهتها، فهي زوجة رسول الله الطيب الطاهر، وقد جرت سنة الله أن يسوق الجنس إلى جنسه، فلو لم تكن عائشة طيبة؛ لما كانت زوجة لأفضل الخلق ﷺ، ولهذا قال:

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ

لِلطَّيِّبَاتِ﴾ .

أي: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، وكذلك الطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، وهذا كالدليل على براءة عائشة؛

لأنها زوجة أشرف رسول وأكرم مخلوق على الله ، وما كان الله ليجعلها زوجة لأحب عباده لو لم تكن عفيفة طاهرة شريفة - رضي الله عنها وأرضاها - .

﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (١١) .

أي : أولئك الفضلاء منزهون مما تقول أهل الإفك في حقهم من الكذب والبهتان ، ولهم على ما نالهم من الأذى مغفرة لذنوبهم ، ورزق كريم في جنات النعيم .

قال ابن كثير : وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة .

* لما حذر - تعالى - من قذف المحصنات وشدد العقاب فيه ، وكان طريق هذا الاتهام مخالطة الرجال للنساء ، ودخولهم عليهن في أوقات الخلوات ، أرشد - تعالى - إلى الآداب الشرعية في دخول البيوت فأمر بالاستئذان قبل الدخول وبالتسليم بعده .

ووضحت السورة الآداب الشرعية التي يجب أن يتمسك بها المؤمنون في حياتهم الخاصة والعامة ، كالاستئذان عند دخول البيوت ، وغض الأبصار ، وحفظ الفروج ، وحرمة اختلاط الرجال بالنساء والأجنبيات ، وما ينبغي أن تكون عليه الأسرة المسلمة والبيت المسلم من العفاف والستر ، والنزاهة والطهر ، والاستقامة على شريعة الله ، صيانة لحرمتها ، وحفاظاً عليها من عوامل التفكك الداخلي ، والانهيار الخلقي ، الذي يهدم الأمم والشعوب ، قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٢) [النور : ٢٧] .

وفي ذلك من الآداب أن المرء لا ينبغي أن يكون كلاً على غيره ، ولا ينبغي له أن يعرض نفسه إلى الكراهية والاستثقال ، وأنه ينبغي أن يكون الزائر والمزور متوافقين متأنسين وذلك عون على الأخوة الإسلامية .

﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ
 آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا ۚ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝﴾ [النور: ٢٨].
 قال قتادة: قال بعض المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية، فما
 أدركتها أن أستأذن على بعض إخواني فيقول: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط
 لقوله: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا ۚ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ﴾.
 ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ﴾.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ لا يراد به مجرد الاستئذان، وإنما
 المراد به معرفة أنس أهل البيت بدخول الزائر ورغبتهم بزيارته.
 والحكمة في تشريع أدب الاستئذان؛ هي الحيلولة بين النظر وبين عورات
 الآخرين، ولهذا أوصى ﷺ الزائر أن لا يستقبل الباب بوجهه بل يجعله
 عن يمينه أو شماله.
 ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝﴾.

أي: الرجوع أطهر وأكرم لنفوسكم، وسلامة صدوركم، وهو خير
 لكم من اللجاج والانتظار على الأبواب، فإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى
 الكراهة، وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها من قرع الباب بعنف
 والتصيح بصاحب الدار وغير ذلك.
 وهو - تعالى - عالم بالخفايا والنوايا وبجميع أعمالكم فيجازيكم عليها.
 وفيه توعده لأهل التجسس على البيوت.

* ثم وجه الخطاب للمؤمنات، فقال تعالى:
 ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ۖ﴾.
 وقيل أيضاً للمؤمنات يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن
 النظر إليه، ويحفظن فروجهن عن الزنى وعن كشف العورات.
 قال المفسرون: أكد - تعالى - الأمر للمؤمنات بغض البصر وحفظ الفروج،
 وزادهن في التكليف على الرجال بالنهي عن إبداء الزينة إلا للمحارم، فقال:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ .

أي: كالثياب الجميلة والحلي، وجميع البدن كله من الزينة، ولما كانت الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها لا بد لها منها، قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها، ولم يقل: إلا ما أظهرن منها.

قال ابن كثير: أي: لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه.

قال ابن مسعود: الزينة زينتان: فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب، فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء منها إلا للضرورة.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ .

وهذا لكمال الاستتار، ويدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إبدائها يدخل فيها جميع البدن، أي: وليلقين الخمار وهو غطاء الرأس على فتحات صدورهن مغطيات وجوههن ليكمل سترهن، ولئلا يبدو شيء من النحر والصدر، وفي لفظ الضرب مبالغة في الصيانة والتستر.

عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: يرحم الله النساء المهاجرات الأول؛ لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها.

قال المفسرون: كانت المرأة في الجاهلية تمر بين الرجال مكشوفة الصدر، بادية النحر، حاسرة الذراعين، وربما أظهرت مفاتن جسمها وذوائب شعرها لتغري الرجال، وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى صدورهن مكشوفة عارية، فأمرت المؤمنات بأن يلقينها من قدامهن حتى يغطيها ويدفعن عنهن شر الأشرار.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ .

ولا يضربن بأرجلهن الأرض، لئلا يسمع الرجال صوت الخلخال فيطمع الذي في قلبه مرض. قال ابن عباس: كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع صوت خلخالها، فنهى الله - تعالى - عن ذلك؛ لأنه من عمل الشيطان.

ويؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحاً ولكنه يفضي إلى المحرم، أو يخاف من وقوعه فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض الأصل أنه مباح ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة منع منه، وإذا كانت المرأة منهيّة عن الضرب بالأرجل خوفاً من افتتان الرجل بما يسمع من صوت خلخالها ونحوه فتغطية الوجه وستره من باب أولى؛ لأنه موضع الجمال والفتنة.

* قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

قال الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - : أيهما أعظم فتنة أن يسمع الرجل خلخالاً بقدم امرأة لا يدري ما هي؟ وما جمالها؟ ولا يدري أشوها هي أم حسناء؟! أو أن ينظر إلى وجه سافر جميل، ممتلئ شباباً ونضارة، وحسناً وجمالاً وتجميلاً بما يجلب الفتنة، ويدعو إلى النظر إليها؟

* ثم أرشد - تعالى - إلى الآداب الرفيعة من غض البصر، وحفظ الفروج، حماية من الانزلاق في الرذيلة، أو الوقوع في الزنا لأن حفظ الفرج ثمرة طبيعية لغض البصر. قال تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ

يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

الأمر للجميع رجالاً ونساء بغض البصر.

قال العلماء: غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر،

جلیلة القدر:

إحذاهما: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرّف بصره عنه وتركه لله - تعالى - .

والثانية: نور القلب وصحة الفراسة .

والثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته .

قال ابن القيم: غرض البصر يكسب القلب نوراً، فقد أمر - سبحانه -

بغض البصر ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠] ثم قال إثر ذلك ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥] .

﴿ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ .

أي: ذلك الغض والحفظ أظهر للقلوب، وأتقى للدين، وأحفظ من الوقوع في الفجور، فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم الذي تطمع إليه النفس وتدعوا إليه . وجعل الزكاة بعد غرض البصر وحفظ الفرج، وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغرض البصر .

قال السعدي: وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقاً؛ لأنه لا يباح في حالة من الأحوال، وأما البصر فقال: ﴿ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ أتى بأداة ﴿ مِنْ ﴾ الدالة على التبعض؛ فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال لحاجة كنظر الشاهد والخطاب ونحو ذلك .

* قال تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّبِيعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

بدأ - تعالى - بالأزواج لأن اطلاعهم يقع على أعظم من الزينة، ثم ثنى بالمحارم وسوى بينهم في إبداء الزينة، ولكن تختلف مراتبهم في الحرمة بسبب ما في نفوس البشر، فالأب والأخ ليس كابن الزوج، فقد يُبدي للأب ما لا يبدي لابن الزوج.

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

التوبة وظيفة العمر، ولهذا قال الله ﴿جَمِيعًا﴾ ولم يستثن أحداً فإن الذنب لا يكاد يسلم منه أحد، ولما ذكر الله - تبارك وتعالى - هذه الأحكام علم - جل وعلا - أن عباده وإن حرصوا على الامتثال بها، إلا أنه لن يخلو أن يقع منهم شيء، فدلهم - جل وعلا - على ما يجبر ذلك الكسر وهو التوبة إلى الله - سبحانه وتعالى -.

قال الشيخ بكر أبو زيد: تأمل هذا السر العظيم من أسرار التنزيل، وإعجاز القرآن الكريم، ذلك أن الله - تعالى - لما ذكر في فاتحة سورة النور شناعة جريمة الزنى، وتحريمها غائباً، ذكر - سبحانه - من فاتحتها إلى تمام الآية الثالثة والثلاثين: أربع عشرة وسيلة وقائية، تحجب هذه الفاحشة، وتقوم وقوعها في مجتمع الطهر والعفاف جماعة المسلمين، وهذه الوسائل الراقية: فعلية، وقولية، وإرادية.

✽ وبعد أن ذكر - عز وجل - وجوب غض البصر وحفظ الفرج وقاية من الزنا، وأمرت الآيات النساء بستر أجسامهن وعدم إبداء زينتهن إلا لطائفة خاصة من الرجال، أمر - عز وجل - بإنكاح الأيامي، وهم الذين لا أزواج لهم من الصنفين حتى يشتغل كل منهما بما يلزمه فلا يلتفت إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى

الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ
إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا
مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ [النور: ٣٢ - ٣٤].

* قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا
مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ
زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي
اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾
[النور: ٣٥] قال ابن تيمية: ذكر - سبحانه - آية ﴿اللَّهُ نُورٌ﴾ عقب آيات غض
البصر، فمن غض بصره عن الحرام، اطلق الله نور بصيرته، وفتح عليه
من العلم.

* قال تعالى: ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور: ٣٥] شبه الله - تعالى -
الزجاج بالكوكب، ولم يشبهها بالشمس والقمر؛ لأن الشمس والقمر
يلحقهما الخسوف، والكواكب لا يلحقها الخسوف.

* قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

﴿رِجَالٌ﴾ قال ابن كثير: فيه إشعار بهمهم السامية، ونياتهم وعزائمهم
العالية التي بها صاروا عماراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه،
ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه.

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ
صَفَّتْ كُلُّ قَدٍّ عِلْمَ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ﴾ [النور: ٤١].

قال القرطبي: خص الطير بالذكر من جملة الحيوان، لأنها تكون بين
السماء والأرض، فتكون خارجة عن حكم من في السماء والأرض.

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

جاء رجل من دهاقين الروم مسلماً عند عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: ألهذا سبب؟ قال: نعم! إني قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما في الكتب المتقدمة، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت. قال: ما هذه الآية؟ قال قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ﴾ في الفرائض ﴿وَرَسُولَهُ﴾ في السنن ﴿وَيُحْشِ اللَّهَ﴾ فيما مضى، من عمره ﴿وَيَتَّقَهُ﴾ فيما بقى من عمره ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة، فقال عمر: قال النبي ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم».

* قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

قال أبو عثمان النيسابوري: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه، نطق بالبدعة.

* قال تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠].

وقد ذكر الله - عز وجل - أنهن قواعد تمشي على أربع لكبر سنهن، وغير متبرجات بزيئة، ومع ذلك قال: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾.

قال القرطبي: إنما خص القواعد بذلك لانصراف الأنفس عنهن، إذ لا مذهب للرجال فيهن، فأباح لهن ما لم يباح لغيرهن، وأزيل عنهن كلفة التحفظ المتعب لهن.

* قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ

بُيُوتِ عَمَتَيْكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَلَتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴿٦١﴾ [النور: ٦١].

وهذا الحرج المنفي عن الأكل من هذه البيوت كل ذلك إذا كان بدون إذن.

قال السعدي: والحكمة فيه معلومة من السياق فإن هؤلاء المسمين قد جرت العادة والعرف بالمسامحة في الأكل منها لأجل القرابة القريبة، أو التصرف التام، أو الصداقة، فلو قدر في أحد من هؤلاء عدم المسامحة والشح في الأكل المذكور، لم يجز الأكل ولم يرتفع الحرج.

وذكر بيوت القربات، وسقط منها بيوت الأبناء، قال المفسرون: ذلك لأنها داخلة في قوله ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ لأن بيت ابن الرجل بيته. ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.

قال القرطبي: قرن الله - عز وجل - في هذه الآية الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة، لأن قرب المودة لصيق.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: الصديق أوكد من القرابة، ألا ترى استغاثة الجهنميين، ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١١﴾ [الشعر: ١٠٠ - ١٠١].

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَرَكَاةٌ طَيِّبَةٌ﴾

[النور: ٦١].

وصفها بالبركة؛ لأن فيها الدعاء واستجلاب مودة المسلم عليه.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٤].

فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول، ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه إذن فيه.

سورة الفرقان ٢٥

سورة الفرقان سورة مكية، تكلم - سبحانه - في هذه السورة على التوحيد؛ لأنه أقدم وأهم، ثم في النبوة لأنها الواسطة، ثم في المعاد لأنه الخاتمة، وسأقت الآيات بعض القصص للعظة والاعتبار.

سميت السورة الكريمة: سورة الفرقان؛ لأن الله - تعالى - ذكر فيها هذا الكتاب المجيد الذي أنزله على عبده محمد ﷺ، وكان النعمة الكبرى والمنة العظمى؛ لأنه النور الساطع والضياء المبين، الذي فرق الله به بين الحق والباطل، والنور والظلام، والكفر والإيمان، ولهذا كان جديراً بأن يسمى الفرقان.

وفي الآيات إيناس لرسول الله ﷺ، وتسرية وتطمين له، وتقوية وهو يواجه مشركي قريش وعنادهم له، وتطاولهم عليه وتعنتهم معه.

* قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

ثم ردّ الله - عز وجل - على كفار قريش قولهم عن القرآن أنه أساطير الأولين، فقال تعالى:

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

لقن الله رسوله ﷺ الجواب لرد القائلين إن هذا القرآن إلا إفك وإنه أساطير الأولين، بأنه أنزله الله على رسوله.

وجملة الصلة كناية عن مراقبته الله فيما يبلغه عنه. وفي ذلك إيقاظ لهم بأن يتدبروا في هذا الذي زعموه إفكاً أو أساطير الأولين ليظهر لهم اشتماله على الحقائق الناصعة التي لا يحيط بها إلا الله الذي يعلم السر.

* ثم ذكر - عز وجل - من صفات الأنبياء وكلها صفات بشرية لا تنطبق على إله يعبد مثل الحي القيوم، فذكر أن محمداً ﷺ كسابقه من الأنبياء، بشر يمشي ويأكل، وفي هذا نفي لمن ألّه الأنبياء، فقال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصبر، فإن صبر كانت الفتنة ممحصّة له ومخلصّة من الذنوب كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة، فالفتنة كير القلوب، ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب. قال ابن هبيرة: والآية تدل على فضل هداية الخلق بالعلم، وتبين شرف العالم على الزاهد المنقطع، فإن النبي ﷺ كالطبيب، والطبيب يكون عند المرضى، فلو انقطع عنهم هلكوا.

* قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾.

وجعلنا بعض الناس بلاءً لبعض ومحنة، وهذا عام في جميع الخلق، ابتلى الله الرسول والمرسل إليه، وابتلى الله الغني بالفقر، والشريف بالوضيع، والصحيح بالمریض، ليختبر صبركم وإيمانكم، أتشكرون فيثيبكم مولاكم، أم تكفرون ولا تصبرون فتستحقوا العقوبة.

قال الحسن: يقول الأعمى: لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان، ويقول الفقير: لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان، ويقول السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان.

﴿أَتَصْبِرُونَ﴾.

يعني: على هذه الحالة من الفقر والشدة والأذى، وتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبية، فيثيبكم مولاكم، أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٤﴾ .

يعلم أحوالكم، عالماً بمن يطيع أو يعصي، وبمن يصبر أو يجزع، وبمن يشكر أو يكفر .

* لما حكى - تعالى - إنكار المشركين لنبوة محمد - عليه السلام - وتكذيبهم للقرآن، أعقبه بذكر بعض شبههم الأخرى التي قدحوا بها في النبوة .

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ ۝٢٥﴾ .

هذا وعيد آخر؛ أي: وعمدنا إلى أعمال الكفار التي يعتقدونها برّاً، كإطعام المساكين وصلة الأرحام، وإغاثة الملهوف، ويظنون أنها تقربهم إلى الله، ورجوا أن تكون خيراً، وتعبوا فيها .

﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ۝٢٦﴾ .

أي: جعلناه مثل الغبار الخفيف المنثور في الجو لا ينفعهم؛ لأنه لا يعتمد على أساس ولا يستند على إيمان، وذلك أن العمل لا ينفع في الآخرة إلا إذا توافرت في صاحبه: الإيمان بالله، والإخلاص له، والمتابعة لرسوله محمد ﷺ .

والهباء: هو الذي يرى كهيئة الغبار إذا دخل ضوء الشمس من كوة. والمنثور المتفرق .

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلِيَّتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾

يَتَوَلَّيْتُ لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي

وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [الفرقان: ٢٨ - ٢٩] .

قال ابن عاشور: وفيه إيماء إلى أن شأن الخلّة الثقة بالخليل، وحمل مشورته على النصيح، فلا ينبغي أن يضع المرء خلته إلا حيث يوقن بالسلامة من إشارات السوء .

* لما بين - تعالى - حال الكفار وأنهم في الخسران الكلي والخيبة التامة ، شرح وصف أهل الجنة وأنهم في غاية السرور والحبور ، تنبيها على أن السعادة كل السعادة في طاعة الله - عز وجل - .

﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۖ ﴾ .

أي : أصحاب الجنة في ذلك اليوم الهائل العصيب الشديد ، وهو يوم القيامة ، خير من الكفار مستقرًّا ومنزلًا ومأوى ، فراحتهم تامة ، ونعيمهم لا يشوبه كدر . وأحسن منهم مكانًا للتمتع وقت القيلولة ، وهي الاستراحة نصف النهار ، فالمؤمنون في الآخرة في الفردوس والنعيم المقيم ، والكفار في دركات الجحيم .

وقد استنبط بعض العلماء من هذه الآية أن حساب أهل الجنة يسير وأنه ينتهى في نصف نهار .

قال ابن مسعود : لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار .

* لما أكثر المشركون الطعن في القرآن وكانوا لا يصغون له ولا يستمعون ، ضاق صدر الرسول ﷺ ، وشكاهم إلى الله تعالى :

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۖ ﴾ .

قال المفسرون : وليس المقصود من حكاية هذا القول الإخبار بما قال المشركون ، بل المقصود منها تعظيم شكايته ، وتخويف قومه ؛ لأن الأنبياء إذا التجؤوا إلى الله وشكوا قومهم حل بهم العذاب ، ولم يمهلوا .

وفيه تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن ، كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم .

قال ابن القيم : وهجر القرآن أنواع :

أحدها : هجر سماعه والإيمان به ، والإصغاء إليه .

والثاني : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه

وآمن به .

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته اللفظية لا تحصل العلم.

الرابع: هجر تدبره وفهمه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۖ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن أَضَلُّ سَبِيلًا ۝﴾ [الفرقان: ٤١ - ٤٢].

من خصائص أهل الأهواء أنهم يلجؤون إلى السخرية بالفضلاء والتهكم على المؤمنين العقلاء، وذلك لأنهم عدموا المنطق المقنع فلجأوا إلى اللغو المفرع.

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝﴾ [الفرقان: ٤٥].

قال ابن عاشور: وفي مد الظل وقبضه نعمة معرفة أوقات النهار للصلوات وأعمال الناس، ونعمة التناوب في انتفاع الجماعات والأقطار بفوائد شعاع الشمس، وفوائد الفيء بحيث إن الفريق الذي كان تحت الأشعة يتبرد بحلول الظل والفريق الذي كان في الظل، ينتفع بانقباضه.

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ۝﴾ [الفرقان: ٤٧].

وفي الآية ذكر لثلاث من نعم الله - جل جلاله -: هي الليل السائر، والنوم المريح، والنهار الباعث. وفي كل آية لمن تدبر ونظر، فالسواد تتشح به الأرض، والسبات قطع للأعمال والأشغال، والنهار سعي وكد وعمل.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا

كُفُورًا ۝﴾ [الفرقان: ٥٠].

يؤخذ من الآية أن الماء المنزل من السماء لا يختلف مقداره، وإنما تختلف مقادير توزيعه على مواضع القطر، فعن ابن عباس: ما عام أقل مطراً من عام ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء، وتلا هذه الآية.

* قال تعالى: ﴿فَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝﴾

[الفرقان: ٥٢].

قال ابن القيم: هذه الآية في سورة الفرقان وهي مكية، ولم يشرع الجهاد بالسيف وقتها، فدل أن طلب العلم من سبيل الله؛ لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد، فقوام الدين بالعلم والجهاد.

قال السعدي - رحمه الله -: فهذا فرض عين على كل مسلم أن يقوم بما يقدر عليه ويعلمه، وعلى أهل العلم من ذلك ما ليس على غيرهم.

* قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ٥٥].

قال ابن القيم: هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه، فالمؤمن دائماً مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه، وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه، وعبارات السلف على هذا تدور.

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ

أَرَادَ شُكُورًا ۝﴾ [الفرقان: ٦٢].

قال البخاري: ﴿خِلْفَةً﴾ من فاته من الليل عمل أدركه بالنهار، أو فاته بالنهار أدركه بالليل. وشاهد هذا حديث عمر عند مسلم مرفوعاً: «من نام عن حظه - أي: قيام الليل -، أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له كأنما قرأه من الليل» [رواه البخاري].

* نعت الله - سبحانه - المؤمنين في القرآن بأحسن نعت، فقال:
﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ
قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال الحسن: حلماء لا يجهلون، وإذا جهل عليهم حلموا.
قال ابن القيم: لما كانت العشرة عشرين: عشرة الرجل، وعشرة اللسان،
جاءت إحداهما قرينة الأخرى.

* ثم ذكر ليلهم خير ليل، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا
وَقِيَمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

تجري دموعهم على خدودهم؛ خوفاً من ربهم، لأمر ما سهروا ليلهم،
لأمر ما خشعوا أنهارهم.

قال السعدي - رحمه الله -: أضاف عبودية أنبيائه وأوليائه إلى اسمه
﴿الرَّحْمَنِ﴾ إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته.
وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن، بأحسنها
والطفها، وأحكمها وأوقرها في قوله: ﴿هَوْنًا﴾، وقوله: ﴿سَلَامًا﴾.
* ثم ذكر - عز وجل - من صفاتهم:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

جعل الله - سبحانه - هذه الأمة وسطاً، وهي الخيار العدل، لتوسطها
بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجود والتفريط،
والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف، والأوساط محمية بأطرافها، فخير
الأمور أوساطها.

وعن الحسن: ليس في النفقة في سبيل الله سرف، وسمع رجل رجلاً
يقول: لا خير في الإسراف، فقال: لا إسراف في الخير.

﴿ وَذَكَرْكَ كَذَلِكَ صِفَةً تَالِيَةً لَهُمْ ، فَقَالَ :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] .
وتأمل كيف قال سبحانه : ﴿ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ ولم يقل : بالزور ،
لأن ﴿ يَشْهَدُونَ ﴾ بمعنى يحضرون ، فمدحهم على ترك حضور مجالس
الزور فكيف بالتكلم به وفعله .

﴿ وَذَكَرَ - تَعَالَى - دَعَائِهِمْ وَتَضَرُّعِهِمْ لِرَبِّهِمْ ، فَقَالَ :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] .
سأل رجل الحسن عن قوله : ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾
ما القرة؟ أفي الدنيا أم في الآخرة؟ قال : بل في الدنيا ، هي والله أن يرى
العبد من ولده طاعة الله ، وما شيء أقر لعين المؤمن أن يرى حميمه في
طاعة الله .

ومن أعظم أنواع البر إدخال السرور على الوالدين ، وأعظم ذلك القيام
بحقوق الله وطاعته فإنه يدخل السرور على الوالدين .

ومن دعائهم : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] .
المؤمن لا يكفيه أن ينفع نفسه ، بل يدعوا الله - عز وجل - أن يكون
للمتقين إماماً يدعوهم ويرشدهم ويعلمهم ، طمعاً في الأجر والثوبة ، وكثرة
الحسنات ورفيع الدرجات .

﴿ وَذَكَرَ - تَعَالَى - حَالَهُمْ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فَقَالَ :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ تَحْجُرُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان : ٧٣] .

قال ابن العربي : قال علماؤنا : يعني الذين إذا قرءوا القرآن قرأوه بقلوبهم
قراءة فهم وتثبت ، ولم ينثروه نثر الدقل ؛ فإن المرور عليه بغير فهم ولا تثبت
صمم وعمى عن معانيه ووعيده ووعدده .

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

قال ابن القيم: ووحد - سبحانه - لفظ - إماماً - ولم يقل واجعلنا للمتقين - أئمة - . هو أن المتقين كلهم على طريق واحد؛ فدينهم واحد ونبیهم واحد، وكتابهم واحد ومعبودهم واحد، فكأنهم كلهم إمام واحد لمن بعدهم، فالإتمام إنما هو بما هم عليه، وهو شيء واحد وهو الإمام في الحقيقة.

سورة الشعراء ٢٦

سورة الشعراء سورة مكية، مقدمتها حول القرآن الكريم، وخاتمتها حول القرآن الكريم، وبين المقدمة والخاتمة قصص سبع من الأمم بُعث فيها الأنبياء فكذبت أنبيائها فهلكت. أولها: قصة موسى وهارون، وثانيها: قصة إبراهيم، وثالثها: قصة نوح، ورابعها: قصة هود، وخامسها: قصة صالح، وسادسها: قصة لوط، وسابعها: قصة شعيب، وكل تلك القصص لتسليّة الرسول ﷺ عما يلقاه من المشركين وشدة لأزره للقيام بتبليغ الرسالة.

سميت سورة الشعراء؛ لأن الله - تعالى - ذكر فيها أخبار الشعراء، وذلك للرد على المشركين في زعمهم أن محمداً كان شاعراً، وأن ما جاء به من قبيل الشعراء، فرد الله عليهم ذلك الكذب والبهتان. وقد ابتدأت السورة الكريمة بالإشارة إلى هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله هداية للخلق، ونوراً وهدى وشفاء، وذكر موقف المشركين منه، فقد كذبوا به مع وضوح آياته، وسطّوع براهينه، وطلبوا معجزة أخرى غير القرآن الكريم، عناداً واستكباراً.

* ثم توالى الآيات حكاية عن موسى - عليه السلام - فقال تعالى:

﴿وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤].

خاف موسى أن يقتلوه به، فدل على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء، والأولياء مع معرفتهم بالله، وأن لا فاعل إلا هو، إذ قد يسلط من شاء على من شاء، ولكن هذا خوف طبيعي يدفع بالتوكل والعزم.

* ثم ذكر - تعالى - قول فرعون لموسى وإظهار منته عليه والسخرية،

فقال:

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨].

السخرية بالدعاة والمن والأذى والإهانة، وبالتذكير بالزلل سمة قديمة، ومفردات متداولة لحجب الحق ورده.

❖ قال - تعالى - في قصة أصحاب موسى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ (٣٦).

فسماهم بالاسم الشريف: عبادي، فلما ضعف توكلهم، ولم يستشعروا كفاية الله لهم، سلبهم هذا الوصف الشريف، وقال عنهم ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (٣٦).

❖ ثم بدأ إبراهيم - عليه السلام - يعدد بعضاً من آلاء الله ونعمه، وإظهار مقدرته وعظم فضله، وصلته به في كل حال، وفي كل حين:

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فِي أَحْسَن صُورَةٍ، وَهُوَ الَّذِي يَرشدني إلى مصالح الدنيا والدين، لا هذه الأصنام. ثم خصص منها بعض الضروريات، فقال:

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (٧١).

وهو - تعالى - الذي ينعم عليّ بالطعام والشراب، فهو الخالق الرازق الذي ساق المزن، وأنزل المطر، وأخرج به أنواع الثمرات رزقاً للعباد، أضاف الإطعام إلى وليّ الإنعام، لأن الركون إلى الأسباب عادة الأنعام.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨٠).

وإذا أصابني المرض فإنه لا يقدر على شفائي ولا يعافيني منه أحد غيره، وإنما أسند المرض إلى نفسه وأسند الشفاء إلى الله رعاية للأدب، وإلا فالمرض والشفاء من الله - جل وعلا -، فاستعمل في كلامه حسن الأدب.

وهو - سبحانه - الشافي؛ يشفي ويعافي من الأمراض والأسقام، والأدوية أسباب يجب أن لا يتعلق القلب بها.

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي﴾ .

وهو - تعالى - المحيي المميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، يميتني إذا شاء، ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي، وكل هذه دلائل قاطعة، وحجج باهرة، لا تقدر أنتم وآباؤكم على معارضتها وإنكارها، ثم بعد أن عدد بعضاً من نعمه وآلائه وفضله اتجه إليه بالضراعة والدعاء:

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ .

أي: أرجو من واسع رحمته أن يغفر لي ذنبي يوم الحساب والجزاء، حيث يجازي العباد بأعمالهم، وفيه تواضع الأنبياء لربهم وهضم لأنفسهم وتعليم للأمة أن يستغفروا من ذنوبهم، ويقرؤا بخطاياهم.

وإذا كان هذا حال الخليل - عليه السلام - طامعاً في غفران خطيئته، غير جازم بها على ربه، فمن بعده من المؤمنين أخرى أن يكونوا أشد خوفاً من خطاياهم.

﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

وقد فعل الله ذلك؛ إذ ليس يصلي على النبي ﷺ إلا وهو يصلي على إبراهيم وخاصة في الصلوات، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات.

قال الإمام مالك - رحمه الله - : لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحاً، ويرى في عمل الصالحين، إذا قصد به وجه الله، ولم يراء به، وهو الثناء الصالح؛ وقد قال الله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩].

* قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [٨٨] إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ

سَلِيمٍ ﴿[الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

في الآية ثناء الله على إبراهيم أنه أتى ربه بقلب سليم. قال ابن العربي في أحكام القرآن: ولا يكون القلب سليماً إذا كان حقوداً حسوداً، معجباً متكبراً، وقد شرط النبي ﷺ في الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، والله الموفق برحمته.

قال السعدي: والجامع لمعناه أنه سليم من الشرور كلها ومن أسبابها، ملاّن من الخير والبر والكرم، سليم من الشبهات القاذحة في العلم واليقين، ومن الشهوات الحائلة بين العبد وبين كماله، سليم من الكبر ومن الرياء، والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، وسليم من الغل والحقْد، ملاّن بالتوحيد والإيمان، والتواضع للحق وللخلق، والنصيحة للمسلمين، والرغبة في عبودية الله، وفي نفع عباد الله.

* ثم ذكر - تعالى - حال أهل النار، فقال: ﴿فَكَبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩١].

لم يقل (فكبوا)، وإنما كرر الكلمة دليلاً على التكرير في المعنى، كأن الواحد منهم إذا ألقى في جهنم ينكب مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها.

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿﴾ [الشعراء: ١٠٠ - ١٠١].

وإنما جمع الشافع لكثرة الشافعين، ووجد الصديق لقلته في العادة. قال الحسن: ما اجتمع ملاً على ذكر الله، فيهم عبد من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم في بعض وهم عند الله شافعون مشفعون.

* ترد الآيات القرآنية مرة بصفة الصاحب ومرة أخرى بصفة الصديق، والفرق بينهما أن الصديق من الصدق في التعامل وفي المحبة، فهو صديق صادق مقرب، وقد وردت كلمة الصديق مرتين، الأولى في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾

فجعل بيت الصديق مثل البيت الذي تملك مفاتحة لما بينهم من العلاقة الحميمة .

وجاءت في المرة الثانية في حال الكفار في النار وهم يصطرخون ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿﴾ [الشعراء: ١٠١] .

أما الصاحب فهو الذي يصحب الإنسان في الزمان والمكان وقد يكون صديقاً أو عدواً . وقد تكون الصحبة مؤقتة في الطريق مثل ما ذكر الله - تعالى - عن العبد الصالح مع موسى ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي﴾ [الكهف: ٧٦] .

وقد تكون الصحبة المؤقتة بين مسلم وكافر كما ذكر - عز وجل - عن صاحب الحديقة ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ﴿﴾ ويرد عليه صاحبه ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٤ - ٣٧] .
وكما ذكر الله عن كفار مكة ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ ﴿﴾ [النجم: ٢] وقد تكون الصحبة مؤبدة مثل الوالدين ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥] .

أو كحال الزوجة التي ذكر الله - عز وجل - حالها وزوجها يوم الفزع الأكبر ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٦] وعلى كل حال ليس كل صاحب صديق، وكل صديق صاحب .
* قال تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ﴿﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ

الْمُسْتَقِيمِ ﴿﴾ [الشعراء: ١٨١ - ١٨٢] .

قال الألوسي: والمراد: الأمر بوفاء الوزن، وإتمامه، والنهي عن النقص دون النهي عن الزيادة والظاهر أنه لم ينع عنها، ولم يؤمر بها في الكيل والوزن، وكان ذلك دليل على أن من فعلها فقد أحسن، ومن لم يفعلها فلا عليه .

﴿وَأَنَّهُ لَتَتَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -: وتأمل كيف جمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، وعلى أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

قال الألوسي: خوطب به النبي ﷺ مع استحالة صدور المنهي عنه - عليه الصلاة والسلام - تهيجاً وحثاً لازدياد الإخلاص، فهو كناية عن أخلص في التوحيد حتى لا ترى معه - عز وجل - سواه، وفيه لطف لسائر المكلفين ببيان أن الإشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لم يمكن صدوره عنه، فكيف بمن عداه.

* قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

إشارة إلى أن يبدأ الإنسان في كل دعوة خير بأهل بيته وأقاربه، لعل الله أن يهديهم فيشتد بهم أزره ويقوى أمره. ويكون عوناً على الطاعة والعبادة.

* قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧].

ختم بالعزیز فهو القوي القادر على أن يكفيك ويحميك، وبالرحيم؛ لأن فيه معنى العناية والرعاية ومعرفة ما ينفعك.

* ثم ذكر - سبحانه - حال الشعراء، فقال:

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤].

وقوله - تعالى - في هذه الآية الكريمة ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ يدل على أن أتباع الشعراء من أتباع الشيطان، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

روى مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يمتلى جوف أحدكم قيحاً حتى منخرية خير من أن يمتلى شعراً». والبعض يحفظ الشعر ورواته وقل أن تجد في صدره من القرآن إلا سوراً معدودة.

* قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٦].

هذا الذي ذكره هنا عن الشعراء من أنهم يقولون ما لا يفعلون، بين في آية أخرى أنه من أسباب المقت عنده - جل وعلا -، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَنَاقِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ - ٣].

* ثم استثنى - عز وجل - فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ذكر ابن إسحاق: أنه لما نزلت: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ يبيكون، قالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء. فتلا النبي ﷺ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: «أنتم».

* قال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

قال الزمخشري: ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول، ولا أنكى لقلوب المتأملين ولا أصدع لأكباد المتدبرين، وذلك قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ وما فيه من الوعيد البليغ، وقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وإطلاقه وتعميمه، وقوله: ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ وإبهامه وتهويله، وكان السلف الصالح يتواظفون بها.

سورة النمل ٢٧

سورة النمل من السور المكية، التي تهتم بالحديث عن أصول العقيدة خاصة: التوحيد، والرسالة، والبعث، وهي إحدى سور ثلاث نزلت متلاحقة، ووضعت في المصحف متلاحقة وهي: الشعراء، والنمل، والقصص، ويكاد يكون منهاجها واحداً، في سلوك مسلك العظة والعبرة، عن طريق قصص الغابرين.

سميت سورة النمل؛ لأن الله - تعالى - ذكر فيها قصة النملة التي وعظت بني جنسها، وذكرت، ثم اعتذرت عن سليمان وجنوده، ففهم نبي الله كلامها وتبسم من قولها، وشكر الله على ما منحه من الفضل والإنعام، وفي ذلك أعظم الدلالة على علم الحيوان، وأن ذلك من إلهام الواحد الديان.

وتناولت السورة الكريمة القرآن العظيم، معجزة محمد الكبرى، وحجته البالغة إلى يوم الدين، فوضحت أنه تنزيل من حكيم علیم. وتحدثت الآيات بالتفصيل بعد قصة موسى عن قصة داود وولده سليمان، وما أنعم الله عليهما من النعم الجليلة، وما خصهما به من الفضل الكبير، بالجمع بين النبوة والملك الواسع، ثم ذكرت قصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ. وفي هذه القصة مغزى دقيق لأصحاب الجاه والسلطان، والعظماء والملوك، فقد اتخذ سليمان الملك وسيلة للدعوة إلى الله، فلم يترك حاكماً جائراً ولا ملكاً كافراً إلا دعاه إلى الله، وهكذا كان شأنه مع بلقيس حتى تركت عبادة الأوثان، وأتت مع جندها خاضعة مسلمة، مستجيبة لدعوة الرحمن، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ﴾

والمعنى: والله لقد أعطينا داود وابنه سليمان علماً واسعاً من علوم الدنيا والدين، وجمعنا لهما بين سعادة الدنيا والآخرة. وكذلك علم كلام الطير والدواب وغير ذلك مما خصهم الله بعلمه.

﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وقالا شكراً لله واعترافاً بجمته وفضله: الحمد لله الذي فضلنا بما آتانا من النبوة، والعلم، وتسخير الإنس والجن والشياطين على كثير من عباده المؤمنين، ولم يفضلوا أنفسهم على الكل تواضعاً منهم، وفي الآية دليل على شرف العلم وتقدم حملته وارتفاع أهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأن من أوتيها فقد أوتي فضلاً على كثير من العباد، ومنح شرفاً جليلاً.

* قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ .

أي: ورث سليمان أباه في النبوة، والعلم، والملك دون سائر أولاده، وكان لداود تسعة عشر ولداً فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه. قالوا: أوتي النبوة مثل أبيه، فكأنه ورثه؛ وإلا فالنبوة لا تورث، ولو كانت وراثته مال لكان جميع أولاده فيه سواه.

وقال تحدثاً بنعمة الله وشكراً له ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة: يا أيها الناس: لقد أكرمنا الله فعلمنا منطق وكلام الطير، وأصوات جميع الحيوانات، وقدم منطق الطير، لأنها نعمة خاصة به، لا يشاركه فيها غيره. وأعطانا الله من كل شيء - والمراد به كثرة ما أوتي - من خيرات الدنيا ومن أسباب الملك، ومن السلطنة والقهر، ما لم يؤته أحداً من الآدميين، وجاء سليمان بنون العظمة، والمراد نفسه، بياناً لحاله من كونه مطاعاً لا يخالف، لا تكبراً وتعظيماً لنفسه.

﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ .

أي: إن ما أعطانا، وما خصنا الله به من أنواع النعم لهو الفضل الواضح الجلي، الذي يميزنا على من سوانا، قاله على سبيل الشكر والمحمدة، لا على سبيل العلو والكبرياء.

﴿وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾.

وجمع لسليمان جيوشه وعساكره، وأحضرت له في مسيرة كبيرة، فيها طوائف الجن والإنس والطير، يتقدمهم سليمان في أبهة وعظمة كبيرة.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

أي: فهم يكفون ويمنعون عن التقدم بين يديه. قال ابن عباس: جعل على كل صنف من يرد أولاهها على آخرها لئلا يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك.

﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتِ نَمْلَةٌ يَتَأَيَّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ﴾.

أي: حتى إذا وصلوا إلى وادٍ بالشام كثير النمل، قالت إحدى النملات منبهة لرفيقاتها وبني جنسها ادخلوا بيوتكم، خاطبتهم مخاطبة العقلاء؛ لأنها أمرتهم بما يؤمر به العقلاء.

جمعت النملة في هذه الجملة أحد عشر نوعاً من فنون الكلام: نادت ونبهت وسمت، وأمرت وأرشدت، وحذرت وخصت، وعمت وأشارت وعذرت.

قال بعض العلماء: هذه الآية من عجائب القرآن، لأنها بلفظه

﴿يَتَأَيَّ﴾ نادت، ﴿أَيُّهَا﴾ نبهت، ﴿النَّمْلُ﴾ عينت، ﴿ادْخُلُوا﴾ أمرت، ﴿مَسْكِنَكُمْ﴾ نصت، ﴿لَا تَحْطِمَنَّكُمْ﴾ حذرت، ﴿سُلَيْمَانُ﴾ خصت، ﴿وَجُنُودَهُ﴾ عمدت، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ عذرت.

﴿لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: لا يكسرنكم سليمان وجيوشه بأقدامهم، وهم لا يشعرون بكم، ولا يريدون حطمكم عن عمد، حذرت ثم اعتذرت؛ لأنها علمت أنه نبي

رحيم، فسمع سليمان كلامها وفهم مرامها فإن قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وصف لهم بالتقوى والتحفظ من مضرة الحيوان.

وهذا تنويه برأفته وعدله الشامل بكل مخلوق لا فساد منه، أجراه الله على نملة ليعلم شرف العدل ولا يحتقر مواضعه، وأن ولي الأمر إذا عدل سرى عدله في سائر الأشياء وظهرت آثاره فيها، ويضرب الله الأمثال للناس، فضرب هذا المثل لنبيه سليمان بالوحي من دلالة نملة، وذلك سر بينه وبين ربه جعله تنبيهاً له وداعية لشكر ربه، فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [الشعراء: ١٩]. فلما سمع سليمان - عليه السلام - منها.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ .

فتبسم سروراً بما سمع من ثناء النملة عليه وعلى جنوده، ولفهمها واهتدائها إلى مصالحها ونصيحتها للنمل، وأكثر ضحك الأنبياء التبسم. وقد أكد - تعالى - التبسم بقوله ﴿ضَاحِكًا﴾ إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضا، ألا تراهم يقولون تبسم تبسم الغضبان، وتبسم تبسم المستهزئين، وتبسم الضحك إنما هو عن سرور، ولا يسر نبي بأمر دنيا، وإنما سر بما كان من أمر الآخرة والدين وهذا حال الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الأدب الكامل، والتعجب في موضعه، وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم. فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب، وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه يدل على شراسة الخلق والجبروت، والرسل منزهون عن ذلك.

قال الزجاج: أكثر ضحك الأنبياء التبسم، وقوله ضاحكاً: أي مبتسماً. * وقد استشعر سليمان نعمة الله عليه، فتوجه إليه داعياً:

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي﴾ .

أي: ألهمني ووفقني لشكر نعمائك وأفضالك التي أنعمت بها علي من النبوة والملك والعلم، وعلى أبوي؛ لأن الإنعام على الوالدين إنعام على الولد.

ومن تمام بر الوالدين: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩] كأن هذا الولد خاف من تقصير والداه في الشكر، فقام بما وجب عليهما.

* ثم ذكر - تعالى - نموذجاً آخر من مخاطبته للطير، فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٢٠) ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْنَحُجَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنِ مُّبِينٍ﴾ (٢١) ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾.

أي: بحث وطلب سليمان وفتش عن جماعة الطير المسخرة له، وحال ما غاب منها، دل هذا على كمال عزمه وحزمه، وحسن تنظيمه لجنوده، وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار حتى إنه لم يهمل هذا الأمر، وهو تفقد الطير.

قال القرطبي: فيه دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم، فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف حاله على سليمان، فكيف بما هو أعظم؟ ويرحم الله عمر؛ فإنه كان على سيرته، قال: لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب ليسألن عنها عمر.

﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ﴾.

أي: لم لا أرى الهدهد ههنا؟ قال المفسرون: كان الطير تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها، فلما فصل سليمان عن وادي النمل ونزل في قفر من الأرض، عطش الجيش فسألوه الماء، وكان الهدهد يدلّه على الماء، فإذا قال: ههنا الماء، شقت الشياطين وفجرت العيون، فطلبه في ذلك اليوم فلم يجده، فقال: ما لي لا أراه.

﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٢٢).

أم منقطعة بمعنى: «بل» أي: بل هو غائب، ذهب دون إذن مني فحيثئذ تغيب عليه وتوعده، فقال:

﴿لَا عَذَابَ لَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْنَحْنَهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ .

أي: لأعاقبه عقاباً أليماً بالسجن، أو نتف الريش، أو الذبح، أو ليأتيني بحجة واضحة تبين عذره.

* وبعد برهة من الزمن يسيرة، جاء الهدهد إلى سليمان بأمر عظيم، وشأن ذي بال، فقال:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢].

أي: فأقام الهدهد زماناً يسيراً غير طويل، ثم جاء إلى سليمان، فعاتبه على مغيبه وتخلفه، فقال الهدهد لسليمان: اطلعت على ما لم تطلع عليه، وعرفت ما لم تعرفه، وبلغت ما لم تبلغه أنت ولا جنودك. وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير، والمتعلم للعالم: عندي ما ليس عندك إذا تحقق ذلك وتيقنه.

﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (٢٢) ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ .

أي: من عجائب ما رأيت، أن امرأة - تسمى بلقيس - هي ملكة لهم باليمن، وهم يدينون بالطاعة لها. وأعطيت من كل شيء من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك، من أسباب الدنيا، من سعة المال، وكثرة الرجال، ووفرة السلاح والعتاد. ولها سرير كبير، عظيم القدر، تجلس عليه لإدارة ملكها، مكلل بالدر والياقوت.

قال قتادة: كان عرشها من ذهب، قوائمه من جوهر، مكلل بالؤلؤ. قال الطبري: وعني بالعظيم في هذا الموضع؛ العظيم في قدره وخطره، لا عظمه في الكبر والسعة.

ثم أخذ يحدثه عما هو أعظم وأخطر، فقال:

﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ أَعْمٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٢٣) ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٩﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٣٠﴾ .

أي: هو - تعالى - المتفرد بالعظمة والجلال، رب العرش الكريم المستحق للعبادة والسجود لا غيره، وخص العرش بالذكر؛ لأنه أعظم المخلوقات، وعرش ملكة سبأ وإن كان عظيماً فهو صغير وحقيق في جنب عرشه - عز وجل - .

قال بعضهم حاثاً على الدعوة: لا يكن الهدهد أغير منك على التوحيد، ومسكين من كان الهدهد خيراً منه . وإلى هنا انتهى كلام الهدهد .

* فرد عليه سليمان، مثبتاً لكمال عقله ورزاقته، وتأنيه في الأمور:

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ﴿٣١﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٢﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ ﴿٣٣﴾ .

أي: قال سليمان للهدهد: سنتأمل في قولك، ونثبت هل أنت صادق فيما أخبرت أم كاذب فيه؟

قال ابن الجوزي: وإنما شك في خبره؛ لأنه أنكر أن يكون لغيره سلطان. ثم كتب كتاباً وختمه بخاتمه، ودفعه إلى الهدهد، وقال: أي: اذهب بهذا الكتاب وأوصله إلى ملكة سبأ وجندها، ثم تنح إلى مكان قريب، مستتراً عنهم لكون التنحي بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التي يتأدب بها رسول الملوك. فانظر ماذا يردون من الجواب وما يتراجعون به؟

قال المفسرون: أخذ الهدهد الكتاب وذهب إلى بلقيس وقومها، فرفرف فوق رأسها ثم ألقي الكتاب في حجرها.

* قال تعالى: ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ ﴾ ﴿٣٣﴾ [النمل: ٢٩].

قال القرطبي: وقيل وصفته بذلك لما تضمن من لين القول، والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله - عز وجل -، وحسن الاستقطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً، ولا ما يغير النفس، ومن غير كلام نازل ولا

مستغلق على عاده الرسل في الدعاء إلى الله - عز وجل - .

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

أي: قالت بلقيس لأشراف قومها وكبرائهم: إنه أتاني كتاب عظيم جليل من أكبر ملوك الأرض، ثم بينت المكتوب فقالت: إن هذا الكتاب مرسل من سليمان، ثم فتحته وبينت مضمونه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، وهو استفتاح شريف بارع فيه إعلان الربوبية لله، ثم الدعوة إلى توحيد الله والانقياد لأمره.

﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ .

أي: لا تتكبروا علي ولا تترفعوا كما يفعل الملوك، وحيثوني مؤمنين، موحدين، طائعين. وهذا في غاية الوجازة مع البيان التام، وحصل المعنى بأسر عبارة وأحسنها، فإنه تضمن نهيهم عن العلو عليه، والبقاء على حالهم التي هم عليها، والانقياد لأمره، ومجيئهم إليه، ودعوتهم إلى الإسلام، وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة، وتقديم الاسم في أول عنوان الكتاب.

* فما كان من بلقيس إلا أن جمعت كبار دولتها، ورجال مملكتها، وذلك من حزمها، وعقلها.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ .

أي: قالت لأشراف قومها: أشيروا علي في الأمر وأخبروني، وأجيبوني فيما أشاوركم فيه، ثم زادت في التأدب واستجلاب خواطرها، فقالت: ما كنت لأقضي أمراً دون حضوركم ومشورتكم، قصدت بذلك تطيب أنفسهم ليمالئوها ويقوموا معها ويشيروا عليها بالصواب.

﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ .

قالوا مجيبين لها: نحن أصحاب كثرة في الرجال والعتاد، وأصحاب شدة في الحرب، وهذا تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم بذلك، ثم قالوا:

وأمرنا إليك وأنت صاحبة الرأي، فمرينا بما شئت نمتثل أمرك، مطيعون لك، وقولهم هذا دليل على الطاعة المفرطة، ودليل لعلمهم بصحة رأيها وقوة عقلها.

قال القرطبي: أخذت في حسن الأدب مع قومها ومشاورتهم في أمرها في كل ما يعرض لها، فراجعها الملاء بما يقر عينها، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلموا الأمر إلى نظرها، وهذه محاورة حسنة من الجميع، فلما أحسيت منهم الميل إلى المحاربة مالت إلى المصالحة ورتبت الجواب، فزيفت أولاً ما ذكروه وأرثتهم الخطأ فيه حيث:

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَلِكَ

يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤].

أي: فقالت لهم بلقيس مقنعة لهم عن رأيهم، مجيبة لهم عن التعريض للقتال، ومحذرة لهم من مواجهة سليمان بالعداوة، أن عادة الملوك أنهم إذا استولوا على بلدة عنوة وقهراً، خربوها وأسروا ونهبوا وأتلفوا.

قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: من جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه، وإن كان حبيباً قريباً، فصدق الله - عز وجل - كلمة بلقيس بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ مع أنها كافرة.

* ولما قرب وصول ملكة سبأ إلى بلاده، أمر بأن تغير بعض معالم عرشها امتحاناً لها.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٣٥]

سليمان: غيروا بعض أوصاف سرير ملكها وهيئته بزيادة ونقصان، كما يتنكر الإنسان حتى لا يُعرف. لننظر إذا رآته هل تهتدي إلى أنه عرشها وتعرفه، أم تكون من الجاهلين الذين لا يهتدون؟ أراد بذلك اختبار ذكائها وعقلها وفطنتها.

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ۖ ﴾ .

لما كانت بلقيس قادمة على سليمان، عرض عليها عرشها، وكان عهدها به قد خلفته في بلدها. قيل لها: أمثل هذا العرش الذي رأيته عرشك؟ ولم يقل: أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً لها.

﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۖ ﴾ .

أي: يشبهه ويقاربه، ولم تقل: نعم خوفاً من أن تكذب، ولم تقل: لا، خوفاً من التكذيب، وهذا غاية في الذكاء والحزم. فقال سليمان متعجباً من هدايتها، وعقلها، وشاكراً لله أن أعطاه أعظم منها:

﴿ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۚ ﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ۚ ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا ۖ ﴾ .

أي: ادخلي القصر العظيم الفخم، وكان مجلساً مرتفعاً من قوارير تجري من تحته الأنهار. فلما رأت ذلك الصرح الشامخ ظنته لجة ماء، أي: ماء غمرأ كثيراً - وكشفت عن ساقها لتخوض فيه - ومن عادة النساء والحرائر ذوات الخدور عدم إظهار الزينة وإبدائها من الساق أو غيره، فعلت ذلك وهي كافرة عفة وحشمة.

ومن عقلها وأدبها، فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله، لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام.

فلما استعدت للخوض.

﴿ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ ۖ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ

سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ ﴾ .

أي: قال سليمان: إنه قصر مجلس من زجاج؛ لأن القوارير شفافة، يرى الماء الذي تحتها، كأنه بذاته يجري، ليس دونه شيء إلا الزجاج الصافي، فلا حاجة منك لكشف الساقين، فحينئذ لما وصلت إلى سليمان، وشاهدت

ما شاهدت، وعلمت نبوته ورسالته، تابت ورجعت عن كفرها. وقالت بلقيس حينئذ: رب إني ظلمت نفسي بالشرك وعبادة الشمس. وتابعت سليمان على دينه، فدخلت في الإسلام مؤمنة برب العالمين. والغرض أن سليمان - عليه السلام - اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة، ليربها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله، وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره، انقادت لأمر الله - تعالى - وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله - عز وجل -.

* لما ذكر - تعالى - في أول السورة قصة موسى، ثم أعقبها بقصة داود وسليمان، وما فيها من العجائب والغرائب، ذكر هنا قصة قبيلة ثمود، وما كان من أمرها مع نبيها صالح - عليه السلام - حين بعثه الله إليهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكل هذه القصص عرضها - سبحانه - للتذكير والاعتبار، وبيان سنة الله في إهلاك المكذبين، قال تعالى:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ ۝ اللَّهُ خَيْرُ أَمَّا

يُشْرِكُونَ ۝﴾ [النمل: ٥٩].

قال الزمخشري: أمر رسول الله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته، وأن يستفتح بتحميده، والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده، وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين، والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما، على قبول ما يلقي إلى السامعين وإصغائهم إليه، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب.

* قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ

خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ ۝﴾ [النمل: ٦٢].

(المجيب) - جل جلاله -: الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويغيث الملهوف إذا ناداه، حتى ولو كان في حالة اضطراره مشركاً.. فكيف إذا

كان الداعي مؤمناً موحداً؟ إن الله يخفى عليه شيء من أحوالنا لكنه يحب - وهو الغني عنا - أن يسمع دعاءنا وأن يظهر له اضطرارنا.

قال القرطبي: ضمن الله - تعالى - إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجوء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده - سبحانه - موقع وزمة وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر.

عن هرم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار: أوص. قال: إنما الوصية من المال، فلا مال لي، وأوصيكم بخواتيم سورة النحل.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ

أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

والذي يؤيد أن هذه الدابة تنطق وتخطب الناس بكلامه يسمعونها ويفهمونه هو أنه جاء ذكرها في سورة النمل، وهذا السورة فيها مشاهد وأحاديث بين طائفة من الحشرات والطيور والجن وسليمان - عليه السلام -، فجاء ذكر الدابة وتكليمها الناس متناسقاً مع مشاهد السورة وجوها العام. وقد ذكر شيخ الإسلام أن القرآن قد أخبر بثلاث نفخات:

الأولى: نفخة الفزع: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ففزعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي

الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧].

والثانية: نفخة القيام والبعث: ﴿ثُمَّ نُفِخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ

يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

والثالثة: نفخة الصعق وهي هلاك جميع المخلوقات: ﴿وَنُفِخُ فِي الصُّورِ

فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨].

* قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنَّعَ اللَّهِ

الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨].

قال القرطبي: ويقال إن الله - تعالى - وصف الجبال بصفات مختلفة ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها وإبراز ما كانت تواريه، فأول الصفات الاندكاك وذلك قبل الزلزلة، ثم تصوير كالعهن المنقوش، وذلك إذا صارت السماء كالمهل، وقد جمع الله بينهما، فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨ - ٩].

والحالة الثالثة: أن تصوير كالهباء، وذلك أن تنقطع بعد أن كانت كالعهن.

والحالة الرابعة: أن تنسف؛ لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة في مواضعها، والأرض تحتها غير بارزة، فتنسف عنها لتبرز، فإذا نسفت فبارسال الرياح عليها.

والحالة الخامسة: أن الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار، فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجساداً جامدة، وهي بالحقيقة مارة إلا إن مرورها من وراء الرياح كأنها مندكة متفتتة.

والحالة السادسة: أن تكون سراباً، فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً منها كالسراب.

* قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۚ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

أهل الحسنات لهم الحسنى وزيادة، حتى إن التمرة يربها بإخلاص صاحبها حتى تكون مثل أحد، أما أهل الآثام والظلم والفواحش، فتهان كرامتهم كما أهانوا أنفسهم بالمعاصي، ولهذا يبدأ في العقوبة بوجوههم التي هي أشرف الجسد.

سورة القصص ٢٨

سورة القصص سورة مكية تهتم بجانب العقيدة وخاصة التوحيد، والرسالة، والبعث، وهي تتفق في منهجها وهدفها مع سورتي النمل والشعراء، كما اتفقت في جو النزول، فهي تكمّل أو تفصل ما أجمل في السورتين قبلها.

سميت سورة القصص، لأن الله - تعالى - ذكر فيها قصة موسى مفصلة موضحّة من حين ولادته إلى حين رسالته، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة، ما يتجلى فيه بوضوح عناية الله بأوليائه، وخذلانه لأعدائه، نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة والمشركون هم أصحاب الحول والطول، والجاه والسلطان فكانت نوراً وهداية وبلسمًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قصة موسى هي أعظم قصص الأنبياء المذكورين في القرآن، وهي أكبر من غيرها، وتبسط أكثر من غيرها. ولهذا وردت في القرآن قرابة ثلاثين مرة، وسورة القصص أوسع سورة تحدثت عن موسى - عليه السلام -.

محور السورة الكريمة يدور حول الحق والباطل، ومنطق الإذعان والطغيان، وتصور قصة الصراع بين جند الرحمن وجند الشيطان، وقد ساقّت في سبيل ذلك قصتين:

أولاهما: قصة الطغيان بالحكم والسلطان، ممثلة في قصة فرعون الطاغية المتجبر، الذي أذاق بني إسرائيل سوء العذاب، فذبح الأبناء، واستحيا النساء، وتعالى على الله حتى تجرأ على ادعاء الربوبية.

والثانية: قصة الاستعلاء والطغيان بالثروة والمال، ممثلة في قارون مع

قومه.

وكلا القصتين رمز إلى طغيان الإنسان في هذه الحياة، سواء بالمال، أو الجاه، أو السلطان وكانت النهاية واحدة، هذا خسف به وبداره، وذاك أخذه اليم هو وجنوده.

✽ قال تعالى: ﴿طَسَمَ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، والإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية.

✽ ولما ذكر - تعالى - مبدأ أمر موسى - عليه السلام - عند آل فرعون، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليه.

بعد ذلك تحدثت الآيات عن بلوغ موسى سن الرشد، وعن قتله للقبطي، وعن هجرته إلى أرض مدين وتزوجه بابنة شعيب، وتكليف الله له بالعودة إلى مصر لدعوة فرعون الطاغية إلى الله، وما كان من أمر موسى مع فرعون بالتفصيل إلى أن أغرقه الله. قال تعالى:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

انظروا العبر والآيات العظيمة، كيف كان فرعون يقتل الأبناء خوفاً من موسى، فتربى موسى في بيته وفي كنفه ورعايته.

قال الشيخ السعدي: الظلم إذا عم وطم فإنه يؤذن بزواله وهلاك الظالم ودولته، وقد قال شيخ الإسلام: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة.

فمع أن فرعون قد جمع الموبقات، وأدعى الألوهية، وأنكر رب البرية، إلا أن الله - عز وجل - علل زوال ملكه ونصر المستضعفين بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

* وقد ابتدأت السورة بالحديث عن طغيان فرعون، وعلوه وفساده في الأرض.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ۝

أي: استكبر وتجبّر وطغى، وجاوز الحد في الطغيان في أرض مصر، فصار من أهل العلو فيها، لا من الأعلى فيها، وجعل أهلها فرقاً وأصنافاً، وطوائف متفرقة في استخدامه وطاعته، وينفذ فيهم ما أراد من قهره ووسطوته.

﴿يَسْتَظْفِرُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذْبَحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝﴾

أي: يستعبد ويستذل فريقاً منهم وهم بنو إسرائيل - وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم -، فيسومهم سوء العذاب، وبلغت به الحال إلى أنه: يقتل أبناءهم الذكور خوفاً من أن يكثروا، فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك، ويترك الإناث على قيد الحياة لخدمته وخدمة الأقباط.

قال المفسرون: سبب تقتيله الذكور أن فرعون رأى في منامه أن ناراً عظيمة أقبلت من بيت المقدس وجاءت إلى أرض مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل، فسأل عن ذلك، فقالوا له: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل، يذهب ملكك على يديه، ويكون هلاكك بسببه، فأمر أن يقتل كل ذكر من أولاد بني إسرائيل، وفيه دليل على حمق فرعون، فإنه إن صدق لم ينفعه القتل، وإن كذب فما معنى القتل.

* ثم انتقلت إلى الحديث عن ولادة موسى وما جرى له في تلك الفترة،

قال تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۝﴾

أي: وحين ولدته وخشيت عليه أن يذبحه فرعون كما يذبح أبناء بني إسرائيل، فلما ضاقت بوليدها ذرعاً، وخشيت عليه ألهمت في سرها، وألقي في خلدتها، ونفث في روعها وقذفنا في قلبها بواسطة الإلهام أو الرؤيا، أن أرضعيه مطمئنة.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وإنما أمرها الله بإرضاعه، لتقوى بنيته بلبان أمه، فإنه أسعد بالطفل في أول عمره من لبان غيرها، وليكون له من الرضاعة الأخيرة - قبل إلقائه في اليم - قوت يشد بنيته فيما بين قذفه في اليم وبين التقاط آل فرعون إياه، وإيصاله إلى بيت فرعون.

﴿فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾.

فإذا خشيت عليه أن يُعرف أمره ويقتله فرعون، فضعيه واجعليه في صندوق مغلق، وألقيه في نيل مصر بلا خوف ولا حزن. ألقيه ولا تخافي عليه الهلاك، ولا الغرق ولا الضياع، ولا تحزني لفراقه. والفرق بين الخوف والحزن، أن الخوف غم يلحق الإنسان لموقع، والحزن غم يلحقه لواقع.

﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

أي: فإننا سنرده إليك، ونعيده إليك بوجه لطيف لتربيته، ونجعله رسولا نرسله إلى هذا الطاغية لننجي بني إسرائيل على يديه؛ فبشرها - تعالى -، بأن سيرده عليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويجعله الله رسولا، وهذا من أعظم البشائر الجليلة لأم موسى، ليطمئن قلبها، ويسكن روعها، فإنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به فألقته في اليم بعد أن وضعت في صندوق، وفي هذه الآية أمران، ونهيان، وخبران، وبشارتان، وهكذا قدر لهذه الأم مما كانت تخشاه وتخافه.

﴿فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَمَنَ
وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨].

أي: فأخذه وأصابه أعوان فرعون ليكون لهم قرّة عين، فكان عاقبة ذلك أن صار لهم عدوّاً، ومصدر حزن وبلاء وهلاك، فذكر الحال والمآل؛ لأنهم إنما أخذوا الحال بالمآل. فإن إصابة قوم فرعون بغتة من قبل من أملوا منه النفع أشدّ عبرة للمعتبر وأوقع حسرة على المستبصر، وأدل على أن انتقام الله يكون أعظم من انتقام العدو كما قال: ﴿فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾. مع قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [النمل: ٩].
* ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾.

أي: قالت زوجة فرعون لفرعون لما رأت أنه هم بقتله: هذا الغلام سيكون مصدر فرحة ومسرة لي ولك، لعلنا نسر به، فيكون قرّة عين لي ولك.

وفي هذا فضل الفأل الحسن، وقد نالها ما رجّت من النفع؛ أما في الدنيا فهداها الله به، وجعل لها أحسن ثناء في الآخرين: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ١١].
واستعملها الله - سبحانه وتعالى - بطاعته وصيرها إلى فسيح جنته.

قال الطبري: ذكر أن المرأة لما قالت هذا القول لفرعون، قال لها: أما لك فنعم، وأما لي فليس بقرّة عين.

قال ابن عباس: لو قال: قرّة عين لي؛ لهداه الله به ولآمن، ولكنه أبى.
﴿قُرْتُ عَيْنٍ﴾.

كناية عن السرور، وهي كناية ناشئة عن ضدها وهو سخنة العين التي هي أثر البكاء اللازم للأسف والحزن، فلما كُنِيَ عن الحزن بسخنة العين أتبعوا ذلك بأن كنوا عن السرور بضد هذه الكناية، فقالوا: قرّة عين.

﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ .

أي: قالت امرأة فرعون لفرعون: لا تقتله، وأبقه لنا، لتقر به أعيننا، ونستمر به في حياتنا، خاطبته بلفظ الجمع كما يخاطب الجبارون تعظيماً له ليساعدها فيما تريد.

عسى أن ينفعنا في الكبر، وقد حصل نفعه لها، وهداها الله به، وأسكنها الجنة بسببه، أو نتبناه فنجعله لنا ولداً تقر به عيوننا، فإن فيه مخايل اليمن، ودلائل النفع.

قال المفسرون: وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها، قال تعالى:

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

أي: وهم لا يشعرون أن هلاك فرعون وزبانيته، سيكون على يديه وبسببه، فقد جرى بذلك القلم ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا من لطفه - تعالى -، فإنهم لو شعروا، لكان لهم وله شأن آخر.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرِ مُوسَىٰ فَرِحًا ۖ إِنَّ كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

قال السعدي: فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه.

* ولما فقدت أم موسى وليدها، حزنت حزناً شديداً، حيث ذهب ولدها في البحر، وأصبحت في هم وغم، على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله - تعالى - نهاها عن الحزن والخوف، ووعداها برده، قال تعالى:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرِ مُوسَىٰ فَرِحًا ۖ إِنَّ كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

أي: صار قلبها خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من هم موسى وذكره.

وقيل المعنى: طار عقلها من فرط الجزع والغم.
قال السعدي - رحمه الله -: إن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت، ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه.

﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

أي: أنها كادت أن تكشف أمره وتظهر ما في قلبها، وأنه ابنها من شدة الوجد والحزن، وكادت تصيح وا ابناه، وذلك حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، لولا أن ثبتناها بالعصمة وألهمناها الصبر. لتكون بذلك الصبر والثبات، من المصدقين بوعد الله برده عليها حين قال لها: ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ﴾ ، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه. وقد أمرت أم موسى بشيئين، ونهيت عن شيئين، وبشرت ببشارتين، فلم ينفعها الكل حتى تولى الله حياطتها، فربط على قلبها.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

وقالت أم موسى لمريم أخت موسى حين ألفت موسى في اليم: اتبعي أثره حتى تعلمي خبره، وتطلبي شأنه من نواحي البلد وكيف يصنع به، وانظري ماذا يفعلون به؟ فخرجت لذلك. فأبصرته وتتبعته أثره عن بعد، وهم لا يشعرون أنها أخته؛ لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى وصل الصندوق إلى بيت فرعون وهي ترقبه مستخفية عنهم، كأنها مارة لا قصد لها فيه وهذا من تمام الحزم والحذر.

ثم كان من لطف الله - عز وجل - بموسى وأمه، أن منعه من قبول ثدي امرأة غير ثدي أمه، وهو تحريم منع لا تحريم شرع. قال تعالى:

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ .

أي: ومنعنا موسى أن يقبل ثدي أي مرضعة من المرضعات اللاتي أحضروهن لإرضاعه من قبل مجيء أمه، وذلك لكرامته عند الله وصيانيته

له أن يرتضع غير ثدي أمه، ولأن الله - سبحانه وتعالى - جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعه، وهي آمنة مطمئنة بعدما كانت خائفة وجلة.

قال المفسرون: بقي أياماً كلما أتى بمرضع لم يقبل ثديها، فأهمهم ذلك واشتد عليهم الأمر فخرجوا به يبحثون له عن مرضعة خارج القصر، فجاءت أخته، وهم بتلك الحال حائرون فيمن يرضعه.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ﴾ (٢٦).

أي: فقالت أخت موسى وقد دخلت بين المراضع ورأته لا يقبل ثدياً: هل أدلكم على مرضعة له تكفله وترعاه لكم؟ وهذا جُلَّ غرضهم، فإنهم أحبه حباً شديداً، وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت. لا يقصرون في إرضاعه وتربيته، قالوا: نعم، فأتينا بها، فدلتهم على أم موسى، فانطلقت إلى أمها، وأخبرتها بحال ابنها، وجاءت بها إليهم، والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع، فدفعه إليها فلما وجد ريح أمه قبل ثديها وجعل يمصه، فقال فرعون: من أنت منه، فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، لا أكاد أوتى بصبي إلا قبلني، فدفعه إليها، فرجعت إلى بيتها من يومها، ولم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالهدايا والجواهر، فذلك قوله تعالى:

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ (٢٧) أي: أعدنا موسى إلى أمه

تحقيقاً للوعد، كي تسعد وتهناً بلقاء ولدها، ولا تحزن على فراقه، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً، في عز وجاه ورزق ودار. بل وتعود به إلى دارها؛ لأنه طلب منها أن ترضعه وتقيم عندهم، فأبت وقالت: إن لي بعلاً وأولاداً، ولا أقدر على المقام عندكم، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقة والصلوات والكساوي والإحسان الجزيل، ولم

يكن بين الشدة والفرج إلا القليل، يوم وليلة أو نحوه، فسبحان من جعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً، وبعد كل ضيق مخرجاً، ولهذا قال:

﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

أي: لتتحقق من صدق وعد الله برده عليها، وحفظه من شر فرعون، وجعله من المرسلين. ولكن أكثر الناس يرتابون، ويشكون في وعد الله القاطع، ولا يعلمون حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الأمر.

ها هو موسى يعود إلى أمه الملهوفة، معافى في بدنه مرموقاً في مكانته، يحميه فرعون، وترعاه أمه، وهو آمن مطمئن، يحميه ويحافظ عليه ممن يقتل أمثاله، فسبحان من يجري الأمور وفق تقديره ومشيئته.

قال السعدي - رحمه الله -: لطف الله بأم موسى بذلك الإلهام الذي به سلم ابنها، ثم تلك البشارة من الله لها برده إليها، التي لولاها لقضى عليها الحزن على ولدها، ثم رده إليها بإجائه إليها قدراً بتحريم المراضع عليه، وبذلك وغيره يعلم أن الطاف الله على أوليائه لا تتصورها العقول، ولا تعبر عنها العبارات، وتأمل موقع هذه البشارة، وأنه أتاها ابنها ترضعه جهراً، وتأخذ عليه أجراً، وتسمى أمه شرعاً وقدراً، وبذلك اطمأن قلبها، وازداد إيمانها، وفي هذا مصداق لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. فلا أكره لأم موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة، وآثاره الطيبة.

قال الحسن: من أحسن عبادة الله في شببته أعطاه الله الحكمة عند كبر سنه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

* قال تعالى: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِآلِ مَسٍ^ط إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩].

قال أبو عمران الجوني: آية الجبابة القتل بغير حق.

* فما كان من موسى إلا أن قبل نصيحة ذلك الرجل الناصح، حين أخبره بما تمّألاً عليه فرعون ودولته في أمره، فخرج من مصر، ولم يألف ذلك قبله، بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة، قال تعالى:

﴿خَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٠) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢١).

أي: قصد بوجهه ناحية مدين، بلدة شعيب - عليه السلام - وهي جنوبي فلسطين حيث لا ملك لفرعون ولا سلطان على تلك النواحي. دعا ربه أن يرشده إلى الطريق السوي الذي يوصله إلى مقصوده، فاستجاب الله دعاءه، وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة، فجعله هادياً مهدياً.

قال المفسرون: خرج خائفاً بغير زاد ولا مركب، وكان بين مصر ومدين مسيرة ثمانية أيام، ولم يكن له علم بالطريق سوى حسن ظنه بربه، فبعث الله إليه ملكاً فأرشده إلى الطريق، ويروى أنه لما وصل مدين كانت خضرة البقل تتراءى من بطنه من الهزل؛ لأنه كان في الطريق يتقوت ورق الشجر.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾.

ولما وصل إلى مدين بلدة شعيب، وورد ماءها وجد على البئر الذي يستقي منه الرعاة جمعاً كثيفاً من الناس، يسقون مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة. ووجد سوى الجماعة الرعاة، امرأتين تكفان وتمنعان غنمهما عن الماء لعجزهما عن مزاحمة الرجال وبخلهم، وعدم مروءتهم عن السقي لهما.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ .

أي: فلما رآهما موسى - عليه السلام - رق لهما ورحمهما مع ما هو فيه من التعب والمشقة وقال لهما: ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء؟ ولم لا تسقيان مع السقاة؟ قالت له المرأتان: من عادتنا التآني ولا نسقي غنمنا حتى ينصرف الرعاة مع أغنامهم عن الماء، ولا طاقة لنا على مزاحمة الأقوياء، ولا نريد مخالطة الرجال، وأبونا رجل مسن لا يستطيع لضعفه أن يباشر سقاية الغنم، ولذلك اضطررنا إلى أن نسقي بأنفسنا. وفيه اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقي بأنفسهما، وتنبية على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره، واستعطاف لموسى في إعانتهم، فرق لهما موسى - عليه السلام - ورحمهما.

وقد أخبروه عن سبب خروجهما مع أنه لم يطلب منهم ذلك، وما ذلك إلا لأن هذا الخروج غير معتاد، فاستدعى ذكر السبب.

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ .

أي: فسقى لهما غنمهما رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف، ورحمة بهما غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله، ثم تنحى جانباً فجلس تحت ظل شجرة، وكان ذلك وقت شدة حر، وسط النهار بدليل أنه تولى إلى الظل مستريحاً لذلك الظلال من التعب، ثم قال في تلك الحالة مسترزقاً ربه.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

أي: إني يا رب محتاج إلى فضلك وإحسانك، وإلى الطعام الذي أسد به جوعي، طلب من الله ما يأكله وكان قد اشتد عليه الجوع، وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، وفيها استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان عالماً بها؛ لأنه - تعالى - يحب

تضرع عبده من إظهار ذله ومسكنته . وفي هذا إشارة إلى سبب عظيم من أسباب إجابة الدعاء ، وهو إظهار الافتقار إلى الله - عز وجل - . لأنه - تعالى - يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته .

قال الضحاك : مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاماً إلا بقل الأرض ، وقال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس في الظل - وهو صفوة الله من خلقه - وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى شق تمر .

✽ ذكرت الآيات أن موسى بقي على تلك الحال يدعو ربه ، أما المرأتان ، فرجعتا إلى أبيهما ، فاستنكر سرعة مجيئها ، فسألها ، وكان من عادتهما الإبطاء ، فأخبرته بما كان من أمر الرجل ، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى . قال تعالى :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ .

أي : جاءت حال كونها تمشي مشية الحرائر بحياء وخجل ، قد سترت وجهها بثوبها استحياء ، وهذا يدل على كرم عنصرها وخلقها الحسن ، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة وخصوصاً في النساء . قال عمر : لم تكن بسلفع من النساء خراجه ولاجة .

﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ .

أي : جاءت تمشي على استحياء والقول كذلك على استحياء ، قالت المرأة : إن أبي يطلبك ليعوضك عن أجر السقاية لغنمنا ، قال ابن كثير : وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة ، وقد ظهر لهما من عزة نفسه وحسن أخلاقه ، ودعته ليجزيه والدها ، لا ليمنّ عليه ؛ لأنه الذي ابتدأ بالإحسان ، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك ، والمكافأة تسبب تألف القلوب ، ودفع المن . فأجابها موسى ، فمشت المرأة وشمى موسى خلفها ، فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها ، فكره موسى أن

يرى ذلك منها، فقال لها: امشي خلفي ودليني على الطريق إن أخطأت، ففعلت ذلك.

قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص: ٢٥].

ولما كان الحياء كأنه مركب لها وهي متمكنة منه، مالكة لزمामه، عبر بأداة الاستعلاء فقال: ﴿عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي: حياء موجود منها، لأنها كلفت بالإتيان إلى رجل أجنبي تكلمه وتماشيه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فمضى موسى معها إلى أبيها، فلما جاءه وذكر له ما كان من أمره، وسبب هربه من مصر، قال له شعيب: لا تخف فأنت في بلد آمن لا سلطان لفرعون عليه، وقد نجاك الله من كيد المجرمين، فطب نفسها وقر عيناً.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَتَّابِتِ اسْتَجْرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: قالت إحدى ابنتيه: استأجره أجيراً عندك لرعي أغنامنا وسقايتها، إن أفضل من تستأجره من كان قوياً على العمل وأداء الأمانة، فإنها شاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده بذلك وجه الله - تعالى -.

روي أن شعيباً قال لها: وما أعلمك بقوته وأمانته؟ فقالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإنني لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال لي: كوني من ورائي ودليني على الطريق، ولما أتته خفض بصره فلم ينظر إليّ، فرغب شعيب في مصاهرته وتزويجه بإحدى بناته. وهذا الرجل، أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَنَّكَ اسْتَجْرُهُ^ط إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ

﴿[القصص: ٢٦].﴾

قال الزمخشري: كلام حكيم جامع لا يزداد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان، أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك وتم مرادك.

* قال شعيب لموسى كما ذكر - عز وجل -:

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنِكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾.

أي: قال صاحب مدين عند ذلك، لموسى: إني أريد أن أزوجك إحدى بنتي هاتين، الصغرى أو الكبرى. وفيه مشروعية عرض ولي المرأة لها على الرجل، وهذه سنة ثابتة في الإسلام، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبي بكر، وعثمان، وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول الله ﷺ.

﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ^ط فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾.

أي: بشرط أن تكون أجيراً لي ثمانين سنين ترعى فيها غنمي. فإن أكملتها عشر سنين من الرعي فذلك تفضل منك، وليس بواجب عليك، فجعل ما زاد على الثمانية الأعوام إلى تمام عشرة أعوام، موكلاً إلى المروءة. وما أريد أن أوقعك في المشقة باشتراط العشر إلا أن تتبرع، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالاً شاقة، وإنما أستأجرك لعمل سهل يسير، لا مشقة فيه.

* قال تعالى: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧].

قال العلماء: جاء بحرف ﴿عَلَى﴾ ليشعره بعظم المهر، ولو جاء باللام، لكان النفع لشعيب وحده.

* قال يوسف - عليه السلام -: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧].

وقال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

ما بين التواضع والكبر: إلا نسبة الفضل لله أو منازعته فيه .
 قال ابن القيم: ليحذر كل الحذر من طغيان: (أنا، ولي، وعندى) فإن
 هذه الألفاظ الثلاثة ابتلي بها (إبليس، وفرعون، وقارون) ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾
 [ص: ٧٦] لإبليس، و﴿إِلَى مُلْكٍ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] لفرعون، و﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ
 عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] لقارون .

﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ .

ستجدني إن شاء الله حسن المعاملة، لين الجانب، وفيًا بالعهد، فرغبه
 في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح،
 ينبغي له أن يُحسِّن خلقه مهما أمكن، وأن الذين يُطلب منه أبلغ من
 غيره .

* قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ

أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] .

قال ابن تيمية: أما أهل السنة فيقولون إن الاهتداء الذي في القلب
 لا يقدر عليه إلا الله، ولكن العبد يقدر على أسبابه؛ وهو المطلوب منه
 بقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، وهو المنفي عن الرسول ﷺ
 بقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ .

* قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ

تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨] .

وأشار إلى سبب الإهلاك بقوله: ﴿بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: وقع منها البطر
 في زمان عيشها الرخي الواسع، فكان حالهم كحالكم في الأمن، وإدراك
 الرزق، فلما بطروا معيشتهم، أهلكناهم، ومعنى بطرهم لها: أنهم شقوها
 بمجاوزة الحد في المرح، والأشر والفرح، إلى أن تعدوها، فأفسدوها،
 وكفروها؛ فلم يشكروها بل فعلوا في تلقيها فعل الحائر المدهوش، فلم
 يحسنوا رعايتها .

* قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

دل ذلك أنه بحسب عقل العبد يؤثر الأخرى على الدنيا، وأنه ما أثر أحد الدنيا إلا لنقص في عقله.

* قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٧].

قال ابن كثير: وعسى من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة.

* بعد أن ذكر - تعالى - قصة الطغيان بالجاه والسلطان في قصة فرعون وموسى، وقصة الطغيان والعلو بالمال، يأتي التعقيب المباشر بخبر عن الدار الآخرة ونعيمها المقيم، الذي لا يحول ولا يزول، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

الإشارة للتفخيم والتعظيم، أي: تلك الدار العالية الرفيعة التي سمعت خبرها، وبلغك وصفها، هي دار النعيم الخالد السرمدي، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نجعلها داراً وقراراً للمتقين، الذين لا يريدون التكبر والطغيان، ولا الظلم والعدوان والفساد في هذه الحياة الدنيا، وأشار إلى مجرد الإرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله.

روى ابن جرير عن علي قال: إن الرجل ليعجبه من شرك نعله أن يكون أجود من شرك نعل صاحبه، فيدخل في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٨٣]، وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره، فإن ذلك مذموم، وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجميل، فهذا لا بأس به.

قال الزمخشري: لم يعلق الموعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما، وميل القلوب إليهما. كما قال: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود: ١١٣].

* قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨١).

أي: من جاء يوم القيامة بحسنة من الحسنات، فإن الله يضاعفها له أضعافاً كثيرة، وهذا إخبار عن فضله وجوده وكرمه، وتمام عدله وهذا مقام الفضل. ومن جاء يوم القيامة بالسيئات، وهي كل ما نهى الشارع عنه نهى تحريم، فلا يجزى إلا بمثلها، وهذا من فضل الله على عباده أنه يضاعف لهم الحسنات ولا يضاعف لهم السيئات، وهذا مقام الفضل والعدل.

* وختمت السورة الكريمة بالإرشاد إلى طريق السعادة، وهو طريق الإيمان الذي دعى إليه الرسل الكرام، وفي الآيات تسلية وموانسة للنبي ﷺ، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِأَهْدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ عَآيَةِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨).

سورة العنكبوت ٢٩

سورة العنكبوت سورة مكية، سميت سورة العنكبوت؛ لأن الله ضرب العنكبوت فيها مثلاً للأصنام المنحوتة، والآلهة المزعومة، ومحور السورة الكريمة يدور حول الإيمان، وسنة الابتلاء في هذه الحياة؛ لأن المسلمين في مكة كانوا في أقصى أنواع المحنة والشدة، ولهذا جاء الحديث عن حقيقة الإيمان، وسنة الفتنة والابتلاء، جاء في هذه السورة مطولاً مفصلاً، وبوجه خاص عند ذكر قصص الأنبياء.

فقد ذكر - سبحانه - أنه لا بد أن يمتحن خلقه ويفتنهم ليتبين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، ومن يشكره ويعبده، ممن يكفره ويعرض عنه ويعبد غيره، وذكر أحوال המתحنين في العاجل والآجل، وذكر أئمة המתحنين في الدنيا، وهم الرسل وأتباعهم وعاقبة أمرهم وما صاروا إليه.

* قال تعالى: ﴿الْمَرْءُ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۚ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۚ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۚ﴾ [العنكبوت: ١ - ٤].

وهذه الآية وإن كانت واردة في شأن المشركين المؤذنين للمؤمنين، فهي تشير إلى تحذير المسلمين من مشابھتهم في اقتراف السيئات استخفافاً بوعده الله عليها، لأنهم في ذلك يأخذون بشيء من مشابھة حساب الانفلات، وإن كان المؤمن لا يظن ذلك ولكنه ينزل منزلة من يظنه لإعراضه عن الوعيد حين يقترف السيئة.

قال ابن القيم: لما علم الله - سبحانه - أن قلوب المشتاقين إليه لا تهدأ إلا بلاقائه، ضرب لهم أجلاً للقاء تسكيناً لقلوبهم، فقال: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَآتٍ ۖ﴾ [العنكبوت: ٥].

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴾ [العنكبوت: ٧].

قال ابن القيم - رحمه الله - : لما كان الممتحن لا بد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به، وعده - سبحانه - أن يتجاوز له عن ذلك ويكفره عنه، لأنه لما آمن به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله.

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴾ [العنكبوت: ٨].

إذا أمر - عز وجل - بالبر والدعاء، يستعمل الوالدين وليس الأبوين مثل: ﴿ بَوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾، ﴿ رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ [نوح: ٢٨] لأن الوالد من الولادة، والتي تلد هي الأم، وهذا فيه إشارة إلى إنها أولى بالبر والصحة.

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴾ [العنكبوت: ٨ - ٩].

قال ابن عاشور: ومن لطيف مناسبة هذا الظرف في هذا المقام أن المؤمن لما أمر بعصيان والديه إذا أمراه بالشرك كان ذلك مما يثير بينه وبين أبويه جفاء وتفرقة، فجعل الله جزاء عن وحشة تلك التفرقة أنسا بجعله في عداد الصالحين يأنس بهم.

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

اقتضت حكمته - سبحانه - أنه لا بد أن يمتحن النفوس ويبتليها فيظهر من يصلح لموالاته وكراماته ومن لا يصلح، وليخلص النفوس بكير الامتحان،

كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية فإن خرج في هذا الدار، وإلا ففي كير جهنم، فإذا هذب العبد؛ ونقي أذن له في دخول الجنة.

قال الألوسي: والنكته في اختيار السنة أولاً أنها تطلق على الشدة والجذب بخلاف العام، فتناسب اختيار السنة لزمان الدعوة الذي قاسى - عليه السلام - فيه ما قاسى من قومه.

* قال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

﴿فَابْتَغُوا﴾ وأشار بصيغة الافتعال إلى السعي فيه، لأنه أجرى عادته - سبحانه - أنه في الغالب لا يؤتيه إلا بكد من المرزوق وجهد، إما في العبادة والتوكل، وإما في السعي الظاهر في تحصيله بأسبابه الدنيوية، والعاجر من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

* قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

قال القرطبي: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله.

* قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١].

قال ابن عاشور: وابتدئ بذكر العقاب؛ لأن الخطاب جار مع منكري البعث الذي حظهم فيه هو التعذيب.

* لما قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال بعدها: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ومن مناسبة هذا: أن القلوب متعلقة بمن يرزقها

كما في قول إبراهيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، فدلهم على العبودية من الباب الذي يرغبونه.

* ثم قال - تعالى - مخبراً عن قوم إبراهيم وما جرى له من قومه، من كفرهم وعنادهم ودمغهم الحق بالباطل. إلا أنه آمن له بدعوته لوط.

﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: فأمن مع إبراهيم لوط وصدقته، وهو الذي نبأه الله وأرسله إلى قومه، وهو ابن أخيه، وأول من آمن به لما رأى من الآيات الباهرة.

وقال الخليل إبراهيم، حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئاً: إني تارك دار قومي ومهاجر من بلدي، رغبة ورجاء في رضى الله، ملتجئ إلى حماه. فهاجر من سواد العراق إلى فلسطين والشام ابتغاء إظهار الدين والتمكن من نشره.

ولما اعتزلهم وفارقهم وهم بحالهم؛ أقر الله عينه وعوضه عن قومه وعن أهله، فقال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.

أي: وهبنا لإبراهيم - لما فارق قومه في الله - ولداً صالحاً هو إسحاق، وولد ولد وهو يعقوب بن إسحاق، ولم يذكر إسماعيل لشهرته.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.

وخصصناه بهذا الفضل العظيم حيث جعلنا كل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته ونسله، فإن إبراهيم شجرة الأنبياء، وجعلنا الكتب السماوية نازلة على الأنبياء من بنيه.

قال ابن كثير: وهذه خصلة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً، وجعله إماماً للناس، أن جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم إلا وهو من سلالة، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة ولده

يعقوب، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سوى النبي العربي - عليه أفضل الصلاة والتسليم - .

﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢٧) .

أي: أعطينا إبراهيم الزوجة الجميلة، والرزق الواسع، والأولاد الذين بهم قرت عينه، ومعرفة الله ومحبته، والإنابة به وإليه، والثناء الحسن له في جميع الأديان. وهو في الآخرة في الجنة، في عداد الكاملين في الصلاح، وهذا ثناء عظيم على أب الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - .

* قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ

﴾ [العنكبوت: ٤٣] .

وهذا مدح لمن يعقلها وأنه عنوان على أنه من أهل العلم. وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه بكى، ويقول لست من العالمين.

وفي القرآن ثلاثة وأربعون مثلاً، لا يتدبرها إلا صاحب قلب حي، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (١٢) .

[العنكبوت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (٥٨) [الروم: ٥٨] .

* قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١١) [العنكبوت: ٤٦] .

ووجه الوصاية بالحسن في مجادلة أهل الكتاب أن أهل الكتاب مؤمنون بالله غير مشركين به، فهم متأهلون لقبول الحجة، غير مظنون بهم المكابرة، ولأن آداب دينهم وكتابهم أكسبتهم معرفة طريق المجادلة، فينبغي الاقتصاد في مجادلتهم على بيان الحجة دون إغلاظ حذراً من تنفيرهم.

* لما ذكر - تعالى - قصة نوح وإبراهيم، وما فيهما من مواطن العظة والعبرة، ذكر هنا قصص الأنبياء: لوط، وشعيب، وهود، وصالح، على سبيل الاختصار لبيان عاقبة الله في المكذبين، وكل ذلك لتأكيد ما ورد في صدر السورة الكريمة من أن الابتلاء سنة الحياة، وأنه من السنن الكونية على مر العصور والدهور.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: فإن الصلاة فيها دفع مكروه وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل محبوب وهو ذكر الله.

* قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

قال الحسن: إنه القرآن، والذين أوتوا العلم: المؤمنون الذي حملوا القرآن على عهد الرسول ﷺ وحملوه بعده. وإنما أعطي الحفظ هذه الأمة، وكان من قبلهم لا يقرؤون كتابهم إلا نظراً، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه سوى الأنبياء.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

أي: لا تدعوا أهل الكتاب إلى الإسلام وتناقشوهم في أمر الدين، إلا بالطريقة الحسنی كالدعاء إلى الله بآياته، والتنبيه على حججه وبياناته، ولا تكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدح بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم، وخروج عن الواجب وآداب النظر.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

أي: إلا من كان ظالماً، محارباً لكم، مجاهداً في عداوتكم، فجادلوهم بالغلظة والشدة، فجادلوهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

✽ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].
قال ابن القيم: فمن لم يشفه القرآن، لا شفاه الله، ومن لم يكفه، فلا كفاه الله.

✽ قال تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ [٥١].
خطاب تشریف وتكريم للتحريض على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، أي: يا من شرفكم الله بالعبودية له، هاجروا من مكة إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان فيها، ولا تجاوروا الظلمة فأرض الله واسعة وخصوني بالعبادة ولا تعبدوا أحداً سواي.
قال مقاتل: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [٥٧].

أي: وكل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت وكرهه لا محالة، كما يجد الذائق طعم المذوق، فكونوا دائماً وأبداً في طاعة الله، وحيث أمرتم فهاجروا، فلا يصعب عليكم ترك الأوطان، ومفارقة الإخوان، فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه. وقد خوفهم بالموت لتهون عليهم الهجرة، ثم بعد الموت إلى الله المرجع والمآب.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾.

أي: والذين جمعوا بين إخلاص العقيدة وإخلاص العمل، لننزلهم أعالي الجنة ولنسكنهم منازل رفيعة فيها، وفي هذا الترغيب إلى الهجرة، وأن جزاء من هاجر أن يكون في غرف الجنة.

﴿تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [٥٨] الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [٥٩].

هذا بيان للعاملين، أي: هم الذين صبروا على تحمل المشاق والشدائد، من الهجرة والأذى في سبيل الله، فصبرهم على عبادة الله يقتضي بذل

الجهد والطاقة في ذلك، وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصي، وعلى ربهم يعتمدون في جميع أمورهم، فالتوكل يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به. وهذان جماع الخير كله: الصبر، وتفويض الأمر إليه - تعالى - .

ولما أمر رسول الله ﷺ من أسلم من مكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فقالوا: كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال، فمن يطعمنا بها ويسقينا، فلما هاجروا وتوكلوا كانوا في مهاجرهم أوسع رزقاً وأطيب، ثم بعد زمن يسير صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، فنزلت:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ .

أي: كم من دابة ضعيفة ذات حاجة إلى غداء، لا تقدر على كسب رزقها، ولا ترفع رزقها معها، ولا تدخر شيئاً لغد مثل البهائم والطيور، ولكن الله يرزقها مع ضعفها. فكلكم عيال الله، القائم برزقكم، كما قام بخلقكم وتدبيركم، والله يرزقها كما يرزقكم، فهو الذي يقيض لها الرزق على ضعفها ويسره عليها، وقد تكفل برزق جميع الخلق، فلا تخافوا الفقر إن هاجرتهم، فالرازق هو الله.

والقصد بالآية التقوية لقلوب المؤمنين إذا خافوا الفقر والجوع في الهجرة من أوطانهم، فكما يرزق الله الحيوانات الضعيفة كذلك يرزقكم إذا هاجرتهم من بلدكم.

عن ابن عباس أن النبي ﷺ أمر المؤمنين بالهجرة حين آذاهم المشركون فقال لهم: «أخرجوا إلى المدينة وهاجروا، ولا تجاوروا الظلمة»، قالوا: ليس لنا بها دار ولا عقار، ولا من يطعمنا ولا من يسقينا، فنزلت: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ...﴾ الآية.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥).

أي: هو السميع لقولكم نخشى الفقر والعيلة؛ فلا يخفى عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية فإنه السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم وبما في ضمائركم.

* قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَهُمْ

إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٦٥) [العنكبوت: ٦٥].

ذكر في الآية أسفارهم في البحر، لأن أسفارهم في البر كانوا لا يعترتهم فيها خوف يعم جميع السفر، لأنهم كانوا يسافرون قوافل معهم سلاحهم، ويمرون بسبل يألفونها فلا يعترضهم خوف عام، فأما سفرهم في البحر فإنهم يفرقون من هوله، ولا يدفعه عنهم وفرة عدد، ولا قوة عدد، فهم يضرعون إلى الله بطلب النجاة ولعلمهم لا يدعون أصنامهم حينئذ.

* لم ترد في القرآن كلمة ديارهم إلا مع العذاب بالصيحة: لأنها

تصيب عدداً أكبر، وتبلغ لقوة الصوت والتأثير دياراً عديدة، كما في

سورة هود: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ

﴿٦٧﴾ [هود: ٦٧]، وفي قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ

بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ

﴿٩٤﴾ [هود: ٩٤].

أما الرجفة فيكون تأثيرها في مكانها فقط، لذا جاء استخدام كلمة

﴿دَارِهِمْ﴾ مع الرجفة كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا

فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾ (٣٧) [العنكبوت: ٣٧].

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٦٩)

[العنكبوت: ٦٩].

علق - سبحانه - الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فإنه من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الإمامان عبدالله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما: إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ماذا عليه أهل الثغر، فإن الحق معهم، لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

قال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين والرد على المبطلين وقمع الظالمين، وعظمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر.

قال شيخ الإسلام: وقد ذكر في غيره موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى، وكذلك السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا أَلْسُوْا۟ أَنْ كَذَبُوا۟ بِعَاثِتِ اللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: ١٠].

سورة الروم ٣٠

✽ سورة الروم سورة مكية، توضح وتبين أسس العقيدة الإسلامية من الإيمان بالوحدانية، والرسالة، والبعث والجزاء.

سميت «سورة الروم» لذكر تلك المعجزة الباهرة، التي تدل على صدق أنباء القرآن العظيم.

فقد ابتدأت السورة الكريمة بالتنبؤ عن حدث غيبي مهم، أخبر عنه القرآن الكريم قبل حدوثه، ألا وهو انتصار الروم على الفرس في المعركة التي ستقع قريباً بينهما، حيث كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ما يكون بين الدول الكبرى، فكان ذلك من أظهر الدلائل على صدق محمد ﷺ فيما جاء به من الوحي، ومن أعظم معجزات القرآن.

وقد ختمت سورة العنكبوت بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وافتتحت الروم بوعده من غلب من أهل الكتاب بالغلبة والنصر، وفرح المؤمنين بذلك.

✽ قال - تعالى - عن الكفار: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

قال الحسن: يعلمون متى زرعهم ومتى حصادهم، ولقد بلغ والله من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقر الدرهم بظفره فيخبرك بوزنه ولا يحسن يصلي.

قال الشنقيطي: ولهذا يجب على كل مسلم في هذه الزمان أن يتدبر آية الروم هذه تدبراً كثيراً، ويبين ما دلت عليه لكل من استطاع بيانه له من الناس. ومن أعظم فتن آخر الزمان التي ابتلي الله بها ضعاف العقول من المسلمين شدة إتقان الإفرنج لأعمال الدنيا فظنوا أن من قدر على تلك الأعمال أنه على الحق، وهذا جهل فاحش.

* لما ذكر - تعالى - أحوال الناس في الآخرة، وقدرته على البدء والإعادة، ذكر هنا الأدلة على الربوبية والوحدانية، في خلق البشر، واختلاف الألسنة والصور، وإحياء الأرض بالمطر، وفي قيام الناس ومنامهم، ثم ضرب الأمثال للمشركين في عبادتهم لغير الله مع أنه وحده الخالق الرازق، قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ .

أي: ومن آياته الباهرة الدالة على عظمته وكمال قدرته، الدالة على البعث، أن خلق أصلكم آدم من تراب، وإنما أضاف الخلق إلى الناس ﴿خَلَقَكُمْ﴾ لأن آدم أصل البشر. ثم أنتم تتطورون من نقطة إلى علقة، إلى مضغة، إلى بشر عقلاء، تتصرفون فيما هو قوام معاشكم، فسبحان من خلقهم وسيرهم، وسخرهم وصرفهم في فنون المعاش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة.

* قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ .

أي: من آياته الدالة على عظمته، وكمال قدرته، ورحمته وعنايته بعباده؛ أن خلق لكم من صنفكم وجنسكم، نساء آدميات مثلكم، تناسبكم وتناسبونهن، ولم يجعلهن من جنس آخر، ولو أنه - تعالى - جعل الإناث من جنس آخر، من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل النفرة، وذلك من تمام رحمته ببني آدم.

﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ .

أي: لتميلوا إليهن، وتألفوهن بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

أي: وجعل بين الأزواج والزوجات محبة وشفقة، وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما.

قال ابن عباس: المودة: حب الرجل امرأته. والرحمة: شففته عليها أن يصيبها بسوء.

* وتناولت السورة بعد ذلك بعض المشاهد الكونية، والدلائل الغيبية، الناطقة بقدرة الله ووحدانيته لإقامة البرهان على عظمة الواحد الديان، الذي تخضع له الرقاب، وتعنوا له الوجوه، وضربت بعض الأمثلة للتفريق والتمييز بين من يعبد الرحمن، وبين من يعبد الأوثان، قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَنَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

ربط القرآن بين النوم ﴿مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٣] وبين السمع ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ فالحاسة الوحيدة التي تعمل أثناء النوم هي السمع. فعند النوم تفقد جميع الحواس إلا السمع، ولهذا اختتمت آية النوم بالإشارة إلى ذلك ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ .

* قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧].

وردت في ثلاث سور في القرآن يجمعها هذا البيت:

له المثل الأعلى أتت بثلاثة

هي النحل والشورى وفي الروم فاعلم

* قال تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ

لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

أمر بإيتاء ذى القربى لقرب رحمهم، وقدمه على المسكين وابن السبيل. وخير الصدقة ما كان على القريب، وفيها صلة الرحم. وقد فضل رسول الله ﷺ الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدة: «أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك».

وقد أكد - سبحانه وتعالى - على ذلك في سورة البقرة، والإسراء.

فقال - تعالى - في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقال في الإسراء: ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

انظر كيف قال هنا: ﴿إِذَا﴾، وقال في الشر: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ لأن ﴿إِذَا﴾ للقطع بوقوع الشرط بخلاف ﴿إِنْ﴾ فإنها للشك في وقوعه ففي ذلك إشارة إلى أن الخير الذي يصيب به عباده أكثر من الشر.

* لما شنع على المشركين في عبادتهم لغير الله، ذكر في هذه الآيات الأسباب الموجبة للمحنة والابتلاء، وهي الكفر، وانتشار المعاصي، وكثرة الفجور والموبقات، التي بسببها تقل الخيرات وترتفع البركات، وضرب الأمثال بهلاك الأمم السابقة، تنبيهاً لقريش وأمرأاً لهم بالاعتبار بمن سبقهم من المشركين المكذبين كيف أهلكهم الله بسبب طغيانهم وإجرامهم، إذ لم تنفعهم الآيات والنذر ومهما رأوا من الآيات الباهرة، والبراهين الساطعة، لا يعتبرون ولا يتعظون؛ لأنهم كالموتى لا يسمعون ولا يبصرون، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين، والصبر حتى يأتي النصر، قال تعالى:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾.

أي: استعلن الفساد وظهرت البلايا كالجدب وقلّة الأمطار، وكثرة الأمراض والأوبئة، والنكبات في بر الأرض وبحرها بسبب معاصي الناس وذنوبهم.

وقيل المراد بالفساد الجذب وكثرة الحرق والغرق، ومحق البركات، وكثرة المظالم بشؤم معاصي الناس أو بكسبهم إياه، وكذلك النقص في الزرع والثمار بسبب المعاصي؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة.

قال ابن جزى: فظهور الفساد في البر بالقحط والفتن وشبه ذلك، وظهور الفساد في البحر بالغرق، وقلة الصيد، وكساد التجارات وشبه ذلك، وكل ذلك بسبب ما يفعله الناس من الكفر والعصيان.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قال: نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا.

قال بعض العلماء: ولقد كان الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هي عليه اليوم، كما كانت البركة فيها أعظم.

وقد روى الإمام أحمد بإسناده: أنه وجد في خزائن بعض بني أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليه: هذا كان ينبت أيام العدل.

* قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾.

أي: قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين سيرا في البلاد بقلوبكم وأبدانكم سير اعتبار وتأمل، فانظروا إلى مساكن الذين ظلموا كيف كان آخر أمرهم وعاقبة تكذيبهم للرسول، كقوم نوح، وعاد وثمود، ألم يخرب الله ديارهم ويجعلهم عبرة لمن يعتبر، حيث كانوا كافرين بالله فأهلكوا وعذبوا.

* ثم تأتي التوجيهات الربانية آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته، والمبادرة إلى الخيرات، قال تعالى:

﴿فَاقْمْ وْجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَئِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّغُونَ﴾.

قال السعدي: وخص الله إقامة الوجه؛ لأن إقبال الوجه لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سعي البدن.

* قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ .

الضعف الأول: كون الإنسان من ماء مهين، وكونه ضعيفاً في حاله الطفولية .

والضعف الثاني: في الأخير الهرم .

* قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

قال الشيخ السعدي - رحمه الله - : وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن، رزين العقل، يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين ضعيف العقل خفيفه، يصعب عليه الصبر .
في أول الآية أمر، وفي آخرها نهي، وفي وسطها خبر .

سورة لقمان ٣١

هذه السورة الكريمة، من السور المكية، التي تعالج موضوع العقيدة، تعنى بالتركيز على الأصول الثلاثة لعقيدة الإيمان وهي: الوحدانية، والنبوة، والبعث والنشور، كما هو الحال في السور المكية.

ابتدأت السورة الكريمة بذكر الكتاب الحكيم، معجزة محمد الخالدة، الباقية الدائمة على مدى الزمان، وأن الله - عز وجل - جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، وأقامت الحجج والبراهين على وحدانية رب العالمين، وذكرت دلائل القدرة الباهرة، والإبداع العجيب، في هذا الكون الفسيح، المحكم النظام المتناسق في التكوين، في سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، ونهاره وليله، وفي جباله وبحاره، وأمواجه وأمطاره، ونباته وأشجاره، وفي سائر ما يشاهد المرء من دلائل القدرة والوحدانية، مما يأخذ بالقلب، ويبهر العقل، ويواجه الإنسان مواجهة جاهرة لا يملك معها إلا التسليم بقدرة الخالق العظيم.

وسميت «سورة لقمان»؛ لاشتمالها على قصة لقمان الحكيم ووصاياه التي تضمنت فضيلة الحكمة، وسر معرفة الله - تعالى - وصفاته، وذم الشرك، والأمر بمكارم الأخلاق، والنهي عن القبائح والمنكرات، وما تضمنته كذلك من الوصايا الثمينة التي أنطقه الله بها، وكانت من الحكمة والرشاد بمكان.

- وهناك ست سور من القرآن الكريم بدأت ب ﴿الْم ﴿١﴾﴾ وهي:

(البقرة) و(آل عمران) و(العنكبوت) و(الروم) و(لقمان) و(السجدة).

* قال تعالى في مطلع السورة: ﴿الْم ﴿١﴾﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾

هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ [لقمان: ١ - ٣].

* ثم نبه - تعالى - إلى دلائل قدرته، وآثار عظمته وجلاله، وعدد بعضاً من آثار قدرته، وبدائع من بدائع حكمته، ونعماً من آثار رحمته، لإقامة البراهين على وحدانيته، فقال:

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ .

أي: خلق السموات السبع في سعتها وعظمتها وإحكامها بغير عمد ودعائم ترتكز عليها، كما تشاهدونها كذلك واقفة من غير أن تستند على شيء، وإنما استقرت واستمسكت بقدرة الله العليّ الكبير.

﴿ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ .

أي: جعل فيها جبلاً ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب بكم، فتهلككم بأن تقلبكم عن ظهرها، أو تهدم بيوتكم بتزلزلها. ونشر وفرق في أرجاء الأرض من كل أنواع الحيوانات والدواب، من مأكول ومركوب، مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها، وجعلها مسخرة لبني آدم، ولمصالحهم ومنافعهم، ولما بثها في الأرض، علم - تعالى - أنه لا بد لها من رزق تعيش به.

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ .

أي: وأنزلنا لحفظكم وحفظ دوابكم المطر من السحاب. فأنبتنا في الأرض من كل نوع من النبات، ومن كل صنف من الأغذية والأدوية.

﴿ كَرِيمٍ ﴾ .

أي: كثير المنافع، بديع الخلق والتكوين، فرتعت فيه الدواب المنبثة، وسكن إليه كل حيوان.

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴾ .

أي: ثم أخبروني، أي شيء خلقته آلهتكم التي عبدتموها من دون الله من الأوثان والأصنام؟ وهو سؤال على جهة التهكم والسخرية بهم وبآلهتهم

المرعومة، ثم أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الواضح، فقال: بل المشركون في جهل وعمى، وخسران ظاهر، وضلال واضح ما بعده ضلال؛ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، وعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، فهو أضل من الحيوان الأعجم؛ لأن من عبد صنماً جامداً، وترك خالقاً عظيماً مدبراً، يكون أخط شأناً من الحيوان.

* ثم ذكر هنا وصايا لقمان الحكيم، وهي وصايا ثمينة في غاية الحكمة والدعوة إلى طريق الرشاد، وقد جاءت هذه الوصايا مبدوءة بالتحذير من الشرك الذي هو أقبح الذنوب، وأعظم الجرائم عند الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ

أي: واذكر - يا محمد - لقومك موعظة لقمان الحكيم لولده، حين قال له واعظاً وناصحاً ومرشداً بكلمة فيها تحبب ورفق وتلطف: يا بني كن عاقلاً ولا تشرك بالله أحداً، بشراً أو صنماً أو ولداً، وهذا توجيه للدعاة وللآباء أن يبدأوا بكلمة رقيقة فيها حنان وشفقة ورأفة؛ لأن الكلام اللين يفتح القلوب، وبدأ بالتحذير من الشرك؛ لأنه أهم من غيره، ثم بين له السبب في ذلك فقال:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: إن الشرك لأعظم الكبائر وأبشعها، وهو ظلم صارخ؛ لأنه وضع للشيء في غير موضعه، فمن سوى بين الخالق والمخلوق، وبين الإله والصنم فهو - بلا شك - أحمق الناس، وأبعدهم عن منطق العقل والحكمة، وحرى به أن يوصف بالظلم ويجعل في عداد البهائم، فهل أعظم من هذا الظلم شيء.

* ولما أمر - تعالى - بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ۖ

أي: عهدنا إليه، وأمرناه بالإحسان إليهما لا سيما الوالدة، ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقد حملته مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين كان جنيناً في بطنها، وهي تزدد كل يوم ضعفاً على ضعف، ومشقة على مشقة، من حين الحمل إلى حين الولادة؛ لأن الحمل كلما ازداد وعظم، ازدادت به ثقلاً وضعفاً، ثم وجع الولادة وكرباتها.

﴿وَفَصَّلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ .

أي: وفطامه في تمام عامين وهو ملازم لحضانه أمه، وكفالتها ورضاعتها وعنايتها.

﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَدَيْكَ﴾ .

هو تفسير لوصينا، أي: وقلنا له: اشكر ربك على نعمة الإيمان والإحسان، بالقيام بعبوديتي وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي، واشكر والديك على نعمة التربية بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما، وإكرامهما، وإجلالهما، والقيام بمؤونتتهما، فوصيناه بهذه الوصية، وأخبرناه أن:

﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ .

أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك وكلفك بهذه الحقوق، إلى الله المرجع والمآب، فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته. قال سفيان بن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما.

* ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ

عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ .

أي: وإن بذلا جهدهما، وأقصى ما في وسعهما، - أيها الولد المؤمن - ليحملاك على الكفر والإشراك بالله فلا تطعهما؛ إذ لا طاعة لمخلوق في

معصية الخالق، فإن هذا ليس من الإحسان إليهما؛ لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، فلاتطعهما بالشرك، وأما برهما فاستمر عليه.

﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ .

أي: وصاحبهما في الحياة الدنيا بالمعروف، وبخلق الجميل، والحلم والبر والصلة، والإحسان إليهما فيما لا إثم فيه - ولو كانا مشركين -؛ لأن كفرهما بالله لا يستدعي نسيان الإحسان والمتاعب التي تحملها في تربية الولد، ولا التنكر بالجميل.

والتعبير بهذه اللفظة: ﴿وَصَاحِبُهُمَا﴾ من أطف ما يكون في الحث على بر الوالدين، ذلك أن الصحبة في هذه الآية تقتضي الملازمة، ومن شأن الملازمة الدوام على قلب الأحوال، فالصحبة الطويلة يعترئها الملل، والفتور، فإذا استحضر الولد هذا الإرشاد الإلهي علم أن لوالديه حقاً عظيماً، فيلزم صحبتهما بالمعروف.

* ثم عاد السياق إلى وصايا لقمان ليمثلها الناس ويقتدوا بها، فقال تعالى:

﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ .

أي: يا ولدي إن الخطيئة والمعصية مهما كانت صغيرة حتى ولو كانت وزن حبة الخردل في الصغر، وهي أصغر الأشياء وأحقرها. فتكن تلك السيئة - مع كونها في أقصى غايات الصغر - في أخفى مكان وأحرزه، كجوف الصخرة الصماء، أو في أعلى مكان في السماء أو في الأرض، يُحضرها الله - سبحانه -، ويحاسب عليها لسعة علمه، وتمام خبرته، وكمال قدرته، والغرض التمثيل بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد.

﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ٥٧﴾ .

أي: اصبر على المحن والبلايا؛ لأن الداعي إلى الحق معرض أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر، قيل: لما نهاه أولاً عن الشرك، وأخبره ثانياً بعلمه - تعالى - وباهر قدرته، أمره بما يتوسل به إلى الله من الطاعات، فبدأ بأشرفها وهي الصلاة، ثم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن بسبب الأمر بالمعروف، فكثيراً ما يؤذى فاعل ذلك.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ٥٨﴾ .

أي: لا تمل وتعبس بوجهك عن الناس، تكبراً واحتقاراً وتعاضماً عليهم، وإعجاباً بنفسك؛ وتحقيراً لهم.

قال الزجاج: معناه: لا تعرض عن الناس تكبراً، يقال: أصاب البعير صَعْرٌ: إذا أصابه داء يلوي من عنقه.

وقال ابن عباس: هو الذي إذا سُلِمَ عليه لوى عنقه كالمستكبر. وفي الآية أدب رفيع: لا تمش بين الناس متبختراً متكبراً بطراً فخراً بالنعمة، ناسياً المنعم، معجباً بنفسك. لا تفعل ذلك فيغضبك الله، ولهذا قال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ٥٩﴾ .

تعليل للنهي، أي: لأن الله يكره المتكبر في نفسه وقوله، الذي يرى العظمة لنفسه، ويتكبر على عباد الله، وكذلك لا يحب المتبختر في مشيته، الفخور الذي يفتخر على غيره.

ثم لما نهاه عن الخلق الذميمة، أمر بالخلق الكريم، فقال:

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَآغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ٦٠﴾ .

أي: توسط وتواضع في مشيتك، فامشي متواضعاً مستكيناً، واعتدل فيها بين الإسراع والبطء، عدلاً وسطاً بين بين. واخفض من صوتك أدباً مع الناس ومع الله، فلا ترفعه عالياً، فإنه قبيح لا يجمل بالعاقل.

﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ .

أي: إن أوحش وأبشع الأصوات صوت الحمير، فمن رفع صوته كان ممثلاً لهم، وأتى بالمنكر القبيح، وكان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات فرد عليهم بأنه لو كان خيراً لفضلتهم به الحمير، وقال قتادة: أقبح الأصوات صوت الحمير، أوله زفير وآخره شهيق.

قال ابن زيد: لو كان رفع الصوت خيراً ما جعله الله للحمير.

قال القرطبي: وفي هذه الآية أدب من الله - تعالى - بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم، وكانت العرب تفخر بجهارة الصوت الجهير، وغير ذلك، فمن كان منهم أشد صوتاً كان أعز ومن كان أخفض كان أذل، فنهى الله - سبحانه وتعالى - عن هذه الخلق الجاهلي.

* ثم ذكر أثراً من آثار نعمته، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي

الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ .

[لقمان: ٣١].

ووجه إيثار خلقي الصبر والشكر هنا، أنهما أنسب بمقام السير في البحر، إذ راكب البحر بين خطر وسلامة، وهما مظهر الصبر والشكر.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي

الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ . [لقمان: ٣٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ .

هذه هي مفاتيح الغيب التي اختص الله بعلمها، وهي خمس، كما جاء في الحديث الصحيح: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله» وتلا الآية، والمعنى: عنده - تعالى - وحده لا غيره معرفة وقت قيام الساعة التي تقوم فيها القيامة ليبقى الناس على حذر دائم، وتوقع دائم. فكأنها حجب مغلقة بيده لا بيد غيره مفاتيحها.

﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ﴾

أي: من النفوس كائنة ما كانت من غير فرق بين الملائكة أو الأنبياء، والجن، والإنس، ما يدري أحد ماذا يحدث له في غد، وماذا يفعل من خير أو شر من كسب دينها ودنياها ومن نفع وضر، ومن يسر وعسر، ومن صحة ومرض.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۖ﴾

أي: كما لا يدري أحد أين يموت، ولا في أي مكان يقبر، ولما خصص هذه الأشياء، عمم علمه بجميع الأشياء، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

أي: مبالغ في العلم، يعلم كل الأمور، خبير بظواهر الأشياء وبواطنها، لا يخفى شيء منها.

قال الزجاج: فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه كفر بالقرآن لأنه خالفه.

ومعنى حصر مفاتيح الغيب في هذه الخمسة، أنها هي الأمور المغيبة المتعلقة بأحوال الناس في هذا العالم، وأن التعبير عنها بالمفاتيح أنها تكون مجهولة للناس، فإذا وقعت فكأن وقوعها فتح لما كان مغلقاً.

سورة السجدة ٣٢

سورة السجدة، سورة مكية، وهي كسائر السور المكية تعالج أصول العقيدة الإسلامية: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والكتب والرسول، والبعث والجزاء، والمحور الذي تدور عليه السور الكريمة هو البعث بعد الفناء، الذي طالما جادل المشركون حوله، واتخذوه ذريعة لتكذيب الرسول - عليه الصلاة والسلام -.

تدور آياتها حول بيان حقيقة الخلق وأحوال الإنسان في الدنيا والآخرة، ببيان شاف كاف، فهي تفصل كيف خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، وكيف خلق الإنسان الأول من طين، وخلق سلالة من ماء مهين، في تفصيل رائع يطمئن له القلب المؤمن، ويزداد إيماناً بربه، ولا يملك إلا أن يخر ساجداً بين يديه، ولذلك سميت سورة السجدة.

وفي الحديث عن أبي هريرة قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة: ﴿الْم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ﴾ السجدة، و﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ [الإنسان: ١]» [رواه البخاري].

- سميت سورة السجدة: لما ذكر - تعالى - فيها من أوصاف المؤمنين الأبرار، الذين إذا سمعوا آيات القرآن العظيم ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

* تبتدئ السورة الكريمة بالحديث عن المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ، الذي لا تحوم حول ساحته الشبهات والأباطيل، ومع وضوح إعجازه، وسطوع آياته، وإشراقه بيانه، وسمو أحكامه، اتهم المشركون الرسول بأنه افترى هذا القرآن، واختلقه من تلقاء نفسه، فجاءت السورة الكريمة ترد هذا البهتان، بروائع الحجة والبرهان بدفع الشك والارتياب.

* ثم ذكر - تعالى - شبهة المشركين الخفية في إنكارهم للبعث والنشور، ورد عليها بالحجج القاطعة والأدلة الساطعة، التي تنتزع الحجة من الخصم الجاحد العنيد، فلا يلبث أن يقر على نفسه بالهزيمة أمام قوارع القرآن، وروائع الحجة والبيان، قال تعالى:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ .

أي: ذلك الخالق المدبر لشؤون العالمين، أتقن وأحكم كل شيء أوجده وخلقه، ووضع كل شيء في موضعه. وهذا أبلغ في الامتنان، ولهذا قال ابن عباس: ليست القردة بحسنة، ولكنها متقنة محكمة.

قال بعض العلماء: لو تصورت مثلاً أن للفيل مثل رأس الجمل، وأن للأرنب مثل رأس الأسد، وأن للإنسان مثل رأس الحمار، لوجدت في ذلك نقصاً كبيراً، وعدم تناسب وانسجام، ولكنك إذا علمت أن طول عنق الجمل، وشق شفته ليسهل تناوله الكلاً عليه أثناء السير، وأن الفيل لولا خرطومه الطويل لما استطاع أن يبرك بجسمه الكبير لتناول طعامه وشرابه، لو علمت كل هذا لأيقنت أنه صنع الله الذي أتقن كل شيء، ولقلت: تبارك أحسن الخالقين.

وإذا إذا تأملت الأشياء رأيته مصنوعة على ما ينبغي، فصلاية الأرض مثلاً للسير عليها، ورقة الهواء ليسهل انتشاقه للتنفس، وتوجه لهيب النار إلى فوق لأنها لو كانت مثل الماء تلتهب يميناً وشمالاً لكثرت الحرائق، فأما الهواء فلا يقبل الاحتراق.

* ثم خص - تعالى - الآدمي لشرفه وفضله. فقال:

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۖ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ

مُهِينٍ ۝ۙ﴾ .

أي: جعل ذرية آدم يتناسلون من خلاصة من ماء ضعيف رقيق حقير، هو المنى، وسميت الذرية سلالة، لأنها تسل من الأصل، وتنفصل عنه.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ .

أي: ثم أتم خلق الإنسان وأبدعه، وقوم أعضائه، وعدل خلخته في رحم أمه، ونفخ بعد ذلك فيه الروح، وذلك بإرسال الملك له، لينفخ فيه الروح، فإذا هو في أكمل صورة وأحسن تقويم، وأضاف الروح إليه - تعالى - شريفاً للإنسان، وإيداناً بأنه خلق عجيب، وصنع بديع، وأن له شأنًا جليلة مناسبة إلى حضرة الربوبية.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ .

أي: مازال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً، حتى أعطاكم وخلق لكم هذه الحواس: السمع لتسمعوا به الأصوات، وتميزوا بينها، والبصر لتبصروا به الأشخاص، والعقل لتدركوا به الحق والهدى، والنافع والضار.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ .

أي: قليلاً شكركم لربكم، على ما أنعم به عليكم، و﴿مَّا﴾ لتأكيد القلة.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا

أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وجيء في تصوير حالهم بطريقة حذف جواب (لو)، حذفاً يرادفه أن تذهب نفس السامع كل مذهب من تصوير فظاعة حالهم وهول موقفهم بين يدي ربهم.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

جاء في الآية أسلوب بلاغي هو أسلوب الحصر - في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ [السجدة: ١٥]. وكلمة

﴿إِنَّمَا﴾ من أدوات الحصر، وكأن المؤمنين بالله هم هذا الصنف فقط، وهذا

ميزان للعبد المسلم لينظر في حاله ويتدبر أمره.

وأوثر صيغة المضارع في ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ﴾ لما تشعر به من أنهم يتجددون في الإيمان ويزدادون يقينا وقتا فوقتا.

* ثم وصفهم - عز وجل - بصفات عظيمة، فقال:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

ذكر في الآية كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقهم واضطرابهم على مضاجعهم، حين يقومون إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله - تعالى -: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذخراً، بله ما أطلعت عليه [أي: مدخراً لهم فوق النعيم الذي أخبرتم به]، قال: اقرأوا - إن شئتم -: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]». [متفق عليه].

قال بعض العلماء: هذه لذة الخبر، فكيف بلذة النظر.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

قال ابن كثير: أي: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع علي مثلها أحد لما اخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب جزاء وفاقاً فإن الجزاء من جنس العمل. قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم؛ فأخفى الله لهم ما لم تر عين، ولم يخطر على قلب بشر.

* ثم ذكر - تعالى - أصحاب النار وحالهم، فقال:

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي

كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

قال الفضيل بن عياض: والله ما طمعوا في الخروج؛ لأن الأرجل مقيدة والأيدي موثقة، ولكن يرفعهم لهابها، وتردهم مقامعها، نعوذ بالله من النار.

❖ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

قال قتادة: إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة، وأعوز أشد العوز، وعظم من أعظم الذنوب، ولهذا قال - تعالى - متهدداً لمن فعل ذلك: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

❖ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال سفيان: لا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا. وقال: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً.

وقال بعض العلماء: بالصبر واليقين، تنال الإمامة في الدين.

سورة الأحزاب (٣٣)

سورة الأحزاب من السور المدنية، التي تتناول الجانب التشريعي لحياة الأمة الإسلامية، شأن سائر السور المدنية، وقد تناولت حياة المسلمين الخاصة والعامة، وبالأخص أمر الأسرة، فشرعت الأحكام بما يكفل للمجتمع السعادة والاستقرار، وأبطلت بعض التقاليد والعادات الموروثة مثل التبني، والظهار، واعتقاد وجود قلبين لإنسان، وطهرته من رواسب المجتمع الجاهلي، ومن تلك الخرافات والأساطير التي كانت متفشية في ذلك الزمان.

سميت «سورة الأحزاب»؛ لأن المشركين تحزبوا على المسلمين من كل جهة، فاجتمع كفار مكة مع غطفان، وبني قريظة، وأوباش العرب على حرب المسلمين، ولكن الله ردهم مدحورين وكفى المؤمنين القتال بتلك المعجزة الباهرة.

وجه اتصالها بسورة السجدة: تشابه مطلع هذا، ومقطع تلك، فإن تلك ختمت بأمر النبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين وانتظار عذابهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠]، ومطلع هذه الأمر بتقوى الله، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، فصارت كاللتمة لما ختمت به تلك، حتى كأنهما سورة واحدة.

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

ناداه بوصفه دون أسمه تعظيماً له؛ فإن مواجهة العظماء بأسمائهم في النداء لا تليق.

* قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢].

هذا تمهيد لما يرد من الوحي في شأن أحكام التبني وما يتصل بها، وفيه إيدان بأن ما سيوحى إليه قريباً هو ما يشق عليه وعلى المسلمين من إبطال حكم التبني؛ لأنهم ألفوه واستقروا في نفوسهم. ولذلك ذيلت جملة: ﴿وَاتَّبَعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ بجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تعليلاً للأمر وتأنيساً به.

* ثم قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قُلُوبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]. فأنت تجد تحت هذا اللفظ: أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة، إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها، وليس للعبد قلبان، يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما، والآخر لغيره، بل ليس له إلا قلب واحد. فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه، وإلا انصرف ذلك إلى غيره.

* قال تعالى: ﴿الْنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. الحق أن النبي ﷺ هو أولى بكل مؤمن من نفسه، لأن النفس قد تجر الإنسان إلى المهالك في دروب الشهوات، أما رسول الله ﷺ فلا يدل إلا على خير.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَأَهَّلُ يَثْرَبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: ١٣].

قال السعدي: إن المنادة بالوطنية وترك الأخوة الإيمانية والرابطة الإسلامية من أعمال الجاهلية وليست من الإسلام.

* قال تعالى: ﴿لَيَسْأَلَنَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾.

أي: أخذ الله ذلك العهد من أولئك الرسل؛ ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الصادقين عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم، والحكمة في سؤال الرسل مع علمه - تعالى - بصدقهم هو التقيح على الكفار يوم القيامة وتبكيتهم وتوبيخهم.

وفي الآية تنبيه على أن الأنبياء إذا كانوا يسألون يوم القيامة فكيف بمن سواهم .

* قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا تَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ١٧] .

قال أبو حازم : لما يلقي الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقي الذي يتقي الله من معالجة التقوى . واعتبر ذلك بحال إبليس فإنه امتنع من السجود لآدم فرار أن يخضع له ويذل ، وطلب إعزاز نفسه فصيره الله أذل الأذلين ، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور من ذريته ، فلم يرض بالسجود له ورضي أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته .

قال بعض السلف : من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجته ، أمشاه الله - تعالى - أكثر منها في غير طاعته .

* قال تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ ﴾ .

أي : لقد علم الله - تعالى - ما كان من أمر أولئك المنافقين ، المشبطين للعزائم ، الذين يعوقون الناس عن الجهاد ، ويصدونهم عن القتال .

﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

أي : والذين يقولون لإخوانهم في الكفر والنفاق الذين خرجوا : تعالوا إلينا واتركوا محمداً وصحبه يهلكوا ، ولا تقاتلوا معهم ، فإننا نخاف عليكم الهلاك بهلاكه ، وهم مع تعويقهم وتخذيلهم من أجبن الناس وأشدهم حرصاً على التخلف ، ولا يحضرون القتال إلا قليلاً منهم رياء وسمعة وخوف الفضيحة ، وعدم وجود الداعي لذلك في نفوسهم من الإيمان والصبر ، فهم يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم ، ولا تراهم يقاتلون إلا شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه ، فقتالهم رياء ليس بحقيقة .

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ .

أي: بخلاء عليكم - أيها المؤمنون - بالمودة والشفقة والنصح، والنفس والجهد والمال، لما في نفوسهم من العداوة والحقد حباً في الحياة وكرهًا للموت؛ ولأنهم لا يريدون لكم الخير ولا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم.

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ .

أي: فإذا حضر القتال رأيت أولئك المنافقين في شدة رعب لا مثيل لها، من شدة الجبن الذي خلع قلوبهم، والقلق الذي أذهلهم، وخوفاً من إجبارهم على ما يكرهون من القتال، حتى إنهم لتدور أعينهم في أحداقهم يميناً وشمالاً، كحال المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوراً.

قال القرطبي: وصفهم بالجبن، وكذا سبيل الجبان ينظر يميناً وشمالاً محدداً بصره، وربما غشي عليه من شدة الخوف.

* قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

معلوم أن الرسول ﷺ أسوة حسنة، وإنما جيء بكلمة ﴿حَسَنَةٌ﴾ لتأكيد الأمر، وزيادة في الإيضاح، ودفعاً لأهل الهمم؛ حتى يقتدوا برسولهم ﷺ فقد كان يحمل التراب، ويرابط ويقاتل، ويبدأ بنفسه قبل أن يبدأ بغيره - صلوات الله وسلامه عليه -.

* قال تعالى: ﴿يَنْبِسَاءُ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ .

أي: من تفعل منكن كبيرة من الكبائر، أو ذنباً تجاوز الحد في القبح، وقد عصمهن الله عن ذلك، وبرأهن وطهرهن.

قال ابن عباس: يعني النشوز وسوء الخلق. يكون جزاؤها ضعف جزاء غيرها من النساء، لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة والشرف.

وكان ذلك العقاب سهلاً يسيراً على الله، لا يمنعه منه كونهن أزواج ونساء النبي ﷺ.

وفي الآية تلوين للخطاب، فبعد أن كانت المخاطبة لهم على لسان رسول الله ﷺ، وجه الخطاب إليهن هنا مباشرة لإظهار الاعتناء بأمرهن ونصحهن. وهذه الآيات خطاب من الله لأزواج النبي ﷺ إظهاراً لفضلهن، وعظم قدرهن عند الله - تعالى -؛ لأن العتاب والتشديد في الخطاب مشعر برفعة رتبتهن، لشدة قربهن من رسول الله ﷺ ولأنهن أزواجه في الجنة، فبقدر القرب من رسول الله يكون القرب من الله.

* ثم ذكر - تعالى - عدله وفضله في قوله:

﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ - وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

أي: ومن تواظب منكن على طاعة الله وطاعة رسوله، وتتقرب إلى الله بفعل الخير، وعمل الصالحات. نعطها الثواب مضاعفاً، ونثيبها مرتين: مرة على الطاعة والتقوى، وأخرى على طلبهن رضاء رسول الله ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة. وقد هيأنا لها في الجنة - زيادة على ما لها من أجر - رزقاً حسناً مرضياً لا ينقطع.

والعبد كلما كملت نعمة الله عليه ينبغي له أن تكون طاعته له أكمل، وشكره له أتم، ومعصيته له أقبح.

وشدة العقوبة تابعة لقبح المعصية، ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالماً لم ينفعه الله بعلمه.

وقد عبر - تعالى - عند العذاب بقوله: ﴿يُضَعَفُ﴾ فلم يصرح بالمعذب، فلما ذكر إتياء الأجر قال: ﴿نُؤْتِيهَا﴾ للتصريح بالمؤتي وهو الله، إشارة إلى كمال الرحمة والكرم، ولأن الكريم عند النفع يظهر نفسه وفعله، وعند الضر لا يذكر نفسه.

* ثم أظهر فضيلتهن على النساء وذكر آداباً أمر الله - عز وجل - بها نساء النبي، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال:

﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ .

الخطاب لنساء النبي ﷺ كلهن، أي: أنتن تختلفن عن سائر النساء من جهة أنكن أفضل وأشرف من غيركن، لكونكن زوجات خاتم الرسل، وأفضل الخلق محمد - عليه الصلاة والتسليم -، فليست الواحدة منكن كالواحدة من آحاد النساء.

﴿إِن اتَّقَيْتُنَّ﴾ .

شروط حذف جوابه لدلالة ما قبله، أي: إن خفتن الله، فأنتن بأعلى المراتب فلا تتحدثن مع الأجانب.

قال القرطبي: بين - تعالى - أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى، لما منحهن الله من صحبة رسوله سيد الأولين والآخرين.

وقال ابن عباس: يريد إن اتقيتن، فشرط عليهن التقوى بياناً فضيلتهن إنما تكون بالتقوى، لا بنفس اتصالهن برسول الله ﷺ فلهذا أرشدهن إلى قطع وسائل المحرم، فقال:

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ .

أي: فلا ترققن الكلام عند مخاطبة الرجال. فيطمع من كان في قلبه فجور وريبة، وحب لمحادثة النساء.

إذا كان هذا الطمع في أمهات المؤمنين، فلا بد أن يكون في غيرهن بطريق الأولى، فإن الله اختار لنبيه أفضل النساء وأعفهن، ومع ذلك أمرهن بالحجاب ونهاهن عن الخضوع بالقول صيانة لهن، فغيرهن أولى بالصيانة والتحفظ والبعد عن أسباب العهر والفتنة.

ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فرجما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله:

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (٤٩٣).

أي: وقلن قولاً حسناً عفيفاً لا ريبة فيه، ولا لين ولا تكسر عند مخاطبتكن للرجال. ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، ولا تخاطب الأجنبي كما تخاطب زوجها، وهذا أدب واجب على كل امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (٤٩٤).

أي: الزمن بيوتكن ولا تخرجن لغير حاجة؛ لأنه أسلم وأحفظ لكن، ولا تكثرن الخروج مظاهرات محاسنكن، متجملات أو متطيبات، كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين، فكل هذا دفع للشر وأسبابه. وذكر أن عائشة - رضي الله عنها - إذا قرأت هذه الآية تبكي حتى تبل خمارها.

وقيل لسودة - رضي الله عنها -: لم لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك؟ فقالت: قد حججت واعتمرت، وأمرني أن أقر في بيتي. ولما أمرهن بالتقوى عموماً، وبجزئيات من التقوى، نص عليها لحاجة النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصاً الصلاة والزكاة، فقال تعالى:

﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٤٩٥) إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٤٩٦).

أي: عالماً بما يصلح لأمر العباد، خبيراً بمصالحهم، ولذلك شرع للناس ما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم، فلطفه وخبرته يقتضي حثهم على الإخلاص وإسرار العمل، ومجازاة الله على تلك الأعمال. ومن معاني اللطيف: الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدره، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقاً له إلى أعلى الدرجات، وأرفع المنازل.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

قال ابن كثير: لما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة ناسب أن يذكر بعده حفظ الفرج.

* قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

قال ابن تيمية: وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف. إذا كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئاً سواه.

* قال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ذكر الله له محملان: أحدهما ذكره اللساني فيدخل فيه قراءة القرآن وطلب العلم ودراسته. والمحمل الثاني: الذكر لقلبي، وهو ذكر الله عند أمره ونهيه، كما قال عمر بن الخطاب: أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه، وهو الذي في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

قال السعدي: من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفرقة.

* قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

واستدراك قوله: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾ لرفع ما قد يتوهم من نفي أبوته، من انفصال صلة التراحم والبر بينه وبين الأمة، فذكروا بأنه رسول الله ﷺ، فهو كالأب لجميع أمته في شفقتة ورحمته بهم، وفي برهم وتوقيرهم إياه، شأن كل نبي مع أمته.

* لم يذكر أحد من الصحابة باسمه العلم في القرآن إلا واحداً وهو (زيد) ذكر في سورة الأحزاب في قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

* قال تعالى: ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۚ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيٰ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢].

أمر الله - تعالى - عباده بأن يذكروه ويشكروه، ويكثروا من ذلك على ما أنعم به عليهم. وجعل - تعالى - ذلك دون حد لسهولة على العبد، ولعظم الأجر فيه.

قال ابن عباس: لم يعذر أحد في ترك ذكر الله إلا من غلب على عقله.

إن الذكر يوجب صلاة الله - عز وجل - وملائكته على الذاكر، ومن صلى الله - تعالى - عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح، وفاز كل الفوز.

وإذا حصلت لهم الصلاة من الله - تبارك وتعالى - وملائكته وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، فأى خير لم يحصل لهم، وأى شر لم يندفع عنهم؟! فيا حسرة الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره وفضله!

﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ ﴾ .

اشترط الله الكثرة في الذكر حينما أمر به بخلاف سائر الأعمال، والذكر يكون بالقلب وباللسان وهو على أنواع كثيرة من التهليل، والتسبيح، والحمد، والتكبير، وذكر أسماء الله - تعالى - .
قال مجاهد: لا يكون العبد ذاكرًا لله - تعالى - كثيراً حتى يذكره قائماً وجالساً ومضطجعاً .

وقال أبو سعيد الخدري: من أيقظ أهله بالليل وصليا أربع، كانا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات .

* قال تعالى: ﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ ﴾ [الأحزاب: ٤٥] .
وقدمت البشارة على النذارة؛ لأن النبي ﷺ غلب عليه التبشير؛ لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته .

* قال تعالى: ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرٍ نَّظِيرٍ إِنَّهُ ۝ ﴾ [الأحزاب: ٥٣] .

في هذه الآية دليل على أن طعام الوليمة وطعام الضيافة ملك للمتضيف وليس ملكاً للمدعوين ولا للأضياف، لأنهم إنما أذن لهم في الأكل منه خاصة ولم يملكوه، فلذلك لا يجوز لأحد رفع شيء من ذلك الطعام معه .

* قال تعالى: ﴿ لَا تَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ۝ ﴾ [الأحزاب: ٥٢] .

في آية الأحزاب: ﴿ تَبَدَّلَ ﴾ بحذف إحدى التاءين، وقال في آية النساء: ﴿ وَءَاتُوا الَّتِي تَمَىٰ أَمْوَالُهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ [النساء: ٢] ، ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا ﴾ من دون حذف التاء، ذلك أن آية الأحزاب حكمها مقصور على الرسول ﷺ فهو منهي عن أن يتبدل بأزواجه أزواجاً .

أما الآية الثانية، فهي حكم عام للمسلمين على مر العصور، فجاء بالصيغة القصيرة للحدث القصير، وبالصيغة الطويلة للحدث الطويل الممتد.

✽ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

قال أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ، ثم يسأل الله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ، فإن الله - تعالى - يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يرد ما بينهما.

✽ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وأطلق إذاء الله ورسوله وقيد إذاء المؤمنين والمؤمنات، لأن إذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبداً. وأما إذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ومنه. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

إذاية الله وهي بالإشراك به، ونسبة الصاحبة والولد له، وليس معنى إذايته أنه يضره الأذى؛ لأنه - تعالى - لا يضره شيء ولا ينفعه شيء، وقيل: إنها على حذف مضاف تقديره، يؤذون أولياء الله، والأول: أرجح؛ لأنه ورد في الحديث يقول الله تعالى: «يشتمني ابن آدم وليس له أن يشتمني»، ويكذبني وليس له أن يكذبني، أما شتمته إياي فقوله: إن لي صاحبة وولداً، وأما تكذيبه إياي فقوله: لا يعيدني كما بداني» [رواه البخاري].

✽ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا

فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

ألحقت حرمة المؤمنين بحرمة الرسول ﷺ تنويها بشأنهم، وذكروا على حدة للإشارة إلى نزول رتبهم عن رتبة الرسول ﷺ. وهذا من الاستطراد، معترض بين أحكام حرمة النبي ﷺ وآداب أزواجه وبناته والمؤمنات.

* لما فرغ - سبحانه - من الزجر لمن يؤذي رسوله، والمؤمنين، والمؤمنات من عباده، ساقط الآيات آية عظيمة تسمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه أن يأمر النساء عموماً، ويبدأ بزوجاته وبناته؛ لأنهن أكد من غيرهن، ولأن الأمر لأهله، ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم، فقال تعالى:

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ﴾.

أي: قل - يا محمد - لزوجاتك - أمهات المؤمنين - وبناتك الكريمات، وسائر نساء المؤمنين، قل لهنك يلبسن الجلباب الواسع، الذي يستر جميع بدن المرأة ويغطي رؤوسهن ووجوههن وصدورهن وسائر أجسامهن؛ لأن ذلك يستر محاسنهن وزينتهن، ويدفع عنهن ألسنة السوء، ويحفظهن ويحميهن من النظرات الفاجرة، ويميزهن عن صفات نساء الجاهلية.

روى الطبري عن ابن عباس أنه قال في الآية: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدن عينا واحدة.

وروى ابن كثير عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى.

- ثم ذكر - تعالى - حكمة ذلك، فقال:

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

أي: ذلك التستر وإدناء الجلابيب أقرب بأن يعرفن بالعفة والتستر والصيانة، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد، وقيل: أقرب بأن يعرفن

أنهن حرائر، ويتميزن عن الإماء والعواهر، فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن.

* وأما من جهة أهل الشر والمنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، فقد توعدهم بقوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۖ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ۚ﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٧﴾.

أي: مبعدين عن رحمته - تعالى -. أينما وجدوا وأدركوا، أخذوا على وجه الغلبة والقهر، ثم قتلوا لكفرهم بالله تقتيلاً. وهذه سنة الله في المنافقين وعادته فيمن سبق منهم أن يفعل بهم ذلك.

قال القرطبي: أي سن الله - عز وجل - فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل. ولن تتغير أو تتبدل سنة الله؛ لأنها سنة ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء في الخلف والسلف.

وفي الآية تسليّة للنبي ﷺ، أي فلا تحزن على وجود المنافقين - يا محمد -، فإن ذلك سنة قديمة لم يخل منهم زمن من الأزمان.

* قال - تعالى - عن أهل النار: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۖ﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَصْلُونَا السَّبِيلًا ﴿٦٧﴾ [الأحزاب: ٦٧].

بمد (الرسول) و(السبيل)، وهو لم يمد (السبيل) في أول السورة وإنما

قال: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

والفرق بينهما: أن آتي المد هما من قول أهل النار، وهم يصطرخون فيها ويمدون أصواتهم بالبكاء، كما أخبر عنهم ربنا بقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٧]، فالمقام هنا مقام صراخ ومد صوت فناسب المد. في حين

أن الآية الأخرى ليست كذلك، وإنما هي قول الله مقررًا حقيقة عقلية معلومة.

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

قال القرطبي: وعد - جل وعز - بأن يجازي على القول السداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب، وحسبك بذلك درجة ورفعة ومنزلة.

* قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].
الأمانة هي التكاليف الشرعية من التزام الطاعات وترك المعاصي، وقيل: هي الأمانة في الأموال، وقيل: غسل الجنابة، والصحيح العموم في التكاليف.

* قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].
وعطف الجبال على ﴿وَالْأَرْضِ﴾ وهي منها؛ لأن الجبال أعظم الأجزاء المعروفة من ظاهر الأرض. وهي التي تشاهد الأبصار عظمتها.

سورة سبأ ٣٤

✽ سورة سبأ من السور المكية، التي تشع نوراً وهداية، وتتناول أصل الدين، من إثبات الوجدانية والنبوة، والبعث والنشور.

سميت سورة سبأ؛ لأن الله - تعالى - ذكر فيها قصة سبأ، وهم ملوك اليمن، وقد كان أهلها في نعمة ورخاء، وسرور وهناء، وكانت مساكنهم حدائق وجنات، فلما كفروا النعمة دمرهم الله بالسيل العرم، وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

وجه اتصالها بما قبلها: لما ختمت سورة الأحزاب بقوله: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣].

ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد الله - جل وعلا -، الذي أبدع الخلق، وأحكم شؤون العالم، ودبر الكون بحكمته، فهو الخالق المبدع الحكيم، الذي لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وهذا من أعظم البراهين على وحدانية رب العالمين.

افتتحت سورة سبأ بأن له ما في السماوات والأرض، وهذا وصف لائق بذلك الحكم، فإن الملك العام، والقدرة التامة، يقتضيان ذلك.

وقد افتتحت السورة بالحمد، وهي خامس سورة افتتحت بالحمد: سورة الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.

✽ قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ

الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

افتتحت السورة بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للتنبيه على أن السورة تتضمن من دلائل

تفردة بالإلهية واتصافه بصفات العظمة ما يقتضي إنشاء الحمد له، والإخبار باختصاصه به.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ .

لأن في الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه ما لا يكون في الدنيا، فإذا قضى الله - تعالى - بين الخلائق كلهم، ورأى الناس والخلق كلهم ما حكم به، وكمال عدله وقسطه وحكمته فيه، حمدوه كلهم على ذلك حتى أهل العقاب ما دخلوا النار إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم.

* قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢].

قال ابن تيمية: وهنا ختمت الآية بتقديم الرحيم على الغفور، خلاف باقي الآيات لارتباط العلم بالرحمة.

* قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

وهذا دليل ظاهر أن الذي نراه معارضاً للعقل، ويقدم العقل عليه ليس من الذين أوتوا العلم في قبيل ولا دبير، ولا قليل ولا كثير.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

ذكر ابن العربي من معاني الفضل في هذه الآية: حسن الصوت، وقال: والأصوات الحسنة نعمة من الله - تعالى -، وزيادة في الخلق ومنه.

وأحق ما لبست هذه الحلة النفيسة والموهبة الكريمة كتاب الله، فنعم الله إذا صرفت في الطاعة فقد قضى بها حق النعمة.

* وتناولت السورة قصص بعض الرسل، فذكر - تعالى - قصة داود وما خصه الله به من الفضل العظيم، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠] **أَعْمَلْ سَبِيغَتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** [سبأ: ١١].

قال القرطبي: في هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم، إذا حصل لهم التواضع في أنفسهم، والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان.

❖ ولما ذكر - تعالى - فضله على داود - عليه السلام - ذكر فضله على ابنه سليمان - عليه السلام -، حيث آتاه من الفضل الواسع العظيم، من النبوة والملك والجاه العظيم، فقال:

﴿وَلَسْلَيْمَنْ أَلْرِيحَ غَدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

أي: وسخرنا لسليمان الريح تسير بأمره، وسيرها من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر للسائر المجد، ومن الظهر إلى الغروب مسيرة شهر.

قال المفسرون: سخر الله له الريح تقطع به المسافات الشاسعة في ساعات معدودات، تحمله مع جنده فتنتقل به من بلد إلى بلد، تغدو به مسيرة شهر إلى نصف النهار، وترجع به مسيرة شهر إلى آخر النهار، فتقطع به مسيرة شهرين في نهار واحد.

قال الحسن: لما شغلت نبي الله سليمان الخيل عن الصلاة فعقرها، أبدله الله خيراً منها وأسرع، وهي الريح.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾.

أي: وأذنبا له النحاس، حتى كان يجري كأنه عين ماء متدفقة من الأرض.

قال المفسرون: أجرى الله لسليمان النحاس، كما ألان لداود الحديد، آية باهرة، ومعجزة ظاهرة.

﴿وَمِنَ الْجِنَّةِ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۚ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ

عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

أي: وسخرنا له الجن تعمل بأمره وإرادته ما شاء مما يعجز عنه البشر، وكل ذلك بأمر الله وتسخيره. ومن يعدل منهم عما أمرناه به من طاعة سليمان، نذقه النار المستعرة في الآخرة.

ثم أخبر - تعالى - عما كلف به الجن من الأعمال، فقال:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ﴾ .

أي: يعمل هؤلاء الجن لسليمان ما يرد من القصور الشامخة، والأبنية الفخمة. والتمثيل العجيبة من النحاس والزجاج.

قال الحسن: ولم تكن يومئذ محرمة، وقد حرمت في شريعتنا سداً للذريعة لئلا تعبد من دون الله.

﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ .

أي: وقصاع ضخمة تشبه الأحواض، والبرك الكبار، يعملونها لسليمان للطعام؛ لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره. ويعملون له قدوراً كبيرة ثابتات لا تتحرك، ولا تتحول عن أماكنها لعظمها وكبرها وضخامتها، فلما ذكر منته عليهم، أمرهم بشكرها، فقال:

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ .

وهم داود وأولاده وأهله؛ لأن المنة على الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم، أي: وقلنا لهم اشكروا يا آل داود ربكم على هذه النعم الجليلة، فقد خصكم بالفضل العظيم والجاء العريض، واعملوا بطاعة الله شكراً له - جل وعلا -، على ما أعطاكم، ومقابلة لما أولاكم. أي: وقليل من العباد من يشكر الله على نعمه، وكان داود وآله من القليل، وفيه تنبيه وتحريض على شكر الله. والشكر: اعتراف القلب بمنة الله - تعالى -، وتلقيها افتقاراً إليها، وصرفها في طاعة الله - تعالى - وصونها عن صرفها في المعصية.

وفيه وجوب الشكر وأنه يكون بالعمل ولا يختص باللسان؛ لأن حقيقة الشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله.

(والشكور):

المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته، ومع ذلك لا يوفي حقه لأن التوفيق للشكر نعمة تستدعي شكراً آخر لا إلى نهاية، ولذلك قيل: الشكور من يرى عجزه عن الشكر.

قال الزركشي: الحمد لله الذي ما قال: (الشاكِر)، لأن الشاكر هو المثني بالقليل والكثير، أما ﴿الشَّكُورُ﴾ (٢٠) فصيغة مبالغة بمعنى: الموفي نعم الله حقها من الشكر، ولذلك وصف الشكورين بالقلة.

* قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ﴾ [سبأ: ١٥].

إنها - والله - عبرة العبر، في وصل المبتدأ بالخبر، أين الجنتان عن يمين وشمال؟ وأين البلدة الطيبة؟ إنها رمال! وأين القرى الظاهرة والعمارة المتكاثرة؟ إنها اليوم قفار! وأين تقدير السير بالأميال لتيسير الاتصال؟ إنها اليوم مجاهل يضل فيها القطا، أجذبت الخمط والأثل، فضلاً عن العنب والنخل.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَهَرَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨].

قال ابن عاشور: وتقديم الليالي على الأيام للاهتمام بها في مقام الامتنان لأن المسافرين أحوج إلى الأمن في الليل منهم إليه في النهار؛ لأن الليل تعترضهم فيه القطاع والسباع.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].
قال الحسن: لم يسل عليهم سيفاً، ولا ضربهم بسوط، وإنما وعدهم ومناهم فاغثروا.

* قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْ ثِقَالِ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

قال السعدي - رحمه الله - : والعجب أن المشرك استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي بعبادة من ضره أقرب من نفعه، طاعة لأعدى عدو له وهو الشيطان.

* قال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٥].
قال بعض أهل العلم: دائماً تأتي مع الهدى (على) وفي الضلال (في)؛ لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى، ولأن صاحب الضلال منغمس فيه ومحتقر.

* قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

إن هذه الآية الكريمة تقرر أن المال كثيراً ما يعمي صاحبه على الحقيقة الملموسة المشاهدة، فيوهمه أن الحياة الدنيا هي الباقية، وهو يرى كل حين كيف تتساقط الأجيال، فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

وهو الفتاح؛ يفتح أبواب الرزق والرحمة وأسبابها لعباده، ويفتح عليه المتعلق من أمورهم وأحوالهم.

وهو العليم؛ يعلم السرائر والخفيات، لا يخفى عليه قول ولا فعل مما يجترحه العباد ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

* قال تعالى: ﴿قُلْ تَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

وإنما أتبع ﴿الْفَتَّاحُ﴾ بـ ﴿الْعَلِيمُ﴾ للدلالة على أن حكمه عدل محض؛ لأنه عليم لا تحف بحكمه أسباب الخطأ والجور الناشئة عن الجهل والعجز، واتباع الضعف النفساني الناشئ عن الجهل بالأحوال والعواقب.

* قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ مُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

بحسب ما له في ذلك من الحكمة، ييسط على هذا من المال كثيراً، ويضيق على هذا، ويقتصر على هذا رزقه جداً، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ الْكِبَرُ دَرَجَاتٍ وَكَبُرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]، وأطيب الناس في الدنيا كما قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه» [رواه مسلم].

* وهو - سبحانه - الرازق، يرزق العبد من السماء والأرض، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]. عم برزقه كل شيء، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، رزق الأجنة في بطون الأمهات، ورزق السباع في القفار، والطيور في أعالي الأوكار، والحيتان في قعر البحار.

* قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٣٦].

إخبار يتضمن الرد عليهم بأن بسط الرزق وقبضه في الدنيا معلق بمشيئة الله، فقد يوسع الله على الكافر وعلى العاصي، ويضيق على المؤمن والمطيع وبالعكس، فليس في ذلك دليل على أمر الآخرة.

* قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْتُولَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠].

والاقتصار على تقرير الملائكة واستشهادهم على المشركين؛ لأن إبطال إلهية الملائكة يفيد إبطال إلهية ما هو دونها، ممن عبد من دون الله بدلالة الفحوى، أي بطريق الأولى. فإن ذلك التقرير من أهم ما جعل الحشر لأجله.

* قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩].

قال القرطبي: هذه إشارة إلى الخلف في الدنيا بمثل المنفق فيها إذا كان النفقة في طاعة الله. وقد لا يكون الخلف في الدنيا فيكون كالدعاء سواء في الإجابة أو التكفير أو الادخار.

❖ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْيَةٍ مِنْكُمْ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَلَا ضَرْرَ عَلَيْكُمْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ كَانُوا فِي أَعْيُنِنَا وَإِنْ تَنْفَكُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَفُتِنُوا بِأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [سبأ: ٤٦].

إنما قال: ﴿مِثْلَ خِزْيَةٍ مِنْكُمْ﴾، لأن الذهن حجة الله على العباد وهو العقل، فأوفرهم عقلاً أوفرهم حظاً من الله، فإذا كانوا فرادى كانت فكرة واحدة، وإذا كانوا مثنى تقابل الذهنان فتراءى من العلم لهما ما أضعف على الانفراد.

❖ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَ الْغُيُوبِ﴾ [سبأ: ٤٨].

وتخصيص وصف ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ من بين الأوصاف الإلهية للإشارة إلى أنه عالم بالنوايا، وأن القائل يعلم ذلك، فالذي يعلم هذا لا يجترئ على الله بدعائه باطلاً أنه أرسله إليكم.

❖ قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥٤].

شرب عبد الله بن عمر ماء بارداً فبكى فاشتد بكاءؤه، ف قيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت آية في كتاب الله ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ فعرفت أن أهل النار لا يشتهون إلا الماء البارد، وقد قال الله عز وجل: ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الاعراف: ٥٠].

❖ قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥٤].

عن قتادة: إياكم والشك والريبة فإن من مات على شك بعث عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.

سورة فاطر ٣٥

سورة فاطر سورة مكية، نزلت قبل هجرة رسول الله ﷺ، فهي تسير في الغرض العام الذي نزلت من أجله الآيات المكية، والتي يرجع أغلبها إلى المقصد الأول من رسالة كل رسول، وهو الدعوة إلى توحيد الله، وإقامة البراهين على وجوده، وهدم قواعد الشرك، والحث على تطهير القلوب من الرذائل، والتحلي بمكارم الأخلاق.

سميت سورة فاطر، لذكر هذا الاسم الجليل، والنعت الجميل في طليعتها، لما في هذا الوصف من الدلالة على الإبداع والاختراع والإيجاد لا على مثال سابق، ولما فيه من التصوير الدقيق، المشير إلى عظمة ذي الجلال، وباهر قدرته، وعجيب صنعه، فهو الذي خلق الملائكة وأبدع تكوينهم بهذا الخلق العجيب.

وفي السورة عتاب ونداء للإنسان: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [الاحزاب: ٩]، ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اُنْتُمْ الْفُقَرَاءُ...﴾ [فاطر: ١٥].

* وفي القرآن خمس سور بدئت بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ذكر فيها النعم وأعظمها نعمة الإسلام، قال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وهي: سورة الفاتحة، وسورة الأنعام، وسور الكهف، وسورة سبأ، وسورة فاطر.

مناسبة وضعها بعد سورة سبأ: تأخيها في الافتتاح بالحمد، مع تناسبها في المقدار.

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الخالق المبدع، الذي فطر الأكوان، وخلق الملائكة والإنس والجان، وأقامت الأدلة والبراهين على البعث والنشور، في صفحات هذا الكون المنظور، إذا بالأرض تحيا بعد موتها

بنزول الغيث، وبخروج الزروع والفواكه والثمار، بتعاقب الليل والنهار، وفي خلق الإنسان في أطوار، وفي إيلاج الليل والنهار، وغير ذلك من دلائل القدرة والوحدانية.

* قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ وَتِلْكَ وَرُبَعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

افتتاحها بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مؤذن بأن صفات من عظمة الله ستذكر فيها وأجراء صفات الأفعال على اسم الجلالة من خلقه السماوات والأرض، وأفضل ما فيها من الملائكة والمرسلين مؤذن بأن السورة جاءت لإثبات التوحيد وتصديق الرسول ﷺ.

* قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

قال صاحب الظلال: إنها تقطعه عن شبهة كل قوة في السماوات والأرض، وتصله بقوة الله، وتبيّنه من مظنة كل رحمة في السماوات والأرض، وتصله برحمة الله، وتوصد أمامه كل باب في السماوات والأرض، وتفتح أمامه باب الله، وتغلق كل طريق في السماوات والأرض، وتشرع له طريقه إلى الله. وما من نعمة يمسك الله معها رحمته حتى تتغلب هي بذاتها نعمة، وما من محنة تحفها رحمة الله حتى تكون هي بذاتها نعمة، ينال الإنسان مع الشوك مع رحمة الله فإذا هو مهاد، وينال على الحرير - وقد أمسكت عنه - فإذا هو شوك القتاد. ويعالج أعسر الأمور برحمة الله فإذا هي هودة ويسر، ويعالج أيسر الأمور وقد تخلت رحمة الله فإذا هي مشقة وعسر.

ورحمة الله لا تعز على طالب في أي مكان، ولا في أي حال!

وجدها إبراهيم - عليه السلام - في النار، ووجدها يوسف - عليه السلام - في الجب، كما وجدها في السجن، ووجدها يونس - عليه

السلام - في بطن الحوت وظلمات ثلاثة، ووجدها موسى - عليه السلام - في اليم وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة! كما ووجدها في قصر فرعون وهو هادو له، ويبحث عنه.

ووجد رحمة الله أصحاب الكهف في الكهف، حين افتقدوها في القصور والدور، فقال بعضهم لبعض: ﴿فَأَوَّازًا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ رَّحْمَتِهِ﴾ (الكهف: ١٦).

ووجدها رسول الله - ﷺ - وصاحبه في الغار، والقوم يتعقبونها ويقصون الآثار.

ووجدها كل من أوى إليها؛ يائسا من كل ما سواها، منقطعاً عن كل شبهة في قوة، وعن كل مظنة في رحمة، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب.

ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها، ومتى أمسكها فلا مرسل لها، ومن ثم فلا مخافة من أحد، ولا رجاء في أحد ولا مخافة من شيء، ولا رجاء في شيء، ولا خوف من فوت وسيلة، ولا رجاء مع الوسيلة، إنما هي مشيئة الله! والأمر مباشرة إلى الله، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)، يُقدر بلا معقب على الإرسال والإمساك. ويرسل ويمسك وفق حكمة تكمن وراء الإرسال والإمساك.

* قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبُسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِّتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (فاطر: ١٢).

قال السعدي - رحمه الله -: إخبار عن قدرته، وحكمته، ورحمته أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهم، وأنه لم يسو بينهما، لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبة فراتا، سائغا شرابها، لينتفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحا أجاجا، لئلا

يفسد الهواء المحيط بالأرض، بروائح ما يموت في البحر، من الحيوانات، ولأنه ساكن لا يجري، فملوحته تمنعه من التغير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ.

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

أي: لا يملكون شيئاً لا قليل ولا كثيراً حتى ولا القطمير الذي هو أحقر الأشياء فكيف يدعون وهم غير مالكين لشيء من ملك السماوات والأرض؟!

* قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

قال ابن القيم: العبد له في كل نفس ولحظة وطرفة عين عدة حوائج إلى الله، لا يشعر بكثير منها، فأفقر الناس إلى الله من شعر بهذه الحاجات، وطلبها من معدنها بطريقها.

* قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلِهَآ لَا تَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - يلقي الأب والأم ابنه فيقول: يا بني احمل عني بعض ذنوبي فيقول: لا أستطيع حسبي ما علي.

* قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢ - ٢٣].

أعظم حرمان نشأ عن الكفر هو حرمان الانتفاع بأبلغ كلام وأصدقه، وهو القرآن.

* ثم أخبر - تعالى - عن جزاء الذين أورثهم الكتاب، فقال:

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ .

أي: جنات إقامة، أضافها للإقامة؛ لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها، ينعمون فيها بأنواع النعيم، وهي مراتب ودرجات متفاوتة، حسب تفاوت الأعمال، وإنما ﴿جَنَّتُ﴾؛ لأنها جنات كثيرة وليست جنة واحدة، فهناك جنة الفردوس: وجنة عدن، وجنة النعيم، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة السلام، وجنة عليين، وفي كل جنة مراتب ونزل، بحسب مراتب العاملين.

﴿تُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ .

أي: يزينون في الجنة بأساور من ذهب، مرصعة باللؤلؤ، وهو الحلي الذي يجعل في اليدين. وجميع ما يلبسونه في الجنة من الحرير، بل فرشهم وستورهم كذلك.

قال القرطبي: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان، جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحد من أهل الجنة إلا في يده ثلاثة أسورة: سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ .

أي: ولما تم نعيمهم، وكملت لذتهم، وطاب مقامهم، قالوا عند دخولهم الجنة: الحمد لله الذي أذهب عنا جميع الهموم والأكدار والأحزان.

قال المفسرون: عبر بالماضي ﴿أَذْهَبَ﴾ لتحقيق وقوعه.

والحزن يعم كل ما يكدر صفو الإنسان من خوف المرض، والفقر، والموت، وأهوال القيامة، وعذاب النار، وغير ذلك.

* قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ

إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

عن ابن مسعود: كفى بخشية الله - تعالى - علماً، وبالاغترار وجهلاً.

✽ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

عن إبراهيم التيمي قال: ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار، لأن أهل الجنة قالوا: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وينبغي لمن لم يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة لأنهم قالوا: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦].

فالطالب الصادق في طلبه، كما خرب شيء من ذاته، جعله عمارة لقلبه وروحه، وكلما نقص شيء من دنياه، جعله زيادة في آخرته، وكلما منع شيئاً من لذات دنياه، جعله زيادة في لذات آخرته.

✽ قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

✽ الاصطفاء أمره عظيم، اصطفاء للملائكة، والرسل، والشهداء، وحملة كتاب الله - عز وجل - ومن حملة كتاب الله - عز وجل - وحفظه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]. وفي الشهداء، قال تعالى: ﴿وَيُصْطَفِي مِنْكُمْ شُهَدَاءُ﴾ ومن الملائكة والرسل: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وإذا أردت أن تلقي نظرة سريعة على هذا الاصطفاء، فكم تجد من الأمم الكثيرة والأعداد المتتالية من خريجي الجامعات كل عام، لهم أكثر من ستة عشر عاماً يدرسون ويتعلمون وليسوا من أهل الاصطفاء، وتجد رجلاً اعجمياً أمياً يحفظ القرآن بالتلقين في سنة أو سنتين.. هذه حقيقة الاصطفاء.

قال ابن كثير: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات، .
﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ .

وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات.
﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ .

وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

وإنما قدم الظالمين للإيدان بكثرتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقون أقل من القليل.

وقال ابن عطاء: إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله، وقيل: إنما قدمه ليعرفه أن ذنبه لا يبعده عن ربه.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٣]، وقوله: ﴿إِذْنِ اللَّهِ﴾ راجع إلى السابق بالخيرات لئلا يغتر بعمله بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله - تعالى - ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله - تعالى - على ما أنعم به عليه.

* قال تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا

وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣].

قيل: أن من أرجى آيات القرآن العظيم هذه الآيات، فالواو في

﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ شاملة: للظالم، والمقتصد، والسابق، على التحقيق، ولذا قال بعض أهل العلم: حق لهذه الواو أن تكتب بماء العينين.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ .

واسع المغفرة للمذنبين، شكور لطاعة المطيعين، وكلا اللفظتين للمبالغة، أي: واسع الغفران يغفر الجنايات وإن كثرت، عظيم الشكر والإحسان، يقبل الطاعات وإن قلت.

* قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥].

نفى النصب واللغوب؛ لأنه لو نفى أحدها لربما توهم أن الثاني يقع وهذا من كمال نعيم الجنة.

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

وقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ﴾ معناه: لا يجهز، لأنهم لو ماتوا: لبطلت حواسهم فاستراحوا.

* قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧].

قال ابن الجوزي: من عرف شرف العمر وقيمه لم يفرط في لحظة منه، فلينظر في حراسة بضاعته، وليحتفظ الكهل بقدر استطاعته، وليتزود الشيخ للحاق جماعته، ولينظر الهرم أن يؤخذ من ساعته.

قال ابن القيم في الفوائد: إنما حسن طول العمر ونفع؛ ليحصل التذكر والاستدراك، واغتنام الفرص، والتوبة النصوح، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء لإصلاح معائبه، واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه، وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته.

* قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْقِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

قال ابن القيم: وقد شاهد الناس عياناً أن من عاش بالمكر مات بالفقر.

قال علي - رضي الله عنه - ثلاث هن راجعات إلى أهلها: المكر،

والنكث، والبغي، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْقِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾

[فاطر: ٤٣]، وقوله: ﴿فَمَنْ نَكْتَفِئَنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣].

* قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].
 في الآية إشعار بأن السماوات والأرض تهم وتستاذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد، فيمسكها بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم، وهو حقيقة صبره - تعالى - .
 ﴿حَلِيمًا غَفُورًا﴾ .

الحليم: هو الذي لا يعجل بالعقوبة والانتقام، ولا يحبس إنعامه عن عباده لأجل ذنوبهم، بل يرزق العاصي والمطيع مع القدرة على المحاسبة والعقاب.
 وقد ورد اسم (الحليم) في القرآن أحد عشر مرة، منها أربع مرات مقروناً بالمغفرة.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

تذكير لهم عن أن يغرهم تأخير المؤاخذه؛ فيحسبوه عجزاً أو رضى من الله بما هم فيه، فهم الذين قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فعلمهم أن لعذاب الله أجلاً اقتضتها حكمته، فيها رعي مصالح أمم آخرين أو استبقاء أجيال آتين.

سورة يس ٣٦

سورة «يس» سورة مكية، تناولت بناء العقيدة خلال مواضيع أساسية ثلاثة، وهي: الإيمان بالبعث والنشور، وقصة أهل القرية، والأدلة والبراهين على وحدانية الله - عز وجل -.

سميت السورة «سورة يس»، لأن الله - تعالى - افتتح السورة الكريمة بها، وفي الافتتاح بها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم.

وقد ابتدأت السورة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي، وصدق رسالة محمد ﷺ، ثم ذكرت كفار قريش، الذين تمادوا في الغي والضلال، وكذبوا سيد الرسل محمد بن عبدالله، فحق عليهم عذاب الله وانتقامه.

* قال تعالى: ﴿يَسَ ۝ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾

[يس: ١ - ٢].

قال السعدي: القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة المستمرة على رسالة الرسول، فأدلة القرآن كلها أدلة لرسالة محمد ﷺ.

﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝﴾ [يس: ٥].

فحماء بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم به عباده، رحمة اتصلت بهم؛ حتى أوصلتهم إلى دار رحمته، ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: العزيز، الرحيم.

* قال تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [يس: ٧].

قال الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله -: من فوائد الآية الكريمة الإشارة إلى أن يجب على الإنسان اللجوء إلى الله - عز وجل -، لأنه هو الذي بيده ملكوت السموات والأرض، فلا تعتمد على ما في قلبك من رسوخ الإيمان مثلاً، وتعتقد أنه لن يتسلط عليك الشيطان، ولن يتسرب

إليك هوى النفس الأمارة بالسوء، بل كن دائماً لاجئاً إلى الله - تعالى - سائلاً الثبات لقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ [يس: ٧]، فالأمر كله بيد الله.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

إن خشية الرحمن بالغيب واتباع الذكر يحصل به مغفرة الذنوب، والأجر الكريم، فإن: ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ في مقابل الذنوب. ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ في مقابل الثواب على الأعمال الصالحة.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

والتميز بوصف ﴿الرَّحْمَنَ﴾ دون اسم الجلالة لوجهين:
أحدهما: أن المشركين كانوا ينكرون اسم الرحمان، كما قال تعالى:
﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠].

والثاني: الإشارة إلى أن رحمته لا تقتضي عدم خشيته، فالمؤمن يخشى الله مع علمه برحمته فهو يرجو الرحمة.

* قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ ونكتب ما قدموا في الدنيا من خير وشر، ومن صالح الأعمال وسيئها.
قال الشيخ السعدي: هذا الموضع يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله، والهداية إلى سبيله، بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليقة، وأشدّهم جرماً، وأعظمهم إثماً.
﴿وَأَثَرَهُمْ﴾.

التي كانوا سبباً فيها في حياتهم وبعد مماتهم من خير، كالولد الصالح، والعلم النافع، والصدقة الجارية، ومن شر كالشرك، والعصيان.

وقيل: ﴿وَأَثَرَهُمْ﴾ أي: وآثار خطاهم بأرجلهم إلى المساجد، وفي الحديث عن جابر قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد - والبقاع خالية - فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم» فقالوا: ما كان يسرنا أنا كنا تحولنا. [رواه مسلم].

وهو - سبحانه - يكتب ما عملوه وما تولد من أعمالهم، فيكون المتولد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر، وهو أثر أعمالهم، وفي الحديث أنه ﷺ قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» [رواه مسلم].

قال الإمام الشاطبي: وطوبى لمن مات ومات معه ذنوبه، والويل لمن مات وبقيت ذنوبه مائة سنة ومئتي سنة.

* قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُورُ آتِبُغُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠].

قال ابن عاشور: وبهذا يظهر تقديم ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ على ﴿رَجُلٌ﴾ للاهتمام بالشأن على أهل أقصى المدينة، وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء؛ لأنهم لا يصددهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة، إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة.

* قال تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦ - ٢٧].

تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله. وأعظم أمنيات الداعية الصادق تحقيق السعادة للمدعوين.

قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً، لا تلقاه غاشاً؛ لما عاين ما عاين من كرامة الله تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله له.

قال القرطبي: وفي هذه الآية تنبيه عظيم ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في اقتدائه، والإشغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام؟!

قال ابن القيم: فليعلم المؤمن أن هذه الوحشة لا تدوم، بل هي من عوارض الطريق، فسوف تبدو له الخيام، وسوف يخرج إليه المتلقون يهتئون به بالسلامة والوصول إليهم، فيا قرة عينه إذ ذاك، ويا فرحته إذ يقول: ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦ - ٢٧].

* قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: ٢٨ - ٢٩].
كان جزاء الإيمان أن كان الموت خطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة، ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق، وأما الطغيان فكان أهون على الله من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره، فهو ضعيف ضعيف. ولا يطيل هنا في وصف مصرع القوم، تهويناً لشأنهم وتصغيراً لقدرهم، فما كانت إلا صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم.

* قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

جيء بضمير ﴿يَسْبَحُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ ضمير جمع مع أن المتقدم ذكره شيئان هما الشمس والقمر، لأن المراد إفادة تعميم هذا الحكم للشمس والقمر وجميع الكواكب وهي حقيقة علمية سبق بها القرآن.

* قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ .

أي: إلا أن نرحمهم فننجيهم ونمتعهم إلى أجل، لعلهم يرجعون ويستدركون ما فرطوا فيه، وفي الآيات السابقة؛ بين - تعالى - أن ركوبهم السفن في البحر من الآيات العظيمة، فإن سير السفينة بما فيها من الرجال والأثقال فوق سطح الماء آية باهرة، فقد حملتهم قدرة الله ونواميسه التي تحكم الكون وتصرفه بحكم خواص السفن، وخواص الماء، وخواص الرياح، وكلها من أمر الله وخلقه وتقديره، والسفينة في البحر الخضم كالريشة في مهب الهواء، وإلا تدرکها رحمة الله فهي هالكة في لحظة من ليل أو نهار، والذين ركبوا البحار، وشاهدوا الأخطار، يدركون هول البحر المخيف، ويحسون معنى رحمة الله وأنها وحدها هي المنجي لهم من بين العواصف والتيارات.

ومع تلك الآيات الواضحات البينات فالعباد في غفلة وإعراض، لا تتوجه أنظارهم، ولا تسيقظ قلوبهم، ولا يكفون عن سخريتهم وتكذيبهم. وذكر الذرية لضعفهم عن السفر، فالنعمة فيهم أحكم.

* قال تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ ﴿٤٩﴾

[يس: ٤٩].

قال الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله -: من فوائد هذه الآية الكريمة بيان حال هؤلاء الذين تقوم عليهم القيامة، وتأخذهم الصيحة، وهي الخصومة والتنازع، مما يدل على سوء أحوالهم، وسوء أخلاقهم، وأنه لا هم لهم إلا هذه المخاصمة والمنازعة، شحاً وطمعاً في الدنيا، وغفلة عن الآخرة، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق».

* قال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٥٠﴾

[يس: ٥٠].

وخص الأهل بالذكر؛ لأن القول معهم في ذلك الوقت أهم على الإنسان من الأجنيين، وأؤكد في نفوس البشر.

﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ٥٢].

قال السعدي: ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع المجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون ولا حسب به الحاسبون كقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨] ونحو ذلك مما يذكر اسمه الرحمن في هذا.

﴿ قَالُوا يَتَوَلَّيْنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ٥٢].

قيل: إن الكفار لما قال بعضهم لبعض: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ صدقوا الرسل لما عاينوا ما أخبروهم به، ثم قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ فكذبنا به، أقروا حين لم ينفعهم الإقرار.

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴾ [يس: ٥٥].

قال ابن عاشور: هذا يؤذن بأن أهل الجنة عجل بهم إلى النعيم، قبل أن يبعث إلى النار أهلاً، وأن أهل الجنة غير حاضرين ذاك المحضر.

* قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا

كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

جعل - سبحانه - ما تنطق به الأيدي كلاماً، وما تنطق به الأرجل شهادة، لأن مباشرة المعاصي - غالباً - تكون بالأيدي، أما الأرجل فهي حاضرة لما ارتكب بالأيدي من سيئات، وقول الحاضر على غيره شهادة بحاله، أما قول الفاعل فهو إقرار ونطق بما فعل.

قيل: أسند - سبحانه - فعل الختم إلى نفسه، وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل، لئلا يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبراً، أو قهراً، والإقرار مع الإجبار غير مقبول. فقال: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ

أَرْجُلُهُمْ ﴿١٠﴾ ، أي باختيارها بعد إقدار الله لها على الكلام ليكون أدل على صدور المذنب منهم .

* قال تعالى : ﴿ وَمَنْ نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس : ٦٨] .

يخبر - تعالى - عن ابن آدم أنه كلما طال عمره ، رد إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط . . . والمراد من هذا - والله أعلم - الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال لا دار دوام واستقرار .

والشيخوخة نكسة إلى الطفولة بغير ملاحاة الطفولة وبراءتها المحبوبة ، وما يزال الشيخ يتراجع ، وينسى ما علم ، وتضعف أعصابه ، ويضعف فكره ، ويضعف احتماله ، حتى يرتد طفلاً . ولكن الطفل محبوب اللثغة ، تبسم له القلوب والوجوه عند كل حماقة ، والشيخ مجتوى لا تقال له عشرة إلا من عطف ورحمة ، وشتان بين من يرجى خيره وبره ونفعه ، وبين من ينتظر رحيله وموته .

* قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ

مُبِينٌ ﴾ [يس : ٦٩] .

روى ابن القاسم عن مالك أنه سئل عن إنشاد الشعر فقال : لا تكثرن منه ، فمن عيبه أن الله يقول : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ .

* ثم ذكر - سبحانه - قدرته العظيمة ، وإنعامه على عبده ، وجحد الكفار لنعمه وفضله ، وأعاد ذكر دلائل القدرة والوحدانية ، ليستدلوا على وجوده - جل وعلا - ، في إطار من مشاهدات القوم ، وهم لا يشكرون ، قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴾ .

الهمزة للإنكار والتعجب ، أي : أولم ينظروا نظر اعتبار ، ويتفكروا فيما أبدعته أيدينا - من غير واسطة ، ولا شريك ولا معين - ، فآية الله هنا مشهودة منظورة ، قريبة محسوسة ، إنها مما خلقناه لهم ولأجلهم من الأنعام ،

وهي الإبل والبقر والغنم، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال قدرتنا؟! وإسناد العمل إلى الأيدي مبالغة في الاختصاص، والتفرد بالخلق.

﴿فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾.

أي: فهم متصرفون فيها كيف يشاؤون، تصرف المالك بماله.

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾.

وسخرناها لهم، وجعلناها يقهرونها وهي ذليلة لهم لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه وهو ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائه بعير أو أكثر لसार الجميع بسير الصغير، فسبحان من سخر هذا لعباده.

فمن هذه الأنعام ما يركبونه في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال كالإبل التي هي سفن البر، ومنها ما يأكلون لحمه كالبقر والغنم.

﴿وَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

ولهم فيها منافع عديدة - غير الأكل والركوب - كالجلود والأصواف والأوبار، أثاثاً ولباساً وغير ذلك، ولهم فيها مشارب أيضاً يشربون من ألبانها. أفلا يشكرون ربهم على هذه النعم الجليلة؟ التي أنعم بها عليهم، ويخلصون له العبادة، والغرض من الآيات تعديد النعم وإقامة الحجة عليهم.

﴿وَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٣].

فرع على هذا التذكير والامتنان قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ استفهاماً تعجبياً؛ لتركهم تكرير الشكر على هذه النعم العدة، فلذلك جيء بالمضارع المفيد للتجديد والاستمرار؛ لأن تلك النعم متتالية متعاقبة في كل حين.

* ثم أقام - تعالى - الدليل القاطع، والبرهان الساطع، على البعث والنشور، ورد الشبه في ذلك، بأتم جواب وأحسنه وأوضحه، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾.

استفهام إنكاري للتوبيخ، أي: أولم ينظر هذا الإنسان الكافر المنكر للبعث والشاك فيه، نظر اعتبار، فيستدل به على معاده، ويتفكر في قدرة الله، فيعلم أنا خلقناه من شيء مهين حقير هو النطفة، «المني» الخارج من مخرج النجاسة، ثم تنقله في الأطوار شيئاً فشيئاً، حتى كبر وشب، وتم عقله واستتب.

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٧).

أي: بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة، فإذا هو شديد الخصومة والجدال بالباطل، يخاصم ربه وينكر قدرته، ويكذب بالبعث والنشور، أفليس الإله الذي قدر على خلق الإنسان من نطفة، قادر على أن يخلقه مرة أخرى عند البعث؟

والآية نزلت في «أبي بن خلف» جاء بعظم رميم، وفتته في وجه النبي الكريم وقال ساخراً: أتزعم - يا محمد - أن الله يحيينا بعد أن نصبح رفاتا مثل هذا؟ فقال ﷺ له: «نعم يبعثك ويدخلك النار».

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ (٧٨).

أي: ضرب مثلاً لا ينبغي لأحد أن يضربه، وهو قياس قدرة الخالق بقدره المخلوق، وهو تكميل للتعجب في حال الإنسان، وبيان جهله بالحقائق، فقد ضرب لنا هذا الكافر المثل بالعظم الرميم، مستبعداً على الله إعادة خلق الإنسان بعد موته وفنائه، ونسي أنا أنشأناه من نطفة ميتة، وركبنا فيه الحياة، نسي خلقه العجيب وبدأه الغريب، وجوابه من نفسه حاضر، وفسر المثل

﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) [يس: ٧٨].

سورة الصافات ٣٧

سورة الصافات سورة مكية، ترسخ بناء العقيدة في النفوس، وتخليصها من شوائب الشرك في كل صورته وأشكاله.

سميت السورة «سورة الصافات» تذكيراً للعباد بالملا الأعلى من الملائكة الأطهار، الذين لا ينفكون عن عبادة الله وبيان وظائفهم التي كلفوا بها.

وابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الملائكة الأبرار، الصافات قوائمها في الصلاة، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله، الزاجرين للسحاب يسوقونه حيث شاء الله.

* ثم قال - تعالى - عن السماء:

﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۖ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٦﴾

[الصافات: ٦ - ٧].

زينت السماء وحفظت من استراق السمع.

قال الرازي: دلت التواريخ على أن حدوث الشهب كان حاصلًا قبل مجيء النبي ﷺ، فإن الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي ﷺ بزمان طويل، ذكروا ذلك وتكلموا في سبب حدوثه، وإذا ثبت أن ذلك كان موجوداً قبل مجيء النبي ﷺ امتنع على مجيء النبي ﷺ، والأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي ﷺ، لكنها كثرت في زمان النبي ﷺ فصارت بسبب الكثرة معجزة.

وخص - تعالى - السماء الدنيا بالذكر؛ لأنها التي تباشر بأبصارنا، وأيضا فالحفظ من الشيطان إنما هو فيه وحدها.

* قال تعالى: ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مَّسْئُولُونَ ۝٢٤﴾ [الصافات: ٢٤].

قال رجل لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: كيف يحاسب الله العباد في يوم؟ قال: يحاسبهم في يوم كما يرزقهم في يوم.

* ثم ذكر - عز وجل - عقاب الكفار المكذبين ، واتبعه بذكر حال أهل الجنة وجزاءهم ونعيمهم ، قال تعالى :

﴿ إِنكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ۝ وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾ .

الاستثناء منقطع أي : لكن عباد الله المخلصين الموحدين ، فإنهم لا يذوقون العذاب ، ولا يناقشون الحساب ، بل يتجاوز الله عن سيئاتهم ، يجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . ثم أخبر عن جزائهم وما اختصهم برحمته ، وجاد عليهم بلطفه ، فقال :

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ۝ ﴾ .

أي : أولئك الأخيار الأبرار لهم رزقهم في الجنة صباحاً ومساءً ، معلوم في حسنه وطيبه ، وعدم انقطاعه ، معلوم الخصائص من حسن المنظر ، ولذة الطعم ، وطيب الرائحة ، رزق عظيم جليل ، لا يجهل أمره ، ولا يبلغ كنهه .

ثم فسره بفواكه متنوعة من جميع ما يشتهون ، تتفكه بها النفس ، للذاتها في لونها وطعمها ، وهم في الجنة معززون ، مجلون ، يخدمون ، ويتنعمون . وخص الفواكه بالذكر ، لأن كل ما يؤكل في الجنة إنما هو على سبيل التفكه والتلذذ .

﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۝ ﴾ .

أي : رياض وبساتين ينتعمون فيها ، ومن كرامتهم عند ربهم ، وإكرام بعضهم بعضاً ، أنهم على مجالس مرتفعة مكللة بالدر والياقوت ، تدور بهم كيف شاؤوا ، لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلاً وتحاباً ، متكئون عليها على وجه الراحة والطمأنينة والفرح ، متقابلين فيما بينهم ، قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما بينهم ، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض ، فإن مقابلة وجوههم ، تدل على مقابلة قلوبهم ، وتأدب بعضهم مع بعض ،

فتم ما بينهم كمال السرور، وكمال الأدب، وصفاء النفس وقرار العين. وهذا أتم للأنس، لأن فيه أنس الاجتماع، وأنس نظر بعضهم إلى بعض، فإن رؤية الحبيب والصديق تؤنس النفس.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٥٢٩﴾ بَيَّضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٥٣٠﴾﴾ .

لما ذكر الطعام أعقبه بذكر الشراب، أي: يطوف عليهم خدام الجنة بكأس من الخمر، من نهر جار خارج من عيون الجنة. وهذه الخمر تخالف خمر الدنيا من كل وجه، فهي: بيضاء أشد بياضاً من اللبن ذات لذة للشاربين، يلتذ بها وقت شربها وبعده.

قال ابن عباس: كل كأس في القرآن فهي الخمر.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٥٣١﴾﴾ .

أي: ليس فيها ما يغال عقولهم فيفسدها، ولا هم يسكرون بشربها كما تفعل خمر الدنيا.

قال ابن كثير: نزه الله - سبحانه - خمر الجنة عن الآفات التي هي في خمر الدنيا، من صداع الرأس، ووجع البطن، وذهاب العقل، فخمر الجنة طعمها طيب كلونها، وتلك أجمل أوصاف الشراب، التي تحقق لذة الشراب، وتنفي أكارهه وأضراره، فلا خمر يصدع الرؤوس، ولا سكر ولا عريضة يذهب لذة الاستمتاع، كما هي الحال في خمرة الدنيا. ثم فصل في أنواع النعيم لتعلم النفوس ذلك فتشتاق إليها، فذكر أزواجهن، فقال:

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ ﴿٥٣٢﴾﴾ .

أي: وعند أهل دار النعيم الحور العين، العفيفات اللواتي قصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن حياء وعفة، فهن عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

﴿عَيْنٌ ﴿٥٣٣﴾﴾ .

أي: وهن مع العفة، واسعات جميلات حسان الأعين.

قال الطبري: أي: نجل العيون، جمع عيناء، وهي المرأة الواسعة العين مع الحسن والجمال، وهي أحسن ما تكون من العيون.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ﴾ [الصافات: ٤٨].

قال السعدي: قصرت طرفها على زوجها؛ لعفتها، وعدم مجاوزته لغيره ولجمال زوجها وكماله، بحيث لا تطلب في الجنة سواه، ولا ترغب إلا به.. هذا يدل على جمال الرجال في الجنة.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

أي: كأن الحور، اللؤلؤ المكنون في أصدافه، المصون الذي لم تمسه الأيدي، والغرض أنهن مع هذا الجمال الباهر، مصونات كالدر في أصدافه، مع رقة ولطف ونعومه ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾. لا تبذله الأيدي، ولا العيون، والعرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها.

- وقد ذكر - تعالى - في هذه الآيات:

أولاً: الرزق وهو ما تتلذذ به الأجسام.

وثانياً: الإكرام وهو ما تتلذذ به النفوس.

ثم ذكر المحل: وهو جنات النعيم.

ثم لذة التأنس والاجتماع: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ وهو أتم للسرور وأنس.

ثم ذكر المشروب وهو الخمر التي تدار عليهم بالكؤوس ولا يتناولونها بأنفسهم.

ثم ختم باللذة الجسدية - أبلغ الملاذ - وهي التأنس بالنساء.

* لما ذكر الله - عز وجل - نعميهم وتمام سرورهم، بالمآكل والمشارب، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة، ذكر تذاكرهم فيما بينهم، ومطارحتهم للأحاديث عن الأمور الماضية، وكيف كانوا في الدنيا، فأخبر - تعالى -

عما يتحدث به أهل الجنة للأنس والسرور، وهم على موائد الشراب يتلذذون بكل ممتع، وينعمون بتجاذب أطراف الحديث، قال تعالى:

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥١) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥٢) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٣) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَدِينُونَ (٥٤) قَالَ هَلْ أُنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ (٥٥) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ (٥٦) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ (٥٧) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٨) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٩) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٦٠) إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦١) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦٢) ۝ ﴾

* خاطب الله العرب بتشبيهات من جنس ما درجوا عليه مما هو مقرر لديهم كالشيطان لغاية القبح، فوصف لهم شجرة الزقوم ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات: ٦٥].

* قال تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥١) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥٢) ﴾ [الصافات: ٥ - ٥٢١].

قال السعدي: من المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه.

* قال تعالى: ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ (٥٦) ﴾ [الصافات: ٥٥].
قال بعض العلماء: لولا أن الله - جل وعز - عرفه إياه لما عرفه، لقد تغير خبره وسبره. وفي هذه الآية عبرة من الحذر من قرناء السوء ووجوب الاحتراس مما يدعون إليه ويزينونه من المهالك.

* قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَفْوَاءٌ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦١) فَهُمْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ يُرْعَوْنَ (٦٢) ۝ ﴾ [الصافات: ٦٩ - ٧٠].

الإهراع: الإسراع الشديد كأنهم يزعجون على الإسراع على آثارهم .
وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى ذلك من غير نظر وبحث، بل مجرد تقليد
وترك اتباع دليل .
قال الرازي: ولو لم يوجد في القرآن آية غير هذه الآية في ذم التقليد
لكفى .

* ثم ذكر - تعالى - نجاه إبراهيم - عليه السلام - ، فقال :

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾

[الصافات: ٧٦ - ٧٧] .

وإنجاء الله إياه نعمة عليه ، وإنجاء أهله نعمة أخرى ، وهلاك ظالمية نعمة
كبرى ، وجعل عمران الأرض بذريته نعمة دائمة لأنهم يدعون له ، ويذكر
بينهم مصالح أعماله وذلك مما يرحمه الله لأجله .

* ثم ذكر - تعالى - عن إبراهيم لما أيس من دعوة قومه :

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ .

والمعنى: إني مهاجر من بلد قومي إلى حيث أمرني ربي ، وهو أول من
هاجر من الخلق مع سارة إلى الأرض المباركة أرض الشام ، وقد هجر وهو
الموحد لربه أصنامهم وتبرأ منها .

﴿سَيِّدِينَ ﴿١١﴾﴾ .

أي: يدلني إلى ما فيه الخير لي ، من أمر ديني ودنياي . وفي هذه الحالة
وهو وحيد لا عقب له ، وترك وراءه أواصر الأهل والقربى ، اتجه إلى ربه
يدعوه ، يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح الذي تقر به عينه ، وتوكل
على ربه ، وقال :

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢﴾﴾ .

وذلك عندما أيس من قومه ولم ير فيهم خيراً ، دعا الله أن يرزقه ولداً
من الصالحين يونسه في غربته ، يريد أولاداً مطيعين يكونوا عوضاً عن قومه

وعشيرته الذين فارقهم، ينفع الله به في حياته وبعد مماته، دعا ربه وهو في هجرته دعاء العبد الصالح المتجرد الذي ترك وراءه كل شيء، وجاء إليه بقلب سليم، فاستجاب الله له.

﴿فَبَشِّرْنَهُ بِلِغْلَمٍ حَلِيمٍ﴾ (١١).

أي: فاستجبنا دعاءه وبشرناه بسلام يكون حليماً في كبره، وهو إسماعيل - عليه السلام -، ودل على أن الحلم من أعلى مآثر الصلاح.

وقد جمع الله له في بشارات ثلاث: بشارة أنه غلام، وأنه يبيع أوان الحلم، وأنه يكون حليماً؛ لأن الصغير لا يوصف بذلك. وجمهور المفسرين على أن هذا الغلام المبشر به هو إسماعيل؛ لأن الله - تعالى - قال بعد تمام قصة الذبيح ﴿وَبَشِّرْنَهُ بِلِغْلَمٍ حَلِيمٍ﴾ (١٢) فدل ذلك على أن الذبيح هو إسماعيل.

قال الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - : من فوائدها تبشير المرء بما ولد له من ولد ولا سيما إذا كان ذكراً، لأن الله عبر عن إخباره إبراهيم بأنه سيولد له بالبشارة.

* قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْنَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قَالَ يَتَأَبَّتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ

﴿[الصافات: ١٠٢].﴾

فلما كبر وترعرع وشب الغلام، وبلغ السن الثالثة عشرة، وهي السن التي يمكنه أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوادثه، في سن يكون غالباً أحب ما يكون لوالديه، وقد ذهبت مشقته وأقبلت منفعته.

وفي تلك الفترة وإبراهيم على كبر، مقطوع من الأهل والقربة، مهاجر في الأرض والوطن، مفارق للأهل والأصحاب، يرزق بسلام طالما تطلع إليه، ودعا أن يرزقه ربه إياه، حتى جاءه ابتلاء من الله - عز وجل - واختبار وامتحان.

وينبغي لمن أراد أن ينفذ شيئاً مكروها لشخص أن يأتي بأسلوب يدل على أنه لا يريد الإضرار به، وإنما هو أمر لا بد منه لقوله.

﴿قَالَ يَبْنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾.

أي: إني أمرت في المنام أن أذبحك، ورؤيا الأنبياء حق.

قال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله - تعالى - أيقاظاً ورقوداً؛ لأن الأنبياء تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم.

﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

أي: فانظر في الأمر، ما رأيك فيه، فإن أمر الله - تعالى - لا بد من تنفيذه؟ وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه على طاعة الله - تعالى - وطاعة أبيه.

فإن قيل: لم شاوره في أمر هو حتم من الله؟ فالجواب: أنه لم يشاوره ليرجع إلى رأيه، ولكن ليعلم ما عنده فيثبت قلبه ويوطن نفسه على الصبر، فأجابه بأحسن جواب:

﴿قَالَ يَنَابِتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

قال إسماعيل صابراً محتسباً، مرضياً لربه، وباراً بوالده: امض لما أمرك الله به من ذبحي، فستجدني صابراً إن شاء الله، وقرن ذلك بمشيئة الله - تعالى -؛ لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله - تعالى - فهو لم يأخذ الأمر بطولة أو حمية وشجاعة، بل أخذها طاعة واستسلاماً لله - عز وجل -؛ وهو جواب من أوتي الحلم والصبر وامثال الأمر، والرضا بقضاء الله.

وقد عدل عن قول: اذبحني، إلى ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ للجمع بين الإذن وتعليقه، أي أذنت لك أن تذبحني لأن الله أمرك بذلك، ففيه تصديق أبيه وامثال أمر الله فيه.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾.

أي: فلما استسلما - الأب إبراهيم وابنه إسماعيل - لأمر الله، وصرعه على وجهه ليذبحه، جازماً بقتل ابنه وثمره فؤاده، امتثالاً لأمر ربه، وخوفاً من عقابه، والابن قد وطن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه ورضا والده. وجذب إبراهيم إسماعيل وكبه على وجهه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

﴿وَتَدَيَّنَهُ أَنْ يَتَابَرَهُيمُ﴾ (٥٣٥) **قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا** .

أي: نادينا يا إبراهيم في تلك الحال المزعجة والأمر المدهش، قد نفذت ما أمرت به وفعلته، وحصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح. وقد رأى إبراهيم في المنام أنه يذبحه ويتهياً لك ولم ير في المنام أنه ذبحه فعلاً، لذا قيل له **﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾** .

قال ابن عباس: فلما عزم على ذبح ولده ورماه على شقه، قال الابن: يا أبت أشدد رباطي حتى لا أضطراب، واكفف ثيابك لئلا يتضح عليها شيء من دمي فتراه أُمي فتحزن، وأحد شفرتك وأسرع بها على حلقي ليكون الموت أهون عليّ، وإذا أتيت أُمي فأقرئها مني السلام، وإن رأيت أن ترد قميصي عليها فافعل، فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني.

فقال له إبراهيم: نعم العون أنت يا بني على أمر الله.

روي أنه أمر السكين بقوته على حلقة مراراً فلم يقطع.

قال ابن القيم: والحكمة في هذه القصة أن إبراهيم اتخذ الله - تعالى - خليلاً، والخلة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة، ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبيب، فلما سأل ربه الولد ووهبه له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبة ولده، فأراد الله - تعالى - أن يصفى وُدّه، ويختبر خلته، فأمره بذبح المحبوب لتظهر صفاء الخلة، فامتثل أمر ربه وآثره على هواه، وقدم محبته على محبة ولده، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٣٦).

تعليل لتفريج الكربة، أي: كما فرجنا شدتك، كذلك نجازي المحسنين بتفريج الشدة عنهم، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً.

﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ (٥٣٦).

أي: إن هذا الذي امتحنا به إبراهيم - عليه السلام -، ابن يذبح، ويكون الذبح بيده، لهو الابتلاء والامتحان الشاق الواضح، الذي يتميز فيه المخلص من المنافق، والذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلته، فلهذا قال:

﴿وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (٥٣٧).

أي: صار بدله، ذبح من الغنم عظيم من الجنة فداءً عنه، ذبحه إبراهيم، فكان عظيماً من جهة أنه كان فداءً لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسنة إلى يوم القيامة. قال ابن عباس: كبش عظيم قد رعى في الجنة أربعين خريفاً.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٥٣٨) ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٥٣٩).

أي: وأبقينا عليه ثناءً حسناً إلى يوم الدين، كما كان في الأولين، فكل وقت بعد إبراهيم - عليه السلام -، فإنه فيه محبوب، معظم، مثني عليه.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٤٠) ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٤١).

أي: كما جزينا إبراهيم على طاعته لنا وامثالته أمرنا، نجازي المحسنين من عبادنا، كرّر ذكر الجزاء مبالغة في الثناء، ثم علل ذلك بأنه كان من الراسخين في الإيمان مع اليقين والاطمئنان.

﴿وَدَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٥٤٢).

أي: وبشرناه بغلام آخر بعد تلك الحادثة، هو إسحاق الذي سيكون نبياً، الذي ورائه يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبياً من الصالحين، فهي بشارات متعددة.

﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ .

أي: أفضنا على إبراهيم وإسحاق بركات الدنيا والدين، التي هي النمو والزيادة، في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق.

﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ .

مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ [الصافات: ١١٣].

قال القرطبي: لما ذكر البركة في الذرية والكثرة قال: منهم محسن، ومنهم مسيء، وأن المسيء لا تنفعه بنوة النبوة، فاليهود والنصارى وأن كانوا من ولد إسحاق، والعرب وإن كانوا من ولد إسماعيل فلا بد من الفرق بين المحسن والمسيء، والمؤمن والكافر.

وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر، فقد يلد البر الفاجر، والفاجر البر، وعلى أن فساد الأعقاب لا يعد غضاضة على الآباء وأن مناط الفضل هو خصال الذات وما اكتسب المرء من الصالحات وأما كرامة الآباء فتكملة للكمال وباعث على الاتسام بفضائل الخلال.

* ولما ذكر قصة الخليل إبراهيم، وقصة الذبيح والفداء، أعقبها بذكر قصص بعض الأنبياء، كموسى وهارون، ويونس ولوط، وما في هذه القصص من العظات والعبر، وختم السورة الكريمة ببيان أن النصر والغلبة للرسول وأتباعهم المؤمنين، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَخَيَّرْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ

الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾

وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ

مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ .

* ثم مدح - سبحانه - عبده ورسوله إلياس - عليه الصلاة والسلام - بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، فقال تعالى:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ۝ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَّمَ عَلَىٰ إِيَّا سِينَ ۝ إِنَّا كَذَّلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ .

﴿إِنَّا كَذَّلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ .

أثنى الله عليه، كما أثنى على إخوانه - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -، وإنما ختم الآيات بعد ذكر كل رسول بالسلام عليه، وبهاتين الآيتين الكريمتين لبيان فضل الإحسان والإيمان، وأن هؤلاء الرسل الكرام كانوا جميعاً من المتصفين بهذه الصفات، فلذلك استحقوا التحية والسلام، والذكر الحسن بين الأنام - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - .

* ثم أثنى الله - عز وجل - على عبده ورسوله لوطاً بالنبوة والرسالة، ودعوته إلى قومه، ونهيهم عن الشرك، وفعل الفاحشة، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ خَبَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ۝ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ۝ وَإِنَّا لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ۝ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝﴾ .

* ثم أثنى الله - عز وجل - أيضاً على عبده ورسوله يونس بن متى، كما أثنى على إخوانه المرسلين بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ .

أي: وإن يونس ذو النون، وهو ابن مَتَّى، لأحد رسلنا المرسلين لهداية قومه .

﴿وَإِنْ يُونسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣٤﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِكَ الْمَشْحُونِ ﴿٣٥﴾

[الصافات: ١٣٩ - ١٤٠].

أي: أذكر حين هرب وركب سفينة مملوءة ركاباً وأمتعة، فلما أحاطت بها الأمواج العظيمة، فقارع أهل السفينة فكان من المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر. قال المفسرون: إن يونس ضاق صدراً بتكذيب قومه، فأنذرهم بعذاب قريب، وغادرهم مغضباً لأنهم كذبوه، فقاده الغضب إلى شاطئ البحر حيث ركب سفينة مشحونة، فناوأها الرياح والأمواج، فقال الملاحون: ههنا عبد أبق من سيده، ولا بد لنجاة السفينة من إلقائه في الماء لتنجو من الغرق، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً هيئاً أسبابه، فألقوه في البحر.

قال السعدي: ولم يذكر الله ما غاضب عليه ولا ذنبه الذي ارتكبه لعدم فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما ذكرنا عنه أنه أذنب وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقبض له ما هو سبب صلاحه.

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ٣٦﴾

فابتلعه الحوت وهو آت بما يلام عليه من تخليه عن المهمة التي أرسله الله بها، وترك قومه مغاضباً لهم، وخروجه بغير إذن من ربه.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ٣٧﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٨﴾

أي: لولا أنه كان من الذاكرين الله كثيراً في حياته في وقت الرخاء قبل وقوعه في بطن الحوت وبعده، لبقى في بطن الحوت إلى يوم القيامة، وأصبح بطنه قبراً له فلم ينبج أبداً، ولكنه سبح الله واستغفره، وناداه وهو في بطن الحوت بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ٣٩﴾ [الأنبياء: ٨٧] فاستجاب الله تضرعه ونداءه، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد والمضائق.

عن ميمون بن مهران قال: سمعت الضحاك بن قيس يقول على منبره:
اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس كان عبداً لله ذكراً، فلما
أصابته الشدة دعا الله، فقال الله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١١٢﴾ لَلْبَثَ فِي
بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١١٣﴾﴾ .

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ يونس: ١١٤٣ .

قال القرطبي: أخبر الله - عز وجل - أن يونس كان من المسبحين، وأن
تسبيحه كان سبب نجاته، ولذلك قيل: إن العمل الصالح يرفع صاحبه
إذا عثر .

قال الحسن: ما كان له صلاة في بطن الحوت ولكنه قدم عملاً صالحاً في
حال الرخاء؛ فذكره الله به في حال البلاء .

* قال - تعالى - عن يونس - عليه السلام - : ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ
سَقِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١١٦﴾﴾ .

أي: فاستجبنا له، فألقيناه من بطن الحوت على الساحل، بأن قذفه
الحوت من بطنه بالأرض الفضاء التي لا شجر فيها ولا ظل، وهو سقيم
مريض، ضعيف البدن مما ناله من الكرب .

قال عطاء: أوحى الله - تعالى - إلى الحوت إنني قد جعلت بطنك له
سجناً، ولم أجعله لك طعاماً، فلذلك بقي سالماً لم يتغير منه شيء . وأنبتنا
فوقه شجرة لتظله وتقيه حرَّ الشمس، وهي شجرة القرع، وإنما خص القرع
 بالذكر؛ لأنه يجمع كبر الورق، وبرد الظل، وأنه أسرع الأشجار نباتاً
وامتداداً وارتفاعاً، والذباب لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر
كان لا يحتمل الذباب، وهذا من تدبير الله ولطفه به وبره، فلما استكمل
قوته وعافيته امتن عليه منة عظيمة، حيث إنه رده الله إلى قومه .

قال ابن كثير: وذكر في القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليل ورقه
لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل

نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضاً. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء، ويتتبعه من حواشي الصحيفة.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿٥٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٥٨﴾﴾ .
أي: وأرسلناه بعد ذلك إلى قومه الذين هرب منهم، وهم مائة ألف من الناس، بل يزيدون. فآمَنوا بعد أن شاهدوا أمارات العذاب الذي وعدوا به فصاروا في موازينه؛ لأنه الداعي لهم، فأبقيناهم ممتعين في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم. روي أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم، وفرقوا بينهم وبين الأمهات، وناحوا وتضرعوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم.

* قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الصافات: ١٦٥ - ١٦٦].

عن أبي نضرة قال: كان عمر إذا أقيمت الصلاة أقبل على الناس بوجهه، فقال: يا أيها الناس استتوا إن الله إنما يريد بكم هدي الملائكة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿٦٠﴾﴾ استتوا؛ تقدم أنت يا فلان تأخر أنت أي هذا، فإذا استتوا تقدم فكبر.

* قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ١٨٠].
لما ذكر في هذه السورة كثيراً من أقوالهم الشنيعة التي وصفوه بها، نزه نفسه عنها، فقال: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ﴾ .

سورة ص ٣٨

سورة «ص» سورة مكية، تعالج قضية التوحيد، والوحي إلى محمد ﷺ، وأمر الآخرة، والجزاء والحساب.

تسمى السورة الكريمة «سورة ص»، وهو حرف من حروف الهجاء للإشادة بالكتاب المعجز، الذي تحدى الله به الأولين والآخرين، وهو المنظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية.

وقد ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن المعجز المنزل على النبي الأمي، المشتمل على المواعظ البليغة، والأخبار العجيبة، على أن القرآن حق، وأن محمد نبي مرسل.

* بدأت سورة «ص» بتعظيم: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، وختمت بـ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]. وفي ثناياها تقرير للمشككين فيه، وحض على لزوم اتباعه وتدبره.

واشتملت سورة (ص) على الخصوصات المتعددة: فأولها: خصومة الكفار مع النبي ﷺ وقوله: ﴿أَجْعَلِ آلَهُةَ إِلَهًا وَحِدًا﴾ [ص: ٥] إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصم الملأ الأعلى في العلم، ثم مخاصمة إبليس.

* قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢].

والتعبير بـ ﴿فِي﴾ في قوله ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ للإشعار بأن ما هم عليه من عناد ومن مخالفته للحق، قد أحاط بهم من كل جوانبهم، كما يحيط الظرف بالمظروف.

* قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

في سورة (ص) ذكرت كلمت (قطنا) وهي تعني: القسط من الشيء الحسن.

فذكرت هذه الكلمة في سياق الآية لتوضح استهزائهم بالنبي ﷺ، فجعلوا العذاب شيئاً حسناً لهم. فمن خلال كلمة واحدة فهم أن الغرض كان الاستهزاء.

* ثم تناولت الآيات قصص بعض الرسل الكرام، تسلياً للنبي - عليه الصلاة والسلام -، عما يلقيه من كفار مكة من الاستهزاء والتكذيب، وتخفيفاً لآلامه وأحزانه، فذكرت قصة نبي الله داود، وولده سليمان، الذي جمع الله له بين النبوة والملك، وما نال كلا منهما من الفتنة والابتلاء، ثم أعقبتها بذكر فتنة أيوب، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، وذا الكفل، هكذا في عرض سريع لبيان سنة الله، في ابتلاء أنبيائه وأصفياه، فقال لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر:

﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

أي: اصبر - يا محمد - على تكذيبهم وأقوالهم الباطلة، كما صبر من قبلك من الرسل، فإن الله ناصرك عليهم، وفيه تسلياً للرسول ﷺ وتهديد للكفار، ولما أمر الله رسوله بالصبر على قومه، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده، ويتذكر حال العابدين، ومن أعظم العابدين، نبي الله داود - عليه الصلاة والسلام -:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾.

أي: وتذكر عبدنا داود ذلك النبي الشاكر الصابر، ذا القوة في الدين والعلم، والقوة في البدن والقلب، فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان يقوم نصف الليل، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى، وأنه كان أواباً...».

قال السعدي: من الفوائد والحكم في قصة داود - أن الله - تعالى - يمدح ويحب القوة في طاعته قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار

الطاعة وحسنها وكثرتها ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلقة بالقوى المضعفة للنفس.

- ثم ذكر الله صفة من صفات نبيه داود، فقال عنه:

﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ ٧٧﴾ .

أي: كثير الرجوع والإنابة إلى الله.

والأَوَّابُ: الرجاء إلى الله، في جميع الأمور بالإنابة إليه، والحب والتأله، والخوف والرجاء، وكثرة التضرع والدعاء.

ولا يكون أواباً إلا من كان قوياً في دينه خائفاً من ربه.

ولما كانت مقالة المشركين تقتضي الاستخفاف بالدين، أمر - تعالى -

نبيه بالصبر على أذاهم، وذكر قصصاً للأنبياء «داود، وسليمان، وأيوب» وغيرهم، وما عرض لهم فصبروا حتى فرج الله عنهم، وصارت عاقبتهم أحسن عاقبة، فكذلك أنت تصبر ويؤول أمر إلى أحسن مآل.

﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ٧٨﴾ .

أي: ومن شدة إنابته لربه وعبادته، أن سخرنا الجبال لداود تسبح معه

في المساء والصباح، وتسبح الجبال معجزة لداود - عليه السلام - كما قال

تعالى: ﴿يَسْجُدُ لِلَّهِ أَجْمَعُ وَالطَّيْرُ ٧٩﴾ [سبا: ١٠].

﴿وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ كُلُّ لَّهُ أَوَّابٌ ٨٠﴾ .

أي: وسخرنا له الطير مجموعة إليه تسبح معه، كل من الجبال والطير،

فهو رجاء إلى طاعته - تعالى - بالتسبيح والتقديس، وكانت الطير تسبح

بتسبيحه وترجع بترجيئه، إذا مرَّ به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه يترنم

بقراءة الزبور يقف في الهواء ويسبح معه، وكذلك الجبال الشامخات كانت

ترجع معه وتسبح تبعاً له. قال قتادة: ﴿أَوَّابٌ ٨١﴾ أي مطيع وهذه منة الله

عليه بالعبادة، ثم ذكر منته عليه بالملك العظيم.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ﴾ .

وجعلنا له ملكاً كاملاً ، وقوينا ملكه وثبتناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود .
ثم ذكر منته عليه بالعلم ، فقال : وأعطيناه النبوة والعلم العظيم ، والفهم والإصابة في الأمور .

﴿وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ .

أي : الكلام البين الذي يفهمه من يخاطب به ، وقيل : يعني إصابة القضاء وفهمه .

قال المفسرون : كان ملك داود قوياً عزيزاً ، وكان يسوسه بالحكمة والحزم معاً ، ويقطع ويجزم برأى لا تردد فيه مع الحكمة والقوة ، وذلك غاية الكمال في الحكم والسلطان .

قال السعدي : إن العبد إذا رزقه الله نعمة فاستعملها في طاعة الله بارك الله له فيها وزاده من خيرها ، فداود - عليه السلام - لما استعمل قوته في إعزاز الدين وكثرة العبادة والطاعة ؛ ألان الله - عز وجل - له الحديد .
- من الفوائد والحكم في قصة داود أن من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع ، ويعرف الحكم والفصل بين الناس ، كما امتن الله به عبده داود - عليه السلام - .

* ثم ذكر - تعالى - قصة خصمان تحاكما إلى داود ، فقال :

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى

بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِلَا حَقٍّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: ٢٢] .

قال السعدي : المنصوح ولو كان كبير القدر كثير العلم عليه أن لا يغضب ولا يشمئز ، بل يبادر بقبول النصيحة ، والشكر لمن نصحه ، ويحمد الله إذ قيض له النصيحة على يد الناصح ، فإن داود لم يشمئز من قول الخصمين .

* قال تعالى : ﴿وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّهَا فَتَنَةٌ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤ - ٢٥] .

فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴿ [ص: ٢٤ - ٢٥] .

الاستغفار والعبادة؛ خصوصاً الصلاة من مكفرات الذنوب، فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

✽ قال تعالى: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦].

جاء في الحديث: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود - عليه السلام - كان يأكل من عمل يده». وخصه الله - عز وجل - بذلك بأن كان خليفة في الأرض، فلم يكن بحاجة إلى العمل بيده.

✽ قال تعالى: ﴿كِتَبْنَا نُزْلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّدَّبَرُواْ ءَايَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

قال ابن القيم: لو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه، كررها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم.

قال في مفتاح دار السعادة: لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، ﴿كِتَبْنَا نُزْلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّدَّبَرُواْ ءَايَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

✽ القرآن الكريم نور، ولكن لا يشاهد ذلك إلا من جمع بين أمرين: التدبر والتذكر، ﴿كِتَبْنَا نُزْلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّدَّبَرُواْ ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُواْ الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وقد جعل التذكر بعد التدبر؛ لأنه لا يمكن أن يتعظ الإنسان بالشيء إلا إذا عرف معناه.

✽ قال تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

قال البغوي: وسميت الخيل خيراً؛ لأنه معقود بنواصيها الخير؛ الأجر والمغنم.

* قال سليمان - عليه السلام - : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ [ص: ٣٥].

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - : فبدأ بطلب المغفرة قبل طلب الملك العظيم ؛ وذلك لأن زوال أثر الذنوب هو الذي يحصل به المقصود ، فالذنوب تتراكم على القلب ، وتمنعه كثيراً من المصالح ، فعلى المؤمن أن يسأل ربه التخلص من هذه الذنوب قبل أن يسأل ما يريد .

* قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥].

قدم الاستغفار على طلب الملك ؛ لأن أمور الدين كانت عندهم أهم من الدنيا ، فقدم الأولى والأهم .

* ثم ذكر - سبحانه - قصة عبده أيوب ، وهي القصة الثالثة في هذه السورة ، وما فيها من ابتلاء له حيث أصابه الضر في جسده ، وماله وولده ، قال تعالى :

﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ .

الإضافة للتشريف ، أي : اذكر - يا محمد - عبدنا الصالح أيوب - عليه السلام - ، بأحسن الذكر ، واثن عليه بأحسن الثناء ، حين أصابه الضر ، فصبر على ضره ، فلم يشتك لغير ربه ولا لجأ إلا إليه .

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ .

أي : حين نادى ربه متضرعاً إليه ، قائلاً : إني مسني الشيطان بتعب ومشقة ، وألم شديد في بدني ، وكان أن سلط على جسده فنفخ فيه حتى تقرح ، ثم تقيح بعد ذلك واشتد به الأمر ، وكذلك هلك أهله وماله . قال المفسرون : وإما نسب ذلك إلى الشيطان فهو تأديباً مع الله - تعالى - وإن كانت الأشياء كلها خيرها وشرها من الله - تعالى - ، وكان أيوب قد أصيب في ماله وأهله وبدنه ، وبقي في البلاء ثماني عشرة سنة .

وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل، فاستجاب ربه لدعائه وأمره:

﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (١٢).

أي: وقلنا له أضرب برجلك الأرض، فضربها فنبعت له عين ماء صافية. وقلنا له هذا ماء تغسل به، وشرب تشرب منه، فاغتسل منها فذهب ما كان بظاهر جسده. وشرب منها فذهب كل مرض كان داخل جسده، والجمهور على أنه نبعت له عينا، شرب من إحداهما، واغتسل من الأخرى، فشفي بإذن الله.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا﴾.

أي: أحيا الله من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع عليه من شئت منهم.

قال المفسرون: الأقرب أن الله - تعالى - متعه بصحته وبماله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك. رحمة منا بعبداً أيوب، لصبره وإخلاصه، فأثبناه من رحمتنا ثواباً عاجلاً وآجلاً.

﴿وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ (١٣).

أي: وعبرة لذوي العقول المستنيرة، ليعلموا أن عاقبة الصبر: الفرج والمخرج، وكشف الضر.

والله - عز وجل - جواد كريم يعطي ما سئل، ويفيض بجوده وكرمه فقد قال عن دعاء أيوب: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ وَعَذَابِ﴾ (١١) أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (١٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ (١٣) [ص: ٤١ - ٤٣].

وكذلك أفاض بكرمه على أيوب، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ

أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذَكَرَىٰ لِلْعَبِيدِينَ ﴿١١﴾ (الأنبياء: ٨٣١ - ٨٣٤).

✽ قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾.

وقلنا له خذ بيدك حزمة من القضبان الرفيعة - شماريخ - ، فاضرب بها زوجتك لتبر يمينك ولا تحنث. قال المفسرون: كان أيوب قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط إذا برئ من مرضه، وسبب ذلك أنها كانت تخدمه في حالة مرضه، فلما اشتد به البلاء، وطالت به المدة، وسوس إليها الشيطان: إلى متى تصبرين؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر، فقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ فغضب من هذا الكلام وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ حزمة من قضبان خفيفة فيها مائة عود، ويضربها بها ضربة واحدة ويبر في يمينه، رحمة من الله به وبزوجته التي قامت على رعايته، وصبرت على بلائه، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه، ولهذا قال:

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾.

أي: ابتليناه، فوجدناه صابراً على الضراء.

قال الشيخ ابن عثيمين: إن الله - تعالى - يمن على العبد بأكثر مما فقد إذا صبر واحتسب، لأن أيوب - عليه الصلاة والسلام - وهب الله له أهله ومثلهم معهم، فأنت اصبر، تظفر.

﴿نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١٢).

أي: نعم العبد أيوب الذي كمل مراتب العبودية في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء، وكان كثير الرجوع إلى الله بالتوبة، والإنابة والعبادة.

✽ قال - تعالى - في الثناء على أيوب - عليه السلام -: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا

نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١٢) [ص: ٤٤].

فأطلق عليه: ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ﴾ بكونه وجده صابراً، وهذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتلي فإنه: بئس العبد.

سُئِلَ سَفِيَانُ عَنْ عَبْدِ بْنِ ابْتَلَى أَحَدَهُمَا فَصَبَرَ، وَأَنْعَمَ عَلَى الْآخَرِ فَشَكَرَ، فَقَالَ: كِلَاهُمَا سُوءٌ، لِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَثْنَى عَلَى عَبْدِ بْنِ، أَحَدَهُمَا صَابِرٌ، وَالْآخَرُ شَاكِرٌ، ثَنَاءً وَاحِدًا، فَقَالَ فِي وَصْفِ أَيُّوبَ: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ١١﴾، وَقَالَ فِي وَصْفِ سُلَيْمَانَ: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ١٢﴾. * ثم ذكر - سبحانه - مخبراً عن فضائل عباده المرسلين، وأنبيائه العابدين، فقال:

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ ١٣﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ١٤ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ١٥ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ١٦ هَذَا ذِكْرٌ ١٧. * ثم ذكرت، الآيات مكان ومنزلة المتقين وحالهم ومآلهم، وما يتنعمون به في الجنة، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ١٨﴾.

أي: وإن لكل متق الله، مطيع لرسله، بامثال الأوامر واجتناب النواهي، من كل مؤمن ومؤمنة، لحسن مرجع ومنقلب؛ فسره وفصله، بقوله:

﴿جَنَّاتٍ عِدْنٍ مُمْتَحَنَةٍ لَهُمْ أَلْبَابُ ١٩﴾.

أي: جنات إقامة في دار الخلد والنعيم، قد فتحت لهم أبوابها انتظاراً لقدمهم.

قال المفسرون: إن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا المؤمنين فتحو لهم أبوابها، وهذا دليل على الأمان التام، وأنه ليس في جنان عدن ما يوجب أن تغلق لأجله أبوابها، وحيوهم بالسلام، فيدخلون كذلك محفوفين بالملائكة على أعز حال، وأجمل هيئة.

﴿مُتَكِّينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَنِكْهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ٢٠﴾.

أي: متكئين متربعين في الجنة على الأرائك، وهي السرر الوثيرة والمجالس المزخرفات.

وهم متكئون على الأسرة يطلبون أنواع الفواكه، وألوان الشراب كعادة الملوك في الدنيا، ومهما طلبوا وجدوا، ومن أي أنواعه شاؤوا أتهم به الخدام.

والاتكاء: من علامات الراحة والأمان.

والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيذان بأن مطاعهم لمحض التفكه والتلذذ، دون التغذية، لأنه لا جوع في الجنة.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الطُّرْفِ أْتْرَابٌ﴾ (٣٦).

وعندهم الحور العين، اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

وأتراب: أي في سن واحدة، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذه.

* ولما ذكر - تعالى - مآل السعداء المتقين، ثنى بذكر حال الأشقياء

المجرمين، ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم، وحسابهم، قال تعالى:

﴿هَذَا وَابٌّ لِلطَّغْيَيْنَ لَشَرٍّ مِّنْ آبٍ﴾ (٣٧) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٣٨﴾ هَذَا

فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٣٩﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ ﴿٤٠﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ

لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٤١﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا

فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٤٢﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٤٣﴾ وَقَالُوا

مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٤٤﴾ أَخَذَتْهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ

الْأَبْصَارُ ﴿٤٥﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٤٦﴾ .

* قال تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ (٤٦).

الاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها، وهذا من كلام خزنة جهنم لرؤساء

الكفرة عن أتباعهم، والعرب تقول لمن يحتفون بهم: مرحباً، إي؛ إيتت

ورحباً في البلاد لا ضيقاً، ثم يدخلون عليها كلمة (لا) في دعاء السوء.

* قال الله - تعالى - على لسان إبليس: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن

نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (٧٦) [ص: ٧٦].

قال في أضواء البيان: بل الطين خير من النار؛ لأن طبيعتها الخفة والطيش والإفساد والتفريق، وطبيعة الطين الرزانة والإصلاح فتودعه الحبة فيعطيكها سنبله، والنواة فيعطيكها نخلة.

وإذا أردت أن تعرف قدر الطين فانظر إلى الرياض الناضرة، وما فيها من الثمار اللذيذة، والأزهار الجميلة، والروائح الطيبة، تعلم أن الطين خير من النار.

أقسم في بدء السورة بالقرآن ذي الذكر ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١] وختمها بالكلام عن القرآن أيضاً، وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ فبين ما أجمله في الافتتاح.

فالتناسب بين مفتتح السورة وخاتمها ليس شيئاً عارضاً ولا موافقة عابرة، وإنما هو سمة بارزة من سمات هذه الكتاب الكريم وأمر مقصود في هذا الكلام الرفيع.

سورة الزمر ٣٩

سورة الزمر، سورة مكية، تحدثت عن عقيدة التوحيد بالإسهاب والتفصيل، حتى لتكاد تكون هي المحور الرئيس للسورة الكريمة لأنها أصل الإيمان، وأساس العقيدة الصحيحة، وأصل كل عمل صالح. وسميت «سورة الزمر» لأن الله - تعالى - ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة، وزمرة الأشقياء من أهل النار، أولئك مع الإجلال والإكرام، وهؤلاء مع الهوان والصغار.

ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن، المعجزة الكبرى الدائمة الخالدة لمحمد بن عبد الله ﷺ، وأمرت الرسول بإخلاص الدين لله، وتنزيهه - جل وعلا - عن مشابهة المخلوقين، وذكرت شبهة المشركين في عبادتهم للأوثان واتخاذهم شفعاء، وردت على ذلك بالدليل القاطع. عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة ببني إسرائيل والزمر». [رواه أحمد].

* قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ١٣].

قال العلماء: إن العمل لا يقبل حتى يكون الدافع لإخلاص العمل لله. قال ابن القيم: لا يجتمع الإخلاص في القلب، ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، والضرب والحوت. * قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ١٤].

وهو القهار: الخلق تحت قهره وقبضته، ينزع روح من شاء متى شاء، لا يقع في الكون أمر إلا بمشيئته ولو سعى العبد إلى تحقيقه.

✽ قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْأَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٦].

قال ابن عاشور: وتخصيص الليل بقنوتهم؛ لأن العبادة بالليل أعون على تمحض القلب لذكر الله، وأبعد عن مداخله الرياء وأدل على إثارة عبادة الله على حظ النفس من الراحة والنوم، فإن الليل ادعى إلى طلب الراحة، فإذا أثر المرء العبادة فيه؛ استنار قلبه بهحب التقرب إلى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

في الآية إشعار بأن الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم، إذ عبر عنهم أولاً بـ (القانت) ثم نفى المساواة بينه وبين غيره، ليكون تأكيداً له، وتصريحاً بأن غير العامل كأن ليس بعالم.

قال الإمام الرازي: واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم.

أما العمل فهو القنوت، والسجود، والقيام. وأما العلم، ففي قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومن تأمل في سياق الله وجد أن الرحمة من الله واصله، والحذر من الحذر وليس من رب جواد كريم بر رحيم.

✽ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله عبد نعمة فانتزعها منه، فعاضه من ذلك الصبر، إلا كان ما عاضه الله أفضل مما انتزع منه.

✽ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [ص: ١٨].

قال ابن عباس: هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به، وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن.

* لما ذكر - تعالى - بعض دلائل وحدانيته وقدرته الموصلة إلى الإيمان به، بين هنا أنه لا ينتفع بهذه الآيات الكونية إلا من شرح الله صدره ويسر له أمر الهدى، قال تعالى:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿مَثَانِي﴾ أي تتنى فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتثنى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته وحسنه، وهذه المعاني للقلوب بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت، فكذلك القلب يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله - تعالى - عليه.

وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن المتدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه، فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير ونفع غزير.

* قال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٢٣٠﴾﴾ [الزمر: ٢٣٠].

قيل: في سبب ذكر الجلود وحدها، ثم قرنت القلوب بها ثانياً: أن ذكر الخشية التي تحملها القلوب مستلزم لذكر القلوب، فكأنه قيل: تقشعر جلودهم وتخشى قلوبهم في أول الأمر. فإذا ذكروا الله - تعالى - وذكروا رحمته وسعته، استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم، وبالقشعريرة لينا في جلودهم.

ولما كان من هذا وصفه هو أعلى الخلق في كل حالة، ذكر جزاءه أعلى الجزاء وأفضله، فقال: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر: ٣٥ - ٣٦].

وخواص أهل هذا الوصف هم الصديقون الذين ليس بعد درجة النبوة أعلى منهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ﴾ [الحديد: ١٩].

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَرَنَّهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

قال ابن عباس: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره.

* ثم أخبر - سبحانه - أنه المتفرد بالتصرف بالعباد، فقال:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾.

أي: يقبضها من الأبدان عند نهاية آجالها، وهي الوفاة الكبرى. ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، وهي الوفاة الصغرى.

قال ابن كثير: أخبر - تعالى - بأنه المتصرف في الوجود كما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة - الملائكة - الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام.

﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فيمسك من هاتين النفسين، النفس التي قضى على صاحبها الموت، فلا يردها إلى البدن. ويرسل الأنفس النائمة إلى بدنهما عند اليقظة إلى وقت محدود، وهو أجل موتها الحقيقي.

قال ابن عباس: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فتتعارف ما شاء الله لها، فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها، أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.

وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته - تعالى -، وانفراده بالالوهية، وأنه يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء لا يقدر على ذلك سواه، ولهذا قال:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

* قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ .

قال المفسرون: الوجه أشرف الأعضاء فإذا وقع الإنسان في شيء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه، وأيدي الكفار مغلولة يوم القيامة، فإذا ألقوا في النار لم يجدوا شيئاً يتقونها به إلا وجوههم.

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ

﴿٣٣﴾ هُم مَّا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥].

قال المفسرون: العدل أن تحسب الحسنات وتحسب السيئات، ثم يكون الجزاء. والفضل هو الذي يتجلى به الله على عباده المتقين، فيكفر عنهم أسوأ أعمالهم، فلا يبقى لهم حساب في ميزانهم، وأن يجزيهم أجرهم بحساب أحسن الأعمال، فتزيد حسناتهم وتعلوا وترجح كفة الميزان، وهذا من زيادة الكرم والإحسان.

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ

الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣].

قال السعدي: أمر الله بالصدق وأثنى على الصادقين، وذكر جزاء الصادقين في آيات كثيرة، والمراد بالصدق أن يكون العبد صادقاً في عقيدته، صادقاً في خلقه، صادقاً في قوله وعمله، فهو الذي يجيء بالصدق في ظاهره وباطنه، ويصدق بالصدق لمن جاء به.

* قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَتُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ

﴿٣٦﴾﴾ [الزمر: ٣٦].

قال ابن القيم - رحمه الله - : الكفاية على حسب العبودية، فكلما

ازدادت طاعتك لله ازدادت كفاية الله لك.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨].

الكفار يكرهون توحيد الله ويحبون الإشراك به، ومعنى ﴿أَشْمَأَزَّتْ﴾ انقبضت من شدة الكراهية. وهذا مشاهد في عباد القبور ونحوهم.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

قال مجاهد: عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات، فإذا هي سيئات.

وقال سفيان الثوري: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء، هذه آيتهم وقصتهم.

جاء في ترجمة محمد بن المنكدر أنه كان ذات ليلة قائماً يصلي، إذ استبكى، فكثر بكاءه حتى فزع له أهله وسألوه، فاستعجم عليهم وتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم فجاء إليه، فقال: ما الذي أبكاك؟ قال: مرت بي آية، قال: وما هي؟ قال: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]؛ فبكى أبو حازم معه، فاشتد بكاءهما.

وجاء عنه أنه جزع عند الموت، ف قيل له: لم تجزع؟ قال: أخشى آية من كتاب الله ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [٤٧]، فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب!

* لما ذكر - تعالى - أحوال الفجرة المشركين، وذكر ما يكونون عليه في الآخرة من الذل والهوان، دعا المؤمنين إلى الإنابة والتوبة قبل فوات الأوان، وجاءت الآيات طريّة نديّة تدعو العباد إلى الإنابة لربهم، والرجوع إليه، قيل أن يداهمهم الموت بغتة، أو يفاجئهم العذاب من حيث لا يشعرون، وحينئذ يتوبون ويندمون، في وقت لا ينفع فيه توبة ولا ندم.

﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾.

لا تيأسوا من مغفرة الله ورحمته، وتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها،

فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، ولكن تأملوا في فضل الله، وتعرضوا لرحمته.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

أي: إنه - تعالى - يعفو عن جميع الذنوب لمن تاب وعاد، وإن كانت مثل زبد البحر.

هذه الآية أرجا آية في كتاب الله - سبحانه - لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولاً: أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم. ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب.

ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب أولى، وبفحوى الخطاب.

ثم جاء بما لا يبقى بعده شك، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

قال ابن مسعود: ما في القرآن آية أعظم فرجاً من آية في سورة الفرق - أي الزمر -.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

أي: عظيم المغفرة واسع الرحمة، وظاهر الآية أنها دعوة للمؤمنين إلى عدم اليأس من رحمة الله، لقوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ﴾.

قال ابن كثير: هي دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها مهما كثرت.

* بعد أن أطنبت آيات الوعيد بإفنانها السابقة إطناباً يبلغ من نفوس سامعيها، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

أي: مبلغ من الرعب والخوف، على رغم تظاهرهم بقلة الاهتمام بها وقد يبلغ بهم وقعها مبلغ اليأس من سعي ينجيهم من وعيدها، فأعقبها الله بيعث الرجاء في نفوسهم للخروج إلى ساحل النجاة إذا أرادوها على عادة هذا الكتاب المجيد من مداواة النفوس بمزيج الترغيب والترهيب.

* وبعد هذه البشارات العظيمة دعاهم - سبحانه وتعالى - إلى العودة والأوبة، فقال:

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (٥٥).

أي: ارجعوا إلى الله، واستسلموا له بالطاعة والخضوع، والعمل الصالح، وأنيبوا له بقلوبكم، وأسلموا له بجوارحكم، وفي هذا دليل على وجوب الإخلاص لله - عز وجل - وإفراد العبادة له وحده دون سواه، من قبل حلول نقمته - تعالى - بكم، ثم لا تجدون من يمنعكم من عذابه.

قال حميد بن هشام: قلت لأبي سليمان بن عطية: يا عم، ولم تشدد علينا وقد قال الله: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، فقال: اقرأ بقية الآيات، فقرأت: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ...﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٥]، فمسح رأسي، وقال: يا بني، اتق الله وخفه وأرجه.

* قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٥٦) [الزمر: ٦٦].

ولم يقل: (بل اعبد الله) لأنه إذا تقدم وجب اختصاص العبادة دون غيره.

قال السعدي: فكما أنه - تعالى - يُشكر على النعم الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق، وغير ذلك، كذلك يشكر ويشنئ عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق للإخلاص، والتقوى، بل نعم الدين، هي النعم على الحقيقة.

وفي تدبر أنها من الله - تعالى - والشكر لله عليها، سلامة من آفة العجب التي تعرض لكثير من العاملين بسبب جهلهم، وإلا فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

✽ قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

قال السعدي: علم من هذا أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل وهو كذلك فإن الله أخبر أن الشمس تكور والقمر يخسف والنجوم تندثر، ويكون الناس في ظلمة فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها عندما يتجلى ويتنزل للفصل بينهم.

✽ قال - تعالى - في حق الكافرين ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا

حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾.

وقال - تعالى - في حق المؤمنين: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا

حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾.

قال الصاوي: والحكمة في زيادة الواو هنا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِحَتْ

أَبْوَابُهَا﴾ دون التي قبلها، أن أبواب السجون تكون مغلقة إلى أن يجئها أصحاب الجرائم، فتفتح لهم ثم تغلق عليهم، بخلاف أبواب السرور والفرح، فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها، فناسب دخول الواو هنا دون التي قبلها.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾.

وجعلهم زمراً بحسب مراتب التقوى.

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

قيل لهم على وجه الإهانة والإذلال: ادخلوا جهنم لتصلوا سعيها ماكنين فيها أبداً، بلا زوال ولا انتقال، كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. فبئس المقام والمأوى جهنم للمتكبرين عن الإيمان بالله وتصديق رسوله.

* وبعد أن ذكر - عز وجل - حال أهل النار، انتقل إلى حال أهل الجنة في ذلك اليوم المهل، فقال تعالى:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

قال ابن كثير: لم يذكر الجواب ههنا وتقديره حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً، وتلقاهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء كما تلقى الزبانية الكفرة بالشريب والتأنيب، فتقديره إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسرُّوا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم، وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾.

وسيق الأبرار المتقون لله إلى الجنة جماعات جماعات، راكبين على النجائب، سوق إكرام وإعزاز وتشريف.

المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.

قال القرطبي: سوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالمجرمين الخارجين على السلطان، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، كما يفعل بالوافدين على الملوك فستان ما بين السوقين.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾.

أي: حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها.

وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمرًا، من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم، كل زمرة على حدة، كمشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرة وجماعتهم، مستبشرين أقوياء القلوب، كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك يؤنس بعضهم بعضاً، ويفرح بعضهم

بعضاً. وكذلك أصحاب الدار الآخرة، النار يساقون إليها زمراً، يلعن بعضهم بعضاً، ويتأذى بعضهم ببعض، وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة من أن يساقوا واحد واحداً.

قال ابن عثيمين: في خواتيم سورة الزمر، قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٢] بينما قال في أهل الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

السبب: أن في هذه الآية إشارة إلى الشفاعة الخاصة بالنبي ﷺ، التي يشفع فيها لأهل الجنة حين يأتون فيجدون باب الجنة مغلقاً؛ فيشفع لهم الله في دخولها، فيدخلونها.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [٧٤] وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٧٥] [الزمر: ٧٤ - ٧٥].

﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٧٥].

حذف فاعل القول، لأنه غير معين، بل كل أحد يحمده على ذلك الحكم الذي حكم فيه، فيحمده أهل السماوات وأهل الأرض، والأبرار والفجار، والإنس والجن، حتى أهل النار.

قال الحسن أو غيره: لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً.

قال ابن كثير: نطق الكون أجمعه، ناطقه وبهيمة، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل، بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له - سبحانه - بالحمد.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ
حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

ختم كل عمل بالحمد لله ، فقد ابتداء الله الخالق بالحمد ، فقال الحمد لله ، الذي خلق السموات والأرض ، وختم بالحمد وقيل : الحمد لله رب العالمين .

سورة غافر ٤٠

سورة غافر سورة مكية، تعنى بأمور العقيدة. ويكاد يكون موضوع السورة البارز هو المعركة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ولهذا جاء جو السورة مشحوناً بطابع العنف والشدة، وكأنه جو معركة رهيبية، يكون فيها الطعن والنزال، ثم تسفر عن مصارع الطغاة فإذا بهم حطام وركام. سميت «سورة غافر» لأن الله - تعالى - ذكر هذا الوصف الجليل - الذي هو من صفات الله الحسنى - في مطلع السورة الكريمة ﴿غَافِرَ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] وكرر ذكر المغفرة في دعوة الرجل المؤمن: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَرِ﴾ [غافر: ٤٢].

وتسمى «سورة المؤمن» لذكر قصة مؤمن آل فرعون. وسورة غافر هي أول سبع سور تبدأ بحرفي ﴿حَم﴾ فتسمى ذوات الحواميم أو الحواميم. والحواميم سبع يجمعها هذا البيت:

مُؤْمِنٌ فَصَلَتْ وَشَرٌّ تَلِيهَا

زخرف والـدخان جاث وأحـقاف

وقد أخرج أبو الشيخ وأبو نعيم، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحواميم ديباج القرآن».

وفي سور الحواميم بث الله - عز وجل - فيها آياته وقدرته، وعظمة

صنعه:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا

يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ [غافر: ٦١].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [غافر: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَبِنتِكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾ [فصلت: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٥﴾﴾ إِنَّ يَشَاءُ يُسَكِّنَ الرِّيحَ فَيَظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٢٦﴾﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٢٤-٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥١﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ نُخْرِجُوهَا ﴿٥٢﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٥٣﴾ لِيَسْتَوْدُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ

الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿٤﴾
[الزخرف: ٩ - ١٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١﴾ وَآخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾ [الجاثية: ٣ - ٦].

* ابتدأت السورة الكريمة بالإشادة بصفات الله الحسنى، وآياته العظمى، ثم عرضت لمجادلة الكافرين في آيات الله، فمع وضوح الحق وسطوعه، جادل فيه المجادلون، وكابر فيه المكابرون. وعرضت السورة لمصارع الغابرين، وقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلم يفلت منهم إنسان، قال تعالى:

﴿حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر: ١ - ٣].
عن أبي إسحاق قال: جاء رجل إلى عمر فقال: إني قتلت، فهل لي من توبة؟ قال: نعم، أعمل ولا تيأس. ثم قرأ: ﴿حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾.

* والسورة كثر فيها مجادلة الكفار والمشركين وإيضاح الدليل.
قال تعالى: ﴿مَا تُجَدِّلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرَكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَدِ ﴿١﴾﴾ [غافر: ٤].
وقال تعالى: ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿١﴾﴾ [غافر: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ۖ﴾ [غافر: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَجْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۖ﴾ [غافر: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ۖ﴾ [غافر: ٤٧].
وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَجْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَلِغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۖ﴾ [غافر: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَجْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرَفُونَ ۖ﴾ [غافر: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَحَاوُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُدْ حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ﴾ [الشورى: ١٦].

* قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۖ﴾ [غافر: ٧].

في ثانيا هذا الجو الرهيب، يأتي مشهد حملة العرش، في دعائهم الخاشع المنيب للملك الديان، يغمرهم رهبة وخشوع، وإذا القلوب لدى الحناجر تكاد لشدة الفزع والهول تنخلع، وفي ذلك الموقف الرهيب واليوم العصيب، يلقي الإنسان جزاءه إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ويخبر - سبحانه - عن كمال لطفه - تعالى - بعباده المؤمنين وما قيض من الأسباب لسعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم، من استغفار الملائكة

المقربين لهم، وودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم، وفي ضمن ذلك الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله، وقربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم، ونصحهم لعباد الله؛ لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم، فقال:

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ .

إخبار عن الملائكة الذين يحملون عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، وأقربها من الله - تعالى -، الذي وسع الأرض والسموات والكرسي.

﴿وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ .

أي: هؤلاء العباد المقربون - حملة العرش - ومن حول العرش من أشرف الملائكة وأكابرهم، ممن لا يحصي عددهم إلا الله، هم في عبادة دائبة لله، ينزهونه عن صفات النقص، ويثنون عليه بصفات الكمال. ويصدقون بوجوده - تعالى -، وبأنه لا إله لهم سواه، ولا يستكبرون عن عبادته، فهم خاشعون له، أذلاء بين يديه، ولا يخفى أن حملة العرش وجميع الملائكة يؤمنون بالله؟ لكن ذكر أنهم يؤمنون به، لإظهار فضيلة الإيمان وشرفه والترغيب فيه.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ .

وهم مع عبادتهم واستغراقهم في تسبيح الله وتمجيده، يطلبون من الله المغفرة للمؤمنين، وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جداً، أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، قائلين: يا ربنا وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، فرحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم، وحركاتهم وسكناتهم. وفي وصف الله - تعالى - بالرحمة والعلم - وهو ثناء قبل الدعاء - تعليم العباد أدب السؤال والدعاء، فهم يبدؤون دعاءهم بأدب، ويستمطرون إحسانه وفضله وإنعامه.

﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ .

أي: فاصفح عن المسيئين المذنبين، التائبين عن الشرك والمعاصي، المتبعين لسبيل الحق الذي جاء به أنبياءك ورسلك.

قال ابن الجوزي: علمت الملائكة أن الله - عز وجل - يحب عباده المؤمنين، فتقربوا بالشفاعة فيهم، وأحسن القرب أن يسأل المحب إكرام حبيبه، فإنك لو سألت شخصاً أن يزيد في إكرام ولده لارتفعت عنده، حيث تحته على إكرام محبوبه ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ . وزحزحهم عن عذاب جهنم واحفظهم من أسبابه.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ .

وأدخلهم جنات النعيم والإقامة التي وعدتهم إياها على السنة رسلك. وأدخل الصالحين من الآباء والأزواج والأولاد في جنات النعيم أيضاً ليتم سرورهم بهم، وأجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في الجنة بمنازل متجاورة.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

أي: العزيز الذي لا يغلب ولا يمتنع عليه شيء، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة.

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

هذا من تمام دعاء الملائكة، أي: احفظهم يا رب من فعل المنكرات والفواحش التي توبق أصحابها. ومن حفظته من نتائجها وعواقبها يوم القيامة، فقد لطف به ونجّيته من العقوبة. وذلك الغفران ودخول الجنان، هو الظفر العظيم الذي لا ظفر مثله.

وفي نظم استغفارهم لهم في سلك وظائفهم المفروضة عليهم من تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم، إيدان بكمال اعتنائهم به، وإشعار بوقوعه عند الله - تعالى - في موقع القبول.

قال خلف بن هشام: أتيت سليم بن عيسى لأقرأ عليه، فكنت أقرأ عليه حتى بلغت يوماً سورة غافر، فلما بلغت إلى قوله تعالى: ﴿وَدَسْتَفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]. بكى بكاء شديداً، ثم قال لي: يا خلف ألا ترى ما أعظم حق المؤمن؟ تراه نائماً على فراشه والملائكة يستغفرون له.

❖ ولما تحدث - جل وعلا - عن أحوال المؤمنين، ذكر شيئاً من أحوال الكافرين أصحاب النار، وأنها حقت عليهم كلمة العذاب، وذكر - سبحانه - أحوالهم بعد دخولهم النار من الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال تعالى:

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾.

لما قرر - سبحانه - أن الملك له وحده في ذلك اليوم، - يوم القضاء والفصل بين العباد - عدد نتائج ذلك في ثلاثة أمور، تجازى كل نفس بما عملت من خير أو شر، وهذا أول الأمور. لا يظلم أحد شيئاً، لا بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب، وهذا ثاني الأمور.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٧).

ثالث الأمور: أي: سريع حسابه، لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسب الخلائق جميعاً في وقت واحد.

قال القرطبي: كما يرزقهم في ساعة واحدة، يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة، وفي الحديث: «لا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار» [رواه الحاكم].

❖ قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو الرجل يكون جالساً مع القوم، فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها. وعنه: وهو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، فإذا رأى منهم غفلة تدسس بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره. وقد علم الله - عز وجل - منه أن يود لو نظر إلى عوراتها. قال ابن عباس: ﴿وَمَا تَخْفَى الصُّدُورُ﴾ أي: هل يزني بها لو خلا بها أو لا؟

* قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٢٠].

وهو السميع، يسمع النجوى وما أعلن، والسر وما أخفى، إن جهرت بقولك سمعه، وإن أسررت به لصاحبك سمعه، وإن أخفيتها في نفسك علمه. وهو البصير؛ يرى خوافي الأمور وإن دقت، لا يعزب عنه مثقال ذرة وإن خفيت، يرى في ظلم الليل ما تحت الثرى، ويبصر قعر البحار في الدهماء. الذي أحاط بصره بكل شيء.

* قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾.

أي: قال فرعون متكبراً متجبراً مغروراً لقومه السفهاء، اتركوني حتى أقتل لكم موسى، وليناد ربه حتى يخلصه مني، وإنما ذكره على سبيل الاستهزاء، وكأنه يقول: لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى، وغرضه أن يوهمهم بأنه إنما امتنع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه.

قال بعض المفسرين: والظاهر أن فرعون وكان قتالاً سفاكاً للدماء لأهون شيء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه يثل عرشه ويهدم ملكه، ولكنه يخاف إن همَّ بقتله أن يعاجل بالهلاك، وكان كلامه للتمويه على قومه وإيهامهم أنهم هم الذين يكفونه، وما كان يكفه إلا شدة الخوف والفرع، ثم ذكر الحامل على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشر في الأرض، فقال:

﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ۖ ﴾ .

أي: وإني أخشى أن يغير ما أنتم عليه من عبادتكم لي، إلى عباده ربه، أو أن يثير الفتن والقلاقل في بلدكم، ويكون بسببه الهرج، وخرج بهذا واعظاً لقومه .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ۖ ﴾ .

رداً على مقالة فرعون تلك المقالة الشنيعة، التي أوجبها له طغيانه، واستعان فيها بقوته واقتداره، قال موسى مستعيناً بربه؛ إني استجرت بالله واعتصمت به، ليحفظني من شر كل جبار عنيد متكبر عن الإيمان بالله، لا يصدق بالآخرة .

وإنما قال: ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ ولم يذكره باسمه ليشمل فرعون وغيره، وليكون فيه وصف لغير فرعون بذلك الوصف القبيح .

* قال تعالى: ﴿ أَتَسْبَبُ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا ۖ وَكَذَلِكَ زُينَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۖ ﴾ [غافر: ٢٧] .

وجملة: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا ﴾ معترضة للاحتراس من أن يظن (هامان) وقومه أن دعوة موسى أوهنت منه يقينه بدينه وألهته، وأنه يروم أن يبحث بحث متأمل ناظر في أدلة المعرفة، فحقق لهم أنه ما أراد بذلك إلا نفي ما ادعاه موسى بدليل الحس .

* قال تعالى: ﴿ فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أُمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۖ ﴾ [غافر: ٢٨] فوقه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴿ ۖ ﴾ [غافر: ٤٤ - ٤٥] .

في الآية دليل واضح على أن التوكل الصادق على الله وتفويض الأمور إليه، سبب للحفظ والوقاية من كل سوء . وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل .

قال ابن تيمية: العبد مأمور أن يصبر على المقدور، ويطيع المأمور، وإذا أذنب استغفر، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥].

✽ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

(البصير) تقدس اسمه: الذي أحاط بصره بكل شيء، يرى دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، ويرى جميع أعضائها الباطنة والظاهرة، وسريان القوت في أعضائها الدقيقة، ويرى نياط عروقها، ويرى ما هو أصغر وأدق من ذلك. والمسلم إذا علم أن الله - عز وجل - مطلع على أعماله بصير بها أورثه ذلك خشية وخوفاً.

✽ قال تعالى: ﴿فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهًا وَحَاقَ بِغَالٍ فِرْعَوْنُ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

﴿فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهًا﴾.

دليل على أن من فوض أمره إلى الله - عز وجل - كان الله معه.

✽ قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

قال الرازي: وهو أمر مطلق، يشمل دعاءه - سبحانه - لسؤال حاجات الدنيا وحاجات الآخرة، كما أن إطلاقه يناسب سعة فضل الله - سبحانه - وتعالى - وكرمه، وأنه لا يتعاضمه بشيء يعطيه، ولو أعطى كل واحد مسألته ما نقص من ملكه شيء. فيسأل العبد ربه جميع مصالحه دينه ودنياه، من طعام وشراب وكسوة وغيرها، وفي الحديث: «يَسْأَلُ أَحَدُكُمْ ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع».

قال عروة بن الزبير: إني أسأل الله في صلاتي حتى أسأله الملح إلى أهلي.

يقول المناوي في فيض القدير: لا طريق إلى حصول أي مطلوب من جلائل النعم ودقائقها إلا بالتطفل على موائد كرم من له الأمر. وفي الحديث عن النعمان بن البشير - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾». وتدل الآية على أن ترك العبد دعاء ربه يعد من الاستكبار، وتجنب ذلك لا شك في وجوبه.

* قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦١].

ولما كان المقصود الأول من هذه الآية الامتنان كما دل عليه قوله ﴿لَكُمْ﴾ قدمت الأرض على السماء لأن الانتفاع بها محسوس، وذكرت السماء بعدها كما يستحضر الشيء بضده.

* قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦١].
﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.

يعني: المستلذات لأنه جاء ذكر الطيبات في معرض التحليل والتحريم؛ فيراد به الحلال والحرام.

* قال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

قال ابن جرير: وكان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال: (لا إله إلا الله) أن يتبع ذلك (الحمد لله رب العالمين) تأولاً منهم هذه الآية، بأنها أمر من الله يقبل ذلك.

سورة فصلت (٤١)

هذه السورة الكريمة سورة مكية، وهي تتناول جوانب العقيدة الإسلامية، من الوحدانية، والرسالة، والبعث، والجزاء، وهي الأهداف الأساسية لسائر السور المكية التي تهتم بأركان الإيمان، وساقط الآيات الكريمات طريقة الدعوة إلى الله وأخلاق الدعوة.

سميت «سورة فصلت» لأن الله - تعالى - فصل بها الآيات، ووضع فيها الدلائل على قدرته ووحدانيته، وأقام البراهين القاطعة على وجوده وعظمته، وخلق هذا الكون البديع الذي ينطق بجلال الله وعظيم سلطانه.

ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن المنزل من عند الرحمن، بالحجج الواضحة، والبراهين الساطعة، الدالة على صدق محمد - عليه الصلاة والسلام -، فهو المعجزة الدائمة الخالدة للنبي الكريم.

* ثم قال - تعالى - في الآيات التالية مبيناً حقيقة التوحيد ووجوب ذلك:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [فصلت: ٦].

في قوله: ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾.

تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها، الوصول إلى الله، وإلى دار كرامته، فبذلك يكون عمله خالصاً صالحاً نافعاً، وبفواته يكون عمله باطلاً.

* قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا

طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٢﴾﴾.

أي: ثم قصد إلى السماء وهي دخان فخلقها سبعة شداداً وسقفاً مرفوعاً، ثم جعل لها وللأرض قانوناً وسنة وناموساً لا تحيد عنه ولا تميد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : لما احتج قوم عاد بقوله ﴿مَنْ أَشَدُّ مِثْلًا قُوَّةً﴾ قيل لهم : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١١٥]، وهكذا كل ما في المخلوقات من قوة وشدة تدل على أن الله أقوى وأشد، وما فيها من علم يدل على أن الله أعلم، وما فيها من علم وحياة يدل على أن الله أولى بالعلم والحياة، فمن تمام الحجة الاستدلال بالأثر على المؤثر.

* قال تعالى : ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعمال ويشبه عليها ويتقبلها منه، فالذي يحمله على العمل حسن الظن.

عن معمر قال : تلا الحسن ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣] فقال : إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فأحسن بالله الظن، فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساء الظن، فأساء العمل.

* قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وهذا من شأن دعاة الضلال والباطل أن يكمموا أفواه الناطقين بالحق، بما يستطيعون من تخويف وتسويل، وترهيب وترغيب، ولا يدعوا الناس يتجادلون بالحجة؛ لأنهم يوقنون أن حجة خصومهم أنهض، فإذا أعييتهم الحيل ورأوا بوارق الحق تخفق خشوا أن يعم نورها الناس، عدلوا إلى لغو الكلام ونفخوا في أبواق اللغو، لعلهم يغلبون بذلك على حجج الحق، ويغمرون الكلام الصالح باللغو.

وجمع قوله: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أصلي الكمال الإسلامي فقوله ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ مشير إلى الكمال النفساني وهو معرفة الحق للاهتداء به، ومعرفة الخير لأجل العمل به.. وأشار قوله: ﴿اسْتَقَمُوا﴾ إلى أساس الأعمال الصالحة، وهو الاستقامة على الحق.

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾.

وذلك بتعليم الجاهل، ووعظ الغافل، ومجادلة المبطلين، والدفاع عن الإسلام والملة، باللسان والبيان. والدعوة إلى الله هي وظيفة المرسلين وأتباعهم.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

أي: المنقادين لأمره، السالكين في طريقه، هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر، أي: لا أحد أحسن قولاً مما دعا إلى توحيد الله وطاعته، بقوله وفعله وحاله، وفعل الصالحات، وجعل الإسلام دينه ومذهبه.

والآية عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون مؤمناً معتقداً لدين الإسلام، عاملاً بالخير، داعياً إليه، وماهم إلا طبقة العلماء العاملين.

والاعتزاز بالدين عمل صالح ولكنه خص بالذكر لأنه أريد به غيظ الكافرين، ومثال هذا ما وقع يوم أحد حين صاح أبو سفيان: أعل هبل، فقال النبي ﷺ: «قولوا: الله أعلى وأجل»، فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

عن معمر قال: تلا الحسن: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ

صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]. قال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب الخلق إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، فهذا خليفة الله.

قال ابن القيم: تبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، ولأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أمهم.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ١٣٠].

فالملك يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد والتثيت، والتعليم وإلقاء الصواب على لسانه، ودفع عدوه عنه والاستغفار له إذ زل، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها، وتحذيره من الركون إلى الدنيا، وتقصير أمله وترغيبه فيما عند الله، فهو أنيسه في الوحدة، ووليه ومعلمه ومثبته ومسكن جأشه، ومرغبه في الخير ومحذره من الشر، يستغفر له إن أساء ويدعو له بالثبات إن أحسن، وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه في شعاره، فإن قصده عدو له بسوء وهو نائم دفعه عنه.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: لا يتساوى فعل الحسنة مع فعل السيئة، بل بينهما فرق عظيم في الجزاء وحسن العاقبة.

ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك، فقال: ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن، مثل أن تدفع الغضب بالصبر، والجهل بالحلم، والإساءة بالعفو، ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك، خصوصاً من لهم حق كبير عليك، كالأقارب والأصحاب ونحوهم، وإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة.

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

أي: فإذا فعلت ذلك صار عدوك كالصديق القريب، الخالص الصداقة في مودته ومحبته لك. وهذا أثر حسن الخلق مع من يعاديك، فكيف يكون أثره مع من يحبك.

﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٥٠).

أي: وما ينال هذه المنزلة الرفيعة، والخصلة الحميدة، وهي دفع السيئة بالحسنة، إلا من جاهد نفسه بكظم الغيظ واحتمال الأذى.

وما يصل إليها ويناله إلا ذو نصيب وافر من السعادة والخير، لكونها من خصال خواص الخلق، ومن أكبر خصال مكارم الأخلاق التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة.

❖ ولما ذكر - تعالى - ما يقابل به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان، ذكر ما يدفع به العدو الجني، فقال:

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٥١).

أي: وإن وسوس إليك الشيطان بترك ما أمرت به من الدفع بالتي هي أحسن، وأراد أن يحملك على البطش والانتقام، فاستعذ بالله من كيدته وشده، واسأله مفتقراً إليه، أن يعيذك ويعصمك منه، فإنه هو السميع لأقوال العباد، العليم بأفعالهم وأحوالهم.

❖ قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُئْوِسْ قَنُوطٌ﴾ (٥٢).

قيل: والحكمة في تصدير النعمة (إذا) والبلاء بـ (إن) هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول بخلاف البلاء، لأن رحمة الله تغلب غضبه.

❖ قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ...﴾ [فصلت: ٥٠].

في الآية كناية عن صفة من صفات النفس المستكبرة في السراء حين تعرض عن خالقها حتى تطفئ.

سورة الشورى ٤٢

سورة الشورى سورة مكية، توضح وتبين أمور العقيدة وتركز كثيراً على الوحي والرسالة، والإيمان بهما.

وسميت سورة الشورى، تنويهاً بمكانة الشورى في الإسلام، وتعليماً للمؤمنين أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الأمثل الأكمل، لما له من أثر عظيم جليل في حياة الفرد والمجتمع من تأليف القلوب وجمع الكلمة وحسن الرأي.

تبتدئ السورة بتقرير مصدر الوحي، ومصدر الرسالة، فالله رب العالمين هو الذي أنزل الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي اصطفى لرسالاته من شاء من عباده، ليخرجوا الإنس والجن من ظلمات الشرك والضلال، إلى نور الهداية والإيمان.

* قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [الشورى: ٣].

وأجراً وصفياً ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ على اسم الجلالة دون غيرهما؛ لأن لهاتين الصفتين مزيد اختصاص بالغرض المقصود من أن الله يصطفى من يشاء لرسالته.

* قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الشورى: ٥].

وتقديم التسبيح على الحمد إشارة إلى أن تنزيه الله عما لا يليق به أهم من إثبات صفات الكمال له؛ لأن التنزيه تمهيد لإدراك كمالاته - تعالى -.

وقال القرطبي: أي: تكاد كل واحدة منها تنفطر فوق التي تليها، من قول المشركين ﴿أَتَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦].

* قال تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝ عَسَقٌ ۝ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝﴾ [الشورى: ١ - ٥].

قال بعض العلماء: هيّب وعظم جل وعز في الابتداء: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾.

والطف وبشر في الانتهاء: ﴿إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].
قال مطرف: وجدنا أنصح عباد الله الملائكة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشياطين.

* قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

أم القرى: أصل القرى وهي مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها؛ لأن فيها البيت ومقام إبراهيم، والعرب تسمي أصل كل شيء أمه.

* قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

قال ابن عاشور: وجيء في فعل ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ بصيغة الماضي، وفي فعل ﴿أُنِيبُ﴾ بصيغة المضارع؛ للإشارة إلى أن توكله على الله كان سابقاً من قبل أن يظهر له تنكر قومه له، فقد صادف تنكرهم منه عبداً متوكلاً على ربه... وأما فعل ﴿أُنِيبُ﴾ فجيء فيه بصيغة المضارع للإشارة إلى تجدد الإنابة، وطلب المغفرة.

* قال تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

قال السعدي: وهذان الأصلان كثيراً ما يذكرهما الله في كتابه، لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

* ثم بين - تعالى - صفاته الجليلة القدسية، التي هي من آثار ومظاهر الربوبية، فقال:

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾.

أي: هو - جل وعلا - خالقهما ومبدعهما، بقدرته وحكمته ومشيئته، على غير مثال سابق. وأوجد لكم بقدرته من جنسكم نساء من الآدميات، لتسكنوا إليها، وتنتشر منكم الذرية، ويحصل لكم من النفع ما يحصل، وكل ذلك منه عليكم وتفضلاً.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ﴾.

أي: وخلق لكم كذلك من الإبل والبقر والضأن والمعز أصنافاً، ذكوراً وإناثاً، لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة. ويكثركم بسببه بالتوالد، ولولا أنه خلق الذكر والأنثى، لما كان ثمة تناسل ولا توالد.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

أي: ليس له - تعالى - مثل ولا نظير، لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد. والغرض: تنزيه الله - تعالى - عن مشابهة المخلوقين، والكاف هنا لتأكيد النفي، أي: ليس مثله شيء.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وهو - تعالى - السميع لأقوال وأصوات العباد، البصير بأفعالهم. وهذه الآية ونحوها، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات.

وفيها رد على المشبهة في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ .

وعلى المعطلة في قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ﴾ .

له ملك السموات والأرض، وييده - جل وعلا - مفاتيحهما وخزائنها من المطر والنبات وسائر الحاجات، فكل الخلق مفتقرون إلى الله، في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، في كل الأحوال ليس بيد أحد من الأمر شيء، ولأن مفاتيح الرزق بيده، فهو: يوسع الرزق على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وكل هذا تابع لعلمه وحكمه، فهو - جل وعلا - يعلم أحوال عباده، يعلم إذا كان الغنى خير للعبد أو الفقر، وكل ذلك بحكمته ومشيئته.

* قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ تَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

ترد كلمة ﴿وَصَّى﴾ بالتشديد في الدين كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَى إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

* قال تعالى: ﴿اللَّهُ تَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

قال السعدي - رحمه الله - : هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله - تعالى - ، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصداً وجهه، فحُسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦].

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ ﴾

[الشورى: ١٤].

قال القرطبي: بغيا من بعضهم على بعض طلباً للرياسة، فليس تفرقهم لتصور في البيان والحجج، ولكن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ﴾ [الشورى: ١٥].

ولم يقل (ولا تتبع دينهم) لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم هو دين الرسل كلهم، ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم واتخذوا دينهم لهواً ولعباً.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ تَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴾ [الشورى: ١٥].

قال في المصباح المنير: اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التي قبلها حكم برأسها. قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ

السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ﴾ [الشورى: ١٧].

قال ابن جزي: فإن قيل: وما وجه اتصال ذكر الكتاب والميزان بذكر الساعة؟ فالجواب أن الساعة يوم الجزاء والحساب، فكانه قال: اعدلوا وافعلوا الصواب قبل يوم الذي تحاسبون فيه على أعمالكم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ﴾

[الشورى: ١٩].

قال ابن عاشور: وعطف ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ على صفة ﴿لَطِيفٌ﴾ أو على جملة ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ وهو تمجيد لله - تعالى - بهاتين الصفتين،

وفيفد الاحتراس من توهم أن لطفه عن عجز أو مصانعة، فإنه قوي عزيز لا يعجز ولا يصانع، أو عن توهم أن رزقه لمن يشاء عن شح أو قلة فإنه القوي، والقوي تنتفي عنه أسباب الشح، والعزيز ينتفي عنه سبب الفقر، فرزقه لمن يشاء بما يشاء منوط بالحكمة علمها في أحوال خلقه عامة وخاصة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧] الآية.

* قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

قال محمد بن علي الكناني: اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق وتوكل عليه ورجع إليه فحينئذ يقبله ويقبل عليه.

وقيل: اللطيف الذي ينشر من عباده المناقب ويستر عليهم المثالب.

وقيل: هو الذي يقبل القليل ويبذل الجزيل.

وقيل: هو الذي جبر الكسير ويسر العسير.

وقيل: هو الذي لا يعاجل من عصاه ولا يخيب من رجاءه.

وقيل: هو الذي لا يرد سائله ويؤئس آمله.

وقيل: هو الذي يعفو عمن يهفو.

وقيل: هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

قال السعدي: ومن لطفه أن قيض بعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتى إنه - تعالى - إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا تقطع عبده عن طاعته أو تحمله على الغفلة عنه، أو على معصية صرفها عنه، قدر عليه رزقه ولهذا قال هنا: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾.

✽ ثم ساق - تعالى - آيات ذكر فيها أكبر نعمة أنعم الله بها على عباده، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها، وأزكاها وأطهرها، دين الإسلام. ثم ذكر لطفه بعباده فقال:

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ .

أي: بار رحيم بالخلق كثير الإحسان بهم، بالغ الرأفة لهم، يفيض عليهم من الخيرات والبركات مع عصيانهم، ومن لطفه بعبده المؤمن، أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله، بما يسر له من الأسباب الداعية إلى ذلك. وألطفه على عباده المؤمنين كثيرة متوالية بل هو - سبحانه - لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم؛ فهؤلاء البشر أعجز من أن يرزقوا أنفسهم شيئاً، ومن لطفه في الرزق وجهين، أحدهما: أنه جعل الرزق من الطيبات، والآخر: أنه لم يدفعه إلى العبد مرة واحدة. فهو يوسع الرزق على من يشاء، وفي تفضيل قوم بالمال حكمة، ليجتاح البعض إلى البعض، وهذا من لطفه بالعباد، وأيضاً ليمتحن الغني بالفقير، والفقير بالغني.

وهو القادر على كل ما يشاء، لا يعجزه شيء، الغالب الذي لا يُغالب ولا يدافع.

أوصى ابن قدامة - رحمه الله - أحد إخوانه قائلاً: واعلم أن من هو في البحر - على اللوح - ليس بأحوج إلى الله وإلى لطفه ممن هو في بيته بين أهله وماله، فإذا حققت هذا في قلبك فاعتمد على الله اعتماد الغريق الذي لا يعلم له سبب نجاة غير الله.

✽ قال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ

ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢].

من لطائف هذا الوجه أنه جاء على الترتيب المعهود في الحصول في الخارج، فإن الضيف أو الوافد ينزل أول قدومه في منزل إكرام، ثم يحضر إليه القرى، ثم يخالطه رب المنزل ويقترّب منه.

* ثم لما بين كونه لطيفاً بالعباد، كثير الإحسان إليهم، أشار إلى أن الإنسان ما دام في هذه الحياة فعليه أن يسعى في طلب الخيرات لأسباب السعادة، فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ

﴾ [الشورى: ٢٥].

إن هذه الآية الكريمة تفتح باب الرجاء دوماً أمام العبد، وتدعوه لينسى ماضي الغفلات، ويشترى نفسه بالطاعات مهما اقترف العبد من ذنوب، فإن باب التوبة لا يوصد في وجهه، ومهما عظم الذنب فعفو الله أعظم. وما يكاد يعلق العبد توبته حتى يرى ربه وقد عفا كل ما كسب من الآثام، بل إن عفوه ليلبغ القمة حتى لا يكتفي بمحو الآثام، وإنما يبدلها حسنات.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ

﴾ [الشورى: ٢٥].

وفي ذكر اسم العباد دون نحو: الناس أو التائبين أو غير ذلك، إيماء إلى أن الله رفيق بعباده لمقام العبودية فإن الخالق والصانع يحب صلاح مصنوعه.

* ثم يذكرهم - سبحانه - بجانب من فضله على عباده، وقد غاب عنهم الغيث، وانقطع عنهم المطر، ووقفوا عاجزين، فتداركهم برحمته، وفيض إحسانه وإنعامه، قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾.

تعدد لنعمه على العباد، أي: هو - تعالى - الذي ينزل المطر، الذي هو أنفع أنواع الرزق، وأعمها فائدة، وأكثرها مصلحة، فيغيثهم من الجذب، من بعد ما انقطع عنهم مدة ويئسوا من نزوله.

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزَّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ ﴾ [الشورى: ٢٧] .

قال القرطبي: قد يعلم من حال عبد أنه لو بسط عليه قاده ذلك إلى الفساد فيزوي عنه الدنيا مصلحة له، فليس ضيق الرزق هواناً، ولا سعته فضيلة.

وروي إن من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة وإني عليم أن لو اعطيته إياه لدخله العجب فافسده، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو فقراته لأفسده الفقر، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو اغنيته لأفسده الغنى.

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ﴾ [الشورى: ٢٨] .

وخصها بالذكر دون غيرها من النعم الدنيوية، لأنها نعمة لا يختلف الناس فيها، لأنها أصل دوام الحياة بإيجاد الغذاء الصالح للناس والدواب.

﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ ﴾ .

أي: ويبسط خيراته وبركاته على العباد، من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعاً عظيماً، ويستبشرون بذلك ويفرحون، فيعرفون بهذا الإنزال للمطر بعد القنوط مقدار رحمته لهم، ويشكرون له ما يجب الشكر عليه.

وفي الآية ذكر الغيث امتداد لطلب الغوث والنجدة من منقطعين، الموت اقرب إليهم من الحياة، ثم تأتي بعده نشر الرحمة، رحمة عامة للأرض والدواب والبشر، فتدخل على النفس الأنس والراحة والطمأنينة في الأقوات والأرزاق. فكما تتفتح الأرض وتهتز بالنبات، فالقلوب تحيا بالغيث والمطر أنساً وفرحاً، وسروراً وحبوراً.

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ .

وهو الولي الذي يتولى عباده بأنواع الإحسان والتدبير، المحمود بكل لسان على ما أسدى من النعماء.

وهو الحميد؛ مستحق للحمد والثناء بفعاله، يحمد في السراء والضراء، وحمده من أجل الأعمال، قال ﷺ: «والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السموات والأرض» [رواه مسلم].

قال ابن عاشور: ومناسبة ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: ﴿الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ دون غيرهما؛ لمناسبتهما للإغاثة؛ لأن الولي يحسن إلى مواليه، والحميد يعطي ما يحمد عليه.

* يفرق القرآن الكريم في الاستعمال بين المطر والغيث، فرى المطر في مواطن العذاب والانتقام، كقوله - تعالى - في سورتى الشعراء والنمل ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨] وقوله - تعالى - في سورة الأعراف: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [٨٤].

أما الغيث فيغلب وروده في مواطن الرحمة والخير، المقترن بالبشرى والخصب والنماء، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

وفضل الله في الآخرة بلا حساب، وبلا حدود ولا قيود، فأما رزقه لعباده في الأرض فهو مقيد محدود، فذكر - سبحانه - أن من لطفه بعباده أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة تضر بأديانهم، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ .

أي: ولو وسع الله الرزق على عباده وأغناهم، لطفوا وبغوا وأفسدوا في الأرض بالمعاصي والآثام، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، لأن الغنى يوجب الطغيان.

﴿وَلَكِنْ يُزَلُّ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ .

ولكنه - تعالى - ينزل أرزاق العباد بما تقتضيه الحكمة والمصلحة، كما جاء في الحديث القدسي: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه» [رواه الطبراني].

﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ .

أي: عالم بأحوالهم وما يصلحهم، فيعطي ويمنع، ويبسط ويقبض، حسبما يقتضيه علمه وحكمته، ولو أغناهم جميعاً لغووا، ولو أفقرهم لهلكوا.

* ثم بدأ - سبحانه - يعد جُملاً من نعمه، ويذكر بعضاً من آلائه على عباده، فقال:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ .

ومن دلائل قدرته، وعجائب حكمته، الدالة على وحدانيته، خلق السموات والأرض بهذا الشكل البديع مع عظمها، وما نشر وفرق في السموات والأرض من مخلوقات، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن، وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم وأجناسهم وأنواعهم. والدابة اسم لكل مادب. وهو - تعالى - قادر على جمع الخلائق للحشر والحساب والجزاء، في أي وقت شاء، فقدرته ومشيتته صالحان لذلك.

* قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ

كَثِيرٍ﴾ .

يخبر - سبحانه - أنه ما أصاب العباد من مصيبة من المصائب في النفس أو المال، فإنما هي بسبب معاصيهم التي اكتسبوها، وعبر بالأيدي لأن أكثر

الأفعال تزاول بها . ويصفح عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها ، ولو أخذكم بكل ما كسبتم ، لهلكتم ، وفي الحديث : « لا يصيب ابن آدم خدش عود ، أو عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، وما يعفو عنه أكثر » [رواه البيهقي] .

وفي الآية يتجلى عدل الله ، وتتجلى رحمته بهذا الإنسان الضعيف ، فكل مصيبة تصيبه لها سبب مما كسبت يده ، ولكن الله لا يؤاخذ به بكل ما يقترب ، وهو يعلم ضعفه ، وما ركب في فطرته من دوافع تغلبه في أكثر الأحيان ، فيعفو عن كثير ، رحمة به وسماحة منه .

قال علي - رضي الله عنه - : هذه الآية أرجى آية في كتاب الله - عز وجل - ، وإذا كان يكفر عني بالمصائب ويعفو عن كثير ، فما يبقى بعد كفارته وعفوه .

قيل لأبي سليمان الداراني : ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمن أساءهم ، قال : إنهم علموا أن الله إنما ابتلاهم بذنوبهم ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] . وكانت أسماء - رضي الله عنها - تخشى شؤم الذنب ووبال المعصية ، فكانت تصدع فتضع يدها على رأسها وتقول : بذنبي وما يغفر الله أكثر . * وبعد أن عدد - سبحانه - جملة من نعمه على عباده في البر ، ساق نعماً أخرى في البحر ، دلالة على وحدانيته واستحقاقه للعبادة ، قال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ .

أي : ومن علاماته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم وعنايته بعباده ، السفن الجارية السائرة في البحر ، كأنها الجبال من عظمها وضخامتها ، وهو الحافظ لها - سبحانه - في لجج البحار ، وهو الذي سخرها لعباده ، تحملهم وتحمل امتعتهم إلى بلاد بعيدة .

﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ .

أي: لو شاء - تعالى - لأسكن الرياح وأوقفها، فتبقى السفن سواكن وثوابت على ظهر البحر لا تجري، لأن من شروط مشيها وجود الريح.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣٠).

إن في تسييرها لعبراً وعظات لكل مؤمن صابر في البأساء، شاکر في الرخاء، وإنما ذكر السفن الجارية في البحر، لما فيها من عظيم دلائل القدرة، من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف، يغوص فيه الثقيل، والسفن تحمل الأجسام الثقيلة الكثيفة، ومع ذلك جعل الله - تعالى - في الماء قوة يحملها بها ويمنعها من الغوص، ثم جعل الرياح سبباً لسييرها، فإذا أراد أن ترسو أسكن الريح فلا تبرح عن مكانها.

والصبر والشكر كثيراً ما يقتربان في القرآن، الصبر على الابتلاء، والشكر على النعماء، وهما قوام النفس المؤمنة في الضراء والسراء.

﴿أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣١).

أي: وإن يشأ يجعل الرياح عواصف، فيغرق هذه السفن وأهلها، بسبب ما اقترفوا من جرائم. ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك، ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر.

قال الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - : المعاصي كلها إذا ظهرت ولم تنكر ضرت العامة، وهي من أسباب الخذلان، وتسليط الأعداء، وحصول الكثير من المصائب، كما أنها من أسباب قسوة القلب وانتكاسه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾

﴿الشورى: ٣٠﴾.

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ

يَغْفِرُونَ﴾ (٣٢).

أي: قد تخلقوا بكمال الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وإذا غضبوا على أحد من اعتدى عليهم عفوا وصفحوا، لأن

الغضب يحمل صاحبه على أن يقول غير الحق، ويفعل غير العدل، وخص
الغضب بالغفران، لأن استيلاءه على طبع الإنسان، وغلبته عليه شديدة،
فلا يغفر عند سورة الغضب إلا من شرح الله صدره، وخصه بمزية الحلم،
ومن مكارم الأخلاق التجاوز والحلم عند حصول الغضب، ولكن يشترط
أن يكون الحلم غير مخل بالمروءة ولا واجباً؛ كما إذا انتهكت حرمة الله،
فالواجب حينئذ الغضب لا الحلم، وقد جمع في اجتناب الإثم والفواحش
مع الصفح والعفو لمن ظلمهم، جمع لهم بين التوحيد والعفة والعدل، التي
هي جماع الخير كله.

✽ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣٨).

أي: أدوها بشروطها وآدابها، وحافظوا عليها في أوقاتها، ويتشاورون في
الأمر ولا يعجلون، ولا يبرمون أمراً من مهمات الدنيا والدين إلا بعد المشورة،
وهذا من أسباب الاجتماع والألفة والتواد، والتحاب وكمال العقول.
قال الحسن - رحمه الله -: ما تشاور قوم قط إلا هُودوا، وأرشد أمرهم،
ثم تلا: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

قال ابن العربي: الشورى أنفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب إلى
الصواب، وما تشاور قوم قط إلا هودوا.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٣٩).

أي: ينتقمون ممن بغى عليهم وظلمهم، لقوتهم وعزتهم ولا يستسلمون
لظلم المعتدي، وهو وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر الفضائل،
وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران فإن كلا في موضعه محمود.

وقد ذكر - سبحانه - هؤلاء المنتصرين في معرض المدح، كما ذكر
الغفران عند الغضب في معرض المدح، لأن التذلل عن بغى ليس من
صفات من جعل الله له العزة. والآيات الكريمة تحرص على صيانة النفس

من الحقد والغیظ، ومن الضعف والذل، ومن الجور والبغی، وتعلقها بالله ورضاه في كل حال، وتجعل الصبر زاد الرحلة الأصيل.

قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق.

قال بعض السلف في هذه الآية: كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفواً، فمدحهم على عفو بعد قدرة، لا عفو ذل وعجز ومهانة، وهذا هو الكمال الذي مدح - سبحانه - به نفسه في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

وما زاد الله بعفو إلا عزاً، ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو، ولهذا ما انتقم رسول الله ﷺ قط.

جاء في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - أن ابنه صالحاً قال: سمعت أبي يقول: لقد جعلت الميت في حل من ضربه إياي، ثم قال: مررت بهذه الآية: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ فنظرت في تفسيرها، فإذا هو ما أخبرنا هاشم بن القاسم، أخبرنا المبارك بن فضالة قال: أخبرني من سمع الحسن يقول: إذا كان يوم القيامة جثت الأمم كلها بين يدي الله رب العالمين، ثم نوذي أن لا يقوم إلا من أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا. قال: أي ابن حنبل: فجعلت الميت في حل، ثم قال: وما على رجل أن لا يعذب الله بسببه أحداً؟!

* ثم ذكر - تعالى -، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل، وفضل، وظلم، فقال:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾.

أي: وجزاء العدوان أن ينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي عليه بالزيادة، والاقتصار على المساواة، وهذه مرتبة العدل، ولما ذكر أنهم ينتصرون على من بغى عليهم، أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون

مقيداً بالمثل دون زيادة، وإنما سمي ذلك سيئة لأنها تسوء من تنزل به.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ .

فمن عفا عن الظالم، وأصلح بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء، فإن الله يشبه على ذلك الأجر الجزيل، وشرط الله في العفو، الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأموراً به، وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه فليعف عنهم.

وهذه هي المنزلة الثانية: العفو والإصلاح عن المسيء، وقد أبهم - سبحانه - الأجر تعظيماً لشأنه، وتنبهها على جلالته.

قال ابن كثير: شرع - تعالى - العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، فمن عفا فإن الله لا يضيع له ذلك، كما جاء في الحديث: «وما زاد الله - تعالى - عبداً بعفو إلا عزاً» [رواه مسلم].

كان الحسن يدعو ذات ليلة: اللهم اعف عمن ظلمني، فأكثر في ذلك؛ فقال له رجل: يا أبا سعيد، لقد سمعتك الليلة تدعو لمن ظلمك! حتى تمنيت أن أكون فيمن ظلمك، فما دعائك إلى ذلك؟ قال: قوله تعالى:

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ .

هذه هي المرتبة الثالثة. أي: إنه - جل وعلا - يبغض البادئين بالظلم، والمعتدين في الانتقام، ويقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ .

هذا يدل على أن العفو عن الظلمة أفضل من الانتصار، الآية ضمن الأجر في العفو، وذكر الانتصار بلفظ الإباحة في قوله: ﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ .

قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ ۚ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤١].

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أولئك الظالمون الباغون لهم عذاب مؤلم موجه بسبب ظلمهم وبغيهم، ثم رغب - سبحانه - في الصبر، والعفو، فقال:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

ولمن صبر على ما يناله من الأذى، وغفر لمن ظلمه، وترك الانتصار لوجه الله - تعالى -، فإن ذل الصبر والتجاوز من الأمور الحميدة التي أمر الله بها وحث وأكد عليها، اهتماماً به وترغيباً فيه، وللإشارة إلى أنه محمود العاقبة لا يوفق إليها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

* ولما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها، أخبر - سبحانه - عن سعة ملكه - تعالى -، ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، وإنه يُقسَّم النعمة والبلاء كيف أراد، ويهب لعباده من الأولاد ما يشاء فيخص بعضاً بالإناث، وبعضاً بالذكور، وبعضاً بالصنفين جميعاً، ويجعل البعض عقيماً، والذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان، وهي قريبة من نفس الإنسان، ولهذا ذكرها - سبحانه - مظهراً قدرته ومنته، قال تعالى:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ﴾.

أي: هو - تعالى - المالك للكون كله، علوية وسفلية، والمتصرف فيه بالخلق والإيجاد، كيفما شاء، والمقصود من الآية أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه، وأن يعلم أن الكل ملك لله وحده، وبيده مقاليد التصرف في السموات والأرض، يعطي ويمنع، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝١١﴾ .

أي: يخصص من شاء من عباده بالإناث دون البنين. ويخصص من شاء بالذكور دون الإناث. قيل من يُمِّن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر، لأن الله - تعالى - بدأ بالإناث.

قال ابن القيم: بدأ بذكر الإناث، فقدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات؛ حتى كانوا يثدونهن، أي: هذا النوع المؤخر عنكم، مقدم عندي في الذكر - سبحانه - الإناث، وعرف الذكور؛ فجبر نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر التأخير بالتعريف فإن التعريف تنويه.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا ۝١٢﴾ .

أي: ويجعلهم إن شاء من النوعين، فيجمع للإنسان بين البنين والبنات.

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۝١٣﴾ .

ويجعل بعض الرجال عقيماً فلا يولد له، وبعض النساء عقيماً فلا تلد، والمعنى يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة، على مقتضى المشيئة، فيهب لبعض إما صنفًا واحدًا من ذكر أو أنثى، أو الصنفين جمعاً، ويُعقم آخرين.

قيل: هذا في الأنبياء - عليهم السلام - فلو ط لم يولد له ولد وله ابنتان، وإبراهيم - عليه السلام - لم يولد له أنثى ورزق الذكور، ومحمد له بنون وبنات، ويحيى وعيسى - عليهما السلام - لم يولد لهما، وهذا على وجه التمثيل، والآية عامة في حق كافة الناس.

والمراد من الآية: بيان نفاذ قدرته - تعالى - في الكائنات كيف يشاء، ولهذا قال:

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ .

أي: مبالغ في العلم والقدرة، يفعل ما فيه مصلحة وحكمة، وقد جعل - تعالى - الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه النوعين الذكور والإناث، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد، فسبحان العليم القدير.

* قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١].

استعملت الآية لفظ (البشر) بدلاً عن (الإنسان) للتأكيد على بشرية الأنبياء، والتبشير بالخير وحسن الهيئة.

* قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

قال القرطبي: هو القرآن وسماه روحاً لأن فيه حياة من موت الجهل. وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض.

* قال تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا آلِكَتَّبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

ذكر - سبحانه - صفة رسوله قبل أن يوحى إليه، فقال: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا آلِكَتَّبُ﴾ أي: أي شيء هو لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وذلك أدخل في الإعجاز وأدل على صحة ثبوته.

سورة الزخرف ٤٣

سورة الزخرف سورة مكية، تناولت أسس العقيدة الإسلامية، وأصول الإيمان بالوحدانية، وبالرسالة، وبالبعث والجزاء، كشأن سائر السور المكية.

وسميت سورة الزخرف، لما فيها من التمثيل الرائع - لمتاع الدنيا الزائل وبريقها الخادع - بالزخرف اللامع، الذي ينخدع به الكثيرون، مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولهذا يعطيها الله للأبرار والفجار، وينالها الأخيار والأشرار، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين، فالدنيا دار الفناء، والآخرة دار البقاء.

وعرضت السورة لإثبات مصدر الوحي، وصدق هذا القرآن، الذي أنزله الله على النبي الأمي بأفصح لسان، وأنصع بيان، ليكون معجزة واضحة للنبي العربي، وتعرضت الآيات إلى جوانب في الدعوة إلى الله في بدايتها وما تلاقيه من مصاعب وعقبات، ومن جدال واعتراضات، وفي السورة تصحيح لانحرافات عقدية، ورد للنفوس إلى فطرتها، وإظهار قدرة الله - تعالى - ودلائل وحدانيته.

* قال تعالى: ﴿حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ۝﴾.

بين - سبحانه - شرف القرآن في الملاء الأعلى، ليشرفه ويعظمه أهل الأرض، أي: وإن القرآن في اللوح المحفوظ عندنا ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل. قال قتادة: لو أن هذا القرآن رفع حين رده الأوائل لهلكوا، ولكن الله برحمته كرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة.

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝﴾ [الزخرف: ١٢].

انتقل من الاستدلال والامتنان بخلق الأرض إلى الاستدلال والامتنان بخلق وسائل العيش فيها، وهو ماء المطر الذي تنبت الأرض ما يصلح لاقتيات الناس.

قال ابن عباس: أي لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم، بل هو بقدر، لا طوفان مغرق ولا قاصر عن الحاجة، حتى يكون معاشاً لكم ولأنعامكم.

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

قدم الفلك على الأنعام لأن إظهار القدرة يتضح في الفلك أكثر، فالفلك تجري على الماء، والجريان على الماء أعظم إظهاراً لقدرة الله من مشي الأنعام على أرض مستقرة.

* لما ذكر الباري نعمته على العباد بتيسير الركوب للأنعام والفلك، قال: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣ - ١٤].

فلما كان الركوب مباشرة أمر محظور، واتصالاً بأسباب من أسباب التلف، أمر ألا ينسى عند اتصاله به يومه، وأنه هالك لا محالة، فمنقلب إلى الله - عز وجل - غير منفلت من قضائه، ولا يدع ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعداً للقاء الله بإصلاحه من نفسه.

وقد ذكر في الآية أركان الشكر الثلاثة، وهي: الاعتراف والتذكر لنعمة الله، والتحدث بها والثناء على الله بها، والاستعانة بها على عبادته.

* ثم بين أنه - سبحانه - هو الذي قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٤].

أي: راجعون؛ وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من السير، ويتذكر منه المسافرة العظمى التي هي الانقلاب إلى الله - تعالى -، فيبني أموره في مسيره ذلك على تلك الملاحظة ولا يأتي بما ينافيها، ومن ضرورة ذلك أن يكون ركوبه لأمر مشروع، وفيه إشارة إلى أن الركوب خطيرة فلا ينبغي أن يغفل فيه عن تذكر الآخرة.

* قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

نحن بحكمتنا جعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً، وفاوتنا بينهم في الأموال والأرزاق، وإذا كان أمر المعيشة - وهو تافه حقير - لم نتركه لهم بل تولينا قسمته بأنفسنا، فكيف نترك أمر النبوة - وهو عظيم وخطير - لأهوائهم ومشترياتهم.

وفي قوله ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ ترهيد في الإكباب على طلب الدنيا، وعون على التوكل على الله، ومن قسمة الله - عز وجل - أنك تلقى ضعيف القوة، قليل الحيلة، عبي اللسان؛ وهو موسع عليه في الرزق، وتلقى شديد الحيلة، بسيط اللسان، وهو مقتر عليه في الرزق.

قال حاتم الأصم: رأيت الناس يذم بعضهم بعضاً، ويغتاب بعضهم بعضاً، فوجدت أصل ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم، فتأملت في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فعلمت أن القسمة كانت من الله في الأزل، فما حسدت أحداً، ورضيت بقسمة الله.

* قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

أي: فاضلنا بين الخلق في الرزق والعيش، وجعلناهم مراتب: هذا غني، وهذا فقير، وهذا متوسط الحال. ليكون كل منهم مسخراً للآخر، ويخدم بعضهم بعضاً، لينتظم أمر الحياة، ولو كانوا سواء في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحداً، فيفضي إلى خراب العالم وفساد نظامه.

﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا تَجْمَعُونَ﴾ .

أي : وإنعامه - تعالى - عليك بالنبوة، خير مما يجمع الناس من حطام الدنيا الفاني من الأموال والمتاع .

✽ قال تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

في الآيات درس جليل بأن الغنى ليس مقياساً لكرامة المرء عند ربه، فرب طاغوت يبعثر الذهب، ورب نبي لم يكن يجد الكفاف، ورب عاص يتمرغ في النعيم، ونقي لا يجد ما يسد رمقه، ومن هنا فقد جاءت خاتمة الآية مبينة له، وأن كل ذلك زخرف الحياة الدنيا وبهجتها : ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف : ٣٥] . قال الحسن : والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها وما فعل ذلك ! فكيف لو فعل ؟!

وقد سيقّت الآيات لبيان حقارة الدنيا وقلة شأنها، وأنها من الهوان بحيث لولا الفتنة لخصُّ بها الكافرين، فجعل بيوت الكفرة ودرجها وسقوفها من ذهب وفضة، وأعطى الكافر كل ذلك النعيم في الدنيا لعدم حظه في الآخرة . ولكنه - تعالى - رحيم بالعباد فلذلك أغنى بعض الكفار وأفقر بعضهم، وأغنى بعض المؤمنين وأفقر بعضهم .

قال الزمخشري : فإن قلت لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليه التوسعة عليهم، من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟ قلت : التوسعة عليهم مفسدة أيضاً لما تؤدي إليها من دخول الناس في الإسلام لأجل الدنيا، وذلك من دين المنافقين، فكان الحكمة فيما دبر، حيث جعل الفريقين أغنياء وفقراء، وغلب الفقر على الغنى .

✽ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

قال: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ ولم يقل: بيننا، لأنه أراد قمة البراءة، فيسعى حثيثاً للتخلص منه، ففصل حتى الألفاظ.

✽ قال تعالى: ﴿وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

لما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبتة، حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية، أخبر الله - سبحانه - أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة.

✽ قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠].

ومن بديع معنى الآية أن الله وصف حال إعراضهم عن الذكر بالعشا ﴿وَمَنْ يَعِشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

وهو النظر الذي لا يتبين الشيء المنظور إليه، ثم وصفهم هنا بالصُّمَّ العمي، إشارة إلى أن التمحل للضلال ومحاولة تأييده ينقلب بصاحبه إلى أشد الضلال، وهو معنى قول النبي ﷺ: «لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

✽ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾.

الذكر هنا بمنى الشرف، وقومُ النبي ﷺ هم قريش وسائر العرب، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة، ويكفيك أن فتحوا مشارق الدنيا ومغاربها، وصارت فيهم الخلافة والملك.

وهذا القرآن شرف لمن تبعه وسار على نهجه كما قال - تعالى - في سورة

الأنبياء: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥] .

وكل ما جاء في القرآن من الأسف على معناه الحقيقي، كقوله تعالى :
﴿ وَقَالَ يَتَّأَسَفُ عَلَى يَوْسُفَ ﴾ [يوسف: ٨٤] من التأسف؛ إلا في هذه الآية:
﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي أغضبونا .

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾

[الزخرف: ٦٤] .

وتقديم نفسه على قومه في قوله : ﴿ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ لقصد سد ذرائع الغلو في تقديس عيسى وذلك من معجزاته ، لأنه الله أعلم أنه ستغلو فيه فرق من اتباعه فيزعمون بنوته من الله على الحقيقة .

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف: ٧١] .

جمع - عز وجل - بهاتين اللفظين ما لو اجتمع الخلق كلهم على وصف ما فيها على التفصيل لم يخرجوا عنه .

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [٧١] وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٧٢] لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [٧٣] [الزخرف: ٨١ - ٨٢] .

قال ابن كثير: لما ذكر الطعام والشراب، ذكر بعده الفاكهة لتمام النعمة والغبطة .

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ

بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٦] .

قال المفسرون: إلا من شهد بـ لا إله إلا الله ، ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : معنى ما شهدوا به في قلوبهم وألسنتهم .

سورة الدخان ٤٤

سورة الدخان سورة مكية، تتناول أهداف السور المكية من التوحيد، والرسالة، والبعث، لترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الإيمان.

سميت السورة بسورة الدخان، لأن الله - تعالى - جعل الدخان آية لتخويف الكفار، حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ، وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكوا، ثم نجاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ.

أشبه افتتاح هذه السورة فاتحة سورة الزخرف من التنويه بشأن القرآن العظيم وشرفه وشرف ابتداء نزوله، فقد تحدثت عن إنزال الله - تعالى - له في ليلة مباركة من أفضل ليالي العمر هي ليلة القدر، وبينت شرف تلك الليلة العظيمة التي تفصل وتدبر فيها أمور الخلق، والتي اختارها الله لإنزال خاتمة الكتب السماوية على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

✽ قال تعالى:

﴿حَمْدٌ ۝ وَلَكِنَّ الْكُتُبَ الْمُتِينَ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ۝ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ

﴾ [الدخان: ٣].

أقسم الله - سبحانه وتعالى - بهذا القرآن العظيم الذي أنزله الله في ليلة مباركة هي ليلة القدر من ليالي شهر رمضان المبارك من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ۝﴾ [الدخان: ٣].

في كثرة خيراتها، مباركة في سعة فوائدها ومبراتها، ومن بركتها: أنها تفوق ليالي الدهر، وأن من قامها إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه. ووصف الليلة (بالبركة) لما نزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب.

عن سعيد بن جبير: يؤذن للحجاج في ليلة القدر، فيكتبون بأسمائهم، وأسماء آبائهم، فلا يغادر منهم أحد، ولا يزداد منهم ولا ينقص منهم. وعنه أيضاً في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى.

❖ قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

في قوله ﴿حَكِيمٍ﴾ ليتبين للمؤمن أن أوامره محكمة متقنة، ليس فيها خلل ولا نقص ولا سفه ولا باطل، ذلك تقدير العزيز العليم.

❖ قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩].

قال سعيد بن جبير: لم تبك عليهم السماء؛ لأنهم لم يكونوا يرفع لهم فيها عمل صالح، ولم تبك عليهم الأرض؛ لأنهم لم يكونوا يعملون فيها بعمل صالح.

وقال علي وابن عباس - رضي الله عنهما -: إنه يبكي عليه مصلاه من الأرض - يعني المؤمن - ومصعد عمله من السماء.

❖ قال تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣].

وصف نعيم نفوسهم بعضهم مع بعض في مجالسهم ومحادثاتهم بقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ لأن الحديث مع الأصحاب والأحبة نعيم للنفس، فأغنى قوله ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ عن ذكر اجتماعهم وتحابهم وحديث بعضهم مع بعض، وأن ذلك شأنهم أجمعين، بأن ذكر ما يستلزم ذلك وهو صيغة متقابلين.

والتقابل: يعني صفاء القلوب، ومحبة النظر إلى من يتحدث إليه، والإقبال عليه، والاستئناس برؤيته وحديثه.

❖ قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

﴿مُتَقَابِلُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨ - ٥٩].

وفي هذه الخاتمة رد العجز عن الصدر، إذ كان صدر السورة فيه ذكر إنزال الكتاب المبين، وأنه رحمة من الله بواسطة رسالة محمد ﷺ، وكان في صدرها الإنذار بارتقاب يوم تأتي السماء بدخان مبين وذكر البطشة الكبرى.

فكانت خاتمة السورة خاتمة عزيزة المنال، اشتملت على حسن براعة المقطع، وبديع الإيجاز.

سورة الجاثية ٤٥

سورة الجاثية سورة مكية، تناولت العقيدة الإسلامية في إطارها الواسع: الإيمان بالله - تعالى - ووحدانيته، والإيمان بالقرآن ونبوة محمد - عليه السلام -، والإيمان بالآخرة والبعث والجزاء، ويكاد يكون المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة هو إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين. سميت سورة الجاثية، للأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب، حيث تجثوا الخلائق من الفزع على الركب في انتظار الحساب، ويغشى الناس من الأهوال ما لا يخطر على البال.

تبتدئ السورة الكريمة بالحديث عن القرآن ومصدره، وهو الله العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه، الذي أنزل كتابه المجيد رحمة بعباده، ليكون نبراساً مضيئاً ينير للبشرية طريق السعادة والخير.

ثم ذكرت الآيات الكونية المنبثة في هذا العالم الفسيح، ففي السموات البديعة آيات، وفي الأرض الفسيحة آيات، وفي خلق البشر وسائر الأنعام والمخلوقات آيات، وفي تعاقب الليل والنهار وتسخير الرياح والأمطار آيات، وكلها شواهد ناطقة بعظمة الله وجلاله، وقدرته ووحدانيته.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ ءَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝١٦ وَأَخْتَلَفُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٧﴾ [الجاثية: ٣-٥].

قال الشنقيطي: ذكر - جل وعلا - في هذه الآيات الكريمة من أول سورة الجاثية ستة براهين من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده - تعالى -.

الأول منها: خلقه السماوات والأرض.

الثاني: خلقه الناس.

الثالث: خلقه الدواب.

الرابع: اختلاف الليل والنهار.

الخامس: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به.

السادس: تصريف الرياح.

وذكر أن هذه الآيات والبراهين إنما ينتفع بها المؤمنون المؤقنون الذين يعقلون عن الله حججه وآياته، فكانهم هم المختصون بها دون غيرهم.

ولذا قال: ﴿لَا آيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١)، ثم قال: ﴿آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٢)، ثم قال: ﴿آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٣).

* قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٤) [الجاثية: ١٦].

كل ما جاء في القرآن من تفضيل بني إسرائيل - إنما يراد به ذكر أحوال سابقة، لأنهم في وقت نزول القرآن كفروا به وكذبوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا

جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥) [البقرة: ٨٩].

ومعلوم أن الله لم يذكر لهم في القرآن فضلاً إلا ما يراد به أنه كان في زمنهم السابق، لا في وقت نزول القرآن.

* قال - تعالى - في آيات السورة: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِّمَّنْهُمْ سَاءَ مَا تَحْكُمُونَ﴾ (٦) [الجاثية: ٢١].

قال بشير: بت عند الربيع بن خيثم ذات ليلة، فقام يصلي فمر بهذه الآية، فمكث ليلة حتى أصبح، لم يعدها، ببكاء شديد.

وقال إبراهيم بن الأشعث: كثيراً ما رأيت الفضيل بن عياض يردد من أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها، ثم يقول: ليت شعري من أي الفريقين أنت؟! فكانت هذه الآية تسمى: مبكاة العابدين.

* قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢].

مناسبتها لما قبلها: أن خلق السماوات والأرض تبين كونه في تمام الإتيان والنظام بحيث إن دلائل إرادة العدل في تصاريدها قائمة، وما أودعه الخالق في المخلوقات من القوى مناسب لتحصيل ذلك النظام الذي فيه صلاحهم، فإذا استعملوها في الإفساد والإساءة كان من إتمام إقامة النظام أن يعاقبوا على تلك الإساءة، والمشاهد أن المسيء كثير ما عكف على إساءته حتى الممات، فلو لم يكن الجزاء بعد الموت حصل اختلال في نظام خلق المخلوقات وخلق القوى الصادر عنها الإحسان والإساءة.

* قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

الغشاوة: هي غطاء العين، وهذا الغطاء سري إليها من غطاء القلب، فإن ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه.

قال ابن عباس: ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه.

* قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٦ - ٣٧].

قال السعدي: والعبادة مبنية على ركنين: محبة الله والذل له، وهما ناشئتان عن العلم بمحامد الله وجلاله وكبريائه.

الآيتان أجمل تعليق لما بدأت به السورة من الآيات والنعم، فالآيات تنطق بكبرياء الله وعزته وحكمته، والنعم تتطلب شكر هذا الرب المنعم.

سورة الأحقاف ٤٦

سورة الأحقاف سورة مكية، أثنى الله - عز وجل - فيها على كتابه العزيز وأظهر وبين تعظيمه له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره، والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه، والعمل بإحكامه، والالتزام بآدابه، وقد ورد في السورة ما يلقيه الرسل من عناد الكافرين وإعراضهم، وختمت بحث لرسول الله ﷺ أن يصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل.

✽ وقد افتتحت سورة الأحقاف مثل سورة الجاثية بما يشير إلى إعجاز القرآن للاستلال على أنه نزل من عند الله. ولما ذكر - تعالى - في الآية الأولى التوحيد له، وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، فمن لطف الله - عز وجل - وعنايته ساق آيات عظيمة وصى فيها الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان، براً بهما في حياتهما وبعد مماتهما، فقال سبحانه:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ .

أي: أمرنا الإنسان أمراً جازماً مؤكداً بالإحسان إلى الوالدين والحنو عليهما، أي: أحسن إليهم إحساناً، والإحسان أعلى مراتب الإيمان، وكما

قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣] ثم بين السبب، فقال:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ .

أي: حملته بكره ومشقة، لما تجده من تعب ووحم وغثيان، ووضعته بكره ومشقة من الطلق وشدته، وقاست بسبب ذلك آلاماً وتعباً.

﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ .

أي: ومدة حملة ورضاعه عامان ونصف، فهي لا تزال تعاني التعب والمشقة طيلة هذه المدة، فقد قاست بسببه في حال حملة مشقة وتعباً، من وحم، وغثيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ووضعته بمشقة أيضاً من الطلق وشدته، وفي ذكر المشاق التي تتحملها الأم دون الأب، دليل على أن حقها على ولدها أعظم من حق الأب.

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف: ١٥].

أي: حتى إذا عاش هذا الطفل وبلغ كمال قوته وعقله، وشب وارتجل، واستمر في الشباب والقوة حتى بلغ أربعين سنة، وهو نهاية اكتمال العقل والرشد، وفيها تكتمل جميع القوى والطاقات. وإنما حصل زمان بلوغه الأشد لأنه زمن يكثُر فيه الكلف بالسعي للرزق إذ يكون له فيه زوجة وأبناء، وتكثر تكاليف المرأة فيكون لها زوج وبيت وأبناء، فيكونان مظنة أن تشغلهمما التكاليف من تعهد والديهما والإحسان إليهما، فنبها بأن لا يفترا عن الإحسان إلى الوالدين. وفي هذه السن للأبناء يكون والديهما حينها بلغا من العمر عتياً فهما إلى العون أحوج وإلى الإعانة أقرب، وإلى الإحسان أولى وأحرى. واعتبر الرازي مدة العمر منقسمة إلى ثلاثة أقسام:

المرتبة الأولى: سن النشوء والنماء.

والمرتبة الثانية: سن الوقوف وهو سن الشباب.

والمرتبة الثالثة: وهي الأخيرة، سن النقصان وهو على قسمين: النقصان الخفي، وهو سن الكهولة، والنقصان الظاهر وهو سن الشيخوخة.

✽ قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ

أي: قال بلسان الشاكر العارف لنعمة ربه: رب وفقني وألهمني شكر نعمتك التي أنعمت بها عليّ وعلى والدي حتى ربياني صغيراً.
وفي إدماج تلقين الدعاء بإصلاح ذريته مع أن سياق الكلام في الإحسان إلى الوالدين، إيماء إلى أن المرء يلقي من إحسان أبنائه إليه مثلما لقي أبواه من إحسانه إليهما، ولأن دعوة الأب لابنه مرجوة الإجابة.

﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [الأحقاف: ١٥].

قال السعدي: والنعم على الوالدين نعم على أولادهم وذريتهم، لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها خصوصاً نعم الدين، فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلَحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾.

أي: ووفقني لكل عمل صالح يرضيك عني. واجعل ذريتي ونسلي صالحين. وهي رغبة قلب المؤمن أن يتصل عمله الصالح في ذريته، وأن يؤنس قلبه شعوره بأن في عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه.
وقد سئل الله ثلاثة أمور:

الأول: أن يوفقه الله للشكر على النعمة.

والثاني: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله.

والثالث: أن يصلح له في ذريته، وقدم بين يدي دعائه التوبة الخالصة والإسلام، فقال:

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

أي: إني يا رب تبت إليك من جميع الذنوب والمعاصي، وإني من المستمسكين بالإسلام، وفي الآية إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله - عز وجل - ويعزم عليها.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾.

أولئك الموصوفون بما ذكر، نتقبل منهم طاعاتهم، ونجازيهم على أعمالهم بأفضلها. وفي هذا إيماء إلى أن هذا الدعاء مرجو الإجابة، لأن الله تولى تلقينه مثل هذا الدعاء الذي في سورة الفاتحة ودعاء آخر سورة البقرة.

﴿وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ

﴾.

ونصفح عن خطيئاتهم وزلاتهم، في جملة أصحاب الجنة الذين نكرمهم بالعفو والغفران. بذلك الوعد الصادق الذي وعدناهم به على السنة الرسل، بأن نتقبل من محسنهم ونتجاوز عن سيئهم.

عن مالك بن مغول قال: شكى أبو معشر أحد أبنائه إلى طلحة بن مطرف، فقال: استعن عليه بهذه الآية: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف: ١٥].

❖ ولأهمية بر الوالدين وعظم حقها أوصى الله بالوالدين في سبع آيات:

الأولى: في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

الثانية: في سورة النساء: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

الثالثة: في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

الرابعة: في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

الخامسة: في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾

[العنكبوت: ٨].

السادسة: في سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [لقمان: ١٤].

السابعة: في سورة الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾

[الأحقاف: ١٥].

* قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فالمؤمن لا يذهب طيباته في الدنيا، بل إنه يترك بعض طيباته للآخرة، وأما الكافر فإنه لا يؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلها في الدنيا.

أتى عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - وهو من العشرة المبشرين بالجنة، بطعام - وكان صائماً -، فقال: قُتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفن في بردة؛ إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وقتل حمزة وهو خير مني، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بسط، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، وجعل يبكي حتى ترك الطعام. [رواه البخاري].

وذكر أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يقول: لو شئت كنت أطيبكم طعاماً، وألينكم لباساً، ولكنني استبقي طيباتي.

وليس في الآية ما يقتضي منع المسلم من تناول الطيبات في الدنيا، إذا توخى حلالها وعمل بواجبه الديني فيما عدا ذلك، وإن كان الزهد في الاعتناء بذلك أرفع درجة وهي درجة رسول الله، وخاصة أصحابه.

قال القرطبي: والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه: على المرء أن يأكل ما وجد طيباً كان أو قفاراً (وهو الطعام بلا آدم) ولا يتكلف الطيب ويتخذ عادة.

وقد كان النبي ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتمد عليه أصلاً ولا يجعله ديدنه.

❖ قال تعالى: ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَن لَّا تُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [الأحقاف: ٣١ - ٣٢].

قال ابن كثير: دعوا قومهم بالترغيب والترهيب، ولهذا نجح في كثير منهم، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً.

قال قوم: ما في الرجاء لرحمة الله آية أقوى من هذه الآية.

❖ قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۝﴾ [الأحقاف: ٢٩].

ووقعها (قصة الجن) إثر قصة هود وقومه وإهلاك من أهلك من أهل القرى، لأن أولئك كانوا ذوي شدة وقوة كما حكي عنهم في غير آية، والجن توصف بذلك أيضاً كما قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝﴾ [النمل: ٣٩]، ووصفهم بذلك معروف بين العرب فناسب ما قبلها.

❖ قال - تعالى - مخاطباً نبيه محمداً ومسلماً له: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَٰؤُا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَبَلَّغْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ۝﴾ [الأحقاف: ٣٥].

سورة محمد ٤٧

سورة محمد من السور المدنية، وتسمى سورة القتال، لأنها تتناول أحكام القتال، والأسرى، والغنائم، وأحوال المنافقين، وغالب آياتها تتحدث عن موضوع الجهاد في سبيل الله.

ابتدأت السورة الكريمة بدءاً عجيباً، بإعلان حرب سافرة على الكفار أعداء الله، وأعداء رسوله، الذين حاربوا الإسلام، وكذبوا الرسول ﷺ، ووقفوا في وجه محمد ﷺ، ليصدوا الناس عن دين الله.

ثم بينت طريق العزة والنصر، ووضعت الشروط لنصرة الله لعباده المؤمنين، وذلك بالتمسك بشريعته، ونصرة دينه.

لا يخفى وجه ارتباط أول سورة محمد بقوله في آخر الأحقاف: ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، واتصاله وتلاحمه، بحيث أنه لو أسقطت البسملة منه، لكان متصلاً اتصالاً لا تنافر فيه كالأية الواحدة، أخذاً بعضه بعنق بعض.

* قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾

[محمد: ١].

قال قتادة: من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحاً عمله بعمل سيء، فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فإن الخير ينسخ الشر، وإن الشر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال خواتيمها.

* قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ [محمد: ٦].

قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً.

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: هم أعرف بمنزلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم.

* قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وبدئ بالماء لأنه في الدنيا مما لا يستغنى عنه، ثم باللبن إذ كان يجري مجرى المعظم لكثير من العرب في كثير من أوقاتهم، ثم بالخمير لأنه إذا حصل الري والمطعم تشوفت النفس إلى ما يتلذذ به، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعم فهو متأخر بالرتب.

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

بين حال المهتدين فقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ بالإيمان والانقياد، واتباع ما يرضي الله ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ شكراً منه - تعالى - لهم على ذلك.

﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي: وفقهم للخير، وحفظهم من الشر فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع والعمل الصالح.

* قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: فالتوحيد يذهب أصل الشرك، والاستغفار يحو فروعه، فأبلغ الشاء قول: لا إله إلا الله. وأبلغ الدعاء قول: استغفر الله.

وفي الآية أمر بالعلم قبل الأمر بالعمل في قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾

قال ابن عيينة لما سئل عن فضل العلم: ألم تسمع قوله حين بدأ به ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾.

قال السعدي: وإذا كان العبد مأموراً بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات فمن لوازم ذلك أن يكون ناصحاً لهم، يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويحثهم على الخير وينهاهم عن الشر،

ويعفو عن معايهم ومساوئهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعاً تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعادة والنفاق، فإنه بالائتلاف تقل الذنوب، وبالاقتراق تكثر الشرور والمعاصي.

* قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

هذا خطاب للمنافقين المذكورين خرج من الغيبة إلى الخطاب، ليكون أبلغ في التوبيخ، والمعنى: هل يتوقع منك إلا فساد في الأرض وقطع الأرحام إن توليتم.

قال النبي ﷺ: «ما من ذي رحم يأتي رحمه فيسأله فضلاً أعطاه الله إياه فيبخل عليه إلا أخرج له يوم القيامة من جهنم حية يقال لها: شجاع، يتلمظ: (تتبع بلسانه)، فيطوق به» [السلسلة الصحيحة].

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٢٠].

ظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره على وجهه، لكنه يبدو في الوجه بدواً خفياً يراه الله، ثم يقوى حتى يصير صفة في الوجه يراها أصحاب الفراسة، ثم يقوى حتى يظهر لجمهور الناس، ثم يقوى حتى يمسخ الوجه على طبيعة الحيوان الذي هو على خلقه من قرد أو خنزير، كما جرى على كثير من الأمم قبلنا ويجري على بعض هذه الأمة، كما وعد به الصادق الذي لا ينطق عن الهوى.

قال عثمان بن عفان - رضي الله عنه -: ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وقد قال - تعالى - عن المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [محمد: ٢٠] ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

وقال ابن تيمية: عند قوله - تعالى - عن المنافقين: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فهذا مقسم عليه، محقق لا شرط فيه، وذلك أن ظهور ما في

قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره في وجهه، لكنه يبدو في الوجه بدوا خفياً يعلمه الله .

* قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ إِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٦] .

قال قتادة: قد علم الله - تعالى - أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان . وصدق، فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه .

* قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١] .

كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى ويردد: ﴿ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ، وقال: اللهم لا تبتلينا، فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا .

سورة الفتح ٤٨

سورة الفتح سورة مدنية، سميت «سورة الفتح» لأن الله - عز وجل - بشر المؤمنين بالفتح المبين، وهو فتح مكة، وآيات السورة تُعنى بجانب التشريع شأن السور المدنية التي تعالج الأسس التشريعية في المعاملات، والعبادات، والأخلاق، والتوجيه.

وذكر - تعالى - في السورة الكريمة «صلح الحديبية» الذي تم بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ست من الهجرة، والذي كان بداية للفتح الأعظم «فتح مكة»، وبه تم العز والنصر والتمكين للمؤمنين، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

وقد نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية، ولما نزلت هذه السورة قال - صلوات الله عليه - : «لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة هي أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾» [الفتح: ١] [رواه أحمد].

وقد قرأها ﷺ يوم فتح مكة، كما روى ذلك عبد الله بن مغفل - رضي الله عنه - حيث قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته، وهو يقرأ سورة الفتح يُرجع، وقال: لولا أن يجتمع الناس حولي لرجعت كما رجعت» [رواه البخاري].

* تفتح هذه السورة بهذا الفيض الإلهي على رسوله ﷺ: فتح مبين، ومغفرة شاملة، ونعمة تامة، وهداية ثابتة، ونصر عزيز.

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ - ٣].

يقول الزهري عن فتح مكة: فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه.

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.

✽ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

قال ابن عاشور: فمن جنود السماوات؛ الملائكة الذين أنزلوا يوم بدر، والريح التي أرسلت على العدو يوم الأحزاب، والمطر الذي يوم بدر فثبت الله به أقدام المسلمين، ومن جنود الأرض جيوش المؤمنين وعديد القبائل الذين جاءوا مؤمنين مقاتلين مع النبي ﷺ يوم فتح مكة مثل بني سليم، ووفود القبائل الذين جاءوا مؤمنين طالعين دون قتال في سنة الوفود.

✽ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفتح: ١٤].

وقدمت المغفرة هنا بقوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ ليتقرر معنى الإطماع في نفوسهم فيبتدروا إلى استدراك ما فاتهم.

وهذا تمهيد لوعدهم الآتي في قوله: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرٌ مِّنَ اللَّهِ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأَسْ شَدِيدٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦].

✽ قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ﴾ [الفتح: ١٧].
ذكر - تعالى - الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمي والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه

ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ.

* ثم يذكر الله في آيات عظيمة جهاد المؤمنين، و«بيعة الرضوان» التي بايع فيها الصحابة - رضوان الله عليهم - رسول الله ﷺ على الجهاد في سبيل الله حتى الموت، وكانت بيعة جليلة الشأن ولذلك باركها الله، ورضي عن أصحابها، وسجلها في كتابه العظيم في سطور من نور.

* قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.

اللام موطئة لقسم محذوف، أي: والله لقد رضي الله عن المؤمنين حين بايعوك - يا محمد - «بيعة الرضوان» تحت ظل الشجرة بالحديبية.

وسبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ لما بلغ الحديبية أرسل عثمان بن عفان - رضي الله عنه - إلى أهل مكة يخبرهم أنه إنما جاء معتمراً، وأنه لا يريد حرباً، فلما ذهب عثمان حبسوه عندهم، فجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ أن عثمان قد قُتل، فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة على أن يدخلوا مكة حرباً، وبايعوه على الموت، فكانت بيعة الرضوان، فلما بلغ المشركين ذلك أخذهم الرعب، وأطلقوا عثمان، وطلبوا الصلح من رسول الله ﷺ على أن يأتي في العام القابل، ويدخلها ويقيم فيها ثلاثة أيام، وكانت هذه البيعة تحت شجرة سمرة بالحديبية، وقد سميت «بيعة الرضوان».

ولما رجع المسلمون يعلوهم الحزن والكآبة، أراد الله تسليتهم وإذهاب الحزن عنهم، فأنزل هذه السورة على رسوله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١].

وكان عدد الذين بايعوا رسول الله ﷺ ألفاً وأربعمائة رجل، وفيهم نزلت الآية الكريمة ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ ولم يتخلف عن البيعة إلا «الجد بن قيس» من المنافقين، وحضر هذه البيعة

روح القدس جبريل الأمين، ولهذا سطرت في الكتاب المبين.

* قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠].

قال ابن عاشور: وفائدة وصف المغانم بجملة ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ تحقيق حصول فائدة هذا الوعد لجميع أهل البيعة قبل أن يقع بالفعل، ففيه زيادة تحقيق لكون الفتح قريباً، وبشارة لهم بأنهم لا يهلك منهم أحد قبل رؤية هذا الفتح. والآية دليل على أن الله - جل جلاله - قد يثيب المؤمن رزقاً في الدنيا على العمل الصالح، ولا يحط ذلك من درجة فضله، ويجعل ذلك من أطيب وجوه، ألا ترى أن الغنائم أطيب وجوه الكسب، وأمطر الله على نبيه أيوب حين عافاه من بلائه جراداً من ذهب لم تبذله الأيدي.

* من بلاغة القرآن الكريم وإعجاز لفظه: أنه أتى بلفظ بكة كاسم من أسماء مكة المكرمة في سورة آل عمران، وأتى بلفظ مكة في سورة الفتح. فكان لفظ بكة مناسباً لسياق الآيات التي جاء في سورة آل عمران، والتي تتحدث عن الحج، لأن لفظ بكة من ألبك. أي: الزحام. ولفظ مكة الذي جاء في سورة الفتح مناسباً لسياق نصرة النبي وعودته لتلك البقاع التي طرد منها فجاء لفظها كما اشتهرت به (مكة).

* قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمَّ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [محمد: ٢٥].

في الآية تفضيل للصحابة، وإخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدي، حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحداً لكان عن غير قصد. وهذا كما وصفت النملة عن جند سليمان - عليه السلام - في قوله: ﴿لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

* قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦].

وإضافة الحمية إلى الجاهلية لقصد تحقيرها وتشنيعها، فإنها من خلق أهل الجاهلية، فإن ذلك انتساب ذم في اصطلاح القرآن كقوله: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

* قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَعٍ أُخْرِجَ شَطْعُهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [محمد: ٢٩].

قال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩].

في الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين، الشدة والرحمة إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى، ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الروية.

قال الرازي: وصف الله الصحابة بقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩] ولم يقل: (يبتغون أجراً) ففيه اعتراف منهم بالتقصير، وطمع بالفضل الإلهي الذي لا منتهى ولا حد له، والذي هو أعظم من الأجرة التي يستحقونها على عملهم.

* تكرر ذكر اسم نبينا محمد ﷺ في أربعة مواضع من كتاب الله

- تعالى -:

الأولى: في سورة آل عمران، في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

الثانية: في سورة الأحزاب. في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

الثالثة: في سورة محمد، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢].

الرابعة: في سورة الفتح، في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد جُمعت في هذا البيت:

وفي الفتح والأحزاب جاء محمد

محمد أيضاً ثم جاء بعمران
وما نودي ﷺ في القرآن باسمه العلم، بل نودي بالنبوة تكريماً وتشريفاً
له، مثل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُرْسَلُ﴾ [المزمل: ١]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، بينما بقية الأنبياء ينادون بأسمائهم: يا إبراهيم، يا موسى، يا عيسى، وذلك لعظم منزلته، وشرف مكانه، ورفيع درجته ﷺ.

* وآخريات سورة الفتح جمعت كل حروف اللغة العربية: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَرَجٍ شَطْرَهُ فَأَزَّزَهُ فَأَسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [١١].

سورة الحجرات ٤٩

هذه السورة الكريمة سورة مدنية، وسميت «سورة الحجرات» لأن الله - تعالى - ذكر فيها حرمة بيوت النبي ﷺ، وهي الحجرات التي كان يسكنها أمهات المؤمنين - رضوان الله عليهن -، والسورة على وجازتها جليلة ضخمة، تتضمن حقائق التربية الخالدة وأسس المدنية الفاضلة، وفيها الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب، حتى سَمَّاها بعض المفسرين «سورة الأخلاق».

وفي السورة منهج التعامل مع الناس: ﴿فَتَيَّنُوا﴾، ﴿فَأَصْلَحُوا﴾، ﴿وَأَقْسَطُوا﴾، ﴿لَا يَسْخَرُوا﴾، ﴿وَلَا تَلْمِزُوا﴾، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا﴾، ﴿أَجْتَنِبُوا﴾، ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، ﴿وَلَا يَغْتَب﴾، وكلها قواعد أساسية في صدق التعامل. لما أثنى الله على أصحاب رسوله في خاتمة سورة الفتح جعل سورة الحجرات في تكميل إيمانهم وتأديبهم، فبدأ بالآداب مع الله، ثم مع رسوله، ثم مع المؤمنين، سواء من حضر منهم، ومن غاب، ومن تلبس بفسق. * ابتدأت السورة الكريمة بالآداب الرفيع الذي أدب الله به المؤمنين، تجاه شريعة الله وأمر رسوله، وهو ألا يُبرموا أمراً، أو يُبدوا رأياً، أو يقضوا حكماً في حضرة الرسول ﷺ، حتى يستشيروه، ويستمسكوا بإرشاداته الحكيمة.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾

[الحجرات: ١ - ٢].

قال القاضي أبو بكر العربي: حرمة النبي ﷺ ميتاً كحرمة حيّاً، وكلامه المأثور بعد موته في الرفع مثال كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه، وجب على كل حاضر أن لا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به.

ذكر بعض المفسرين: أن هذا الأدب وعاه السلف حيث تجاوزوا به شخص رسول الله ﷺ إلى كل شيخ وعالم من العلماء، احتراماً لهم، حيث أنهم يحملون ميراث رسول الله ﷺ وهو سنته.

قال أبو عبيد: ما دقت باباً على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه.

❖ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

قال السعدي: أدب العبد عنوان عقله، وأن الله يريد به خيراً.

❖ عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: لما قبض رسول الله ﷺ أنكرنا أنفسنا، وكيف لا ننكر أنفسنا، والله - تعالى - يقول: ﴿وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

قال ابن كثير - رحمه الله -: وفي قوله تعالى: ﴿فِيكُمْ﴾ وتقديمها ﴿فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ تتضمن تشريفاً، فقد اختصكم الله - عز وجل - بهذا الشرف، فهو فيكم لا في غيركم، كما أن فيها تكليفاً بما يوجبه وجود هذا الرسول العظيم ﷺ بينهم.

❖ قال تعالى: ﴿يَنَاقِبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصْحِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَذِيرِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وإنما كان الفاسق معرضاً خبره للريبة والاختلاق، لأن الفاسق ضعيف الوازع الديني في نفسه، وضعف الوازع يجرئه على الاستخفاف بالمحذور، وبما يخبر به في شهادة أو خبر، يترتب عليهما إضرار بالغير أو بالصالح

العام، ويقوي جرأته على ذلك دوماً إذا لم يتب ويندم على ما صدر منه ويقلع عن مثله.

✽ قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

أي: لشقيتكم، والعنت المشقة، وإنما قال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ ولم يقل لو أطاعكم، للدلالة على أنهم كانوا يريدون استمرار طاعته - عليه الصلاة والسلام - لهم، والحق خلاف ذلك، وإنما الواجب يطيعوه هم، لا أن يطيعهم هو، وذلك أن رأي رسول الله ﷺ خير وأصوب من رأي غيره، ولو أطاع الناس في رأيهم لهلكوا، فالواجب عليهم الانقياد إليه والرجوع إلى أمره، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ الآية.

✽ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب.

قال محمد بن مناذر: كنت أمشي مع الخليل بن أحمد، فانقطع نعلي، فمشيت حافياً، فخلع نعليه وحملها يمشي معي، فقلت له: ماذا تصنع؟ فقال: أواسيك في الحفاء.

✽ قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وإنما اختيرت الرحمة؛ لأن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير الأخوة بين المؤمنين، وشأن تعامل الإخوة الرحمة فيكون الجزاء عليها من جنسها.

✽ وفي قوله تعالى: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩].

دل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

﴿ حَذَّرَتِ الْآيَاتُ مِنَ السَّخَرِيَّةِ وَالْهَمْزِ وَاللَّمْزِ، وَنَفَّرَتِ مِنَ الْغِيْبَةِ وَالتَّجَسُّسِ، وَالظَّنِّ السَّيِّئِ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَدَعَتِ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَالْفَضَائِلِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَحِينَ حَذَّرَتِ مِنَ الْغِيْبَةِ، جَاءَ النَّهْيُ فِي تَعْبِيرٍ رَائِعٍ عَجِيبٍ، فِي غَايَةِ الْإِبْدَاعِ، فِي صُورَةِ رَجُلٍ يَجْلِسُ إِلَى جَنْبِ أَخٍ لَهُ مَيِّتٍ يَنْهَشُ مِنْهُ وَيَأْكُلُ لَحْمَهُ، وَيَا لَهُ مِنْ تَنْفِيرٍ عَجِيبٍ، قَالَ تَعَالَى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ .

أي: يا معشر المؤمنين، يا من اتصفتم بالإيمان، وصدقتم بكتاب الله وبرسوله، لا يهزأ جماعة بجماعة، ولا يسخر أحد من أحد، فقد يكون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر، ورب أشعث أغبر ذو طمرين لو أقسم على الله لأبره .

﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ .

ولا يسخر نساء من نساء، فعسى أن تكون المحتقر منها خيراً عند الله وأفضل من الساخرة، وأفراد النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر .

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ .

أي: ولا يعيب بعضكم بعضاً، ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء، وإنما قال: ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ لأن المسلمين كأنهم نفس واحدة .

قال بكر بن عبد الله المزني: إذا أردت أن تنظر العيوب جمة فتأمل عياباً، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب .

﴿بِئْسَ الْآئِمُّ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ .

بئس أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن صار مؤمناً، وفي الآية دلالة على أن التنازع فسق، والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح .

﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

أي: ومن لم يتب عن اللمز والتنازع، فأولئك هم الظالمون بتعريض أنفسهم للعذاب .

قال الزمخشري: ينبغي أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رأى رث الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبيق في محادثته، فلعله أخلص ضميراً وأتقى قلباً ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله، والاستهانة بمن عظمه الله.

* ثم تتوالى الآيات الكريمات وهي تبني المجتمع على الأسس الفاضلة، فتعالج ما يضره. قال تعالى:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَنُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: إذا قال قائل: ما هي مناسبة الغيبة لمثل هذا المثل؟ قلنا: لأن الذي تغتابه غائب لا يمكن أن يدافع عن نفسه، كالميت إذا قطعت لحمه لا يمكن أن يقوم ليدافع عن نفسه، ولهذا إذا ذكرت أخاك بما يكره في حال وجوده فإن ذلك لا يسمى غيبة بل يسمى سباً وشتماً.

* ولما كان مقتضي الأخوة التراحم والتواصل والتناصر، أمر - سبحانه - بما يبقى هذه العلائق، فقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾.

أي: ابتعدوا عن التهمة والتخون، وإساءة الظن بالأهل والناس، وعبر بالكثير ليحتاط الإنسان في كل ظن ولا يسارع فيه، بل ويتأمل ويتحقق، وفي الحديث عنه ﷺ، أنه قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً» [رواه البخاري].

* قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

قال العلماء: فالظن هنا وفي الآية هو التهمة، ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها، كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلاً، ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك، ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه ويتبصر ويستمع لتحقيق ما وقع له من تلك التهمة، فنهى النبي ﷺ عن ذلك، وأن شئت قلت: والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواه، أن كل ما لم تعرف له أمانة صحيحة وسبب ظاهر كان حراماً واجب الاجتناب.

﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

أي: إن في بعض الظن إثم وذنب، يستحق صاحبه العقوبة عليه.
﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

أي: لا تبحثوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوا معائبهم، والتجسس قد يكون هو الحركة اللاحقة للظن، وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات والاطلاع على السوءات. ولا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته بما يكرهه.
والغيبة الذكر بالعيب في ظهر الغيب، قال ﷺ: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته» [رواه مسلم].

* ثم ذكر - سبحانه - مثلاً منفراً عن الغيبة، فقال:

﴿أُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

أي: فكما تكرهون الغيبة طبعاً، فاكروهوها شرعاً، فإن عقوبتها أشد من هذا، وقد شبه - تعالى - الغيبة بأكل لحم الأخ حال كونه ميتاً، وإذا كان الإنسان يكره لحم الإنسان - فضلاً عن كونه أخاً، وفضلاً عن كونه ميتاً، وجب عليه أن يكره الغيبة بمثل هذه الكراهة أو أشد.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ .

أي: خافوا الله واحذروا عقابه، بامثال أوامره واجتنب نواهيه. فإنه - تعالى - كثير التوبة، عظيم الرحمة، لمن اتقى الله وتاب وأناب، وفيه حث على التوبة، وترغيب بالمسارعة إلى الندم، والاعتراف بالخطأ، لئلا يقنط الإنسان من رحمة الله.

* قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

لما كان قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ يدل على استواء الناس في الأصل؛ لأن أباهم واحد وأمهم واحدة، وكان في ذلك أكبر زاجر عن التفاخر بالأنساب تطاول بعض الناس على بعض، بين - تعالى - أنه جعلهم شعوباً وقبائل لأجل أن يتعارفوا، أي يعرف بعضهم بعضاً، ويتميز بعضهم عن بعض، لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض ويتطاول عليه وذلك يدل على أن كون بعضهم أفضل من بعض وأكرم منه إنما يكون بسبب آخر غير الأنساب.

وقد بين الله ذلك هنا بقوله: ﴿أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ فاتضح من هذا أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل.

* وهكذا كتاب الله - عز وجل - يربي المسلم على الخلق الرفيع والأدب الجم، فمثلاً في:

الصوت: ﴿وَأَغْضَضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩].

المشية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨].

النظرة: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [الحجر: ٨٨].

والطعام: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الانعام: ١٤١].

وهكذا آداب عامة وشمائل متوالية.

* وفي ختام السورة تأتي المناسبة لبيان حقيقة الإيمان وقيمته ومنزلته؛ وذلك في الرد على الأعراب الذين قالوا: آمنا، وظنوا الإيمان كلمة تقال باللسان، وجاؤوا يمينون على الرسول إيمانهم، فتبين الآيات حقيقة الإيمان، وحقيقة الإسلام، وشروط المؤمن الكامل، وهو الذي جمع الإيمان والإخلاص، والجهاد والعمل الصالح. قال تعالى:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

الحجرات: ١٤.﴾

أي: زعم الأعراب أنهم آمنوا، قل لهم - يا محمد -: إنكم لم تؤمنوا بعد، لأن الإيمان تصديق مع ثقة واطمئنان قلب، ولم يحصل لكم، وإلا لما منتتم على الرسول بالإسلام وترك المقاتلة، ولكن قولوا استسلمنا خوف القتل والسبي. والآية نزلت في نفر من بني أسد، قدموا المدينة في سنة مُجدبة، وأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وفلان، يريدون الصدقة ويمنون على الرسول ﷺ، وقد دلت الآية على أن الإيمان مرتبة أعلى من الإسلام، الذي هو الاستسلام والانقياد بالظاهر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

وفيها وجوب شهود منه الله على العبد أن وفقه لطاعته، وخطورة تسرب شيء من الشعور يمينه العبد على الله، وهذا محبط للعمل ومذهب للإيمان. وقد يكون الشعور بالمنة على الله - نعوذ بالله من ذلك - إما بالقول أو بالعمل، وأخطره ما كان بالقلب لصعوبة الإحساس به ودقته وخفائه، فهو أخطر من الرياء.

وذكر ابن القيم: أن من شروط قبول العمل شهود المنة، أي منة الله على العبد، فلولا فضله ومنته ما كان هذا العمل، وشهود المنة يكون قبل العمل وأثناء العمل وبعده.

سورة ق ٥٠

سورة «ق» سورة مكية جمعت من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي؛ حيث تتركز على إثبات البعث والنشور، حتى ليكاد يكون هو الطابع الخاص للسورة الكريمة، وقد أوردته الآيات بالبرهان الناصع، والحجة الدامغة. وهذه السورة رهيبة، شديدة الوقع على الحس، تهز القلب هزاً، وترج النفس رجاً، وتثير فيها روعة الإعجاب، ورعشة الخوف بما فيها من الترغيب والترهيب.

وقد وردت عدة أحاديث تبين مدى حرص النبي ﷺ على قراءتها في المجالس العامة، كالجمع والإعياد لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب والترغيب والترهيب.

عن أم هشام بنت حارثة ابن النعمان - رضي الله عنها - قالت: «لقد كان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿ق﴾ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ [ق: ١] إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرؤها كل يوم الجمعة على المنبر إذا خطب الناس». [رواه مسلم].

ومن سورة (ق) إلى سورة (الناس) يسمى المفصل، وهي سور القرآن القصيرة التي كثر الفصل بينها بالبسملة، سمي مفصلاً لكثرة فواصله. والمفصل ثلاثة أقسام: طوال، وأوساط، وقصار. فطواله من الحجرات إلى سورة البروج. وأوساطه من سورة الطارق إلى سورة البينة، وقصاره من سورة إذا زلزلت إلى آخر القرآن.

* ابتدأت السورة بالقضية الأساسية التي أنكرها كفار قريش، وتعجبوا منها غاية العجب، وهي قضية الحياة بعد الموت، والبعث بعد الفناء.

قال تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ ﴿٤﴾﴾ [ق: ١ - ٤].

أي: قد علمنا بما تَأْكُلُ الأرض من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم وما تفرق من ذلك واختلط بالتراب، محقق وثابت، وهو مثبت في كتاب حافظ لذلك كله.

وسماه الله حفيظاً، لأنه لا يدرس ما كتب فيه ولا يتغير ولا يتبدل. وفي الآية إشارة إلى أن الأرض لا تأكل كل الأجساد. فالأنبياء - عليهم السلام - حرم الله على الأرض أكل أجسادهم، كما قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»، كما يبقى من جميع الأجساد عجب الذنب لا تأكله الأرض، منه يركب الإنسان ويعاد خلقه.

* قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [ق: ٥]. قال ابن عثيمين: وفي هذه الآية أن مما يفتح الله به على العبد في معرفة الأحكام الشرعية أن يكون مصداقاً موقناً، فكلما كنت مصداقاً موقناً فاعلم أن الله سيفتح لك ما لا يفتحه لغيرك، وعليه: فالواجب على المرء أن يقبل الحق فور علمه به لئلا يقع في أمر مريج.

* قال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٨]. دعاهم إلى النظر في العالم العلوي ثم إلى السفلي، وأن ذلك تبصرة تأملها العبد المنيب وتبصر بها تذكر ما دلت عليه مما أخبر به الرسل من التوحيد والمعاد.

فالناظر فيها يتبصر أولاً، ثم يتذكر ثانياً، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه.

* قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ

الله - عز وجل - حكم وقضى وأخبر أن المطر الذي ينزل من السماء مطراً مباركاً ولهذا كان ﷺ يسارع إليه، يحسر ثوبه عن ذراعه حتى يصيبه المطر ويقول «إنه حديث عهد بربى».

* قال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [ق: ١٠].

خص النخل بالذكر لفضلها وشرفها، فهي أشرف الأشجار، وأهم الأشجار عندهم، وثمره أكثر أقواتهم، ولإتباعه بالأوصاف له ولطلعه مما يثير تذكر بديع قوامه وأنيق جماله.

وشبه بها المؤمن، كما قال ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها، مثل المؤمن، هي النخلة»؛ ولهذا جاء في حديث عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال: «لا يجوع أهل بيت عندهم التمر».

قال ابن عاشور: وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء، وعن إحياء الموتى بالخروج تفخيم لشأن الإنبات، وتهوين لأمر البعث وتحقيق للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى.

* قال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [ق: ١٠].

ذكر الله النخيل ومنافعها، وفي الآية إشارة إلى جمال هيئتها، فضلاً عن حلاوة ثمرتها، مما يزيد الناظر بهجة ومتعة.

* قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها كذلك نخرجكم أحياء بعد موتكم، وهذه الأرض الميتة كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسناتها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت، فكما أحيا الله الأرض الميتة كذلك يحيي الله الموتى.

* ثم ذكر - تعالى - كفار مكة بما حل بمن سبقهم من المكذبين من الأمم السالفة، وما حل بهم من الكوارث وأنواع العذاب، إنذاراً لهم وإعذاراً فقال:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿٦٣٩﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿٦٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ .

أي: كذب قبل هؤلاء الكفار، قوم نوح. وأصحاب البئر وهم بقية من ثمود، رسوا نبيهم فيها، أي: دسّوه فيها. ومن جملة من كذب قوم عاد وفرعون، وإخوان لوط، سمّاهم إخوانه لأنه صاهرهم، وتزوج منهم.

﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ .

أي: وأصحاب الشجر الكثير الملتف، وهم قوم شعيب - عليه السلام -، نسبوا إلى الأيكة، لأنهم كانت تحيط بها البساتين والأشجار الكثيرة، الملتف بعضها على بعض. هو تُبَّع اليماني ملك كان باليمن، أسلم ودعا قومه إلى الإسلام، فكذبوه.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ حَقَّ وَعِيدِ﴾ .

أي: جميع هؤلاء المذكورين كذبوا رسولهم، وإنما جمع الرسل لأن من كذب رسولا فإنما كذب جميع الرسل. فوجب عليهم وعيدي وعقابي، وحل بهم ما قدره الله عليهم من الخسف، والمسح، والإهلاك بأنواع العذاب.

والآية تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكفرة المجرمين، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصاب من كذب الرسل.

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ .

أي: أفعجزنا عن ابتداء الخلق حتى نعجز عن إعادتهم بعد الموت؟ وهو توبيخ لمنكري البعث، وجواب لقولهم: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ومراده أن ابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادة أسهل منه، فكيف يتوهم عجزنا عن البعث والإعادة؟ بل هم في خلط وشبهة وحيرة من البعث والنشور.

وهذه الآية من براهين البعث؛ لأن من لم يعي بخلق الناس، ولم يعجز عن إيجادهم الأول، لا شك في قدرته على إعادتهم وخلقهم مرة أخرى؛ لأن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من البدء.

* ثم نبه - تعالى - على سعة علمه، وكمال قدرته. وتحدثت الآيات عن سكرة الموت، ووهلة الحشر، وهول الحساب، وما يلقاه المجرم في ذلك اليوم العصيب من أهوال وشدائد، تنتهي به بإلقائه في الجحيم، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ^ط وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ

الْوَرِيدِ ﴿١١﴾﴾.

أي: خلقنا جنس الإنسان ونعلم ما يجول في قلبه وخاطره، لا يخفى علينا شيء من خفاياه ونواياه.

والوسوسة الصوت الخفي، ووسوسة النفس ما يخطر ببال الإنسان ويحبس في ضميره من حديث النفس.

ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، وهو عرق كبير في العنق متصل بالقلب، والمراد ملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد إليه.

قال ابن عاشور: وفائدة الإخبار بأن الله يعلم ما توسوس به نفس كل إنسان؛ التنبيه على سعة علم الله - تعالى - بأحوالهم كلها، فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم.

ومن لطائف هذا التمثيل أن حبل الوريد مع قرب لا يشعر الإنسان بقربه لخفائه، وكذلك قرب الله من الإنسان بعلمه قرب لا يشعر به الإنسان، فلذلك اختير تمثيل هذا القرب بقرب حبل الوريد.

* قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

أي: حين يتلقى الملكان الموكلان بالإنسان، ملك عن يمينه يكتب الحسنات، وملك عن شماله يكتب السيئات.

وفي الكلام حذف تقديره: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه.

قال مجاهد: وكل الله بالإنسان - مع علمه بأحواله - ملكين بالليل، وملكين بالنهار، يحفظان عمله، ويكتبان أثره إلزاماً للحجة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فإذا علم العبد ذلك - مع علمه بإحاطة الله تعالى بعلمه - زاد رغبة في الحسنات، وانتهاء عن السيئات.

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ .

أي: ما يتلفظ كلمة من خير أو شر، إلا وعنده ملك يرقب قوله ويكتبه. حاضر معه أينما كان، مهياً لكتابه ما أمر به، فإذا مات ابن آدم طويت صحيفته، وقيل له يوم القيامة: ﴿ أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

﴿ [الإسراء: ١٤] .

* ثم قال - تعالى - يصف مشهداً عظيماً، وموقفاً عصيباً:

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ .

أي: وجاءت هذا الغافل المكذب بآيات الله، غمرة الموت وشدته، التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله، بالأمر الحق من أهوال الآخرة حتى يراها المنكر لها عياناً.

وإنما قال: جاء بالماضي لتحقيق الأمر وقربه.

وقد وصف الله - سبحانه وتعالى - شدة الموت في أربع آيات:

الأولى: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ [ق: ١٩] .

الثانية: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ [الأنعام: ٩٣] .

الثالثة: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ [الواقعة: ٨٣] .

الرابعة: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ [القيامة: ٢٦] .

﴿ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ .

ذلك ما كنت تفر منه وتميل عنه وتهرب منه وتفزع، وفي الحديث عن عائشة أن النبي ﷺ لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات» [رواه البخاري]. ومن سكرة الموت، إلى وهلة الحشر، وهول الحساب.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ .

أي: ونفخ في القرن نفخة البعث الثانية، ذلك هو اليوم الذي وعد الله الكفار به بالعذاب، وعبر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ .

أي: وجاء كل إنسان براً أو فاجراً، ومعه ملكان: أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله.

قال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد من أنفسهم وهي الأيدي والأرجل.

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ .

أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة، هذا الكلام توبيخاً، ولوماً وتعنيفاً، لقد كنت مكذباً بهذا تاركاً للعمل له. فأزلنا عنك الحجاب الذي على قلبك، وسمعك وبصرك في الدنيا. فبصرك اليوم قوي نافذ، ترى به ما كان محجوباً عنك، لزوال الموانع بالكلية، ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والنكال.

لما احتضر أبو بكر - رضي الله عنه -، تمثلت عائشة - رضي الله عنها - بيت من الشعر، فكشف أبو بكر عن وجهه، وقال: ليس كذا ولكن قولني: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

* وبعد هذا الترهيب الشديد يأتي الترغيب، يقول عز وجل: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ .

أي: رجاء تائب مقلع يحفظ العهد ولا ينكثه.

وعندما يقرأ القارئ قوله تعالى: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ويقارنه بما في سورة الزمر ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ قد يتوهم أن هناك تعارضاً. والرد على هذا: أن هناك فرقاً بين الذين اتقوا، والمتقين. فالذين اتقوا هم الذين أحدثوا العقل، وهو التقوى، أما المتقون فهم العريقون في ذلك، فهم أعلى منزلة من الذين اتقوا، ولذا فقد اختلف الجزاء.

ثم ذكر - تعالى - من صفاتهم:

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

قال - تعالى - من خشي ﴿الرَّحْمَنَ﴾ لأن هؤلاء الصالحين إذا ذكروا رحمة الله خشوه لمعرفةهم بمغفرته وجوده وكرمه، فكيف إذا ذكروا جبروته وسطوته.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ

شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ [ق: ٣٧] ولم يقل: (استمع) لأن إلقاء السمع، أي: يرسل سمعه ولا يمسكه وإن لم يقصد السماع.

أي: تحصل الذكرى لمن له سمع، وهو تعريض بتمثيل المشركين بمن ليس له قلب وبمن لا يلقي سمعه.

وفي قوله ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ إشارة إلى مجرد الإصغاء لا يفيد ما لم يكن المصغي حاضراً بفطنته وذهنه.

وفي الآية ترتيب حسن؛ لأنه إن كان ذا قلب ذكي يستخرج المعاني بتدبره وفكره؛ فذاك وإلا فلا بد أن يكون مستمعاً مصغياً إلى كلام المنذر؛ ليحصل له التذكير.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: فإن من يؤتى الحكمة وينتفع بالعلم على منزلتين: إما رجل رأى الحق بنفسه فقبله فاتبعه ولم يحتج إلى من يدعوه إليه، فذلك صاحب القلب، أو رجل لم يعقله بنفسه بل هو محتاج إلى من يعلمه ويبينه له ويعظه ويؤدبه فهذا أصغى، ف ﴿أَوَّالْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر القلب ليس بغائبه.

* قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

أمره بما يستعين به على الصبر وهو التسييح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وبالليل وأدبار السجود.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠].

وهي على هذا إشارة إلى الصلوات الخمس، فقبل طلوع الشمس: الصبح. وقبل الغروب: الظهر والعصر. ومن الليل: المغرب والعشاء.

قال الرازي: من السنة قراءة سورة (ق) في صلاة العيد، ومناسبة ذلك

قوله - تعالى - فيها: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرُ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

بعث وجمع وسوق يسير. فخرج المرء للعيد يوم الزينة ينبغي أن لا ينسيه خروجه إلى عرصات الحساب، ولا يكون في ذلك اليوم بطراً فخوراً، ولا يرتكب فسقاً ولا فجوراً.

* قال تعالى: ﴿وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ﴾.

أي: استمع يا محمد صيحة يوم القيامة، يوم ينادى بها منادينا من موضع قريب.

التعبير بـ ﴿قَرِيبٍ﴾ للإشارة إلى سرعة حضور المنادين ، وهو الذي
فسرته جملة ﴿قَرِيبٍ﴾ لأن المعروف أن النداء من مكان قريب لا يخفى
على السامعين بخلاف النداء من مكان بعيد .

سورة الذاريات (٥١)

سورة الذاريات سورة مكية، والسور المكية يرد فيها الحديث كثيراً عن العقيدة ووسائل تثبيتها في النفوس، ووجوب التفكير في عظيم صنع الله - عز وجل -، ومن ذلك ما ذكره - سبحانه - عن جملة من المخلوقات العظيمة التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع، ومنها الرياح التي تذر الغبار، وتسير المراكب في البحار، وعن السحب التي تحمل مياه الأمطار، وعن السفن الجارية على سطح الماء بقدرته - سبحانه -، وعن الملائكة الأطهار المكلفين بتدبير شؤون الخلق، وكل ذلك لبيان وتوكيد أن الحشر والمعاد كائن لا محالة وأنه آت.

تندرج هذه السورة تحت قسم المفصل، وهو من أول سورة (ق)، وقيل من أول الحجرات وينتهي بآخر سورة من القرآن الكريم. لما ختمت السورة السابقة؛ سورة ق بذكر البعث، واشتملت على ذكر الجزاء، والجنة والنار، وغير ذلك من أحوال يوم القيامة، افتتح هذه السورة بالإقسام على أن ما توعدون من ذلك الصادق، وإن الدين - وهو الجزاء - لواقع.

ثم انتقلت الآيات الكريمة إلى ذكر إبراهيم - عليه السلام - وما جرى له مع ضيوفه، تسلياً لقلب النبي ﷺ ببيان أن غيره من الأنبياء - عليهم السلام - كان مثله.

واختار - تعالى - إبراهيم لكونه شيخ المرسلين، وفيها إنذار لقومه بما جرى ومن إنزال الحجارة على المذنبين المضلين.

* ولما ذكر - سبحانه - حال الكفار، بدأ في ذكر حال المؤمنين الأبرار، فقال تعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥١﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۖ ﴿٥٢﴾

أي: إن الذين اتقوا الله بطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، في بساتين؛ فيها عيون جارية سارحة. راضين بما أعطاهم ربهم من النعيم والكرامة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ﴿١٢﴾ .

أي: أن هذا الجزاء، كان لإحسانهم في الأعمال الصالحة، التي منها أنهم: كانوا ينامون قليلاً من الليل، ويصلون أكثره.

وفي الآية دلالة على فضل قيام الليل، وأنه من أعظم الإحسان؛ لأن الله وصف المتقين بأنهم محسنون، ثم ذكر من أول صفاتهم قيام الليل، فدل على أنه من أفضل وأعظم الإحسان.

والتصريح بقوله: ﴿مِّنَ اللَّيْلِ﴾ للتذكير بأنهم تركوا النوم في الوقت الذي من شأنه استدعاء النفوس للنوم، فيه زيادة في تصوير جلال قيامهم الليل وإلا فإن قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ﴿١٢﴾ يفيد أنه من الليل.

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ﴿١٣﴾ .

وفي آخر الليل قبيل الفجر وبعد صلاتهم؛ يستغفرون الله من تقصيرهم، فهم مع عملهم يعدون أنفسهم مقصرين، ولذلك يكثر من الاستغفار، وهذا مدح ثان لهم. وأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار.

والأسحار وقت إجابة الدعاء، وقال أكثر المفسرون في قول يعقوب - عليه السلام -: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] أنه أخرهم إلى وقت السحر لأنه وقت إجابة الدعاء.

وكان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثاً، وأمره الله - سبحانه - أن يختم عمره بالاستغفار، وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار، وشرع ﷺ للمتوضئ أن يختم وضوءه بالتوبة، فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار.

قال الرازي في قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ﴿١٢﴾ و﴿بِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ﴿١٣﴾ [الذاريات: ١٧ - ١٨].

قال: هذه سيرة الكريم يأتي بأبلغ وجوه الكرم، ويستقله، ويعتذر من التقصير.

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧].

والغرض من الآية أنهم يكابدون العبادة في أوقات الراحة وسكون النفس ولا يستريحون من مشاق النهار إلا قليلاً.

قال الحسن: كابدوا قيام الليل فلا ينامون منه إلا قليلاً.

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وخص هذا الوقت لكونه يكثر فيه أن يغلب النوم على الإنسان فيه، فصلاتهم واستغفارهم فيه أعجب من صلاتهم واستغفارهم في أجزاء الليل الأخرى. وجمع الأسحار باعتبار تكرار قيامهم في كل سحر.

* قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وفي الأرض دلائل واضحة، وعلامات وعبر ظاهرة وشاهدة على عظمة الله - عز وجل - وقدرته، مما فيها من النباتات والحيوانات، والجبال والبحار، والمهاد، والقفار، والأنهار، وغيرها كثير، تدلكم على وحدانية خالقكم، وأنه لا إله لكم يستحق العبادة سواه.

قال ابن القيم - رحمه الله -: فسبحان من جعل السماء كالأب، والأرض كالأم، والقطر كالماء الذي ينعد من الولد، فإذا حصل الحب في الأرض، ووقع عليه الماء أثرت نداوة الطين فيه، وأعانها السخونة المختفية في باطن الأرض، فوصلت النداة والحارة إلى باطن الحبة، فاتسعت الحبة وربت، وانتفخت، وانفقلت عن ساقين: ساق من فوقها وهو الشجرة، وساق من تحتها وهو العرق.

ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه، ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلاف مؤلفة، كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة لعلها تبلغ في الصغر الغاية، وذلك من البركة التي وضعها الله - سبحانه - في الأم (الأرض).

✽ قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

قال الحسن: وفي الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة، والشيب بعد السواد.

وقيل: المعنى في خلق أنفسكم من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم، إلى نفخ الروح، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصور، إلى غير ذلك من الآيات البالغة والظاهرة، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول، وما خصت به من أنواع المعاني والفنون، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار وسائر الجوارح.

✽ قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلٍ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ [الذاريات: ٢٣].

قال بعض الحكماء يعنى كما أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه لا يمكنه أن ينطق بلسان غيره، فكذلك كل إنسان يأكل رزق نفسه الذي قسم له ولا يقدر أن يأكل رزق غيره.

✽ قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤].

[الذاريات: ٢٤].

فيه مشروعية الضيافة وأنها من سنن إبراهيم الخليل الذي أمر الله هنا النبي وأُمَّته أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع على وجه المدح له والثناء.

✽ ولما وصفهم - سبحانه - بالصلاة وكثرة الاستغفار، ثنى بوصفهم

بالزكاة والبر والصلة، فقال:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْخُرُومِ﴾ [الذاريات: ٢٥].

مدح ثالث، أي: وفي أموالهم نصيب معلوم قد أوجبوه على أنفسهم بمقتضى الكرم للسائل المحتاج، وللمتعفف الذي لا يسأل الناس لتعففه.

* ثم خص أمراً آخر وهو التفكير . قال تعالى :

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ .

أي : وفي خلق أنفسكم آيات وعبر في كل حركة وسكنة ، وعرق ومفصل ، ولغة ولون ، وغيرها تدل على عظيم صنع الله .
قال قتادة : من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق وليئت مفاصلة للعبادة .

أفلا تنظرون بعين البصيرة ، فتستدلون بذلك على الخالق الرازق المتفرد بالألوهية ، وأنه لا شريك له ولا ضد ولا ند .

* ثم تحدث - عز وجل - عن إبراهيم - عليه السلام - مع ضيوفه ، فقال واصفاً إياه بالكرم :

﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات : ٢٦] .

الروغان هو الذهاب في الخفاء بحيث لا يكاد يشعر به ، وهذا من كرم رب المنزل المضيف أن يذهب في اختفاء بحيث لا يشعر به المضيف ، فيشق عليه ويستحي فلا يشعر به إلا وقد جاء بالطعام .

قال السعدي : في الآية ترغيب في أن يكون أهل الإنسان - ومن يتولى شؤون بيته - حازمين مستعدين لكل ما يراد منهم من الشؤون والقيام بمهمات البيت ، فإن إبراهيم في الحال بادر إلى أهله ، فوجد طعام ضيوفه حاضراً لا يحوج إلا إلى تقديمه .

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات : ٢٧] .

أدنى لهم العجل المشوي هو بنفسه ، ولم يأمر من يقدمه لهم من خادم أو غيره ، ولم يأمرهم أن يقوموا ويقربون إليه ، وهذا كرم منه وتلطف مع ضيوفه ، وهذا لا شك أبلغ في الإكرام .

* قال تعالى : ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾

أي: إنه من رب حكيم في صنعه، عليم بمصالح خلقه.

وقدّم في هذه الآية ﴿الْحَكِيمُ﴾ على ﴿الْعَلِيمُ﴾ مع أن الغالب في القرآن العكس، وذلك - والله أعلم - للتأمل في حكمة الله - عز وجل - في عدم ولادة سارة في شبابها، ومن ثم ولادتها بعد أن صارت عجوزاً واعتقدت أنها عقيم.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلَمَ عَلِيمٍ﴾.

أي: قالوا له: لا تخف إنا رسل ربك، ثم بشروه بولد يولد له من زوجته سارة يكون عالماً عند بلوغه، والمبشر به هو إسحاق - عليه السلام -.

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

أي: فلما سمعت - سارة - البشارة أتت وأقبلت نحوهم في صيحة وضجة، أرادت أن تستطلع الأمر. فلطمت وجهها على عادة النساء عند التعجب، وقالت لهم: أنا عجوز عقيم؛ فثم مانعان فكيف ألد؟! وفي الآية حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام ما يتأدى به الحاجة، فإنها قالت: «عجوز عقيم»، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة، ولم تذكر غيره.

* قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ

بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ [الذاريات: ٣٥ - ٣٦].

دون أن يقول: فأخرجنا لوطاً وأهل بيته؛ قصداً للتنويه بشأن الإيمان والإسلام، أي: أن الله نجاهم من العذاب لأجل إيمانهم بما جاء به رسولهم، لا لأجل أنهم أهل لوط.

عن قتادة قوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

قال: لو كان فيها أكثر من ذلك لأنجاهم الله ليعلموا أن الإيمان عند الله محفوظ لا ضيعة على أهله.

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦].

يؤخذ منها عدم الاغترار بما عليه الكثير من الناس ، فهذا نبي الله لوط - عليه السلام - لم يؤمن من قومه إلا أهل بيته فقط ما عدا امرأته .
قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ، ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين .

* قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝١١ ﴾ [الذاريات : ٤١] .
﴿ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝١١ ﴾ وصفها بالعقم ، لأنها لا بركة فيها من إنشاء المطر أو إلحاق الشجر .

* قال تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١٢ ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

المراد التذكر بجميع ما ذكر لأمر الحشر والنشر ، لأن من قدر على إيجاد ذلك فهو قادر على إعادة الأموات يوم القيامة .

* قال تعالى : ﴿ فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ﴾ [الذاريات : ٥٠] .
سمى الله الرجوع إليه فراراً ؛ لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكاره ، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب ، والأمن والسرور ، والسعادة والفوز ، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره .

* قال تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٤ ﴾ [الذاريات : ٥٥] .
والنفع الحاصل من الذكرى هو رسوخ العلم ، بإعادة التذكير لما سمعوه ، واستفادة علم جديد فيما لم يسمعوه أو غفلوا عنه .
آية غليظة على من لا ينتفع بالموعظة ، لما يخشى عليه من النفاق إذا زالت عنه منافع المواعظ .

* قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝١٥ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .
وتقديم الجن في الذكر ، للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن ، ليعلموا أن الجن عباد الله - تعالى - .

سورة الطور ٥٢

سورة الطور سورة مكية ، وسميت بالطور لأن الله - تعالى - بدأ السورة الكريمة بالقسم بجبل الطور الذي كلم الله - تعالى - عليه موسى - عليه السلام - ، وقد أقسم - سبحانه - بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة أن عذابه واقع بأعدائه ، وأنه لا دافع له .

في الحديث عن جبير بن مطعم - رضي الله عنه - قال : « قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر ، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب ﴿ وَالطُّورِ ١ ﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢ ﴾ فلما قرأ : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ ﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ ﴾ فكأنما صدع قلبي ، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، فلما انتهى إلى هذه الآية : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ١٥ ﴾ أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ١٦ ﴾ كاد قلبي أن يطير » [رواه البخاري] .

قال أبو سليمان الخطابي - رحمه الله - : إنما كان انزعاجه عند سماع هذه الآية ؛ لحسن تلقيه معنى الآية ، ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة ، فاستدركها بلطف طبعه ، واستشف معناها بذكي فهمه .

* قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ ﴾ [الطور : ٧] .

قال ابن عثيمين : هذا هو جواب القسم ، وهذه الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات : القسم بخمسة أشياء ، وإذا كان قسماً بخمسة أشياء صار كأنه أقسم عليها خمس مرات ، والثاني : بأن ، والثالث : باللام ، يعني لا بد أن يقع عذاب الله الذي وعد به ، هذه والله جملة عظيمة مؤثرة ، لكنها لا تؤثر إلا على قلب لين كلين الزبد أو أشد ، أما القلب القاسي فلا يهتم بها ، تمر عليه وكأنه حجارة . وكان عمر - رضي الله عنه - إذا قرأ هذه الآية يمرض حتى يعاد .

* قال تعالى: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤﴾ [الطور: ٤].

عن أنس بن مالك بن صمصعة رجل من قومه قال: قال نبي الله ﷺ «رفع إلي البيت المعمور، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم».

* ثم قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٥﴾ [الطور: ٥].

﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ۝٦﴾ [الطور: ١١ - ١٣].

ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر أدخلوا جهنم وهم يدعون إليها دعاءً، أي: يدفع في أقفيتهم وأكتافهم، دفعاً بعد دفع، فإذا وقفوا عليها وعابنوها وقفوا، وقيل لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝٧﴾ [الطور: ١٤].

* ثم قال - تعالى - عن أهل الجنة: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۝٨﴾

[الطور: ٢٠].

قال السعدي: ووصف الله السرر بأنها مصفوفة ليدل ذلك على كثرتها وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم بحسن معاشرتهم، ولطف كلامهم بعضهم لبعض.

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ۝٩﴾

[الطور: ٢١].

قال الرازي: دلت هذه الآية على أن شفقة الأبوة كما هي في الدنيا متوفرة كذلك في الآخرة، ولهذا طيب الله - تعالى - قلوب عباده بأنه لا يولهم بأولادهم بل يجمع بينهم.

* قال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝١٠﴾ [الطور: ٢٢].

قدم الفاكهة على اللحم كما في قوله تعالى: ﴿وَفِكَهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝١١﴾

﴿وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝١٢﴾ [الواقعة: ٢٠ - ٢١]، مما يدل على أن الفاكهة

تؤكل قبل اللحم، وأن ذلك هو الأنفع للجسم، وهذا خلاف ما عليه كثير من الناس.

✽ قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (٢٦) ﴿فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِ مَا كُنَّا نَعْلَمُ﴾ (٢٧) [الطور: ٢٦ - ٢٧].

قال بعض السلف: لأن تصحب أناساً يخوفونك حتى تدرك الأمن، خير من أن تصحب أناساً يؤمنونك حتى تدرك المخاوف.

✽ وقد فتح المولى أبواب الرحمة للتائبين والعابدين، وبسط فضله وإحسانه للداعين والمتضرعين، فالدعاء من أرجى الأعمال عند الله، ولهذا لما تبوأ أهل الجنة منازلهم في جنات النعيم، قالوا مبينين السبب الذي وقاهم عذاب السموم، وأوصلهم إلى هذا الخير العميم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (٢٨).

✽ قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٩) [الطور: ٣٥]. وهو الخالق؛ أوجد الكون وأبدعه، فأبهر من تأمله، خلاق أتقن ما خلق، فتبارك الله أحسن الخالقين.

✽ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) [الطور: ٤٧].

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٧).

نعذبهم في الدنيا ونبتليهم فيها بالمصائب لعلمهم يرجعون وينيبون فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلي عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه.

وفي الأثر الإلهي: كم أعصيك ولا تعاقبني؟ قال الله - تعالى -: يا عبدي كم أعافيك وأنت لا تدري؟

✽ تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (٤٨) [الطور: ٤٨].

قال ابن عطية: هذه الآية ينبغي أن يقررها كل مؤمن في نفسه، فإنها تفسح مضائق الدنيا.

سورة النجم ٥٣

سورة النجم سورة مكية، محور آياتها في تأصيل العقيدة والإيمان بالبعث والنشور، وذكر الله - عز وجل - فيها المعجزة العظيمة للنبي ﷺ، معجزة الإسراء والمعراج.

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿وَالنَّجْمِ﴾ قال: فسجد رسول الله ﷺ، وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً، وهو أمية بن خلف».

✽ قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.

أقسم الله - عز وجل - بالنجم ووقت سقوطه من علو، والخالق - سبحانه - يُقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا يجوز له أن يُقسم إلا بالخالق.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾.

جواب القسم، أي: ما ضل - محمد - عن طريق الهداية، ولا حاد عن طريق الاستقامة.

وقال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ لينبههم على ما يعرفونه فيه من الصدق والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره.

﴿وَمَا غَوَىٰ﴾.

أي: وما اعتقد باطلاً قط، بل هو في غاية الهدى والرشد، والخطاب لقريش.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢].

قال ابن عطية: الضلال يكون من غير قصد من الإنسان إليه، والغى كأنه شيء يكتسبه الإنسان ويريده، فنفى الله - تعالى - عن نبيه ﷺ هذين

الحالين، فلا هو ضل عن جهل، ولا غوى عن قصد.
قال ابن تيمية: فوصفه بأنه ليس بضال وهو الجاهل، ولا غاو وهو الظالم، فإن صلاح العبد في أن يعلم الحق ويعمل به، فمن لم يعلم الحق فهو ضال عنه، ومن علمه فخالفه واتبع هواه فهو غاو، ومن علمه وعمل به كان من أولي الأيدي عملاً، ومن أولي الأبصار علماً.

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾.

أي: وما يتكلم ﷺ عن هوى نفسي، ورأي شخصي.
ولم يقل: وما ينطق بالهوى، لأن نطقه عن الهوى أبلغ فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به، فتضمن نفي الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن النطق نفسه، فنطفة بالحق ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي ولا الضلال.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

أي: لا يتكلم إلا عن وحى من الله - عز وجل - .
وقوله: ﴿يُوحَىٰ﴾ صفة الوحي تفيد الاستمرار التجديدي.

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧].

قال الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله -: من كمال أدب النبي ﷺ وحيائه أنه لا يصرف بصره فيما لا يعنيه. جرت العادة أن الإنسان إذا دخل منزلاً غريباً، تجده ينظر يميناً وشمالاً في هذا المنزل، وخصوصاً إذا تغير تغيراً عظيماً، في هذه اللحظة لا بد أن ينظر ما الذي حدث، لكن لكمال أدب النبي ﷺ ورباطة جأشه، وتحمله ما لا يتحملة بشر سواه، صار في هذا الأدب العظيم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

﴿[الفلم: ٤]﴾.

* قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ

رَبِّهِمْ أَهْدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣].

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: كل من خالف الرسول ﷺ، فلا بد أن يتبع الظن وما تهوى الأنفس.

* قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥].

بدأ بالآخرة، لأن ملك الله في الآخرة يظهر أكثر مما في الدنيا، فالدنيا فيها ملوك، وفيها رؤساء، وفيها زعماء، يرى العامة أن لهم تدبيراً، لكن الآخرة لا يوجد فيها هذا ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

* قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

النهي في الآية عن تزكية النفس، وعن تزكية الغير، لما يترتب على تزكية النفس من بطلان العمل وحبوطه؛ لأن معنى العبادة بل لبها هو الخضوع والذل والافتقار إلى الله، والمزكي لنفسه بمقام المعجب بعمله المدل على الله فيه.

أما تزكية الآخرين فقد نهى الله عنها لما قد يتسبب عنها من اغترار المزكى بعمله، فيكون ذلك سبباً لهلاكه، ويسهل الأمر إذا كان من باب تشجيعه على الخير، فقد يكون ذلك من عاجل بشرى المؤمن.

- طلب بعض الولاة رجلاً، فأفلت منه، فأخذ أخاه، وقال له: إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك، قال الرجل: أرايت إن جئت بكتاب من أمير المؤمنين، تخلي سبيلي؟ قال الوالي: نعم، قال الرجل: فإنا أتيك بكتاب من العزيز الرحيم، وأقيم عليه شاهدين: موسى وإبراهيم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ [النجم: ٣٦ - ٣٨] قال الوالي: خلو سبيله، هذا رجل لقن حجته.

* قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠ - ٥٢].

وإنما قدم في الآية ذكر عاد وثمود على ذكر قوم نوح مع أن هؤلاء أسبق

لأن عاداً وثموداً أشهر في العرب، وأكثر ذكراً بينهم، وديارهم في بلاد العرب.

* قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ ﴿٥٣﴾

[النجم: ٥٣].

ومن أعظم الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

قال الطبري: لأن قوماً لم يتأثروا بدعوة نبي كريم ناصح في هذا الزمن الطويل لا شك أنهم أظلم الناس وأطغاهم.

* قال تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ ﴿٦٣﴾ [النجم: ٦٣].

قال في تيسير الكريم الرحمن: الأمر بالسجود لله خصوصاً، ليدل ذلك على فضله، وأنه سر العبادة ولبها، فإن لبها الخشوع لله، والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد، فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام.

سورة القمر ٥٤

سورة القمر، سورة مكية، وهي من بدئها إلى نهايتها حملة عنيفة مفزعة على المكذبين بآيات القرآن العظيم، ويرد فيها التهديد والوعيد، والإعذار والإنذار مع صور شتى من مشاهد العذاب والدمار.

في الحديث عن عمر - رضي الله عنه - أنه سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ و ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [رواه أبو داود].

وسبب نزولها: إن كفار مكة قالوا للرسول ﷺ: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، ووعدوه بالإيمان إن فعل، وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ رَبَّهُ أَنْ يعطيه ما طلبوا، فانشق القمر نصفين، نصف على جبل الصفا، ونصف على جبل قيعان المقابل له، حتى رأوا حراء بينهما، فقالوا: سحرنا محمد، ثم قالوا: إن كان سحرنا، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم! فقال أبو جهل: اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي، فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سحر محمد أعيننا، فجاؤوا فأخبروا بانشقاق القمر، فقال أبو جهل والمشركون: هذا سحر مستمر، أي دائم، فأنزل الله: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

* قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٣].

ذكر الله - عز وجل - أنهم اليوم معرضين عن الداعي: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٣].

وغداً تراهم: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٨].

واليوم تراهم يكذبون: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ

مُسْتَقَرٌّ﴾ [القمر: ٣].

وغداً يصدقون، حين لا ينفعهم تصديقهم: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [القمر: ٨].

* ثم قال - تعالى - عن بعثهم:

﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ تَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ١٧].

قال الشيخ ابن عثيمين: هذا من أدق التشبيهات، لأن الجراد المنتشر تجده يذهب يمينا ويساراً، لا يدري أين يذهب، فهم سيخرجون من الإجدات على هذا الوجه، بينما هم في الدنيا لهم قائد، ولهم أمير، ولهم موجه يعرفون طريقهم؛ وإن كان طريقاً فاسداً.

الخشوع في البصر: الخضوع والذلة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن أثر العز والذل يتبين في ناظر الإنسان.

* قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢].

ولم يقل: (وفجّرنا عيون الأرض)، فكأن الأرض كلها كانت عيوناً متفجرة، حتى التنور الذي هو أبعد ما يكون عن الماء لحرارته ويوسته صار يفور، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠].

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وكررهما مرة أخرى بقوله ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ٤٠] علم القرآن حفظاً وتفسيراً أسهل العلوم وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أعين عليه.

قال بعض السلف: فهل من طالب علم فيعان عليه.

وقد يراد أيضاً أن الله ييسر لطالب العلم إذا قصد بطلبه وجه الله الانتفاع به، والعمل بمقتضاه، فيكون سبباً لهدايته ولدخول الجنة بذلك.

وقد ييسر لطالب العلم علوماً آخر ينتفع بها، وتكون موصلة إلى الجنة كما قيل: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

وكما قيل: ثواب الحسنة الحسنة بعدها. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧] وقد يدخل في ذلك أيضاً تسهيل طريق الجنة الحسي - يوم القيامة، وهو الصراط، وما قبله وما بعده من الأهوال، فييسر ذلك على طالب العلم للانتفاع به، فإن العلم يدل على الله من أقرب الطرق إليه، فمن سلك طريقه ولم يعوج عنه وصل إلى الله، وإلى الجنة من أقرب الطرق وأسهلها فسهلت عليه الطرق الموصلة إلى الجنة كلها في الدنيا والآخرة.

✽ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ٢٢]. أي: يسرناه للحفظ، وهذا معلوم بالمشاهدة فإنه يحفظه الأطفال الأصاغر وغيرهم حفظاً بالغاً بخلاف غيره من الكتب. وقيل: معنى الآية سهلناه للفهم والاتعاظ به لما تضمن من البراهين والحكم البليغة.

وقد روي أنه لم يحفظ شيء من كتب الله عن ظهر قلب إلا القرآن. ✽ وبعد أن أخبر - سبحانه - عن قوم عاد التي في جنوب جزيرة العرب، ذكر - سبحانه - قبيلة ثمود التي في الشمال والتي خلفت عاد في القوة والتمكين، فأخبر - تعالى - عن قوم ثمود المكذبين لرسولهم صالح - عليه السلام -، فقال:

﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [٢٣] ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذَا لَفَى ضَلَلٍ وَسُعْرٍ﴾ [٢٤].

كذبت ثمود بالإنذارات والمواعظ التي أُنذروا بها نبيهم صالح. ✽ قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [٢٥] ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ﴾ [٢٦].

أي: نادى قبيلة ثمود أشقى القوم، واسمه - قدار بن سالف - لقتل الناقة، فتناول الناقة بسيفه فقتلها غير مكترث بالأمر العظيم. فكيف كان

عقابي وإنذاري لهم؟ ألم يكن فظيعاً شديداً لمن عصى رسلي؟! ثم ذكر
- عز وجل - هذا العقاب فقال:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمَخْتَضِرِ ۝١٥ ۝١٦ ﴾ .

أي: أهلكناهم بصيحة واحدة، صاح بها جبريل - عليه السلام - فلم
تبق منهم عين تطرف فبادوا عن آخرهم. فصاروا هشيماً متفتتاً كيابس
الشجر إذا بلي وتحطم وداسته الأقدام.

والمختضر: هو الذي يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر والشوك
يحفظهن فيها من الذئاب والسباع، وما سقط من ذلك فداسته فهو
الهشيم.

* ثم ساق - سبحانه - في مواعظ متلاحقة قصص الأنبياء مع أقوامهم،
وذكر في الآيات قوم لوط حين كذبوا رسولهم - لوط - عليه السلام -،
وما جرى لهم بعد ذلك من العذاب الأليم، قال تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالْأُنْذُرِ ۝١٧ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ
بِسَحَرٍ ۝١٨ نِعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۝١٩ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا
فَتَمَارَوْا بِالْأُنْذُرِ ۝٢٠ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ
۝٢١ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ۝٢٢ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ۝٢٣ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۝٢٤ ﴾ .

* وبعد قوم لوط - عليه السلام - ذكر - سبحانه - فرعون وقومه، وما
جرى لهم، فقال:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۝٢٥ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ
مُّقْتَدِرٍ ۝٢٦ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝٢٧ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ
مُّنْتَصِرُونَ ۝٢٨ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُونَ الدُّبُرَ ۝٢٩ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى
وَأَمْرٌ ۝٣٠ ﴾ .

* ثم بعد ذكر الأمم الغابرة، وما نالها ونزل بها من العذاب والنكال بتكذيبهم الرسل، ذكر - سبحانه - حال المجرمين في النار، فقال:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٤٧) **يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُقُوا**
مَسَّ سَقَرَ﴾ (٤٨).

يوم يُجْرُونَ في النار على وجوههم عقاباً وإذلاً لهم، والوجوه هي أشرف الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون. ويقال لهم: قاسوا أيها المكذبون حر جهنم، وشدة عذابها. وسقر علمٌ لجهنم. قال الطبري: فإن قال: قائل كيف يذاق مس سقر أوله طعم فيذاق فإن ذلك مختلف فيه، فقال بعضهم قيل ذلك كذلك على مجاز الكلام كما يقال: كيف وجدت طعم الضرب وهو مجاز؟ وقال آخر: ذلك كما يقال: وجدت مس الحمى؛ يراد به أول ما نالني منها، وكذلك وجدت طعم عفوك.

* قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٥١) **وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ**
بِالْبَصَرِ﴾ (٥٢).

أي: إنا خلقنا كل شيء مقدراً مكتوباً في اللوح المحفوظ من الأزل. وما شأننا في الخلق والإيجاد إلا مرة واحدة كلمح البصر في السرعة، نقول للشيء: كن فيكون.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (٥٣).

أي: ووالله لقد أهلكنا أشباهكم ونظراءكم في الكفر والضلال من الأمم السالفة الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما كذبتهم. فهل من يتذكر ويتعظ؟ ويعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة.

* ثم ذكر - تعالى - حال المتقين في الجنات، فقال:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ .

أي: المتقين لله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر، في جنات النعيم. وأنهار يعني أنهار الماء، والخمر، والعسل، واللبن.

﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ .

قال الصادق: مدح الله المكان الصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق.

﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ .

أي: في مكان مرضي، ومقام حسن، في دار كرامة الله ورضوانه، وفضله وامتنانه، وجوده وإحسانه، عند رب عظيم جليل، قادر في ملكه وسلطانه، لا يعجزه شيء، وهو الله رب العالمين.

قوله: ﴿مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ .

لأن القربة من الملوك لذيدة، كلما كان الملك أشد اقتدراً كان المتقرب منه أشد التذاذاً.

قال ابن كثير - رحمه الله - : وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب منه ممن معنى القرب من الملوك؛ فإن الملوك يقربون ممن يكون ممن يحبونه وممن يرهبونه، مخافة أن يعصوا عليه وينحازوا إلى عدوة فيغلونه، والله - تعالى - قال: ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ لا يقرب أحداً إلا بفضله.

سورة الرحمن ٥٥

* سورة الرحمن من السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية، وهي كالعروس بين سائر السور الكريمة، ولهذا ورد في الحديث الشريف: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن» [رواه البيهقي].

وهذه السورة الكريمة الجليلة افتتحت باسم الرحمن الدال على سعة رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله. وهي السورة الوحيدة المفتحة باسم من أسماء الله لا يتقدمه شيء ثم ذكر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والأخروية، وبعد كل جنس ونوع من نعمه ينبه الثقلين لشكره، ويقول: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ابتدأت السورة بتعديد آلاء الله الباهرة، ونعمه الكثيرة الظاهرة على العباد، التي لا يحصيها عد، وفي مقدمتها نعمة تعليم القرآن بوصفه المنة الكبرى على الإنسان، تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان.

ثم فتحت السورة صحائف الوجود، الناطقة بآلاء الله الجليلة، وآثاره العظيمة التي لا تحصى: الشمس والقمر، والنجم والشجر، والسماء المرفوعة بلا عمد، وما فيها من عجائب القدرة وغرائب الصنعة، والأرض التي بث فيها من أنواع الفواكه، والزرع، والثمار، رزقاً للبشر.

ثم بعد ذلك الاستعراض السريع لصفحة الكون المنظور، تطوى صفحات الوجود، وتتلاشى الخلائق بأسرها، فيلفها شبح الموت الرهيب، ويطويها الفناء، ولا يبقى إلا الحي القيوم متفرداً بالبقاء.

* قدم الله - عز وجل - في أول السورة أعظم النعم وأتمها وأكملها، وهي نعمة الدين، وقدم من نعمة الدين أعلى مراتبها، وأقصى مراتبها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه وتيسيره. قال تعالى:

﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝﴾ .

أي: الله الرحمن علم القرآن، ويسّره للحفظ والفهم. وقد عدّد - سبحانه - بعض نعمه على عباده، فقدم أعظمها نعمة، وأعلىها رتبة، وهو القرآن العزيز؛ لأنه أعظم وحي الله إلى أنبيائه، وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفياؤه، وأكثره ذكراً، وأحسنه في أبواب الدين أثراً، وهو سنام الكتب السماوية المنزلة على أفضل البرية ﷺ.

﴿الرَّحْمَنُ ۝﴾ [الرحمن: ١].

وأوثر استحضار الجلالة اسم (الرحمن) دون غيره من الأسماء. ولأن معظم هذه السورة تعداد للنعم والآلاء فافتتاحها باسم (الرحمن) براعة استهلال.

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝﴾ [الرحمن: ٢].

ولما كانت هذه السورة لتعداد نعمه التي أنعم بها على عباده، قدم النعمة التي هي أجلها قدراً وأكثرها نفعا وأتمها فائدة وأعظمها عائدة، وهي نعمة تعليم القرآن، فإنها مدار سعادة الدارين، وقطب رحي الخيرين، وعماد الأمرين.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝﴾ .

أي: خلق الإنسان السميع البصير الناطق في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفي الأجزاء، محكم البناء، وأبان أنه إنما خلقه لطاعته وعبادته.

﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ .

هذه الثالثة النعم التي امتن الله - عز وجل - بها؛ أي: ألهمه النطق الذي يستطيع به أن يبين عن مقاصده ورغباته، ويتميز به عن سائر الحيوان. والمقصود تعداد ما أنعم الله به على نوع الإنسان، حثاً على شكره، وتنبيهاً على تقصيرهم فيه، وإنما قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان؛ لأنه أصل النعم الدينية فقدم الأهم.

قال ابن القيم: تأمل قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن: ١ - ٤] كيف جعل الخلق والتعليم ناشئاً عن صفة الرحمة، متعلقاً باسم الرحمن، وجعل معاني السورة مرتبطة بهذا الاسم، وختمها بقوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝﴾ [الرحمن: ٧٨]، فالاسم الذي تبارك هو الاسم الذي افتتح به السورة، إذا مجيء البركة منه وضعت البركة في كل مبارك، فكل ما ذكر عليه بورك فيه، وكل ما أخلي منه نزعت منه البركة.

* قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝﴾ [الرحمن: ٧].

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: إن الله إنما ضرب لكم الأمثال، وصرف لكم القول لتحيا القلوب، فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله، ومن علم شيئاً فلينفع به، إن للعدل أمارات وتباشير، فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهيئ واللين، وأما التباشير فالرحمة، وقد جعل الله لكل أمر باباً، ويسر - لكل باب مفتاحاً، فباب العدل والاعتبار ذكر الموت والاستعداد بتقديم الأموال.

وقال ابن حزم: أفضل نعم الله - تعالى - على المرء أن يطبعه على العدل وحبه، وعلى الحق وإيثاره.

ولقد ضرب النبي ﷺ المثل بالنخلة، حيث لا يسقط ورقها، ولا ينقطع نفعها، فكل ما فيها نافع ومفيد، فضلاً عن ثمرها الطيب.

* ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين، الإنس والجن، قررهم - تعالى - بنعمه، فقال:

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾.

أي: فبأي نعم الله يا معشر الإنس والجن تكذبان؟ أليست نعم الله عليكم كثيرة لا تحصى؟

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا، فقال: «ما لي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم؟ ما أتيت على قول الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد» [رواه أحمد].

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

تكرار هذه الآية الكريمة التي تعدُّ تذيلاً لما سبقها من نعم، نظراً لتعدد هذه النعم وتنوعها، وكرّر هذه الآية في هذه السورة تقريراً للنعمة وتأكيداً في التذكير بها على عادة العرب في الإبلاغ والإشباع، يعدد على الخلق آلاءه ويفصل بين كل نعمتين بما نبههم عليها، كقول الرجل لمن أحس إليه وتابع عليه بالأأيادي وهو ينكرها ويكفرها: ألم تكن فقيراً، فأغنيتك أفتنكر هذا؟ ألم تكن عرياناً، فكسوتك أفتنكر هذا؟ ألم تك حاملاً، فعززتك أفتنكر هذا؟ ومثل هذا التكرار شائع في كلام العرب حسن تقريراً.

قال ابن قتيبة: إن الله عدد في هذه السورة نعماءه، وذكر خلقه آلاءه، ونبههم على قدرته ولطفه بخلقه، ثم أتبع كل خلة وصفها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ليفهمهم النعم ويقررهم بها.

وقال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغفلة، وتأکید للحجة.

ومن لطائف هذا التكرار: ما ذكره النسفي في تفسيره، حيث قال: وكررت هذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة، ذكر ثمانية منها عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله، وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم. ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلها على عدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها للجنيتين اللتين دونهما.

* ثم ذكر - تعالى - دلائل قدرته ووحدانيته، وآثار نعمه على عباده، حيث أراهم آثار قدرته وبديع صنعته، فإنه - سبحانه - لما ذكر خلق العالم

الكبير، وهو السماء والأرض وما فيها، ذكر خلق العالم الصغير، الإنسان - وهو - سبحانه - بعد الامتنان عليهم بآلائه في الكون يمتن عليهم بآلائه في ذوات أنفسهم، وفي خاصة وجودهما وإنشائهما، فقال:

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ٢٦ ﴾ .

أي: خلق أباكم آدم من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن حتى جف، فصار له صلصلة، أي: صوت إذا نقر.

قال المفسرون: ذكر - تعالى - في هذه السورة أن خلق آدم: ﴿ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ٢٦ ﴾ وفي سورة الحجر [٢٦] ﴿ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ٢٦ ﴾ أي من طين أسود متغير، وفي الصافات: ١١ ﴿ مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ ١١ ﴾ أي: يلتصق باليد، وفي آل عمران: ٥٩ ﴿ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ٥٩ ﴾ . ولا تنافي بينهما؛ وذلك لأن الله - تعالى - أخذه من تراب الأرض، فعجنه بالماء فصار طيناً لازباً، أي: متلاصقاً يلتصق باليد، ثم تركه حتى صار حمأ مسنوناً؛ أي طيناً أسود منتناً، ثم صورته كما تصور الأواني، ثم أبيضه حتى صار في غاية الصلابة كالفخار إذا نقر صوت، فالمذكور ههنا آخر الأطوار.

﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ٢٧ ﴾ .

وخلق الجن من مارج، أي: من لهب خالص، لا دخان فيه من النار، وفي الحديث: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» [رواه مسلم].

* قال تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٠ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ١١ ﴾ .

أي: أرسل البحر المالح والنهر العذب يتجاوران ويلتقيان ولا يمتزجان، بينهما حاجز من قدرة الله - تعالى - لا يطغى أحدهما على الآخر بالمازجة.

والمراد بالبحرين: الملح والحلو، فالملح هذه البحار، والحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس، وجعل - تعالى - بينهما برزخاً، وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر.

* وتحدثت السورة عن دلائل القدرة الباهرة في تسيير الأفلاك، وتسخير السفن الكبيرة تمخر عباب البحار، وكأنها الجبال الشاهقة علواً وارتفاعاً وسعة وضخامة، وهي تجري فوق سطح الماء، فقال سبحانه:

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ﴾ (١١).

وله - جل وعلا - السفن المرفوعات الجاريات في البحر، كالجبال في العظم والضخامة.

والعلم الجبل الطويل، فالسفن في البحر كالجبال في البر. ووجه الامتنان بها أن الله - تعالى - سير هذه السفن الضخمة التي تشبه الجبال على وجه الماء، وهو جسم لطيف مائع، يحمل فوقه هذه السفن الكبار المحملة بالناس والأرزاق، والمكاسب والمتاجر، من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم.

* وبعد تعداد هذه النعم وذكر هذه المنن العظيمة، تأتي النهاية لكل شيء في الوجود، ويتجلى وجه الكريم الباقي، متفرداً بالبقاء، متفرداً بالجلال والدوام، قال تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١١﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿١٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٥﴾﴾

قال الشعبي - رحمه الله - : إذا قرأت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١١﴾﴾ فلا

تسكت حتى تقرأ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٧].

وقال بعض السلف: إذا قرأت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١١﴾﴾ أن تصلها بقوله

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ حتى يتبين نقص المخلوق وكمال الخالق.

✽ قال تعالى: ﴿يُعَرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١].

قال ابن كثير: أي: بعلامات تظهر عليهم، وقال الحسن وقتادة يعرفونهم بأسوداد الوجوه وزرقه العيون، قلت - أي ابن كثير -: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء.

✽ ثم ذكر - تعالى - حال أهل الجنة، فقال:

﴿مُتَكِينِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

قال السعدي: وتلك الفرش لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله - عز وجل -، حتى إن بطائناتها التي تلي الأرض منها من إستبرق، وهو أحسن الحرير وأفخر، فكيف بظواهرها التي تلي بشرتهم؟

✽ قال تعالى: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذَّبَانِ﴾ [١٧].

أي: وللعبد الذي يخاف قيامه بين يدي ربه للحساب، جنتان: جنة لسكنه، وجنة لأزواجه وخدمه، كما هي حال ملوك الدنيا حيث يكون له قصر ولأزواجه قصر، وإنما كانت اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة.

✽ ثم وصف - تعالى - الجنتين، فقال:

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾ [١٨].

أي: ذواتا أغصان متفرعة وثمار متنوعة.

وخص الأفنان - وهي الغصون - بالذكر لأنها التي تورق وتثمر، ومنها تمتد الظلال وتجنى الثمار.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾ [١٩].

أي: في كل واحدة من الجنتين عين جارية، تجري بالماء الزلال، فمَاؤهما غزير وسهل يسير.

﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ ﴿٦٧٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧٤﴾ .

هذه صفة ثلاثة للجنات، أي: فيهما من جميع أنواع الفواكه والثمار صنفان: معروف، وغريب لم يعرفوه في الدنيا.

قال ابن عباس: ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل، إلا أنه حلو، وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء.

* ثم بعد ذكر الأمم الغابرة، وما نالها ونزل بها من العذاب والنكال بتكذيبهم الرسل، ذكر - سبحانه - حال المجرمين في النار، فقال:

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ ﴿٦٧٥﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ

سَقَرٍ ﴿٦٧٦﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٦٧٧﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٦٧٨﴾ .

* ثم ذكر حال المتقين، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ ﴿٦٧٩﴾ .

أي: المتقين لله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر، في جنات النعيم. وأنهار؛ يعني أنهار الماء، والخمر، والعسل، واللبن.

﴿ فِي مَقْعَدٍ صَدَقَ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ﴿٦٨٠﴾ .

أي: في مكان مرضي، ومقام حسن، في دار كرامة الله ورضوانه، وفضله وامتنانه، وجوده وإحسانه، عند رب عظيم جليل، قادر في ملكه وسلطانه، لا يعجزه شيء، وهو الله رب العالمين.

* ثم ذكر - سبحانه - بعض ما ينالهم من النعيم وتمام الأنس، فقال تعالى:

﴿ مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ ﴿٦٨١﴾ .

أي: مضطجعين في جنات الخلد على فرش وثيرة، بطائناتها من ديباج - وهو الحرير السميك - المزين بالذهب، وهذا يدل على نهاية شرفها لأن البطانة إذا كانت بهذا الوصف فما بالك بالظاهرة؟

﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٢١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٢﴾﴾ .

الجنى هو الثمر المستوي، أي: ثمرها قريب يناله القاعد، والقائم، والنائم، لا يتعب في قطافه، بخلاف ثمار الدنيا فإنها لا تنال إلا بكد وتعب.

﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ .

أي: في تلك الجنان نساء قاصرات الطرف، قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم.

قال الحسن: قاصرات الطرف على أزواجهن لا يردن غيرهم، والله ما هن متبرجات ولا متطلعات. وفيه دلالة على عظم خلق الحياء وأنه ممتد للآخرة.

﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٢٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٤﴾﴾ .

أي: لم يمسهن ولم يجامعهن أحد قبل أزواجهن لا من الإنس ولا من الجن، بل هن أبكار عذاري، متحبات إلى أزواجهن، بحسن التبعل والتغنج والملاحة والدلال.

* قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٦﴾﴾ .

هذه صفة للقاصرات، أي: يشبهن الياقوت والمرجان في صفائهن وحمرتهن، وجمال منظرهن وبهائهن، فهن ناضرات لامعات.

قال الحسن وعامة المفسرين: أراد صفاء الياقوت في بياض المرجان، شبههن في صفاء اللون وبياضه بالياقوت والمرجان، إن المرأة من نساء أهل الجنة لتلبس عليها سبعين حلة من حرير فيرى بياض ساقها من ورائهن، ذلك بأن الله يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٥﴾﴾ ، ألا وإن الياقوت حجر لو جعلت فيه سلكاً ثم استصفيته نظرت إلى السلك من وراء الحجر.

* قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾ .

أي: ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يُحسن إليه في الآخرة.
والغرض أن من قدم المعروف والإحسان، استحق الإنعام والإكرام.

❖ قال تعالى: ﴿مُتَكِينٍ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِي حِسَانٍ﴾ .

الاتكاء مظهر من مظاهر النعيم والرفاهية، والرفراف هو السرير الذي يجلس على المؤمن ويبتهج بمناظر الجنة.

قال القرطبي: وقيل: إن الرفراف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفراف به، وأهوى به، كالمرجاح يمينا وشمالا ورفعاً وخفضاً يتلذذ به مع أنيسه.

﴿وَعَبَقَرِي حِسَانٍ﴾ .

وهي: البسط والنمارق والوسائد المنسوجة من الحرير بأبداع النفوس والألوان.

سورة الواقعة ٥٦

سور الواقعة سورة تشتمل على أحوال يوم القيامة وذكر أهوالها وشدائدها، وما يكون بين يدي الساعة من أهوال، وانقسام الناس إلى ثلاث طوائف: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسابقون.

وذكرت السورة عن مآل كل فريق، وما أعدّه الله - تعالى - لهم من الجزاء العادل يوم الدين، كما أقامت الدلائل على وجود الله ووحدانيته، وكمال قدرته في بديع خلقه وصنعه، في خلق الإنسان، وإخراج النبات، وإنزال الماء، وما أودعه الله من القوة في النار، ثم نوهت بذكر القرآن العظيم، وأنه تنزيل رب العالمين، وما يلقاه الإنسان عند الاحتضار من شدائد وأهوال.

قال مسروق: من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة. وفي الحديث قال أبوبكر: يا رسول الله قد شئت، قال: «شيتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت» [رواه الترمذي].

وقد ورد في فضلها: ما رواه ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً» [رواه البيهقي].

* قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ .

ابتدأ هذه السورة بجملة شرطية عن وقوع الساعة، حذف جوابها؛ ليذهب الذهن في تقديره كل مذهب، ويسلك في تفخيمه كل طريق! ثم ذكر - سبحانه - أحوال الناس في ذلك اليوم العصيب واختلافهم، فذكر ذلك النعيم أو العذاب مفصلاً أوفى تفصيل؛ كأن العين تراه، والقلب يحس به ويشاهده؛ فقال تعالى:

﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ .

وكنتم - أيها الناس - أصنافاً وفاقاً ثلاثة: أهل اليمين، وأهل الشمال، وأهل السبق؛ فأما السابقون فهم أهل الدرجات العلى في الجنة، وأما أصحاب اليمين فهم سائر أهل الجنة، وأما أصحاب الشمال فهم أهل النار، هذه مراتب الناس في الآخرة. ثم فصلهم - تعالى - بقوله:

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ .

استفهام للتفخيم لأحوالهم والتعظيم بشأنهم، أي: هل تدري أي شيء أصحاب الميمنة؟ من هم وما هي حالهم وصفتهم؟ إنهم الذين يؤتون صحائفهم في إيمانهم، فهو تعجيب لحالهم، وتعظيم لشأنهم في دخولهم الجنة وتنعمهم بها.

﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ .

أي: هل تدري من هم؟ وما هي حالهم وصفتهم؟ إنهم الذين يؤتون صحائفهم بشمالهم، ففيه تعجيب لحالهم في دخولهم النار وشقائهم. والتكرير للتفخيم والتعجيب.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ .

هذا هو الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة، والتكرير فيه للتفخيم والتعظيم، أي: والسابقون إلى الخيرات والحسنات، هم السابقون إلى النعيم والجنات، ثم أثنى عليهم بقوله:

﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

أي: أولئك هم المقربون من الله، في جواره، وفي ظل عرشه، ودار كرامته، والسابقون المقربون جماعة كثيرة من الأمم السالفة. ولم يقل: (المقربون) حتى يفهم أن ما هم فيه من الله - تبارك وتعالى -، وليس شيئاً حصلوا عليه بأنفسهم، وإن كان عملهم الصالح وإيمانهم إنما هو في أول الأمر وآخره فضل من الرب - تبارك وتعالى -.

قيل : وأخر ذكر السابقين وكانوا أولى بالتقديم على أصحاب اليمين؟ فيه لطيفة؛ وذلك أن الله ذكر في أول السورة الأمور الهائلة عند قيام الساعة تخويفاً لعباده، فإما محسن فيزداد رغبة في الثواب، وإما مسيء فيرجع عن إساءته خوفاً من العقاب؛ فلذلك قدم أصحاب اليمين ليسمعوا ويرغبوا، ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا، ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ليجدوا ويجتهدوا.

* ثم بدأ - سبحانه - مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين، فقال تعالى:

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۚ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۚ﴾ .

أي: السابقون المقربون جماعة كثيرة من الأمم السالفة، لا يحصر عددها. وهم قليل من هذه الأمة، وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق.

* قال تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۖ مُتَكِينِينَ عَلَيْهَا ثَلَاثُونَ ۚ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۚ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۚ لَا يُصَدَّغُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ۚ وَفِيهَا مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۚ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۚ﴾ [الواقعة: ٢٠ - ٢١].

ولحم طير مما يحبون ويشتهون. قيل: قدم ذكر الفاكهة على اللحم؛ لأن الفواكه أعز، ولذلك جعل التخير للفاكهة، والاشتفاء للحم، ولأن الاشتفاء أعلق بالطعام منه بالفواكه، فلذة كسر الشهية بالطعام لذة زائدة على لذة حسن طعمه، وكثر التخير للفاكهة فيه لذة أخرى هي لذة تلوين الأصناف، فهم من لذة عظمى إلى مثلها.

* ولما فرغ - سبحانه - من ذكر أحوال السابقين، وما أعدّه لهم من النعيم المقيم، ذكر أحوال أصحاب اليمين، وهم الأبرار، فقال تعالى:

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ .

استفهام للتعظيم والتعجيب من حالهم، أي: ما أدراك من هم، وما هي حالهم؟ فشأنهم عظيم وحالهم جسيم، فهم: تحت أشجار السدر. قال المفسرون: والسدر: شجر النبق، والمخضود الذي خُضد أي قطع شوكة. وللسدر من الخواص؛ الظل الظليل، وراحة الجسم فيه.

﴿وَطَلَحَ مَنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ .

هو شجر الموز. ومعنى منضود، أي: متراكم قد نُضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه.

* ثم قال - تعالى - في وصف نساء الجنة:

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٠﴾﴾ .

جمع عروب، وهي المتحبة لزوجها، العاشقة له بحسن لفظها، وجمال هيئتها، ودلالها وبهائها. فجمع - سبحانه - بين حُسن صورتها وحسن عشرتها، وهذه غاية ما يطلب من النساء، وبه تكمل لذة الرجل بهن.

﴿أَتْرَابًا ﴿٣١﴾﴾ .

أي: مستويات في السن مع أزواجهن، في سن أبناء ثلاث وثلاثين. * وبعد أن ذكر - سبحانه - أهل الجنة وهم السابقون، وأحوال أهل اليمين، ذكر الصنف الثالث المعاند المكذب، وهم أهل النار، والعياذ بالله، فقال:

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٣٢﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٣٣﴾ وَظِلٍّ مِّنْ تَحْمُومٍ ﴿٣٤﴾﴾

لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٣٥﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٣٦﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٣٧﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٣٨﴾﴾ .

استفهام بمعنى التهويل والتفظيع والتعجيب من حالهم.

أي: وأصحاب الشمال - وهم الذين يعطون كتبهم بشمائلهم - ما أصحاب الشمال؟ أي: ما حالهم، وكيف مآلهم وأي شيء هم فيه؟

* وبعد أن فصّل - تعالى - حالهم، قال:

﴿ هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي: هذا الطعام والشراب، ضيافتهم وكرامتهم يوم القيامة، والنُّزْلُ في الأصل ما يُهيأ للضيف أول قدومه من التحف والكرامة، فتسمية الزقوم نُزلاً، تهكم بهم.

وفيه مبالغة بديعة، لأن النزل ما يعد للقدام عاجلاً إذا نزل، ثم يؤتى بعده بما هو المقصود من أنواع الكرامة، فلما جعل هذا، مع أنه أمر مهول، كالنزل، دل على أن بعده ما لا يطيق البيان شرحه.

* ولما ذكر - تعالى - الأشقياء المجرمين وأحوالهم في نار جهنم، ذكر هنا الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته في بديع خلقه وصنعه، لتقوم الحجة على المنكر المكذب بوجود الله، قال تعالى:

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدِّقُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ .

* قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٤].

واقصر - سبحانه - على ذكر الشرب مع كثرة فوائد الماء ومنافعه؛ لأنه أعظم فوائده وأجل منافعه.

* قال تعالى: ﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ ﴿٦٦﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة ٦٩ - ٧٠].

قال ابن عثيمين: لم يقل: لو نشاء لم ننزل؛ لكن قال: لو نشاء جعلناه أجاجاً - أي: مالحاً لا يمكن أن يشرب -، فما الحكمة في اختيار هذه اللفظة: ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ [الواقعة: ٧٠] لم يقل: لو نشاء لم ننزل؛ لأن حسرة الإنسان على ماء بين يديه، ولكن لا يستطيعه ولا يستسيغه أشد من حسرته على ماء مفقود.

* قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥].

قال ابن عثيمين: ولم يأت التعبير (لو نشاء لم ننبته) لأن كونه ينبت، وتعلق به النفس ثم يكون حطاماً، أشد وقعاً على النفس من كونه لا ينبت أصلاً.

* قال تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣].

قال ابن القيم: جعل الله النار تذكرة للمقوين - أي: المسافرين -، مع أن منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين، تنبيهاً لعباده - والله أعلم - على أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر، ليسوا مقيمين ولا مستوطنين.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣]، قال الشنقيطي:

أي أن في دار الدنيا إذا أحسوا شدة حرارتها تذكروا بها نار الآخرة التي هي أشد منها حراً، لينزجروا عن الأعمال المقتضية لدخول النار.

* تحدثت الآيات عن ثواب المؤمنين وعقوبة أصحاب الشمال؟ ففي

الحديث عن ثواب المؤمنين لم يذكر سبب الثواب، وحينما ذكر عذاب أصحاب الشمال بين سبب تعذيبهم.

قال الألوسي: والحكمة في ذكر سبب عذابهم، مع أنه لم يذكر في أصحاب اليمين سبب ثوابهم، فلم يقل: إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مدعنين؛ التنبيه على أن ذلك الثواب منه - تعالى - فضل، لا تستوجبه طاعة مطيع، وشكر شاكر، وأن العقاب منه - تعالى - عدل، فإذا لم يعلم سبب العقاب يظن أن هناك ظلماً.

* قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥].

المناسبة بين ذكر النجوم في القسم، وبين القسم عليه وهو القرآن من وجوه منها: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي، مع ما في النجوم من

الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الأنس والجن.

* قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة: ٧٩].

ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي، قال البخاري في صحيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به.

وقال شيخ الإسلام - رحمه الله -: كما أن اللوح المحفوظ الذي كتب فيه حروف القرآن لا يمسه إلا بدن طاهر، فمعاني القرآن لا يذوقها إلا القلوب الطاهرة، وهي قلوب المتقين.

قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة: ٧٩].

فالقرآن الكريم لا ينتفع به إلا من طهر قلبه من الشرك والحقد والبغضاء ليكون طاهراً قابلاً لمعرفة المعاني.

* وختم - تعالى - السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى، كما ذكر في أولها أحوالهم في القيامة الكبرى، وقسمهم إلى ثلاثة، وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون، فوقهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وإرادته، وقرّهم على ذلك بما لا سبيل لهم إلى دفعه ولا إنكاره فقال:

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٢﴾﴾.

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: ذكر الله الحلقوم دون المريء؛ لأن الحلقوم مجرى النفس، ويانقطاعه يموت الإنسان، فإذا بلغت الروح الحلقوم وهي صاعدة من أسفل البدن إلى هذا الموضع، حينئذ تنقطع العلائق من الدنيا، ويعرف الإنسان أنه أقبل على الآخرة، وانتهى من الدنيا.

* وختمت السورة بذكره - تعالى - طبقات الناس عند الموت وعند البعث، وبين درجاتهم في الآخرة بذكر الطوائف الثلاث، وهم أهل السعادة، وأهل

الشقاوة، والسابقون إلى الخيرات من أهل النعيم، وبيّنت عاقبة كل منهم، ذكرت أحوالهم عند الموت والاحتضار، فكان ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من الإجمال، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والختام، قال تعالى:

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٨٨ ۖ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ٨٩ ۝ ﴾ .

أي: فأما إن كان هذا الميت من المحسنين السابقين بالدرجات العلا السابقين المذكورين في أول السورة الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات، والمكروهات، وفضول المباحات، فلهم عند ربهم روح: أي راحة وطمأنينة، وسرور وبهجة، ونعيم القلب والروح. وريحان: وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، ورزق حسن، وجنة واسعة يتنعم فيها.

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ٩٠ ۖ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ٩١ ۝ ﴾ .

وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين، وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، فهم، من السعداء أهل الجنة الذين يأخذون كتبهم بآيمانهم. فسلام لك - يا محمد - منهم، لأنهم في راحة وسعادة ونعيم.

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ٩٢ ۖ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ٩٣ ۖ وَتَصْلِيَةٌ

حَمِيمٍ ٩٤ ۝ ﴾ .

وأما إن كان المحتضر من المنكرين للبعث، الضالين عن الهدى والحق، وهم أصحاب الشمال المتقدم ذكرهم، وتفصيل أحوالهم. فضيافتهم التي يكرمون بها أول قدومهم، الحميم الذي يصهر البطون لشدة حرارته. والنزل أول شيء يقدم للضيف، ولهم إصلاة بنار جهنم، وإذاقة لهم من حرها. والتصلية: من صلاة الله النار فهو تصلية، وذلك إذا أحرقه بها.

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ٩٥ ۝ ﴾ .

إن هذا الذي قصصناه عليك - يا محمد - من جزاء السابقين، والسعداء، والأشقياء، لهو الحق الثابت الذي لا شك فيه ولا ريب، وهو عين اليقين

الذي لا يمكن إنكاره، فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم إلى اليقين؛ وعن درجة اليقين إلى حقه.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

فنزّه ربك عن النقص والسوء، وعما يصفه به الظالمون.

ولما نزلت هذه الآية الكريمة، قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»،

ولما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قال ﷺ: «اجعلوها في سجودكم» [رواه أبو داود].

سورة الحديد ٥٧

هذه السورة الكريمة من السور المدنية، التي تعنى بالتشريع والتربية والتوجيه، وتبني المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية، والخلق الكريم، والتشريع الحكيم.

وقد ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن عظمة الخالق - جل وعلا - الذي سبَّح له كل ما في الكون من شجر وحجر، ومدر وإنسان، وحيوان وجماد، فالكل ناطق بعظمته، شاهد بوحدانيته.

سميت سورة الحديد بهذا الاسم لورود لفظ الحديد وهو قوة الإنسان في السلم والحرب وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾.

وجه اتصالها بالواقعة: أنها قدمت بذكر التسبيح، وتلك ختمت بالأمر به. وتماه: أن أول الحديد واقع موقع العلة للأمر به، وكأنه قيل: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦] لأنه: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١].

- وقد ابتدأت السورة بالتسبيح لله - عز وجل -، وسور التسابيح خمس مجموعة في هذا البيت:

حَدِيدٌ وَحَشْرٌ ثُمَّ صَفٌّ وَجَمْعَةٌ

تَغَابُنْ خَمْسٌ تِلْكَ نِظْمُ التَّسَابِيحِ

* قال تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

يخبر - سبحانه - عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه، أن جميع ما في الكون من إنسان، وحيوان، ونبات، تسبح بحمده، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وأنها قائنة لربها، منقادة لعزته، قد ظهرت فيها آثار حكمته.

دليل على أن كل عمل يسبق إليه أفضل مما يؤخر، من غير أن نلحق بالمتأخر تقصيراً.

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

قال السعدي: وهذه المعية معية العلم والاطلاع، ولهذا توعد ووعد على المجازاة بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

* قال تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

قال ابن عاشور: وتخصيص الإنفاق بالذكر تنويه بشأنه، وقد كان أهل الجاهلية لا ينفقون إلا في اللذات والمفاخرة، والمقامرة ومعاقرة الخمر.

* قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ [الحديد: ١٠].

وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشق والأجر على قدر النصب.

قال ابن تيمية: وبالشجاعة والكرم في سبيل الله فضل السابقون، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ [الحديد: ١٠].

* قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

لما ذكر الله في القرآن الظلمات جمع، والنور مفرد، قال ابن القيم: هذا من إعجاز القرآن لأن طريق الحق واحد، وطرق الباطل متشعبة متعددة.

* قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

وسمى ذلك الإنفاق قرضاً حسناً، حثاً للنفوس وبعثاً لها على البذل؛ لأن الباذل متى علم أن المستقرض مليء وفيّ مُحسن، كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه.

قال السعدي: من كرم الله - تعالى - أن سماه قرضاً، والمال ماله، والعبد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافاً كثيرة، وهو الكريم الوهاب. وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة، يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزاء الحسن.

قال القشيري: والقرض الحسن أن يكون المتصدق صادق النية، طيب النفس يبتغي به وجه الله دون الرياء والسمعة وأن يكون من الحلال. في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله - جل جلاله - يربي صدقة المتصدق كما يربي أحدكم فلوه، أو فصيله» [متفق عليه].

ألا ترى أن ذكر مضاعفتها قبل أجرها، ليكون الأجر على ما رباه وأعظمه، لا على صغير ما أقرضه، جوداً منه وكرماً وهو أعلم.

* قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧].

قال ابن عاشور افتتاح الكلام ﴿اعْلَمُوا﴾ ونحوه يؤذن بأن ما سيلقى جدير بتوجيه الذهن بشرائه إليه.

* لما ذكر - تعالى - اغترار المنافقين والكافرين بالحياة الدنيا، نبّه المؤمنين ألا يكونوا مثلهم، أو مثل أهل الكتاب بالاغترار بدار الفناء، ثم ضرب مثلاً للحياة الدنيا وبهرجها الخادع الكاذب، وذكر دلائل وحدانيته وعظمته مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين عتاب فيه ود، وفيه الحض، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي:

أما حان للمؤمنين أن ترق قلوبهم وتلين لمواعظ الله؟

ولولا عظم منزلة الخشوع وعلوها، لما عاتب الله الصحابة أفضل القرون، الذين لم يصلوا إلى تلك المرتبة السامية التي يريد الله لهم بعد بضع سنين.

قال ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلا أربع سنين. [رواه مسلم].

يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴿١﴾ إلا أربع سنين. [رواه مسلم].

* ثم ذكر - سبحانه - حافزاً لأهل البذل والعطاء، في المال والنفس والفداء، ويخبر عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة، والفقر، والمسكنة، قال تعالى:

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَعَّفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ .

أي: الذين تصدقوا بأموالهم على الفقراء ابتغاء وجه الله، والذين أنفقوا في سبيل الله، وفي وجوه البر والإحسان طيبة بها نفوسهم، بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخراً لهم، وذخراً عند ربهم، يضاعف لهم ثوابهم بأن تكتب الحسنة بعشر أمثالها، ولهم فوق ذلك ثواب حسن جزيل، وهو الجنة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ .

أي: صدقوا بوحدانية الله ووجوده، وآمنوا برسله إيماناً راسخاً كاملاً، لا يخالجه شك ولا ارتياب. والإيمان عند أهل السنة والجماعة، هو: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ .

أي: أولئك الموصوفون بالإيمان بالله ورسله، هم الذين جمعوا أعلى المراتب، فحازوا درجة الصديقية والشهادة في سبيل الله.

ومقام الصديقين مقام رفيع كما فصلته وذكرته الأحاديث النبوية، ومع علو هذا المقام، فهو بفضل الله ميسور لمن سعى لنيله وطلبه. والصديق: الكثير الصدق.

* ولما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين، ذكر بعدها حقيقة الدنيا وما هي عليه، وبين غايتها وغاية أهلها، وذكر ما يدل على حقارة الدنيا، وكمال حال الآخرة، فقال:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠].

أعقب التحريض على الصدقات والإنفاق بالإشارة إلى دحض سبب الشح، وأنه الحرص على استبقاء المال لإنفاقه في لذائذ الحياة الدنيا، فضرب لهم مثل الحياة الدنيا بحال محقرة على أنها زائلة تحقيراً لحاصلها وتزهيداً فيها، لأن التعلق بها يعوق عن الفلاح، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

* قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾.

إشارة إلى بيان أنواع الحياة وأن اختلافها يكون تبعاً لاختلاف الأزمنة والنفسيات، فالمرء في مهده همه اللهو، وفي صباه اللعب، وفي شبابه الزينة والتفاخر، وفي شبابه التكاثر.

عن قزعة قال: رأيت على ابن عمر ثياباً خشنة، فقلت له: إني قد أتيتك بثوب ألين، مما يصنع بخراسان، وتقر عيناى أن أراه عليك، قال: أرنيه؛ فلمسه وقال: أحرير هذا؟ قلت: لا، إنه من قطن، قال: إني أخاف أن ألبسه، أخاف أكون مختالاً فخوراً، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

* قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤].

وهو الغني - سبحانه - لا حاجة له إلى خلقه، يده ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، يقول ﷺ فيما يروي عن ربه: «يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قاموا على صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر» [رواه مسلم].

* قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥].

قرن - تعالى - في هذا الموضع بين الكتاب والحديد؛ لأن بهذين الأمرين ينصر - الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان والسيف الناصر بإذن الله.

* قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ .
قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: الزهد المشروع هو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله.

وفي الأثر: الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يدي الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

* قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ .

عن عبد الرحمن بن عمر قال: ذكر عند عبد الرحمن بن مهدي قوم من أهل البدع، واجتهادهم في العبادة، فقال: لا يقبل الله إلا ما كان على الأثر والسنة؛ ثم قرأ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]، فلم يقبل ذلك منهم، ووبخهم عليه، ثم قال: الزم الطريق والسنة.

سورة المجادلة ٥٨

سورة المجادلة سورة مدنية، وتسمى سورة (قد سمع) وتسمى كذلك سورة (الظهار).

تصور الآيات في أولها حالة وقعت في بيت من البيوت يقبع في أطراف المدينة، ويتنزل الوحي ليتدخل في شأن يومي لأسرة صغيرة فقيرة مغمورة. والآيات وما جرى فيها من أحداث تملأ قلب المؤمن بوجود الله وقربه، وعطفه ورعايته، وكلايته وعنايته.

وقد نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكت زوجته إلى الله، وجادلتها إلى رسول الله ﷺ لما حرمها على نفسه بعد الصحبة الطويلة، والأولاد، وكان هو رجلاً شيخاً كبيراً.

وفي السورة جملة من الأحكام التشريعية كأحكام الظهار، والكفارة التي تجب على المظاهر، وحكم التناجي، وآداب المجالس، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ، وأحكام الولاء والبراء وعدم مودة الكافرين.

وقد ورد اسم الجلالة (الله) في كل آية منها، ومجيء اسم الجلالة (الله) يغلب في مقام الأحكام، ومقام الإجلال والمهابة.

وختمت السورة ببيان حقيقة الحب في الله، والبغض في الله، الذي هو أصل الإيمان، وأوثق عرى الدين. وجاء في السورة مدح للمؤمنين بعدم مولاتهم لمن حاد الله ورسوله.

* قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أي: حقاً لقد سمع الله قول المرأة التي تحاورك وتراجعك الكلام في شأن زوجها وأمره، وما جرى بينهما.

﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾.

وتتضرع إلى الله - تعالى - في تفريج كربتها، وتظهر ما بها من المكروه.

قالت عائشة: - تبارك - الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفي عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾.

﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾.

أي: ما تتراجعان به من الكلام والحديث، ماذا قالت لك، وماذا رددت عليها. هي وزوجها أوس بن الصامت أحد الأنصار. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾.

لجميع الأصوات، سميع بمن يناجيه ويتضرع إليه.

﴿بَصِيرٌ﴾.

بمن يشكو إليه، يبصر ديب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وفي هذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتها بالأمر الدقيقة والجليلة، وهو كالتعليل لما قبله، وكلاهما من صيغ المبالغة في العلم بالمسموعات والمبصرات، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله - تعالى - سيزيل شكواها، ويرفع بلواها، ولهذا ذكر حكمها، وحكم غيرها على وجه العموم.

يؤخذ من الآية وجوب رفع الشكوى إلى المولى - عز وجل - الذي يكشف الضر ويرفع البلوى، وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة، فأنزلها بالناس؛ لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى: إما بموت عاجل، أو غنى عاجل» [صححه الألباني].

ولكن ينبغي عدم الخلط بين شكوى الحال إلى الغير، وبين ما كان من باب المشورة والاستئناس برأي صديق محب، وناصح عاقل لبيب؛ فيما قد

يعرض للإنسان، فإن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، فهذا ليس من الشكوى المنهي عنها.

* قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَاهُمْ مَا هُمْ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا آلٌ لِّئِيَّ وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ ۝٢﴾ [المجادلة: ٢].

ومن الملاحظ أنه استعمل ﴿آلٌ لِّئِيَّ﴾ الهمزة في حالي الظهر والطلاق، ولم يستعملها في غيرها، وكأن ذلك لثقل الهمزة، فاستعمل الهمزة لثقلها للحالات الثقيلة النادرة، وهي حالات المفارقة.

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١﴾ [المجادلة: ١١].

وحذف متعلق ﴿يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ليعلم كل ما يتطلب الناس الإفراح فيه في الدنيا والآخرة من مكان أو رزق أو جنة عرضها السماوات والأرض.

قال ابن تيمية: فرفع الدرجات والأقدار معاملة بالعلم والإيمان، فكم ممن يختتم القرآن في اليوم مرة أو مرتين، وآخر لا ينام الليل، وآخر لا يفطر، وغيرهم أقل عبادة منهم وأرفع قدراً في قلوب الأمة، وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول ﷺ، وكمال تصديقه في قلوبهم، ووده ومحبته، وأن يكون الدين كله لله، فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ واتهاجها وسرورها.

قال الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله -: من عمل بهذا القرآن تصديقاً بأخباره، وتنفيذاً لأوامره، واجتناباً لنواهيه، واهتداءً بهديه، وتخلقاً بما جاء به من أخلاق - وكلها أخلاق فاضلة - فإن الله - تعالى - يرفعه به في الدنيا والآخرة؛ وذلك لأن هذا القرآن هو أصل العلم ومنبع العلم

وكل العلم، وقد قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

قال بعض العلماء: المناسبة بين مكانة أهل الإيمان والعلم، وبين الأمر بالتفصح في المجالس والارتفاع منها وجوه عدة:

الأول: الإشارة والتنبيه إلى أن من أهم المجالس إن لم يكن أهمها مجالس الإيمان والعلم.

الثاني: أن التأدب بآداب المجالس من صفات أهل الإيمان والعلم.

الثالث: الإشارة إلى تقديم أهل الإيمان والعلم في المجالس لفضلهم ومكانهم.

* قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا إذا كان عاملاً على مقتضى الإيمان ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته ولو كان أقرب الناس إليه، فإنه لا يجتمع في قلب واحد حب الله وحب أعدائه.

ومعنى يوادون: يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وشاقهما. وغرض الآية النهي عن مصادقة ومحبة الكفرة والمجرمين، ولكنها جاءت بصورة إخبارية مبالغة في النهي والتحذير.

﴿وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

أي: ولو كان المحادون لله ورسوله أقرب الناس إليهم، كالآباء، والأبناء، والإخوان، والعشيرة، فإن الإيمان يزجر عن ذلك ويمنع منه، ورعايته أقوى من رعاية الأبوة والبنوة والأخوة والعشيرة، وبدأ بالآباء لأن طاعتهم واجبة على الأولاد، ثم بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب، ثم بالإخوان لأن بهم التعاضد، ثم بالعشيرة لأن بهم التناصر والمقاتلة والتغلب على الأعداء.

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ .

يعني: الذين لا يوادّون من حادّ الله ورسوله. أثبت الإيمان ومكنه، وجمعه وجعله في قلوبهم، فهي قلوب مؤمنة موقنة مخلصه. وقوّاهم بنصر منه وتأييده على عدوّهم في الدنيا، وسمى نصره لهم روحاً؛ لأن به يحيا أمرهم.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ .

ويدخلهم في الآخرة بساتين فسيحة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، ماكثين فيها أبد الأبد.

* قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ .

أي: قبل أعمالهم فرضي عنهم، وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة والآجلة.

وقدم - عز وجل - رضاه على رضاهم لأن رضا الله هو الأصل الذي بني عليه إرضاءه لهم.

﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ .

أي: فرحوا بما أعطاهم الله عاجلاً وآجلاً، وإنما ذكر رضوانه عليهم بعد دخولهم الجنة؛ لأنه أعظم النعم، وأجل المراتب.

قال ابن كثير: وفي الآية سر بديع وهو أنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله - تعالى -، عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم والفضل العميم.

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

أي: جنده وخاصته، وأولياؤه الذين يمثلون أوامره، ويقاتلون أعداءه، وينصرون أوليائه، وفي إضافتهم إلى الله - سبحانه - تشريف لهم عظيم، وتكريم فخيم.

وفي قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ للذي للبعد للدلالة على علو مقامهم ورفعتهم.

سورة الحشر ٥٩

سورة الحشر سورة مدنية، نزلت في المدينة. وتسمى هذه السورة: (سورة بني النضير)، وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة وقت بعثة النبي ﷺ، فلما بُعث ﷺ وهاجر إلى المدينة هادن سائر طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد وقعة بدر بستة أشهر أو نحوها، خرج إليهم النبي ﷺ فغدروا به وأرادوا قتله، فظهرت بعض آثار قدرة الله ومظاهر عزته بإجلاء اليهود من ديارهم وأوطانهم، مع ما كانوا فيه من الحصون والقلاع، وكانوا يعتقدون أنهم في عزة ومنعة لا يستطيع أحد عليهم، فجاءهم بأس الله وعذابه من حيث لم يكن في حسابهم، وفي السورة بين الله أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض.

* قال تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

افتتح - سبحانه - هذه السورة بالإخبار أن جميع من فوق السموات والأرض تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وتعبدوه وتخضع لعظمته، وقدرته وجلاله.

وقد جاء التسبيح بصيغة الماضي هنا ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ﴾ وجاء بصيغة المضارع ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ في سورة الجمعة، وجاء بصيغة الأمر في سورة الأعلى ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾. وفي هذا ما يشير إلى أن جميع أوقات الزمان ولحظاته مملوءة بذكر الله والتسبيح بحمده.

- وقد جاءت عدة سور مبتدأة بالتسبيح، سميت المسبحات، وهن:

الأولى: سورة الحشر: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

الثانية: سورة الصف: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الصف: ١].

الثالثة: سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

الرابعة: سورة التغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه.

ثم بين - عز وجل - آثار قدرته الباهرة وعزته الظاهرة، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾.

أي: هو - عز وجل - الذي أخرج يهود بني النضير من مساكنهم بالمدينة. وبنو النضير، رهط من اليهود من ذرية هارون، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل، فغدروا بالنبي ﷺ بعد أن عاهدوه، وصاروا عليه مع المشركين، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى رضوا بالجللاء، وكانوا أول من أجلي من أهل الكتاب من جزيرة العرب، ثم أجلي آخرهم في زمن عمر - رضي الله عنه -، فكان جلاؤهم أول حشر من المدينة، وآخر حشر إجلاء عمر لهم، وقيل: آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر.

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ

النَّارِ﴾ [الحشر: ٣].

والفرق بيني الجلاء والإخراج وإن كان معناه في الإبعاد واحداً من جهتين: إحداهما أن الجلاء كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد، الثاني: أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة والإخراج لجماعة ولو واحد.

* قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

قال الشنقيطي: في هذه الآية الكريمة وصف شامل للمهاجرين في دوافع الهجرة، أنهم: يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وغايتها، وهي: وينصرون الله ورسوله، والحكم لهم بأنهم: أولئك هم الصادقون.

* ثم مدح - عز وجل - الأنصار وأبان فضلهم وشرفهم، وعدم حسدهم، وإيثارهم المهاجرين مع الحاجة ورضاهم بإعطاء الفيء لهم، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وفي ذكر ﴿الدَّارَ﴾ - وهي المدينة - مع ذكر الإيمان إيماء إلى فضيلة المدينة، بحيث جعل تبوءهم المدينة قرين الشاء عليهم بالإيمان، ولعل هذا هو الذي عناه مالك - رحمه الله - فيما رواه عنه ابن وهب قال: سمعت مالكا يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق، فقال: إن المدينة تَبَوَّئَتْ بالإيمان والهجرة وإن غيرها من القرى افتتحت بالسيف، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩].

قال ابن كثير: أحسن ما قيل فيه: لا يحسدون إخوانهم على فضل ما أعطاهم الله.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

أخبر أن إيثارهم إنما هو بالشيء الذي إذا وقى الرجل الشح به كان من المفلحين، وهذا إنما هو فضول الدنيا لا الأوقات المصروفة في الطاعات.

فإن الفلاح كل الفلاح في الشح بها. فمن لم يكن شحيحاً بوقته تركه الناس على الأرض عياناً مفلساً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الناس على ثلاث منازل؛ فمضت منزلتان، وبقيت واحدة:

الأولى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا...﴾ [الحشر: ٨] هؤلاء المهاجرون، وهذه منزلة قد مضت.

الثانية: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾ [الحشر: ٩]، وهؤلاء الأنصار وهذه منزلة قد مضت.

الثالثة: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]، فأحسن ما أنتم عليه كائنون، أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت.

* قال تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣].

وجه وصف الرهبة بأنه في صدورهم، الإشارة إلى أنها رهبة جد خفيفة أي: أنهم يتظاهرون بالاستعداد لحرب المسلمين ويتطاولون بالشجاعة ليرهبهم المسلمون وما هم بتلك المثابة فاطلع الله رسوله ﷺ على دخيلتهم. المنافق يخوف بالناس، والمؤمن يخوف بالله.

* قال تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

قال البغوي: بأْسُهُمْ فيما بينهم من وراء الحيطان والحصون شديد، فإذا خرجوا لكم فهم أجنب خلق الله.

* وبعد أن ذكر الله - عز وجل - المنافقين والكفار وحالهم ومآلهم ومصيرهم، وما يجري بينهم من الدلالة على الكفر والشر، ذكر الله - عز وجل - المؤمنين ووعظهم وهيب، يوم لا ينفع فيه حسب ولا نسب ولا جاه

ولا مال، وأمر عباده المؤمنين بالتقوى والاستعداد لليوم الآخر، ثم ذكر الله في سياق الآيات حال أصحاب الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وحال الكفار والمنافقين وما هم فيه من الشقاء والعذاب الأليم، قال تعالى:

﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَلْتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ﴾ [الحشر: ٨].

قال السعدي: هذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه وأنه ينبغي له أن يتفقدتها فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه وإلقائه، ويقايس بين من الله عليه وإحصائه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياة بلا محالة.

﴿وَلْتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ﴾ [الحشر: ١٨].

مجىء قدمت بصيغة الماضي، حث على الإسراع في العمل، وعدم التأخير؛ لأنه لم يملك إلا ما قدم في الماضي، والمستقبل ليس بيده ولا يدري ما يكون فيه: وما تدري نفس ماذا تكسب غداً.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ١٨].

فإن قيل: لم كرر الأمر بالتقوى؟ فالجواب من وجهين: أحدهما أنه تأكيد، والآخر وهو الأحسن أنه أمر أولاً بالتقوى استعداداً ليوم القيامة، ثم أمر به ثانياً؛ لأن الله خبير بما يعملون، فلما اختلف الموجبات كرره مع كل واحد منهما.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ١٩].

قال ابن القيم: إن دوام ذكر الرب - تبارك وتعالى - يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، فإن نسيان الرب - سبحانه وتعالى - يوجب نسيان نفسه ومصالحها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ، ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله - تعالى -، واللهج به، وأن لا يزال اللسان رطباً به، وأن يتولى منزلة حياته التي لا غنى له عنها، ومنزلة غذائه الذي إذا فقد فسد جسمه وهلك، ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها، فمن نسي الله - تعالى - أنساه نفسه في الدنيا، ونسيه في العذاب يوم القيامة.

* قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].
قال القرطبي: حث على تأمل مواعظ القرآن، وبين أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظها، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي متشقة من خشية الله.

قال ابن الجوزي: والله لو أن مؤمناً عاقلاً قرأ سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، وآية الكرسي، وسورة الإخلاص بتفكير وتدبر لتصدع من خشية الله قلبه، وتحير في عظمة الله له.

* قال جل وعلا: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].
هو المتكبر وحده، ولا يليق الكبر إلا به، ومن تكبر من خلقه فمأواه سقر، والعبد واجب عليه التذلل والخضوع لربه، والتواضع لعباده.
* وبعد أن ذكر الله بالقرآن العظيم الدال على الخير المعروف بعظمة الله المقتضية للخشية، أعقب ذلك بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا المناسبة لغرض السورة في تعريف المؤمنين بعظمته المقتضية لخشيته، وهي

أثر من آثار القرآن في كيان الوجود كله، فقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

وهو الجبار: الذي يجبر الضعيف من عباده، فيجبر الكسير، ويغني الفقير، ويسر على المعسر كل عسير، ويجبر القلوب المنكسرة من أجله، الخاضعين لعظمته، كما يجبر ضعف الأبدان فييسر أسباب الشفاء لها، ويجبر عبده المؤمن بإصلاح حاله وماله في دينه ودنياه وآخرته.

والجبار: يشمل ثلاث معان: جبر القوة والقهر، وجبر الرحمة وإحلال الفرج والطمأنينة، وجبر العلو، فهو فوق خلقه عال عليهم، وقريب منهم يسمع أقوالهم، وقد ورد الدعاء باسم الجبار «سبحانه ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة» [رواه أبووداد].

واتصاف البشر بهذه الصفة مذموم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢] وقوله: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥].

* قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

وذكر وصف (المؤمن) عقب الأوصاف التي قبله إتمام للاحتراز من توهم وصفه - تعالى - بـ (الملك) أنه كالملوك المعروفين بالنقائص.

فافيد أولاً نزاهة ذاته بوصف (القدوس)، ونزاهة تصرفاته المغيبة من الغدر والكيد بوصف (المؤمن)، ونزاهة تصرفاته الظاهرة من الجور والظلم بوصف (السلام).

وهو القدوس: المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال، فلا إله معه يدعى، ولا ولي معه ينادى.

وهو السلام: السالم من جميع العيوب وخلل الأوصاف، جميع المخلوقات تنزه ربنا من ذلك، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٤١].
 وهو المؤمن: خلقه آمنون من أن يظلمهم أو يخذلهم حقهم.
 وهو المهيمن: على خلقه، مطلع على خفاياهم وخبابا صدورهم، فلا تأمن مكر الله إن عصيته.

وهو الشهيد: على أقوال وأفعال عباده: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وهو العزيز: لا يُغلب، عز كل شيء فقهره، ذلت الصعاب لعزته، ولانت الشدائد لقوته، إذا قضى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، من دنا منه بالطاعة عز، قال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، ومن بارزه بالمعصية ذل، فلا تنظر إلى المعصية وانظر إلى من عصيت.

* قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

بدأ باسم الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ الذي يجمع جميع صفات الكمال. وفي هذه الآية رد العجز على الصدر لأن صدر السورة مماثل لآخرها. فقد بدأت بالتسبيح وختمت بالتسبيح، فتلاقى المطلع والختام في تناسق سور عجيب.

وهو الباري: برأ الخلق من عدم، نجوم وشمس وقمر، وخلق في الأفق ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، أدهشت من تفكر فيها وتذكر.
 وهو المصور: صور خلقه على صفات مختلفة، وهيئات متباينة كيف شاء ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥].

وخلق الإنسان في أحسن صورة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وختم فاصلة الآية بقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٢٢].
 فإن من اتصف بهذه الصفات من الجلالة والعظمة بحيث ينبغي أن
 يتعجب من حال من أشرك به غيره، فالتسبيح لتزيهه، والمعنى تنزه الله عن
 شرك من أشرك به.

سورة الممتحنة ١٠

سورة الممتحنة سورة مدنية، تدور شرائعها في محيط الولاء للمؤمنين والبراءة من المشركين، والحب والبغض في الله الذي هو أوثق عرى الإيمان. وقد ذكر كثير من المفسرين، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة - رضي الله عنه -، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش يخبرهم بسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك يداً عندهم، لا شكاً ولا نفاقاً، وأرسله مع امرأة، فأخبر الله - عز وجل - النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب، وعاتب حاطباً، فاعتذر - رضي الله عنه - بعذر قلبه النبي ﷺ. وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاته الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان.

* قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١].

قال الشوكاني: وأضاف - سبحانه - العلو إلى نفسه تعظيماً لجرمهم.

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: فإن المودة إذا حصلت تبعثها النصرة والموالاتة فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران وانفصل عن أهل الإيمان.

وقال - رحمه الله -: فأَي دين، وأي مروءة وعقل، يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان ومكان؟ ولا يمنعهم منه إلا خوف، أو مانع قوي.

* ثم ذكر - عز وجل - حالهم مع المسلمين، فقال:

﴿إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢].

عطف الفعل ﴿وَوَدُّوا﴾ - وهو ماضٍ - على الفعل المضارع ﴿يَكُونُوا﴾ والسر - في ذلك - والله أعلم - أن رغبة الكفار في كفر المسلمين لما كانت قطعية غير محتملة الشك، متأصلة فيهم، لا يحول بين قلوبهم وبين مودتها ذلك حائل، عبر عن ذلك بالماضي الذي يؤتي به للتعبير عما قد تحقق، أو عن متحقق الوقوع.

أما كونهم أعداء للمسلمين، وباسطي الأيدي والألسن بالسوء لهم فأمر مشكوك فيه، لاحتمال أن يعرض لهم ما يصددهم عنه من قوة المسلمين أو ضعف في الكفار، فلما لم يكن متحقق الوقوع عبر عنه بالمضارع.

* قال تعالى: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٣].

أي: لا تنفعكم القربات على عمومها ولا الأولاد، وخصهم بالذكر مع دخولهم في الأرحام لمزيد من المحبة لهم والحنو عليهم.

* قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦].

قال السعدي - رحمه الله -: كرر الحث على الاقتداء بهم، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من ﴿كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الإكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقراً ومضطرباً إلى ذلك غاية الاضطراب.

ولما نزلت الآيات السابقة وتشدد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين، أطمعهم - سبحانه - في تحول الحال إلى خلافه، وفيها أخبر أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ماداموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة الإيمانية ترجع، فلا تيأسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان، قال تعالى:

﴿وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وهو الحميد؛ مستحق للحمد والثناء بفعاله، يحمد في السراء والضراء، وحمده من أجل الأعمال، قال ﷺ: «والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض» [رواه مسلم].

* قال تعالى: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ أي: لعل الله - جل وعلا - يجعل بينكم وبين أقاربكم من مشركي مكة مودة، وذلك بأن يسلموا فيصيروا من أهل دينكم، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة وحسن إسلامهم، ووقعت بينهم وبين من تقدّمهم في الإسلام مودة، وجاهدوا وفعلوا الأفعال المقربة إلى الله، وقد تزوج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، ولم تحصل المودة معه إلا بعد إسلامه يوم الفتح، وترك أبو سفيان العداوة لرسول الله ﷺ. عن أبي هريرة قال: أول من قاتل أهل الردّة على إقامة دين الله أبو سفيان بن حرب، وفيه نزلت هذه الآية: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾.

أي: قادر لا يعجزه شيء، يقدر على قلب القلوب وهدايتها، وتغيير الأحوال، وتسهيل أسباب المودة.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: مبالغ في المغفرة والرحمة، لمن تاب إليه وأناب، لا يتعاضمه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره.

* قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَنُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ تُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].
البر: زيادة في الفضل، والإقساط: العدل.

سورة الصف ١١

سورة الصف سورة مدنية، فيها بيان لعظمة الله - تعالى - وقهره، وذل جميع الخلق له - تبارك وتعالى -، وأن جميع من في السموات والأرض يسبحون بحمد الله ويعبدونه ويسألونه حوائجهم، وفي السورة ذكر لأمر الجهاد في سبيل الله، وجهاد الأعداء، لإعزاز دينه وإعلاء كلمته، ولهذا سميت سورة الصف، وقد ورد في سورة الممتحنة ذكر الجهاد في سبيل الله، وبسطه في هذه السورة أبلغ بسط وأوضحه وأبينه.

وسورة الصف من المسبحات، والمسبحات: هي السور المفتحة بالتسبيح، وتسمى عرائس القرآن، وهي سبع سور: الإسراء، والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، والأعلى.

* قال - تعالى - في مطلع السورة: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

هو الحكيم؛ لا يدخل في أحكامه ولا تشريعاته خلل ولا زلل، وليس لأحد أن يراجع أحكام الله أو ينتقصها أو يضعها للجدل، والله يحكم لا معقب لحكمه، بل الواجب التسليم والإذعان لها، والانقياد إليها.

* قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

[الصف: ٣].

المقت: شدة البغض لم يطلقه الله في القرآن إلا على الكفر والنفاق والفاحشة.

* قال تعالى: ﴿كَانَ لَهُمُ بُنْيَانٌ مُرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

قال قتادة: ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه؟ فذلك الله - عز وجل - لا يحب أن يختلف أمره وأن الله وصف المؤمنين

في قتالهم، وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به.

✽ قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

وإنما خص الأفواه بالذكر - مع أنهم لم ولن يدخروا وسيلة لرد الحق بقول أو فعلٍ إلا عملوها - إشارة لضعفهم ووهنهم، فهم في هذا أشد ضعفاً ووهناً ممن يريدون إطفاء نور الشمس بأفواههم.

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

وجملة ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ معطوفة على جملة ﴿يُرِيدُونَ﴾ وهي إخبار بأنهم لا يبلغون مرادهم وأن هذا الدين سيتم، أي يبلغ تمام الانتشار.

✽ قال عمرو بن مرة: خمسة سموا قبل أن يكونوا:

محمد: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

ويحيى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧].

وعيسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى﴾ [آل عمران: ٤٥].

وإسحاق ويعقوب: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

✽ قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ تِجْرَةٍ﴾.

أي: يا من صدقتم الله ورسوله، وآمنتُم بربكم حق الإيمان، هل أدلكم على تجارة رابحة جليلة الشأن؟ والاستفهام للتشويق.

﴿تُنَجِّيْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

تخلصكم وتنقذكم من عذاب شديد مؤلم، وقد جعل العمل بمنزلة التجارة؛ لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها، وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار، وهذه التجارة هي التي بينها بالآيتين اللاحقتين، فإن

معناهما: أن الإيمان والجهاد ثمنهما من الله الجنة، وذلك بيع رابح.

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: إيماناً صادقاً، لا يشوبه شك، ولا نفاق، فإن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله، فلهذا قال: وتجاهدون أعداء الدين، وذلك بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم لمصادمة أعداء الإسلام.

وقد قدم الأموال على الأنفس؛ لأنه هي التي يبدأ بها في الإنفاق والتجهز للجهاد.

والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك ولو كان كريهاً للنفوس شاقاً عليها. فهو:

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: ما أمرتكم به من الإيمان والجهاد في سبيل الله، خير لكم من كل شيء في هذه الحياة، فإن فيه الخير الدنيوي من النصر على الأعداء والعز المنافي للذلة، والرزق الواسع، وسعة الصدر وانشراحه.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

أي: يغفر ويمحو الله عنكم ذنوبكم، وهذه المغفرة شاملة للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله مكفر للذنوب ولو كانت كبائر.

ذكر أولاً البضاعة التي يتاجرون بها، ويذكر هنا الثمن الذي وعدهم به أي: إن تؤمنوا يغفر لكم، ويدخلكم حدائق وبساتين تجري من تحت قصورها ومساكنها وغرفها وأشجارها، أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات.

﴿وَمَسْكَنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [١٢].

أي: يسكنكم في جنات إقامة دائمة لا تنقطع بموت ولا بخروج منها، جمعت كل طيب، من علو وارتفاع، وحسن بناء وزخرفة. ذلك المذكور من المغفرة وإدخال الجنات؛ هو الفوز الذي لا فوز بعده، والظفر الذي لا ظفر يماثله.

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾.

أي: ويمنّ عليكم بخصلة أخرى تعجبكم ولها في قلوبكم موقع حسن، وهي: نصر من الله لكم على الأعداء، يحصل به العز والفرح.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٣].

يفتحه عليكم، يعني: النصر على قريش وفتح مكة. وقيل: فتح فارس والروم.

وبشر - يا محمد - المؤمنين بالنصر والفتح في الدنيا، وبالجنة في الآخرة، وبالثواب العاجل والآجل، وجمع لهم ما يسرهم في العاجلة بفتح البلاد، والآجال وهي جنات عدن.

ويؤخذ من هذا التعبير القرآني المحبب للنفوس: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٣] أنه ينبغي أن نكون مبشرين.

❖ قال تعالى: ﴿يَنَاقُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُونًا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

هذه الآية حجة واضحة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ لا يشك أحد أن نصر الله إنما هو نصر دينه، ولا يكون نصره إلا بالمعونة على إقامة أمره ونهيه وعلوهما، والأخذ على يد من يريد ذله وإهانته.

سورة الجمعة ٦٢

سورة الجمعة سورة مدنية، بين الله - سبحانه وتعالى - فيها أحكام صلاة الجمعة التي فرضها على المؤمنين، وكان ﷺ يقرأ بها في صلاة الجمعة؛ وفي ثانيا السورة الإشارة إلى بعثة الرسول ﷺ، وأنه خاتم الأنبياء، وأنه رحمة للعالمين. وذكر الله - عز وجل - في السورة اليهود وانحرافهم عن شريعة الله.

سميت بسورة الجمعة لمجيء ذكر يوم الجمعة فيها، وهي: تذكير الأمة في هذا اليوم العظيم؛ بنعمة الله عليها بإرساله محمداً - عليه الصلاة والسلام -، وأن الله قد جعله هداية لها بعد الضلال المبين الذي كانت تتخبط فيه. ولا شك أن هذا من أعظم القضايا في حياة المؤمن، التي لا ينبغي أن تغيب عن ذهنه، ولذلك شرعت قراءتها في صلاة الجمعة.

عن عبيد الله بن أبي رافع قال: استخلف مروان أبا هريرة على المدينة وخرج إلى مكة فصلى لنا أبو هريرة يوم الجمعة، فقرأ بعد سورة الجمعة في الركعة الأخيرة: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١]، قال: فأدركت أبا هريرة حين انصرف فقلت: إنك قرأت بسورتين كان علي بن أبي طالب يقرأ بهما في الكوفة. فقال أبو هريرة: إني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بهما في الجمعة. [الجمع بين الصحيحين].

* قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: ينزه الله ويمجده ويقدسه وينقاد لأمره، ويتألهه ويعبده جميع ما في السموات والأرض، لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع ممالكه وتحت تدبيره.

وصيغة المضارع في قوله ﴿يُسَبِّحُ﴾ لإفادة التجديد والاستمرار، فهو تسبيح دائم على الدوام.

﴿الْمَلِكُ﴾ أي: هو الإله المالك لكل شيء، المتصرف في خلقه بالإيجاد والإعدام.

﴿الْقُدُّوسُ﴾ أي: المعظم المنزه عن كل آفة ونقص، المتصف بصفات الكمال. فلا إله معه يدعى، ولا ولي معه ينادى.

﴿الْعَزِيزُ﴾: العزيز في ملكه، القاهر للأشياء كلها.

﴿الْحَكِيمُ﴾: في خلقه وأمره، وهذه الأوصاف مما تدعو إلى عبادته وحده لا شريك له.

هو الحكيم؛ لا يدخل في أحكامه ولا تشريعاته خلل ولا زلل، وليس لأحد أن يراجع أحكام الله أو ينتقصها أو يضعها للجدل، والله يحكم لا معقب لحكمه، بل الواجب التسليم والإذعان لها، والانقياد إليها ﴿إِنَّ اللَّهَ تَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، ولا يصلح لعباده سوى شرعه المطهر، ومن سخر بدينه أو شرعه أذله الله.

* قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وابتدئ بالتلاوة لأن أول تبليغ الدعوة بإبلاغ الوحي، وثني بالتزكية لأن ابتداء الدعوة بالتطهير من الرجس المعنوي وهو الشرك، وما يعلق به من مساوئ الأعمال والطباع، وعقب بذكر تعليمهم الكتاب لأن الكتاب بعد إبلاغه إليهم تبين لهم مقاصده ومعانيه.

قال ابن كثير: الأميون هم العرب - وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم ولكن المنية عليهم أبلغ وأكثر، كما قال - تعالى - في قوله ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به.

* قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

قال ابن القيم - رحمه الله - : فقاس من حمله - سبحانه - كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر، ولا تفهم، ولا اتباع له، ولا تحكيم له وعمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، وحظه منها حمله على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه ولم يرعه حق رعايته.

* ثم ذكر - عز وجل - حال المسلمين بعد قضاء الصلاة، فقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

أمر بالجمع بين الابتغاء من فضله، وكثرة ذكره، ولهذا ورد فضل الذكر في الأسواق ومواطن الغفلة، كما جاء عن النبي ﷺ: «من دخل سوقاً من الأسواق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة» [صححه الالباني]. وفي الآيات السابقة أمرهم - عز وجل - أولاً بالسعي لاجتماع للصلاة وترك البيع، ثم أمرهم بعد قضاء الصلاة بالتفرق في الأرض وطلب الرزق من الله.

وكان طائفة من السلف يعمد إلى البيع والشراء في هذا الوقت اتباعاً لأمر الله - عز وجل - وطلباً لبركة هذا الوقت.

وفي يوم الجمعة أمرنا بالعبادة ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].
وأمرنا بطلب الرزق وهو عبادة لمن احتسب ذلك ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ
وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ وأيام المسلم كلها عبادة.

كان عراك بن مالك - رضي الله عنه - إذا صلى الجمعة انصرف، فوقف
على باب المسجد فقال: اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك،
وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين.

* لما ذكر الله الدنيا والسعي لها قال: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن
رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥] ولما تعلق الشأن الآخرة والعمل لها قال: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ
اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩].

في قول: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك» عند دخول المسجد، و«اللهم
إني أسألك من فضلك» عند الخروج منه حكمة، ف قيل: لعل ذلك لأن
الداخل طالب للآخرة، والرحمة أخص مطلوب له، والخارج طالب
للمعاش في الدنيا، وهو المراد بالفضل، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى:
﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا
لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

سورة المنافقون ٦٣

سورة المنافقون سورة مدنية، فإن النبي ﷺ لما قدم المدينة مهاجراً واستقر فيها، وكثر المسلمون واعتز الإسلام بهم، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ليبقى جاههم، وتحقن دماءهم، وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة.

وفي سورة الجمعة التي سبقت، ذكر فيها المؤمنون، وهذه ذكر فيها أضدادهم، وهم المنافقون.

والسورة تؤكد على كشف المنافقين، وبيان حقيقتهم، وأبرز صفاتهم، لتكون بمثابة تحذير أسبوعي؛ من طائفة خطيرة تهدم الإسلام من الداخل، وتوضح للمؤمنين أن حصوننا مهددة من داخلها بهؤلاء المنافقين، ولعظم خطرهم وعدم انقطاعهم من المجتمع منذ عهد النبي ﷺ حتى اليوم؛ شرع التحذير منهم بشكل متكرر، بتلاوة هذه السورة في صلاة الجمعة.

* وبعد أن ذكر الله - عز وجل - أوصافهم القلبية، ذكر أوصافهم الجسمية، لكثرة انخداع الناس بهم، فقال:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ۗ﴾

وإذا رأيت هؤلاء المنافقين أعجبتك هيئاتهم ومناظرهم ومناصبهم، تعجب من يراها لما فيها من الحسن والنضارة والرونق. وإن يتكلموا تُصغ لكلامهم فتحسب أن قولهم حق وصدق لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم.

وقد كان عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين فصيحاً جسيماً جميلاً، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدي الصالح شيء.

وأما المؤمنون فعكس هذه الصفات، حالهم مستضعفون في ظاهر أجسامهم وكلامهم؛ لأنهم اشتغلوا بعمارة قلوبهم وأرواحهم عن عمارة

أجسادهم، أما بواطنهم فقوية عامرة ثابتة يؤدون بها الأعمال الشاقة في طاعة الله من الجهاد والعبادات ما لا يستطيع المنافق مكابדתه لضعف قلبه، لهذا قال عن المنافقين:

﴿كَانَتْهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ .

شُبَّهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله ﷺ بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط، التي لا منفعة فيها، ولا تفهم، ولا تعلم، لخلوهم عن الفهم النافع، والعلم الذي ينتفع به صاحبه.

﴿تَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ .

أي: يظنون لجبنهم وفزعهم، والريب الذي في قلوبهم؛ كل نداء وكل صوت، أنهم يرادون بذلك، وكان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم. فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة؛ لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذي لا يشعر به وهو مخادع ماكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين. فاحذروهم ولا تأمنهم على سر؛ لأنهم عيون لأعدائكم من الكفار.

﴿تَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ المنافق خائف ذليل، يترقب من أين يأتي

الصوت.

* ثم ذكر صفاتهم القبيحة، وقولهم:

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا﴾ .

[المنافقون: ٧].

ظنوا أنهم لولا أموالهم لما اجتمع المسلمون لنصر دين الله! فمن أعجب العجب أن يدعي أحرص الناس على خذلان الدين، مثل هذه الدعوى، ولا يروج هذا إلا على من لا علم له بحقائق الأمور: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ .

* ثم قال - تعالى - حاثاً على المسارعة إلى الخيرات :

﴿يَنَاقُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وخص الأموال والأولاد بتوجه النهي عن الاشتغال بها اشتغالا يلهي عن ذكر الله، لأن الأموال مما يكثر إقبال الناس على إنمائها والتفكير في اكتسابها، بحيث تكون أوقات الشغل بها أكثر من أوقات الشغل بالأولاد، ولأنها كما تشغل من ذكر الله بصرف الوقت في كسبها ونمائها، تشغل عن ذكره أيضاً بالتذكير لكثرها بحيث ينسى ذكر ما دعا الله إليه من إنفاقها. وفي ذلك تحذيراً من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله، فوقعوا في النفاق، فمن علامات النفاق قلة ذكر الله - عز وجل - . وكثرة ذكره أمان من النفاق، والله - عز وجل - أكرم من أن يبتلي قلباً ذاكراً بالنفاق وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله - عز وجل - .

* قال الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - : ما الحكمة من قراءة سورة المنافقون في الجمعة؟ مناسبتها ظاهرة، ومنها :

أ - أن يصحح الناس قلوبهم ومسارهم إلى الله - تعالى - كل أسبوع .
ب - أن يقرع أسماع الناس التحذير من المنافقين كل جمعة ؛ لأن الله قال فيها عن المنافقين : ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

* قال تعالى : ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [المنافقون: ١٠].

قال السعدي : وقال : ﴿مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ليدل على أنه - تعالى - ما يكلف العباد من النفقة ما يعنتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم الله الذي يسره لهم ويسر لهم أسبابه .

سورة التغابن ١٤

سورة التغابن سورة مكية، يشتمل صدرها على جملة كثيرة واسعة، من أوصاف الباري العظيمة، فذكر - سبحانه - كمال ألوهيته، وسعة غناه، وافتقار جميع الخلائق إليه، وعظمته وآثار قدرته، وتسبيح من في السموات والأرض بحمده. وقد أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ في كتابه الكريم أن يُقسم في ثلاثة مواضع:

الأول: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

الثاني: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

الثالث: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمِ الْغَيْبِ﴾ [سبا: ٣].

* قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

قال ابن عباس: يهديه لليقين، فيعلم أن ما أصاب به لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

* قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

أنما صار ولد الولد أحب إلى الرجل من ولده لصلبه: لأن الولد عدوه ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٤] وولد الولد عدو

العدو، وعدو عدوك صديقك!

❖ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

[التغابن: ١٥].

قال بعضهم: لما ذكر الله العداوة أدخل فيه (من) للتبويض، فقال: إن من أزواجكم وأولادكم لأن كلهم ليسوا بأعداء، ولم يذكر (من) في قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنها لا تخلو من الفتنة واشتغال القلب.

قال السعدي - رحمه الله -: فلما ذكر فتنة الأموال والأولاد التي مالت بأكثر الخلق عن طريق الاستقامة، قال مذكراً لهم ما يفوتهم إن افتنوا بها، وما يحصل لهم إن سلموا من فتنها: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

قال ابن مسعود: لا يقولن أحدكم: إني أعوذ بك من الفتنة، فإنه ليس منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، لأن الله - تعالى - يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فأياكم استعاذ، فليستعذ بالله - تعالى - من مضلات الفتن.

وينبغي أن يتأمل هذا من ابتلي بالفقر والعقم فلا يأس على ما فاته، ويرضى بما قدر الله له، ويعلم أن الخير فيما اختاره الله، ويحسن الظن بربه، ويجزم بأن ما اختاره الله له هو عين الخير، فكم من أناس كان سبب شقائهم في الدنيا والآخرة أموالهم وعلى أيدي أولادهم.

❖ قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾.

ترتيب العفو والصفح والغفران جاء في غاية الإبداع والروعة، فبدأ بالعفو وهو ترك العقوبة، ثم ثنى بالصفح وهو ترك التشريب واللوم، والتعير بالذنب، وختم بالغفران وهو إخفاء الذنب وستره.

قال ابن القيم: وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس: أنها عداوة البغضاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادقة للآباء عن

الهجرة، والجهاد، والتعلم، والصدقة، وغير ذلك من أمور البر وأعمال الخير.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ۚ وَمَنْ يُوقْ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٥].

البخيل: من أجاب داعي الشح.

والمؤثر: من أجاب داعي الجود. كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء، وهو أفضل من سخاء البذل.

قال عبد الله بن المبارك: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل.

سورة الطلاق ٦٥

سورة الطلاق سورة مدنية، تناولت بعض الأحكام التشريعية المتعلقة بأحوال الزوجين، كبيان أحكام الطلاق السني وكيفيته، وما يترتب على الطلاق من العدة، والنفقة، والسكنى، وأجر المرضع وغير ذلك من الأحكام، تنميماً للأحكام المذكورة في سورة البقرة، وأمرت المؤمنين عند تعذر استمرار الحياة الزوجية إلى أن يتمهلوا ولا يسرعوا في فصل عرى الزوجية.

وفي السورة تسليّة للزوجة وتطيب لخاطرها وجبر لكسرهما، وتكرر الأمر بتقوى الله في السورة خمس مرات بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى، لئلا يقع حيف أو ظلم من أحد الزوجين، حين يقع الطلاق وتشح الأنفس، وتنقسم عرى الزوجية.

وقد ذكر الله التقوى وأثرها بين آيات الطلاق لكثرة ما فيها من الانتصار للنفس، وقصد الإضرار وتعدي الحدود، فأَي الزوجين اتقى الله فله المخرج ولو بعد حين.

✽ قال - تعالى - في مطلع السورة:

﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾.

أي: يا أيها النبي، ويا أيها المؤمنون، إذا أردتم تطليق النساء، وقد نادى النبي ﷺ أولاً؛ تشريفاً وتعظيماً له، ولأنه السيد المقدم، ثم خاطبه مع أمته.

﴿فَ﴾ فالتمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حيث يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله به.

﴿ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ .

أي: مستقبلات لعدتهن، أو قبل عدتهن، والمراد: أن يطلقوهن في طهر لم يقع فيه جماع، ثم يُتركن حتى تنقضي عدتهن، فإذا طلقوهن هكذا فقد طلقوهن لعدتهن.

عن ابن عمر: أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر - رضي الله عنه - لرسول الله ﷺ، فتغيط رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض وتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسه، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء» [رواه النسائي].

وإنما نهي عن طلاق المرأة وقت الحيض لئلا تطول عليها العدة فتتضرر؛ ولأن حالة الحيض منفرة للزوج، تجعله يتسرع في طلاقها بخلاف ما إذا كانت طاهراً، وكونه لم يجامعها في ذلك الطهر، لئلا يحصل من ذلك الوطء حمل، فتنتقل العدة من الحيض لوضع الحمل وذلك ضرر ظاهر.

﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ .

أي: اضبطوها واحفظوها، واحفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق حتى تتم العدة، وهي ثلاثة قروء كاملة لئلا تختلط الأنساب، والخطاب للأزواج. وأمر بذلك لما يبنى عليه من الأحكام في الرجعة والسكنى والميراث، وغير ذلك.

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا تَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ﴾ [الطلاق: ١].

أي: خافوا الله رب العالمين فلا تعصوه فيما أمركم، ولا تضاروهن، وخافوه في حق الزوجات المطلقات. لا تخرجوهن من مساكنهن بعد فراقكم لهن إلى أن تنقضي عدتهن، ويلزم من بيوتهن التي طلقها زوجها وهي فيها.

وأضاف البيوت إليهنّ لبيان كمال استحقاقهنّ للسكنى في مدّة العدة، وفيه دلالة على القرار في البيوت، وأن هذا بيتها تدبر شئونه وترعى أحواله.

وفقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ تحذير من التساهل في أحكام الطلاق والعدة، ذلك أن أهل الجاهلية لم يكونوا يقيمون للنساء وزناً، وكان قرابة المطلقات قلما يدافعن عنهن، فتناسى الناس لذلك الحقوق وغمضوها فلذلك كانت هذه الآيات شديدة اللهجة في التحدي، وعبر عن تلك الحقوق بالتقوى ويحدود الله، ولزيادة الحرص على التقوى اتبع اسم الجلالة بوصف ﴿رَبَّكُمْ﴾ للتذكير بأنه حقيق بأن يتقي غضبه.

ونهى الزوجات عن الخروج أيضاً، فقال:

﴿وَلَا تَخْرُجْنَ﴾.

أي: لا يجوز لهن الخروج منها حتى تنقضي عدتهن، أما النهي عن إخراجها فلا أن المسكن يجب على الزوج للزوجة لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه، وأما النهي عن خروجها، فلما في خروجها من إضاعة حق الزوج وعدم صونه، وكذلك صيانة المرأة، فلا يجوز لها المبيت خارجاً عن بيتها، ولا أن تغيب عنه نهائياً إلا لضرورة التصرف، ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدة.

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾.

أي: لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ إلا إذا فعلن فاحشة الزنى، وقيل: هي البذاءة في اللسان، والاستطالة بها على من هو ساكن معها في ذلك البيت؛ لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها.

وهذه الأحكام والشرائع التي بينها لعباده، هي حدوده التي حدّها لهم، لا يحلّ لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها.

- وقد جاءت البيوت مضافة إلى النساء في ثلاث آيات من كتاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقوله: ﴿لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

وقوله: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وهي إضافة إسكان ولزوم للمسكنة، والتصاق بهن، لا إضافة تملك.

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

بأن لم يقف معها، ولم ياتمر بها، بل تجاوزها أو قصر عنها فقد بخسها حقها بإيرادها مورد الهلاك، وفي هذا تشديد فيمن يتعدى طلاق السنة، ومن يطلق لغير العدة.

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾.

أي: لا تعرف أيها السامع، ماذا يحدث الله بعد ذلك الطلاق من الأمر؟ لعلها إذا بقيت في بيتها أن يؤلف الله بين قلوبهما فيترابعا، فيكون ذلك أيسر وأسهل، والواقع يشهد بذلك كثيرا.

وفي الآية قاعدة في الحياة وفي الحياة الأسرية خاصة؛ تمنع الاستعجال وغلق الأبواب، فقد تحتاج يوما للولوج منها، فدعها مشرعة مفتوحة.

ولقدرة الله - عز وجل - وسرعة الفرج وزوال الشدة بأمره - سبحانه -

وردت كلمة (أمر) في هذه السورة ست مرات، منها قوله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ

اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ

يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، وقوله: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، فله الأمر

وبيده تصريف الأمور كيف يشاء - سبحانه وتعالى -.

* وتستمر الآيات في بيان أحكام الطلاق، والرفق فيه، وعدم المضارة،

ولزوم التقوى، قال تعالى:

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فإذا قاربن انقضاء أجل

العدة وشارفن آخرها، وقاربن ذلك. فراجعوهن إلى عصمة النكاح بحسن

معاشرة، وصحبة جميلة، ورغبة فيهن من غير قصد إلى مضارة لهن.

والإمساك بالمعروف: هو إحسان العشرة وتوفية النفقة، من غير قصد لمضارة في الرجعة لتطول عليها العدة.

﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن، فراقاً لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لهن على أخذ شيء من مالهن، مع إيفائهن ما هو لهن عليكم من الحقوق، وترك المضارة لهن. والفراق بالمعروف: هو أداء الصداق، والمتعة عند الطلاق، والوفاء بالشروط مع توفية جميع حقوقهن.

قال العز بن عبد السلام: في حسن المصاحبة والمفارقة حفظ للوداد، وبعد من البغضاء والعداوة، إذ جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها.

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾.

أي: اشهدوا على الرجعة إن راجعتم، أو المفارقة إن فارقتهم، قطعاً للتنازع، وحسماً لمادة الخصومة. رجلين مسلمين من أهل العدل والاستقامة، لأن في الإشهاد المذكور، سداً لباب المخاصمة، وكتمان كل منهما ما يلزمه بيانه.

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾.

أي: أيها الشهداء. اتوا بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقصان، تقرباً إلى الله على الوجه الحق دون مراعاة أو محاباة للمشهود له، أو المشهود عليه.

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ﴾.

أي: من يتق الله بالوقوف عند حدوده التي حدّها لعباده. يجعل له مخرجاً وطريقاً مما وقع فيه، من الهموم والكروب والمحن، وهذا من جملة ثواب من أطاع الله واتبع شرعه، بأن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة.

قال ابن مسعود: مخرجه أن يعلم أنه من قبل الله، وأن الله هو الذي يعطيه، وهو يمنعه، وهو يبتليه، وهو يعافيه، وهو يدفع عنه.

﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ .

أي: بعد انتهاء المحنة والنجلاء البلاء تأتي المنح والهبات والعوض والأعطيات. يسوق إليه رزق من وجه لا يخطر بباله، ولا يكون في حسابه ولا يشعر به، فمن طلق ثم أشهد عند المفارقة على انقضاء العدة، أو عند المراجعة، يجعل الله له مخرجاً ومخلصاً، وإنما الضيق على من خالف أحكام الله في الطلاق والرجعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والرزق، اسم لكل ما يغتذي به الإنسان؛ وذلك يعم رزق الدنيا ورزق الآخرة.

﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

قال بعض العلماء: الرزق على نوعين رزق مضمون لكل حي طول عمره، وهو الغذاء الذي تقوم به الحياة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] ورزق موعود للمتقين خاصة، وهو المذكور في هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: كافيه بحيث لا يحتاج معه إلى غيره.

قيل لرجل من الفقهاء: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، فقال الفقيه: والله إنه ليجعل لنا المخرج وما بلغنا من التقوى ما هو أهله، وإنه ليرزقنا وما اتقينا كما ينبغي، وإنه ليجعل لنا من أمرنا يسراً وما اتقينا، وإنا لنرجو الثالثة: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

* وردت في سورة الطلاق كلمة التقوى وما في معناها أكثر من أربع مرات، وذلك لأهمية التقوى حال الخلاف وشح الأنفس، وربما صدر من البعض هجر محرم أو غيبة، أو ظلم يطال أحد الزوجين أو الأولاد، أو غير ذلك من أنواع الأذى.

- قال ابن تيمية في الفتاوى: قال بعضهم: ما افتقر تقي قط، قالوا: لم؟ قال: لأن الله يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، والآية اقتضت أن المتقي يرزق من حيث لا يحتسب، ولم تدل على أن غير المتقي لا يرزق، فالكفار قد يرزقون بأسباب محرمة، وقد لا يرزقون إلا بتكلف، وأهل التقوى يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون، ولا يكون رزقهم بأسباب محرمة، والتقي لا يحرم ما يحتاج إليه من الرزق، وإنما يحمى من فضول الدنيا رحمة به.

- قال الإمام الطحاوي: فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخرجاً مما يضيق على الناس، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خللاً فليستغفر الله، وليتب إليه.

- قال مجاهد: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: إنه طلق امرأته ثلاثاً، فسكت حتى ظننت أنه رادها إليه، ثم قال: ينطق أحدكم فيركب أحموقه ثم يقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس، والله - تعالى - يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ﴾ وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجاً، عصيت ربك، وبانت منك امرأتك.

- قال ابن الجوزي: ضاق بي أمر أوجب غمّاً لازماً دائماً، وأخذت أبالغ في الفكر في الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه، فما رأيت طريقاً للخلاص، فعرض لي هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ﴾ [الطلاق: ٢]، فعلمت أن التقوى سبب للمخرج من كل غم، فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى فوجدت المخرج.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۖ﴾.

ومن وثق بالله، واعتمد عليه، ولجأ إليه فيما نابه من أمر دينه ودنياه، كفاه ما أهمه، وجلب له ما ينفعه، والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل؛ لأنه مأمور به، ولكن لا يعتمد على تلك الأسباب.

قال ابن القيم: فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت ودعوت فلم أر شيئاً ولم تحصل لي الكفاية، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدر. وجعل - سبحانه - لكل عمل من أعمال البر، ومقام من مقاماته جزءاً معلوماً، وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته.

فانظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره، وهذا يدل على أن التوكل أقوى السبل عند الله وأحبها إليه.

✽ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝﴾.

أي: لا بد من نفوذ قضائه وقدره، وهذا حض على التوكل وتأكيده. وقد جعل - سبحانه - للشدة أجلاً تنتهي إليه، وللرخاء أجلاً ينتهي إليه. وقيل: هو قدر الحيض والعدة.

ولما ذكر - سبحانه - كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله:

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝﴾ [الطلاق: ٣].

أي: وقتاً لا يتعداه، فهو يسوقه إلى وقته الذي قدره له، فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت ودعوت فلم أر شيئاً ولم تحصل لي الكفاية، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدر له.

قال النيسابوري: ومن أسرار القرآن ولطائفه أنه - سبحانه - حث على التقوى في هذه السورة ثلاث مرات: بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ۖ﴾ وذلك على عدد الطلقات الثلاث، ووعد في كل مرة نوعاً من الجزاء:

الأول: أنه يخرجهم مما دخل فيه وهو كاره ويتيح له خيراً ممن طلقها.

والثاني: اليسر في الأمور والموالة في المقاصد ما دام حياً.

الثالث: أفضل الجزاء وهو ما يكون في الآخرة من النعماء.

ثم حث على التوكل بثلاث جمل متقاربة الخطى:

الأولى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ لأن المعبود الحقيقي القادر على كل شيء، الغنى عن كل شيء، الجواد بكل شيء إذا فوضه عبده الضعيف أمره إليه لا يهمله البتة.

الثانية: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ أي: يبلغ كل أمر يريده ولا يفوته المطلوب.

الثالثة: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: وقتاً ومقداراً، وهاتان الجملتان كل منهما بيان لوجوب التوكل عليه لأنه إذا علم كونه قادراً على كل شيء، وعلم أنه قد بين وعين لكل شيء حداً ومقداراً لم يبق إلا التسليم والتفويض.

* ثم بين - سبحانه - حكم المطلقة التي لا تحيض لصغرها، أو لكبر سنها وختمها بقوله:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾.

ومن يتق الله فيطلق للسنه، يجعل له من أمره يسراً في الرجعة، ويسهل عليه كل عسير، ويمح عنه ذنوبه، ويضاعف له الأجر والمثوبة. وقد كرر التقوى - سبحانه - في هذه السورة لعلمه أن النساء ناقصات عقل ودين، فلا يصبر على أمورهن إلا أهل التقوى.

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾.

أي: ذلك هو حكم الله وشرعه الحكيم، أنزله عليكم أيها المؤمنون لتمشوا عليه، وتأتموا وتقوموا به، وتعظموه وتعملوا بمقتضاه.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾.

أي: ومن يتق ربه يمح عنه ذنوبه. ويعطيه من الأجر في الآخرة أجراً عظيماً، وهو الجنة.

* قال - تعالى - عن الفراق بين الزوجين في سورة النساء: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا

يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

قال السعدي: يعني: إذا تعذر الاتفاق والالتئام فلا بأس بالفراق، فقال: ﴿وإن يَتَفَرَّقَا﴾ أي: بفسخ أو طلاق أو خلع أو غير ذلك ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلاً﴾ من الزوجين ﴿مِنْ سَعَتِهِ﴾ أي: من فضله وإحسانه العام الشامل. فيغني الزوج بزوجته خير له منها، ويغنيها من فضله وإن انقطع نصيبها من زوجها، فإن رزقها ليس على الزوج ولا على غيره، بل على المتكفل القائم بأرزاق الخليقة كلها، وخصوصاً من تعلق قلبه به ورجاه رجاء قلباً طامعاً في فضله كل وقت، فإن الله عند ظن عبده به، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً لها منه وأنفع ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً﴾ أي: واسع الرحمة، كثير الإحسان ﴿حَكِيماً﴾ في وضعه الأمور مواضعها.

* ثم لما بين التقوى في قوله: ومن يتق الله، كأنه قيل كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات، فقال:

﴿أَسْكُنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾.

ذكر الله في الآيات السابقة النهي عن إخراج المطلقات عن البيوت، وأمر هنا بإسكانهن. ومن هنا بدأ بيان ما يجب للمطلقات، أي: أسكنوا هؤلاء المطلقات في بعض مساكنكم التي تسكنونها. من سعتكم وطاقتكم، فإن كان موسراً وسع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيراً فعلى قدر الطاقة وهذا في المطلقة الرجعية، أما التي طلقت الثالثة فإنها لا نفقة لها ولا سكنى.

﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِيُتْصِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾.

أي: ولا تضيقوا عليهن في المسكن أو النفقة لأجل أن يملن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة أو الافتداء.

﴿وإن كُنَّ أُولَتْ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

أي: وإن كانت المطلقة حاملاً، فعلى الزوج أن ينفق عليها وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت بائناً، ولها ولحملها إن كان رجعية، ومنتهى النفقة حتى يضعن حملهن.

﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ ﴾ .

أي: هؤلاء المطلقات إذا ولدت، ورضيت أن ترضع لكم ولداً. فعلى الرجل أن يدفع لها أجر الرضاعة لولده.

﴿ وَاتَّمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ۚ ﴾ .

هذا خطاب للأزواج والزوجات الذين وقع بينهم الفراق بالطلاق، أي: تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر، وليقبل بعضكم من بعض المعروف والجميل في شأن الولد، وهذا يناسب المقام، فلا يماكس الأب ولا تعاسر الأم؛ لأنه ولدهما وهما شريكان فيه، وفي وجوب الإشفاق عليه، حيث إن الزوجين عند الفراق وقت العدة، خصوصاً إذا ولد لهما ولد في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض، ويتأثر من البغض شيء كثير.

﴿ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُم فَاسْتَزِضْ لَهُ أُخْرَى ۚ ﴾ .

أي: بأن لم تتفقوا في أجر الرضاع، فأبى الزوج أن يعطي الأم الأجر الذي تريد، وأبت الأم أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر. فليستأجر مرضعة أخرى ترضع ولده، وهو خبر بمعنى الأمر، أي: فسترضع له مرضعة أخرى، وفيه عتاب للأم لطيف على المعاصرة.

﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۚ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا ۚ ﴾ .

هذا بيان لقدر الإنفاق، فيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر سعتهم. ومن كان مضيّقاً عليه في الرزق فقيراً، فلينفق مما أعطاه الله من الرزق، على مقدار طاقته، ليس عليه غير ذلك. لا يكلف الله أحداً إلا بقدر طاقته واستطاعته، وبقدر ما أعطاه من الرزق، فلا يكلف الفقير بأن ينفق ما ليس في وسعه كنفقة الغني، وفيه تطيب لقلب المعسر، وترغيب له في بذل مجهوده.

* وقد ذكر - عز وجل - في سورة البقرة، بالإحسان إلى المطلقة:
قال تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ، وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ، مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ^ط
حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٣١).

أي: فإذا طلقتموهن فادفعوا لهن بشيء من متعة ينتفعن به جبراً لهن،
وتطيباً لخاطرهن، وجبراً لوحشة الفراق والطلاق، وإزالة للأحقاد، على
قدر حال الرجل في الغني والفقير، الموسر بقدر يساره، والمعسر بقدر
إعساره، تمتعاً بالمعروف حقاً ثابتاً على الذين يحسنون إلى المطلقات وإلى
أنفسهم بطاعة الله.

وفي الآية ذكر المحسنين، وفي الآية الأخرى ذكر المتقين، قال تعالى:
﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢٤١).
﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

هذه بشارة للمعسرين والفقراء، أن الله يزيل عنهم الشدة ويرفع عنهم
المشقة، وهو وعد لذوي العسر باليسر، وسيجعل - سبحانه - بعد ضيق
وشدة، سعةً وغنى.

* يعبر القرآن عن الرجل بالزوج، وأحياناً بالبعل، وأحياناً أخرى عن
المرأة بالزوج وبالمراة في مواضع أخرى، وعند استقراء الآيات القرآنية التي
ورد فيها اسم الزوجة متى تحظى بهذا الاسم ومتى لا تكون كذلك.
نجد أنه إذا كانت الزوجية تامة والعشرة قائمة فهي تسمى زوجة، وما
عداها امرأة وفي الآية تحقق ذلك، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ
أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ
أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤).

وبهذا كانت حواء زوجاً لآدم في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَتَّادِمُ أَسْكُنْ أَنْتَ
وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة: ٢٥).

وكذلك في زوجات النبي ﷺ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

يقوم معنى الزوج على الاقتران القائم على التماثل والاتقان والانسجام التام، فالزوج انضم إليه مماثل من جنسه، ولذا تستعمل للرجل والمرأة، ولذلك لا يطلق القرآن كلمة زوج على الرجل أو المرأة إلا إذا كانت الحياة الزوجية متفقة ومستقرة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

وإذا حدث خلل أو نزاع أو خلافات في الحياة الزوجية يأتي البعل: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء: ١٢٨].

وكذلك الاختلاف في الدين كما في قصة نوح، ولوط لأنهما كافرتان، فهن لسن زوجات لهم، وإنما هي امرأة تحته، وكذلك امرأة فرعون لأن بينها وبين زوجها فرعون مانع من الزوجية فهي مؤمنة وهو كافر: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ...﴾ [التحریم: ١١].

وكذلك عدم الانجاب فامرأة زكريا - عليه السلام - تسمى امرأة في المواضع ﴿وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠] ﴿وَكَاثَتْ أَمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥].

وعندما ولدت يحيى جاء السياق باسم الزوجة: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] ولم يقل لأزواجهن لأن البعل أعم فالزوج لا تطلق إلا في حال الاتقان والانسجام. فلو قال - تعالى - (ولا يبدين زينتهن إلا لأزواجهن) لقلنا أن المرأة وقت الخلافات أو عدم الإنجاب لا تظهر زينتها لبعْلِها في جميع الحالات.

وفي الميراث علق - سبحانه وتعالى - التوارث بلفظ الزوجة دون المرأة. إيداناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجة المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع التوارث. قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢].

* ثم أخبر - سبحانه - عن حال الأمم السابقة وإهلاك الأمم الطاغية العاتية، والقرون المكذبة للرسول، مع كثرتهم وقوتهم التي لم تغن عنهم شيئاً، وحذر - تعالى - من عصيانه وتعدي حدوده، قال تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا خُسْرًا﴾ ﴿١﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿٢﴾.

فيه بيان لأصحاب الرئاسة ورجال السياسة أن ضياع الدنيا بإضاعة الدين، وأن أمن القرى وطمأنية العالم بالحفاظ على الدين.

سورة التحريم ١١

سورة التحريم سورة مدنية، متآخيه السورة مع التي قبلها وهي سورة «الطلاق» وذلك بالافتتاح بخطاب النبي ﷺ، وتلك مشتملة على طلاق النساء وهذه على تحريم الإيلاء، وبينهما من المناسبة ما لا يخفى. ولما كانت تلك في خصام نساء الأمة، ذكر في هذه خصومة نساء النبي ﷺ إعظاماً لمنصبهن أن يذكرن مع سائر النسوة، فأفردهن بسورة خاصة، ولهذا ختمت بذكر امرأتين في الجنة: آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران.

ابتدأت الآية بعتاب من الله لنبيه محمد ﷺ حين حرم على نفسه سريره «مارية»، أو شرب العسل مراعاة لخاطر بعض زوجاته، وجاء العتاب له لطيفاً رقيقاً، يشف عن عناية الله بعبده ورسوله محمد ﷺ أن يضيق على نفسه ما وسعه الله له، قال تعالى: ﴿يَنَاقِيَا النَّبِيَّ لِمَ تَحَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١].

* قال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَانُكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢].

هو العليم؛ يعلم السرائر والخفيات، لا يخفى عليه قول ولا فعل مما يجترحه العباد: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].
* ثم ذكر - تعالى - في ثانيا السورة:

﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

وإعراض الرسول ﷺ عن تعريف زوجه ببعض الحديث الذي أفشته من كرم خلقه ﷺ في معاتبة المفشية وتأديبها إذ يحصل المقصود بأن يعلم بعض ما أفشته .

والكريم يتغافل عن تقصير أهله وصحبه ، ولا يستقصي حقوقه .

قال سفيان: ما زال التغافل من فعل الكرام .

وقال الحسن: ما استقصى كريم قط ، وما زاد على المقصود ، يقلب العتاب من عتاب إلى تقرع .

قال الله - تعالى - عن نبينا ﷺ - لما أخطأت بعض أزواجه - : ﴿ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ [التحريم: ٣] .

* قال تعالى: ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم: ٦] جاءت كلمة ﴿ نَارًا ﴾ منكرة دلالة على عظمها وفضاعتها ، كونها ناراً كاف للخوف منها ؛ لكنها مع ذلك وصفت بوصفين عظيمين: ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ ، و ﴿ عَلَيْهَا مَلَيِّكَةٌ غِلَظُ شِدَادٍ ﴾ ، ألا ما أشد هذا الوصف وما أفظعه ، حتى قيل: إنه أعظم وصف للنار فيما يتعلق بالمؤمنين .

* قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا ﴾ [الطلاق: ٨] .

وإنما أوتر لفظ القرية هذا دون الأمة ونحوها ، لأن في اجتلاب هذا اللفظ تعريفاً بالمشركين من أهل مكة ومتابعة لهم بالندارة ولذلك كثر في القرآن ذكر أهل القرى في التذكير بعذاب الله في نحو: ﴿ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ [الاعراف: ٤] .

* قال تعالى: ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨] .

قال القرطبي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وإضمار ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سيء الإخوان .

* قال تعالى: ﴿لَا تُخْزِي اللَّهَ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [التحريم: ٨].

قال ابن عباس: ليس أحد من الموحدين إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق، فيطفأ نوره، والمؤمن يشفق مما يرى من إطفاء نور المنافق فهو يقول: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨].

* قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].

قال ابن تيمية: وهذا في الحقيقة من رحمة الله بعباده، فإن الله أرسل محمداً رحمة للعالمين، وهو - سبحانه - أرحم بعباده من الوالدة بولدها، ولكن قد تكون الرحمة المطلوبة لا تحصل إلا بنوع من ألم وشدة تلحق بعض النفوس.

* ثم ضرب الله - تعالى - مثلاً آخر للمؤمن في عدم تضرره ببقاء قريبه على الكفر إذا كان مؤمناً، فقال تعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ .

أي: مثل - تعالى - للكفار في عدم استفادتهم بقرابة المؤمنين، بحال امرأة نوح، وامرأة لوط. كانتا في عصمة نبيين عظيمين هما نوح، ولوط، - عليهما السلام - وإنما وصفها بالعبودية تشريفاً وتكريماً لهما بإضافتهما إليه - تعالى - .

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ .

أي: وقعت منهما الخيانة لهما في الدين، لا بخيانة النسب والفراش فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحداً من أنبيائه بغياً. قيل: كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه.

﴿ فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ .

أي: فلم ينفعهما نوح ولوط مع نبوتهما بسبب كونهما زوجتين لهما شيئاً من النفع، ولا دفعاً من عذاب الله، مع كرامة الأنبياء على الله ومنزلتهم. وتقول لهما خزنة النار يوم القيامة: ادخلا نار جهنم مع سائر الداخلين، من الكفرة المجرمين، ادخلا النار مع من فيها، أهل الكفر والمعاصي.

* ثم ضرب - تعالى - مثلاً للكفار في عدم انتفاعهم بصلة القرابة أو المصاهرة أو النكاح، لأن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ولا ينفع إلا العمل الصالح، فقال تعالى:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ .

أي: إن صولة الكفر لا تضرهم كما لم تضر امرأة فرعون، وقد كانت تحت أكفر الكافرين، وصارت بإيمانها في جنات النعيم.

وامرأة فرعون هي آسية بنت مزاحم - رضي الله عنها - آمنت بموسى - عليه السلام - فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها، فنجأها الله من شره.

﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ .

أي: حين دعت ربها وتضرعت إليه قائلة: يا رب اجعل لي قصراً مشيداً قريباً من رحمتك في درجات المقربين منك، وسؤالها لربها أجل المطالب، فهي تطمع في جوار الله قبل طمعها في القصور. فلذا طلبت كون البيوت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة، فإن الجار قبل الدار.

ثم سألت الله أن ينجيها - سبحانه - من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، من ذاته ومما يصدر عنه من أعمال الشر.

﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

هم الكفار من القبط أتباع فرعون الطاغين، وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله، والالتجاء إليه ومسأله الخلاص عند المحن والنوازل من سير الصالحين.

* ثم ذكر - عز وجل - مريم مثيلاً عليها: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ .

أي: ومريم ابنة عمران، مثل آخر في الإيمان، جمع الله لها بين كرامة الدنيا والآخرة، واصطفها على نساء العالمين، مع كونها بين قوم عصاة، وقد أثنى عليها بقوله: حفظت فرجها وصانته عن الفواحش، لكمال دينها، وعفتها، ونزاهتها. فنفخ رسولنا جبريل في جيب درعها؛ فحبلت بعيسى - عليه السلام - .

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتِ اثْنَانِ﴾ .

هذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإنها آمنت بشرائعه التي شرعها لعباده، وما خاطبها به الملك، وهو قول جبريل لها: إنما أنا رسول ربك، وما أخبرها به من البشارة بعيسى، وكونه رسولا من المقربين. وصدقت كذلك بالكتب السماوية المنزلة على الأنبياء.

وكانت من القوم المطيعين لربهم، المداومين على طاعته بخشية وخشوع، وهذا وصف لها بكمال العمل، فإنها - رضي الله عنها - صديقة، والصديقة: هي كمال العلم والعمل.

سورة الملك ٦٧

سورة الملك سورة مكية، وتسمى سورة «المانعة» و«المنجية»؛ لأنها تقي قارئها من عذاب القبر، قال ﷺ: «هي المانعة، وهي المنجية، تنجي من عذاب القبر» [رواه الترمذي]. وفي الحديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه ﷺ قال: «سورة من القرآن ثلاثون آية، تشفع لصاحبها حتى يُغفر له: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾» [رواه أبو داود].

وقد ذكر الله - عز وجل - في السورة جملة من آلائه ونعمه وفضله، وذكر خلق الإنسان لابتلائه في عبادته، وسبب وجوده وإحيائه ومماته. ولأن الحياة الدنيا عند منكري البعث هي نهاية المطاف وغاية الوجود ذكّرهم الله - عز وجل - بما بعد الموت من الحساب والجزاء والجنة والنار، ثم ساق الأدلة والشواهد على عظمته وقدرته، ومن أعظم ذلك خلق السموات وما فيها من الأجرام والأكوان.

* قال تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾.

تبارك: أي: تمجد وتعالى، وكثر خير الله وعظم، وعم إحسانه، ومن عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، والملك هو ملك السماوات والأرض في الدنيا والآخرة، ويستفاد من إضافة اليد إلى الله - تعالى - ثبوت صفة ذات له - سبحانه -.

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: وهو القادر على كل شيء، له القدرة التامة، والتصرف الكامل في كل الأمور، من غير منازع ولا مدافع فهو يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويحيي ويميت، لا راد لقضائه.

قال ابن تيمية: فإذا ظهر للعبد من سر الربوبية أن الملك والتدبير كله بيد الله، كما قال تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، فلا يرى نفعا ولا ضرأ، ولا حركة ولا سكوناً، ولا قبضاً ولا بسطاً، ولا خفضاً ولا رفعاً، إلا والله فاعله وخالقه، وقابضه وباسطه، ورافعه وخافضه، فهذا الشهود هو سر الكلمات الكونيات.

* ثم بين - سبحانه - آثار قدرته، وجليل حكمته، فقال تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾.

أي: ومن كمال قدرته أنه خلق هذان الأمران العظيمان، الموت والحياة. والموت: انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقتها له، والحياة تعلق الروح بالبدن واتصالها به.

والمعنى: قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم، وقدم الموت؛ لأنه أهيب في النفوس وأفزع، وإن كان الموت والحياة أمران مألوفان مكرران في حياة الناس، لكن الآيات تبعث على التأمل والتفكر في هذا الأمر العظيم وما بعده، فمن قدرة الله وحكمته وتدبيره أنه خلق الموت والحياة لشأن عظيم، فقال:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

أي: ليكلفكم، ثم يختبركم فيجازيكم على ذلك. والمقصد الأصلي من الابتلاء: هو ظهور كمال إحسان المحسنين وطاعة الطائعين.

وأحسن العمل: ما كان أخلصه لله - عز وجل -، وأصوبه، موافقاً لهدي النبي ﷺ.

وفي الآية قوله: أحسن عملاً، ولم يقل أكثر عملاً.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

أنه - سبحانه وتعالى - الغالب في انتقامه ممن عصاه، الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات.

وهو - سبحانه - الغفور عن المسيئين والمقصرين والمذنبين إذا تابوا وأنابوا، فإنه يغفر لهم ذنوبهم.

وفي الآية ترغيب في فعل الطاعات، وزجر عن اقتراف المعاصي.
* ثم اتماماً لما سبق، ذكر - سبحانه - بعض مخلوقاته وعظمتها، وحسن خلقها، ومن ذلك السموات السبع، فقال تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝﴾

خص ﴿الرَّحْمَنِ﴾ بالذكر دون لفظ الجلالة (الله) إشعاراً أن هذا النظام اقتضته رحمة الله بالناس لتجري أمورهم على حالة تلائم نظام معيشتهم.
* قال تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤] إنما قال: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾؛ ولم يقل (مرتين)؛ لأن كلمة (مرتين) تحصر النظر في مرتين، بينما ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ تفيد التكرار مرة بعد مرة.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝﴾ [الملك: ٥].

قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به.

وإنما كانت نار السعير خاصة بعذاب الشياطين لكونهم من عنصر النار، ونار السعير أشد من نار طبائعهم، فصارت عذاباً لهم، فلا يمنع خلقهم من نار عذابهم بها، فهي منهم كالتراب من بني آدم، فيتأثرون من ذلك على أنه تكون نار أقوى من نار.

* قال - تعالى - عن الكفار: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ۝﴾ [الملك: ٧].

وسماعهم شهيقها من مقدمات عذابهم، فهي في شغف إليهم، بل وتناديهم، كما قال - عز وجل - ﴿ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴾ [المعارج: ١٧]، وهذا من عذاب الأسماع التي صمّت عن الحق واستمعت للباطل، كما قال عز وجل: ﴿ وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

* قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠].

ووجه تقديم السمع على العقل؛ لأن سمع دعوة النذير هو أول ما يتلقاه المندرون، ثم يعملون عقولهم في التدبر فيها.

* قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك: ١٢].

وقدم المغفرة تطيناً لقلوبهم، لأنهم يخشون المؤاخذه على ما فرط منهم من الكفر قبل الإسلام ومن اللطم ونحوه، ثم أعقبت بالبشارة بالأجر العظيم. فكان الكلام جارياً على قانون تقديم التخلية على التحلية، أو تقديم دفع الضرر على جلب النفع.

* قال تعالى: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الملك: ١٣ - ١٤].

هو اللطيف؛ يلطف بعباده، يسوق الرزق إليهم وهم لا يشعرون. لا ينفك قدر الله من لطفه، لكن من يفقه هذا اللطف. فإذا قدر قادراً سبق اللطف، وكم نرى من فقد ولده ولطف الله - عز وجل - بحالة وأنزل عليه الصبر والرضا، ثم عوضه أجراً في الآخرة ومنازل عالية، وأتم عليه نعمة الدنيا بذرية صالحة.

* قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥].

أخبر - سبحانه - أنه جعل الأرض ذلولاً منقاداً للوطء عليها، وحفرها وشققها والبناء عليها، ومن بركتها أن الحيوانات وأرزاقها وأقواتها تخرج منها، ومن بركتها أنك تودع فيها الحب فتخرجه لك أضعاف أضعاف ما كان، ومن بركتها أنها تحمل الأذى على ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها، فتواري منه كل قبيح وتخرج له كل مريح .

ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد، وفضلات بدنه، وتوارىها وتضمه وتؤويه، وتخرج له طعامه وشرابه، فهي أحمل شيء للأذى، وأعوده بالنفع عليه .

قال الشيخ علي الطنطاوي: نحن لا نتوكل التوكل الذي لم يأمر به الإسلام، بل نمشي في مناكب الأرض، نمشي مشياً لا نسعى سعياً، لأن الله قال في مجال الرزق: ﴿فَآمَشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، إن الله هو الذي قسم الأرزاق، وكتب لكل نفس رزقها وأجلها، وقال في مجال العبادة: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، هذا هو الفهم الصحيح لمسألة الرزق .

* وبعد آيات التهديد والنذير تنتقل الآيات إلى لمسة التأمل والتفكير، فقد عاتبهم - سبحانه وتعالى - وحثهم على النظر والتفكير في ما خلق - سبحانه - من الطير السابح في السماء، وكيف دقة صنعه، وخفة جسمه، وكسوته بالريش، وارتفاعه، وطيرانه بطريقة عجيبة، تأملوا في حاله إذا ضرب بأجنحته في الهواء ارتفع في الجو وتقدم إلى الإمام .

قال تعالى:

﴿أُولَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتٍ﴾ .

أي: انظروا إلى الطير فوقكم، فهي باسطة لأجنحتها في الهواء تبسطها عند طيرانها، وهذا من عجائب قدرته وخلقه .

﴿وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾ .

أي: يضممن أجنحتهن، ولم يقل قابضات، كما قال صافات؛ لأن القبض يتجدد تارة فتارة، وأما البسط فهو الأصل .

﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ .

أي: ما يمسك الطير في الهواء عند الطيران والقبض والبسط إلا الرحمن . بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه، وخص الرحمن دون لفظ الجلالة (الله) للدلالة على أن هذا الحفظ من رحمة الله بهذه المخلوقات وبمن سخرت له . فرحمة الله بالمخلوقات بأمهالهم وعدم تعجيله بعقابهم كرحمة الله بالطير في الهواء بحفظه من السقوط والهلاك، وفيه أيضاً دلالة إيماء على أن من أمسك الطير في الهواء قادر على إهلاك أهل الكفر والمراء .

* قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ

قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ .

تقدم السمع على البصر في الآيات والأحاديث: لأن السمع أهم وأعم، فالإنسان يسمع المناادي من جميع الجهات ولا يرى إلا بالجهة التي يمعن البصر فيها .

* قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ

مَّعِينٍ﴾ .

وفيه إيماء إلى أن يتوقع كفار مكة عذاب القحط والجوع بالجفاف، فإذا غارت العيون والآبار وذهب الماء في أعماق الأرض ولم تصل إليه الدلاء، فمن غير الله يأتيتهم بماء معين تراه الأعين، أو بماء جار طيب، وهو استفهام إنكاري توبيخي موجب شكر المنعم على إنعامه بالإيمان به وعبادته .

وقد ذكر الشيخ السعدي - رحمه الله - : شيئاً من آثار لطف الله بعباده -

فقال من لطفه بعباده المؤمنين: أنه يتولاهم بلطفه فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والبدع والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة .

ومن لطفه: أن يرحمهم من طاعة أنفسهم الأمانة بالسوء التي هذا طلبها

وديدنها، فيوفقهم لنهي النفس عن الهوى ويصرف عنهم السوء والفحشاء .

فتوجد أسباب الفتنة وجواذب المعاصي وشهوات الغي، فيرسل عليها

برهان لطفه ونور إيمانهم الذي من به عليه مطمئنين لذلك منشوحة لتركها صدورهم .

ومن لطفه بعباده: أن يقدر أرزاق عباده، بحسب علمه بمصلحتهم لا بحسب مراداتهم، فقد يريدون شيئاً وغيره أصلح؛ فيقدر لهم الأصلح وإن كرهوه؛ لطفاً بهم وبراً وإحساناً: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]، ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

ومن لطفه بهم: أنه يقدر عليهم أنواع المصائب، وضروب المحن، والابتلاء بالأمر والنهي الشاق؛ رحمة بهم ولطفاً، وسوقاً إلى كمالهم وكمال نعيمهم: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومن لطفه بعبده: أن يقدر له أن يتربى في ولاية أهل الصلاح والعلم والإيمان، وبين أهل الخير؛ ليكتسب من أدبهم وتأديبهم، ولينشأ على صلاحهم وإصلاحهم، كما امتن الله على مريم، في قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧].

ومن ذلك: إذا نشأ بين أبوين صالحين، وأقارب أتقياء، أو في بلد صلاح، أو وفقه الله لمقارنة أهل الخير وصحبتهم، أو لتربية العلماء الربانيين؛ فإن هذا من أعظم لطفه بعبده، فإن صلاح العبد موقوف على أسباب كثيرة: منها؛ بل من أكثرها وأعظمها نفعاً: هذه الحالة، ومن ذلك إذا نشأ العبد في بلد أهله على مذهب أهل السنة والجماعة فإن هذا لطف له.

ومن لطف الله بعبده: أن يجعل رزقه حلالاً في راحة وقناعة، يحصل به المقصود، ولا يشغله عما خلق له من العبادة والعلم والعمل، بل يعينه على ذلك ويفرغه، ويريح خاطره وأعضائه، ولهذا من لطف الله - تعالى - لعبده ربما طمحت نفسه لسبب من الأسباب الدنيوية، التي يظن فيها إدراك

به، فيعلم الله - تعالى - أنها تضره وتصدده عما ينفعه؛ فيحول بينه وبينها، فيظل كارهاً وهو لم يدر أن ربه قد لطف به، حيث أبقى له الأمر النافع، وصرف الأمر الضار، ولهذا كان الرضى بالقضاء في مثل هذه الأشياء من أعلى المناقب.

ومن لطف الله بعبده - إذا قدر له طاعة جليلة لا تنال إلا بأعوان أن يقدر له أعواناً عليها ومساعدتين على حملها، قال موسى عليه السلام: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِى ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيْرًا﴾ [طه: ٢٩ - ٣٤]، وكذلك امتن على عيسى بقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيْنَ أَنْ ءَامِنُوا بِيْ وَبِرِسُوْلِيْ قَالُوْا ءَامَنَّا وَآشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، وامتن على سيد الخلق في قوله: ﴿هُوَ الَّذِيْ أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِيْنَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

ومن لطف الله بعبده: أن يعطي عبده - من الأولاد والأموال والأزواج ما به تقرر عينه في الدنيا، ويحصل له به السرور، ثم يبتليه ببعض ذلك، ويأخذه ويعوضه عليه الأجر العظيم إذا صبر واحتسب، فنعمة الله عليه بأخذه من هذا الوجه أعظم من نعمته عليه في وجوده وقضاء مجرد وطره الدنيوي. وهذا أيضاً خير وأجر خارج عن أحوال العبد بنفسه، بل هو لطف من الله له، قيض له أسباباً أعاضه عليها الثواب الجزيل، والأجر الجميل.

ومن لطفه بعبده الحبيب عنده: إذا مالت نفسه مع شهوات النفس الضارة، واسترسلت في ذلك؛ أن ينغصها عليه ويكدرها، فلا يكاد يتناول منها شيئاً إلا مقروناً بالمكدرات، محشواً بالغصص؛ لئلا يميل معها كل الميل، كما أن من لطفه به أن يلذذ له التقربات، ويحلي له الطاعات؛ ليميل إليها كل الميل.

ومن لطيف لطف الله بعبده: أن يأجره على أعمال لم يعملها بل عزم عليها، فيعزم على قربة من القرب ثم تنحل عزيمته لسبب من الأسباب فلا

يفعلها، فيحصل له أجرها، فانظر كيف لطف الله به! فأوقعها في قلبه، وأدارها في ضميره، وقد علم - تعالى - أنه لا يفعلها؛ سوقاً لبره لعبده وإحسانه بكل طريق.

والطف من ذلك: أن يقيض لعبده طاعة أخرى غير التي عزم عليها، هي أنفع له منها؛ فيدع العبد الطاعة التي ترضي ربه لطاعة أخرى هي أرضى الله منها، فتحصل له المفعول بالفعل والمعزوم عليها بالنية، وإذا كان من يهاجر إلى الله ورسوله، ثم يدركه الموت قبل حصول مقصوده قد وقع أجره على الله - مع أن قطع الموت بغير اختياره - فكيف بمن قطعت عليه نيته الفاضلة طاعة قد عزم على فعلها؟! وربما أدار الله في ضمير عبده عدة طاعات، كل طاعة لو انفردت لفعلها العبد؛ لكمال رغبته، ولا يمكن فعل شيء منها إلا بتفويت الأخرى، فيوفقه للموازنة بينها، وإيثار أفضلها فعلاً، مع رجاء حصولها جميعها عزماً ونية.

والطف من هذا: أن يقدر - تعالى - لعبده ويبتليه بوجود أسباب المعصية، ويوفر له دواعيها، وهو - تعالى - يعلم أنه لا يفعلها؛ ليكون تركه لتلك المعصية التي توفرت أسباب فعلها من أكبر الطاعات، كما لطف بيوسف - عليه السلام - في مراودة المرأة، وأحد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: رجل دعت امرأته ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله.

ومن لطف الله بعبده: أن يقدر خيراً وإحساناً من عبده ويجريه على يد عبده الآخر، ويجعله طريقاً إلى وصوله للمستحق، فيثيب الله الأول والآخر.

ومن لطف الله بعبده: أن يجري بشيء من ماله شيئاً من المنافع وخيراً لغيره؛ فيثيبه من حيث لا يحتسب، فمن غرس غرساً، أو زرع زرعاً؛ فأصابته منه روح من الأرواح المحترمة شيئاً، أجر الله صاحبه وهو لا يدري! خصوصاً إذا كانت عنده نية حسنة، وعقد مع ربه عقداً في أنه مهما ترتب على ماله شيء من النفع، فأسألك يا رب أن تأجرني، وتجعله قرينة

لي عندك، وكذلك لو كان له بهائم انتفع بדרها وركوبها والحمل عليها، أو مساكن انتفع بسكناها ولو شيئاً قليلاً، أو ماعون ونحوه انتفع به، أو عين شرب منها، وغير ذلك ككتاب انتفع به في تعلم شيء منه، أو مصحف قرئ فيه، والله ذو الفضل العظيم.

ومن لطف الله بعده: أن يفتح له باباً من أبواب الخير لم يكن له على بال وليس ذلك لقلّة رغبته فيه، وإنما هو غفلة منه، وذهول عن ذلك الطريق يشعر إلا وقد وجد في قلبه الداعي إليه، واللافت إليه؛ ففرح بذلك، وعلم أنها من ألطف سيده، وطرقه التي قيض وصولها إليه؛ فصرف لها ضميره ووجه إليها فكره، وأدرك منها ما شا الله وفتح.

سورة القلم ٦٨

سورة «ن» سورة مكية، ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على رفعة قدر الرسول ﷺ وشرفه، وبراءته مما ألصقه به المشركون من اتهامه - وحاشاه - بالجنون، وبينت أخلاقه العظيمة ومناقبه السامية، قال بعض العلماء: سورة «ن» هي سورة «الخلق» الذي هو جماع الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ قال الله - تعالى - فيها ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝١﴾ .

وقد أقسم الله - تعالى - بالقلم، وذلك أن القلم وما يسطرون به من أنواع الكلام، من آيات الله العظيمة، التي تستحق أن يقسم الله بها على براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبته إليه أعداؤه من الجنون.

* قال تعالى: ﴿بِالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝٢﴾ [القلم: ١].

قال قتادة: القلم نعمة من الله عظيمة، لولا القلم ما قام دين ولم يصلح عيش، والله أعلم بما يصلح خلقه.

ويؤخذ من الإقسام بالقلم وبالمكتوب فضل العلم وأهله. وقد قال بعض السلف: من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم.

ثم ذكر - سبحانه وتعالى - ما أجراه على نبيه من نعمة النبوة والرسالة، وما وهبه له من الأخلاق الكاملة العالية الرفيعة والأدب الجم، التي تنافي الجنون والسفه، فقال سبحانه:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝١﴾ أي: عالياً به، جمع لك به محاسن الأخلاق ومحاسن الصفات.

والمعنى: إنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن، ثبت في الصحيح عن عائشة أنها سئلت عن خلق النبي ﷺ، فقالت: «كان خلقه القرآن».

قال الغزالي : فسبحان الله ما أعظم شأنه ، وأتم امتنانه ، انظر إلى عميم لطفه ، وعظيم فضله ، كيف أعطى ثم أثنى ، فهو الذي زينه بالخلق الكريم ، ثم أضاف إليه ذلك فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم : ٤] .

✽ وبعد أن ساق - سبحانه - الآيات السابقة تسلياً لنبية ﷺ وإعانة له على تحمل أعباء الرسالة ، شد من أزره ورفع قدره ، فقال تعالى : ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ ﴾ [القلم : ٨] .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - في مجموع الفتاوى : فيه فوائد ، منها : أن الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة ؛ ففيه تحذير عن اكتساب شيء من أخلاقهم بالمخالطة لهم ؛ فليأخذ حذره فإنه محتاج إلى مخالطتهم لأجل دعوتهم إلى الله - تعالى - .

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ۝٩ ﴾ .

ولا تطع - يا محمد - كثير الحلف بالباطل ، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب ، ولا يكون كذاباً إلا وهو :

﴿ مَّهِينٍ ۝١٠ ﴾ .

أي : فاجر حقير ، خسيس النفس ، ناقص الهممة ، دنيء الأخلاق . ومهين : من المهانة ، وهي القلة في الرأي والتميز . وفيه دليل على أن من أكثر الأيمان هان على الرحمن ، واتضعت مرتبته عند الناس .

﴿ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ ﴾ .

أي : مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب . يمشي بين الناس بالنميمة . والنميمة هي نقل كلام بعض الناس لبعض ، لقصد الإفساد بينهم ، وإلقاء العداوة والبغضاء .

﴿ مِّنَّاغٍ لِلْخَيْرِ ۝١٢ ﴾ .

أي: بخيل ممسك، يمنع النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك. وجاءت الأوصاف: حلاف، هماز، مشاء، مناع، بصيغة المبالغة للدلالة على الكثرة.

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ .

ظالم للخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله - تعالى - .

﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ .

أي: جاف، غليظ، شرس الخلق، غير منقاد للحق. وهو بعد ما عُدَّ من معاييه زنيم. والزنيم: الدعيّ الملتصق بالقوم وليس هو منهم، وهذه أشد معاييه وأقبحها.

قيل نزلت في الوليد بن المغيرة فقد كان دعيّاً في قريش وليس منهم، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة. قال ابن عباس: لا نعلم أحداً وصفه الله بهذه العيوب غير هذا، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً. وروي أن الآية لما نزلت جاء الوليد إلى أمه، فقال لها: إن محمداً وصفني بتسع صفات، كلها ظاهرة فيّ أعرفها غير التاسع منها، يريد أنه «زنيم»، فإن لم تصدقيني ضربت عنقك بالسيف، فقالت له: إن أباك كان عنيماً - أي لا يستطيع معاشرته النساء - فخفت على المال فمكنت راعياً من نفسي، فأنت ابن ذلك الراعي، فلم يُعرف أنه ابن زنى حتى نزلت الآية.

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ .

أي: لأجل كثرة ماله وولده طغى، واستكبر عن الحق، وهذا تقرير وتوبيخ له كيف جازى نعم الله بالكفر والاستكبار عن الحق.

﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ .

من صفاته وحاله الشنيع، أنه إذا قرأت عليه الآيات جعلها من جملة أساطير الأولين التي يمكن صدقها وكذبها. وقد توعد الله من كذب بآياته

ورسله بالعذاب الشديد جزاء فعله، فقال تعالى:

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ .

أي: سوف نجعل له الوسم بالسواد على أنفه، وذلك أنه يسود وجهه بالنار قبل دخول النار، فيكون له على أنفه علامة، ونُلْحِق به شيئاً لا يفارقه يعرف به، وخص الأنف بالذكر لأن الوسم فيه أبشع. ولأن السمة على الوجه شين وإذاله، وقد خُطِم أنفه بالسيف يوم بدر.

قال ابن تيمية: وفيه إطلاق يتضمن الوسم في الآخرة وفي الدنيا أيضاً. فإن الله جعل للصالحين سيما، وجعل للفاجرين سيما. قال تعالى:

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

فأخبر - سبحانه - أنه لا بد أن يسم صاحب هذه الأخلاق الخبيثة على خرطوم، وهو أنفه الذي هو عضوه البارز الذي يسبق البصر - إليه عند مشاهدته؛ لتكون السيمة ظاهرة من أول ما يرى، وهذا ظاهر في الفجرة الظلمة الذين ودعهم الناس اتقاء شرهم وفحشهم، فإن لهم سيما من شر يعرفون بها، وكذلك الفسقة وأهل الريب.

* ثم ساق - سبحانه - مثلاً ضربه - تعالى - لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة، وهو بعث محمد ﷺ فقابلوه بالكفر، والرد والمحاربة، والسخرية والاستهزاء.

قال تعالى:

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (٢٨) قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا

ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ [القلم: ٢٨ - ٢٩].

دليل على أن المذنب الظالم لنفسه محتاج - مع ربه - إلى الاعتراف بذنبه، وسوء صنيعه بلسانه، وإن كان نادماً عليه بقلبه، وكذا كان نبينا ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي».

﴿قَالُوا يَتَوَلَّآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١﴾ [القلم: ٣١].

قال ابن تيمية: فإنه - سبحانه - إذا أنعم على عبد بباب من الخير وأمره بالإنفاق فيه فبخل، عاقبه بباب من الشر - يذهب فيه أضعاف ما بخل به، وعقوبته في الآخرة مدخرة.

* قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ هَٰذَا ۖ الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤﴾ [القلم: ٤٤].

قال سفيان الثوري: نسبغ عليهم وننسيهم الشكر.
وقال الحسن: كم مستدرج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالستر عليه.

* قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ ٱلْخُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨﴾ [القلم: ٤٨].

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ختمها بالأمر بالصبر الذي هو جماع الخلق العظيم في قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وذلك نص في الصبر على ما يناله من أذى الخلق وعلى المصائب السماوية. والصبر على الأول أشد.

سورة الحاقة ٦٩

سورة الحاقة سورة مكية، ذكر الله فيها الساعة وشدائدها، وأحوال الأمم السابقة، وما جرى لهم بعدما طغوا وبغوا. وذكرت الآيات حال الناس يوم القيامة وما يجري لهم من الفرع والأهوال، سورة الحاقة، آيات بينات، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.

✽ قال تعالى: ﴿ الْحَاقَّةُ ۝١ ﴾ [الحاقة: ١].

قال البغوي: سميت حاقة لأنها حقت فلا كاذبة لها، وقيل: لأن فيها حواق الأمور وحقائقها، ولأن فيها يحق الجزاء على الأعمال.

✽ قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٢ ﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا

بِالطَّاغِيَةِ ۝٣ ﴾ [الحاقة: ٤ - ٥].

وابتدئ بثمود وعاد في الذكر من بين الأمم المكذبة لأنهم أكثر الأمم المكذبة شهرة عند المشركين من أهل مكة، لأنهما من الأمم العربية ولأن ديارهما مجاورة شمالاً وجنوباً.

✽ وقد ذكر - عز وجل - في السورة ما جرى لقوم عاد، فقال تعالى:

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٤ ﴾ [الحاقة: ٦].

الريح الصرصر الشديدة الباردة، واللفظ ذاته فيه صرصرة الريح، وزاد شدتها بوصفها ﴿ عَاتِيَةٍ ۝٤ ﴾ أي: متجاوزة الحد في الهبوب والبرودة، لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكي في القرآن، كأنها عتت على خزانها فلم يتمكنوا من ضبطها.

قال ابن عباس: ما أرسل الله من ريح قط إلا بمكيال، ولا أنزل قطرة قط إلا بمكيال، إلا يوم نوح ويوم عاد، فإن الماء يوم نوح طغى على سبيل، (إنا لما طغى) عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ ﴿ بِرِيحٍ

صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٤ ﴾.

وللرياح في القرآن ثمان معان:

أربع رحمة وهي: المبشرات، والمرسلات، والذاريات، والناشرات.
وأربع عذاب: الصرصر، والعقيم في البر، والعاصف والقاصف في البحر.

* قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

تصوير عجيب يخلع على الماء صفات الآدمي عبر استعارة فريدة تصور الماء حال اضطرابه بالطاغية مجاوزاً الحد.

* لما ذكر الله - عز وجل - نهاية الأمم الظالمة، وقصص المكذبين وما جرى لهم من العذاب في الدنيا، ذكر - سبحانه - الحال يوم الفزع الأكبر يوم القيامة، وأتبعه بذكر أهوالها وشدائدها حيث المشهد المهول، ونهاية الكون، أحداث متسارعة متلاحقة كأننا نراها رأي العين، قال تعالى:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [١٢].

حيث ينفخ إسرافيل في القرن، وهي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب وهلاك الدنيا.

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [١٣] ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [١٤]

أي: فتت الجبال واضمحلت، وخلطت بالأرض، ونسفت الأرض فكان الجميع قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً. فكسرتا كسرة واحدة لا زيادة عليها. وقيل: دكتا: بسطتا بسطة واحدة.

قال ابن تيمية - رحمه الله - : هذا ليس على وجه التأكيد المجرد، بل المراد التقييد بالمرّة الواحدة. . أي: أن النفخ لم يكن نفختين، ولم يك دك الأرض والجبال بعد حملهما دكتين، بل واحدة فقط، فعل المقتدر على الشيء المتمكن منه، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٢٩].

* ولما ذكر - سبحانه - حال الأرض وما يقع فيها من تبدل وتزلزل وأهوال عظام، ذكر حال السماء في يوم القيامة، فقال تعالى:

﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝﴾ .

أي: وانصدعت السماء وانشقت بنزول ما فيها من الملائكة، فهي في ذلك اليوم ضعيفة مسترخية بعدما كانت محكمة.

﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ۚ وَتَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ۝﴾ .

أي: تكون الملائكة الكرام على حافات وجوانبها، حتى يأمرهم الرب - عز وجل - فينزلون إلى الأرض، ويحيطون بالأرض ومن عليها. وفي ذلك اليوم يحمل عرش الرحمن، ثمانية من الملائكة المقربين العظام فوق رؤسهم.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعَرِّضُونَ لَا تُخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۝﴾ .

أي: في ذلك اليوم الرهيب يعرض العباد على الله لحسابهم وجزاءهم. لا يخفى على الله - سبحانه - من ذواتكم، أو أقوالكم وأفعالكم، خافية كائنة ما كانت؛ فالكل مكشوف، مكشوف الجسد، مكشوف الرأس، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف العمل، مكشوف المصير، وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار، وتتعرى النفوس تعري الأجساد، وتبرز العيوب بروز الشهود، ويتجرد الإنسان من حيطته ومكره، ومن تدبيره ومن شعوره، ويفتضح ما كان حريصاً على أن يستره حتى عن نفسه. فاللهم الطف بنا ولا تجعلنا من المفضوحين في يوم العرض ولا فوق الأرض.

* قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ ۝﴾

إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَةَ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝﴾ [الحاقة: ٢١].

الوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية فإنها اللائقة بهم، فشبّه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها، كأنها رضيت بهم ورضوا بها، وهذا أبلغ من جرد كونها مرضية فقط.

* قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝﴾

[الحاقة: ٢٤].

قال قتادة: أيامكم هذه أيام خالية إلى أيام باقية، فاعملوا في هذه الأيام، وقدموا خيراً إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله.

خرج ابن عمر ومعه أصحاب له، ووضعوا سفرة لهم، فمر بهم راعي غنم، فدعاه ابن عمر ليأكل، فقال: إني صائم! فقال ابن عمر: أتصوم في مثل هذا اليوم الحار الشديد سموه، وأنت في هذه الجبال ترعى هذه الغنم؟ فقال: إني والله أبادر أيامي الخالية.

* قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (٣٣) وَلَا تَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾ [الحاقة: ٣٣ - ٣٤].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -: وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران: الإخلاص لله، الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها، دفع ضرورة المحتاجين بإطعامهم ما يتقوون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقوا ما استحقوا.

وفيه دليل قوي على عظم جرم حرمان المسكين؛ لأن عطفه على الكفر وجعله دليلاً عليه وقرينة له، لأن ذكر الحَض دون الفعل ليعلم أن تارك الحَض إذا كان بهذه المنزلة فتارك الفعل أحق، وعن أبي الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان فنخلع نصفها بهذا.

﴿وَلَا تَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (٣٤) [الحاقة: ٣٤].

ووصفه بأنه لا يحض على طعام المسكين يدل على أنه لا يطعمه من باب أولى، وهذه الآية تدل على عظم الصدقة وفضلها، لأنه قرن منه طعام المسكين بالكفر بالله.

* قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ

رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤٠].

وهذا أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات، والدنيا والآخرة، وما يُرى وما لا يُرى، ويدخل في ذلك الملائكة كلهم، والجن، والإنس، والعرش، والكرسي، وكل مخلوق، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته؛ وهو - سبحانه - يصرف الأقسام كما يصرف الآيات ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما يرى آية، هو دليلك على صدق رسوله وأن ما جاء به هو من عند الله، وهو كلامه لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا

تَذَكَّرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ٤١ - ٤٢].

وإنما خص هذان بالذكر دون قولهم: افتراه أو هو مجنون، لأن الوصف بكريم كاف في نفي أن يكون مجنوناً أو كاذباً إذ ليس المجنون ولا الكاذب بكريم. فأما الشاعر والكاهن فقد كان معدودين عندهم من أهل الشرف.

* ثم ذكر الله - تعالى - بعد هذا السياق العظيم، أحوال ومنصرف كل فريق، وذكر أحوال السعداء والأشقياء حيث تعرض الآيات التالية مشهد الناجين والمعذبين، وصفاً دقيقاً واضحاً، كأنه حاضر تراه العيون. وختم السورة بقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقة: ٥٣].

وهو العظيم؛ إذا تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة، أو رعدة شديدة خوفاً من الله، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرخوا لله سجداً.

سورة المعارج ٧٠

سورة المعارج سورة مكية، ذكر الله - عز وجل - فيها البعث والجزاء وأحوال القيامة وأهوالها، والآخرة وما فيها من سعادة وشقاء، وراحة ونصب، وذكر فيها أحوال المؤمنين والمجرمين في دار الجزاء والخلود. وتحدثت آيات السورة عن كفار مكة وإنكارهم للبعث والنشور، واستهزائهم بدعوة الرسول ﷺ.

* قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.

أي: دعا داع من المشركين على نفسه وقومه بنزول العذاب عليهم، وهذا السائل قيل: هو النضر بن الحارث من صناديد قريش وطواغيتها، لما خوفهم الرسول ﷺ عذاب الله، قال استهزاء: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، دعا بهذا العذاب على الكافرين.

﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾.

أي: ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل من متمردي المشركين، أحد يدفعه قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله وذلك لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم.

﴿مِنْ أَلَلَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾.

أي: هو صادر من الله العظيم الجليل، ذو العلو والعظمة والتدبير لسائر خلقه، صاحب المصاعد التي تصعد بها الملائكة، وتنزل بأمره ووحيه.

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

أي: تصعد الملائكة الأبرار إلى الله - عز وجل - في تلك المعارج التي جعلها الله لهم. والروح هو جبريل - عليه السلام - خصه بعد العموم

لفضله وشرفه، في يوم كان طوله خمسون ألف سنة من سني الدنيا، مدة موقف العباد للحساب هي هذا المقدار من السنين، ثم يستقر بعد ذلك أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ .

أي: اصبر - يا محمد - على دعوتك لقومك، اصبر على استهزائهم وأذاهم ولا تضجر، اصبر على صدهم وعصيانهم، اصبر عليهم صبراً جميلاً، واستمر على أمر الله وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنعك ما ترى من عدم انقيادهم، فإن في الصبر على ذلك خيراً كثيراً. وقد كان هذا فعل النبي ﷺ حتى أشرقت الأرض برسالته ﷺ.

والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ .

أي: إن هؤلاء المستهزئين يرون البعث أو العذاب مستبعداً محالاً غير كائن لأنهم لا يؤمنون به. والله - عز وجل - يراه قريباً، كائناً لا محالة، لكنه رفيق حلیم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون.

* ثم ذكر الله - عز وجل - أحوال وأهوال القيامة، وما يجري في ذلك اليوم، وما يكون فيه، قال تعالى:

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ .

أي: يوم القيامة تكون السماء كالمهل؛ وهو ما أذيب من النحاس والرصاص والفضة، ثم بعد ذلك تكون هباءً منثوراً، فتضمحل، فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالعبء الضعيف الذي قد أثقلته الذنوب، أليس حقيقاً أن ينخلع قلبه وينزعج له، ويذهل عن كل أحد؟ ثم قال سبحانه:

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ .

أي: متناثرة متطايرة كالصوف المنفوش.

* وإذا كانت السماء والجبال مع عظمة خلقهما يعتريهما ما يعتريهما من التبدل والتغير، فكيف بالإنسان المخلوق الضعيف، ولهذا قال تعالى:

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

* قال - تعالى - في ذلك الموقف العظيم:

﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ .

أي: لا يسأل قريب قريبه، ولا صديق صديقه، عن شأنه في ذلك اليوم، لما نزل بهم من شدة الأهوال، ولا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله.

وفي هذه الأحوال العظيمة والشدائد المتوالية تكون الحال كما ذكر سبحانه، بقوله:

﴿يُبْصِرُوكُمْ يُؤْذُ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِهِ بَيْنِهِ﴾ (٥) **وَصَحْبَتِهِ** وَأَخِيهِ (٦) **وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ** (٧) **وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ** (٨) .

قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أداة زجر وتعنيف، أي: لا حيلة ولا مناص لهم، لقد ذهب وولى نفع الأقارب والأصدقاء.

﴿إِنِّهَا لَطِيءٌ﴾ (٩) **نَزَّاعَةٌ لِلشَّوَى** (١٠) .

أي: إنها النار الحامية. ولظى: اسم لجهنم، واشتقاقها من التلظى في النار، وهو التلهب. تنزع بشدة حرها جلدة الرأس من الإنسان، وخصها بالذكر؛ لأنها أشد الجسم حساسية وتأثراً بالنار.

﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ (١١) **وَجَمَعَ فَأَوْعَى** (١٢) .

أي: أن جهنم تنادي وتدعو إليها من أدبر عن الحق في الدنيا، وأعرض عنه. تدعو من جمع المال فجعله في وعاء، فلم ينفق منه في سبيل الله، ولم يؤد منه حق الله.

* ثم ذكر - سبحانه وتعالى - مآل الإنسان وانقسامه إلى فريقين في تلك

الأحوال، فقال:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي: إن الإنسان جبل على الضجر، ولا يصبر على بلاء. والهلع: أشد الحرص، وأسوأ الجزع وأفحشه. قال ابن القيم في عدة الصابرين: وإذا أردت معرفة الهلوع؛ فهو الذي إذا أصابه الجوع مثلاً أظهر الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها، وإذا أصابه القهر أظهر الاستكانة وباء بها سريعاً، وهذا كله من صغر النفس ودناءتها، والله المستعان.

* تأتي الآيات القرآنية بلفظ ﴿الْإِنْسَانُ﴾ في مقام الذم في أكثر من ست عشر موضعاً قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦]، ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧] وغيرها من الآيات.

* قال - تعالى - عن الإنسان: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ وإذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿ [المعارج: ٢٠ - ٢١].

قال ابن كيسان: خلق الله الإنسان يحب ما يسره ويهرب مما يكره، ثم تعبده بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره.

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ .

أي: يجزع وينخلع قلبه، إن أصابه فقر أو مرض، أو ذهاب محبوب له من مال أو أهل وولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله وقدر.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ .

أي: إذا أصابه الخير، وحصلت له نعمة من الله من الغنى والخصب والسعة ونحو ذلك، فهو كثير المنع والإمساك فلا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره، فيجزع في الضراء، ويمنع في السراء.

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (٢٢) .

أي: المقيمين للصلاة، استثناهم من البشر الموصوفين بالهلع. يعني: أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع والجزع والمنع، فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله، وأنفقوا مما خولهم الله، وإذا مسهم البلاء صبروا واحتسبوا، لأن صلاتهم تحملهم على قلة الاكتراث بالدنيا، فلا يجزعون من شدتها ولا ييخلون بخيرها، ويرجون ما عند الله شكراً على النعمة وصبراً على البلاء.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (٢٥) .

مواظبون على أداء الصلاة، يحافظون على أوقاتها وواجباتها، لا يشغلهم عنها شاغل. وفي أموالهم نصيب معين فرضه الله عليهم. للسائل هو الفقير الذي لا يجد شيئاً ويتعرض لك فيطلب منك العون. والمحروم: الذي لا يقدر على الكسب ويتعفف عن السؤال حتى يحسبه الناس غنياً فلا يتصدقون عليه، وقيل الذي أصابته جائحة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٢٦) [المعارج: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (٢٣) [المعارج: ٢٣].

وكرر ذكر الصلاة لاختلاف ما وصفهم به أولاً، وما وصفهم به ثانياً، فإن معنى الدوام هو أن لا يشتغل عنها بشيء من الشواغل كما سلف، ومعنى المحافظة أن يراعي الأمور التي لا تكون صلاة بدونها.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ﴾ (٢٧) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ (٢٩) .

أي: يؤمنون بيوم الحساب، وهو يوم القيامة، لا يشكون فيه ولا يجحدونه فيستعدون له بالأعمال الصالحة. ومن صفاتهم أنهم خائفون وجلون، مع ما لهم من أعمال الطاعة، فهم يرجون الثواب ويخافون العقاب.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦٧﴾﴾ .

أي: في عدم حفظ فروجهم عن أزواجهم ولا عما ملكت إيمانهم، ويَلَامُونَ إذا انطلقوا فيما عدا ذلك .

﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات . فأولئك المتجاوزن ما أحل الله إلى ما حرم .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٦٩﴾﴾ .

أي: لا يخلون بشيء من الأمانات التي يؤتمنون عليها، حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، ولا ينقضون شيئاً من العهود التي يعقدونها على أنفسهم .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ .

هذا هو الوصف السابع من أوصاف المؤمنين، أي: يقيمون الشهادة على وجهها على من كانت عليه من قريب أو بعيد، رفيع أو ضيع، ولا يكتُمونها ولا يغيرونها ولا يحابون فيها قريباً ولا صديقاً، ويكون القصد بها وجه الله .

وذكر حفظ الشهادة بعد ذكر رعي الأمانات، لأن حق المشهود له وديعة في حفظ الشاهد، فإذا أدى شهادته فكأنه أدى أمانة لصاحب الحق المشهود له، وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الأمانات لإبانة فضلها، ولأن الشهادة تتعلق بها حقوق كثيرة بل تتعلق بها حدود الله - تعالى - .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ تَحَافِظُونَ ﴿٧١﴾﴾ .

أي: على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، لا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل ولا يفعلون ما يحبطها ويبطل ثوابها، وهذا هو الوصف الثامن من أوصاف المؤمنين . وقد افتتح - سبحانه - الكلام بذكر الصلاة

واختتمه بذكرها؛ فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها وعظم أمرها.

ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّةٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥].

﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّةٍ مُّكْرَمُونَ﴾.

أي: الموصوفون بتلك الصفات الجليلة والمناقب الرفيعة. مستقرّون في الجنات، مكرمون بأنواع الكرامات.

سورة نوح ٧١

سورة نوح سورة مكية، ذكر الله - عز وجل - فيها كاملة، قصة شيخ الأنبياء نوح - عليه السلام - مع قومه لطول لبثه في قومه، وتكرار دعوة التوحيد ونهيه عن الشرك، وما قام به من الدعوة إلى الله بوسائل وأساليب شتى، ومن ذلك أن ذكرهم بنعمة الله وما أفاض عليهم من الخيرات، ولما عصوا وطمغوا أصابهم العذاب، وأغرقهم الله - عز وجل - عبرة للمعتبرين. وهذه القصص وأمثالها من قصص الأنبياء فيها تذكير بالأُمم السابقة، وتسليّة للنبي ﷺ على ما يلاقي من قومه في سبيل دعوتهم، وهذه السورة تمثل منهج الدعوة إلى الله - عز وجل - من حيث تنويع الأساليب، والجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والصبر وتحمل الأذى في سبيل الدعوة، والتوجه إلى الله - عز وجل - وشكوى الحال إليه - سبحانه -.

* قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣﴾ [نوح: ١ - ٣].

قال ابن عباس: كل موضع في القرآن: اعبدوا الله؛ فمعناه وحدوا الله.

* قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ

عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ٢﴾ [نوح: ١٠ - ١١].

قال ابن كثير: ولهذا تستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية. وهكذا روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: أنه صعد ليستسقي، فلم يزد على الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار. ومنها هذه الآية: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ٢﴾، ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديع السماء التي يتنزل بها المطر.

قال إبراهيم بن أدهم: ما ألهم الله - عز وجل - عبداً الاستغفار وهو يريد أن يعذبه .

وفي الآية أهمية الترغيب في الدعوة إلى الله - تعالى - إذ النفس متشوقة للحصول على العاجل .

* قال تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣] .

قال ابن القيم في الفوائد: من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير من الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها، قال تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أي: لا تعاملونه معاملة من توقرونه .

﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٦] .

قال ابن جزى: وجعل القمر نوراً والشمس سراجاً، لأن ضوء السراج أقوى من النور، فإن السراج وهو الذي يضيء فيبصر به، والنور قد يكون أقل من ذلك .

* قال تعالى: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ [نوح: ٢٨] .

وهذه بشارة لكل مؤمن ومؤمنة يكون إلى يوم القيامة، لأن نوحاً - عليه السلام - نبي، ودعاؤه مستقيم .

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [نوح: ٢٨] .

يؤخذ من هذا أن سنة الدعاء أن يقدم الإنسان الدعاء لنفسه على الدعاء لغيره .

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا ﴾ خص المذكورين لتأكد حقهم، وتقديم برهم ثم عمم الدعاء .

سورة الجن ٧٢

سورة الجن سورة مكيّة، ذكر الله - عز وجل - فيها أن الجن مكلفون مجازون بأعمالهم، وأنه - سبحانه - بعث محمداً ﷺ للإنس والجن كافة بشيراً ونذيراً، وذكر - تعالى - في الآيات اعتناؤه برسوله وحفظه لما جاء به، ومنع الجن من استراق السمع بشهب تطل من يسترق، وبين - تعالى - شدة حرص الجن لاستماع الرسول وقيامهم بتبليغ الدعوة، وختمت السورة بأن علوم الغيب قد انفرد الله بعلمها، فلا يعلمها أحد من الخلق إلا من ارتضاه الله وخصه بعلم شيء منها، فإن الله - عز وجل - أيد الأنبياء بالآيات الباهرات والمعجزات العظيمة، تأييداً لهم وتبيانا للناس، وقد ذكر - تعالى - حكاية عن الجن لما علموا وسمعوا بما جرى من بعثة الرسول ﷺ.

ثم بينوا علمهم بقدرة الله - تعالى - عليهم أينما كانوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْآرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ .

فلاهم يعجزون الله وهم في الأرض، ولاهم يعجزونه بالهرب منها.

ثم قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَن فِي الْآرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ .

وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلى الله - تعالى -، حذفوا فاعله تأدباً مع الله.

وهذا الأدب كثير في القرآن الكريم، منه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ

يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن

أضافه إلى نفسه أدباً، كما قال - تعالى - آمراً للمصلي أن يقول: ﴿وَأَنَا

ظَنَّنَا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٦﴾ .

إلى آخر السورة فأسند الإنعام والهداية إلى الله - تعالى -، والغضب حذف فاعله أدباً، وأسند الضلال إلى العبيد.

* قال تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُّوْا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴿١٧﴾ لِنَفْتِنَهُمْ

فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٦ - ١٧].

قال عمر في هذه الآية: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت

الفتنة. فمعنى ﴿اسْتَقَمُّوْا﴾ لو سعنا عليهم في الدنيا؛ وضرب الماء الغدق الكثير لذلك مثلاً؛ لأن الخير والرزق كله بالمطر يكون، فأقيم مقامه.

قدم الإنس في الآية الأولى، والجن في الآية الثانية.

وفي الآيتين تحدٍّ، ولكن لما كان مداره في الآية الأولى البلاغة قدم

الإنس، ولما كان مدار التحدي بالثانية سرعة النفاذ والانتقال قدم الجن.

سورة المزمل ٧٣

سورة المزمل سورة مكية، تتناول جانباً من حياة الرسول ﷺ، في تبتله، وطاعته، وقيامه الليل، وتلاوته لكتاب الله - عز وجل -، وفي الآيات أمر بالعبادات المتعلقة به ﷺ، ثم أمره بالصبر على أذية أعدائه، ثم أمره بالصدع بأمره، وإعلان دعوتهم إلى الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبأكد الأوقات وأفضلها، وهو قيام الليل.

✽ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الْمُزْمِلُ﴾.

هذا الخطاب للنبي ﷺ وفيه تأنيس وملاطفة له - عليه الصلاة والسلام -، فقد كان يتزمل بثيابه أول ما جاءه جبريل بالوحي خوفاً منه، فإنه لما سمع صوت الملك ونظر إليه أخذته الرعدة؛ لأنه رأى أمراً لم ير مثله، ولا يقدر على الثبات له إلا المرسلون، فأتى أهله، وقال: «زملوني، دثروني». ثم بعد ذلك خوطب بالنبوة والرسالة، وأنس بجبريل.

﴿يَتَأْتِيَ الْمُزْمِلُ﴾ [المزمل: ١].

قال القرطبي: وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما: الملاطفة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة

سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليه.

والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليله ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله

- تعالى - فيه.

✽ قال تعالى: ﴿قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قم للصلاة في الليل، ودع التزمل والتلف والراحة والسكون، وصل الليل كله إلا يسيراً منه.

قال ابن تيمية: إذا كان الله - عز وجل - قد سمى الصلاة تسبيحاً، فقد دل ذلك على وجوب التسبيح. كما أنه لما سماها قياماً في قوله تعالى: ﴿قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢] دل على وجوب القيام، وكذلك لما سماها قرآناً في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨] دل على وجوب القرآن فيها، ولما سماها ركوعاً وسجوداً في مواضع دل على وجوب الركوع والسجود فيها. ﴿نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ [١] أَوْ زِدْ عَلَيْهِ [٢].

أي: قم نصف الليل، أو أقل من النصف قليلاً بأن يكون الثلث أو نحوه. قم للصلاة والعبادة أو زد على النصف، فيكون الثلثين ونحوها. ﴿نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ [١] أَوْ زِدْ عَلَيْهِ [٢] [المزمل: ٣ - ٤].

إن قيل: لم قيد النقص من النصف بالقلة، فقال: ﴿أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ [١] وأطلق في الزيادة، فقال: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [٢] ولم يقل قليلاً؟ فالجواب: أن الزيادة تحسن فيها الكثرة فلذلك لم يقيد بالقلة بخلاف النقص فإنه لو أطلقه لاحتمل أن ينقص من النصف كثيراً. ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [٣].

أي: اقرأه على مهل مع تدبره حرفاً حرفاً. والترتيل: هو أن يبين جميع الحروف، ويوفي حقها من الإشباع، فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكير، وتحريك القلوب به، والتهيؤ والاستعداد التام له.

والأمر بترتيل القرآن لأجل ضبط ألفاظه وتحسين الصوت به، ولأجل تدبر معانيه وهو الأهم، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [٤] [المزمل: ٦].

قيل: والحكمة في الترتيل: التمكن من التأمل في حقائق الآيات ودقائقها. فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلاله، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف ويستنير القلب بنور الله، وبعبكس هذا فإن الإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني.

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [١٠] أي: سنزل عليك - يا محمد - كلاماً عظيماً جليلاً، سنوحى إليك القرآن، سهلاً ميسراً في بناءه، ولكنه قول ثقيل فرائضه وحدوده، وحلاله وحرامه، لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مملوءة بالتوحيد، فإن أعباء الرسالة والقيام بها لا تتوافق مع التزمل وطلب الراحة، بل لا بد من القيام بها والنهوض بأعبائها. وفي قيام الليل، استعداد وتدريب للنفس، ومناجاة للرب، يعين على تحمل أعباء الرسالة ومشاقها.

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [المزمل: ١٠].

قال الشيخ ابن عثيمين: الصبر على ما يقولون يتضمن شيئين: الأول: عدم التضجر مما يقول هؤلاء، وأن يتحمل ما يقوله أعداؤه فيه، وفيما جاء به.

والثاني: أن يمضي في الدعوة إلى الله، وأن لا يتقاعس.

﴿ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [١١].

لا عتاب معه ولا غضب، ولا هجر فيه ولا مشادة، وكانت هذه في أوائل الدعوة في مكة.

قال الرازي: إن الله جمع ما يحتاج إليه الإنسان في مخالطة الناس في هاتين الكلمتين، لأن المرء إما أن يكون مخالطاً فلا بد له من الصبر على إيذائهم وإيحاشهم، لأنه إن أطمع نفسه بالراحة معهم لم يجدها مستمرة، فيقع في الغموم، وإن لم يرض نفسه بالصبر على أذاهم، وإن ترك المخالطة فذلك هو الهجر الجميل.

﴿ يَوْمًا تَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ [١٢].

ضربٌ مثل لشدة ذلك اليوم، وهو مجاز باعتبار ما يقع فيه من الأحوال والأحزان، وهو تجوز وإبلاغ في وصف هوله؛ لأن يوم القيامة لا يكون فيه ولدان.

والأصل فيه: أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب، كما يجوز أن يوصف اليوم بالطول، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب.

قال قوم: هذه حقيقة، فتشيب رؤوسهم من شدة الهول، كما يرى الشيب في الدنيا من الهم المفرط كهول البحر.

❖ قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ حُصُوه فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

وفي تقديم طلب الرزق على القتال في سبيل الله إشارة إلى أهمية طلب الرزق والاستغناء عن الخلق.

وقد كان بعض الصحابة يتأول من هذه الآية فضيلة التجارة والسفر لأجلها، حيث سوى الله بين المجاهدين والمكتسبين المال الحلال.

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: ما من حال يأتيني عليه الموت - بعد الجهاد في سبيل الله - أحب إلي من أن يأتيني وأنا بين سعتي رحلي ألتمس من فضل الله، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَءَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

❖ قال تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠].

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: عبر الله بالقرض، وهو الغني - سبحانه وتعالى -، والحكمة في أن يقول هذا - جل وعلا -؛ لبيان

أن أجرهم مضمون، كما أن القرض مضمون، وسيرد عليه الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلي أضعاف كثيرة.

✽ قال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

قال الشيخ السعدي: وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار، فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته، فإنه هالك.

سورة المدثر ٧٤

سورة المدثر سورة مكية، لما بُدئ رسول الله ﷺ بالوحي أتاه جبريل، فرآه رسول الله ﷺ على سرير بين السماء والأرض كالنور المتألي، ففزع ووقع مغشياً عليه، فلما أفاق دخل على خديجة - رضي الله عنها - ودعا بماء فصبه عليه، وقال: «**دثروني دثروني**»، فدثروه بقطيفة.

✽ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ آلَ الْمُدَّثِّرِ﴾.

يا أيها الذي قد تدثر بشيابه؛ أي: تغشى بها وتغطى، يريد النوم والراحة.

وفي هذا ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب، إذ ناداه بحاله، وعبر عنه بصفته ولم يقل: (محمد)، ويا فلان ليستشعر اللين والملاطفة من ربه، ومثله النداء في سورة المزمل ﴿يَتَأْتِيَ آلَ الْمُزْمَلِ﴾ ومثله قول ﷺ لعلي إذا نام في المسجد: «**قم أبا تراب**»، وقوله ﷺ لحذيفة ليلة الخندق: «**قم يا نومان**».

﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾.

أي: قم من مضجعك وانهض بجذ ونشاط، فخوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا، فالدعوة تحتاج إلى همة وعزيمة ونشاط، وقد فعل الرسول ﷺ ما أمر به وظل قائماً بالدعوة أكثر من عشرين عاماً، لم يسترح ولم يسكن، نهض بالدعوة وقام بها حتى بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة - صلوات ربي وسلامه عليه -.

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.

أي: وعظم ربك ومالكك ومصلح أمورك بالتكبير، وهو وصفه - سبحانه - بالكبرياء والعظمة، وأنه أكبر من أن يكون له شريك. كما أمره

– سبحانه – بتطهير ثيابه وحفظها عن النجاسات .

وقيل : نفسك فطهرها من الذنب ، وإذا كان مأموراً بتطهير الظاهر ، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن .

﴿وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ﴾ .

أي : اترك الأصنام والأوثان ، واثبت على هجرها لأنك بريء منها فلا تعبدها ، فإنها سبب العذاب . ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله .

﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ .

أي : لا تمن على ربك بما تتحملة من أعباء النبوة ، كالذي يستكثر ما يتحملة بسبب الغير .

وقيل : المعنى : إذا أعطيت أحدا عطية فأعطها لوجه الله ، ولا تمن بعطيتك على الناس ، وانس عندهم إحسانك ، ولا ترى لك الفضل عليهم بإحسانك ، ولا تطلب أجره إلا في الله – تعالى – . بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك ، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء .
قال الحسن : لا تستكثر عملك ، فإنك لا تعلم ما قبل منه ، وما رد منه فلم يقبل .

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ . أي : حُمِلَتْ أمراً عظيماً ستحاربك العرب عليه والعجم ، فاصبر عليه لله ، واقصد به وجه الله .

* ثم ذكر – سبحانه وتعالى – وجوب إخلاص العبادة له ، والصبر على الأذى فيه ، مذكراً بأهوال يوم عظيم ؛ هو يوم القيامة ، قال تعالى :

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ .

أي : فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور ، وجمع الخلق للبعث والنشور . والنقر في الناقور هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور ، ولكن التعبير هنا أشد إحياء بشدة الصوت ورنينه ، وكأنه نقر

يُصَوِّت وَيُدَوِّي، والصوت الذي ينقر الأذان أشد وقعاً من الصوت الذي تسعمه الأذان.

ومن ثم يصف اليوم بأنه عسير على الكافرين، فهو عسر كله، لا يتخلله يسر.

﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿٢﴾﴾.

أي: يوم القيامة، يوم صعب شاق لكثرة أهواله وشدائده. ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين سهل يسير.

* كل ما في القرآن من أصحاب النار فالمراد أهلها؛ إلا قوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴿٣﴾﴾ [المدثر: ٣١] فالمراد خزنتها.

* قال تعالى: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ

الْمَسْكِينِ ﴿٥﴾﴾ [المدثر: ٤٣ - ٤٤].

دليل على تأكيد حرمة المسكين، حيث قرن تضييعه بترك الصلاة، وخوض الخائضين، وتكذيب بيوم الدين.

* قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٦﴾﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ

مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٧﴾﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥٠].

شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأّت الأسد والرماة، ففرت منه، وهذا من بديع التمثيل فإن القوم من جهلهم بما بعث الله - سبحانه - رسوله كالحمر فهي لا تعقل شيئاً، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور، وهذا غاية الذم لهؤلاء فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها، وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة فإنها لشدة نفورها قد استنفرت بعضها بعضاً وحضه على النفور فإن في الاستفعال من الطلب قدراً زائداً على الفعل المجرد؛ فكأنها تواصيت بالنفور وتواطأت عليه.

﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ .

أي: هو أهل أن يتقيه المؤمنون بترك معاصيه والعمل بطاعته .

﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ .

أي: أن المغفرة من خصائصه، وأنه الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب لفرط رحمته، وسعة كرمه وإحسانه، والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة فيغفر ذنوبهم .

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال في

هذه الآية ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ قال: «قال الله - عز وجل - أنا

أهل أن أتقى فمن اتقاني فلم يجعل معي إلها فأنا أهل أن أغفر له» .

وقال قتادة: هو أهل لأن تتقى محارمه، وأن يغفر الذنوب .

سورة القيامة ٧٥

سورة القيامة سورة مكية، ذكر الله - عز وجل - فيها البعث والجزاء، والقيامة وأهوالها، والساعة وشدائدها، وحالة الإنسان عند الاحتضار وما يلقاه الكافر في الآخرة من المصاعب والمتاعب، ولذلك سميت سورة القيامة، وذكر أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: من سأل عن القيامة، أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعها ليقراً هذه السورة.

✽ قال تعالى:

﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ﴾ .

لا: أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، والتقدير أقسم بيوم القيامة. وإقسامه - سبحانه - بيوم القيامة لتعظيمه وتفخيمه، والله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۖ﴾ .

أي: ولا أقسم بالنفس المؤمنة التقية وهي نفس المؤمن، تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لم عملته، وعلى الخير لم لم تستكثر منه. أو هي نفس الكافر، يلوم نفسه ويتحسر في الآخرة على ما فرط منها في جنب الله.

قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه، ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديثي نفسي؟ ولا أراه إلا يعاتبها، وإن الفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه.

✽ ثم أخبر - تعالى - مع هذا، أن بعض المعاندين يكذب بيوم القيامة، فقال سبحانه:

﴿اتَّخَسَّبُ الْإِنْسَانُ أَن يَجْمَعَ عِظَامَهُ ۖ﴾ .

هذا جواب القسم، والاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: أيلظن هذا الإنسان الكافر أن لن نقدر على جمع عظامه بعد الموت وبعد أن صارت رفاتاً، فنعيدها يوم القيامة خلقاً جديداً، وذلك حسبان باطل.

﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَنْ نَسْوَیَ بَنَانَهُ﴾ (١).

أي: بلى سنجمعها، ونحن قادرون على أن نجمع أصابعه بعضها إلى بعض، فنجعلها قطعة واحدة كخف البعير، لكننا أنعمنا عليه بهذه الأصابع، وهي الصغيرة اللطيفة. المشتملة على المفاصل والأظافر، والعروق اللطاف والعظام الدقاق.

وقيل: هذا تنبيه من الله - تعالى - على أن بنان كل إنسان تختلف عن بنان غيره من الناس في تخطيط بصمتها، ولو شاء - تعالى - لجعلها متوافقة. قال الحسن: إن الله أعف مطعم ابن آدم ولم يجعله خفاً ولا حافراً، فهو يأكل بيديه ويتقي بها، وسائر الدواب إنما يتقي الأرض بفمه.

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ (٢).

بل يريد الإنسان بهذا الإنكار أن يستمر على الفجور، وأن يقدم فُجُورَهُ فيما يستقبله من الزمان، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة، يريد أن يفُجُرَ ما امتدَّ عمره ويمضي أمامه راكباً رأسه ولا يذكر الموت.

وقيل الفجور: الكذب مع التعمد.

﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ﴾ (٣).

أي: يسأل هذا الكافر المعاند: متى يوم القيامة؟ سؤال استبعاد لوقوعه واستهزاء وتعنت.

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ (٤) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٥).

أي: إذا كانت القيامة؛ تحيرت الأبصار من الهول العظيم وشخصت فلا تطرف، وذهب ضوء القمر ونوره كله ولا يعود كما يعود إذا خسف في الدنيا.

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (٦).

أي: ذهب ضوءهما جميعاً، فتجتمع الشمس والقمر؛ فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار، ليرى العباد أنهما عبدان مسخران، وليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين.

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُوءُ﴾ .

يتساءل الكافر في تلك الأحوال العصيبة، وحين يرى تلك الأهول العظيمة، يريد مسلكاً وطريقاً ينجو به. أين المفر؟ وأين المهرب من الله - سبحانه -، ومن حسابه وعذابه؟ وأين الخلاص والفرار مما نرى؟

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿٢٧﴾ .

ردع له عن طلب الفرار. أي: لا ملجأ له ولا مغيث من عذاب الله يعصمه يؤمئذ. إلى الله وحده المرجع والمنتهى، والمصير لسائر العباد.

﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ ﴿٢٨﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴿٣٠﴾ .

أي: يخبر الإنسان يوم القيامة بجميع عمله الحسن والسيء، في أول وقته وآخره، وينبأ بخبر لا ينكره. بل الإنسان شاهد على نفسه، يعرف حقيقة ما هو عليه من إيمان أو كفر، وطاعة أو معصية، واستقامة أو اعوجاج. وقيل المعنى: بل جوارح الإنسان عليه شاهدة ولو اعتذر وجادل عن نفسه، لم ينفعه ذلك، فعليه من يكذب عذره.

* بعد هذا البيان انتقل الحديث إلى القرآن، وطريقة تلقي الوحي عن جبريل، حيث كان رسول الله ﷺ يحرك شفثيه ولسانه بالقرآن إذا أنزل عليه، قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي، حرصاً على أن يحفظه ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿١٦﴾ [القيامة: ١٦].

وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم، أن لا يبادر المتعلم المعلم قبل أن يفرغ من المسألة التي شرع فيها، فإذا فرغ منها سألها عما أشكل عليه.

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ﴾ .

فيه إشارة إلى أنه نزل مفرقاً، وإشارة إلى أن جمعة على هذا النحو الموجود برعاية وعناية من الله - تعالى - وتحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ ، ويشهد لذلك أن هذا الجمع الموجود من وسائل حفظه، كما تعهد - تعالى - بذلك والله - تعالى - أعلم .

﴿ ثم ذكر الله - عز وجل - أن الذي أوجب الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره محبتهم للدنيا وانكبابهم عليها، قال تعالى :

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿١٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿١١﴾ ﴾ .

أي : ارتدعوا يا معشر المشركين فليس الأمر كما زعمتم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، بل أنتم تحبون الدنيا الفانية وتسعون فيما يحصلها، وفي لذاتها وشهواتها، وتدعون الآخرة والسعي إليها والقيام بأوامر الله - تعالى - واجتناب نواهيه .

ثم ذكر - سبحانه - ما يدعو إلى إثارة الآخرة ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا :

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿١٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾ .

أي : وجوه أهل السعادة في يوم القيامة، وجوه مشرقة ناعمة غضة حسنة، تنظر إلى خالقها ومالك أمرها، فتتمتع بذلك .

وقد تواترت الأحاديث الصحيحة من أن الصالحين ينظرون ربهم يوم القيامة كما ينظرون القمر ليلة البدر، وذلك على حسب مراتبهم : منهم من ينظر كل يوم بكرة وعشيّاً، ومنهم من ينظر كل جمعة مرة واحدة .

﴿ ثم قال - سبحانه - في المؤثرين العاجلة على الآجلة :

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿١٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿١٥﴾ ﴾ .

حال وجوه الأشقياء يوم القيامة كالحة عابسة، كئيبة ذليلة، تتوقع أن تنزل بها داهية عظيمة .

والفاقرة: الداهية العظيمة، كأنها كسرت فقار الظهر فهي تنتظر عقوبة شديدة وعذاباً أليماً؛ فلذلك تغيرت وجوههم وعبست.

❖ وفي الآيات اللاحقة يعظ - سبحانه - عباده، وقد دنت ساعة الموت فيذكر حال المحتضر عند السياق، واشتداد الكرب عليه، ويطلب عندها كل وسيلة وسبب يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولكن الأجل قد نزل، والموت قد حضر، وهذا المشاهد واقع يراه الناس كل يوم، وفيه العظة والعبرة، قال تعالى:

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۖ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۖ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۖ﴾ كلاً: ردع وزجر عن إثارة العاجلة، وتذكير بالموت إذا بلغت النفس أو الروح التراقي، والترقوة عظم بين ثغرة النحر والعاتق، ويكنى ببلوغ النفس التراقي عند الإشفاء على الموت.

وقال من حضر صاحبها: من يرقيه ويشفي برقيته؟ التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً، وأيقن المحتضر أنها ساعة الفراق من الدنيا ومن الأهل والمال والولد لمعايته ملائكة الموت، واتصلت شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة.

﴿وَأَلْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۖ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ۖ﴾.

أي: التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به، فماتت رجلاه، وييست ساقاه ولم تحملاه، وقد كان جـوالاً عليهما في الدنيا، وكأنه طوى تلك الأقدام مغادراً دار الدنيا، فالناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه.

إلى خالقك معاد العباد ومرجعهم، إما إلى الجنة وإما إلى النار.

❖ ثم أخبر - تعالى - عن حال الجاحد المكذب الذي لا تنفع فيه الآيات،

فلا يزال مستمراً على بغيه وكفره وعناده. ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ۖ وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ۖ﴾.

فلا آمن الكافر بالرسول، ولم يصدق بالرسالة ولا بالقرآن، ولا صلى لربه، فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه. وإنما كذب بالرسول وبما جاء به، وتولى وأعرض عن الطاعة والإيمان.

ثم ذهب يتبختر ويختال في مشيئه، افتخاراً بذلك وتكبراً، أو يتثاقل ويتكاسل عن الداعي إلى الحق غير خائف من ربه.

﴿أَوَلَيْ لَكَ فَأُولَىٰ ﴿١٠٠﴾ ثُمَّ أَوَلَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ﴿١٠١﴾ أَتَحْسَبُ الْإِنْسَنُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿١٠٢﴾﴾.

أي: ويلٌ لك يا أيها المكذب. وكرر للتأكيد مبالغة في التهديد والوعيد، أي: هلاك لك فهلاك، ثم هلاك لك فهلاك. أفيظن الكافر المنكر للبعث أن يترك هملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يحاسب ولا يعاقب، وهذا حساب باطل، وظن بالله بغير ما يليق بحكمته.

* ثم ذكر - سبحانه - الإنسان بخلقه الأول:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنَىٰ ﴿١٠٣﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿١٠٤﴾﴾.

الاستفهام للتقرير، أي: ألم يك ذلك الإنسان قطرة من مني يراق في الرحم، والغرض: بيان حقارة حاله وبداية منشأه، ثم كان بعد المنى علقه، أي: دماً، فخلق الله منها الحيوان وسواه، أي: أتقنه وأحكمه بشراً سوياً.

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿١٠٥﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ تَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿١٠٦﴾﴾.

فجعل من هذا وهذا، هو أصل الإنسان وتركيبه فكيف يليق بمثل هذا الضعيف أن يتكبر على طاعة الله؟ أليس ذلك الذي أنشأ هذا الخلق البديع وقدر عليه، بقادر على أن يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه في الدنيا؟ فإن الإعادة أهون من الابتداء، بلى - سبحانه وتعالى - قادر على ذلك.

عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، وكان إذا

قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ تَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿١٠٦﴾﴾ قال: سبحانك ربي!

فسأله عن ذلك؟ قال: سمعته من رسول الله ﷺ. [رواه أبو داود].

سورة الإنسان ٧٦

سورة الإنسان سورة مكية، وتسمى «سورة الإنسان» بهذا الاسم لأن الله عز وجل - ذكر فيها الإنسان في أربع أحوال:

قبل الخلق: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ .

وعند الخلق: ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ۝٢﴾ .

وفي الدنيا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ .

وفي الآخرة: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلََّا وَسْعِيرًا ۝٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ .

فذكر الله فيها أول حال الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها، وتتابعت السورة في سرد نعيم المتقين الأبرار في دار الخلد والإقامة في جنات النعيم، وذكر بعض صفاتهم وما بلغهم تلك المنازل العالية.

قال صاحب الظلال: والسورة في مجموعها هتاف رخي ندي إلى الطاعة، والالتجاء إلى الله وابتغاء رضاه، وتذكر نعمته، والإحساس بفضلله، واتقاء عذابه، واليقظة لابتلائه وإدراك حكمته في الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء.

والسورة تؤكد على تذكير الإنسان بأصل خلخته، وتبين عاقبته ومصيره في الآخرة؛ ليكون على حذر وعلى بينة من أمره، فقد فصل الله في السورة كيف بدأ خلق الإنسان، وكيف انقسم الناس إلى مؤمن شاكر، وكافر جاحد، ومصير كل من الفريقين، وأطال في بيان مصير أهل الجنة تشويقاً وتحفيزاً للمؤمنين، وأشار فيها إلى نعمة نزول القرآن، ووجوب الصبر على العمل به.

* قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ .

أي: قد مضى على الإنسان وقت طويل من الزمان في شخص أبيهم آدم .
 قيل: أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح، خلُق من طين، ثم من حمأ مسنون، ثم من صلصال .

﴿ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ .

أي: قبل نفخ الروح . وقيل: المعنى: قد مضت أزمئة وما كان آدم شيئاً، ولا مخلوقاً ولا مذكوراً لأحد من الخليقة .

قال أبو جعفر بن الزبير: تعريف الإنسان بحاله وابتداء أمره ليعلم أن لا طريق له للكبر واعتقاد السيادة لنفسه، وأن لا يغلطه ما اكتنفه من الألفاظ الربانية والاعتناء الإلهي والتكرمة، فيعتقد أنه يستوجب ذلك ويستحقه .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ ﴾ أي: نحن بقدرتنا خلقنا هذا الإنسان من ماء مهين، - وهو المني - الذي ينطف من صلب الرجل، ويختلط بماء المرأة .

﴿ أَمْشَاجَ نَبْتٍ لِّهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

نطفة الرجل ونطفة المرأة واختلاطهما، وقيل: الأمشاج الأخلاط، لأنها ممتزجة من أنواع وعناصر يخلق الإنسان منها وطباع مختلفة . وخلقناه مريدين ابتلاء، بالخير والشر وبالتكاليف . فجعلناه من أجل ذلك عاقلاً مميزاً، ذا سمع وبصر، وركبنا فيه الحواس ليعظم إدراكه فيمكن ابتلاؤه .

وخص السمع والبصر لأنهما من أهم وسائل الإدراك، ومن أشرف الحواس ومن أجل النعم .

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

أي: بينا للإنسان وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر، بأدلة العقل والسمع وعرفناه منافعه ومضاره التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله، سواء كان شاكراً أو كفوراً وذلك بواسطة الرسل والكتب التي أنزلها - سبحانه - .

وجمع بين الشاكر والكفور، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة؛ نفيًا للمبالغة في الشكر وإثباتًا لها في الكفر؛ لأن شكر الله - تعالى - لا يؤدي، فانتفت عنه المبالغة، ولم تنف عن الكفر المبالغة، فقل شكره، لكثرة النعم عليه وكثرة كفره وإن قل مع الإحسان إليه.

قال أبو حيان: ولما كان الشكر قل من يتصف به قال شاكرًا، ولما كان الكفر كثير من يتصف به، ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر جاء كفورًا بصيغة المبالغة.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤].

دليل على أن المؤمن وإن دخل النار بعصيانه وجرمه وأحرق في النار بقدر جنايته لم يغل، ولم يجعل في السلاسل والأغلال والسعير.

* ثم بين الله - جل وعلا - أنه بعد أن وهب للإنسان العقل والإدراك والسمع والبصر، وبين له الطريق ووضحه، ونصب الدلائل التي يعرف بها الخالق - جل وعلا -، حذر وأنذر من عصي وطغي وكفر وأبى، وبعده ونعمته أحسن الجزاء الأوفى، لمن أطاع وامثل وأوفى، وقد ذكر الله جملة من أعمالهم التي كانت سببًا في دخول الجنات بعد رحمة الله، فقال تعالى:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [٥].

أي: أعطوا هذا الجزاء؛ لأنهم كانوا يوفون بالنذر. وهو ما أوجبه الإنسان على نفسه لله من صلاة أو صوم أو ذبح أو غيرها، مما لم يكن عليه واجبًا بالشرع. ويخافون يوم القيامة، استطار شر ذلك اليوم حتى ملأ السماوات والأرض، فانشقت السماء، وتناثرت الكواكب، والأرض دُكَّت، والجبال نسفت.

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ .

ويطعمون الطعام مع شهوتهم له وقلته عندهم وحاجتهم إليه ، يطعمون الطعام ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله - تعالى - .

يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف وهم : المسكين الفقير العاجز عن الاكتساب الذي لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، واليتيم الذي مات أبوه وهو صغير ، فعدم الناصر والكفيل ، وأسيراً وهو من أسر في الحرب من المشركين .

وإطعام المساكين والإحسان إليهم من أبواب العمل الخالص ؛ لأن نفعهم في الدنيا لا يرجى غالباً .

﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ .

لا يتوقعون المكافأة ، ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك ، يطلبون مرضاة الله وابتغاء فضله ، علمه الله من قلوبهم فأثنى عليهم بذلك .

﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ .

أي : لا نبتغي من وراء هذا الإحسان لا مكافأة ولا جزاء مالياً ، ولا ثناء قولياً .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : من طلب من الفقراء الثناء أو الدعاء فقد خرج من هذه الآية .

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا﴾ .

أي : إنما نفعل ذلك رجاء أن يقينا الله هول يوم شديد ، تعبس فيه الوجوه من فظاعة أمره ، وشدة هوله .

ومعنى : ﴿قَمَطَرِيرًا﴾ .

أي : شديداً عصيباً ضيقاً تنقبض فيه العيون والحواجب . وقيل : القمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطولها في البلاء .

* فكان جزاء أعمالهم الصالحة التي قاموا بها ابتغاء مرضاة الله :

﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝﴾ .

أي : صانهم وحماهم الله ودفع عنهم شر ذلك اليوم وشدته ، فلا يحزنهم الفزع الأكبر ، بل جعل الله لهم وقاية من شره بسبب خوفهم منه وإطعامهم الطعام لوجهه . وأعطاهم وأكرمهم بدل العبوس في الكفار حسناً في الوجوه وسروراً في القلوب .

والنضرة البياض والنقاء في وجوههم من أثر النعمة .

* لما تشوقت النفوس وأشرأت الأعناق ، وتعلقت المهج وهاجت الأشواق لهذا النعيم المقيم ، ذكر - تعالى - ما أعد لهم من كرمه وجوده وفضله :

﴿وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً ۝﴾ .

وأثابهم بسبب صبرهم على طاعة الله ، والصبر عن معصيته .

﴿وَجَنَّةً ۝﴾ جامعة لكل نعيم سالمة من كل مكدر ومنغص .

﴿وَحَرِيرًا ۝﴾ .

خص الحرير ؛ لأنه لباسهم الظاهر الدال على حال صاحبه ، ولأنهم تركوه في الدنيا طاعة لله - عز وجل - .

قيل : لما كان - في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى - خشونة وتضييق ، جازاهم على ذلك نعمة الحرير وسعة الجنة .

* ولما ذكر طعامهم ولباسهم وأكمل لهم العطاء وأجزل لهم الجزاء ؛

وصف نعيمهم ومساكنهم وحالهم ، حيث الراحة والدعة ، قد ازدانت بيوتهم وأفنيتهم بالأثاث الوثير في جو من الصفاء والبهجة ، فلا حر يعكر صفو نعيمهم ، ولا برد تتأذى منه أبدانهم ، وقد دنت الظلال ومالت الأغصان وغردت الأطيوار ، وتدلت القطوف بأطياب الثمار ، فلا تسمع الأذن إلا ما يسر ، ولا ترى العين إلا ما يبهج . قال تعالى :

﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ﴾ .

متكئين في الجنة، والاتكاء: التمكن من الجلوس في حال الرفاهية والطمأنينة.

والأرائك: هي السرر التي عليها اللباس المزين، وإنما خصهم بهذه الحالة؛ لأنها أتم حالات المتنعم، وفيها كمال الأمن والراحة والسعة والسرور.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝﴾ [الإنسان: ١١٤].

عن مجاهد في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝﴾ قال: إذا قام ارتفعت بقدره، وإن قعد تدلت حتى ينالها، وإن اضطجع تدلت له حتى ينالها، فذلك تذليلها.

* ولما زين الله - تعالى - ظاهرهم بالحلي والثياب، بين طهارة باطنهم وزينة قلوبهم بالحب والرضا، والود والتآلف، فلا غل ولا حسد، قال تعالى:

﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝﴾ .

بدأ - سبحانه - بذكر الشراب وانتهى به وذلك لأنه أروع ما يستلذ به الإنسان، وحاجته إليه أشد، وأول ما يتلطف عليه الإنسان، فحرارة الظمأ أشد من لهيب الجوع، لذا كان مقدماً دائماً.

سورة المرسلات ٧٧

سورة المرسلات سورة مكية، أقسم الله - عز وجل - فيها بجملة من مخلوقاته على وقوع البعث والجزاء، وذكر - عز وجل - فيها الموعد الحق، يوم الحساب والجزاء وما يجري فيه، ثم ذكر أحوال الأمم الغابرة وما جرى لهم، وما حل ونزل بهم.

وقد اشتملت سورة المرسلات على الاستدلال على وقوع البعث عقب فناء الدنيا، ووصف بعض أشراط ذلك. في الحديث عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال أبو بكر - رضي الله عنه -: يا رسول الله! ما شيبك؟ قال: «شيبني هود والواقعة والمرسلات و(عم يتساءلون) و(إذا الشمس كورت)» [رواه الترمذي].

وعن أم الفضل بنت الحارث قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بـ (والمرسلات عرفاً) [متفق عليه].

✽ قال تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ .

أقسم الله - عز وجل - بالملائكة التي يرسلها الله - تعالى - بشؤونه القدريّة وتدبير العالم، وبشؤونه الشرعية ووحيه إلى رسله.

وقيل: إن المرسلات: هي الرياح حين تهب متتابعة وهي ريح العذاب.

﴿عُرْفًا﴾ .

حال من المرسلات، أي: أرسلت بالعرف والحكمة والمصلحة، لا بالنكر والعبث.

﴿فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا﴾ .

وهي أيضاً الملائكة التي يرسلها الله - تعالى -، وصفها بالمبادرة لأمره، وسرعة تنفيذ أوامره، كالريح العاصف.

أو أن العاصفات: الرياح الشديدة، التي يسرع هبوبها.

﴿وَالنَّشْرَاتِ نَشْرًا﴾ .

يحتمل أنها الملائكة تنشر ما دبرت على نشره، أو أنها السحاب التي يُنشر بها الله الأرض، فيحييها بعد موتها.

﴿فَالْفَرَقَتِ فَرَقًا﴾ .

أي: وأقسم بالملائكة التي تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام.

﴿فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا﴾ .

يقسم الله - تعالى - بالملائكة يرسلها بالوحي إلى أنبيائه. تعصف لسرعة طيرانها وتنشر أجنحتها آتية بما يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، حتى تبلغ الوحي إلى الأنبياء.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ .

المعنى: أن الملائكة تلقي الوحي إعداراً من الله إلى خلقه، وإنذاراً من عذابه. وقيل: عذراً للمحققين، ونذراً للمبطلين.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ .

هذا جواب القسم، أي: إنما توعدون من أمر القيامة ومن البعث والجزاء على الأعمال، محتم وقوعه من غير شك ولا ارتياب. وفي تطويل القسم تشويق السامع لتلقي المقسم عليه. * ثم بين - تعالى - وفصل وقت وقوع ذلك اليوم، وما يجري فيه من الأهوال والكروب:

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ (٣) ﴿وَإِذَا

الرُّسُلُ أُقْتَتَتْ﴾ (٤) ﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ (٥) ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ (٦) .

* قال تعالى: ﴿وَمَا أَذْرَنَّا مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ (٧) .

استفهام للتعظيم والتهويل، أي: وما أعلمك بيوم الفصل؟ يعني: أنه أمر هائل لا يقادر قدره.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ .

أي: يا حسرتهم، وشدة عذابهم، وسوء منقلبهم، وقد وردت في هذه السورة عشر مرات لمزيد الترغيب والترهيب.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥].

قال القرطبي: وكرره في هذه السورة عند كل آية لمن كذب، لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشيء عذابا سوى تكذيبه بشيء آخر.

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾

[المرسلات: ٢٥ - ٢٦].

﴿أَحْيَاءَ﴾ في الدور، ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ في القبور، فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده ومنتته، فكذلك القبور، رحمة في حقهم، وسترا لهم عن كون أجسادهم بادية للسباع وغيرها.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ﴾ .

قال القشيري - رحمه الله - : اليوم في ظلال العناية والحماية، وغدا هم في ظلال الرحمة والكلاءه، اليوم في ظلال التوحيد، وغدا في ظلال حسن المزيد.

* قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

قال الشنقيطي: فيه النص على أن عملهم في الدنيا سبب في تمتعهم بنعيم الجنة في الآخرة، وجاء في الحديث: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» ولا معارضة بين النصين، إذ الدخول بفضل من الله وبعد الدخول يكون التوارث، وتكون الدرجات ويكون التمتع بسبب الأعمال، فكلهم يشتركون في التفضل من الله عليهم بدخول الجنة، ولكنهم بعد الدخول يتفاوتون في الدرجات بسبب الأعمال.

* ثم خاطب - تعالى - المشركين بخطاب تهديد ووعيد لهم ، فقال : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ۝ وَيَلُومُنَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ﴾ .

قال السعدي - رحمه الله - : ومن الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب التوفيق ويحرمون كل خير ، فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم ، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ أبالباطل الذي هو كأسمه ، لا يقوم عليه شبهة فضلاً عن الدليل ؟ أم بكلام كل مشرك كذاب أفاك مبین .

قال صاحب الظلال : والذي لا يؤمن بهذا الحديث الذي يهزُّ الرواسي ، وبهذه الهزات التي تزلزل الجبال ، لا يؤمن بحديث بعده أبداً . إنما هو الشقاء والتعاسة والمصير البائس ، والويل المدخر لهذا الشقي التعيس .

وقال ابن عاشور : والمقصود أن القرآن بالغ الغاية في وضوح الدلالة ونهوض الحجة فالذين لا يؤمنون به لا يؤمنون بكلام يسمعه عقب ذلك .

سورة النبأ ٧٨

سورة عم سورة مكية، وتسمى سورة النبأ، يذكر الله - عز وجل - فيها البعث والجزاء والحساب، ويعدد فيها بعض نعمه وآلائه، وأنه الخالق المنعم المستحق للعبادة، الذي أوجد من العدم، وخلق الخلق لعبادته وطاعته، وفيها من البيان ما يقول للعباد: استعدوا، استيقظوا، تفكروا، تدبروا. هناك بعث ونشور، وحساب وأجور، وعقاب وحسرات.

وتذكر الآيات صوراً من العذاب للكفار والعصاة، ومن النعيم للمؤمنين ما يخوف ويحذر من عذاب الآخرة، وما يجعل المسلم يرجو رحمة ربه بالعمل الصالح الخالص لوجهه الموافق لسنة نبيه، فإن المرء ينظر يوم الجزاء والحساب ما قدمت يده من أعمال عملها في حياته، ويفرح المؤمن بما وعده الله من النعيم، ويتمنى الكافر حين يرى العذاب وهوله وشدته أنه كان تراباً.

وقد بين - تعالى - في السورة قدرته العظيمة على خلقه، وذكر بعض نعمه على عباده، ليقرر هذه النعم فيلزمهم شكرها، وهي أمور محسوسة ملموسة، يتبين فيها قدرة الله - عز وجل - وعظيم صنعه التي لو فكر فيها الكفار، لما وقع منهم اختلاف في النبأ العظيم الذي جاءهم من عند الله.

* قال سبحانه: ﴿الْمَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ مِهْدًا ۖ (١) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۖ (٢) وَخَلَقَنَّاكُمْ أَزْوَاجًا ۖ (٣) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۖ (٤) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۖ (٥) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۖ (٦) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۖ (٧)﴾ .

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۖ (٨)﴾ .

يعني بذلك الشمس، فهي سراج مضيء .

﴿وَهَّاجًا ۖ (٨)﴾ .

أي وقاده، والوهج يجمع النور والحرارة، وهي أيضاً ذات حرارة عظيمة فتضيء الكون.

ونبه بالسراج على النعمة بنورها، وبالوهاج الذي فيه الحرارة على ما فيها من الصالح.

* ثم ذكر - سبحانه - ما يجري في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام، والجزاء والحساب، ليكون الإنسان على بينة من أمره، وليعرف حاله ومصيره، وفي ذلك بيان وتوضيح لمن سأل عن النبأ العظيم. قال تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ﴿٧٩٩﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿٨٠٠﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿٨٠١﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٨٠٢﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٨٠٣﴾ لِلطَّغْيِينِ مَتَابًا ﴿٨٠٤﴾ لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٨٠٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٨٠٦﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٨٠٧﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٨٠٨﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٨٠٩﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٨١٠﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٨١١﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٨١٢﴾﴾.

* قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٨١٢﴾﴾ [النبأ: ٣٠].

عن عبد الله بن عمرو، قال: لم تنزل على أهل النار آية أشد من هذه: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٨١٢﴾﴾، قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً.

* قال تعالى: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٨١٣﴾﴾ [النبأ: ٣٦].

ينبغي أن يلحظ الفرق بين قوله في مجازاة الطاغين: ﴿جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٨٠٨﴾﴾ [النبأ: ٢٦] وبين قوله هنا: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٨١٣﴾﴾ ففي مجازاة الطاغين يكون الجزاء موافقاً لأعمالهم عدلاً منه - عز وجل -، وفي مجازاة المتقين يكون الجزاء مضاعفاً لهم وأوفى وأفضل من أعمالهم فضلاً منه - عز وجل -.

وقد ورد في الآية كلمة (الرب) والرب: هو المربي والمعطي والقيم، ولهذا لم تقترن كلمة العطاء في القرآن كله بغير لفظ الرب: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٨١٣﴾﴾ [النبأ: ٣٦]، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [الضحى: ٥].

سورة النازعات ٧٩

سورة النازعات سورة مكية، نزلت في مكة، تُعنى بأصول العقيدة من الوجدانية والرسالة، والبعث والجزاء، فإنه - سبحانه - خلق الخلق، وبعث لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ليبينوا للناس الطريق الحق والصراط المستقيم، وليحذروهم من الشرك والطغيان والعصيان، ومن تمام عدل الله - عز وجل - أن جعل بعد دار الدنيا موعداً يلقي فيه كل إنسان جزاءه وفاقاً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفي الآيات اللاحقة يبين - سبحانه - وتعالى - حال الكفار عند النفخ في الصور، وبعث الناس من قبورهم في ذلك اليوم العظيم، قال تعالى:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١﴾ .

أقسم - سبحانه - بالملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفار تنزعها نزعاً شديداً بالغاً أقصى الغاية في الشدة والعسر.

﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ۝٢﴾ .

يعني: الملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين، تنشطها نشطاً: أي تسهلها برفق وسهولة.

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣﴾ .

هي: الملائكة تسبح بأمر الله، أي تسرع فيه كما يسرع السابح في الماء.

﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤﴾ .

أيضاً هي: الملائكة تسبق غيرها إلى أمر الله - عز وجل -، أو الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥﴾ .

وصف للملائكة؛ تدبر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر الله من الأمطار والنبات، والأشجار، والرياح، والبحار، والأجنة، والحيوانات، والجنة،

والنار وغير ذلك؛ أقسم - سبحانه - بهذه الأوصاف الخمسة على أن القيامة حق، وجواب القسم محذوف تقديره: لتبعثن، ولتحاسبن، وقد دل عليه قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۖ﴾ .

وهما النفختان في الصور:

النفخة الأولى: الراجفة، ترجف الناس ويفزعون، ثم يموتون عن آخرهم إلا من شاء الله.

والنفخة الثانية: التي تعقب الأولى هي: الرادفة، يبعثون من قبورهم، فيقومون منها أحياء من قبورهم مرة واحدة، وهم في حالة شديدة من الاضطراب، باد عليهم الذل، يجتمع عليهم الخوف والانكسار، والرجفة والانهيار.

* قال تعالى:

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۖ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۖ يَقُولُونَ أَيْنَا لِمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۖ﴾ .

هذا يقوله المنكرون للبعث إذا قيل لهم: إنكم تبعثون، يقولون: أنرد إلى أول حالنا وابتداء أمرنا فنصير أحياء بعد موتنا، وبعد كوننا في حفر القبور.

﴿أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا نَخْرَةً ۖ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۖ﴾ .

أي: كيف نبعث بعد أن كنا عظاماً بالية فتاتاً؛ سنرد ونبعث من جديد. استبعد منكر البعث؛ أن يبعثهم الله ويعيدهم؛ وقالوا: إن رُدُّدنا بعد الموت لنخسر بما يصيبنا من الجزاء مما يقوله محمد.

قال الله - عز وجل - في بيان سهولة هذا الأمر عليه:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۖ﴾ .

أي: إنما هي صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية، زجرة من الله - عز وجل - يزجرون ويصاح بهم، فيقومون من قبورهم قيام رجل واحد على ظهر الأرض بعد أن كانوا في بطنها.

والساهرة: أرض بيضاء يأتي بها الله - سبحانه - فيحاسب عليها الخلائق.

* ثم لما ذكر الله - عز وجل - أحوال الكفار وما يصيبهم في ذلك اليوم، ساق قصة موسى - عليه السلام - وما أمره الله - عز وجل - به من القيام بتبليغ الرسالة والدعوة إليه، وذكر - جل وعلا - ما وجده موسى من فرعون وتكذيبه؛ مع ما أظهر من الآيات الباهرات والمعجزات الواضحات، إلا أنه طغى وتجبر، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، عبرة له، وموعظة لغيره، وفي ذكر مثل هذه الوقائع والأحداث تخويف لمن كفر برسالة محمد ﷺ، وتسليه لنبيه ﷺ بأن طريق الدعوة شاق يحتاج إلى صبر وتوكل على الله - عز وجل -.

* قال - تعالى - مبيناً ما جرى للأمم قبل محمد ﷺ:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَىٰ ﴿٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [النازعات: ١٥ - ١٩].

ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه، منها:

إخراج الكلام مخرج العرض ولم يخرج الأمر والإلزام، وهو أطف، ونظيره قول إبراهيم لضيفه المكرمين ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٧] ولم يقل كلوا، ومنها قوله: ﴿ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَىٰ ﴾ [٨] والتزكي النماء والطهارة والبركة والزيادة. ومنها قوله: ﴿ تَرْكَىٰ ﴾ [٨] ولم يقل أزيك فأضاف التزكية إلى نفسه وعلى هذا يخاطب الملوك. فعرض عليه أمراً يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [٩] [النازعات: ١٩].

وتفريع ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴾ [٩] على ﴿ وَأَهْدِيكَ ﴾ إشارة إلى أن خشية الله لا تكون إلا بالمعرفة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَخْشَىٰ اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، أي العلماء به، أي يخشاه خشية كاملة لا خطأ فيها ولا تقصير.

❖ قال تعالى: ﴿وَأَغْطِشْ لَيْلَهَا وَأَخْرِجْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٩].

ولهذا فإن من أعظم أسباب ضياع الأعمار والأعمال والنقص والخلل في أمور الدين والدنيا مخالفة فطرة الله، وسهر الليل أو جعله وقتاً للعمل، وجعل النهار وقتاً للنوم.

سورة عبس ٨٠

سورة عبس، سورة مكية نزلت بمكة؛ فإن الله - عز وجل - لما بعث نبينا محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، وأمره بتبليغه ودعوة الناس إليه والقيام بأمره، صدع - صلوات ربي وسلامه عليه - بالدعوة ودعا الناس إلى الإسلام، وتحمل في سبيل ذلك الأذى والمشقة فصبر عليها.

وفي بداية دعوته، ورغبة في تبليغ هذا الدين، حرص على دعوة كبراء القوم ورؤسائهم ومن له كلمة عندهم، طمعاً في إسلامهم وتأثر الناس بهم، فأعرض ﷺ عن رجل أعمى فقير جاء إليه ليعلمه الدين، وظهرت الكراهة في وجه النبي ﷺ حين سألته، ومع أن الأعمى لم يكن يرى عبوس النبي ﷺ وإعراضه، إلا أن الله - عز وجل - أنزل في ذلك آيات تتلى، حيث ذكر الموقف وسطره في كتابه العظيم، قال تعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ .

الضمير يعود إلى رسول الله ﷺ، أي: كبح في وجهه وقطب؛ يعني استنكر الشيء بوجهه، وأعرض في بدنه.

﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ .

أي: لأجل مجئ الأعمى له، والأعمى هو عبدالله بن عمرو ابن أم مكتوم - رضي الله عنه - وسبب نزولها: أنه جاء إلى النبي ﷺ قبل الهجرة وهو في مكة يسأل ويتعلم منه، وكان عنده قوم من عظماء قريش يطمع النبي ﷺ في إسلامهم، - ومن المعلوم أن العظماء والأشراف إذا أسلموا كان ذلك سبباً لإسلام من تحتهم، وكان طمع النبي ﷺ فيهم شديداً -، فجاء هذا الأعمى يسأل النبي ﷺ، وذكروا أنه كان يقول: علمني مما علمك الله، ويستقرئ النبي ﷺ ويلح عليه، فكان النبي - عليه الصلاة والسلام - يعرض عنه، وعبس في وجهه، وأصغى إلى عظماء قريش رجاءً وطمعاً في إسلامهم، وود النبي ﷺ

أن لو كف ساعته تلك ليمكن من مخاطبة كبراء القوم .
وقد جاءت الآية : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ ﴾ بصيغة الحكاية
عن أحد آخر غائب غير المخاطب ، وفي هذه أسلوب رفيع في تعلم الأدب
وحسن المعاتبة ، وهو تلطف في حق النبي ﷺ وإجلالا له .

وفي الآيات بيان حقيقة هذه الدعوة وكرامتها وعظمتها واستغنائها عن
كل أحد وعن كل سند ! والعجب أن هذا في مكة ، والدعوة مطاردة ،
والمسلمون قلة ، ومع ذلك كانت المعاتبة للنبي ﷺ .

وجاء ذكر عبد الله بن أم مكتوم بوصفه إشعاراً بعذره في عدم معرفته
بانشغال الرسول ﷺ ، وترقيقاً لقلب النبي ﷺ لأجل علته ، وهي العمى ،
حيث يحتاج من الرعاية ما لا يحتاجها غيره .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ۚ ﴾ .

أي : - يا محمد - ، أي شيء يريك أن يتزكى هذا الرجل الأعمى ،
ويقوى إيمانه ، ويتطهر من الذنوب والأخلاق التي لا تليق بأمثاله ، فإذا كان
هذا هو المرجو منه فإنه أحق أن يلتفت إليه .

﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ ﴾ .

يعني : وما يدريك لعله يذكر ، أي : يتعظ ، فتنفعه الموعظة ، فإنه - رضي
الله عنه - أرجى من هؤلاء أن يتعظ ويتذكر .

﴿ أَمَّا مَنْ أَسْتَغْنَى ۖ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ ﴾ .

أما من استغنى عن الله ، وعن الإيمان بماله لكثرت ، واستغنى بجاهه
لقوته ، وهم العظماء الذين عند النبي ﷺ . فأنت تتعرض وتطلب إقباله
عليك وتقبل عليه ، وتهتم بتبليغه دعوتك .

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ ۚ ﴾ .

يعني : ليس عليك شيء إذا لم يتزكى هذا المستغني ؛ لأنه ليس عليك
إلا الإلباغ ، وفيه مزيد تنفير له ﷺ من مصاحبته ، فإن الإقبال على المدبر
مخل بالمروءة .

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۖ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۖ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۖ﴾ .

أي: وصل إليك مسرعاً في المجيء، طالباً منك أن ترشده إلى الخير وتعظه بمواعظ الله، وهو يخاف الله - عز وجل - بقلبه لعلمه بعظمته - تعالى - . فأنت - يا محمد - تتلهى وتنشغل عنه برؤساء القوم لعلهم يهتدون. وفي الآية لفته للدعاه والمربون ليهتموا بالضعفاء والبسطاء فلهم حق التعلم والتفقه والسؤال.

﴿كَلَّا ۖ﴾ .

يعني: لا تفعل مثل هذا، وهذه هي أول مرة يقال في القرآن للنبي ﷺ كلاً .

﴿إِنِّي تَذَكُّرٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۖ﴾ .

أي: الآيات القرآنية التي أنزلها الله على رسوله ﷺ، تذكر الإنسان بما ينفعه وتحثه عليه. فمن شاء ذكر ما نزل من الموعظة فاتعظ وعمل به، ومن شاء لم يتعظ ولم يعمل، قال المفسرون: كان ﷺ بعد هذا العتاب، لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبداً، وكان الفقراء في مجلسه أمراء، وكان إذا دخل عليه «ابن أم مكتوم» يسط له رداءه، ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» .

* ثم أخبر - تعالى - عن جلالة قدر القرآن ورفعة منزلته، وأن هذا الذكر الذي تضمنته هذه الآيات .

﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ۖ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۖ﴾ .

معظمة مكرمة عند الله، رفيعة القدر والرتبة عند الله، منزهة لا يمسها إلا المطهرون، مصونة عن الشياطين والكفار.

والصحف جمع صحائف، والصحائف جمع صحيفة، وهي ما يكتب فيه القول.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۖ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۖ﴾ .

السفرة الكتبة، وهم الملائكة السفراء بين الله وبين عباده، كرام على ربهم، كرام في أخلاقهم، كرام في خلقتهم لأنهم على أحسن خلقه، وعلى أحسن خلق، كثيري الخير والبركة.

والبررة: جمع بر، وهو كثير الفضل والإحسان وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأنقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلاً، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول.

* ولما ذكر الله - عز وجل - في الآيات السابقة أنه جعل هذا القرآن العظيم محفوظاً ومنزهاً عن التحريف والتبديل، ذكر - سبحانه - بعد هذا البيان قبح جريمة الكافر وإفراطه في الكفر والعصيان مع كثرة إحسان الله إليه، وبدأ بذكر ضعف الإنسان ومبدئه ومهانته، ليعرف قدره ويطيع ربه ويصرف العبادة لمستحقها، وأن لا يتكبر ويتجبر، قال تعالى:

﴿ قَتَلَ الْإِنْسَنُ ۖ ﴾ .

أي: لعن، وأهلك، والمراد بالإنسان هنا الكافر خاصة.

﴿ مَا أَكْفَرَهُ ۖ ﴾ (١٧) .

﴿ مَا ۖ ﴾ استفهامية.

أي: ما الذي أكفره وأهلكه، أو ما أشد كفره ومعاندته للحق بعدما تبين، وهو ما هو؟ من أضعف الأشياء.

وما ذكر الله الإنسان في القرآن إلا في مقام الذم، مثل قوله تعالى: ﴿ قَتَلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَهُ ۖ ﴾ (١٧) [عبس: ١٧]، ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَنُ عَجُولًا ۖ ﴾ (١١) [الإسراء: ١١]، ﴿ يَتَأَيَّأُ الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ (٦) [الأنفطار: ٦] ونحوها.

* ثم قال تعالى: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ ﴾ (١٨) .

استفهام تقرير لما يأتي بعده، أي: من أي شيء خلق الله هذا الكافر حتى يتكبر على ربه، ثم وضح ذلك، فقال:

﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ ۖ ﴾ .

والنطفة هي في الأصل الماء القليل، والمراد به هنا ماء الرجل الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب يلقيه في رحم المرأة فتحمل، وهو ماء مهين، فكيف يتكبر؟

﴿فَقَدَرَهُ ۖ ﴿١١﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۖ ﴿١٢﴾﴾ .

أي جعله مقدرًا أطوارًا: نطفة، ثم علقه، ثم مضغه، أو قدر أجله، ورزقه، وعمله، وشقيًا أو سعيدًا. ثم سهل خروجه من بطن أمه، أو يسر له الطريق إلى تحصيل الخير أو الشر.

قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين، يعنى الذكر والفرج.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ ۖ فَأَقْبَرَهُ ۖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۖ ﴿١٤﴾﴾ .

الموت مفارقة الروح للبدن، فإذا مات جعله في قبر، مدفونًا سترًا عليه وإكرامًا واحترامًا، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفتها على وجه الأرض.

ثم إذا شاء الله - عز وجل - وأراد، بعثه وأحياه يوم النشور ليجازيه على عمله، وإنما قال: ﴿إِذَا شَاءَ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد، فهو إلى مشيئة الله - تعالى -، متى شاء أن يحيي الخلق أحياهم.

﴿كَأَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ۖ ﴿١٥﴾﴾ .

أي: ليرتدع وينزجر هذا الكافر عن تكبره وتجبره، فإنه لم يؤد ما فرض عليه، ولم يفعل ما كلفه به ربه من الإيمان والطاعة.

- ولما ذكر - تعالى - خلق الإنسان، ذكر بعده رزقه، ليعتبر بما أغدق الله عليه من أنواع النعم، فيشكر ربه ويطيعه، فقال:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۖ ﴿١٦﴾﴾ .

أي فلينظر نظرة اعتبار وتفكر إلى طعامه من أين جاء؟ ومن جاء به؟ وهل أحد خلقه سوى الله - عز وجل -؟

* وبعد أن ذكر - سبحانه - البعث والحساب والجزاء، أعاد الإنسان ليتذكر ويتأمل فضل الله عليه، وفي هذا إظهار العظمة لله - عز وجل - وبيان بعض نعمه على عباده. وأنه المنعم المتفضل، نعمه لا تعد ولا تحصى، وهو المستحق للعبادة وحده دون سواه.

ثم أرشد - سبحانه - الإنسان إلى النظر والتفكر في طعامه وكيف وصل إليه، وفي هذا استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام، بعدما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً، قال تعالى:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ﴾ .

يعني: صيحة يوم القيامة التي تصخ الآذان، أي: تصمها فلا تسمع، وهذا هو النفخ في الصور.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٨٠﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٨١﴾﴾ .

في ذلك اليوم الرهيب يفر الإنسان من أعز الناس إليه، وأشفقهم لديه، وأحبهم إليه، لهول ذلك اليوم، يفر من أخيه شقيقه، أو لأبيه أو لأمه. ويفر من الأم والأب المباشر، والأجداد أيضاً والجدات، يفر من هؤلاء كلهم. قال أهل العلم: يفر منهم لئلا يطالبوه بما فرط به في حقهم من أدب وغيره.

﴿وَصَحْبَتِهِ﴾ .

أي: زوجته.

﴿وَبَنِيهِ ﴿٨٢﴾﴾ .

وهم أقرب الناس إليه وأحب الناس إليه، والفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم وخطب فظيع.

وقد بدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أحب.

قال ابن تيمية: ابتداء بالأخ، ومن عادة العرب أن يبدأوا بالأهم، والحكمة في ذلك أن الابتداء يكون في كل مقام بما يناسبه، فتارة يقتضي الابتداء

بالأعلى، وتارة بالأدنى، وهنا المناسبة تقتضي الابتداء بالأدنى؛ لأن المقصود بيان فراره عن أقاربه مفصلاً شيئاً بعد شيء، فلو ذكر الأقرب أولاً لم يكن في ذكر الأبعد فائدة طائلة، فإنه يعلم أنه إذا فر من الأقرب فر من الأبعد.

❖ قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (٢٧).

كل إنسان في ذلك اليوم مشغول بنفسه مهتم بفكاكها لا ينظر إلى غيره، فإنه لا يفكر في سوى نفسه، حتى إن الأنبياء - صلوات الله عليهم - ليقول الواحد منهم يؤمئذ «نفسي نفسي» فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فأما السعداء؛ فهم كما ذكر - سبحانه -:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ (٢٨).

يعني يوم القيامة. مسفرة: من الإسفار وهو الوضوح؛ لأن وجوه المؤمنين تُسفر عما في قلوبهم من السرور والانشراح والبهجة، مما عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنعيم.

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ (٢٩).

يعني متبسمة، بما رآته من كرامة الله ورضوانه وهذا من كمال سرورهم، قد بشرت بالخير والنعيم الدائم.

قال عطاء الخرساني: مسفرة من طول ما أغبرت في سبيل الله.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَافِرَةٌ﴾ (٣٠) ﴿تَرَهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ (٣١).

أي: وجوه الأشقياء، وهذا هو حال الفريق الثاني يوم القيامة. عليها شيء كالغبار والدخان؛ لأنها ذميمة قبيحة. يغشاها وتعلوها ظلمة وسواد، قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (٣٢).

أي: الذين هذا وصفهم، قد جمعوا بين الكفر والفجور.

والفجرة: هم الفاسقون الكاذبون.

قال المفسرون: جمع الله - تعالى - إلى سواد وجوههم الغبرة، كما جمعوا الكفر إلى الفجور.

سورة التكوير ٨١

سورة التكوير سورة مكية، نزلت في مكة، ذكر الله - عز وجل - فيها آيات وعظمت وعبراً، وجعل التفكير في عجائب صنعه وعظيم خلقه من العبادات العظيمة؛ فإنه - سبحانه - خلق هذا الكون العظيم بنظام دقيق متناسق لا خلل فيه ولا اضطراب، وذلك من أعظم آيات الله - عز وجل -، وجعل لهذا النظام الدقيق والصنع البديع أجلاً ينتهي إليه، حيث تتغير السموات والأرض وتفسد تلك الأجرام الهائلة، وتتغير بعض الكائنات، وكل ذلك مؤذن ببدء حياة جديدة، هي اليوم الآخر، ذكرها - سبحانه - في هذه الآيات، مبيناً لأحوال القيامة وما يكون فيها من الشدائد والكوارث، وما يعتري الكون والوجود من مظاهر التغير والتخريب.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي العين، فليقرأ: «إذا الشمس كورت» و«إذا السماء انفطرت» و«إذا السماء أنشقت» [رواه الترمذي].

* قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١].

وكورت: أي جمعت ولفت ومحي ضوؤها، وجعلت مثل شكل الكرة، وهذا يكون يوم القيامة.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

قال ابن عاشور: وذكر هذا بالنسبة إلى الوحوش إيماء إلى شدة الهول، فالوحوش التي من طبعها نفرة بعضها عن بعض تتجمع في مكان واحد لا يعدو شيء منها على الآخر من شدة الرعب، فهي ذاهلة عما في طبعها من الاعتداء والافتراس.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ﴾ [التكوير: ٨ - ٩].

وإذا سأل الله البنت المدفونة وهي على قيد الحياة: ما الجريمة التي فعلتها حتى يدفنك أهلك، فيقتلونك بهذا الدفن؟ وهذا فيه تبكيت لقاتلها، وتهويل للموقف الذي يسأل فيه المجني عليه، فما ظنك بما يلاقه الجاني لهذا الجناية البشعة؟

✽ قال تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦].

هذا من أحسن اللازم وأبينه، أن تبين للسامع الحق، ثم تقول له: إيش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟ فالأمر منحصر في الحق والباطل، والهدى والضلال، فإذا عدلتم عن الهدى والحق فأين العدول، وأين المذهب؟

سورة الانفطار ٨٢

سورة الانفطار سورة مكية، ذكر الله - عز وجل - فيها ما أكرم به الإنسان من النعم العظيمة والآلاء الجسيمة وعرفه نعمه عليه، ومع كثرة النعم وجزيل العطاء، ربما يحمل ذلك الإنسان على معصية الله - عز وجل - لما يراه من تعاقب النعم وتوافر الخيرات، ولا يردعه عن ذلك مثل التذكير والاتعاظ ومعرفته بأن الأحوال تتغير، وأن الله لا يرضى أن تكون نعمه وسيلة لمقارفة المعاصي والآثام. وفي سورة الانفطار تحذير الإنسان من الاغترار بالنعم والتمادي في المعصية لأن أمامه يوم عظيم، وموقف عصيب، يجازى فيه الإنسان على ما قدم وأخر من الأعمال، وهو يوم القيامة، الذي ذكر الله بعضاً من صفاته وأحواله في هذه السورة.

✽ قال تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

علمت كل نفس ما قدمت وأخرت، وذلك بما يُعرض عليها من الكتاب، وعلمت ما قدمت من عمل خير أو شر.

✽ ثم ذكر الله - عز وجل - عن جحود الإنسان وكفرانه لنعمه، وهو يتلقى فيوض النعمة منه - جل وعلا -، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها، ولا يعرف لربه قدره، ولا يشكره على الفضل والنعمة والكرامة.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانُ﴾.

المراد بالإنسان هنا الكافر، وقيل: الإنسان من حيث هو إنسان، وناداه - سبحانه - بصفة الإنسان لما أودع فيه من العقل وميزه به عن سائر المخلوقات.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾.

يعني: أي شيء خدعك وسول لك حيث تكذب بالبعث، وتعصي الله في الأمر والنهي، أتهاوناً منك في حقوقه؟ أم احتقاراً منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟

وقيل : إنه - سبحانه - ذكر ﴿الْكَرِيمِ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته لأنه لا ينبغي مقابلة الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور .
وتأمل في سر التعبير بقوله ﴿بِرَبِّكَ﴾ دون قوله «الله» فإن في هذه اللفظة من معاني الملك والرعاية والرفق التي تناسب تذكر الإنسان بنعم الله عليه ، وتذكير باستحقاقه - تعالى - لطاعة مربوبيه .

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ﴾ .

أي : أليس هو الذي خلقك من نطفة ولم تك شيئاً ، وأوجدك من العدم ولم تك شيئاً . فجعلك مستوي الخلقة تسمع وتبصر وتعقل ، وجعلك معتدل القامة ، حسن الصورة ، وجعل أعضائك متعادلة متناسبة .

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ أي : الله ركبك في أي صورة شاء ، وهذا من نعم الله على الإنسان أنه سوى خلقه وحسن صورته .

* ومع هذا العطاء الجزيل والنعم المتتالية إلا أن هناك من يجحد هذه النعمة ويصرف العبادة لغير الله . قال تعالى :

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ .

﴿كَلَّا﴾ :

للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة إلى الكفر به ، يعني : مع هذا الخلق والإمداد والإعداد .

﴿تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ .

أي : لا تصدقون بالجزاء والحساب .

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١﴾ كِرَامًا كَتِيبِينَ ﴿٢﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ .

أي : من الملائكة يحفظون ويكتبون أعمالكم . كراماً على ربهم ، يكتبون ويدونون أقوالكم وأعمالكم ، إما بالمشاهدة إن كان فعلاً ، وإما بالسمع إن كان قولاً ، بل إن عمل القلب يطلعهم الله عليه فيكتبونه .

استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرمواهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين.

✽ ثم لما ذكر الله - سبحانه وتعالى - في الآيات السابقة النعم العظيمة، ووجوب طاعة الله ومراقبته، وأن كل ما يعمل الإنسان محصي ومكتوب له أو عليه، ذكر منازل المطيعين ومنازل العاصين، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ .

هذا بيان للنهاية والجزاء. والأبرار جمع بر، وهم كثيرون فعل الخير والطاعات، المتباعدون عن الشر، القائمون بحقوق الله وحقوق عباده؛ فإنهم في نعيم في القلب، ونعيم في البدن.

﴿وَأِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي حَجِيمٍ﴾ .

وإن الكفار الذين كفروا بربهم وقصروا في حقوق الله وحقوق عباده، لفي نار حامية محرقة.

والآية ليست مقصورة على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم، في دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. فهؤلاء في نعيم وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب، وهل العذاب إلا عذاب القلب.

قال ابن تيمية - رحمه الله - في مجموع الفتاوى: كل من عدل في ولاية من هذه الولايات فساسها بعلم وعدل، وأطاع الله ورسوله بحسب الإمكان فهو من الأبرار الصالحين، وكل من ظلم وعمل فيها بجهل فهو من الفجار الظالمين، إنما الضابط قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي

حَجِيمٍ ﴿١٣﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤].

✽ قال تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١١﴾ .

يدخلونها ويحترقون بها يوم الجزاء، وذلك يوم القيامة. ولن يغيبوا عنها فيخرجوا منها؛ بل هم ملازمون لها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ۖ﴾ .

يوم القيامة لا أحد يملك لأحد شيئاً، لا يجلب خير، ولا يدفع ضرر إلا بإذن الله - عز وجل - .

﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: في الآخرة الأمر لله - عز وجل - ولا تملك نفس لنفس شيئاً إلا بإذن الله، والله - عز وجل - يتفرد به - سبحانه - ، لا يملك أحداً في ذلك اليوم شيئاً كما ملكهم في الدنيا، ولا يقهره قاهر ولا ينازعه أحد.

سورة المطففين ٨٣

سورة المطففين سورة مكية، فيها إقامة العدل ونشره، والتحذير من الظلم ونبذ، فالله - عز وجل - حكم عدل لا يرضى بالظلم، ولا يرضاه لعباده حتى في أقل الأمور وأصغرها شأنًا، ولهذا ذكر التخويف والوعيد لمن فسدت أخلاقه ولم يراقب الله - عز وجل - وظلم الناس ولو بالقليل، ومن أولئك أصحاب الأموال، وأهل البيع والشراء، الذين يظلمون الناس بغشهم وخداعهم، فهم يأخذون المال من الناس كاملاً، ويعطونهم أقل من حقهم من المباع، فحذرهم وذكرهم بيوم القيامة حتى لا يتمادوا، ويتوبوا من تطفيف الكيل والميزان، وفي الحديث عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله سبحانه: «وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ» فأحسنوا الكيل بعد ذلك» [رواه ابن ماجه].

وفي القرآن سورتان بدأ الوعيد فيهما بـ ﴿وَيْلٌ﴾، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) و ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (٢) الأولى في حفظ أموال الناس، والثانية في حفظ أعراضهم.

* قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) [المطففين: ١].

وإذا كان هذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن يطففون الكيل والوزن الحي؛ فيأخذون حقهم وافيًا، ويبخسون الناس حقهم في ذلك، وإن كان التطفيف في المكيال والميزان فإنه أيضاً في من يأخذ أجراً ولا يؤدي حقه مثلما أخذ مقابله، وعليه فإن بخس الناس حقوقهم في الأمور المعنوية قد يكون أشد من ذلك وأعظم كاحتقار الناس وتنقصهم والتكبر عليهم وعدم الإنصاف من النفس، وعدم قول الحق عليها بل ولا قبوله.

قال سلمان الفارسي: الصلاة مكيال، من وفى وفِّي له، ومن طفف فقد علمتم ما قال في المطففين.

✽ قال - تعالى - في وصف شراب أهل الجنة:

﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ۖ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧ - ٢٨].

التسنيم أعلى أشربة الجنة، فأخبر - سبحانه - أن مزاج شراب الأبرار من التسنيم، وأن المقربين يشربون منه بلا مزاج، ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾.

قال ابن عباس وغيره: يشرب بها المقربون صرفاً ويمزج لأصحاب اليمين مزجاً، وهذا لأن الجزاء وفاق العمل، فكما خلصت أعمال المقربين كلها لله خلص شرابهم، وكما مزج الأبرار الطاعات بالمباحات مزج لهم شرابهم، فمن أخلص أخلص شرابه، ومن مزج مُزج شرابه.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ قال ابن تيمية: ولم يقل (منها) لأن الشارب قد يشرب ولا يروى، فإذا قيل يشرب بها، كان المعنى: يروون بها.

سورة الانشقاق ٨٤

سورة الانشقاق سورة مكية، ذكر الله - عز وجل - فيها أهوال وأحوال القيامة؛ وهي اليوم المهول الذي يُجازى فيه العباد على أعمالهم، فإن الله - عز وجل - خلق الخلق لعبادته وطاعته، وجعل لهم أمداً وأجلاً يرجعون إليه فيه، فيحاسب المرء على ما قدم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وذلك يوم القيامة حيث تقع فيه الأهوال العظيمة، وتحدث كوارث وشدائد كما ذكر الله - عز وجل - في وصفها، وهذه الآيات وأمثالها آيات دالة على ربوبية الله - عز وجل -، مستلزمة للعلم بصفات كماله، وعظيم قدرته.

✽ قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾.

انشقت: أي: انفتحت وانفجرت وتصدعت وتقطعت، وانتشرت نجومها، وخُسف بشمسها وقمرها، وهذا من علامات القيامة.

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

تأكيداً لاستماعها لربها، واستسلامها وطاعتها له.

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: تأمل أيها الآدمي البشر الضعيف كيف كانت هذه المخلوقات العظيمة تسمع وتطيع الله - عز وجل -، هذه الطاعة العظيمة في ابتداء الخلق وفي انتهاء الخلق، في ابتداء الخلق قال: ﴿أَتَيْتَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وفي انتهاء الخلق: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ - ٢]. حق لها أن تأذن وتسمع وتطيع.

✽ قال تعالى: ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

أذنت: بمعنى استمعت، وأطاعت أمر ربها - عز وجل -، وحق لها أن تأذن، أي تسمع وتنقاد وتطيع فإنها مسخرة مدبرة تحت مُسخر ملك عظيم، لا يُعصى أمره، ولا يخالف حكمه.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ﴾ .

أي: بُسِطَتْ، ودكت جبالها حتى صارت واسعة جداً، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ﴾ .

أي: جثث بني آدم تلقيها يوم القيامة، وخلت الأرض غاية الخلو حتى لم يبق شيء في بطنها وذلك يؤذن بعظم الهول.

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ﴾ .

أذنت: يعني استمعت وأطاعت لأمر ربها مثلما أطاعت السماء لربها وحقّت.

والتأمل في الآيات يلحظ عظيم الأحوال، بدأ بالعالم العلوي الذي هو أشرف وأنظم من العالم السفلي، وأذن بتغير أحواله ونهايته.

* ثم ذكر الله - عز وجل - حال الإنسان وأنه جاهدٌ ومجد في أعماله التي عاقبتها ونهايتها الموت، فقال تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۖ﴾ .

أي: أنك تكدح أيها الإنسان كدحاً يوصلك إلى ربك فالإله المرجع وإليه المآب. فما أسرع أن تلاقي الله - عز وجل -، ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر.

والكادح: هو الساعي بجهد ونوع مشقة.

* وقد ذكر الله - عز وجل - بعد هذه الآيات العظيمة حال الناس بعد الحساب والجزاء، حيث ذكر أهل اليمين من يؤتى كتابه بيمينه وهذه علامة السعادة، وأهل الشمال من يؤتى كتابه وراء ظهره، فقال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۖ﴾ .

أي: من أعطي كتابه بيمينه وهو المؤمن. فسوف يحاسبه الله - تعالى - بإحصاء عمله عليه، لكنه حساب سهل يسير، يُجازى على حسناته،

ويتجاوز عن سيئاته، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن أنه قد هلك، قال الله - تعالى -: «إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا أسترها لك اليوم» .
قال أبو حازم: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالأبق يقدم على مولاه.

وفي الحديث عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال: «ليس أحد يحاسب إلا هلك»، قالت: قلت: يا رسول الله جعلني الله فداك أليس يقول الله عز وجل ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿٧﴾ ﴿فَسَوْفَ تَحْسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ﴿٨﴾ قال: «ذلك العرض، يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك» [رواه البخاري].

﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ ﴿٩﴾ .

ينقلب ويعود من الحساب إلى أهله من الزوجات والخور العين في الجنة، مسروراً مبتهجاً بما أعطاه الله من الخير والكرامة.
﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ ﴿١٠﴾ .

هؤلاء هم الأشقياء والعياذ بالله، يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره وليس عن يمينه، لأن يمينه مغلولة إلى عنقه وهذه علامة الشقاوة.
﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ .
أي: إذا قرأ كتابه يدعو على نفسه بالثبور، من كلمات الندم والحسرة والخزي ويتمنى الهلاك والموت.

يصلى النار التي تُسعر به ويقاسي عذابها وحرّها، ويكون مخلداً فيها أبداً، لأنه كافر. فقد كان في الدنيا متبعاً لهواه وركوب شهوته غافلاً لا هياً عما أمامه؛ وقد وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها، فأعقبهم به الحزن الطويل.

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ (١٤) .

أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله، ولا يعيده بعد الموت للجزاء والحساب.

﴿ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ (١٥) .

أي: سيحور ويرجع وسيعيده الله كما بدأه، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها، فإنه كان به بصيراً عليمًا خبيراً.

سورة البروج ٨٥

سورة البروج سورة مكية، ذكر الله - عز وجل - فيها أن هذه الدنيا سجلال بين أهل الحق وأهل الباطل، وذكر - سبحانه - أحوال بعض الأمم السابقة وما جرى بين الفريقين، حيث ذكر قصة أصحاب الأخدود، وابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات النجوم الهائلة، ومداراتها الضخمة، التي تدور فيها الأفلاك، وبالיום العظيم المشهود وهو يوم القيامة، وبالرسل والخلائق على هلاك ودمار المجرمين.

عن جابر بن سمرة: «أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق ونحوهما» [رواه الترمذي].

* قال تعالى: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾

[البروج: ٨].

وهو الحميد، مستحق للحمد والثناء بفعاله، يحمد في السراء والضراء، وحمده من أجل الأعمال، قال ﷺ: «والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السموات والأرض» [رواه مسلم].

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ

عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

قال الحسن: انظروا إلى هذا الكرم والجود، يقتلون أوليائه ويفتنونهم، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فلا ييأس العبد من مغفرته وعفوه، ولو كان منه ما كان، فلا عداوة أعظم من هذه العداوة، ولا أكفر ممن حرق بالنار من آمن بالله وحده، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم وألحقهم بأوليائه.

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ يعني: ذا المغفرة، الساتر لذنوب عباده المتجاوز عنها، والمغفرة: ستر الذنب والعفو عنه، فليست المغفرة ستر الذنب فقط بل ستره وعدم المؤاخذه عليه.

﴿الْوَدُودُ﴾ مأخوذة من الود، والود هو خالص المحبة، فهو - جل وعلا - ودود. ومعنى ودود أنه محبوب وأنه حاب، كثير المحبة لمن أطاعه.

وفي هذا سر لطيف: حيث قرن «الودود» بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله، وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه.

ما ألطف اقتران اسم الودود بالغفور ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤] فالرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، والله يغفر ويحب عبده إذا تاب، فهو يحب التوابين.

* ثم بين عظمته وتما سلطانه في قوله تعالى:

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾.

أي: صاحب العرش. والعرش هو الذي استوى عليه الله - عز وجل -، وهو أعظم المخلوقات وأكبرها وأوسعها، وخلقه بهذا الوصف يدل على عظمة خالقه.

﴿الْمَجِيدُ﴾.

المجد: هو النهاية في الكرم والفضل.

﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

هذا وصف الله - تعالى - بأنه الفعال لما يريد، إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون.

* ثم لما ذكر رحمته بعباده المؤمنين ورأفته بهم، ذكر أحداث بعض الأمم السابقة، الدال على صدق ما جاءت به الرسل، فقال تعالى:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ .

الخطاب هنا موجه لرسول الله ﷺ أو لكل من يصح أن يتوجه إليه بالخطاب، أي: هل بلغك ما أحل الله من البأس وأنزل من النعمة التي لم يردّها أحد من الجموع الكافرة الذين تجندوا على حرب الرسل وأولياء الله، وفي ذلك مؤانسة للنبي ﷺ بذلك وتسلية.

سورة الطارق ٨٦

سورة الطارق سورة مكية، أقسم الله فيها ببعض مخلوقاته، فهو الذي خلق الخلق لعبادته وطاعته، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وجعل عليهم ملائكة يحصون أعمالهم ويدونونها، وتنشر هذه الصحف يوم الجزاء والحساب.

وقد عظم الله - عز وجل - في هذه السورة قدر السماء في أعين الخلق لكونها معدن رزقهم، ومسكن ملائكته وفيها خلق الجنة، وابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات الكواكب الساطعة.

ثم ذكر - عز وجل - خلق الإنسان ومبدأه.

* قال تعالى: ﴿ خَلَقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝١ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٢ ﴾

[الطارق: ٦ - ٨].

أي: من بين صلب الرجل وهو ظهره، وترائب المرأة وهو موضع القلادة من الصدر.

* قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٣ ﴾ [الطارق: ٩].

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - : أي تختبر السرائر، وهي القلوب، فإن الحساب يوم القيامة على ما في القلوب، والحساب في الدنيا على ما في الجوارح، ولهذا عامل النبي ﷺ المنافقين معاملة المسلمين حيث كان يستأذن في قتلهم فيقول: « لا يتحدث الناس أن محمد يقتل أصحابه »، لهذا يجب علينا العناية بعمل القلب أكثر من العناية بعمل الجوارح، عمل الجوارح علامة ظاهرة، لكن عمل القلب هو الذي عليه المدار، ولهذا أخبر النبي ﷺ عن الخوارج يخاطب الصحابة يقول: « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم - يعني أنهم يجتهدون في الأعمال الظاهرة لكن قلوبهم خالية

والعياذ بالله - لا يتجاوز الإسلام حناجرهم، يرقون من الإسلام كما يرق السهم من الرمية» .

وقال الحسن البصري - رحمه الله - : والله ما سبقهم أبو بكر بصلاة ولا صوم وإنما سبقهم بما وقر في قلبه من الإيمان .

سورة الأعلى (٨٧)

سورة الأعلى سورة مكية، كان ﷺ يقرأها في الركعة الأولى من صلاة العيد، وفي صلاة الشفع قبل الوتر، وفي صلاة الجمعة.
عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه -: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية].

قال: وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما أيضاً في الصلاتين [رواه مسلم].

والسورة فيها تنزيه الله - عز وجل - بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وذكر قدرته، فإنه - جل جلاله - مدبر الكون، عالم الخفيات، له الكمال المطلق في أسمائه وصفاته وأفعاله، شرع لعباده أن يسبحوه بكرة وأصيلاً، وقد سبح هو نفسه مفتتح عدد من السور، ومنها هذه السورة.

* والمقصد من هذه السورة: تأكيد تعلق النفوس بالله العظيم الأعلى، والحرص على الآخرة ونعيمها، وعدم التعلق بالدنيا وبهرجها الزائل، وهي تحمل رسالة قصيرة مركزة للمؤمن أن العلو الحقيقي هو في طاعة الله وخشيته ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ ، وأن الشقاء والخسران في اجتناب هذه النصيحة والتعلق بالدنيا ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ .

وقد وصف الشقي بقوله: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ ، وهذه الحقيقة الكبرى ينبغي أن تكون نصب عيني المؤمن في حياته كلها، تكرر عليه كل حين.

* قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾

[الأعلى: ١٤ - ١٥].

وقدم التزكي على ذكر الله والصلاة؛ لأنه أصل العمل بذلك كله فإنه إذا تطهرت النفس أشرقت فيها أنوار الهداية، فعلمت منافعها وأكثرت من الإقبال عليها.

* قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩].

نفع الذكر إذا كان يحصل بها الخير كله أو بعضه أو يزول بها الشر كله أو بعضه، فأما إذا كان ضرر التذكير أعظم من نفعه فإنه منهي عنه في هذه الحالة، كما نهى الله عن سب آلهة المشركين إذا كان وسيلة لسب الله. وكما ينهى عن الأمر بالمعروف إذا كان يترتب عليه شرٌّ أكبر أو فوات خير أكثر من الخير الذي يؤمر به، وكذلك النهي عن المنكر إذا تترتب عليه ما هو أعظم منه من شر أو ضرر. فالتذكير في هذه الحال غير مأمور به بل منهي عنه، وكل هذا من تفصيل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾

[النحل: ١٢٥].

سورة الغاشية ٨٨

سورة الغاشية سورة مكية، ورد عن النبي ﷺ أنه كان يقرأها في الركعة الثانية من صلاة العيد والجمعة، وقد ذكر الله - عز وجل - فيها أحوال يوم القيامة، وما فيها من الأهوال العظام، ومصير وحال أهل السعادة وأهل الشقاء، محذراً ومبيناً، رأفة وشفقة بالعباد حتى لا يضلوا ولا ينحرفوا. وفي هذه السورة ذكر لبيان شيء مما يجده أهل النار في النار، وما ينعم به أهل الجنة في الجنة.

وتذكر هذه السورة العظيمة بقدرة الله العظيمة، وأصناف القيامة، ومصيرهم في الآخرة، وهي المعاني الكبرى المصيرية التي ينبغي أن لا تغيب عن المؤمن أبداً، ويحتاج إلى تعلمها وتذكرها ولهذا شرعت قراءتها في الركعة الثانية من صلاة الجمعة والعيد والاستسقاء.

قال تعالى:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۖ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۖ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۖ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ۚ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۚ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۚ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ۖ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٦].

تجمع هذه الآيات الأربع مشاهد عظيمة، يصبح الإنسان ويمسي وهو يراها خاصة في بيئة مكة والعرب من حولها.

أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي نصب أعينهم يستعملونها كل حين أنها كيف خلقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سنن خلقه سائر أنواع الحيوانات، في عظم جثتها، وشدة قوتها، وعجيب هيأتها اللائقة، يتأمل ما يصدر عنها من الأفاعيل الشاقة، كالنوء بأوقارها الثقيلة، وجر الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة، وفي صبرها على الجوع والعطش حتى إن أظماءها لتبلغ

العشر - فصاعداً واكتفائها باليسير، ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم، وفي انقيادها مع ذلك للإنسان في الحركة والسكون والبروك والنهوض حيث يستعملها في ذلك كيفما يشاء بقطارها كل صغير وكبير.

قيل: الإبل تجمع أربع خصال لم تجتمع في أي من الحيوانات إلا فيها: فهي حلوب، وركوب، وأكول، وحمولة.

❖ قال تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٤].

ولم يقل: الكبير، وفي ذلك لطيفة، قال أهل العلم: وإنما قال: الأكبر لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والأسر والقتل.

سورة الفجر ٨٩

سورة الفجر سورة مكية، ذكر الله - عز وجل - فيها حال بعض الأمم السابقة، وقصص الأقوام الفانية، خاصة من كذبوا وتكبروا وطمعوا، ثم ما جرى لهم من العذاب والنكال، وبيان سنة الله - تعالى - في ابتلاء العباد في هذه الحياة بالخير والشر.

ثم ذكر - سبحانه - الآخرة وأحوالها وشدائدها وانقسام الناس يوم القيامة إلى سعداء وأشقياء، ومنازل هؤلاء وأولئك؛ وكل ذلك لأخذ العبرة من مآلهم، والحذر من مخالفة أمر الله - عز وجل -.

* قال سبحانه: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝١﴾ [الفجر: ٥].

قال ابن كثير: سمي العقل حجراً؛ لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال.

* قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝٢﴾ [الفجر: ١٥].

وهذا صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث. وإنما الكرامة عنده والهوآن بكثرة الحظ في الدنيا وقلته.

فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه، المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسع عليه في الدنيا حمده وشكره.

وقد وردت كلمة الرب في هذه السورة خمس مرات إظهاراً لعظمة الله - عز وجل - ومقدرته، مقابل إظهار طغيان وتكبر الأمم الكافرة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٣ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٤ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ۝٥ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخِرَ بِالْوَادِ ۝٦ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝٧ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبَلَدِ ۝٨ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝٩ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٠ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١١﴾ [الفجر: ٦ - ١٤].

سورة البلد ٩٠

سورة البلد سورة مكية، ذكر الله - عز وجل - في أولها ما قُدِّر على الإنسان في هذه الدنيا من المشقة والتعب والأكدار والأحزان والمكابدة، ولهذا حث على الصبر والتحمل وعدم التضجر مما يُبتلى به في هذه الدنيا، ولينظر لدار ليس فيها نكد ولا حزن وهي الجنة، فتكون هدفه ومستقره برحمة الله .

✽ قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] .

قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة .

وقال - رحمه الله - : يكابد الشكر على السراء، ويكابد الصبر على الضراء، لا يخلو عن أحدهما .

✽ قال تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ [البلد: ٦] .

أنكر - سبحانه - على الإنسان قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض، فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وإنفاقه في غير وجهه، إذ لو أنفقه في وجوهه التي أمر بإنفاقه فيها ووضع مواضعه لم يكن ذلك إهلاكاً له بل تقرباً به إلى الله وتوصلاً به إلى رضاه وثوابه .

✽ قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [١١] وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ [البلد: ١١ - ١٢] .

والعقبة عبارة عن الأعمال الصالحة المذكورة بعد، وجعلها عقبة استعارة من عقبة الجبل، لأنها تصعب ويشق صعودها على النفوس .

سورة الشمس ٩١

سورة الشمس سورة مكية، ذكر الله - عز وجل - فيها أن من أسباب الفوز والفلاح محاسبة النفس ومراجعتها وتعاهدها، وبذلك تستقيم النفوس وتزكى القلوب، والمسلم مأمور بذلك في كل حين ووقت، فإن ذلك أقرب للتوبة والعودة إلى الله - عز وجل -، ومحاسبة النفس قبل أن تحاسب من علامات التيقظ والفطنة.

وفي مطلع هذه السورة، يقسم الله - عز وجل - بسبعة أشياء من مخلوقاته العظيمة، فأقسم - تعالى - بالشمس وضوئها الساطع، وبالقمر إذا أعقبها وهو طالع، ثم بالنهار إذا جلا ظلمة الليل بضياءه، وبالليل إذا غطى الكائنات بظلامه، ثم بالقادر الذي أحكم بناء السماء بلا عمد، وبالأرض التي بسطها على ماء جمد، وبالنفس البشرية التي كملها الله وزينها بالفضائل والكمالات، أقسم بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد.

* قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَنَاهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وختم القسم بالنفس، التي هي آخر المخلوقات، فإن الله خلق آدم يوم الجمعة آخر المخلوقات، وبين أنه خالق جميع أفعالها، ودل على أنه خالق جميع أفعال ما سواها.

* قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝﴾

[الشمس: ٩ - ١٠].

والفاجر أبداً خفي المكان زمن المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس، فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها.

❖ قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا
فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ [الشمس: ١٣ - ١٤] .

قال ابن تيمية: إذا كان هذا عذابه لهؤلاء، وذنبهم مع الشرك عقر الناقة
التي جعلها الله آية لهم، فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيه
وعقر عباده وسفك دماءهم كان أشد عذاباً.

سورة الليل ٩٢

سورة الليل سورة مكية، جلى فيها - سبحانه وتعالى - حكمته وعدله، وسبق ذلك بذكر بديع صنعه في الأكوان، وذكر أن من تمام عدله وحكمته أنه لا يضيع عمل المحسن ولا يغفل عمل المسيء، ومن ذلك أن يُوفق المحسن للاستزادة من عمل الخير، ويحرم المسيء من الهداية لأفعال الخير فيستمر في أعمال الشر.

عن ابن عباس قال: إني لأقول هذه السورة نزلت في السامحة والبخل.

وابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالليل إذا غشي الخليفة بظلامه، وبالنهار إذا أنار الوجود بإشراقه وضياؤه، وبخالق العظيم الذي أوجد النوعين الذكر والأنثى، أقسم - سبحانه وتعالى - على أن عمل الخلائق مختلف، وطريقهم متباين.

* قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ .

قال ابن عاشور: اختير القسم بالليل والنهار لمناسبته للمقام، لأن غرض السورة بيان البون بين حال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة.

* قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٣﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٤﴾ فَسَنِيَرُهُ

لِلْيُسْرَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الليل: ٥ - ٧].

قال السعدي - رحمه الله -: هذه الآيات جمعت جميع الأسباب التي تنال بها السعادة، فأسابها ثلاثة:

فعل المأمور ﴿أَعْطَىٰ﴾ .

واجتناب المحذور ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ .

وتصديق ما أخبر به الله ورسوله ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ .

فمن جمعها ﴿فَسُنِّيْـسِرُهُ لِّلْـيُسْرِى ۝٧﴾ .

* قال تعالى: ﴿فَسُنِّيْـسِرُهُ لِّلْـيُسْرِى ۝٧﴾ [الليل: ٧] .

السين: هنا للتحقيق، أي: أن من أعطى واتفق، وصدق بالحسنى، فسييسره الله - عز وجل - ليسرى في أموره كلها، في أمور دينه ودنياه، لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك. نزلت هذه الآيات في أبي بكر الصديق: اشترى ستة عبيد من المؤمنين كانوا في أيدي أهل مكة، يعذبونهم في الله فأعتقهم.

* قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلَّذِى يُوْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝١٨﴾

[الليل: ١٧ - ١٨] .

بأن يكون قصده به تزكية نفسه، وتطهيرها من الذنوب والعيوب، قاصداً به وجه الله - تعالى -، فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب، كدين ونفقه ونحوهما، فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء، لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب. قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ومما يبين الحب لله والحب لغير الله: أن أبا بكر - رضي الله عنه - كان يحب النبي ﷺ مخلصاً لله، وأبو طالب عمه كان يحبه وينصره لهواه لا لله، فتقبل الله عمل أبي بكر وأنزل فيه ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلَّذِى يُوْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝١٧﴾ [الليل: ١٧]، وأما أبو طالب فلم يتقبل عمله؛ بل أدخله النار؛ لأنه كان مشركاً عاملاً لغير الله.

* وفي قوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝١٩﴾ تأكيد، فالمتقي لا يفعل

ذلك إلا ابتغاء وجه ربه، فهو مخلص في تقواه وإحسانه.

قال ابن كثير: أي طمعاً في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في

روضات الجنات.

سورة الضحى ٩٣

سورة الضحى سورة مكية، تتناول شخصية النبي ﷺ، وما حباه الله من الفضل والإنعام في الدنيا والآخرة، ليشكر الله على تلك النعم الجليلة. وسبب نزولها أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل يصلي لله - عز وجل - ويناجيه، وفي ليلة مرض ﷺ فلم يقدّم لصلاة الليل ليلتين أو ثلاثاً، واحتبس عنه الوحي، فأثته امرأة مشركة من قومه هي أم جميل - امرأة أبي لهب -، فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، لم يقربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله هذه السورة، وكلها نجاء له من ربه، وتسرية وتسلية وتطمين.

وقد أقسم - عز وجل - في هذه السورة بالضحى، والليل إذا سجى، على إنعامه على رسوله ﷺ وإكرامه له، وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته، دلالة على ربوبيته، وحكمته ورحمته، وهما الليل والنهار، وتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد الظلام للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه.

وكذلك فإن فلق ظلمة الليل عن ضوء النهار، هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، وكذلك فإنه - سبحانه - اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعاشهم، فلا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغى، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

* قال ابن هبيرة: سورة الضحى جمعت بين قسمين: ﴿وَالضُّحَى﴾ (١) و﴿إِذَا سَجَى﴾ (٢).

وبين جوابين منفيين: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ .
 وجوابين مثبتين: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ ١ و﴿لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ ٢ .

وفيهما ثلاث نعم: ﴿أَلَمْ نَجِدَكَ يَتِيمًا فَغَاوَىٰ﴾ ٣ و﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ ٤ و﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ ٥ .
 وختمها الله ثلاث وصايا .

وكل وصية تقابل: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ٦ و﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ٧ و﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ٨ .

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجِدَكَ يَتِيمًا فَغَاوَىٰ﴾ ٩ و﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ ١٠ و﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ ١١ [الضحى: ٥ - ٧] .

قال ابن عثيمين: ولم يقل فأمرك، فهذاك، فأغناك، لأن الخطاب ليس خاصاً بالنبى .

* وبعد أن عدد نعمه وآلائه ذكره الله - عز وجل - بحقوق الضعفة والمساكين، فقال تعالى:

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ١٢ و﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ١٣ [الضحى: ٩ - ١٠] .

إذ ليس المقصود به جواز قهر غير اليتيم، ونهر غير السائل، وإنما هو من باب التوجيه، فإن اليتيم ضعيف وكذلك السائل وهما مظنة القهر، فقدمهما للاهتمام بشأنهما والتوجيه إلى عدم استضعافهما .

قال الشيخ محمد ابن عثيمين - رحمه الله - : أول ما يدخل في السائل، السائل عن الشريعة، عن العلم، لا تنهره؛ لأنه إذا سألك يريد أن تبين له الشريعة وجب عليك أن تبينها له، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] .
 * قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ١٤ .

نعمة الله - تعالى - على الرسول ﷺ التي ذكرت في هذه الآيات ثلاث نعم . وأمره الله - سبحانه - بالتحدث بنعم الله عليه وإظهارها بينهم ، فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها ، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها ، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن .

- لم تقترن كلمة العطاء في القرآن كله بغير لفظ الرب ﴿ جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾ [النبا: ٣٦] ، ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [الضحى: ٥] الرب هو المربي والمعطي والقيم . وقد وعده ربه - عز وجل - ليس بالعطاء فحسب ، بل بالعطاء حتى الرضا .

* والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها : أن المتحدث بالنعمة مُخبر عن صفات وليها ومحض جوده وإحسانه ، فهو مثن عليه بإظهارها والتحدث بها ، شاكر له ، ناشر لجميع ما أولاه ، مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء عليه ، وبعث النفس على الطلب منه دون غيره ، وعلى محبته ورجائه ، فيكون راغباً إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها . وأما الفخر بالنعم فهو أن يستطيل بها على الناس ، ويريهـم أنه أعز منهم وأكبر ، فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة ، وكذلك كسر قلوبهم والتفاخر بأنه هو المستحق لها دونهم .

سورة الشرح ٩٤

سورة الشرح سورة مكية، تتحدث عن مكانة الرسول الجليلة، ومقامه الرفيع عند الله - تعالى - .

وقد ذكر - عز وجل - في السورة ما وقع للنبي ﷺ من أحداث، فبينما كان النبي ﷺ وهو صغير يلعب مع الصبيان، إذ جاءه جبريل - عليه السلام -، فألقاه على ظهره ثم شرح (شق) صدره، واستخرج قلبه وشقه، وأخرج منه قطعة سوداء، وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسل قلبه بماء زمزم في طست من ذهب، ثم أعاده إلى مكانه، يقول أنس بن مالك - رضي الله عنه -: بقي أثر المخيط في صدره ﷺ، فحصل بذلك شرح صدر النبي ﷺ حسيًا بشقه وإخراج القطعة السوداء من قلبه .

* قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: ١] .

وإنما خص الصدر لأنه محل أحوال النفس من العلوم والإدراكات، والمراد الامتنان عليه ﷺ بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قام به من الدعوة، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة وحفظ الوحي .
وكما شرح صدره معنويًا بنور الإيمان والنبوة، وامتن الله على نبيه ﷺ ذلك، فقد ذكر - عز وجل - العسر بعد اليسر .

* قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥ - ٦] .

بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر - يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر .

وتعريف ﴿الْعُسْرِ﴾ في الآيتين يدل على أنه واحد، وتنكير (اليسر) يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين.

وفي تعريفه بالألف واللام على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر - وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ - فإنه في آخره التيسير ملازم له.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ﴾ .

لم يقل (بعد) بل قال: ﴿مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ليعتد التفاؤل في النفس وقرب الفرج، وأن الفرج ملازم للعسر قريب منه.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ﴾ .

أي: إن مع ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً آخر، وهذا من نعم الله - عز وجل - ولن يغلب عسر يسرين.

قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ في مكة في ضيق وشدة هو وأصحابه، بسبب أذى المشركين للرسول والمؤمنين، فوعده باليسر، كما عدد عليه النعم في أول السورة تسلياً وتأنيساً له، لتطيب نفسه ويقوى رجاؤه.

﴿ ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - رَسُولَهُ ﷺ أَصْلًا، والمؤمنين تبعاً بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال:

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ .

أي: إذا فرغت من أعمالك وصلاتك، أو من التبليغ، فاجتهد في الدعاء، واطلب من الله حاجتك.

أو: فانصب في العبادة. وتضرع إليه وحده - سبحانه - رهباً من النار، رغباً في الجنة وانصب لعمل آخر، يعني اتعب لعمل آخر، واجعل رغبتك إليه خصوصاً، ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه، مفوضاً أمرك له، ولا تكن ممن إذا فرغوا أو تفرغوا لعبوا وأعراضوا عن ربهم وعن ذكره فتكون من الخاسرين.

قال الشيخ ابن عثيمين: إن استراحتك لتنشيط نفسك وإعادة النشاط يعتبر شغلاً وعملاً، يعني لا يلزم الشغل بالحركات، ففراغك من أجل أن تنشط للعمل الآخر يعتبر عملاً، المهم أن تجعل حياتك كلها جداً وعملاً.

سورة التين ٩٥

سورة التين سورة مكية، امتن الله فيها على عباده أن خلقهم في أحسن صورة وأفضلها، مؤكداً بهذا نعم الله عليهم، ومدللاً أن من خلق هذا الخلق وسواه قادر على بعث الإنسان بعد موته، كما أنه بحكمته وعدله خلق هذا الكمال في الإنسان ولم يتركه هملاً فلا يكلفه ولا يجازيه على عمله، فاقتضت حكمته - سبحانه - أن يعثهم ويجازيهم على أعمالهم، وابتدأت السورة بالقسم بالبقاع المقدسة والأماكن المشرفة، التي خصها الله - تعالى - بإنزال الوحي فيها على أنبيائه ورسله، على أنه - تعالى - كرم الإنسان فخلقه في أجمل صورة، وأبدع شكل.

عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في العشاء ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ ﴿١﴾ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾ فما سمعت أحد أحسن صوتاً أو قراءة منه.

[رواه البخاري].

* قال تعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ ﴿١﴾ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٤﴾ [التين: ١ - ٢].

بدأ بالتين فالزيتون، والزيتون أشرف وأفضل من التين فقد شهد الله له أنه شجرة مباركة، قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥].

* ثم أقسم بطور سينين وهو أفضل مما ذكر قبله، فإنه الجبل الذي كلم الرب عليه موسى، ثم أنظر من ناحية أخرى كيف وضع طور سينين بجوار الزيتون لا بجوار التين، وقد ورد ذكر الزيتون بجوار الطور في موطن آخر من التنزيل العزيز: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة المكرمة، مكان مولد رسول الله ﷺ ومبعثه ومكان البيت الذي هو هدى للعالمين، فتدرج من الفاضل إلى الأفضل ومن التشريف إلى الأشرف.

* وتأمل حكمة القرآن لما قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] فإنه ضيق الاستثناء وخصصه، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

ولما قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥] وسع الاستثناء وعممه، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] ولم يقل: ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله، فمن لم يكن كذلك فقد خسر - هذا الربح فصار في خسر، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين.

* قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

والله - عز وجل - أحسن خلق كل شيء، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧] وإنما خص الإنسان بالذكر بحسن التكريم، وحسن التقويم والتعديل، لمزيد الاعتناء به، وليحسن صلته بخالقه.

سورة العلق ٩٦

سورة اقرأ سورة مكية، وهذه الآيات أول ما نزل على الرسول - عليه الصلاة والسلام - من القرآن الكريم، نزلت عليه وهو يتعبد في غار حراء حيث كان يقضي الأيام والليالي متعبداً لله - عز وجل - منعزلاً عن الناس، فجاءه جبريل فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فعل ذلك ثلاث مرات ثم قال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

* وبين - عز وجل - خلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢] كلمة علق هي بالجمع وليس المفرد، هو الدم الجامد الرطب في آن واحد، أما بالمفرد (علقة)، ذكر أيضاً في القرآن كما في سورتي الحج وعافر.

* قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [العلق: ٦].

لما أخبر الله - تعالى - بطغيان الإنسان عجل بذكر الدواء، ولا دواء للطغيان إلا أن يتذكر الإنسان أنه مفتقر لله - تعالى - وأنه لا يزال مفتقراً في حياته ومماته وغناه وفقره، ومن رحمته - تعالى - أن ذكر الإنسان الذي أحسن له في التربية بالرجوع الأعظم الثابت الذي لا يجيد عنه فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: ٨].

* قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

وأول سورة أنزلت على النبي ﷺ سورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ افتتحت بالقراءة، وختمت بالسجود، فوضعت الركعة على ذلك، أولها قراءة وآخرها سجود.

سورة القدر ٩٧

سورة القدر سورة مكية، تحدثت عن بدء نزول القرآن العظيم، وذكر الله - عز وجل - فيها من كرمه وجوده بعض ما خص به هذه الأمة من فضائل ومزايا، ولعلمه - سبحانه - بقصر أعمارهم، عوضهم من الأيام ما يوافي أجوراً عظيمة، ومن ذلك ليلة القدر التي العمل فيها خير من ألف شهر.

✽ قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١].

طالبهم في سورة العلق بالقراءة والتعلم، ثم جاءت سورة القدر بعدها لتبين عظمة ما في كتاب الله - تعالى - المقروء والمتعبد بتلاوته الذي أنزله في ليلة مباركة، وأنه مصدر مهم في التعلم ومعرفة الله - تعالى - فقال: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾.

قال الشنقيطي: كون إنزال القرآن هنا في الليل دون النهار، مشعر بفضل اختصاص الليل.

وقد أشار القرآن والسنة إلى نظائره، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ [الإسراء: ١]، ومنه قوله: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء: ٧٩]، ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبِرَ الشُّجُودِ ﴾ [ق: ٤٠]، ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ [المزمل: ٦]، وقوله: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧].

ومن السنة قوله ﷺ: «إذا كان ثلث الليل الآخر ينزل ربنا إلى سماء الدنيا» الحديث.

وهذا يدل على أن الليل أخص بالنفحات الإلهية، وبتجليات الرب - سبحانه - لعباده، وذلك لخلو القلب وانقطاع الشواغل، وسكون الليل ورهبته أقوى على استحضار القلب وصفائه.

سورة البينة ٩٨

سورة البينة سورة مدنية، ذكر الله فيها أحوال الأمم السابقة، فإنه قبل مبعث النبي ﷺ كان الناس يعيشون في ظلمات الكفر والشرك من عبادة الأصنام والنجوم والكواكب والأشجار والأحجار، فبعث الله محمداً هادياً ومبشراً بهذا الدين العظيم، دين الفطرة الذي ارتضاه الله - عز وجل - لعباده.

وابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن اليهود والنصارى، وموقفهم من دعوة رسول الله ﷺ بعد أن بان لهم الحق وسطعت أنواره، وبعد أن عرفوا أوصاف النبي المبعوث آخر الزمان، وكانوا ينتظرون بعثته ومجيئه، فلما بعث خاتم الرسل كذبوا برسالته وكفروا وعاندوا.

* قال تعالى: ﴿ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة: ٨].

قال الشيخ ابن عثيمين: ذلك الجزاء لمن خشي الله - عز وجل -، والخشية هي خوف الله - عز وجل - المقرون بالهيبة والتعظيم ولا يصدر ذلك إلا من عالم بالله كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

سورة الزلزلة ٩٩

سورة الزلزلة سورة مكية، ذكر الله فيها من عظيم صنعه في الكون، أن الأرض مستقرة لا تتحرك ولا تضطرب حتى يعيش عليها الإنسان عيشة طيبة هنية، وفي يوم القيامة تتبدل الأحوال وتتغير الأوضاع فتضطرب الأرض وتهتز، ويندك كل صرح شامخ، وينهار كل جبل راسخ، وتخرج الأرض ما في جوفها من الأجساد والكنوز.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: أنزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] وأبو بكر الصديق قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال: يبكيني هذه السورة، فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم، لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم».

* وفي الآيات غاية الترغيب في فعل الخير ولو كان قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو كان صغيراً، قال أبو الدرداء: فلا تحقرن شيئاً من الشرك أن تتقيه، ولا شيئاً من الخير أن تفعله، فإن الله يقول: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

قال ابن حجر - رحمه الله - : فينبغي للمرء أن لا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه، ولا في قليل من الشر أن يجتنبه، فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمها الله بها، ولا السيئة التي يسخط عليه بها.

سورة العاديات (١٠٠)

سورة العاديات سورة مكية، يُذكر الله - عز وجل - عباده فيها بيوم القيامة، وموقف الجزاء والحساب، ليكون الناس على أهبة الاستعداد، ولا تشغلهم الدنيا عن الآخرة، والفانية عن الباقية.

وفي هذه السورة يقسم الله - سبحانه - بخيل المعركة، ويصف حركتها واحدة واحدة، منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري، قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو، مثيرة للنقع والغبار وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة، فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب.

✽ قال تعالى: ﴿وَالْعَدِيَّتِ صُبْحًا ۝۱﴾ فَأَلْمُورِيَّتِ قَدْحًا ۝۲﴾ فَأَلْمُغِيرَتِ صُبْحًا

۝۳﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝۴﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝۵﴾ .

العاديات: هي الدواب التي من شأنها أن تجري بغاية السرعة، وهي الخيل التي ظهورها عز، وبطونها كنز، وهي التي ترفع عليها رايات السيوف بيد المجاهدين في سبيل الله.

✽ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝۱﴾ [العاديات: ٦].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - : فطبيعة الإنسان وجبلته، أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق، فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليه من الحقوق المالية والبدنية، إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق.

سورة القارعة (١٠١)

سورة القارعة سورة مكية، ذكر الله فيها يوم القيامة يوم الجزاء والحساب ويوم الفصل بين العباد، يوم توزن فيه أعمال الخلائق؛ فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته أدخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته أدخل النار، وسورة القارعة تقرر هذه الأمر للاستعداد والتأهب، ومن قبل التوبة والامتنال والطاعة لرب الأرباب.

والسورة كلها تتحدث عن يوم القيامة، حقيقتها، وما يقع فيها، وما تنتهي إليه، فهي تعرض مشهداً من مشاهد القيامة، كخروج الناس من قبورهم وانتشارهم في ذلك اليوم الرهيب كالفراش المتطاير، المنتشر هنا وهناك، يجيئون ويذهبون على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم، وذكر الله - عز وجل - فيها نصف الجبال وتطايرها.

❖ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۖ﴾.

أي: يكون الناس من شدة الفزع والهول كالفراش؛ وهو الحشرة الطائرة المعروفة التي تتساقط على الضوء ليلاً. ويعني المتفرق المنتشر.

والمعنى: أن الناس في يوم القيامة يسرون على غير هدى في كل اتجاه لشدة الهول حتى يحشروا إلى الموقف.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۖ﴾.

هذا هو الوصف الثاني من صفات ذلك اليوم المهول، أي: تصير وتتحول الجبال العظيمة الراسية إلى عهن منفوش، أي: تكون كالصوف الذي نُفش بالندف.

والمنفوش: المبعثر الذي تفرقت أجزاؤه، وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال، تنبيهاً على أن تلك القارعة أثرت في الجبال العظيمة الصلبة حتى

تصير كالصوف المندوف مع أنها غير مكلفة، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف والحساب.

* ثم ذكر - سبحانه - أحوال الناس عند المحاسبة في الموقف، وتفرقهم فريقين، شقي وسعيد على جهة الإجمال، فقال عمن خفت موازينه: ﴿فَأُمُّهُرْ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩].

عن أبي هريرة قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال النبي ﷺ: «تدرون ما هذا؟» قال: قلنا الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها» [رواه مسلم].

سورة التكاثر (١٠٢)

سورة التكاثر سورة مكية، ذكر الله - عز وجل - فيها ما يُلهي العباد عن طاعته وعبادته، وحذرهم من هذا الطريق، وبينه لهم، وقد تكرر في هذه السورة الزجر والإنذار تخويفاً للناس، وتنبيهاً لهم على خطئهم، باشتغالهم بالفانية عن الباقية.

* قال - تعالى - لمن أعرض عن طاعته وألتهه الدنيا: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١].

أبلغ في الذم من (شغلهم)، فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل وقلبه غير لاه به. فاللهو هو ذهول وإعراض.

وأعرض عن ذكر التكاثر به إرادة لإطلاقه وعمومه، وإن كل ما يكاثر به العبد غيره سوى طاعة الله ورسوله وما يعود عليه بنفع معاده فهو داخل في التكاثر. ولم يذكر المتكاثر به، ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون، من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله - تعالى -.

* قال تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٣].

جعل الغاية زيارة المقابر دون الموت، إيذاناً بأنهم غير مستبقين ولا مستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائرين، يحضرونها مرة ثم يظعنون عنها، كما كانوا في الدنيا كذلك زائرين لها، غير مستقرين فيها، ودار القرار هي الجنة أو النار.

* قال تعالى: ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥].

مراتب اليقين ثلاثة: علم اليقين في سورة التكاثر.

عين اليقين في سورة التكاثر: ﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ .
 حق اليقين في سورة الواقعة: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ .
 [الواقعة: ٩٥] .

* قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] .
 أي: عن نعيم الدنيا الذي ألهاكم عن العمل للآخرة، فيسأل عن الأمن،
 والصحة، والفراغ، وعن شرب الماء البارد على الضمأ وظلال المساكن،
 وغير ذلك من النعم.

وقد استعرض القرطبي أشهر أقوال التأويل في النعيم فعدها منها:
 الأمن، والصحة، والفراغ، والإدراك بالحواس والبصر، وملأذ المأكول
 والمشروب، والغذاء والعشاء وشبع البطون، وبارد الشراب، وظلال
 المساكن، واعتدال الخلق، ولذة النوم، وصحة البدن، وطيب النفس،
 والنوم مع الأمن والعافية، وجلف الخبز.

وقال محمد بن كعب: النعيم هو ما أنعم الله علينا بمحمد ﷺ .

وقال الحسن: هو تخفيف الشرائع وتيسير القرآن.

قال ابن تيمية عن الشكر على النعيم: فيطالب العبد بأداء شكر الله على
 النعيم، فإن الله - تعالى - لا يعاقب على ما أباح وإنما يعاقب على ترك
 مأمور وفعل محذور.

وقد أخلصت هذه السورة الوعد والوعيد والتهديد، وكفى بها موعظة
 لمن عقلها.

سورة العصر ١٠٣

سورة العصر سورة مكية، ذكر الله - عز وجل - فيها أنه خلق الخلق لعبادته وإقامة شرعه، والإنسان في هذه الدنيا بين أمرين؛ إما القيام بما أمر الله - عز وجل - به فقد أفلح ونجا، وإما التمرد والعصيان ومخالفة أمره - سبحانه - فقد خاب وخسر.

قال الشافعي - رحمه الله - : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم، ولو لم ينزل إليهم إلا هي لكفتهم، لأنها شملت جميع علوم القرآن.

* قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

وفي جعل التواصي بالصبر قريناً للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره، وفخامة شرفه، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وأيضاً التواصي بالصبر مما يندرج تحت التواصي بالحق، فإفراده بالذكر، وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إناقته على خصال الحق، ومزيد شرفه عليها، وارتفاع طبقته عنها.

* قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

قال ابن عاشور: التخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها، فإن الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة، ففي مخالفتها تعب يقتضي بالصبر عليها؛ حتى تصير مكارم الأخلاق ملكة لمن راض نفسه عليها.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

فبالأمرين الأولين، الإيمان والعمل الصالح يكمل الإنسان نفسه،
وبالأمرين الآخرين - بالنصح والإرشاد والصبر - يكمل غيره، وبتكميل
الأمر الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم،
فقد جمع بين حق الله وحق العباد.

قال ابن القيم: سورة العصر على اختصارها هي من أجمع سور القرآن
للخير بحذافيره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه، شافياً
من كل داء، هادياً إلى كل خير.

قال الألوسي: وهي على قصرها جمعت من العلوم ما جمعت.

سورة الهمزة (١٠٤)

سورة الهمزة سورة مكية، ذكر الله فيها أحوال بعض العباد؛ فإن من تأمل في حال الناس وأخلاقهم يجد التفاوت العجيب، وقد أنزل الله - عز وجل - هذا القرآن مقررًا للشريعة رافعاً راية التوحيد، مهذباً للأخلاق وحسن التعامل وطيب الفعال بين المسلمين.

وفي هذه السورة ذم الله - عز وجل - الطعن في أعراض الناس وأنسابهم ودناءه من فعل ذلك، وأن له الوعيد الشديد والعقوبة العظيمة إن احتقر أو استهزأ وطعن في أنساب المسلمين وأعراضهم على وجه التنقص والازدراء، وذم الله - عز وجل - الذين يشتغلون بجمع الأموال وتكديس الثروات كأنهم مخلصون في هذه الحياة.

* قال - تعالى - في وصف النار: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾

[الهمزة: ٧].

قال ابن عثيمين: تصل إلى القلوب - والعياذ بالله - من شدة حرارتها، مع أن القلوب مكنونة في الصدور وبينها وبين الجلد الظاهر ما بينها من الطبقات لكن مع ذلك تصل هذه النار إلى الأفئدة.

وختمت السورة بذكر عاقبة هؤلاء التعساء الأشقياء، قال - تعالى - في وصف النار وشدتها: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ.

سورة الفيل ١٠٥

سورة الفيل سورة مكية، ذكر فيها - سبحانه - فضله العظيم وآلائه الكثيرة، وذكر هنا - عز وجل - لكفار قريش خاصة فضله ومنته عليهم عندما أراد أبرهة الحبشي أن يبني باليمن كنيسة ليصرف الناس إلى حجها دون البيت الحرام، فقام أحد العرب فلوطنها بالقدر ليلاً، فعزم أبرهة على هدم الكعبة، وسار بجيش عظيم إلى مكة ومعه الفيل إلى أن دنا من المسجد الحرام، فلما انتهوا إلى قرب مكة ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة منها خوفاً على أنفسهم منهم، أرسل الله - تعالى - عليهم وعلى جيشهم ما منعهم من هدمها أو التعرض لها، وأبقاها على حالها نعمة منه على أهل مكة، ونكالا منه لرد من يعتدي على بيته.

ووجه اتصالها بما قبلها: أنه - تعالى - لما ذكر حال الهمزة اللمزة، الذي جمع مالا وعدده، وتعزز بماله وتقوى، عقب ذلك بذكر قصة أصحاب الفيل، الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر أموالاً وعتواً، وقد جعل كيدهم في تضليل.

فمن كان قصارى تعززه وتقويه بالمال، وهمز الناس بلسانه، أقرب إلى الهلاك، وأدنى إلى الذلة والمهانة.

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ

فِي تَضْلِيلٍ ۚ ﴿١﴾

أي: ألم يهلكهم الله - تعالى - ويجعل مكرهم وحيلتهم وسعيهم في تخريب الكعبة ضلالاً منهم، أدى بهم إلى الهلاك فلم يصلوا إلى مرادهم وهدفهم وغايتهم.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۖ﴾

أي: وسلط عليهم جماعات متفرقة يتبع بعضها بعضاً، وهي طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً، مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجران في رجليه، وحجر في منقاره، لا يصيب شيئاً إلا هشمه.

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِيلٍ ۖ ﴿١﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۖ ﴿٢﴾﴾ .

أي: تقذفهم بحجارة من طين طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدرى، وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة. فجعلهم كزرع أكلته الدواب ووطئته بأقدامها حتى تفتت.

والعصف: هو ورق الزرع اليابس الذي يبقى بعد الحصاد.

* وهذه القصة تدل على كرامة الله للكعبة، وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم، فكان الواجب عليهم أن يعبدوا الله ويشكروه على نعمه. وفيها عجائب وغرائب من قدرة الله على الانتقام من أعدائه بأضعف جنوده وهي الطير التي ليست من عاداتها أن تقتل.

قال ابن كثير: إذا تدبرت سياق قصة أصحاب الفيل أدركت أن من أعظم الحكم في تولي الله الدفاع عن بيته حتى لا تكون للمشركين يدٌ على بيته، ولا سابقة في حمايته بحميتهم الجاهلية، حتى إذا ما دعاهم النبي ﷺ لم يكن لهم سبب للاعتزاز بحماية بيت الله، ولذا استفهم التعجب الذي بدئت به السورة، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۖ ﴿١﴾﴾ .

سورة قريش ١٠٦

سورة قريش سورة مكية ، وفي كثير من السور والآيات يعدد الله - عز وجل - نعمه على عباده ليوحدوه ويعبدوه ويعرفوا قدر نعمه عليهم ، وفي هذه السورة يمتن الله - عز وجل - أن جعل بيته الحرام آمناً وأهله كذلك آمنين ، فكان الأمن والاستقرار لهم راحة وطمأنينة ، وسعة رزق ، وغنى ويسر ، ومن ذلك رحلتهم التجارية التي تكون في الصيف إلى الشام ، وفي الشتاء إلى اليمن ، وما يحصل لهم من منافع تجارية وعائدات عظيمة ؛ فكان من الواجب شكر المنعم على نعمه بطاعته وعبادته .

* قال الرازي في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ اعلم أن الإنعام على قسمين : أحدهما دفع الضرر ، والثاني جلب النفع ، والأول أهم وأقدم ، ولذلك قالوا : دفع الضرر عن النفس واجب ، وأما جلب النفع فإنه غير واجب . فلهذا السبب بين نعمة دفع الضرر في سورة (الفيل) ونعمة جلب النفع في هذه السورة ، ولما تقرر أن الإنعام لا بد وأن يُقابل بالشكر والعبودية أتبع ذكر النعمة بطلب العبودية فقال : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا ﴾ .

* قال تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾

[قريش : ٤] .

عَظُمَ نعمة الرزق والإطعام من الجوع ، ونعمة الأمن ، ولهذا خصهما - سبحانه وتعالى - بالذكر وامتن عليهم بذلك . وكانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها على بعضا ، فأمنت قريش من ذلك لمكان البيت العتيق .

سورة الماعون (١٠٧)

سورة الماعون سورة مكية؛ ذكر الله فيها أن الإسلام هو الدين الخالص لله، وأنه أيضاً دين التواصل والتعاطف والرحمة. وقد جمع الله - عز وجل - بين عبادته وبين الرحمة والعطف على الأيتام والفقراء والتذكير بحق المسكين والفقير في هذه السورة.

بدأت السورة بذكر الإحسان إلى عباد الله، ثم ذكرت الإحسان في عبادة الله والإخلاص فيها، ثم ختمت السورة بالحث على الإحسان إلى عباد الله؛ وكأن السورة تشير إلى أن أهل الإحسان إلى عباد الله هم أهل الإحسان في عبادة الله في الصلاة وفي غيرها، وفي الحديث قال ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس».

* قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.

مصلون، يصلون مع الناس، أو أفراداً لكنهم غافلون عنها، لا يقيمونها على ما ينبغي، يؤخرونها عن الوقت الفاضل، لا يقيمون ركوعها ولا سجودها، ولا قيامها ولا قعودها، لا يقرأون ما يجب فيها من قراءة سواء كانت قرآناً أو ذكراً، إذا دخل في صلاته فهو غافل، قلبه يتجول يميناً وشمالاً، فهو ساه عن صلاته، وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله - عز وجل -.

قال ابن عباس: هو المصلي الذي إن صلى لم يرج لها ثواباً، وإن تركها لم يخش عليها عقاباً.

ومن نعم الله - عز وجل - ومن لطفه بخلقه أنه لم يقل: الذين هم في صلاتهم ساهون؛ لأن السهو كثير، والغفلة كثيرة.

* قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿١٠٧﴾.

هم المنافقون، يراءون الناس بصلاتهم إن صلوا، أو يراؤون الناس بكل ما عملوه من أعمال البر ليشنوا عليهم، وهم بهذا لا يريدون وجه الله والدار الآخرة، إنما يريدون المدح والثناء من الناس. ويمنعون إعطاء الشيء الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية، أو الهبة، ويمنعون ما يجب بذله من المواعين وهي الأواني، وما يحتاجه الناس من الدلو والفأس والقدر، وهذا من الشح والبخل وعدم النفع للآخرين، يعني يأتي الإنسان إليهم يستعير آنية فيمنعونها عنه فكيف بما هو أكثر منه، وقيل: يمينون الزكاة المفروضة.

فلاهم أحسنوا في عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، فاستحقوا الوعيد الشديد، وفي هذه السورة الحث على إكرام وإطعام اليتيم والمساكين، والتحضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص فيها وفي جميع الأعمال، وكذلك الحث على فعل المعروف والإحسان إلى الناس وإعانتهم ودفع حاجتهم.

سورة الكوثر (١٠٨)

سورة الكوثر سورة مكية؛ ما أجملها من سورة وأغزر فوائدها على اختصارها، وحقيقة معناها تعلم من آخرها، فإنه - سبحانه وتعالى - بتر شأني رسوله من كل خير.

شملت سورة الكوثر مع قصرها عظيم العظة والعبرة عبر حملها لوعده وتوجيه ووعد، فالوعد بالخير، والتوجيه بالشكر، والوعد بتر الأعداء. وذكر الله - عز وجل - في السورة أنه اختار محمداً ﷺ نبياً ورسولاً واصطفاه على جميع خلقه، وجعل له المكانة العالية الرفيعة، ولما قدم كعب ابن الأشرف اليهودي إلى مكة، قالت قريش له: أنحن خير أم محمد؟ فقال: أنتم خير منه، فأنزل الله في شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّؤَلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

ولما وصف العاص بن وائل النبي ﷺ بأنه أوتر، أنزل الله في شأنه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، ليعظم منزلة النبي، وأنه صاحب الرسالة والمكانة الرفيعة.

وختمت السورة ببشارة الرسول ﷺ بخزي أعدائه، ووصفت مبغضيه بالذلة والحقارة، والانقطاع من كل خير في الدنيا والآخرة، بينما ذكر الرسول مرفوع علي المنائر والمنابر، واسمه الشريف على كل لسان، خالد إلى آخر الدهر والزمان.

* قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿١﴾

[الكوثر: ١ - ٢].

غالب ذكر النعم يختم ويقرن بالشكر.

كل من ابغض الحق وعادى السنة والتوحيد فإنه مبتور ويصاحبه الوصف الذميم، وكل من نصر الدين والتوحيد والسنة ونصر النبي ﷺ يصاحبه وصف حسن.

❖ قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣].

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: فالحذر الحذر أيها الرجل من أن تكره شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ أو ترده لأجل هواك أو انتصار لمذهبك أو شيخك أو لأجل اشتغالك بالشهوات أو بالدنيا فإن الله لم يوجب على أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله.

ولما كانت سورة (التين) بافصاحها ناهية عن مساوىء الأخلاق، كانت بافهامها داعية إلى معاني القيم، فجاءت (الكوثر) لذلك، وكانت (التين) قد ختمت بأنجل النجلاء وأدنى الخلائق: المنع تنفيراً من البخل، ومما جرّه التكذيب، فابتدئت (الكوثر) بأجود الجود: العطاء لأشرف الخلائق، ترغيباً فيه، وندباً إليه، فكان كأنه قيل: أنت يا خير الخلق غير متلبس بشيء مما نهت عنه تلك المختمة بمنع الماعون.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

في الآية الأولى من السورة قرر أنه ليس أبتَر بل هو ﷺ صاحب الكوثر، وفي هذا الآية يرد الكيد إلى كائديه، ويؤكد - سبحانه - أن الأبتَر ليس هو محمد ﷺ، إنما هم شائئوه وكارهوه.

سورة الكافرون ١٠٩

سورة الكافرون سورة مكية ؛ هي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والضلال . ذكر الله - عز وجل - ، فيها أنه لا يجوز صرف العبادة لغيره - عز وجل - ، وقد كان النبي ﷺ يعلن دعوته على الملأ أن لا معبود بحق إلا الله . قيل : إن قريشاً من جهلها وطغيانها دعت النبي ﷺ إلى عبادة أوثانها سنة ، ويعبدون الله سنة ، فأنزل الله هذه السورة ، ولم تكن العرب تجحد وجود الله - عز وجل - وأنه الخالق الرازق المدبر ، لذا فهم يحجون ويتصدقون وينفقون ، لكنهم جعلوا مع الله إلهاً آخر شريكاً له في العبادة . فأنزل الله هذه السورة لتعلن الدين كله لله لا شريك له .

* قال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْوَيْسُ ﴾ [الكافرون : ١] .

اشتملت على التوحيد العملي نصاً وهي دالة على العلمي لزوماً .

و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١] اشتملت على التوحيد العلمي القولي نصاً ، وهي دالة على التوحيد العملي لزوماً . ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهما في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغير ذلك .

* قال تعالى : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : ٣] .

قد يظن الظان أن هذه مكررة للتوكيد ، وليس كذلك لأن الصيغة مختلفة ، أي : لن تعبدوا الله في مستقبل أيامكم ما دتم على كفركم وعبادتكم للأصنام ، فعبادتي ليس كعبادتكم ، وعبادتكم ليست كعبادتي .

سورة النصر ١١٠

سورة النصر سورة مدنية؛ فيها البشارة أن دين الله عزيز منصور على مر الأزمان والعصور، وقد امتن الله - عز وجل - فيها على نبينا محمد ﷺ ومن معه من الصحابة بنصر عظيم، ألا وهو فتح مكة وإزالة الأصنام والأوثان، ودخول القبائل بعد ذلك في دين الله أفواجا، وبهذا الفتح المبين ارتفعت راية الإسلام، واضمحلت ملة الأصنام، وكان الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه بسنوات من أظهر الدلائل على صدق نبوته - عليه أفضل الصلاة والسلام -، وفي هذه السورة الكريمة، بشارة وأمر لرسوله ﷺ عند حصولها، وإشارة وتنبية على ما يترتب على ذلك.

✽ قال سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾ .

أي: ورأيت العرب يدخلون في الإسلام جماعات جماعات، بعد أن كانوا يدخلون فيه أفراداً، فإنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة دخل الناس في دين الله أفواجاً وجماعات حتى كانت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام، والمعنى: إذا نصرك الله - يا محمد - على أعدائك، وفتح عليك مكة.

✽ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ ۝﴾ .

أي: سبحه تسبيحاً، ونزهه تنزيهاً عما لا يليق به؛ مقروناً بالحمد والاستغفار، وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤذن بالتعجب مما يسره الله مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس، وبين الحمد له علي جميل صنعه له وعظيم منته عليه بالنصر والفتح لمكة ودخول الناس أفواجا، وفيه الجمع بين التسبيح والاستغفار؛ إذ في الاستغفار محو الذنوب، وفي التسبيح طلب الكمال.

قال بعض العلماء: إذا أهدم الله على عبد بنعم أن يكثّر من الاستغفار وحمد الله - تعالى -؛ لأن هذا اعتراف بفضل المنعم وطرده العجب عن النفس.

✽ قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾ .

تضمنت ثلاث بشارات، ثم ارشادين بعد تلك البشارات: التسبيح والاستغفار.

✽ قال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُهُ﴾ .

يعني: أسأله المغفرة تواضعاً لله واستقصاراً لعملك، والاستغفار من التقصير في حمد الله وشكره، فجهد الإنسان مهما كان ضعيف محدود، وآلاء الله دائمة العطاء والخير.

وفي هذا إشارة إلى شكر الله على نصره وتأنيده، وإظهار نعمة المنعم على عباده بالنصر والتأييد. وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصلاة والحج وغير ذلك، فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، إشارة إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره بأفضل ما يجده - صلوات الله وسلامه عليه -، فكان ﷺ يتأول القرآن ويقول ذلك في صلاته، يكثّر أن يقول في ركوعه وسجوده «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي» .

✽ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ .

من شأنه التوبة على المستغفرين له، يتوب عليهم ويرحمهم بقبول توبتهم.

قال ابن القيم: كان النبي ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً، وشرع للمتوضئ بعد كمال وضوئه أن يقول: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين»، فعلم أن التوبة مشروعة عقب الأعمال الصالحة، فأمر رسوله

بالاستغفار توفيته ما عليه من تبليغ الرسالة والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجاً، فكان التبليغ عبادة قد أكملها وأداها فشرع له الاستغفار عقيبها.

فإن الاستغفار يتضمن وقاية شر الذنوب، وفي هذا ترغيب في الاستغفار، وحث على التوبة والأوبة، فهو - سبحانه - أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وهذه السورة الكريمة فيها نعي النبي ﷺ ولهذا تسمى سورة «التوديع»، وحين نزلت قال رسول الله ﷺ لعائشة: «ما أراه إلا حضور أجلي»، وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ثم نزلت: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] الآية، فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يوماً.

سورة المسد ١١١

سورة المسد سورة مكية، فيها صور مما لاقاه النبي ﷺ من الأذى والمشقة حين قام بأمر هذا الدين، فإنه ﷺ قام بالدعوة إلى الله خير قيام، وبذل في سبيلها الغالي والنفيس، ولما أنزل الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي ﷺ الصفا فنادى: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: مالك؟ قال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني؟» قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب، وهو عم النبي ﷺ وكان شديد العداوة والأذى للنبي ﷺ، قال: تباً لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله - عز وجل - هذه السورة التي تحدث فيها عن هلاك أبي لهب، عدو الله ورسوله.

* ثم ذكر - عز وجل - امرأته فقال: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ في جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿١﴾ [المسد: ٥-٤].

وكانت تحمل حطب العضاه والشوك فتضعه في الليل في طريق النبي ﷺ الذي يسلك منه إلى بيته ليعقر قدميه، فلما حصل لأبي لهب وعيد مقتبس من كنيته، جعل لامرأته وعيد مقتبس لفظه من فعلها وهو حمل الحطب في الدنيا. قال السيوطي: ما زلت أفحص في القرآن عن دليل على إمالة الأذى عن الطريق حتى وجدته ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ ﴿١﴾ كان من أسباب عذابها وضع الأذى في الطريق.

* وفي هذه السورة آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يُسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

ورد علي النصارى: الزاعمين أن المسيح ابن الله.

وسبب نزولها ما رواه الترمذي عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك؟ أي اذكر لنا نسبه، فنزلت هذه السورة.

❖ قال تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ .

أي: الكامل في صفاته، الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته، السيد الذي كمل في سؤده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والغني الذي قد كمل في غناه، المقصود في قضاء الحوائج وتفريج الكرب وقضاء الحاجات.

والدعاء عبادة عظيمة لا يجوز صرفها لغير الله - عز وجل -، وفي الدعاء من الذل والإنكسار في النفس وانشراح في الصدر، وصبر يسهل معه احتمال الواردات عليه، وهذا نوع من أنواع الإجابة.

وفي الدعاء معنى عظيم من أنواع العبودية وتخليص القلب وتفريغه من التعلق بغيره، والدعاء من أكرم الأشياء عند الله، كما روى ذلك الترمذي أنه ﷺ قال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء».

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ .

لم يتخذ ولداً، وليس له أبناء وبنات؛ لأنه - جل وعلا - لا مثيل له. ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لكمال غناه، ولأنه - عز وجل - هو الأول الذي ليس قبله شيء، فكيف يكون مولوداً.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ .

أي: لم يكن له أحد مساوياً لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، فهو - سبحانه - لا يساويه أحد ولا يماثله، ولا يكافئه ولا يشاركه أحد في شيء من صفات كماله.

❖ وهذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات، وقد جاءت في غاية الإيجاز والإعجاز، وأوضحت صفات الجلال والكمال، ونزهت الله - جل وعلا - عن صفات العجز والنقص.

فقد أثبتت الآية الأولى: الوجدانية، ونفت التعدد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وأثبتت الثانية: كماله - تعالى -، ونفت النقص والعجز ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

وأثبتت الثالثة: أزليته وبقاءه ونفت الذرية والتناسل ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

وأثبتت الرابعة: عظمته وجلاله ونفت الأنداد والأضداد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُدْ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

وفي السورة ثلاثة أسماء من أسماء الله: الله، الأحد، الصمد. فالسورة شاملة جامعة لإثبات صفات الجلال والكمال، وتنزيه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص.

وجاء في الحديث عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «أعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟» قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن» [رواه البخاري ومسلم].

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: فإذا قيل: إن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعدل ثوابها ثواب ثلث القرآن فلا بد من اعتبار التماثل في سائر الصفات، وإلا فإذا اعتبر قراءة غيرها مع التدبر والخشوع بقراءتها مع الغفلة والجهل لم يكن الأمر كذلك؛ بل قد يكون قول العبد: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» مع حضور القلب وإنصافه بمعانيها أفضل من قراءة هذه السورة مع الجهل والغفلة، والناس متفاضلون في فهم هذه السورة وما اشتملت عليه، كما أنهم متفاضلون في فهم سائر القرآن.

سورة الفلق ١١٣

سورة الفلق سورة مدنية؛ ذكر الله - عز وجل - فيها أن الإنسان في هذه الدنيا معرض للابتلاء والمصائب، وقد مر على النبي ﷺ الشدائد والمخاطر في سبيل الدعوة إلى الله - عز وجل -، ومن ذلك أن اليهود سحروه ﷺ، فأنزل الله المعوذتين فقرأهما - عليه الصلاة والسلام -، حتى انحل عنه السحر، فكأنما نشط من عقال ليس به بأس.

وهذه السورة والتي بعدها توجيه من الله - سبحانه وتعالى - للعباد بكنفه واللياذ بحماه، وأن يستعيذوا بجلاله وسلطانه من كل مخوف، خاف وظاهر، مجهول ومعلوم.

والسورة تنقسم إلى أربعة أقسام:

الأول: المستعيز: كل من قرأ السورة بدأ بالنبي ﷺ إلى أن تقوم الساعة.

الثاني: صيغة الاستعاذة: أعوذ.

الثالث: ومستعاذ به: الله ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

الرابع: ومستعاذ منه: أربع أشياء، ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. * قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

وأعوذ به - سبحانه - من شر الليل إذا أقبل ودخل في كل شيء وأظلم. لأن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة، وفيه تنتشر الشياطين، والأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية، ويهجم السارق والمكابر، ويقع الحريق، ويقل فيه الغوث، وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار.

وقيل: أن الغاسق هو القمر.

* قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ .

أي: وأعوذ به من شر النساء الساحرات يعقدن الحبال وغيرها، وتنفث بقراءة مطلسمه فيها أسماء الشياطين على كل عقدة تعقد بقصد السحر.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ﴾ .

الحاسد هو الذي يكره نعمة الله على غيره، مبغض للناس على ما وهبهم الله من نعم، يريد زوالها عنهم، ولا يرضى بما قسمه الله - تعالى - له، فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره وإبطال كيده.

﴿إِذَا حَسَدَ﴾ .

أي: ومن حسد الحاسد، وهي العين التي تصيب المعان، وقد قيدها - سبحانه - بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لأن الإنسان قد يكون عنده حسد ولكن يخفيه، ولا يترتب عليه أذى بوجه ما، بل لا يجد في قلبه شيئاً من ذلك.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: فإن فلق الإصباح بالنور يزيل بما في نوره من الخير ما في الظلمة من الشر، وفلق الحب والنوى بعد انعقادهما يزيل ما في عقد النفاثات، فإن فلق الحب والنوى أعظم من حل عقد النفاثات، وكذلك الحسد هو من ضيق الإنسان وشحه لا ينشرح صدره لإنعام الله عليه، فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشحه، وهو - سبحانه - لا يفلق شيئاً إلا بخير.

* وجاء في الآية ذكر الحاسد دون العائن؛ لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولا بد، وليس كل حاسد عائن، فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته.

واقترن الحاسد والساحر في السورة، لأن مقصدهما الشر للناس.

والعين تكون مع الإعجاب ولو بغير حسد، ولو من الرجل المحب، ومن الرجل الصالح.

وهذه السورة تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة:

الأول: شر المخلوقات التي لها شر عموماً.

الثاني: وشر الغاسق إذا وقب.

الثالث: وشر النفاثات في العقد.

الرابع: وشر الحاسد إذا حسد.

فتضمنت الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه، وأدله على المراد، وأعمه استعاذة، بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما.

قال الحسن بن الفضل: ذكر الله - تعالى - الشر في هذه السورة (الفلق) ثم ختمها بالحسد ليظهر أنه أحسن طبع.

❖ وفي السورة وبدئها ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿١﴾ صفة تفاؤل وتذكير بالنور بعد الظلمة، والسعة بعد الضيق، والفرج بعد الانغلاق، والفلق كل ما يفلقه الله - تعالى -، كالنبات من الأرض، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأولاد، والحب والنوى وغير ذلك، وكله مما يوحى بالفجر المشرق العجيب.

سورة الناس ١١٤

سورة الناس سورة مدنية، فيها الاستجارة والاحتماء برب الأرباب من شر أعدى الأعداء، إبليس وأعوانه من شياطين الإنس والجن، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين من الجن يزين له الكفر والفسوق والعصيان، فعلى المسلم أن يدافع تلك الشياطين وذلك بالالتجاء والاعتصام بالله - سبحانه - ليحفظه ويقيه شرهم، ومن ذلك قراءة هذه السورة العظيمة، وقد ذكر الله في هذه السورة ربوبيته للناس، وملكه لهم، وإلهيته لهم، بإضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم، وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه، ودفع الشر عنهم، وحفظهم مما يفسدهم. وأما إضافة الملك فهو ملكهم المتصرف فيهم، وهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف لهم، المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، والإضافة الثالثة فهو إلههم الحق، ومعبودهم الذي لا إله سواه، ولا معبود لهم غيره. سورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

وتنقسم سورة الناس إلى أربعة أقسام:

الأول: مستعيز: القارئ.

الثاني: صيغة استعاذة: أعوذ.

الثالث: مستعاذ به: برب الناس ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿١﴾.

الرابع: مستعاذ منه: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي

صُدُورِ النَّاسِ ﴿٢﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٣﴾.

وفي سورة الفلق ذكر المستعاذ به مرة واحدة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

الْفَلَقِ﴾، وفي سورة الناس ذكر المستعاذ به ثلاث مرات ﴿بِرَبِّ النَّاسِ

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿١﴾ .

وفي سورة الفلق ذكر المستعاذ منه أربعة أشياء ، وفي سورة الناس ذكر مستعاذاً منه واحد ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ ﴿١﴾ .
 قيل : لأن سورة الفلق فيها فتن الشهوات فذكر المستعاذ به مرة واحدة .
 أما في سورة الناس فأكثر من المستعاذ به لأن المقام مقام فتن شبهات ووسوسة عقدية .

* قال تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿١﴾ [الناس : ١] .

من المعلوم أن الله رب جميع الخلائق ، وإنما قال رب الناس مع أنه رب جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم ؛ ولكون الاستعاذة وقعت من شر ما يوسوس في صدورهم .

قال تعالى : ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ﴿١﴾ [الناس : ٤] .

ولم يقل في (قلوب الناس) ، قال ابن باديس : والسر في التعبير بـ ﴿يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ﴿١﴾ ، بدلاً من (قلوب الناس) لأن القلب مجلى العقل ، ومقر الإيمان ، وقد يكون محصناً بالإيمان فلا يستطيع الوسواس أن يظهره ، ولا يستطيع له نقباً .

* افتتح - سبحانه - كتابه الكريم بالدعاء واختتمه به ، فسورة (الحمد) التي هي فاتحة القرآن الكريم مشتملة على دعاء الله بأجل المطالب وأكمل المقاصد ، ألا وهو سؤال الله - عز وجل - الهداية إلى الصراط المستقيم والإعانة على عبادته ، والقيام بطاعته - سبحانه - ، وسورة (الناس) التي هي خاتمة القرآن الكريم مشتملة على دعاء الله - سبحانه - ، وذلك بالاستعاذة به - سبحانه - من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ، وما من ريب إن افتتاح القرآن الكريم بالدعاء واختتامه به دليل على عظم شأن الدعاء ، وأنه روح العبادات ولبُّها .

* ثم بين - سبحانه - الذي يوسوس بأنه ضربان: جني أو إنسي، فقال:

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ .

أي: من الجن والناس، والوساوس تكون من الجن، وتكون من بني آدم، أما وسوسة الجني فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وأما وسوسة بني آدم فبما يوحى بعضهم إلى بعض من الشر ويزينونه في قلوبهم. والمعنى: من شر الوسواس، ومن شر الناس، كأنه أمر أن يستعيذ من الجن والإنس، والسورة تتضمن الاستعاذة من العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

* وقد جاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب والملك والإله، وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى الخلق وإلى الناس، ولا بد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها.

وقد ورد في سورة الفلق استعاذة القارئ بصفة الربوبية مرة واحدة من أربعة أشياء، بينما يستعيذ في سورة الناس بثلاث صفات لله - جل وعلا - من شر شيء واحد - وهو الشيطان - وما ذاك إلا لشدة خطر الشيطان وكثرة مداخله على الإنسان.

قال شيخ الإسلام: فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عموماً وخصوصاً، ولهذا قيل فيها برب الفلق، وقيل في هذه برب الناس، فإن فلق الأصباح بالنور يزيل بما في نوره من الخير ما في الظلمة من الشر، وفلق الحب والنوى بعد انعقادهما يزيل ما في عقد النفاثات، فإن فلق الحب والنوى أعظم من حل عقد النفاثات، وكذلك الحسد هو من ضيق الإنسان وشحه، ولا ينشرح صدره لأنعام الله عليه، فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشحه، وهو - سبحانه - لا يفلق شيئاً إلا بخير، فهو فلق الأصباح بالنور الهادي، والسراج الوهاج الذي به صلاح العباد، وفلق الحب والنوى

بأنواع الفواكه والأقوات التي هي رزق الناس ودوابهم، والإنسان محتاج إلى جلب المنفعة من الهدى والرزق، وهذا حاصل بالفلق، والرب الذي فلق للناس ما تحصل به منافعهم يستعاذ به مما يضر الناس، فيطلب منه تمام نعمته بصرف المؤذيات عن عبده الذي ابتداءً بأنعامه عليه، وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام القدرة، وإخراج الشيء من ضده كما يخرج الحي من الميت، والميت من الحي، وهذا من نوع الفلق، فهو - سبحانه - قادر على دفع الضد المؤذى بالضد النافع.

وقد جاء في الحديث عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ونفث فيهما وقرأ: «قل هو الله أحد» و«المعوذتين» ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ برأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاثاً» [رواه أهل السنن].

تم بحمد الله وتوفيقه وصلى الله وسلم على
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهرس

٥	صاحب القرآن
٧	المقدمة
٩	وقفات عامة
١٥	تفسير سورة الفاتحة
٢٥	تفسير سورة البقرة
٧٢	تفسير سورة آل عمران
٩٥	تفسير سورة النساء
١٢٦	تفسير سورة المائدة
١٣٧	تفسير سورة الأنعام
١٥٢	تفسير سورة الأعراف
١٧٠	تفسير سورة الأنفال
١٧٩	تفسير سورة التوبة
١٩٣	تفسير سورة يونس
٢٠١	تفسير سورة هود
٢١٣	تفسير سورة يوسف
٢٥٠	تفسير سورة الرعد
٢٥٤	تفسير سورة إبراهيم
٢٦٢	تفسير سورة الحجر
٢٦٨	تفسير سورة النحل
٢٨٥	تفسير سورة الإسراء
٢٩٧	تفسير سورة الكهف
٣١٧	تفسير سورة مريم

٣٤٠	تفسير سورة طه
٣٦٠	تفسير سورة الأنبياء
٣٧٢	تفسير سورة الحج
٣٨٢	تفسير سورة المؤمنون
٣٩٣	تفسير سورة النور
٤١٢	تفسير سورة الفرقان
٤٢١	تفسير سورة الشعراء
٤٢٨	تفسير سورة النمل
٤٤١	تفسير سورة القصص
٤٥٨	تفسير سورة العنكبوت
٤٦٨	تفسير سورة الروم
٤٧٤	تفسير سورة لقمان
٤٨٢	تفسير سورة السجدة
٤٨٧	تفسير سورة الأحزاب
٥٠١	تفسير سورة سبأ
٥٠٨	تفسير سورة فاطر
٨١٨	تفسير سورة يس
٥٢٧	تفسير سورة الصافات
٥٤٢	تفسير سورة ص
٥٥٣	تفسير سورة الزمر
٥٦٥	تفسير سورة غافر
٥٧٦	تفسير سورة فصلت
٥٨١	تفسير سورة الشورى
٦٠٠	تفسير سورة الزخرف
٦٠٦	تفسير سورة الدخان

٦٠٩	تفسير سورة الجاثية
٦١٢	تفسير سورة الأحقاف
٦١٨	تفسير سورة محمد
٦٢٢	تفسير سورة الفتح
٦٢٨	تفسير سورة الحجرات
٦٣٦	تفسير سورة ق
٦٤٦	تفسير سورة الذاريات
٦٥٣	تفسير سورة الطور
٦٥٦	تفسير سورة النجم
٦٦٠	تفسير سورة القمر
٦٦٦	تفسير سورة الرحمن
٦٧٦	تفسير سورة الواقعة
٦٨٥	تفسير سورة الحديد
٦٩١	تفسير سورة المجادلة
٦٩٦	تفسير سورة الحشر
٧٠٥	تفسير سورة الممتحنة
٧٠٩	تفسير سورة الصف
٧١٣	تفسير سورة الجمعة
٧١٧	تفسير سورة المنافقين
٧٢٠	تفسير سورة التغابن
٧٢٣	تفسير سورة الطلاق
٧٢٧	تفسير سورة التحريم
٧٤٢	تفسير سورة الملك
٧٥٢	تفسير سورة القلم
٧٥٧	تفسير سورة الحاقة

٧٦٢	تفسير سورة المعارج
٧٩٦	تفسير سورة نوح
٧٧١	تفسير سورة الجن
٧٧٣	تفسير سورة المزمل
٧٧٨	تفسير سورة المدثر
٧٨٢	تفسير سورة القيامة
٧٨٨	تفسير سورة الإنسان
٧٩٤	تفسير سورة المرسلات
٧٩٨	تفسير سورة النبأ
٨٠٠	تفسير سورة النازعات
٨٠٤	تفسير سورة عبس
٨١٠	تفسير سورة التكويد
٨١٣	تفسير سورة الانفطار
٨١٧	تفسير سورة المطففين
٨١٩	تفسير سورة الانشقاق
٨٢٣	تفسير سورة البروج
٨٢٦	تفسير سورة الطارق
٨٢٨	تفسير سورة الأعلى
٨٣٠	تفسير سورة الغاشية
٨٣٢	تفسير سورة الفجر
٨٣٣	تفسير سورة البلد
٨٣٤	تفسير سورة الشمس
٨٣٦	تفسير سورة الليل
٨٣٨	تفسير سورة الضحى
٨٤١	تفسير سورة الشرح

٨٤٣	تفسير سورة التين
٨٤٥	تفسير سورة العلق
٨٤٦	تفسير سورة القدر
٨٤٧	تفسير سورة البينة
٨٤٨	تفسير سورة الزلزلة
٨٤٩	تفسير سورة العاديات
٨٥٠	تفسير سورة القارعة
٨٥٢	تفسير سورة التكاثر
٨٥٤	تفسير سورة العصر
٨٥٦	تفسير سورة الهمزة
٨٥٧	تفسير سورة الفيل
٨٥٩	تفسير سورة قريش
٨٦٠	تفسير سورة الماعون
٨٦٢	تفسير سورة الكوثر
٨٦٤	تفسير سورة الكافرون
٨٦٥	تفسير سورة النصر
٨٦٨	تفسير سورة المسد
٨٦٩	تفسير سورة الإخلاص
٨٧٢	تفسير سورة الفلق
٨٧٥	تفسير سورة الناس
٨٧٩	الفهرس